الأمير شكيب أرسلان

علق على غوامض
أبحاث المؤلف

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر

تاريخ
ابن خلدون

الأمير شكيب أرسلان / تاريخ ابن خلدون

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١ - ٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١ - ٥/٣١١٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، آذار ٢٠١١

الأمير شكيب أرسلان

علّق على غوامض
أبحاث المؤلّف

تاريخ ابن خلدون

المسمّى بكتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

الدار التقدّمية

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦



كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

مقدّمة الناشر

جاءت تعليقات الأمير شكيب أرسلان على "تاريخ ابن خلدون" ـ الجزء الأول ـ ردًّا انتهى إلى البحث الجادّ في الفلسفة الاجتماعية وتاريخ الأمم، معارضًا بعضًا ممَّن مسَّ جانبًا من هذا العلم، فهو يرى أنَّ أفلاطون عرض "ما يجب أن تكون عليه" المجتمعات، لا ما هي عليه حالها. وأيّد كون ابن خلدون هو واضع هذا العلم من دون منازع، ورأى أنَّ علم الاجتماع هو علم طبيعة العمران ودراسة الأحوال القائمة في المجتمعات، والنظر في تأثير الأقاليم في طبائع البشر واختلاف الأذواق... وانتهى إلى البحث الوثائقي في تاريخ بني عثمان حتّى بداية الحرب العالمية.

وإنَّنا في الدار التقدّمية لَنرى بألاّ مفرّ في كلّ ظرفٍ من قراءة العظماء قراءة متبصّرة واعية، آملين التوصّل إلى إرواء التعطّش إلى العلم من هذا المعين الذي لا ينضب... ونذكّر فقد تنفع الذكرى.

الدار التقدّمية

في ١٤ شباط ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ابن خلدون أمّة وحده

لم نعلم أحدًا من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران، وما يسمّى اليوم بعلم الاجتماع، برغم أنَّ هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفيّة ولا من المباحث التي لا تجول فيها أفكار الحكماء. وقد ثبت أنَّ الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا اليه في تضاعيف مباحثهم، ولكنّهم لم يبلغوا فيه شيئًا من الإحاطة التي بلغها ابن خلدون، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذي جعله في هذا الموضوع نسيج وحده، حتّى ألقى إليه فيه بمقاليد الرئاسة. فهو واضع علم الاجتماع بالإجماع، وهو الذي لم يدع منه غفُلا غير معلَم، ولا شيئًا غير منمنم.

قال البارون المستشرق « كارادوفو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكّرى الإسلام » في الجزء الأول من تأليفه هذا: أنجبت أفريقية الإسلامية اجتماعيًّا من الطبقة الأولى، في شخص ابن خلدون، الذي لم يُعرف من قبله عالمٌ أوتِيَ تصوّرًا عن فلسفة التاريخ أصحّ ولا أجلى من تصوّره، فإنَّ أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها، وكيفية تأسيس الدول، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوّع المدنيات وعوامل نموّها أم تقلّصها، كلّ ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه، وذلك في مقدّمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد في أوربا إلاّ في القرن الثامن عشر، للمسيح أناسًا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ، استخراجه بعد أن كانت أقفالاً مستحجبة تعذّر فتحها، فكان ابن خلدون في العقل والإدراك من فصيلة "مونتسكيو Montesquien" أو الأب "مابلي Mably" وهو من دون شكّ الحدّ الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل "تارد Tarde" أو المستشرق "غوبينو Gobineau" أ هـ.

ثمَّ ذكر صاحب كتاب "مفكّري الأسلام" شيئًا عن حياة ابن خلدون قال: إنَّ الأب

«بورغيس Bargues» قدح في ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة، وزعم أنَّ قاعدته في السياسة كانت التحوّل من حزب إلى حزب أخر بحسب ما كانت تقضي عليه به مصلحته الشخصية، أو اتّقاؤه للضرر، ونسي بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذي يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون. على أنَّ بورغيس نفسه يسمّي ابن خلدون «بالمؤرخ الفيلسوف» برغم ما زنّه به من عدم الثبات.

ثمَّ ذكر «كارادوڤو» كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيرًا عن سلطان غرناطة إلى «بطرة» الغاشم سلطان قشتالة في بعض المهمّات، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده، ولم يحصل من ذلك على طائل، وذكر مجيئه إلى مصر وولايته للقضاء ثمَّ صحبته لسلطان مصر في خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك، ثمَّ ما جرى بينه وبين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالإذن له في الرجوع إلى مصر، توفّي سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن أربع وسبعين سنة. وقال: إنَّه كان رجلاً سرّيًا بهي الطلعة، حسن الصورة والشورَة، خبيرًا بالسياسة، عارفًا بأخلاق الملوك.

ثمَّ قال: إنَّ عمل هذا الكاتب العظيم كان عبارة عن تاريخ عامّ مجموع من كتب كثيرة، ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو «دوسلان De Slane» إلى الإفرنسية، وقدّم عليه مقدّمة تضمّنت فلسفته السياسية. وهذه المقدّمة هي في حدّ ذاتها أنسيكلوبيدية شاملة، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية، والتاريخ نفسه معدود فيها من جملة فروع الفلسفة.

قال ابن خلدون «إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجي وجدنا مهمّته تقيّد الحوادث التي تتابعت على مر الأعصار، وتعاقب الأدوار، ممّا كانت الأجيال الماضية شاهدة له، وإنَّه لأجل سرد هذه الحوادث تنقّحت العبارات، وتطرّز الإنشاء بحليّ البلاغة، وبهذا التاريخ زهت مجالس الأدب، وتداعى إليها الناس من كلّ حدب، والتاريخ هو الذي يعلّمنا كيف تقلّبت الأحوال على جميع الكائنات، وهو الذي منه يعرف بناء الممالیك، وكيفية عمارة الأمّم لهذه الأرض. كلّ أمّة إلى المدّة المقدّرة لها من الحياة، فأمَّا من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ، فأعظم أسراره هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها، والتأمّل في الأسباب التي أنشأتها وفي كيفية جريانها وتطوّرها. فالتاريخ بالجملة إنَّما هو فرع من فروع الفلسفة، وهو جدير بأن يجعل في عداد العلوم الجليلة التي لها المكانة الأولى».

فأنت ترى أنَّ التاريخ في نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها. وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران، وكان ابن خلدون يرى العمران في زمانه قد أجحف به النقصان، وأكدى[1] كما أرى فيذهب إلى أنَّ المدنيّات قد أشرقت شموسها على العالم من مشارق متعدّدة، ولكنّه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور المعالم، فهو يقول: إنَّ العلوم التي وصلت إلينا هي أقل من العلوم التي لم تصل إلينا؛ فأين علوم الفرس، والكلدانيين، والبابليين، والأشوريين، والأقباط القدماء، فإنَّها كلها قد ذهبت. ولم يبق من العلوم التي وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التي انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون في ترجمتها وإنفاقه الأموال الطائلة عليها.

وقد عقّب «كارادوڤو» على كلام ابن خلدون هذا بقوله: إنَّ فيه شيئًا من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تنكر أهمّيتها من معارف الفرس، والهنود واليهود. ولكنّه على كلّ حال كلام يدل على سعة فِطَن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية.

ثمَّ إنَّ ابن خلدون يتكلّم عن الاجتماع البشري فيقول: إنَّ أساس الاجتماع الإنساني إنَّما هو ضعف الإنسان منفردًا بنفسه، فإنَّه إذا عاش وحده فلا يكون مليئًا بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشته، بل لو عاش وحده لَما قدر أن يثبت في وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة. ثمَّ إنَّ الاجتماع يستلزم السلطان الذي هو في الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض، فلا بدَّ فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين، فهذا في الأصل هو منشأ السلطان قال: وهذا غير محصور في الآدميين؛ بل هو يوجد في الحيوانات أيضًا، فقد تحقّق عند بعضها مثل النحل والجراد، وغيرهما؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع، ويكون لصاحب تلك الرئاسة امتياز في الشكل أو بصفة خاصّة في الجسم. والفرق بين الإنسان والحيوان هو أنَّ الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرّد غريزة مركوزة في فطرته، وأنَّ الإنسان ينقاد إلى الرئاسة بناء على تفكّر ورويّة.

وقد أطال ابن خلدون البحث في تأثير الأقاليم بطباع البشر، وأورد على ذلك الأمثال، واستخلص منها أنَّ الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكّانًا، بخلاف الإقليم الأول والثاني والسادس والسابع فإنَّ أهلها يسكنون في بيوت من القصب أو الطين، وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش، وهم في الغالب عراة الأجسام، وإذا اكتسوا فإنَّما يخصفون على أبدانهم

---

(١) أكدى: بَخلَ في العطاء. [المحقّق]

من ورق الأشجار. فأمَّا الأقاليم المتوسّطة فأهلها عندهم مزيّة التعديل في الأمور واتّخاذ الأليق من التدابير، والأليق من مظاهر الحياة. وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهي، والنظام والملك، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسّست الدول والممالك، وسُنّت القوانين، ووضعت العلوم، وتشيّدت الأمصار وغُرست المغارس، وحُرثت المحارث، وتولّدت الصناعات النفيسة، وترفَّهت المعيشة، وإنَّما الأمم التي تُنسب إلى هذه الأقاليم هي العرب، والرومان، والفرس والإسرائيليون، واليونان، والهند، والصين.

وقد أمعن ابن خلدون في البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق في البشر، فهو يتساءل لماذا الزنوج مثلاً تغلب عليهم الخفّة والطرب؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسعودي، صاحب التاريخ المسمّى «مروج الذهب»، فقال: إنَّ هذا يوجد عند الأمم التي يسهل فيها إيجاد الغذاء. وضرب ابن خلدون مثلاً مدينة «فاس» فقال: إنَّها لكونها محاطة بالبلاد الباردة تجد الواحد من أهلها سائرًا وهو مطرق رأسه في الأرض يظهر للناس أنه حزين، وذلك من شدّة تفكّره في العواقب، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزّنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدّة سنين، وهم مع ذلك يذهبون كلّ يوم إلى الأسواق لابتياع لوازم معيشتهم!! ثمَّ قال: إنَّ لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوّعة في طباع البشر، فمن الأقوام من يعيشون في أرضين دارَّة بالخيرات، وتتوافر لديهم الآلات، فتكثر عندهم الحبوب والثمار، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشي وألبانها، وتقلّ عندهم الأخلاط. قال: وإنَّ قلّة الأخلاط تزيد الناس بسطة[1] في العلم والجسم. فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى، وأكثر تناسبًا، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجًا، وأذهانهم أشدّ لحظًا وثقوبًا.

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التي يكمل بها الإنسان. وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسذاجة المعيشة، وبرغم أنه كان مترفًا متبحّرًا في العلوم، عارفًا بقدر الصناعات، تراه يحمد دائمًا معيشة البداوة، ويراها أقرب إلى الطبيعة البشرية، وهو يقول: إنَّ البداوة أصل، والحضارة فرع، وإنَّ الأمصار إنَّما عمرت بأهل البادية، وإنَّ هؤلاء هم أحسن أخلاقًا من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم. والحال أنَّ أهل المدن ينغمسون في النعيم ويتركون لولاة المدن مهمّة حماية أنفسهم وأموالهم، فالمدن

(١) توسّعًا. [المحقق]

والحواضر تعيش في ظلال حامياتها وأسوارها، بينما سكّان البوادي يأنفون من السكنى وراء الأسوار، وتحت خفارة الجنود، ويرون أنفسهم أكفّاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم، وهم دائمًا على حذر شديد لا يعرفون النوم إلاَّ غرارًا، لأنهم أبدًا يلقون السمع حتّى إذا سمعوا أقل نبأة هبّوا مستعدّين لمقابلة الخطر الواقع، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة.

والذي يظهر من كلام ابن خلدون، أنه كان نزّاعًا إلى المجد، ميّالاً بطبيعته إلى الاستقلال وشمم الأنف، وهو يقول: إنَّ الشعوب لا ينبغي أن تكون على العموم سلسة القياد، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك، ويقول أيضًا إنَّ القبائل التي ليس لها حظّ من المدنيّة هي أقوم على فتح الفتوحات من غيرها، ولقد ساق الله تعالى بني إسرائيل إلى الصحراء وأخّرهم في بادية التيه أربعين سنة حتّى يعتادوا الاستقلال ويتمكّنوا من فتح أرض الميعاد. وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثمَّ تكتمل ثمَّ تدخل في سن الشيخوخة ـ أي تهرم ـ ثمَّ تأخذ بالتردّي ـ أي أرذل العمر ـ وهو يعرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها، وهنا قد قصّر ابن خلدون كثيرًا من آماد الدول. ثمَّ يقول: عندما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادي إلى الحواضر، ويأخذون بعادات أهلها الذين يكونون تغلّبوا عليهم. فلما تغلّب العرب على فارس، وكانوا يجهلون مآخذ الحضارة ومنازعها، قيل إنَّهم وجدوا في مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها، ووضعوا الكافور في العجين مكان الملح، ثمَّ تعلّموا دقائق المدنيّة شيئًا فشيئًا من الفرس، ولكن هذه الخشونة لا يطول في العادة أمرها، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف، ولا يلبثون أن يتأنّقوا في المأكل والمشرب، والملبس والمفرش، والمركب واتّخاذ الآنية النفيسة، وامتهاد البسط الوثيرة، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بدّ من أنواع الصناعة، وإتقان الفنون وكلّ ما تعدّدت أسباب الترف تعدّدت الصناعات بقدرها.

قال: وإذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف، وأخذ حكام الأطراف بالتمرّد عليها. والخروج عن طاعتها. وقال: إنَّ تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر، وذلك لأنَّ بناء المدن يستلزم إيجاد الصنّاع، والعمَلة الذين لا مفرّ لهم من أن يفيئوا إلى ظل نظام ثابت. وهنا يتكلّم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة ويقول: إنَّ تقدّم الصناعة إنّما يكون على نسبة استبحار العمران ويقول: إنَّ الصناعات المبنيّة

على الضرورات كالخياطة والحدادة والنجارة...إلخ، تتيسّر في كلّ مكان. ولكن الصناعات التي تتعلّق بالترف لا توجد إلاَّ في المدن التي قد زخر عمرانها، ففيها تجد الصاغة والزجّاجين والعطّارين والطبّاخين، وما أشبه ذلك. وفي المدن وحدها توجد الحمّامات التي هي من لوازم الترف ورفاهة المعيشة.

قال كارادوڤو: إنَّنا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون في جميع آرائه وتعليلاته العلمية للقضايا التي تلقّف كرة البحث عنها، ولكنّه على كلّ حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادئ ملازمًا لتحقيقاته، وفي الغالب كان على أثر سديد وكانت له نظرات صائبة، وكثيرًا ما يأتي في مباحثه بالأدلة المقانع والشواهد على آرائه، وقد يستشهد بالكتب التي يستظهر بها ويسمّيها ويذكر أسماء العلماء الذين يتوكّأ على أقوالهم. فمقدّمة ابن خلدون تشتمل على مباحث قيّمة في السياسة، والزراعة، والتجارة، والنساجة، والخياطة، وفن البناء، والطب، والتوليد، وغيرها، وكذلك تبحث في الموسيقى والوراقة، والعلوم القرآنية، والعلوم العددية، والجبر، والهندسة، والفلك، والكيمياء، والمنطق، والنحو، والبيان، ...إلخ. فهذا التنقيب الذي نقّبه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها في جميع مناحي العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الإفريقي الذي عاش في القرن الرابع عشر نَدًّا لأعظم فلاسفة أوربا الحديثة، انتهى ملخّصًا.

ولنذكر الآن على وجه الإجمال مَنْ مِن الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول:

إنَّ القسم السياسي من فلسفة أفلاطون يمسّ جانبًا من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، وكذلك يمسّها من جهة ثانية القسم القضائي الحافظ للمجتمع الإنساني الكافل لانسجامه. وهو يرى أنَّ المدنيّة العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلّف من عناصر مختلفة ». وفي كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشري يقول فيه: إنَّ المدنيّة إنَّما هي وليدة الحاجة، وهي في الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها. وإنَّ هذه الوسائل لا تتهيأ إلاَّ بتوزيع الأعمال. فمتى اجتمع عدّة أشخاص كلّ واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج إليه الآخرون فهذه هي المدنيّة، وكلّما اختصّ الواحد منهم بشيء كان عمله له أكثر تجويدًا لما يكون سبق من مرانة له. إذ المدنيّة ليست مجتمع أشخاص متماثلين متساوين في كلّ شيء؛ بل هي بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا

سواسية. والوظائف تزداد صعوبة كلما اتّسعت رقعة المدنيّة وازدادت حوائجها. فبجانب الزارع مثلاً يأتي المتخصّص بعمل السكك الزراعية، وبجانب أصحاب المحاصيل تأتي الطبقة القائمة بالأخذ والعطاء في البرّ والبحر. وهذا اتّقان للعمل وإكمال له، ولكن المبدأ الأصلي واحد. ثمَّ إنَّ هذه المهن تتميّز بعضها عن بعض بسعة المجتمع، ويصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصنّاع تشتغل بسد الحاجات المادية، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة، إذا اعتدى عليها جيرانها، وطبقة الحرّاس أو الحفَظَة تهيمن على إجراء القوانين، فهذه الطبقات الثلاث أي المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كلّ مدنيّة.

ويقول أفلاطون: إنَّه لا يجوز استغلال مدنيّة لفائدة شخص واحد؛ وإنَّ المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة، وإنَّما هو إسعاد المدينة بأجمعها. فكلّ فرد من سكانها عليه واجب يقوم به، فإذا قام به فهذا هو العدل. ومن رأي أفلاطون أنَّ احتياجات المجتمع المنظّم يجب أن يُنظر فيها إلى طبيعة الخلق، إذ مهما كان الثِّقاف(1) ذا تأثير، فإنَّ الأصل هو فطرة المخلوق، وذلك كحب الكسب عند الصانع، وعلوّ الهمّة عند الجندي، والحكمة والرويّة عند الحاكم.

ولأفلاطون مذهب آخر وهو: إنَّ أقسام هذه الغرائز في البشر هي تحت تأثير البيئات التي يعيشون بها، فالعلوم الحسابية التي تدرِّج بعض الناس إلى الفلسفة هي عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة في التحيّل لا في العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأي إلاَّ تعسّفًا.

ويوصي أفلاطون كثيرًا باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة، وسهولة الفهم، وتغلّب العقل على الهوى، وشرف النفس، والإقدام، وحسن الذاكرة ...إلخ.

ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلِّد كلّ منهم ما هو أهل له فيجوّده ويحصر حركته في هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره. وإذا تأمّل القارئ في عقليّة أفلاطون الاجتماعية وجدها داخلة في علم النفس، وفي علم الأخلاق، فهو يذكر الأحوال لا على ما تكون عليه في الغالب، بل على ما يجب أن تكون عليه.

فالأساس عند أفلاطون هو أدبي محض، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليّات الطبيعية في البشر حتّى يأتي العمل أجود ما يمكن. إلاَّ أنَّ أفلاطون يعتقد بأنه لا بدَّ

(1) الخلاف. [المحقق]

من اختلال النظام شيئًا فشيئًا، وعند ذلك فلا مفر من التردّي؛ ويدخل أفلاطون حينئذ في شرح كيفيّة الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الأخلاق ممّا لا يلزم أن نستوفيه هنا، لأننا لم نقصد إلاّ إجمالاً. وإنّما نذكر شيئًا ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجز للمدنيّة عن التردّي، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح، إنّما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء، وهو على حدّ ما قال بعضهم: لا تبلغ المدنيّة السعادة إلاّ إذا كان الفيلسوف ملكًا، أو الملك فيلسوفًا.

ومن رأي أفلاطون أنّ كلّ صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطوارئ وإنّ السياسة بنوع خاصّ لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بها في كلّ زمان ومكان. ويترتّب على رأي أفلاطون هذا أنّ رجل الدولة يكون أحيانًا فوق القواعد والأوضاع.

وأمّا أرسطو فعنده تفسرة المدنيّة أنها مجمع منازل وعائلات تتوخّى في معيشتها السعادة والاستقلال. وهو يخالف أفلاطون في حصره المدنيّة بتوزيع الأعمال ومجرّد المبادلة، ويقول: إنّ الاجتماع لم يكن للحياة المجرّدة، بل للحياة المرفّهة، وإنّ علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الكافلة للوصول إلى هذه الغاية، وهو يأتي بمباحث تاريخية عن كيفية تولّد المدن والمدنيّات. ومن رأيه أنّ الاستقلال الزراعي هو شرط في صحّة الأخلاق، وأنه كلّما استقلّت مملكة عن غيرها في احتياجاتها المعاشية استقلّت في أمورها السياسة والعكس بالعكس، وكلّما كثر أخذ المملكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسي وتعرّضت للحروب، وهي حقيقة قد انطبخت حتّى احترقت، وقضيّة قد ابتقرت حتّى انفلقت، فالأمّة التي ليس لها استقلال اقتصادي هيهات أن يتمّ لها استقلالٌ سياسي.

وممّا يذهب إليه أرسطو أنّ الرقّ أمر طبيعي لا ينبغي التعجّب منه، وأنّ الطبيعة في قسمتها البشر إلى طبقتين، سادة وأرقّاء، ليست ظالمة ولا مستبدّة. قال أرسطو: وإنّه يوجد في آسيا في الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر، لكنّهم مجرّدون من العزم، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقّاء! وقال: إنّ مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذي يمكنه أن يولّد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم، فاليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية.

ولقد بالغ أرسطو في ذلك أشدّ المبالغة ورأى الناس في رأيه هذا مجرّد تسويغ وتصويب لفتوحات صاحبه الأسكندر في الشرق.

أمَّا اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال إقليم يونان فلا نزاع فيه، ولهذا كثُر فيهم الحكماء، وغلبت عليهم العلوم، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو:

«الأقليم الرابع أعدل العمران، والذي حفَافَيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال، والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال، وسكّانها من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتّى النبوّات فإنَّما توجد في الأكثر فيها. ولما نقف على خبر بعثة في الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التي فيها الحرّ الزائد، وذلك لأنَّ الأنبياء والرسل إنَّما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وخلقهم» اهـ.

هذا وأنَّ أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية، وهي أنه لا بدَّ لكل عائلة من رأس، وأنَّ هذا الرأس هو الرجل الذي يدبّر النفوس القاصرة، أي نفوس النساء والأولاد. ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقّاء، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة. ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة، بل كان حكمه عليها حكم الوالي على رعيّته، وفي العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنيّة.

ثمَّ إنَّ أرسطو لا يعد في الوطنيين الأحرار طبقة الصنّاع والأكَرَةَ، بل يقول إنَّ أعمال هؤلاء خسيسة وليس عندهم من الوقت متّسع لممارسة الفضيلة، وللاشتغال بسياسة المجتمع. وهذا القول مردود من جهة شقّه الأول، وهو ممارسة الفضيلة التي تكون عند الصنّاع والزرّاع، كما تكون عند غيرهم. ولكنّه مقبول من جهة شقّه الثاني، وهو الأشغال بسياسة المجتمع، فإنَّ هذه الطبقات قلّما تشتغل بها.

وتعريف أرسطو للديمقراطية هو هذا: إنَّها توجد حيث يكون الرجالات الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور، وإنَّها حيث توجد توأمين: الحرّية والمساواة. قال: وعكسها حكم الأُصَلاَء والأغنياء. وقال: إنَّ الفروق الكبيرة في الثروة تؤدّي إلى الحكم المطلق المنحصر في بعض البيوتات، وأنَّ الغاية المقصودة من بناء المدنيّة هي تأمين سعادة السكّان وتمكينهم من ممارسة الفضائل، والتحلّي بمكارم الأخلاق، وذلك لا يكون إلاَّ بخضوع الجميع للقوانين. وهذه القوانين لا تنفّذ جيدًا إلاَّ ببعض شروط اقتصادية لا مناص منها ممّا يعود بترفيه الطبقات الوسطى التي لا تقدر أن تعيش إلاَّ من كسب أيديها. فهي

بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين، ولا تقصد الاجتماعات الشعبية إلاَّ عند الضرورة. أمَّا إذا وجد في المجتمع من يستغني عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه، فإنَّ الديمقراطية تضعف في مجتمع كهذا، وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين.

ولقد تكلّم أبو نصر محمَّد بن محمَّد بن نصر الفارابي في مبادئ العمران أيضًا وأجاد وأفاد، ونقل «كارادوڤو» أكثر نظرياته السديدة في المدنيّة. ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفّي بعد زمن الفارابي بقرن واحد قال:

أبو نصر محمَّد بن محمَّد بن نصر الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة، أخذ صناعة المنطق عن يوحنّا بن جيلاني المتوفّي بمدينة السلام في أيام المقتدر، فبذّ جميع أهل الإسلام فيها، وأتى عليهم في التحقّق بها، فشرح غامضها، وكشف سرّها وقرّب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبّهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل، وأنحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس، وأفاد وجود الانتفاع بها، وعرّف طرق استعمالها، وكيف تصرف صورة القياس في كلّ مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية، والنهاية الفاضلة. ثمَّ له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم[1] والتعريف بأغراضها لم يُسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغنى طلاب العلوم كلّها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه. وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس[2] يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة، والتحقّق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلّم طريق النظر، وتعرّف وجه الطلب. اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علمًا علمًا؛ وبيّن كيفية التدرُّج من بعضها إلى بعض شيئًا شيئًا (إلى أن يقول): ثمَّ له بعد هذا في العلم الإلهي والعلم المدني كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بـ «السياسة المدنيّة» والآخر المعروف بـ «السيرة الفاضلة»[3] عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطاطاليس في مبادئ السنّة الروحية، وكيف تؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتّصال الحكمة، وعرّف فيها بمراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرّق بين الوحى والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة واجتياح المدنيّة إلى السير والملوكية، والنواميس النبوية. انتهى. ولكن ليس هؤلاء واحد لا أفلاطون ولا أرسطو

(١) وقد طُبع في مصر حديثًا.
(٢) وهو مطبوع في مصر أيضًا.
(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة.

ولا الفارابي يُعَد واضعًا لعلم فلسفة التاريخ الذي هو حقّ وليّ الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب، بل مفخرة المغرب، بل مفخرة الإسلام كله.

ولقد كان لمحرّر هذه السطور من أول ما بلغت سنّ الحلم ولوعٌ خاصّ بمقدّمة هذا العبقري العظيم، إلى أني كنت أطالعها المرّة بعد المرّة، وفي كلّ مرّة أجد لها طلاوة لا تُمثّل وأكشف فيها أسرارًا جديدة لم تكن انكشفت لي في الأول، وأشرف منها على آراء طريفة، ومباحث لطيفة، كنت أحاول عبثًا العثور عليها في غير هذه المقدّمة، التي لا تخلق ديباجتها ولا تذهب بهجتها. وكأني استبرأت بطول الزمن الكتب العربية المعروفة فكنت أرجع في النهاية إلى مقدّمة ابن خلدون، ولا أجد أمنيتي إلاَّ فيها، ولا أزال أستوري زنادًا لا يلمع إلاَّ من خلال ذلك الخاطر، وأستسقي غيثًا لا يمطره غير ذلك العارض، ولم يكن إعجابي بما في كلام ابن خلدون من مبادئ سامية، وأقوال سديدة، وأنظار فريدة، يعزّ وجودها في كتب غيره من أساطين الحكمة؛ بأقل من إعجابي ببلاغة عبارته، ورصانة أسلوبه، وجلالة تقريره، حتّى كأنه يخطب من فوق منبر، ويصول في المواضيع صولة غضنفر، فينزل بيانه من نفوس الأدباء ـ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ المنزلة التي لا تعلوها منازل الأقمار، في أعين السمّار. فلو قرأ المتأدّب مقدّمة ابن خلدون، متوخيًّا فيها مجرّد الانطباع على أسلوبها في الإنشاء العربي دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية، وتحقيقات سنيّة، وعلوم جمّة ملخّصة، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة، لكانت مقدّمة ابن خلدون تكفيه عمدة في فن الأدب، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب، ولعل عشقي أسلوب هذا الإمام في كتابة التاريخ، وغرامي بطريقته في تعليل النوازل، وتقرير طبائع العمران، قد ترك أثرًا في ملكتي بلغ من العمق أنه قلّما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري والأفضاء بجلاجل نفسي، وخوانس صدري، إلى أنَّ إمامًا مثل السيِّد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأنَّ أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون. أقول هذا وإن كان المشبّه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول. ولقد أولعت بهذه المقدّمة شابًا وكهلاً وشيخًا، وبقيت أنظر إليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها، ولكني لم أكن مطالعًا من التاريخ الكبير إلاَّ لمحات يسيره، وربّما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر ممّا طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير، فما زال يحزّ في صدري أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقّق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق، وعُدَوَاء الأشغال تعدو عن هذه الأمنية، وتحول بيني وبين هذا الغرض

المُلِحّ، والوجد المبرح، إلى أن جاءني في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن الكتبي النبيه الساعي في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمَّد المهدي الحبابي » أخذ الله بيده، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة، رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرّزة بالحواشي القيّمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم، مستجيدًا لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرّح عن مداهما البعيد، وتكاد فحول العلماء لا تحشر معهما في صعيد، أعني كلا من المحقّقين الكاملين، والجهبذين الحافلين، السيِّدين محمَّد علال الفاسي الفهري، وعبد العزيز بن أدريس زيّن الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامها مربع العربية إذا جَدَب، فتلقّيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر، وصرت أترقّب طلوع هذا الفجر بذاهب الصبر، وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدني أن أعلّق أنا أيضًا على هذا التاريخ حواشي بما يعنّ لي من آراء وأنحاء متّصلة بمواضيعه، أخالف فيها المؤلّف أو أوافقه. وأفارقه في وجهة النظر أو أرافقه، وأُبدي من النظريات العصرية في علم الاجتماع ما تمَّ به فوائد هذا الكتاب وتتجلّى حقائقه.

وقد صادف مجيء هذا الاقتراح أني كنت من « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » في شغل شاغل عما سواها أكاد أنوء بها وحدها فضلاً عن أن أتعدّاها فاعتذرت عن خوض هذا البحر العجاج وقلت: من ذا الذي يجري مع ابن خلدون إذا أقرَّ أُنْمُله على مَهْرَق، وقد خاب من يساجل البحر الخضمّ، ومن يزحم البحر يغرق. فما زال بي إبرام الأخوان وإصرارهم، وإيرادهم في هذه الحاجة وإصدارهم حتّى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلّق بعض الحواشي على بعض المظان، مجتزئًا من البحث بالمختصر المفيد، ومكتفيًا من القلادة بما أحاط بالجيد، ولمّا كان قد ورد في متن المؤلّف ذكر الأمم الكبار، ومن جملتها أمّة الترك علّقت تحت هذه اللفظة خلاصة صافية في نسب هذه الأمّة وأوّلياتها ومصايرها، ثمَّ لمّا كان لا بدَّ في هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بني عثمان الذين تحمّلوا أعباء الخلافة الإسلامية ردحًا من الدهر، دخلت في هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الإجمال سبيلاً، فإذا بي مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلّص من هذا التاريخ إلاَّ في مجلّد كبير، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة، كانت من أعظم دول الأرض، وشجت عروقها، وامتدّت شماريخها، من حدود المغرب الأقصى غربًا إلى بحر الخزر شرقًا، ومن أواسط أفريقية جنوبًا، إلى ألمانيا وبولونيا شمالاً، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار، شاغلة ما بين دفتي الليل والنهار، فمضيت فيه متوكّلاً على

الله، من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخيًّا في الوصف الحدّ المتوسّط، متجانفا عن خطّتي المفرط والمفرّط، ولا أظن كتابًا قد وُضع في العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب، لا سيَّما في العصر الحاضر. فأمَّا القسم المتعلّق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى، ريثما أكون عرفت ما يجب أم أملكه في هذا الموضوع من المواد، وأسلكه من الجواد، والله أسأل العون والتيسير، إنَّه تعالى من وراء السداد.

جنيف، ٢٦ شعبان المعظّم ١٣٥٥ — شكيب أرسلان

الصقالبة *

الصقالبة هم الأمَّة التي يقال لها السلاف، وهم أمَّة عظيمة من الأمم التي يقال لها هناك «الڤند» أو «الڤنيد» Wendes ou Wenedes واستقر آخرون على شواطئ البحر الأسود وضفاف الطونة، ويقال لهؤلاء «يازيج Jazyges» و «باستارن Bastarnes» و«روكسولان Roxolans» وأول من سماهم السلاف «چورناندس» المؤرّخ القوطي، ومعنى السلاف الشرفاء، وقد انتهى هذا المعنى بأن يفهم منه الأمم المستعبَدَة، وانقلب عن معناه الأصلي فجاء من لفظة السلاف «Slaves» لفظة إسكلاف «Esclave» ومعناها عبد. وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف ينقسمون إلى سلاف غربيين وهم التشيك الذين سكنوا بوهيميا، والبوليز الذين سكنوا بولونيا، والليتون أهل ليتوانيا، والموراڤ أهل موراڤيا، والسوراب أهل بوميرانيا وبراندبورج، والسلاف الشماليون: وهم الذين منهم الشعب الروسي، والسلاف الجنوبيون: وهم الذين عبروا الطونة وسكنوا على شطوط بحر الأدرياتيك، وهم البشناق، والصرب، الحزوات، والأسكلاڤون.

وأول ما عرف العرب هذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكانت كثيرًا ما تمدّ سلطانها على السلاف الجنوبيين، ولمّا كان العرب لا يوجد عندهم حرف الڤاء الفارسية، وكانوا يقلبونها باء، فلفظوا الأسكلاڤون أصقلابون، ومنها جاءت لفظة صقلبي وصقالبة. ولمّا كانوا في القرون الوسطى يسترقّون منهم فقد صار الصقلبي بمعنى رقيق كما هو في اللغات الإفرنجية. وقد جاء في اللسان العربي أنَّ الصقلاب هو الرجل الأبيض، وقيل هو الرجل الأحمر، وأنه قيل له صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة كما في معجم البلدان، وقال المتنبي في وصف حرب بين سيف الدولة وملك الروم:

يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها وتجمع الآجالا

فمن هنا يعلم أن الصقالبة والبلغار مثل اليونان كانوا يخضعون لملك الروم، وأنَّ العرب القدماء لم يكونوا يقولون «سلاڤ»، بل صقالبة للجميع، سمّوا الجميع باَسم البعض الذين كانوا على شطوط الأدراياتيك، والآن الصقالبة هم الروس، والأوكرانيون

* تعليق على ما جاء بسطر ١٥ ص.١٠، ج١ من ابن خلدون.

والروتينيون، والروس البيض، ويقال لهم صقالبة الشرق. وقسم من البلغار، وجميع الصرب، والخروات، والبوشناق، والسلوڤين، ويقال لهم صقالبة الجنوب والبولونيون، والڤنيد، والسلوڤاك، والتشيك ويقال لهم صقالبة الغرب، وأكثر الصقالبة تابعون للكنيسة الشرقية، ما عدا البولونيين والتشيك والسلوڤين والخزوات فإنَّهم كاثوليكيون، ومن الصقالبة مسلمون وهم البشناق.

إغريقية هي ما يسمّيه الأوروبيون «إغريق» والأفرنسيس يقولون «غريس» والألمان يقولون «غريش». وهي تطلق على البلاد الممتدة من شبه جزيرة البلقان إلى الجنوب بين بحري إيجه والإدرياتيك، فهي شبه جزيرة صغيرة ناتئة عن شبه جزيرة كبيرة. والقسم الشمالي منها يقال له تساليا والقسم الجنوبي يقال له بيلوپونيز. ومن جملة أقسامها البلاد المسمّاة إيبر، وبيوسية، وإيونية، وأتيكيا، على جانب البحر. ولمجاورة أيونية والأتيك للبحر كانتا أول البلاد اليونانية التي تلقّت المدنيّة من الشرق، فإنَّ الشرق هو أصل مدنيّة اليونان، ومن لفظة يونية جاءت لفظة يونان التي عمّت الجميع فيما بعد في عرف العرب.

ويقال لليونان الهيلانيون أيضًا، ولا يوجد أعرق في الظلمة من تاريخ أوائل اليونان، إلاَّ أنَّ المؤرّخين بحسب ما عثروا عليه من الآثار يؤكّدون أنَّ اليونانيين هم من أصل آري، وأول اسم عرف من أسماء الأوّلين من سكّان هذه البلاد هو اسم البيلاجيين «Pélasges» ثمَّ عرفت أسماء الليليجيين «Leléges» والكاريين «Cariens» ثمَّ «الآشيين Acheens» ثمَّ «الدُوريين Doriens».

* * *

الأنساب *

إنَّ علم الأنساب هو العلم الذي يبحث عن تناسل القبائل والبطون من الشعوب، وتسلسل الأبناء من الآباء والجدود، وتفرّع الغصون من الأصول في الشجرة البشرية بحيث يعرف الخلف عن أي سلف انحدر، والفرع عن أي أصل صدر، وفي هذا العلم من الفوائد النظرية والعملية، بل من الضرورات الشرعية والاجتماعية والأدبية والمادية، ما لا يحصى. فليس علم الأنساب بطراز مجالس يتعلّمه الناس لمجرّد الاستطراف أو للدلالة على سعة العلم، وإنَّما هو علم نظري عملي معًا. عملي لأنه ضروري لأجل إثبات المواريث التي يتوقّف توفيرها لأهلها على ثبوت درجة قرابة الوارث من الموروث، وهذا لا يكون إلاَّ بمعرفة النسب.

وكذلك هو ضروري لأجل الدول الراقية المهذّبة التي تريد لأن تعرف أصول الشعوب التي اشتملت عليها ممالكها، والخصائص التي عرف بها كلّ من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها، فكما أنَّ العالم المتمدّن يعني بتدريس جغرافية البلدان من جهة أسماء البلاد ومواقعها وحاصلاتها وعدد سكّانها ومقدار جباياتها، فإنَّه يجب أن يُعنى بمعرفة أنساب أولئك السكّان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كلّ جماعة منهم، وغير ذلك من المعارف التي لا يجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية، ولما كان من الحقائق العلمية الثابتة المقرّرة عند الأطباء والحكماء، كما هي مقرّرة عند الأدباء والشعراء، أنَّ الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحّية، والدماء الجارية في العروق، فقد كان لا بدَّ من معرفة الأنساب حتّى يسعى كلّ فريق في إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب استعدادها الفطري، لأنَّ الاجتهاد في تنمية القرائح الطبيعية والمواهب اللدنية لا يمكن أن يثمر ثمره في قبيل إذا جاء معاكسًا لاستعداده الفطري وهذه الاستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب.

وليس هذا العلم منحصرًا في العرب ـ كما يتوهّم بعضهم ويظنون أنَّ سائر الأمم قليلة الاحتفال به ـ فإنَّ الأمَّة الصينية الكبرى هي أشدّ الأمم قيامًا على حفظ الأنساب، حتّى أنهم

* تعليق على ما جاء بسطر ٧ ص. ٢، ج١ من ابن خلدون.

ليكتبون أسماء الآباء والجدود في هياكلهم، فيعرف الإنسان أصوله إلى ألف سنة فأكثر. وقد تناهوا في الاعتناء بهذا الأمر إلى أن قدّسوا آباءهم وجدودهم، وعبدوهم كما يعبدون آلهتم. وكذلك الإفرنج كانت لهم عناية تامّة بالأنساب في القرون الوسطى والأخيرة، وكانت في دولهم دوائر خاصّة لأجل تقييدها وضبطها، ووصل آخرها بأولها، وقد بقى ذلك معمولاً به إلى أن ساد الحكم الديمقراطي في أوروبا فضعف عندهم الاعتناء بهذا الأمر بإلغاء الامتيازات التي كان يتمتّع بها النبلاء، وكانوا يدقّقون في الأنساب من أجلها، وبقى الاهتمام بالأنساب من الجهة العلمية لا العملية.

فأمَّا العرب فلا شكّ في أنهم في مقدّمة الأمم التي تحفظ أنسابها، وتتجنّب التخليط بينها، فلا تجعل الأصيل هجينًا، ولا الهجين أصيلاً، ولا تحتقر قضيّة الكفاءة في الزواج، بل تعض عليها بالنواجذ. ولا يقيم العربي وزنًا لشيء بقدر ما يقيم للنسب لا سيَّما في البوادي التي اقتضت طبيعة استقلال بعضها عن بعض، وتنافسها الدائم فيما بينها؛ أنَّ كلّ قبيلة فيها تعرف نفسها، وتحصي أفرادها، وتحفظ بطونها وأفخاذها حتّى تكون يدًا واحدة في وجه من يعاديها من سائر القبائل. فاقتضى ذلك أن يكون العرب علماء بأنسابهم، يحفظون سلاسلهم العائلية بصورة مدهشة لا تجدها عند غيرهم، فتجد البدوي أحيانًا يجهل أقرب الأمور إليه، ولكنّه إذا سألته عن أبيه وجدّه ومنتسبه فأنه يسرد لك عشرين إسمًا ولا يتتعتع.

وأمَّا في الحواضر فليس الأمر بهذه الدرجة من الضبط، وذلك لعدم الاجتياح الذي عليه البوادي من هذه الجهة، فإنَّ الحواضر مشغولة بصناعاتها ومهنها ومتاجرها ومكفولة بالسلطان الذي يغنيها عن تماسك الفصيلة أو القبيلة، وعن اعتناء كلّ فريق بجمع أفراده ليقف في وجه عدوه. وكلما استبحر العمران في مصر من الأمصار قلَّ الاعتناء بالأنساب، وصار الناس ينسَبون إلى حرفهم ومهنهم، أو إلى البلاد التي جاءوا منها. وكلّما قرب المجتمع من حال البداوة اشتدّت العناية بالأنساب، واستفحلت العصبيّات التي هي من طبيعة الاعتناء بالنسب. وقولنا إنَّ البوادي أشدّ من الحواضر عناية بهذا الأمر لا يعني أنَّ الحواضر العربية لا تقيم للأنساب وزنًا، فالعرب غالب عليهم الاحتفال بالنسب حاضرهم وباديهم، وأبناء البيوتات منهم، ولو كانوا في أشدّ الحواضر استبحار عمارة يحفظون أنسابهم ويقيدونها في السجلات، وكثيرًا ما يصدّقونها لدى القضاة بشهادات العلماء الأعلام والعدول، ويسجّلونها في المحاكم الشرعية. وإذا كانوا من آل البيت النبوي ـ وهو أشرف

الأنساب بالنظر إلى اتّصالهم بفاطمة الزهراء التي هي بضعة الرسول عليه السلام، وهو أشرف الخلق - حرّروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف، وكتبوا به الكتب المؤلّفة، وهذا أمر بديهي لا نزاع فيه، لأنَّ هذا الشرف هو ممّا يُتنافَس به، وممّا يستجلب لصاحبه مزايا معنوية، وأحيانًا منافع مادّية، فلا يريد منتسب إلى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه. ولئن كان البيت النبوي هو أشرف الأنساب بالسبب الذي تقدّم الكلام عليه فليس سائر بيوتات العرب من ذراري الملوك والأمراء، والأئمّة والعلماء والأولياء بأقلّ حرصًا على حفظ أنسابهم من آل البيت الفاطمي. وجميع قريش مثلاً سواء كانوا من الطالبين أو من غيرهم يفتخرون بنسبهم القرشي، وكذلك ذراري الأنصار من الأوس والخزرج يفتخرون بأنسابهم القحطانية، وكذلك سلائل الملوك من لخم وغسان، وأمثالهم من العرب القحطانية ليسوا بأقلّ حرصًا على حفظ أنسابهم من تلك البطون العدنانية الشريفة. والعرب بالإجمال سائرون في النسب على مقتضى قوله تعالى (كلّ حزب بما لديهم فرحون) فكلّ قبيلة راضية بنسبها، تحفظ مآثر قومها، وتعتزّ بالاعتزاء، إلى سلفها، مع أنَّ القبيلة الثانية التي تنافسها تحفظ لها عورات ومعرات تعيّرها بها عند المفاخرة والمنافرة.

ولشدّة اعتنائهم بالأنساب تجد انتصار بعضهم لبعض على نسبة درجة القرابة فكلّما كانت القبيلة أقرب إلى القبيلة كانت أَوْلى بنصرها، لا يتخلّف ذلك فيهم إلاَّ لعوامل غير معتادة. ومهما اشتدّت العداوة بين أبناء فخذ واحد فإنّهم يجتمعون بطنًا واحدًا على بطن آخر يناوئهم من قبيلتهم، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة إلى عمارة لمقاومة عمارة أخرى، وهلم جرّا. ولا بدَّ أن ينزع عرق النسب في العربي فيميل به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقرب بعيدًا في الحقيقة؛ فالقحطاني ينتسب إلى شعب طويل عريض يحصى بالملايين، والعدناني ينتسب إلى شعب لا يقل عنه في العدد والمدد، ولكن إذا اختصما في موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع في كلّ عربي، فمال القحطاني إلى قبائل اليمن، ومال العدنانيّ إلى قبائل الحجاز ونجد، أي مضر وربيعة. وقد يؤاخي الفريق منهم من كان يعاديه بغضًا بفريق آخر أشدّ عداوة لأنه أبعد نسبا، وعليه قول شاعرهم:

وذوى ضِبابٍ مضمرين عداوة	قرحى القلوب معاودي الأفناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم	وهمو إذا ذكر الصديق أعادي
كيما أُعدّ همو لأبعدَ منهم	ولقد يُجاء إلى ذوي الأحقاد

ومن أجل هذا التدقيق في قرب النسب وبعده، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات هذا القرب وهذا البعد؛ انقسم العرب إلى ذينك الشعبين الكبيرين عدنان، وقحطان، وغلب على قحطان اسم اليمن، لأنَّ أكثر منازل العرب القحطانية هي في اليمن، ومن وُجد منهم خارجًا عن اليمن كالأوس والخزرج في المدينة، وكطيّ وغيرها في نجد مثلاً؛ فإنَّما خرجوا بعد أن انهدم سدّ مأرب، وتفرّقت القبائل في البلدان.

وأشهر القحطانيين حِمْيَر، ومنهم قضاعة، ومن قضاعة بلى، ومنهم الآن في شمالي الحجاز، وجهينة، ومنهم على سواحل الحجاز يبلغون ١٠٠ ألف نسمة، وكلب وهم في بادية الشام، ويقال لهم اليوم الشرارات، وعذّرة المشهورون بالعشق، ولهم بقايا بمصر وبقايا بالشام، وبهراء ومنهم ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر، ونهد، وجرم، وتنوخ وهؤلاء كانوا في شمالي بلاد الشام.

ومن القحطانية كهلان، ومنهم الأُزْد، ومن الأزد غسّان وكانوا بالشام، وكان منهم نصارى، ولذلك تجد كثيرين من نصارى سورية ينتسبون إلى غسّان ـ و يحبّون أن ينتسبوا إلى غسّان ـ ومنهم الأوس والخزرج في المدينة المنوّرة، وقد تفرّقوا في البلاد ولا يكاد يوجد منهم أحد في المدينة في هذه الأيام. ومن كهلان طِيء وهم من أكبر القبائل، ويقال لهم اليوم شمّر. وبطون طيء كثيرة منها ثُعَل، وجَديلة، ونَبْهان وبولان، وهِناء، وسدوس، وسلامان، وبحتر الذين منهم البحتري الشاعر، وزُبَيْد بضمّ أوله ففتح فسكون، وكثير من قبائل الشام هي من زُبَيْد، وسُنبس، وجَرم ومنهم في بلاد غزّة ومصر. وثعلبة، ومنهم كثير في الديار المصرية. وغزيّة ومنهم بطون في العراق وفي الشام والحجاز. وبنو لام، وهم بالعراق ومنهم الظفير.

ومن كهلان مَذْحج، ومن هؤلاء خولان، وجنب، وسعد العشيرة، ومن سعد العشيرة بنو جُعفى بضم فسكون والنسبة إليهم جعفى على مثل لفظه، وكان المتنبّي الشاعر جعفيًّا. ومن سعد العشيرة قبيلة يقال لها أيضًا زُبَيْد بضم ففتح فسكون، وهم زُبَيْد الحجاز الذين ينتسب إليهم عمرو بن معد يكرب. ومن كهلان النخع، ومنهم الأشتر النخعي عامل الإمام على رضي الله عنه على مصر. ومنهم عنس، الذين منهم عمّار بن ياسر رضي الله عنه. ومنهم الأسود العنسي الكذّاب. ومنهم بنو الحارث الذين يسكنون في الجنوب الشرقي من الطائف، ومن كهلان همدان ولا يزال منهم في اليمن جموع غفيرة، فضلاً عمَّن تفرّقوا في البلاد. ومنهم الهمداني صاحب كتاب «الإكليل» وكتاب «صفة جزيرة العرب» ومن

كهلان كِندة، وكان لهم ملك، ومنهم امرؤ القيس الكندي الشاعر، وابو اسحق يعقوب الكندي فيلسوف العرب. وهم متفرّقون في البلاد فمنهم أناس في اليمن، وآخرون في الشام، ومنهم قوم يقال لهم السكون وآخرون يقال لهم السّكاسك، جاء في صبح الأعشى: أنَّ النسبة إلى السّكاسك سكسكي، ردًا له إلى أصله، وهذا صحيح. وقبلي صيدا في سواحل سورية مكان يقال له السكسكية.

ومن كهلان مراد الذين منهم قاتل سيِّدنا علي بن أبي طالب. وأنمار، ومن أنمار تتفرّع بطون كثيرة مثل بجيلة، وخَثْعَم، وهم متفرّقون في البلاد. ومن كهلان جذام، وقيل إنَّهم من العدنانية، ولكنّهم انتقلوا إلى اليمن. وكثير من أعقاب جذام في الديار المصرية في الصعيد، وفي الشرقية، والدقهلية، ومنهم بنو صخر في الشام، ومن كهلان لخم، وكان منهم ملوك الحيرة من بلاد العراق، وكان منهم بنو عبّاد ملوك إشبيلية. ومن لخم أمراء لبنان الأرسِلانيّون، والتنوخيون، وهؤلاء على الأصح ليسوا من التنوخيين سكّان شمالي سورية، بل هم ينتسبون إلى جدّ يقال له تنوخ من سلالة اللخميين ملوك الحيرة. ومن لخم بطون كثيرة في الديار المصرية ومن لخم بنو الدار رهط تميم الداري الصحابي، وذرّيته في خليل الرحمن بفلسطين ومن كهلان الأشعريون رهط أبي موسى الأشعري الصحابي. وعاملة، ومن عاملة أهالي جبل عاملة بالشام بين صور وصيدا، وهم شيعة الشام. إلاَّ أنَّ رؤساءهم بني علي الصغير ينتمون إلى وائل كما علمت منهم.

وأمَّا العدنانية فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، وتواريخ العرب تتّفق على أنَّ هؤلاء يقال لهم العرب المستعربة، وأنَّ القحطانية هم العرب العاربة، ولكن في مسألة القحطانية يوجد خلاف؛ لأنَّ بعضهم زعم أنَّ العرب العاربة ليسوا قحطان، ولكن الذين قبلهم ممَّن يقال لهم العرب البائدة؛ عاد وثمود وعمليق وطسم ...إلخ. والرأي الذي عليه الجهمور أنَّ العرب العاربة هم القحطانية، وأنَّ العرب المستعربة هم العدنانية، وهؤلاء العدنانية هم سلالة اسماعيل بن ابراهيم تعلّموا العربية من أهل جُرهُم الذين هم من القحطانية، جاء إلى مكّة وأقام بها واختلطوا بذرّية اسماعيل.

والعدنانية هم نِزار بن معد بن عدنان. ومنهم إياد الذين ينسب إليهم قس بن ساعدة، ومنهم بنو أنمار بن نزار، ومنهم ربيعة ويعرف بربيعة الفرس، ومن ربيعة أسد وضبيعة وديارهم بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة، وفي نجد كثير من ربيعة الفرس، وأسد أكثرهم

أفخاذًا. ومن أسد بنو عنزة، وكانت منازلهم خيبر من ضواحي المدينة. ثمَّ رحل قسم كبير منهم إلى بادية الشام، وهم أكثر عرب هذه البادية. فمنهم الرولة، وولد علي، والمُعْجل، والحسنة، ويقال لهؤلاء ضَنَى مسلم ثمَّ السبعة، والفدعان، ويقال لهم ضني عبيد. وآل سعود الذين منهم ملك الحجاز ونجد عبد العزيز بن سعود في هذا العصر ليسوا من عنزة، ولكنّهم مجتمعون مع عنزة في ربيعة. ومن ربيعة جديلة، وكانت ديارهم بتهامة. ثمَّ خرجوا إلى البحرين ومنهم فريق في الجزيرة الفراتية، ومن جديلة بنو وائل، ولوائل بكر وتَغْلِب، ومن تغلب بن وائل كُليب الذي قتله جسّاسٍ واشتعلت لأجله الحرب المعروفة بالبسوس.

وكان الحمدانيون ملوك حلب قديمًا من تغلب، وكان من تغلب نصارى كما كان من غسّان، ولمّا ظهر الإسلام أسلم منهم أناس، وبقي الآخرون متمسّكين بنصرانيتهم وأبوا أن يدفعوا الجزية كسائر النصارى بحجّة أنهم عرب، وأصرّ سيِّدنا عمر على أخذها منهم، وكان سيِّدنا علي فكّر في منعهم من تنصير أولادهم وذلك حتّى ينشأ أحداثهم في الإسلام. ولهم حكم خاصّ في الفقه الإسلامي، واختلفت في شأنهم الأقوال، وجاء في فتوح البلدان للبلاذري عن ابن عباس قال: لا تؤكل ذبائح نصارى بني تغلب، ولا تنكح نساؤهم، ليسوا منا ولا من أهل الكتاب. وتظاهرت الروايات على أنه لمّا أراد عمر أخذ الجزية منهم لحقوا بأرض الروم، فقال زرعة بن النعمان لعمر: أنشدك الله في بنى تغلب فإنَّهم قوم من العرب يأنفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم. فأرسل عمر في طلبهم فردّهم، وأضعف عليهم الصدقة. وكتب عمير بن سعد إلى عمر يسأله رأيه فيهم لأنهم همّوا باللحاق بمملكة الروم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه يأمره أن يضعّف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كلّ سائمة وأرض، وإن أبوا ذلك حاربهم حتّى يبيدهم أو يسلموا، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، وقالوا "أمَّا إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنّا نرضى ونحفظ ديننا".

وقال الزهري: "ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة إلاَّ نصارى العرب الذين عامّة أموالهم المواشي، فإنَّ عليهم ضعف ما على المسلمين. وكان عثمان رضي الله عنه أمر أن لا يقبل من بني تغلب في الجزية إلاَّ الذهب والفضّة، فجاءه الثبْت أنَّ عمرًا أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك، واتّفقوا على أنَّ سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج، لأنه بدل من الجزية. وبالاختصار أبت بهم عروبتهم أن يؤدوا كنصارى الأعاجم، وأبى الخلفاء الراشدون أن يعاملوهم معاملة المسلمين فوجدوا لذلك طريقًا وسطًا.

ومن بني تغلب الأخطل التغلبي الشاعر النصراني المشهور وهم كثيرون في نجد.

وأمَّا بكر بن وائل فمنهم شيبان، ومنهم بَنُو حَنيفة رهط مسيلمة الكذّاب، وأكثر سكّان الرياض عاصمة نجد اليوم من بني حنيفة، ومن بكر بنو عجل بن لُجيم.

وأمَّا القسم الثاني من العدنانية فهم سلالة مُضَر بن نزار، ويقال مضر الحمراء ولذلك تجتمع عدنان كلها في ربيعة ومضر.

ولمضر فرع جمع عدّة قبائل وهو قيس؛ ويقال له قيس بن عيلان بن مضر وقيل هو قيس بن مضر لصلبه وعيلان مضاف إليه، قيل فرسه وقيل كلبه. ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية، حتّى صار في مقابل اليمن كلّها، فصاروا يقولون قيس ويمن، وفي جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيس ويمن، وكانت حروب القيسية واليمنية في لبنان متّصلة وانتهت بواقعة عين دارة منذ ٢٢٥ سنة. وأمَّا في فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة. وأمَّا في الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية، ومن أشهر قبائل قيس هوزان، وهم بنو هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، ويقال لهوزان اليوم عتيبة. وهم من أكبر قبائل العرب منهم أناس في الحجاز وآخرون في نجد. وينقسمون اليوم إلى فرعين؛ الروقة، والبرقة وبعضهم يرى أنَّ أحد الفريقين وهو البرقة من عامر بن صعصعة. ومن هوزان بنو سعد الذين كان النبي (ﷺ) رضيعًا فيهم. ويقال لهم بنو سعد بن بكر، ذكر صاحب صبح الأعشى أنَّ منهم فرقة بنواحي باجة من المغرب. ومن هوزان بنو عامر بن صعصعة. ومنهم بنو كلاب، وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة، ثمَّ انتقلوا إلى الشام وملكوا حلب مدّة من الزمن. ومن بني عامر بن صعصعة بنو هلال وهم أشهر قبائل العرب. وكانوا في الحجاز ونجد. وقد انتقلوا إلى المغرب فملأوه. ثمَّ إنَّ قبيلة حرب الكبيرة في الحجاز من بني هلال، وهم بطون ثلاثة؛ بنو مسروح وبنو سالم، وبنو عبيد الله. هكذا في صبح الأعشى. وأمَّا في كتاب «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» فقد جاء في الصفحة ٣٧٢ ذكر قبائل الحجاز النازلة بين الحرمين، وقد كنت نقلتها عن سجلات الحكومة في المدينة المنوّرة فهنالك أقول: « أهم هذه القبائل حرب؛ بن حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية. وحرب خلف أربعة أولاد: سالم، ومسروح، وعبد الله وعمرو. فمسروح أكثرهم ولدًا، وقد دخلت بطون بني عبد الله وبنو عمرو في مسروح » أمَّا صبح الأعشى فيقول نقلاً عن الحمداني أنهم ثلاثة بطون؛ بنو مسروح وبنو سالم، وبنو عبيد الله.

وقال: إنَّ من حرب زبيد الحجاز، وذكر أنَّ منهم بني عمرو. ومنازل مسروح من مكّة إلى المدينة المنوّرة وعددهم يزيد على ستين ألف نسمة، وأمَّا بنو سالم من حرب فمنازلهم من مكّة إلى المدينة إلى وادي الصفر إلى الحديدة إلى ينبع البحر، وهم يزيدون على خمسين ألفا. فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة ألف نسمة، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الأحمدي، وكان ناصر بن نصّار الظاهر، ومنصور الظاهري، من مشايخ المراوحة من بني سالم من حرب. وبنو مزينة الذين بأطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبي سلمى المُزَنى صاحب المعلّقة؛ داخلون الآن في بني سالم من حرب. والحال أنَّ مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابنَـي عمرو ابن أدبن طابخة، واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما في صبح الأعشى. وكان شيخهم حجاب بن بخيت معدودًا من مشايخ المراوحة من بني سالم إلى آخر ما ذكرناه من أسماء شيوخ حرب في العصر الأخير.

وأخبرني العلاّمة النسّابة الشيخ عبد الله بن بلهيد قاضي قضاة المملكة السعودية أنَّ ما ذكرته عن قبائل الحجاز هو أصحّ ما اطّلع عليه في هذا الباب. ومن بني عامر ابن صعصعة أيضًا بنو عقيل، وكانت مساكنهم بالبحرين، وكانوا أعظم القبائل هناك واجتمعوا هم وبني تغلب على بني سليم بن منصور فأخرجوهم من البحرين، ثمَّ تغلّب بنو تغلب على بني عقيل فأخرجوهم إلى العراق، ثمَّ عادوا إلى البحرين وتغلّبوا على بني تميم. ومن بني عقيل بنو عبادة، وبنو خفاجة في العراق ومنهم المنتفق.

ثمَّ من بطون هوزان بنو جشم؛ كانت مساكنهم بالسرّوات بين تهامة ونجد، ومن بطون هوزان ثقيف، ويقال للطائف سوق ثقيف، لأنهم سكّانها ومحيطون بها من كلّ جهة. وفي كتابنا «الارتسامات اللطاف» استوفينا الكلام على ثقيف ومن قبائل قيس باهلة، وبنو مازن، وبنو غطفان، ومن غطفان بنو عبس جماعة عنترة الشاعر الفارس المشهور، ومنهم أشجع، ذكر صاحب صبح الأعشى أنَّ منهم حيًّا عظيمًا بسجلماسة في المغرب. ومن غطفان ذبيان، ومنهم النابغة الذبياني، ومن ذبيان فزارة ومنهم بنو صبيح في برقة ومن هؤلاء رواحة وهيب بأرض برقة إلى طرابلس الغرب وبأفريقية والمغرب، ومنهم جماعة بالديار المصرية.

ومن قبائل قيس بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وكانوا في عالية نجد بالقرب من خيبر، وفي وادي القرى وتيماء، ولكنّ أكثرهم رحلوا إلى مصر،

ثمَّ إلى برقة، وأكثر عرب برقة منهم. ومن شاء أن يتوسّع في معرفة قبائل برقة فعليه بحواشينا على «حاضر العالم الإسلامي» فإنَّه يجد في الفصل المتعلّق بطرابلس الغرب من صفحة ٦٤ من المجلّد الثاني إلى صفحة ١٦٥ كلّ ما يلزم من المعلومات عن ذلك القطر، ولا سيَّما عن القبائل بأسمائها القديمة والجديدة ممّا يطول بنا استيفاؤه هنا. ونحن إنَّما ذكرنا هنا مجمل أنساب العرب على سبيل التمثيل.

ومن قبائل قيس بنو عدوان وكانوا بالطائف، ثمَّ غلبهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة، وبأفريقية منهم أحياء بادية، وفي شرق الأردن اليوم عرب العدوان، وهم رؤساء البدو في تلك الناحية، ولا يعلم هلّ هم من عدوان هؤلاء، أم هو اتّفاق في الاسم.

ومن مُضَر الياس، وكانت تحته خِنْدِف بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال وهي بنت حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة، عرف بنوه بها فقيل لهم خِنْدِف وغلب على سائر قيس قال الشاعر ـ وقد أهانه العدنانية في أسوان وأعزّه القحطانية في اليمن:

إذا تمَّ لي في أرض مأرب مأربي	فلست على أسوانَ يومًا بأسوانِ
إذا جهِلت قدري زعَانفُ خِنْدِف	فقد عرفت فضلي غطارف همدانِ

وبنوطابخة، ومن طابخة هذه تميم وهي من أكبر القبائل. ومن قبائل طابخة بنو ضبّة الذين منهم ضبَّة (الشاعر). ومن بني تميم قبائل في نجد منهم الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي ينتسب إليه أهل نجد، فيقال لهم الوهابية. وهم يقولون لأنفسهم السلفية إشارة إلى أنهم على عقيدة السلف الصالح. ومنهم أناس في الدرعيّة ومنهم كثير من سكّان القصيم، ومنهم فريق في جوار حائل مثل أهل قفار والسميرة، وقرى أخرى. ومن قبائل طابخة مزينة الذين منهم زهير بن أبي سلمى، ولكنّهم دخلوا في حرب كما تقدّم الكلام عليه. ومن هؤلاء الإمام المزني صاحب الإمام الشافعي. ومن الياس بن مضر بنو قمعة، ثمَّ بنو مدركة؛ ومن مدركة هذيل ومساكنهم جبال الطائف العليا، وقد ذكرت ذلك في «الارتسامات اللطاف» وهم مجاورون لثقيف. ولمدركة خزيمة وله فرعان الهُون وأَسد. ومن بطون أسد الكاهلية وهم بنو كاهل بن أسد ومن خزيمة كنانة وهم قبيلة شهيرة ذات فروع منها ملكان، وعبد مناة، وغفار رهط أبي ذر الغفارى. وبكر بن عبد...[1] بكر الدُّوَل الذين

(١) سقطت بعض الكلمات من المصدر الأساس قسرًا. [المحقق]

منهم أبو الأسود الدؤلي. والليث، وبني الحارث ...[1] وبنو ضمرة. وجميعهم متفرقون في بلاد العرب.

ومن كنانة عمرو، وعامر، ومالك. ومن مالك هؤلاء بنو مُرّة...[2] اشتهروا بإعجاب سيِّدنا علي بفروسيتهم: (لو أنَّ لي بألفٍ منكم...) ومن العرب العدنانية قريش، وهم فهر بن مالك، ومنهم بنو الحارث بن فهر، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح أحد العشرة المقطوع لهم بالجنّة رضي الله عنه وبنو محارب بن فهر، ومنهم الضحّاك بن قيس أحد الأصحاب. وبنو الجد الذين كانوا في الأندلس، ثمَّ صاروا إلى فاس. ومنهم الأمراء والرؤساء والعلماء هم من بني فهر. ومن قريش بنو غالب بن فهر، ومنهم بنو لؤى بن غالب، ومن هؤلاء بنو سعد وبنو خزيمة، وبنو عامر بن لؤي، وبنو كعب بن لؤى. ومن بني كعب بن لؤي هُصَيص، ومن هؤلاء بنو سهم رهط عمرو بن العاص رضي الله عنه. ومنهم بنو جمح ومن كعب بن لؤي بن غالب بنو عديّ، ومنهم سيِّدنا عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رضي الله عنهما.

ومن قريش مُرّة بن كعب، ومن بني مرّة بن كعب تيم، ومن هؤلاء سيِّدنا أبو بكر الصدّيق، وطلحة رضي الله عنهما. ومن مرّة بن كعب بنو يقظة، وبنو مخزوم. ومن بني مخزوم سيِّدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومنهم سعيد بن المسيب التابعي المشهور.

ومن قريش كلاب بن مرّة، ومنهم بنو زهرة، ومن بني زهرة الصحابيان سعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنّة رضي الله عنهما ومن قريش قُصَيّ بن كلاب بن مرّة، ومنهم بنو عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة. ومن بني عبد الدار بنو شيبة وهم الشيبيون الذين بأيديهم مفاتيح بيت الله إلى يومنا هذا. ومن قُصَيّ بن كلاب بن مرّة بنو عبد العزّي. ومن هؤلاء بنو أسد الذين منهم سيِّدنا الزبير بن العوام أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضي الله عنه. ومنهم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ومن قريش بنو عبد مناف، وهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، ومن هؤلاء بنو أميّة، وهم بنو أميّة الأكبر، وأميّة الأصغر ابنَي عبد شمس، ومن بني أميّة الأكبر سيِّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان. ومن عبد مناف ابن قصي نوفل، وبنو المطلب.

---

(١) سقطت بعض الكلمات من المصدر الأساس قسرًا. [المحقّق]

(٢) سقطت بعض الكلمات الأساس قسرًا. [المحقّق]

ومن بني المطلب الإمام الشافعي رضي الله عنه. وأمَّا هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو، وسمّي هاشمًا لهشمه الثريد أيام المجاعة، وكان سيِّد قريش في وقته. وله عبد المطلب بن هاشم، وكان لعبد المطلب إثنا عشر ولدًا عبد الله أبو النبي (ﷺ)، وأبو طالب، والد سيِّدنا علي، والزبير وعبد الكعبة، والعباس، والد عبد الله بن عباس، وضِرار، وحمزة، وحجل، وأبو لهب، وقُثم، والغيداق، والحارث، والعقب منهم الستّة؛ حمزة، والعباس وأبي لهب، وأبي طالب، والحارث، وعبد الله. فأمَّا عبد الله فمن ولده سيِّد الوجود محمَّد بن عبد الله عليه السلام، وأمَّا العباس فمن ولده الخلفاء العباسيون، وأمَّا أبو طالب فكان له عدا أمير المؤمنين عليًّا كرم الله وجهه جعفر، وعقيل. وذرية أمير المؤمنين من فاطمة منتشرة في جميع العالم الإسلامي. ويقال لهم آل البيت، وهم السنام الأعلى في الشرف.

ومن خيبر إلى الحائط، والحويّط، إلى الحرّة، قبيلة هتَيْم. وليست من القبائل المعروفة بالأصالة في العرب، ولكنّها كثيرة العدد تصادم شمّر، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة، ويقال إنَّها نحو من مائتي ألف نسمة.

جاء في انسكلوبيدية الإسلام أنَّ هتيما مشهورون بالقنص، وأنَّ منهم قيونًا كثيرين، وأنَّ بينهم وبين الشرارات مصاهرات.

ومن القبائل التي لا يختلط بها سائر العرب الصُّلَيْب؛ ولا يعرف أصلهم. وقد ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا الصليبيّين، واستدلوا على ذلك بمشابهة الإسم والحقيقة مجهولة. ولا يعادون أحدًا ولا يعاديهم أحد، وكلّما وقعت واقعة بين العرب وفشت الجراحات جاء الصُليب هؤلاء وأخذوا الجرحى من الفريقين، وعالجوهم، فهم يتّخذون لأنفسهم مهنة الصليب الأحمر في أوروبة. ولذلك لا يتعدّى عليهم أحد وأحياؤهم آمنة.

وكلّ من العرب كما تقدّم آنفًا مفتخر بنسبه، مستمسّك بأصله، فإذا كان عدنانيًّا لم يرض أن يكون قحطانيًّا، وإذا كان قحطانيًّا ساءه أن ينتسب إلى عدنان قال الشاعر:

وما قحطانُ لي بأبٍ وأمّ ... ولا تصطادني شبه الظلال

وليس إليهم نسبي ولكنْ ... مَعَدّيًّا وجدتُ أبي وخَالي

ومن أراد أن يطّلع على سلاسل قبائل العرب وشجرات أنسابهم؛ فعليه بـ «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للسيِّد محمَّد أمين السويدي البغدادي، فهو كتاب قد جمع

فأوعى في هذا الباب. على أنَّ إفراط العرب في التمسّك بأنسابهم قد أوجد بينهم من العصبيّة بعضهم على بعض ما لا يوجد في أمّة سواهم، حتّى أنَّ «دوزي» الهولندي المعدود من أوسع المستشرقين علمًا ذكر في كتابه عن مسلمي إسبانية أنَّ العداوة التي بين العدنانية والقحطانية قد تكون أشدّ من العداوة التي بين العرب والأعاجم. والحقيقة أنَّ هذه العداوة نفسها هي التي كانت الأصل الأصيل في فقدهم الأندلس، بل في نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم، وكادوا يستولون على تلك القارة. وقد كانوا كلّما تمَّ لهم الظفر في واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومُضرى، ففشلوا وذهبت ريحهم، واضطرّوا أن يعودوا من حيث أتوا. ولم ينحصر ضرر هذه العصبيّة في الأندلس والمغرب، بل قد أفنت القبائل العربية بعضها بعضًا في المشرق أيضًا، وصرفتهم عن التبسّط في الفتوحات، فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلوّ هممهم؛ فقد فقدوه في منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم، لا سيَّما بين هذين القبيلتين؛ قيس واليمن. وكثيرًا ما كانت تقتتل ربيعة ومضر وكلا الفريقين من العدنانية، ونظرًا لكون مضر أكثر عددًا كانت ربيعة تلجأ إلى اليمن حتّى تقف في وجه مضر. وكلّ عربي تنزع فيه العصبيّة إلى قومه، فلا يسلم من ذلك أحد، حتّى الملوك والخلفاء كانوا يتعصّبون للقبائل التي هم منها وهم مع ذلك سادة الجميع.

ومن الأمثال التي تدلّك على غلوّهم في هذا الباب أنَّ جرير بن عطية الشاعر ـ وكان من تميم ـ قال في إحدى مفاخراته للأخطل التغلبي:

إنَّ الذي حرم المكارم تغلبًا	جعل النبوّة والخلافة فينا
مضرٌ أبي وأبو الملوك جميعهم	فاعلم فليس أبوكُم كأبينا
هذا ابن عمي في دمشقَ خليفةٌ	لو شئتُ ساقكُم إليّ قَطِينا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ضحك وقال: ما زاد ابن الفاعلة على أن جعلني شرطيًّا عنده!! ثمَّ قال وقد نبض به عرق العصبية لمضر: أما والله لو شاء لسقتهم إليه. ولم يكن ليفتّ في عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الإسلامية التي جعلت الإسلام هو العروة الوثقى، وجعلت أخوته فوق كلّ رابطة. ولذلك قيل: إنَّ العرب لم يكونوا ليتّحدوا في يوم من الأيام إلاَّ بالإسلام، ولولا الإسلام لبقوا شعوبًا وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيامة، وبأسهم أبدًا بينهم. فلما جاء الإسلام ووحّد

بينهم في الدين، وقال الله تعالى: (وكنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا) لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوّة هذا الاتّحاد؛ ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة، ولم يقف في وجههم شيء!! ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوّة وخلافة الراشدين؛ ضعفت فيهم العقيدة التي كانت هي مدار العمل عند سلفهم، وعادت فتجدّدت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية في الإسلام، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام، ورجع بذلك زرعهم هشيمًا، وبَذْرُهم عرجونًا قديمًا.

فكما أنَّ الأنساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد؛ كانت تثير بينهم أيضًا العداوات والفتن التي تصدع وحدتهم وتخمد في النهاية جمرتهم، فأضرّت من حيث نفعت. ولقد أجمع المؤرّخون، واتّفق علماء الاجتماع، أنَّ سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمّة في الانقسام والانفراد، وغرامها في منافسة بعضها بعضًا.

ولولا آفة الانقسام هذه، لكان التمسّك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها، ويتمكّن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم، والاعتناء بحفظ أصالتها، ومنع اختلاطها بغيرها ممّا يشوب نقاوتها.

أفلا ترى كيف ثار الألمان في هذه السنين الأخيرة، وأوجدوا قضيّة النسب «الآري» ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط «السامي» مع «الآري» بالمصاهرات حفظًا للنسب الذي ينتمون إليه، والذي لا يرون لهم رقيًّا إلاَّ به وضمن خصائصه. وما فعلوا ذلك إلاَّ بناء على نظريات علمية ثابتة، وهم وإن كانوا غلوا في هذا الأمر إلى حدٍّ أوجب انتقاد سائر الأمم لهم؛ فلا يمكن أن يقال إنَّ قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح.

ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لا نجده منحصرًا في معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادّية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة؛ ولكنّ هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل، والأفعال المجيدة وتزكّي الأنفس. فمن المعلوم أنَّ أصل البيوت الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه، ويبذّ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة، وإنَّما تظهر آثارها في أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد، ويشيع ذكره، ويرتفع شأنه، وتتمنّى الحوامل أن تلد مثله، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسلاً اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الإمكان،

حتّى يمتازوا بالأخلاق التي امتاز بها أبوهم، ويحوزوا مثلما حازه من الشرف والسؤدد، وتعب رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم طمعًا في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إيّاها سلفهم وهي التي تعزيهم بالفضائل، وتبعدهم عن الرذائل، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد.

ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوتات الكريمة على عمل خسيس كان أول ما يقرعه به الناس، ويهيبون به إلى التوبة منه؛ أن يقولوا له: أفلست أنت ابن فلان؟ أو من آل فلان؟ أيجمل بك أن تفعل ما هو كذا وكذا!! فماذا تركت للسوقة والطغام؟ وأشباه هذه الأقوال التي تدلّ دلالة واضحة على أنَّ الأصالة مفروض فيها أن تقترن بالنبالة، وبعبارة أخرى أنَّ الأصيل في نسبه ينبغي أن يكون فاضلاً في عمله، بارعًا بأدبه. وما جاء على خلاف هذه القاعدة فيُعَدّ شاذًّا.

فإذا تقرّر عندنا هذا؛ تقرّر أنَّ حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها. ومتى كثرت الفضائل في المجتمع ترقّت الأمّة وعرجت في سُلّم النجاح، وأصبحت أمّة عزيزة غالبة، لأنَّ الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي يُبنى عليه كيان الأمم.

وقد تقدّم لنا أنَّ الأوروبيين شديدو العناية بالأنساب، خلافًا لِما يتوهّم الشرقيون، وأنَّ الكفاءة في الزواج طالما كانوا يراعونها ولا يزالون يراعونها حتّى اليوم، وإن كان قد خفّ ذلك التمسّك القديم بعض الشيء، وذلك بأنَّ النبلاء لا يزوّجون بناتهم من الطبقات التي ليست في درجتهم. وأشدّ الأوروبيين منعة في هذا الأمر هم نبلاء الأنجليز، الذين يأتي الأميركي المثري فيبذل القناطير المقنطرة من الذهب حتّى ينال شرف مصاهرتهم، ولا ينالها إلاَّ لأيًا، وكلّ هذا لأجل أن « يستقطر بأنبيق ديناره دمهم الشريف في دن نسبه » كما قال أحمد فارس في « كشف المخبا عن فنون أوروبا ». وما قاله أحمد فارس من ثمانين سنة في هذا الموضوع لا يزال تصداقه جاريًا إلى الآن.

وكذلك نجد النبلاء في ألمانيا وفرنسا وغيرهما محافظين على أنسابهم، مفتخرين بهم، مستظهرين على صحتها بالكتب والوثائق والشجرات التي يعتقدونها مع أنفس أعلاقهم وذخائرهم، وكثيرًا ما اجتمعنا بأناس من هؤلاء يرفعون أنسابهم إلى عهود بعيدة جدًا، ويذكرون أنَّ أصول عائلاتهم معروفة من ألف سنة، وألف ومائتَي سنة، ولم نجد أشراف العرب أشدّ اعتناء بأنسابهم من نبلاء الإفرنج، وهم يزيدوننا في شيء واحد؛ وهي هذه

الأشعِرة «جمع شعار» التي تمتاز بها كلّ عائلة منهم وتحفظها من عهود متطاولة. ونحن العرب لا يوجد عندنا هذا الاصطلاح إلاَّ ما ندر وأكثر ما يكون في الأعلام والرايات. فالعباسيون رايتهم السواد، والأمويون رايتهم بيضاء، والفاطميون رمزهم اللون الأخضر، وأمراء مكّة رايتهم عنّابية وما أشبه ذلك. فنحن نستظهر على حفظ أنسابنا بالتواريخ والوثائق والصكوك القديمة، وكثيرًا ما نثبّتها بالمحاكم الشرعية، فأمَّا أن تتّخذ كلّ عائلة من بيوتات العرب شعارًا خاصًّا تمتاز به، كما هو الشأن عن الإفرنج، فليس بمعهود، وإنَّما جرت العادات عند العرب بأن يتّخذ عشائرهم أسماء خاصّة يتنادون بها في ميادين القتال، فهؤلاء يقال لهم «إخوة بلجاء» وهؤلاء يقال لهم «إخوة شيخة» وأولئك يقال لهم «رعاة العليا» أو «فرسان الصباح» وما أشبه ذلك من الألقاب والكُنى. فأمَّا نبلاء الإفرنج فلا تكاد تكون منهم أسرة شهيرة بدون شعار تجد صورته على آنيتها ومواعينها وحُلاَها وفي كتبها، ويقال إنَّ أصل هذا الاصطلاح عندهم هو من زمان الصليبين.

وقد غلا نبلاء الإفرنج في التمسّك بأنسابهم، ورفعوها أحيانًا إلى أبعد ما يكون من الأعصر، حتّى دفع ذلك العقل. وغلا أيضًا علماء الأنساب في مراعاة قواعدهم، ودخل بينهم المتزلّفون الوضّاعون الذين كانوا يتقرّبون إلى الأسر النبيلة بزيادة رفع الأنساب ـ أو بوضعها اختراعًا ـ حتّى وقعت الشبهة في الصحيح منها، واتُّهم النسّابون جميعهم بالكذب، وفي أوروبا مثل سائر يقولون «هو أكذب من نسّابه».

وكان يوجد عند الملوك في أوربة وظيفة اسمها وظيفة «نسّاب الملك» وهو ضابط من ضبّاط رهبانية روح القدس، ترجع إليه مهمّة تثبيت الأنساب، لا سيَّما أنساب الفرسان الذين يقال لهم «شيڤاليه Chevalier» وذلك أنَّ النبلاء كانت لهم حقوق لم تكن للعامّة، فكان النبيل يدخل في نظام الفرسان عند الملك مثل نظام مالطة، وليون، وسانت كلود، وغيرها. فكانوا يحتفظون بأنسابهم لتكون لهم وسيلة إلى الدخول في هذه الأنظمة، وكان للنساء النبيلات أيضًا رهبانيّات يدخلن فيها، ويلتزمن لأجل الدخول فيها تثبيت أنسابهنَّ.

وإثبات النسب كان عبارة عن إظهار ورقة المعمودية التي تثبت أنَّ فلانًا هو ابن أبيه فلان، وأنَّ هذا هو ابن فلان وهلمَّ جرّا. وكانوا يقدّمون مع أوراق المعمودية الوصايا، وعقود الزواج، وصكوك الشراء والبيع والهبة، وما أشبه ذلك من الوثائق وكانوا إذا حرّروا نسب عائلة وضعوا جميع فروعها في السجل، وجعلوا بجانب كلّ فرع جميع ما يتعلّق به من وصايا وعقود أنكحة، وصكوك مهمّة بتواريخها مع براءات الملوك المتعلّقة بذلك الفرع.

وهذه البراءات هي التي يقال لها في الدولة العثمانية « الفرامين » جمع « فرمان » ومعناه الأمر، ويقابل الفرمان في الدولة المغربية « الظهير ». وكانوا في أوروبة يذكرون أيضًا في سجلات الأنساب تواريخ الأشخاص المشهورين، ومن قتل منهم في الحروب، ويقال إنَّ الاصطلاح بدأ في فرنسا منذ سنة ١٦٠٠ وإنَّه من قبل ذلك التاريخ لم تكن للأنساب دائرة خاصّة، بل كانت الحكومة عندما تريد التحقيق عن نسب من يُدلى إليها بطلب ترسل مأمورين إلى البلدة التي ينتسب إليها طالب الوظيفة فيسألون الشيوخ وأهل الخبرة، ويرفعون خلاصة التحقيق إلى الحكومة.

ولمّا قدمتُ إلى ألمانيا في أيام الحرب الكبرى، كان ممَّن تعرّفت إليهم من العلماء مؤرّخ جليل اسمه الدكتور «ستراد ونتز » وكان مديرًا لمصلحة الأنساب في البلاد الجرمانية، وقد تذاكرت معه طويلاً في مسألة الأنساب، وذكرت له أنساب العرب وسألته عن أنساب الألمان فعلمت منه أنَّ أقدم أسرة معروفة في ألمانيا ينتهي قدمها إلى القرن التاسع بعد المسيح، ولا يوجد أسرة معروفة يعرف لها نسب لأبعد من هذا التاريخ. قال: وإنَّ الأسرة المالكة في الساكس هي أقدم بيت في ألمانيا، ويوجد من لهم نسب إلى القرن الثاني عشر للمسيح.

وذكر لي أسرًا عريقة من جملتها آل هونلوهيه وكنت عرفت منهم برنسًا ضابطًا وشاهدته في الأستانة، وتكلّمنا على نسب آل هوهنزولرن قياصرة ألمانيا، وأنَّ أصلهم من جهة بحيرة كونستانزا في بلاد باڤاريا، ومنذ نحو من ستّمائة سنة قام جدّهم بخدمات جليلة للوطن فأعطاه الأمبراطور سيجسموند لقب شرف وجعله أميرًا على براند نبورغ، وهذا هو مبدأ سيادتهم. ومن هناك لم يزالوا يعظّمون ويغلظ أمرهم ويتّسع ملكهم حتّى أوائل القرن الثامن ـ أي منذ مائتين وعشر سنوات ـ إذ ترقّوا إلى درجة الملك، وصاروا ملوك بروسية. وفي سنة ١٨٧٠ بعد الغلبة على فرنسة توّج الملك غليوم الأول إمبراطورًا على ألمانيا كلها كما هو معلوم. وممّا ذكره لي هذا الأستاذ المؤرّخ أنه في جبال سويسرة أسرة رومانية، أي من الرومانيين القدماء محفوظة النسب، يقال لها « پلانتا » وكان ذلك متواترًا عندهم والناس تنكره ولا يجدون له سندًا، حتّى كشفوا بطريق الاتّفاق كتابة لاتينية على حجر كان قد طمسه التراب فإذا به يؤيّد تواتر نسب هذه الأسرة، فهي الآن أقدم عائلة معروفة في أوروبا. انتهى.

وعلم الأنساب مهمّ جدًّا للتاريخ، مشتبك به اشتباكًا تامًّا، لأنه به يعرف تاريخ مشاهير الرجال الذين قاموا بأدوار عظيمة في العالم، فيتبيّن من هذا العلم أصلهم، كما يتبيّن من التاريخ فصلهم. وكذلك تعرف من الأنساب علاقات المصاهرة، وما يحصل بسببها من التوارث، وما ينشأ عن هذا التوراث من دعاوى وخصومات قد تجرّ إلى الحروب. ولم تنحصر الأنساب في العترة الآدمية، بل للطبقة العالية من الحيوانات الداجنة أنساب معروفة، ولحفظ أنسابها فائدة عظيمة في تنشئة هذه الحيوانات وتنميتها، فإنَّ تأثير العرق غير مشكوك فيه، وانتقال النجابة من بطن إلى بطن هذا معدود من القواعد العلمية، وإن كان قد تعرِّض أحيانًا عوارض تمنع انتظام سير هذا التوراث.

ومن الغريب أنَّ الإنسان قد يهمل نفسه أحيانًا، ولا يحافظ على صحّة بدنه ولا على متانة عقله، ولا يكترث لقضية تسلسل النجابة في عرقه، ولا لصيانة المزايا التي انتقلت إليه بالإرث الطبيعي من آبائه؛ وبينما هو يهمل نفسه هذا الإهمال، تجده يعتني بحفظ نسل حيواناته حتّى لا يكون الفرع مقصّرًا عن الأصل.ولهذا كانت أنساب الحيوانات معتنى بها في كلّ مكان، وكان ذلك بها جديرٌ، وإنَّ كثيرًا من الكتب قد كتب لحفظ أنساب العجماوات. قال لاروس في معجمه الكبير: "إنَّ العرب سبقوا جميع الأمم في حفظ أنساب حيواناتها، وإذا كان الجواد العربي قد بقي محفوظًا بجميع مزاياه الباهرة، فما كان ذلك إلاَّ بطهارة أصله وصفاء عرقه منذ قرون لا تحصى، وهذا بفضل العرب الذين وجّهوا لصفاء عرق الجواد أشدّ الاهتمام، وإنَّ جميع الحيوانات العرب الفارهة لها أنساب يعتني بحفظها بمزيد الدقة. قال: وليس عند العرب دفتر نفوس عمومي للخيول، ولكن كلّ فرس كريم معه حجّة يتبيّن منها نسبه، فلا تختلط عندهم الخيل الأصيلة بغيرها. أمَّا الإنجليز فقد نظّموا ذلك وجعلوا للخيل دفاتر نفوس رسمية، منها ما يسمّونه "Stud - Book" يذكرون به أصل الحصان وسلسلة نسبه، ومنها المسمّى "Cing Calender" يذكرون فيها أوصاف الحصان وشياته. وما عملوه لأجل الخيل وحفظ أرسانها؛ عملوه أيضًا لأجل البقر، ولأجل الغنم. ولكن الفرق بين البقر والغنم أنَّ النسب في البقر يكون للثور بمفرده، وأمَّا في الغنم فلا يكون للشاة، بل للقطيع كلّه. ويرى العلماء في تربية الحيوانات أنه لأجل إصلاح جنسها يكون ضروريًا الوقوف على أنسابها" انتهى.

والأنساب معروفة للهرَرَة أيضًا، فهي كالخيل الأصيلة، كلما كان الجواد عتيق الأصل

كان أحسن جريًّا، وكذلك كلّما كان الهر أصيلاً كان أحسن صيدًا للفيران. وبالإجمال إصلاح الأجناس بالتزاوج، وبالتربية، وبالتغذية، سواء كان في الآدميين أو كان في الحيوانات الداجنة، يتوقّف على حفظ الأنساب، والعناية بعتقها. ولا يزال الحديث الشريف: (اطلبوا إكرام المناكح فإنَّها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلمية، والحقائق العالمية.

* * *

الخلافة واشتراط القرشية فيها *

لست هنا في صدد وجوب الخلافة في الإسلام، وهو البحث الذي وفاه علماء هذه الملّة حقّه، ولم يتركوا في قوسه منزعًا، وقد قال في هذا المقام ابن خلدون والماوردي وغيرهما كلّ ما يجب أن يقال، وإنّما أقول: إنَّه اتّفق المسلمون ـ إلاّ الخوارج والمعتزلة ـ على وجوب نصب الإمام لحراسة الدين والدنيا، فكان هذا المنصب جامعًا بين السلطة الروحية ـ لكن بدون العصمة التي يقول بها الكاثوليكيّون في البابا ـ وبين السلطة الدنيوية وهي ما يسمّيه النصارى بالسلطة الزمنية ـ لكن بدون الامتيازات التي تسجّلها القوانين الأوروبية للملوك ـ ولا نبال بما يتشدّق به بعض الطاعنين في الإسلام من أنه جمع بين السلطتين فكان في ذلك عائق للمجتمع عن الترقّي، فهو قول عريق في التحامل، مخالف لسنّة الله في خلقه. إذ إنَّ الدين متّصل بالدنيا في كلّ مجتمع بشري، والدنيا ممتزجة بالدين بدون انفكاك، ولا يتصوّر وجود أحدهما بدون الآخر.

وقد وفّينا هذا الموضوع حقّه في «حاضر العالم الإسلامي» بما لا حاجة إلى إعادته هنا، وأثبتنا ما في جملة «فصل الدين عن السياسة» من السفسطة التي لا تستند على شيء من الواقع. لأنَّ جميع الحكومات الأوروبية التي جعلها الشرقيون هي المُثُل العليا في العالم، ولم يبق لهم عمل إلاَّ أن يحطبوا في حبالها، وينسحبوا على منوالها؛ لم تقدر أن تفصل الدين عن السياسة فصلاً حقيقيًّا. وغاية ما هناك أنها فصلتهما فصلاً إداريًّا لا غير، بحيث أنَّ للأمور الدينية مراجع مخصوصة، وللأمور الدنيوية مراجع مخصوصة، وهذا ما هو أيضًا في الحكومات الإسلامية. وقد كان في الدولة العثمانية كما يعلم كلّ أحد. فالصدر الأعظم كان ينظر في الأمور السياسية والإدارية خاصّة، وشيخ الإسلام كان ينظر في الأمور الشرعية والدينية خاصّة، وكلّ من المرجعين كان يعود إلى السلطان.

وإذا نظرنا إلى أوضاع الدول الأوروبية، نجد أنَّ ملك إنكلترة مثلاً هو في المركز نفسه، فكما أنه ملك الأمّة الإنكليزية ومرجعها في الحكومة؛ فهو رئيس الكنيسة الإنكليكانية، وبالتالي فمرجع الإنكليز في العقيدة. ومثل ذلك قيصر ألمانيا الذي كان رئيسًا للكنيسة

* تعليق على ما جاء بسطر ١٠ ص.٣٠، ج١ من ابن خلدون.

اللوثيرية، فكانت له السلطة الروحية العليا لا تفترق في شيء عن سلطة الخليفة في الإسلام، وهي مجموعة فيه إلى السلطة الدنيوية التي تجعل في يده زمام الأمّة الألمانية في الأمور الدنيوية. ولمّا آل أمر الألمان إلى الجمهورية ـ وهي مؤقّتة ـ قام مقام القيصر في الأمرين رئيس الجمهورية الألمانية، وقد زعم بعضهم أنَّ من الدول من فصل الدين عن السياسة بالمرّة كفرانسة مثلاً، والحقيقة أنَّ فرانسة اتّفقت مع الطبقة الإكليريكية على وضع نظام خاصّ يكفل راحة الفريقين، ولكن الحكومة لا تزال هي مرجع رجال الدين عند حدوث المشكلات، لِما تقدّم من أنَّ الدين والدنيا في المجتمع لا يستغنى كلّ منهما عن الآخر. وليس في عصرنا هذا حكومات لا دينية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة سوى ثلاث حكومات، إحداها الروسية البلشفية والثانية الجمهورية المكسيكية، والثالثة الجمهورية التركية الكمالية. وما دامت الأمّة الإفرنسية تعلن عن نفسها أنها أمّة مسيحية ـ يتجلّى ذلك في جميع حركاتها وسكناتها ـ فيكون مخالفًا للمحسوس الزعم بأنَّ حكومتها في وادٍ والكنيسة في وادٍ!! إذًا فالإسلام لم يأت في هذا المعنى بوضع مبتدع، بل هي سنّة الله في أرضه. وما دامت الأمم لا تستغنى عن الأديان؛ فملوكها وحكوماتها لا تستغنى عن الجمع بين الدين والسياسة.

غير أنَّ الإسلام في أصله يفترق عن غيره من المُلل بأنَّ الخلافة فيه وإن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهي ـ على شرط مشاورة أهل الحل والعقد ـ فهي لا تشبه الملك في مزايا الترف وخصائص الأبهة التي يجيزها ملوك الأمم الأخرى. وقد سبق لنا أن تعرّضنا لهذا المقام في «حاضر العالم الإسلامي» فقلنا في صفحة ٢٤٠ من الجزء الأول: (الخلافة في الإسلام ليست بملك ولا سلطنة، وإنّما هي رعاية عامّة للأمّة لإقامتها على الشرع الحنيف، وردع القويّ عن الضعيف في الداخل، وصيانة الإسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج. وهي لا تنعقد إلاّ بإرادة الأمّة، والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمّة لا سلطان له عليها إلاّ منها. وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حقّ الفهم، وعرّف الخلافة التعريف الصحيح، بخلاف كثير من الأوروبيين الذين يتبجّجون بزعمهم أنَّ مبدأ كون السلطان القومي من الأمّة إنّما هو من الأوضاع الغربية الأوربية، قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع، وما أجرأهم على الخلط.

ومن أغرب الأمور أنَّ كثيرًا من الشرقيين ـ ومن المسلمين أنفسهم ـ يتابعون الإفرنج متابعة عمياء في هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الإسلام في هذا الموضوع. ولو تأمّلوا ما كان

عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ـ وهو أشدّ صور الحكم الإسلامي انطباقًا على الشرع ـ لرأوه أمرًا شعبيًّا محضًا، ووضعًا ديمقراطيًّا بحتًا، وأبعد شيء عن السلطان المطلق والقرآن في هذا صريح، بقوله تعالى: (وشاورهم في الأمر) وقوله: (وأمرهم شُورى بينهم). نعم إنَّ الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم إلى أجل مسمّى نظير رؤساء الجمهوريات اليوم، ولم يكن العرب لذلك العهد ـ بسذاجة البداوة ـ يعرفون هذا الضرب من الترتيب، ولكنّه لا جدال في أنَّ الخليفة لم يكن شخصًا مقدّسًا غير مسؤول كما هو عند الأوروبيين، ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمّة، وكان إذا أخطأ يقيد من نفسه. ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورّث أولاده الخلافة، بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعتها، فإذا كان الإنسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فليتأمّل في سيرة الخلفاء الراشدين، فإنّها المرآة الحقيقية لروح الإسلام.

ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة في ما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الأمر، جاء في « الطبقات الكبرى » لمحمَّد بن سعد: أخبرنا محمَّد بن عمر قال: حدّثني قيس بن الربيع عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أنَّ عمر قال له: أملكٌ أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر وضعته في غير حقّه فأنت ملك غير خليفة، فاستعبر عمر. ثمَّ قال أخبرنا محمَّد بن عمر قال: حدّثني عبد الله بن الحارث عن أبيه عن سفيان بن أبي العرجاء قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري!؟ أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكًا فهذا أمر عظيم. قال قائل: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ بينهما فرقًا. قال ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلاَّ حقًّا ولا يضعه إلاَّ في حقّ، فأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا. فسكت عمر. ولما بويع أبو بكر قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «أمَّا بعد فأني ولّيت هذا الأمر وأنا له كاره، والله لوددت أنَّ بعضكم كفانيه، ألا وإنَّكم إن كلّفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله (ﷺ) لم أقم به. كان رسول الله عبدًا أكرمه الله بالوحي، وعصمه به ألاَّ وإنَّما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم، فراعوني فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني وإن رأيتموني زغت فقوّموني ») اهـ إلى آخر ما ذكرنا في «حاضر العالم الإسلامي».

ومنه يظهر أنَّ الخليفة ليس معصومًا عند أهل السنّة، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية، وأنه مقيد بالشورى، وأنه ليس له أن يستبد بالأمر. ولعل قائلاً يقول: إنَّ ملوك العصر

الحاضر أيضًا مقيّدون بالدساتير التي وضعتها الأمم التي يلون أمورها وليس لهم أن يستبدّوا في شيء! وهذا لا جدال فيه وأنَّ الأمم الحديثة قيّدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأنَّ ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين في أحوالهم الشخصية، وأنَّ الخلفاء في الإسلام هم مسؤولون كسائر الرعية. ويبقى فرق آخر بأنَّ الخلفاء كانوا من السذاجة والتقشّف في معيشتهم ما لم يكن أحد قبلهم ولا بعدهم، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلاَّ ما يسد عوزهم الضروري، والحال أنَّ الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتّعون بالجرايات الوافرة ويعيشون في ترف عظيم لا ينازع فيه أحد.

وكذلك الملوك في هذا العصر ينتقل الملك منهم إلى أولادهم فأحفادهم، والخلفاء الراشدون وكانوا يعهدون إلى ذوي الكفاية من الأمّة دون أولادهم. فروح الإسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أي اعتبار آخر. ولهذا لم أكن ممَّن يذهب إلى اشتراط القرشية في الخلافة ولو كان هو مذهب الجمهور، فإنَّ حصر الإمامة في أسرة أو عائلة، أو عشيرة، لا ينطبق على هَدْيِ الخلفاء الراشدين الذين كان ممكن كلا منهم أن يعهد بالأمر لولده، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك. فلا أبو بكر فكر في العهد لمحمَّد بن أبي بكر، ولا عمر فكر في العهد لعبد الله بن عمر، ولولا خروج معاوية على علي لكان عليٌّ أيضًا اقتدى بهما في اختيار من هو الأصلح لأمر الأمّة. ولو كان حصر الإمامة في قريش محتّمًا ما كان عمر يقول: لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به؛ سالم مولى أبي حذيفة، وأبي عبيدة بن الجراح. وقد كان سالم مولى أبي حذيفة من الأعاجم كما لا يخفى! وقد رُدَّ على هذا الدليل بأنَّ عمر صحابي، وأنَّ مذهب الصحابي ليس بحجّة. ولكن يُردّ على هذا بأنَّ عمر بن الخطّاب وإن لم يكن معصومًا، فهو الذي رُوي عن الرسول (ﷺ) أنه قال في حقّه «لو كان نبي بعدي لكان عمر». فهو صحابي ولكن ليس كغيره من الصحابة ولقد منع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنّة. وعلى كلّ حال لم يكن عمر بالذي يخفى عليه حكم الشرع في مسألة هي أجلّ المسائل، ولم يكن أيضًا سعد بن عبادة ورهطه من الأنصار بالذين يمارون قريشًا في أمر الإمامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدّى قريشًا. وأين تذهب مع قوله (ﷺ): «اسمعوا وأطيعوا وإن وُلّي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة». فهل هذا ينتظم مع حصر الخلافة في قريش؟

إنَّ الذين يقولون بحصر الخلافة في قريش إنَّما يستندون على الحديث الشريف "الأئمة في قريش". ولكن هذا جاء في زمن كانت الرئاسة فيه لقريش، فكانت أَوْلى بهذا الأمر من غيرها، وكانت العرب في صدر الإسلام تطيعها ما لا تطيع سواها. ولا ينبغي من ذلك أنَّ هذا الأمر يجب أن يكون أبدًا سرمدًا في قريش مهما تقلّبت الأحوال، وتبدّلت الأطوار، وما دامت تطلع الشمس، وما بلَّ بحرٌ صوفة. وما بالهم لا يذكرون أنه جاء في رواية هذا الحديث. "الأئمة في قريش ما أقاموا الدين". وجاء هذا الحديث في بعض المساند التي يعوّل عليها مثل صحيح مسلم. فإن كان حصر هذا الأمر في قريش معلّقًا بهذا الشرط؛ فيكون قد انحلَّ الإشكال. وليس من ينازع في رئاسة قريش في كونها الأولى بالإمامة من غيرها من عرب وعجم، وإنَّما النزاع واقع في أنه إذا وجد من الخارجين عن قريش من هم أقوى على حمل الخلافة منها، وأشدّ عصبية في وقتهم، وأقدر على حفظ حوزة الإسلام في وجه الأجانب فهل يجب حصر الخلافة الإسلامية في القرشي مع ضعفه وإقصاء غير القرشي عنها مع كفايته ورجحانه؟ هذا هو المعترك الذي كان ينبغي أن يجرأ العلماء أن يفصلوا فيه فصلاً يتلاءم مع روح الإسلام المبني على قاعدة (إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى) فليس في الإسلام طبقات كما هي عند البراهمة؛ الدين في هذه الطبقة، والحكم في تلك الطبقة، والصناعة في هاتيك الطبقة...إلخ. وليس الإسلام في شيء من مشابهة اليهودية في أنَّ الملك هو في السبط الفلاني، وأنَّ الكهنوت هو في السبط الفلاني...إلخ. فكلّ هذه الأوضاع لا يعرفها الإسلام، ولا يعرف إلاَّ عمل الإنسان نفسه. وكما قال عمر رضي الله عنه: "لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمَّد منا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة، وليعمل لما عند الله، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه" أفتكون الشريعة التي يقول فيها عمر مثل هذا القول هي الشريعة التي تجعل الإمامة إرثًا خاصًا بعشيرة خاصّة إلى أبد الدهر، مهما كان في الخارج عنها من كفاية تزيد على كفايتها، وقدرة على حفظ بيضة الإسلام ترجح على قدرتها؟! لا جرم أنَّ هذا غير معقول. ولذلك لا نعجب من أن يكون مثل القاضي أبي بكر الباقلاني وغيره من العلماء قد أسقطوا شرط القرشية في الخلافة بعد أن رأوا من ضعف قريش ورجحان غيرها عليها.

ولو أنَّ الذين اشترطوا القرشية في الخلافة استدركوا الأمر بقولهم: إنَّه إذا تساوى القرشي وغير القرشي في الاشتمال على شروط الخلافة فالقرشي بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام، ومن رئاسته القديمة؛ أولى من غير القرشي لهان الخطب. ولكن مقتضى

كلامهم أنَّ القرشى بسلطان ذلك الحديث المتعلّق بقريش في عهد كانت فيه هي الأول - مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية - فإنَّه أولى من غير القرشي مهما بلغ من القوّة على حفظ حوزة الإسلام، ومهما بلغ من الضلاعة والكفاية. فهذا الذي نراه مخالفًا لروح الشرع، ولِما يتجلّى من جميع أحكام الكتاب والسنّة.

لقد كان لقريش التقدّم على جميع العرب، وعلى جميع المسلمين، فكان ذلك الحديث لو صحّ على ما رووه وارتفعت فيه كلّ شبهة؛ مطابقًا لحالة قريش في أيام تقدّمها فأمَّا من بعد أن غلبت الأعاجم، وقام فيها من رجَح ميزانه على قريش في القوّة والمنعة رجحانًا محسوسًا لا يمتري فيه عاقل؛ فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح. ولعمري أنَّ ابن خلدون رحمه الله قد جمع فأوعى عندما قال في مقدّمته: إذا ثبت أنَّ اشتراط القرشية إنَّما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلمنا أنَّ الشارع لا يخصّ الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمّة؛ علمنا أنَّ ذلك إنَّما هو من الكفاية فردّدناه إاليها، وطردنا العلّة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية. فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قويّة غالبة على من معها في عصرها ليستتبعوا من سواهم، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية، ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية. إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامّة، وعصبية العرب كانت وافية، فغلبوا سائر الأمم، وإنَّما يخصّ لهذا العهد كلّ قطر بمَن تكون له فيه العصبية الغالبة.

وإذا نظرت سرّ الله في الخلافة لم تعد هذا، لأنه سبحانه إنَّما جعل الخليفة نائبًا عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم، ويردّهم عن مضارهم، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلاَّ من له قدرة عليه. ثمَّ إنَّ الوجود شاهد بذلك، فإنَّه لا يقوم بأمر أمّة أو جيل إلاَّ من غلب عليهم، وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفًا للأمر الوجودي.أ هـ

فلعمري ليس بعد هذا القول مجال لقائل، فإنَّه القول الذي لا يحسن بعده المَراء وإنَّ هذا الدين هو دين العقل لم يقم بالأسرار غير المفهومة، ولم يمتحن أتباعه بما تُعْيى به العقول، ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح. وهو كما قال ابن خلدون: لا نجد فيه الأمر الشرعي مخالفًا للأمر الوجودي. ولا يمكن أن يتقدّم فيه المرجوح على الراجح، وكلّ معترك هذه المسألة هي القدرة على حماية الإسلام، وإقامة الشريعة على وجهها، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذي يريده الله ورسوله قياسًا على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التي هي مبادئ العقل توأمان متلازمان.

مذهب النشوء والارتقاء *

قول ابن خلدون إنّ النسابين كلّهم اتّفقوا على أنّ الأب الأول للخليقة هو آدم عليه السلام كما وقع في التنزيل...إلخ. هذا ما كان عليه الناس في القرون الوسطى التي عاش ابن خلدون في آخرها، وما لا يزال عليه المتمسّكون بالأديان في عصرنا الحاضر، ولكن علماء هذا العصر في العلوم الكونية، وإذا قلنا علماء هذا العصر في العلوم الكونية، فإنّما نعني بهم علماء أوربة ـ قد عدلوا عن نظرية ابتداء العائلة البشرية بآدم وحواء، وعما يقوله اليهود والنصارى من أنّ عمر البشرية خمسة آلاف أو سبعة آلاف سنة، ورجّحوا ـ ولكنّ بدون جزم ـ أنه مضى على وجود العائلة الإنسانية على وجه الأرض نحو من مائة ألف سنة!! وذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقدّروا لوجودها مائتين وثلاثين إلى مائتين وأربعين ألف سنة!! وقد وقعوا لأجل ذلك في مشكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراة؛ فمنهم من حلّ هذا المشكل برفض التوراة بتاتًا وهؤلاء هم الفئة التي لا تقول بالأديان، والفئة المسمّاة بالآلهيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبواءت، ومنهم من بقي متمسّكًا بالديانة المسيحية، ولكنّ مع الاعتقاد بأنّ التوراة دخلها تحريف كثير، وأنّ فيها كثيرًا ممّا أدخله اليهود.

وهذه الفئة تشابه أقوالها أقوال علماء الإسلام الذين يقولون إنّ التوراة كتاب منزَل لا شكّ فيه، ولكنّ اليهود قد حرّفوها ـ بل بدّلوها ـ إلى أن صاروا يقولون من جملة الأمثال: « توراة مبدّلة » وبالاختصار لا يوثق بالنسخ الموجودة منها بين أيدينا. وكذلك يضعفون كثيرًا من الروايات الواردة عن السلف الصالح بحجّة أنها منقولة عن أحبار اليهود، ويسمون هذا الضرب من الروايات الكونية والقصص (بالإسرائيليات) ويقولون إنّها أدخلت في الإسلام وليست منه. فما يقوله المسلمون عن التوراة المبدّلة وعن الإسرائيليات هو بعينه الذي يقوله العلماء العصريون في أوربة، الذين لا يقدرون أن يطابقوا بين ما جاء في التوراة عن بدء الخليفة؛ وبين ما يقرّره العلم الحديث، وهم مع ذلك لا يريدون أن يفارقوا العقيدة النصرانية التي فارقتها الفئة المعطّلة، والفئةالأخرى التي يقال عنها الإلهيون.

* تعليق على ما جاء بسطر ٢١ ص.٤٠، ج١ من ابن خلدون.

وهناك الفئة الثالثة التي لا تقبل التأويل والتخريج في التوراة، ولا ترضى بأن يقال إنَّ فيها من أوضاع اليهود - وبالتالي فليس من التنزيل - كما أنها لا ترضى بأن يقال إنَّ الكتب المنزلة إنَّما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنّب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وإدخال الشكّ على العقائد. فهذه الفئة الثالثة هي الفئة المتديّنة الباقية إلى اليوم على العقائد التي كانت عليها النصرانية في القرون الوسطى، وهي التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية، أو الأرثوذكسية، أو البروتستانية التي يقال عنها الإنجلية، ومن هذه الفئة السواد الأعظم في الحقيقة من الأوربيين والأمريكيين. وهم يقولون بأنَّ البشر تناسلوا من آدم وحواء وفقًا لما في التوراة، ويردّون مذهب النشوء والارتقاء الذي يردّه أيضًا أناس كثيرون من الفئة المعطّلة، ومن الآلهيين، لا من جرّاء مخالفته للدين؛ بل من ضعف الأدلة اللازمة للقطع به، وانخرام كثير من الحلقات التي يفترض وجودها بين الحيوان والإنسان، أو بين الإنسان في أصل تكوينه والإنسان الحالي. وفقد هذه الحلقات وعدم وجود أثر لها في الآثار الحفرية هذا لا يساعد على الجزم عندهم بمذهب النشوء والارتقاء الذي غلب عليه اسم المذهب الداروينىّ نسبة إلى "دارون" وهو عالم طبيعي من علماء الإنكليز مات في أواخر القرن التاسع عشر للمسيح.

ولمّا كان تاريخ ابن خلدون ممّا يصلح لكل الأعصر بالنظر إلى ما فيه من قواعد أبدية، ونظريات في الخليقة والخلق لا تخلق ديباجتها، ولا تنقضي حقائقها، ولكنّه كتب منذ خمسة قرون طرأت في أثنائها على المجتمع الإنساني أفكار جديدة، ومبادئ ناقضة لِما سبقها، ونظريات لم تكن معروفة في أيام ابن خلدون، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة: الإسلام، والنصرانية، واليهودية.

وكان لا بدَّ للناشئة الجديدة من الأمّة الإسلامية من أن يطالعوا ما جدّ من هذه النظريات المحدَثة، ويقارنوها بالنظريات القديمة، فلم نشأ أن نمرّ بهذا الموضوع دون أن نشير - ولو بجملة مختصرة - إلى ما عليه العلماء الأوروبيون، حاشا أتباع الكنيسة من جهة أصل وجود الإنسان على وجه الأرض.

وقبل أن نشرع في ذلك نقول: إنَّ الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه في الكتاب، فأمّا المدّة التي ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس في القرآن الكريم شيء يدل عليها، بل هناك هذه الآية الكريمة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم).

ثمَّ نقول: إنَّ الذين جزموا بقدم عهد الإنسان بناء على ما كشفوه في باطن الأرض، وما نقّبوا عنه في الكهوف والغِيران، وما عثروا عليه عرضًا واتّفاقًا في قيعان البحيرات؛ لا يزالون يقرّون بأنَّ معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال، وأنه لا يصح الجزم إلاَّ بالنظرية الإجمالية التي معناها كون الإنسان وجد؛ لا من خمسة آلاف سنة، ولا من سبعة آلاف سنة؛ بل من أضعاف هذا العدد من السنين. وأنهم استدلّوا على ذلك بوجود مصقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون في أول الأمر حقيقتها وكانت العامّة تعتقد بأنها حجارة تتكوّن في السحاب!!.

ولمّا قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم، ومنذ مائتي سنة تواترت الأدلّة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة في أعماق متفاوتة تحت التراب، وتحت المياه، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار، ومنها ما تكوّنت من فوقه المعادن، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التي صنعها البشر الأوّلون من الزمن الطويل والدهور الدهارير؛ فحكموا بأنه لا بدَّ لذلك من عشرات ألوف من السنين.

وقد قسموا المدّة التي قضاها الإنسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفًا عند أعقابه إلى جملة أدوار، أقرّ بها إلى الدور الحالي ـ بزعمهم ـ هو الدور المسمّى بالرباعي، ويقال له الجليدي. وهو الذي فيه كان الثلج دائمًا في أماكن أصبح الثلج فيها اليوم نادرًا. وكانت البلاد السكاندينافية وهولاندة وجزر إنكلترا وألمانيا والروسية مغطاة بالثلوج. وكان في أوربة في الأصقاع التي ينحسر عنها الثلج حيوانات لا توجد اليوم عثروا على عظامها، واستدلّوا منها على التفاوت العظيم الذي وقع في درجات البرودة والحرارة، ممّا قضى بهلاك قسم من أنواع هذه الحيوانات، والتجاء القسم الآخر إلى أصقاع أخرى من الكرة الأرضية. ومن أشهر هذه الحيوانات الحيوان الذي يقال له «الماموث Mammouth» و«الكركدن» اللذان بعد أن انحسرت الثلوج الدائمة عن القارة الأوربية رحلا إلى الشمال. وكذلك الحيوان المسمّى «بالرنّة Renne» الذي لا يزال في القطب الشمالي مع أنَّ له بقايا مستحجرة في أواسط أوربة. وقد علت على هذه البقايا طبقات مكتوبة بكرور الأيام، ومعادن لا يمكن أن تتكوّن إلاَّ بعشرات ألوف من السنين. كما أنهم عثروا على عظام بشرية أيضًا تراكمت من فوقها تلك الطبقات، وبقيت بشريتها ظاهرة.

ولم يقع الاستدلال على وجود الإنسان في تلك الأعصر بالرمم البشرية فحسب، بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثّر. فالإنسان وجد في أواسط أوربة ـ مثلاً ـ معاصرًا للماموث وللرنّة. وقد عثر العلماء في القرن الماضي على عدّة رمم بشرية، منها ما وجد في مغاور ووجدت بجانبه عظام حيوانات ـ كالكركدن مثلاً ـ ممّا لم يبق له أثر الآن في هذه المناطق. وبعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين، اصطلح الأوربيون على قسمة الأدوار التي يعرفونها عن الإنسان إلى ثلاثة. وهذه الأدوار الثلاثة هي عبارة عن المدّة التي مضت في بداية العصر الجليدي إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لِما هي عليه أوربة اليوم. ويقدّرون هذه المدّة بألف قرن ـ أي مائة ألف سنة ـ فقد ذكروا الدور الثلاثي الذي سبق الدور الرباعي أو الجليدي. وقالوا: إنَّ حيوانات كثيرة لم تطق التغيّرات التي وقعت في أثنائه فانقرضت. وهنا اختلفوا في إمكان ظهور الإنسان في الدور الثلاثي وتحمُّله ما لم تتحمّله تلك الحيوانات الكبيرة وفي عدم إمكان ذلك.

فبعضهم ذهب إلى أنَّ الإنسان وجد في الدور الثلاثي بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلاَّ بيد مخلوق هو على شيء من العقل، وذهب المنكرون لوجود الإنسان في الدور الثلاثي إلى أنَّ الأدوات المذكورة هي أحدث عهدًا من ذلك الدور. فالمفروض ـ مع الترجيح التام ـ أنَّ الإنسان وجد في الدور الرباعي.

وأعظم دليل من الآثار الحفرية على ذلك أنه وجد بقرب « هيلدبرغ » في بلاد بادن من ألمانيا على عمق أربعة وعشرين مترًا فك أسفل إنساني، ووجد في المحل نفسه بقايا كركدن وفرس من أفراس البحر ممّا كان يعيش في الدور الثلاثي وهذا الفك وجد ضخمًا عظيمًا عريضًا جدًا قليل الارتفاع، ولم يوجد له ذقن، ووجد فيه تشابه كثير مع فكوك القردة التي تشبه الإنسان من النوع الذي يقال له "أنتربويد" "Anthropoides" بَيْد أنَّ الأسنان هي أسنان بشرية بالتمام والكمال.

وعثروا في إنكلترة بقرب "بيتدون Piltdown" على جمجمة بشرية، ولكنّها منحطّة عن الجماجم الحاضرة، فأمّا من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمّة واحدة، ووجدوها كلها متشابهة، منها واحدة وجدت في جبل طارق، وأخرى في "سبي Spy" من بلجيكا. وأخرى في فرنسة، ووجدوا من هذا النوع نفسه في أفريقية الجنوبية في روديزيا.

فثبت من تشابه جميع هذه الرِّمم وجود طبقة بشرية في الدور الرباعي المذكور، اصطلح العلما على تمسيتها بطبقة "نياندرتال Neanderthal" وذلك لأنَّ أول مثال منها وجد في واد اسمه وادي "نياندرتال" في ألمانيا. وقد وجد مع رمم هذا الدور أدوات مصنوعة بالأيدي لا تدع شكًّا بأنَّ أصحاب هذه الرِّمم كانوا بشرًا، ولكنّ كانت رؤوسهم مشابهة جدًا لرؤوس الحيوانات، وكانت الجمجمة مسطّحة، والجبهة ضيقة، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقًا، والوجه عريضًا، والفكان ناتئين إلى الإمام، والتقاطيع غير منتظمة، والعيون كبيرة، والأنف عريضًا مع ضيق في مركزه، والذقن منقبضًا، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أنَّ طبقة "نياندرتال" هي من الطبقات البشرية، ولكنّها أدنى من البشر الموجودين الآن. وهي من جهة الجمجمة والوجه تتشابه مع نوع القردة المسمّى "بالأنتروبوثيد" أي أقرب القردة للإنسان. وبالاختصار آدميُّ نياندرتال مكانه هو بين القرد والإنسان الأخير. وقد امتاز الآدمى في هذا الدور الذي نحن بصدده بقوّة العضلات ووجد العلماء القائلون بهذه النظرية أنَّ السلسلة الفقارية، وأنَّ عظام الأعضاء والأطراف والجمجمة؛ فيها تشابه كثير مع ما يقابلها في القردة. وقد رجَّحوا بحسب ما دقّقوا فيه من الهيكل العظمى الذي كان عليه إنسان "نياندرتال" أنه كان يمشي منحنيًّا نحو أفخاذه، ولم يكن ينتصب قائمًا سويًّا. ولمّا وصل علماء النشوء والارتقاء إلى هذه النقطة اختلفوا فيما يعوّلون عليه من جهة الإنسان الأول؛ فقالوا: إنَّ إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسمّاة أنترويوثيد "Anthropoide" ولكن ثبت أيضًا أنَّ هذا النوع من الإنسان وجد في أواسط الدور الرباعي، ولهذا لا يمكن أن يقال إنَّه أقدم نوع في البشر؛ لأنه قد ثبت وجود آثار الإنسان في أوائل الدور الرباعي. فصار العلماء يتساءلون كيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟ فذهب هيكل "Haeckel" الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أنَّ الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذي يقال له "أورانج أوتان".

وقال أضداد نظرية النشوء والارتقاء إنَّه لا يزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسّطة وسمّوا هذا النوع بيتيكانتروپ "Pithécanthrope" فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمي نياندرتال وبين الآدمي المسمّى بيتيكانتروپ وبين هذا وبين القرد المسمّى أورانج أوتان؛ فليس يستلزم ذلك حتمًا أن يكون الإنسان الحاضر هو من هذه السلائل، بل إنسان نياندرتال انقرض في أواسط الدور الرباعي ولم يترك بقايا.

وقالوا إنَّ الآثار البشرية التي عثروا عليها لا تصلح حتّى الآن مدارًا للحكم. وخالفهم الذين قالوا إنَّ بين إنسان نياندرتال والإنسان الحالي وجوه شَبَهَ كثيرة، وأنه لا يمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال والتبدّل منه إنسانًا من نوع آخر أكمل من الأول، وهو الذي سمّوه بالإنسان العاقل، وبالإفرنجية " Home Sapiens " فإذا ثبتت نظرية الإنسان العاقل هذا فيكون قد انقطع ما بين الإنسان الحالي وبين الإنسان الأصلي الذي عاش في النصف الأول من الدور الرباعي، والذي يشابه القرد كثيرًا.

هذا وبعد سلالة نياندرتال وجدت في أوروبة سلالة أخرى يقال لها سلالة جريمالد " Grimalde " وقد عثروا على بقايا هذه السلالة في إيطاليا بقرب منتون " Menton " وهذه البقايا عبارة عن هيكلين عظميَّيْن؛ أحدهما هيكل امرأة والثاني هيكل غلام مراهق مدفونين معًا. ووجدت قامة هذا النوع عالية أي أنها تبلغ متوسّط القامات الحاضرة، ووجد الوجه أقل ضخامة، والجبين أعرض وتباعد هذا النوع كثيرًا عن المنظر الحيواني الذي كان يظهر على الإنسان المنسوب إلى الطبقات السابقة الذكر، ولكن نوع جريمالد هذا هو نوع سوداني بارز للعيان. ومن العلماء من ذهب إلى أنَّ أصل السلالة هو من أفريقية، وأنه موجود منها الآن في جنوبي أفريقية، وذلك عند قوم يقال لهم بوشيمان " Boschimans " وخالف بعضهم هذا الرأي وقالوا إنَّ الإنسان في تلك الأدوار المتوغّلة في القدم لم يكن ليقدر على الانتقال من أفريقية إلى أوروبة، ولا كان يعرف ركوب البحر. وأنَّ البوشيمان هؤلاء لا يتشابهون مع سلالة جريمالد، وإنَّما هم نوع من الزنوج قائم بذاته، ولم يوجد إلى الآن بقايا لسلالة جريمالد في أوروبة سوى هذين الهيكلين اللذين عثروا عليهما في إيطاليا بقرب منتون.

ثمَّ بعد سلالة جريمالد افترضوا وجود سلالة اسمها كرومانيون " Gro - Magnon " وهذه السلالة عليها مسحة الجمال؛ فالقامة أعلى من قامات السلائل الأولى، لأنَّ سلالة نياندرتال كانت القامة فيها مترًا وخمسة وخمسين، أمَّا هذه فمتر وخمسة وثمانون وهذه ظاهرة عليها قوّة العضلات، والجمجمة فيها ضخمة مستطيلة من الأمام إلى الوراء كما هي في السلائل السابقة، وهي مسطّحة تسطّحًا عموديًا لكن أقل من تسطّح سلالة نياندرتال، وبينما الجمجمة مسطّحة فإذا الوجه قصير وهو عريض من جهة العوارض، وضيّق من جهة الحنكين، وأن الحنكين لا يكادان يظهران مع أنَّ الذقن بارز جدًّا. ففي هذه السلالة تَضَادّ

كثير، أي بينما الجمجمة مستطيلة، والوجه قصير، وبينما أعلى الوجه عريض، إذ أسفله ضيّق، وهذه السلالة وجدوا منها بقايا كثيرة.

وذكروا بعد هذه سلالة منسوبة إلى "شانسلاد Chancelade" المكان الذي وجدوا فيه بقاياها، وقالوا إنّها شبيهة في أكثر الملامح بالإنسان الحالي، وإنَّ إبهام الرجل بعيد عن سائر أصابع الرجل. وهذا شيء يوجد في القرود كما يوجد في البشر الحاضرين. وبعد هذه الطبقة قرّروا وجود طبقة أوائلها عاشوا في أواخر الدور الرباعي وقالوا: إنَّ قاماتها صغيرة، وجماجمها قصيرة مستديرة، وطبقة أخرى قاماتها أعلى من القامات المتوسّطة، وهي ذات جماجم مستطيلة. وقد اختلطت هذه السلائل بعضها ببعض، وما زال الإنسان يتكمّل إلى أن صار كما هو الآن، وما زال يزداد بسطة في العلم والجسم، وقد بدأ بأنَّ يصنع بيده في الدور الرباعي وهو ما يسمّى "بالدور الحجري" فقد وجدوا حجارة مقطوعة من أيام هذا الدور، ثمَّ بكرور الزمان صار الإنسان ينحت الحجر المقطوع، وقد قسّم العلماء هذه الأدوار التي بدأ الإنسان فيها يصنع بيده إلى أقسام؛ منها الدور الشيليّ "Chelleen" وهو معاصر للدور الرباعي الذي عاش فيه فرس البحر والكركدن، والدور الأشوليّ "Achenleen" وهو المعاصر لعصر الماموث، والدور الموستيري "Moustirien" وهو معاصر لهذين الدورين، والدور الأورنياسي "Aurignacien". والدور السوليتري "Solutreen" والدور الماجداليني "Magdalenien" وهذان عاصرا الحيوان المسمّى بالرنّة، والدور الآزيلي "Aziliénne" وكلّ هذه الأسماء مأخوذة من أسماء الأماكن التي وجدت فيها بقايا صناعية من الدور الحجري في أوربة.

وممّا لا يجوز أن ننساه كون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرِّمم التي وجدت في أوربة، والعلماء الأوروبيون لا يعرفون شيئًا تقريبًا عما وجد من رمم الإنسان الأول في سائر القارات، ولكنّهم يحكمون بأنَّ النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعًا كما حصل في أوربة على وتيرة واحدة.

فهذه خلاصة ما عند الأوربيين الذين لا يتقيّدون بالكتب الدينية من النظريات عن أصل الإنسان، ننقله لقرّاء هذا الكتاب حتّى لا يفوتهم شيء ممّا يجب معرفته على أهل هذا الزمن، ومن قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به.

ولا يزال في أوربة عدد كبير من العلماء يردون بشدّة نظرية داروين، وليسوا هم فقط

من أنصار الأديان؛ بل يوجد من العلماء الطبيعيين من يقيم الأدلّة على فساد هذا المزعم. ومنهم من ذهب مذهبًا متوسّطًا، فوافق على بعض قضايا المذهب الدارويني، وردّ بعضها بحجّة فقد الأدلة الكافية. وعندي كتاب عنوانه "المذهب الدارويني وما فيه من صواب وخطأ" وممَّن اشتهر في الردّ على مذهب داروين الإنجليزي، ولامارك الإفرنسي في النشوء والارتقاء؛ الأستاذ "ڤيالتون Vialleton"، المدرّس في جامعة مونبلييه، والأستاذ موريس توماس البلجيكي، وغيرهما ممَّن يقولون إنَّ مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم، وقال ڤيالتون: إنَّ داروين قد ذهب في نظريته مذهبًا جاهلاً ماهيّة القواعد التي تتنزل عليها الجزئيات، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض، كما أنَّ خلفاءه في المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التي بين الأنواع نظرًا سطحيًا، وقرّروا النشوء والارتقاء بدون تأمّل كاف في كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها.

فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الأثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدري الذي يعهد في ذوات الأثداء المتّصلة بالطيور، لكن إذا أنعم الإنسان النظر لا يجد هذه الرابطة في محلّها، لأنَّ هذا النطاق ليس في الحقيقة جزءًا من هيكل الصدر؛ بل هو خارج عنه، وليس له اتّصال بالقلب، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات. فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحيّة. والحال أنَّ طبيعة الحيوانات ذات الأثداء لا تمتاز فقط بالنطاق الصدري؛ ولكن بمميزات أخرى ظاهرة في جميع تكوينها، وفي أنسجتها العضوية، وفي الجلد والشعر والعظام، وكلّ ما يعهد في ذوات الأثداء. والخطأ نفسه وقع في تقدير خصائص الأعضاء؛ فداروين يرى أنَّ أي عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية. فإنَّ الأعضاء تؤلّف مع الأنطقة آلات محرّكة لها في كلّ نوع وظائف محدودة لا يمكن أنَّ عملها يتعدّى من وظيفة إلى وظيفة، إذ ليس من وسيط بين الجهازين. ففي طبقة الحيوانات ذوات الأربع، إذا وجد نوع طيَّار مثلاً، يجب أنَّ الكتف التي كانت في البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عند ما يطير، ولو لا ذلك لا يتمكّن من الطيران. فهذا المركز الذي تأخذه الكتف من جديد لا يمكن أن يحصل بالتدريج، ولا مناص من أن يكون وضع أُنُفًا بدون تدرّج. كذلك ذوات الأثداء السابحة التي يسير بها الذنب المتحرّك من الأعلى إلى الأسفل؛ فيجب أن يكون لهذا الذنب قوّة وقطر عظيمان، بحيث أنَّ الشقّ الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقيًا بدلاً من أن يكون عموديًا كما هو في سائر ذوات الأثداء.

ويقول ڤيالتون: إنَّ القول بأنَّ الجراثيم تعيد في أثناء نموّها الصور المتابعة التي سبقت نوعها هو قول مرسل جزافًا، وهو أشبه بالمجاز منه بالحقيقة، ففي الجراثيم شيئان؛ البدايات البسيطة التي هي عامّة لجميع النوع، ثمَّ الأجهزة والصور التي تتلو هذه البدايات. فالبدايات لا يمكن أن يتكوّن منها نوع خاصّ، لأنها حويصلات بسيطة جدًا أشبه ببراعم تختلف كثيرًا عما سيأتي منها، بل هي بدايات ساذجة عامّة لا ينتج منها أقسام خاصّة إلاَّ بعد النمو. فالحويصلة لا يمكن أن تشبه حيوانًا تامًّا مهما كان دنئ الطبقة، ولكن تشبه حويصلته. والحويصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة في جهازها التنفّسي، ولكن قد تشبه حويصلة السمكة قبل أن يكتمل فيها هذا الجهاز، وأورد أدلة كثيرة ليس هنا موضعها.

وكان الكيماوي الفرنساوي برتلو - وهو من أشهر علماء الطبيعة - ينعت مذهب داروين بقوله: «قصّة داروين الخيالية» و «قصيدة لامارك الفكرية» مع أنَّ برتلو كان يحفل بهذا المذهب. فمن شاء التوسّع في هذا الموضوع فليقرأ كتاب ڤيالتون المسمّى «بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء».

« L'origine des Étres Vivants, l'llusion transformiste par Vialleton »

وقد طرق السيِّد جمال الدين الحسيني الأفغاني هذا الموضوع، وردَّ على نظرية داروين، ونحن واضعون كلامه تحت أنظار القراء.

وقد اعترض بعضهم على خوض السيِّد جمال الدين في حديث كهذا يلزم له تخصّص في العلوم الطبيعية، وليس هذا الاعتراض بشيء، لأنَّ التخصّص شرط في المباحث التفصيلية، فأمَّا في المبادئ العامّة فالذي يلزم إنَّما هو الفلسفة، ومن كان أطول فيها باعًا وأوسع نظرًا كان أحق بأن يتكلّم بها؛ فالسيِّد جمال الدين إذًا يقدر أن يقول هنا، وهو يقول ما يأتي في رسالته المعروفة «بالردّ على الدهريين».

«وذهب فريق إلى أنَّ الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزال الآزال ولا تزال، ولا ابتداء لسلسة النباتات والحيوانات. وزعموا أنَّ في كلّ بذرة نباتًا مندمجًا فيها، وفي كلّ نبات بذرة كامنة، ثمَّ في هذه البذرة الكامنة نبات وفيه بذرة إلى غير نهاية. وعلى هذا زعموا أنَّ في كلّ جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانًا تامّ التركيب، وفي كلّ حيوان كامن في الجرثومة جرثومة أخرى، يذهب كذلك إلى غير نهاية. وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناهٍ وهو من المحالات الأوّلية.

وزعم فريق ثالث أنَّ سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع، كما أنَّ الأجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص، ولكن لا شيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم، وإنَّما كلّ جرثومة وبذرة هي بمنزلة قالب يتكوّن فيها ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى. وفاتهم ملاحظة أنَّ كثيرًا من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولّد عنها حيوان تام الخلقة، وكذلك الحيوان التام الخلقة، قد يتولّد عنه ناقصها أو زائدها.

ومال جماعة منهم إلى الإبهام في البيان فقالوا: إنَّ أنواع النباتات والحيوانات تقلّبت في أطوار، وتبدّلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور، حتّى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة. وأول النازعين إلى هذا الرأي «أبيقور» أحد أتباع «ديوچينس الكلبي»، ومن مزاعمه أنَّ الإنسان في بعض أطواره، كان مثل الخنزير مستور البَشَرة بالشعر الكثيف، ثمَّ لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتّى وصل يالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة، والخلق القويم، ولم يقم دليلاً ولم يستند على برهان فيما زعمه من أنَّ مرور الزمان علّة لتبدّل الصور وترقّي الأنواع.

ولمّا كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخّرون من المادّيين عنه إلى القول بالحدوث. ثمَّ اختلفوا في بحثين؛ الأول بحث تكوّن الجراثيم النباتية والحيوانية، فذهب جماعة إلى أنَّ الجراثيم على اختلاف أنواعها تكوّنت عندما أخذ التهاب الأرض في التناقص، ثمَّ انقطع التكوّن بانقضاء ذلك الطور الأرضي. وذهبت أخرى إلى أنَّ الجراثيم لم تزل تتكوّن حتّى اليوم خصوصًا في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة.

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصًا بعدما تبيّن لهم أنَّ الحياة فاعل في بسائط الجراثيم، كوجب لالتئامها، حافظ لكونها. وأنَّ قوّتها الغاذية، هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حيًّا بالتغذية فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثمَّ صارت إلى الانحلال. وظنّ قوم منهم أنَّ تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس، وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أنَّ الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تُمح صورها في تلك النيران المستعمرة؟!.

والبحث الثاني من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (نقول: وصل السيِّد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحوّلها من حالة

الخداج والنقص، إلى ما نراه من الصور المتقنة، والهيآت المحكمة، والبُنَى الكاملة، فمنهم قائل: إنَّ لكلّ نوع جرثومة خاصّة به، ولكلّ جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها في الأطوار الحيوية، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء غير الحيّة ليصير جزءًا لها بالتغذية، ثمَّ تجلوه بلباس نوعه. وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوي من عدم التفاوت بين نطفة الإنسان ونطفة الثور ونطفة ـ الحمار مثلاً ـ وظهور تماثل النطف بالعناصر البسيطة. فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها؟! ومنهم ذاهب إلى أنَّ جراثيم الأنواع كافة ـ خصوصًا الحيوانية ـ متماثلة في الجوهر، متساوية في الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهري، ولا انفصال ذاتي. ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان، وحكم الحاجات والضرورات، وقضاء سلطان القواسر الخارجية.

ورأس القائلين بهذا القول: «داروين» وقد ألّف كتابًا في بيان أنَّ الإنسان كان قردًا، ثمَّ عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة، وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتّى ارتقى إلى برزخ «أوران أوتان» ثمَّ ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان فكان صنف «البيم» وسائر الزنوج، ومن هناك عرّج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين، فكان الإنسان القوقاسي (قد ثبت أنَّ الداروينيين يستندون في النشوء والارتقاء على جماجم وجدت في أوروبة تحت الأرض، وليست هذه الجماجم وهذه الهياكل أقرب إلى الإنسان القوقاسي منها إلى الإنسان الزنجي، ولا هي بالعكس، بل هي ناقصة عن كلّ منهما) وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكرّ الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك!!.

(لا مبالغة في قول السيِّد جمال الدين هذا عن مذهب داروين؛ لأنَّ هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هي منشأ التنوّع وأنَّ كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدّي إلى ما يظهر عجيبًا وربّما يظهر مستحيلاً وليس الأمر كذلك عندهم، وأنَّ الذي جعل كيماويًا كبيرًا مثل «برتلو» يسمّى مذهب داروين قصصًا متّسع الخيال، هو حكم داروين باطّراد هذا المبدأ في المخلوقات)

فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند، والنباتات المتولّدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدّدها التاريخ إلاَّ ظنًا، وأصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب

في هواء واحد، وعروقها تسقى بماء واحد؛ فما السبب في اختلاف كلّ منها عن الآخر في بنيته، وأشكال أوراقه، وطوله، وقصره، وضخامته، ورقّته، وزهره، وثمره، وطعمه، ورائحته، وعمره؟ فأي فاعل خارجي أثّر فيها حتّى خالف بينها مع وحدة المكان والهواء والماء؟! أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه!! وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البُنَى والصور، والقوى والخواص، وهي تعيش في منطقة واحدة، ولا تسلّم حياتها في سائر المناطق. أو عرضت عليه الحشرات المتباينة في الخلقة، المتباعدة في التركيب، المتولّدة في بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو إلى تربة جديدة تخالف تربتها؛ فماذا تكون حجّته في علّة اختلافها؟ كأنها تكون كسفًا لا كشفًا!.

بل إذا قيل له: أي هاد هدى تلك الجراثيم في نقصها وخداجها؟ وأي مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة، ووضعها على مقتضى الحكمة وإيداع كلّ منها قوّة على حسبه، ونوّطها بكلّ قوّة في عضو إزاء وظيفة، وإيفاء عمل حيوي، ممّا عجز الحكماء عن درك سرّه، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه. وكيف صارت الضرورة العمياء معلمًا لتلك الجراثيم، وهاديًا خبيرًا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة، يدفعه ريب ويتلقّاه شكّ إلى أبد الآبدين...إلخ)

قلنا: يجوز أن يكون في كلام السيِّد جمال الدين هذا ما يعترض عليه بعض العلماء الطبيعيين من جهة أنَّ السيِّد فيلسوف إلهي يستند على قواعد من الحكمة والمنطق أصبح كثير من الطبيعيين اليوم يرفضونها ولا يجعلونها معيارًا للحكم؛ ولكن لا يمكن هؤلاء ولا غيرهم. أن يأتوا في نقض كلام السيِّد في هذا الموضوع بما يشفي الغليل، أو بما يثلج به اليقين. فلا «داروين» ولا «مارك» ولا «بخنز» ولا خصومهم الكثيرون في أوربا، ولا «السيِّد جمال الدين» يقدر واحد منهم أن يقول قولاً في معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات، وإنَّما هي نظريات يترجّح بعضها في نظر بعض العلماء، ولا يكاد يجزم به حتّى يقوم في وجهه ما يمنعه من الجزم.

وما أحسن قول جمال الدين: لا يزال يرفعه ريب ويتلقّاه شكّ إلى أبد الآبدين. ولهذا نجد علم التكوين بنوع خاصّ بين مدّ وجزر، وأخذ وردّ، وعكس وطرد لا ينتهي. وكيف يمكن أن ينتهي والآثار التي بنى أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هي آثار ضئيلة جدًا، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير!! وقد اعترفوا هم بأنَّ كلّ ما عثروا

عليه في باطن الأرض إن هو إلاَّ هيكلان أو ثلاثة في القارة الأوروبية، ولم يعثروا حتّى هذه الساعة في القارات الأخرى التي هي أوسع من أوروبة بكثير! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة في بقعة واحدة؛ فإنَّه يستحيل القطع بشيء. هذا ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربي الدكتور شبلي شميِّل اللبناني، نشر في ذلك كتابًا في مصر ضمّنه مذهب داروين الإنجليزي، وبخنر الألماني، وجعل له مقدّمة جاهر فيها بالمذهب المادّي مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق، وردّ عليه إذ ذاك الأستاذ الشيخ ابراهيم الحوراني من علماء المسيحيين الذين يردّون المذهب المادّي. وكذلك ردَّ عليه اليسوعيون في بيروت، وبعض القسيسين المارونيين واشتدّت المناقشات بين الفريقين، وكنّا نطالعها أيام الطلب قبل هذا التاريخ بخمسين سنة. وكان نشر الأستاذ الشيخ محمَّد عبده رسالة أستاذه جمال الدين التي نقلنا عنها هذه الجمل لذلك العهد أيضًا. فمذهب داروين معروف في أوروبة منذ ثمانين سنة، وفي العالم العربي منذ خمسين سنة.

* * *

نوح وولده وقضيّة الطوفان والسلائل البشرية *

إنَّ ما ذكره ابن خلدون في هذا الموضوع لا يخرج عما اصطلح عليه المؤرّخون القدماء مستندين فيه على التوراة، ولكن المؤرّخين اليوم قد عدلوا عن هذه الروايات، وعن القول بأنَّ سام وحام ويافث هم آباء البشر الحقيقيين، وأنَّ سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الزنج، إلى غير ذلك. وإذا ذكروا هذه الأمور فإنَّما يذكرونها وفقًا للتوراة وللتقاليد القديمة، ومن باب العلم بالشيء، ولكنّهم لا يعتقدونها. فأمَّا الطوفان فإنَّهم يعتقدون بوقوع حادث عظيم من هذا القبيل ـ إن لم يكن عمّ الأرض كلها فلا شكّ في أنه غمر جانبًا منها ـ وذلك لأنه وجدت روايات تشابه خبر الطوفان عند الأمم الأخرى.

وقد أجمع المسلمون والنصارى واليهود على وقوع الطوفان لورود ذكره في كتبهم المنزلة وزعم «أوسيليوس» العالم اللاهوتي الإنجليزي من رجال القرن السادس عشر للمسيح أنَّ الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل المسيح، وتابعه في ذلك المطران الإفرنسي «بوسويت» وذهب «كلنتون» الإنجليزي إلى أنَّ الطوفان إنَّما وقع سنة ٢٤٨٢ وهؤلاء ممَّن يعتقدون أنَّ العالم وجد قبل المسيح بأربعة آلاف سنة. ومن المعلوم أنَّ هذه الروايات مردودة اليوم عند جميع علماء أوربة ـ تقريبًا ـ وهؤلاء يقولون بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الإنسان، فضلاً عن وجود المادة الأرضية نفسها، وفي القرآن لا يذكر عدد السنين التي مرّت على الإنسان، وإنَّما يقول الله تعالى: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهو أصح الأقوال. وقد روى بيروز الكلداني رواية تشابه الطوفان، وهو أنَّ الملك «كيزوترس» نجا بسفينة صنعها لنفسه عندما غرق جميع النوع البشري. وجاءت رواية عن اليونان بأنه وقع فيها طوفان في القرن الثامن عشر قبل المسيح، وكذلك طوفان آخر في القرن السادس عشر، وأمَّا بيروز الكلداني فقد كتب تاريخ بابل في أقدم الأعصر، وأخذ عنه يوسيفوس اليهودي.

* تعليق على ما جاء بسطر ٣ ص. ٦، ج١ من ابن خلدون.

فأمّا تقسيمات البشر إلى سلالة حام وسام ويافث، فقد قام مقامها اليوم تقسيمات أخرى، فقالوا سلالة العصر الحجري، وسلالة العصر الحديدي، وسلالة عصر سكب الرمل. وجعلوا تاريخ ظهور البشر على حسب التغييرات الجوية، وتقلّص الجليد التدريجي فإنَّهم استدلّوا بالآثار الباقية في الأرض على مرور الإنسان ببعض البقاع في عصر من الأعصر، ممّا يدلّ على أنَّ تلك البقعة كانت قد أصبحت صالحة للسكنى، على حين أنَّ غيرها في ذلك الوقت كان لا يزال غير قابل لسكنى الإنسان، فالأرض هي التي يصح أن يقال إنَّها أم البشر، وإنَّها واضعة التقسيم بين السلائل البشرية. وليس ذلك من سام وحام ويافث كما قال الأوّلون.

وذهبوا إلى أنَّ الإنسان قطع من الحيوانية الدنيا إلى أن صار إنسانًا ـ شبيهًا لِما هو اليوم ـ عشرات ألوف من السنين، حتّى قالوا: إنَّ السلالة المسمّاة نياندرتال "Nèanderthal" عاشت نحوًا من مائتي ألف سنة، وأنه لمّا بدأ العصر الجليدي الرابع يضمحل أمام أحوال جوّية أميل إلى الاعتدال ظهر نوع جديد يظنون أنه بدأ ظهوره في جنوبي آسية، أو شمالي أفريقية، أو في الأماكن التي غمرها البحر المتوسّط فيما بعد، وأنه مضى مئات من القرون حتّى تكمّلت أعضاء هذا النوع الجديد الذي سمّاه علماء السلالة البشرية بالإنسان السابي " Homo - Sapiens " وهذا النوع البشري في جمجمته وأيديه وأسنانه وعنقه يشبه تمامًا الإنسان الحالي. ويذهبون إلى أنه ربّما كان قد وجد سلالات أخرى غير هذين النوعين، وربّما يكون قد وُجد أنواع متوسّطة بينها وبين النوع الإنساني الحاضر. وقد وجدوا في كهوف "كرومانيون " Cro - Magnon " هياكل أجسام بشرية ترجع إلى نهاية العصر الحجري، وهي تامّة الخلقة، فأطلقوا على هذه السلالة اسم سلالة كرومانيون، ووجدوا آلات من الصوّان ومن الصدف مع هذه الأجساد، كما أنهم وجدوا في مغارة غريمالد بقرب منتون جنوبي فرنسة هياكل أجساد بشرية مشابهة لأجساد الزنوج اليوم، فترجّح وجود سلالتين بشريتين في ذلك العصر الأقدم يختلف إحداهما عن الأخرى. فسلالة كرومانيون ربّما كانت متحدّرة من سلالة غريمالد، ويجوز أن يكون في ذلك الوقت قد بقيت بقايا من سلالة نياندرتال.

ويظهر أنه كلما كان الجو يميل إلى الاعتدال، والجليد يتقلّص؛ كان الإنسان يتكمّل وتعلو طبقة عقله، ويزداد التناسب في أعضائه. وبالاختصار لم يكن اختلاف السلائل عند العلماء العصريين، والتباينات التي أوجدت الشكل القوقاسي، والشكل المغولي، والشكل

الأمريكي القديم؛ إلاَّ نتيجة العوامل الجوية باختلافها وتحوّلها من طور إلى آخر، وما يستتبع تحوّلاتها من تغيّر النبات والحيوان. فالهواء والغذاء هما اللذان كانا الأصل في هذه التباينات بين البشر، حتّى تكوّنت هذه السلائل المختلفة. وهذا قد أجمع عليه علماء الوقت الحاضر، وإن كانوا لا يزالون غير متّفقين في نسبة الشعوب إلى سلالة سلالة، وذلك لفقد الوثائق التاريخية، وقلّة الآثار التي في الأيدي. فأكثر ما عندهم من التعليلات لإثبات أنَّ هذا هو من هذه السلالة، وأنَّ ذاك من تلك السلالة؛ إنَّما هو افتراض، وأحيانًا تخرّص، والجزم غير ممكن. وأكثر العلماء يقولون إنَّ تحقيق هذا الباب متعذّر، ولكن مأمول ازدياد المعلومات بالعثور على الآثار البشرية القدمى، لا سيَّما في آسية وأفريقية وأميركا. وقد قيل بناء على الآثار البشرية القدمى التي وجدت في أميركا: بأنَّ الإنسان قبل أن يتكمّل ويصل إلى درجة الإنسانية الحاضرة لم يوجد في القارّة الأميركية، فما قطع الإنسان بوغاز بيرين بين آسية وأميركا، وأخذ ينتجع أميركا حتّى وصل إلى القسم الجنوبي منها إلاَّ بعد أن كان قد صار إنسانًا كاملاً. فالعالم القديم وحده، أي أوروبا وأسية وأفريقية؛ هو العالم الذي وجدت فيه السلائل المتوسّطة بين الحيوانية والإنسانية، ومرجع هذه الفروق والتباينات بين أصناف السلائل هو اختلاف البيئة، فكل بيئة أثَّرت في سكانها تأثيرًا خاصًّا، وطبعته بطابعها. وقد يقع الاختلاط بين السلائل المختلفة بسهولة، حيث لا توجد الموانع الطبيعية، وهذه الموانع هي من قبيل الأقيانوس الاطلانطيكي، ومنها في آسية الوسطى جبال عالية منعت اتّصال الأمم بعضها ببعض وقالوا إنَّهم وجدوا في جزيرة تسمانيا « Tasmanie » بقرب استراليا شعبًا صغيرًا بقي عائشًا من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين ألف سنة في الحالة التي كان فيها في أواخر الدور الجحري.! ولمّا كشف الهولنديون سنة ١٦٤٢ هذه الجزيرة وجدوهم لعدم اختلاطهم بغيرهم على ما كانوا عليه منذ آلاف من السنين، وقالوا: إنَّ التاسماني الأخير مات سنة ١٨٧٧، وبه انقرضت هذه السلالة.

وقد لوحظ أنَّ سكّان شرقي آسية، وسكّان أميركا في القديم، يغلب عليهم اللون الأصفر، والشعر الأجعد، كما أنَّ سكّان أفريقية جنوبي الصحراء الكبرى يغلب عليهم اللون الأسود، والأنف المفرطح، والشعر المفلفل، والشفاه الضخمة. كما أنَّ سكّان شمالي أوربا وغربيها شقر الألوان، زرق العيون، مع الشعر السبط، والجلد البَضّ، وعلى شواطئ البحر المتوسّط نجد الشعوب بيض الألوان لكن مع سواد العيون والشعور، وفي جنوبي الهند

نجد الشعوب غالبة عليها سمرة اللون، وجعودة الشعر. ولكن كلّما ذهب الإنسان شرقًا مالت الأوان إلى الاصفرار. ولا يجب أن تخلو هذه القواعد من استثناءات، ففي أفريقية مثلاً أقوام ملامحهم آسيوية، وفي بلاد اليابان جنس يقال له الأينوس « Oinos » هم أشبه بالأوربيين منهم باليابانيين، وقد وجدوا قومًا أشبه بالزنوج في جزر أندمان « Andamans » في خليج البنغالة من الهند، كما أنه في بعض أقسام الهند يوجد أناس يغلب عليهم السَّواد الزنجي وليس من المحقّق كون هؤلاء الهنود من أصل واحد مع سودان أفريقية، فإنَّ تأثير البيئة واستمرار هذا التأثير ألوفًا من السنين هما اللذان أوجدا الفروق التي ميّزت السلالة البيضاء عن الصفراء، وعن الحمراء، وعن السوداء، بحيث أنه في أواخر الدور الحجري في أوروبة ـ أي منذ اثني عشر ألف سنة ـ كانت السلائل البشرية قد تميّزت بعضها عن بعض.

قال الفيلسوف المعاصر ولز الإنجليزي « H.G.Wells » إنَّ العلماء كانوا لا يزالون يقسمون البشر إلى ثلاث أو أربع سلائل منفصلة بعضها عن بعض منذ القِدم وهي سلالة سام، وحام، ويافث اعتمادًا على قصّة نوح، الواردة في الكتب المقدّسة ولم يبدأوا بإخراج البشرية من هذا التقسيم، وبالاعتماد على نظرية أخرى معناها أنَّ البشرية كلّها كتلة واحدة تباين بعضها عن بعض بالتأثيرات الجوية، والعوامل الأرضية والقوى المختلفة، إلاَّ منذ خمسين أو ستين سنة. ولكن العلماء لا يزالون مختلفين في بعض الشعوب هل هي عائدة إلى هذه السلالة، أو تلك السلالة؟ لأنَّ الجزم بذلك غير ممكن. فالسلائل المشهورة هي أربع، وكلّ منها مختلط بالآخر؛ فأوربا وشطوط البحر المتوسّط وآسيا الغربية تسكنها منذ آلاف من السنين أمم يقال لها السلالة القوقازيّة، وهي ثلاثة أقسام؛ الجنس الأشقر الشمالي، وقد زعموا أنه جنس متوسّط بين سلالتين، والجنس الألبي الذي في وسط أوروبة؛ والجنس الايبيري أو الساكن على شواطئ البحر المتوسّط. ثمَّ تأتي السلالة الصفراء وهي في شرقي آسية، وفي أميركا، ويقال لها السلالة المغولية. وفي أفريقية السلالة السوداء، ومنها في استراليا وفي غينيا الجديدة، ثمَّ إنَّ السلالة الإيبيرية المشتقّة من السلالة البيضاء كانت في الماضي تسكن أقطارًا أوسع ممّا تسكن الآن، فلذلك لا تعلم في الحقيقة التخوم التي تفصلها عن السلالة السوداء، ولا الفواصل التي تفصلها عن شعوب شرقي آسية. وقد ذهب « فيلفريد سكاڤن » إلى أنَّ « هوكسلي » Huxley ـ وهو عالم طبيعي إنجليزي ممَّن يقول بالنظرية الداروينية ـ كان يقول: إنَّه يوجد بين المصريين وبين الدارفيديين ـ شعب أورال النائي جاء إلى الهند

واستقر في جنوبيها ـ وحدةٌ في الأصل، وأنَّ هناك نطاقًا بشريًّا مستطيلاً من ذوي اللون الأسمر كان يمتدّ في القِدم من الهند إلى أسبانية.

قال ولز: ويجوز أنَّ هذا النطاق يكون قد امتدّ حتّى شطوط الأوقيانوس الباسيفيكي. وربّما كانت الشعوب الشمالية الشقراء، والمغولية الصفراء، فرعين من أصل واحد.

وهذه الشعوب الشمالية انفصل بعضها عن بعض، فتباعد ما بينهما باختلاف البيئة، ويظهر أنه جاء وقت على التاريخ البشري انتشرت فيه ثقافة أوّلية حجرية ذات خصائص مميّزة لها، وكان انتشارها على شواطئ البحر المتوسّط بين الشعوب المائلة إلى السمرة، ثمَّ امتدّت إلى الهند وإلى شواطئ الصين، ثمَّ إلى المكسيك والبيرو، ولذلك تجدها دائمًا على الشواطئ البحرية غير متوغّلة في الداخل.

وذهب «اليوت سميث» إلى وجود عادات وعقائد عامّة لهذه الأقوام الساكنة على هذه الشواطئ لا تجدها عند الأمم الشمالية، ولا عند الأمم الجنوبية. ومهد هذه الثقافة الحجرية كان قبل المسيح بخمسة عشر ألف سنة على ضفاف البحر المتوسّط، والقسم الشمالي من أفريقية. والمدنيّات الأولى أي مدنيّة مصر، ووادي الفرات، ودجلة، قد تولّدت من هذه الثقافة الحجرية. وكذلك مدنيّة العرب الرحّل الساميّين. ا هـ ملخّصًا.

* * *

التوراة وهل وقع فيها تبديل أم لا؟ *

هذا مقام جليل دقيق لا بدَّ للباحث فيه من أن يبلغ نهاية التروّي حتّى لا تدحض قدمه، ولا يقع فيما يؤاخذ عليه. والذي يظهر من رأي ابن خلدون أنه لا يعتقد بتبديل التوراة أخذاً بقوله تعالى: (وعندهم التوراة فيها حكم الله) قال: فلو كانوا بدّلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله. ونقل عن ابن عباس قوله: معاذ الله أن تعمد أمّة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدّله. أو ما في معناه. ثمَّ قال: إنَّ ما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل في التوراة إلى اليهود فإنَّما يراد به التأويل فيها. ثمَّ استدرك بقوله: (إلاَّ أن يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها، فذلك يمكن في العادة، لا سيَّما وملكهم قد ذهب، وجماعتهم انتشرت في الآفاق، واستوى منهم الضابط وغير الضابط)...إلخ.

قلت: وليس هذا مذهب جميع المسلمين، فإنَّ قضيّة التبديل في التوراة معروفة من صدر الإسلام، ومشار إليها في القرآن نفسه بأنَّ اليهود كانوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، وأنهم كانوا يتعمّدون كتمان بعض ما أنزل عليهم، وقد ضربوا مثلاً لذلك كون النبي (ﷺ) سأل اليهود عما جاء في التوراة بشأن رجم الزانية فأخفوا عنه آية التوراة المتعلّقة بهذا الأمر. ومن المعلوم أنَّ هذا وأمثاله ممّا شهد به القرآن على اليهود، وجاء مثله في الحديث؛ لا يخرج عن كونه تبديلاً، ولذلك صارت قضيّة التبديل في التوراة مثلاً مضروبًا. كنت أسمع أستاذنا الشيخ محمَّد عبده رحمه الله يقول: «هذه توراة مبدّلة» ولا أرى في نسبة التبديل إلى التوراة ما يخالف قوله تعالى: (وعندهم التوراة فيها حكم الله) لأنَّ العبرة بالغالب، أو لأنه يريد أن يقول: إنَّ التوراة فيها حكم الله إذا كانت على وجهها الصحيح. وبالجملة فالمسلمون منهم من حصر معنى التبديل في تحريف الكلم عن مواضعه، ومنهم من اتّهم اليهود بتبديل التوراة نفسها.

ومقدّم هذه الطبقة هو أبو محمَّد بن حزم. فقد ذكر في كتابه «الملل والنحل» وجود مناقضات ظاهرة، وأكاذيب واضحة في «الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة، وفي سائر

* تعليق على ما جاء بسطر ٣ ص.٨، ج١ من ابن خلدون.

كتبهم، وفي الأناجيل الأربعة، يتيقّن بذلك تحريفها وتبديلها وأنها غير الذي أنزل الله عزَّ وجلّ». ثمَّ ذكر ابن حزم المواضع التي حكم فيها بوجود الكذب والتناقض، وقال: «إنَّها من الكذب الذي لا يشكّ كلّ ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى، وعلى الملائكة عليهم السلام، وعلى الأنبياء عليهم السلام». ثمَّ قال قبل أن شَرَعَ في إيراد الأمثلة: «إنَّنا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئًا يمكن أن يخرج على وجه ما وإن دقّ، وبعد فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له. وكذلك أيضًا لم نخرج منها كلامًا لا يفهم معناه، وإن كان ذلك موجودًا فيها. لأنَّ للقائل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد، وإنَّما أخرجنا ما لا حيلة فيه، ولا وجه أصلاً إلاَّ الدعاوي الكاذبة التي لا دليل عليها أصلاً لا محتملاً ولا خفيًا».

وقد جاء في الأنسيكلوبيدية الإسلامية بقلم المستشرق الألماني اليهودي هوروفتز ـ وكانتَ لنا معرفة به وهو الذي ترجم لنا شِعْرًا ارتجلناه عند زيارة بيت غوته شاعر الألمان الأكبر، ونشر ذلك في الصحف ولهوروفتز ترجمة شعر الكميت أيضًا ـ أنَّ ابن حزم أورد ٥٧ موضعًا بيَّن فيها تناقضات التوراة والمستحيلات التي فيها. قلنا: إنَّ أبا محمَّد بن حزم ذكر أنَّ بأيدي السامريّة توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، يزعمون أنها المنزلة، ويقطعون بأنَّ التي بأيدي اليهود محرّفة مبدَّلة وسائر اليهود يقولون إنَّ التي بأيدي السامريّة محرّفة مبدَّلة؟! قال: ولم يقع إلينا توراة السامريّة، لأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً، إلاَّ أننا قد أتينا ببرهان ضروري على أنَّ التوراة التي بأيدي السامريّة محرّفة مبدَّلة عندما ذكرنا في آخر هذه الفصول أسماء ملوك بني إسرائيل» انتهى. قلنا إنَّ اختلاف توراة اليهود عن توراة السامريّة مسموع، وقد كنا في نابلس منذ ثلاثين سنة، وكان يتردّد علينا اسحق كاهن السامريّة، ودعانا مرّة إلى الكنيس الذي لهم وهو شيء قديم جدًّا، وأطلعنا على توراتهم وقال: إنَّ تاريخ نسخها يرجع إلى ألف سنة. وممّا أتذكّره من كلامه ـ وكان عالِمًا بمذهبهم ـ أنَّ بين توراتهم وتوراة اليهود بعض الاختلاف، وربّما يكون ذكر لي مواضع الاختلاف أو بعضها، ولكنّه لم يبقَ في خاطري ما ذكره لطول العهد به.

ونعود إلى كلام ابن حزم؛ فهو يأخذ مثلاً عبارات من التوراة ويبيّن ما فيها من الاستحالة مثل «ونهر يخرج من عدن فيسقى الجنان، ومن ثمَّ يفترق فيصير أربعة أرؤس، اسم أحدها النيل وهو محيط بجميع بلاد زويلة الذي به الذهب وذهب ذلك البلد جيّد، وبها اللؤلؤ وحجارة البلّور. واسم الثاني جيحان وهو محيط بجميع بلاد الحبشة، واسم

الثالث الدجلة وهو السائر شرق الموصل، واسم الرابع الفرات، فقال: في هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذّاب مستهزئ، أول ذلك إخباره أنَّ هذه الأربعة تفترق من النهر الذي يخرج من جنات عدن. وأفاض ابن حزم في تكذيب ذلك بما لا حاجة إلى نقله هنا. ثمَّ قال: فإن قال قائل: فقد صح عن نبيكم (ﷺ) أنه قال: «النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة» قلنا نعم هذا حقّ لا شكّ فيه، ومعناه هو على ظاهره بلا تكلّف تأويل أصلاً، وهي أسماء لأنهار الجنّة كالكوثر والسلسبيل فإن قيل قد صح عنه عليه السلام أنه قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنّة» قلنا هذا حقّ، وهو من أعلام نبوته، لأنه أنذر بمكان قبره فكان كما قال وذلك المكان لفضله وفضل الصلاة فيه يؤدّي العمل فيه إلى دخول الجنّة، فهي روضة من رياضها، وباب من أبوابها.

ومعهود اللغة أنَّ كلّ شيء فاضل طيب فإنَّه يضاف إلى الجنّة، وليس كذلك الذي في توراة اليهود، لأنَّ واضعها لم يدعها في لبس من كذب، بل بيَّن أنه عنى النيل المحيط بأرض زويلة بلد الذهب الجيّد، ودجلة التي بشرق الموصل، وجيحان المحيط ببلد الحبشة، فلم يدع لطالب تأويل حيلة ولا مخرجًا. ثمَّ قال نقلاً عن التوراة: «وقال الله هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر، والآن كيلا يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيى إلى الدهر، فطرده الله من جنّات عدن» قال ابن حزم: حكاية عن الله تعالى أنه قال: هذا آدم قد صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد. وقد أدى هذا القول الخبيث المفتري كثيرًا من خواص اليهود إلى الاعتقاد أنَّ الذي خلق آدم لم يكن إلاَّ خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم، وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فعرف الخير والشر، ثمَّ أكل من شجرة الحياة فصار إلهًا من جملة الآلهة، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق، ونحمده إذ هدانا للملّة الزهراء التي تشهد سلامتها من كلّ دَخَل بأنها من عند الله تعالى.

ثمَّ قال في إحدى الأماثيل التي أوردها من التوراة: فلمّا ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض، وولد لهم البنات، فلمّا رأى أولاد الله بنات آدم أنهنَّ حِسان اتّخذوا منهن نساء!! وقال بعد ذلك: كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم ويولد لهم حرامًا، وهم الجبابرة الذين على الدهر لهم أسماء، وهذا حمق ناهيك به، وكذب عظيم، إذ جعل لله أولادًا ينكحون بنات آدم وهذه مصاهرة تعالى الله عنها. حتّى أنَّ بعض أسلافهم قال: إنَّما عنى بذلك الملائكة، وهذه كذبة إلاَّ أنها دون الكذب في ظاهر اللفظ، ثمَّ مضى ابن حزم بلهجته الشديدة

المعهودة المشهورة في تكذيب التوراة، أو بالأحرى ما ينسب إلى التوراة ممّا ليس بالحقيقة منها، فأملى نحوًا من تسعين صفحة في هذا الموضوع.

ومن جملة ما ذكر قضيّة لوط، وأنه أقام في المغارة هو وأبنتاه، فقالت الكبرى للصغرى: أبونا شيخ وليس في الأرض أحد يأتينا كسبيل النساء، تعالي نسق أبانا الخمر ونضاجعه ونستبق منه نسلاً، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، فأتت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنومها ولا بقيامها، فلمّا كان من الغد قالت الكبرى للصغرى: قد ضاجعت أبي أمس تعالى نسقيه الخمر هذه الليلة وضاجعيه أنت ونستبقي من أبينا نسلاً، فسقتاه تلك الليلة خمرًا وأتت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنومها ولا بقيامها. وحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت الكبرى ابنًا وسمته مواب وهو أبو الموابيّين إلى اليوم، وولدت الصغيرة ابنًا سمّته ابن عمون وهو أبو العَمونيّين إلى اليوم »...إلخ. قال ابن حزم: في هذه الفصول فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام، فأولها ما ذكر عن بنتي لوط عليه السلام من قولها ليس أحد في الأرض يأتينا كسبيل النساء، تعالى نسق أبانا خمرًا ونضاجعه ونستبق منه نسلاً، فهذا كلام أحمق في غاية الكذب والبرد!! أترى كان انقطع نسل ولد آدم كلّه حتّى لم يبق في الأرض أحد يضاجعهما؟ إنَّ هذا لعجب» ا هـ.

وسحب ابن حزم سائر اعتراضاته هذا السحب ممّا لا حاجة لإعادته، فمن شاء فليراجعه في كتاب «الملل والنِّحل» وإنَّما أوردناه هنا على سبيل التمثيل ولا شكّ في أنَّ مثل هذه الأقاويل لا تجوز على كتاب منزل، وأنَّ نسبتها إلى كتاب منزل مضرّة جدًّا بالدين، ومفسدة للأخلاق، وأنَّ المسلمين لا يعتقدون بأنَّ مثل هذا يكون من التوراة الحقيقية.

ومن العجب أنَّ التوراة مع اشتمالها على هذه الفصول المستهجنة، وهذه العبارات الغريبة المدهشة، قد صدقها المجمع الكاثوليكي التارنتي الذي قرّر أنَّ التوراة الصحيحة في نظر الكنيسة الكاثوليكية هي خمسة أسفار موسى التي يقال لها الناموس وكتاب الأنبياء المشتمل على كتب يشوع؛ والقضاة، والملوك، ونبوّات أشعيا وإرميا، وحزقيال، ودانيال، والاثني عشر نبيًّا صغيرًا، وكذلك كتب «باراليبونسيس» و«إسدراس» و«نيحميا» و«طوبيا» و«يوديث» و«أستير» و«أيوب» والمزامير، والأمثال، والكهنوت، ونشيد الأنشاد، والحكمة، وكتابي المكابيّين. ولم يخرج الكاثوليكيون من التوراة إلاَّ كتاب أنوخ، وثلاثة أو أربعة كتب من إسدراس، وثلاثة أو أربعة من المكابيّين، وكتاب منشّى.

أمَّا اليهود والبروتستانت فإنَّهم يخرجون من التوراة كتاب طوبيا، ويوديث والحكمة، والكهنوت، وكتاب باروخ، وبعض أقسام من كتاب أستير، وقصّة سوسان، وقصّة الشبّان العبرانيّين الثلاثة، والكتابين الأولين من المكابيّين، وقصّة أوثان بعل، وداغون. هذا ما كان من العهد القديم، فأمَّا العهد الجديد فهو الذي يشتمل على الأناجيل الأربعة؛ متّى، ومرقص، ولوقا، ويوحنّا، وأعمال الرسل، و١٤ رسالة من بولس، وسبع رسائل من بطرس، ويعقوب، ويهوذا، ورؤيا، يوحنّا. وقد أخرج المجمع التارنتي من العهد الجديد رسائل برنابا، ورسائل بولص إلى اللاوديقيين وإلى سنيكا وكتاب السيِّد المسيح إلى أبقار، وكثيرًا من الأناجيل.

وقد جاء في كثير من الكتب ـ حتّى التي ألّفها مؤلّفون مسيحيون ـ تخطئة للعهد الجديد أيضًا، فضلاً عن العهد القديم. وتجد في معجم لاروس تخطئة إنجيل متّى في نَسَب المسيح، فبعد أن ساق ما قاله متّى من أنه من سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر بطنا، قال: إنَّ في هذه النسبة مشكلات لا تقبل الحل، لأنه لا يوجد من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر، وإنَّما هي ثلاثة عشر بحسب كلام متّى نفسه. فأمَّا الذين أَنْحَوا على الأناجيل الأربعة بالتخطئة ممَّن لم يبق عليهم من المسيحية إلاَّ الأسم فأنهم كثيرون جدًّا. وقد ازدادت الكتب المتعلّقة بهذا المبحث بعد الحرب العامّة كثيرًا، فقد عرضوا الأناجيل على المحكّ ومحّصوها تمحيصًا لا بأس بأن نشير إلى بعضه، ونورد عليه بعض الأمثلة، لأنَّ الاستقصاء في هذا الباب يستغرق مجلّدات كثيرة، ونحن إنَّما نتوخّى مجرّد الإشارة إلى الموضوع، حتّى إذا كان للقارئ رغبة يمكنه أن يراجعه في مظانّه، ولو كانت هذه الحواشي للاستقصاء لم تكن لتنتهي.

جاء في الكتاب المتعلّق بالسيِّد المسيح من تأليف الدكتور «بينيه سانغليه» "Binet - Sanglé"، أحد أساتيذ علم الروح في فرنسة، وذلك في الجزء الأول من الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور في صفحة ٢٠ إلى صفحة ٧١ ما يأتي ملخّصًا "إنَّ أكثر رجال العمل لا يفكّرون في الكتابة والتأليف، وترى المتهوّسين من أصحاب الدعاية الدينيّة لا يهتمون بتقييد أعمالهم وتخليدها إلاَّ بعد أن يدخلوا من العمر في الطور الذي يقتضي الراحة، فأمَّا تلاميذ المسيح فقد تأخّروا لأنَّ القيامة قريبة، فبقيت أعمال المسيح مدّة عشرين إلى ثلاثين سنة محفوظة في الصدور لا في السطور.

وقد ذكر «پاپياس Papias» الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني وكان مطرانًا على هيرابوليس، وهي البلدة التي أقام بها فيليبُّس الرسول أنَّ المكتبة الأولى للإنجيل كانت ذاكرة شمعون الصفا، ويعقوب بن زبدي، ويوحنّا بن زبده ولاوي بن الفايوس أي متّى، وتوما، وأندريا، وأرستيون، ويوحنان، وفيليبُّس نفسه. فإنَّ هؤلاء هم الذين كانوا يحفظون تاريخ المسيح، وكانوا يروون حركاته وسكناته للناس شفهيًّا، إلى أن ألحَّت جماعات المؤمنين عليهم بكتابتها في الورق، فكانت من أجل ذلك الأناجيل الأولى يشهد بوجودها الإنجيلي لوقا، ويشهد پاپياس نفسه، فإنَّ لوقا يقول ما يأتي: «إنَّ كثيرين أرادوا أن يسطروا روايات الوقائع التي تمّت طبقًا لشهادة من شاهدوا عيانًا».

وأنظر إلى ما يقول پاپياس في مقدّمة كتابه المسمّى «شرح أحكام الربّ» خطابًا لأحد أصحابه: «لا أتردّد من أجلك أن أحرّر ما سمعته من الزكينيم ـ الزكينيم بالعبرية تقوم مقام الشيوخ في العربية. وهي مشتقّة من فعل زكن بمعنى عَلِم وفطِن وأنت تعلم أنَّ العربية والعبرية من أصل واحد والميم في العبرية كالنون في العربية فقولك الزكينيم هو كقولك الزكينين ـ وما وعته ذاكرتي لأجل إثبات حقيقة الشرح الذي شرحته، ولم أكن ناقلاً عن الرواة المعروفين بفصاحة اللسان وذلاقة التعبير كما يفعل الكثيرون؛ بل ناقلاً عن معلّمي الحقيقة. فأني لا أحبّ أن أروي عمَّن يدخلون مبادئ أجنبية في كلامهم؛ وإنَّما أحب أروي الوصايا التي فرضها الربّ والتي هي وليدة الحقيقة. فإذا كنت صادفت بعض من كانوا في عشرة الزكينيم ـ أو الزكينين ـ فكنت أتحرّى أن أعلم ما قال أندريا، أو بطرس، أو فيليبُّس، أو توما، أو يوحنان، أو متّى، أو تلميذ آخر من تلاميذ السيِّد. ولم أكن أعتقد أنَّ ما هو في الكتب أفيد لي من سماع كلمة حيّة من أفواه هؤلاء، فمرقص كان ترجمانًا لبطرس، وكان يكتب كلّ ما سمعه من بطرس عن أقوال المسيح وأفعاله، لأنَّ مرقص لم يسمع المسيح ولم يصحبه، وكان يتبع بطرس حيث ذهب، وكان بطرس يعلّم بحسب الظرف الذي يوجد فيه، وبدون أن يهتم بربط الروايات بعضها مع بعض، فمرقص لم يكتب إلاَّ ما سمع من بطرس، ولم يكن له همّ إلاَّ في تقييد كلّ ما سمع دون زيادة ولا نقصان».

ثمَّ إنَّ پاپياس يقول عن متّى: «إنَّ متّى جمع كلمات يسوع باللغة العبرية وترجمها كلّ بحسب استطاعته» فالأناجيل الأوّلية إذن كانت إنجيلين؛ أحدهما إنجيل مرقص الأصلي، والثاني مجموعة متّى. وكان إنجيل مرقص خاليًا من الترتيب، وكان مرقص هذا

ويقال له أيضًا يوحانان من سلالة اللاويّة، وكان يحمل لقبًا يونانيًا بحسب العادة في ذلك الوقت، وكانت أمه تدعى مريم وفي بيتها كان يجتمع حواريّو المسيح وكان قد قطع إحدى أصابعه حتّى لا يعود صالحًا للكهنوت اليهودي. فكان «هيپوليتوس» القديس يقول له: «مرقص ذو الأصبع المقطوعة» وقد روى «أوزيبيوس» أنه لمّا كان بطرس الملقّب بالصفا يعظ في رومة؛ كان الناس الذين يتلقّون البشارة منه يترجّون مرقص أن يقيّد ذلك بالورق ويدفعه لمَن يريد، فعرف بطرس بالأمر فما نهاه ولا شجّعه في البداية، ولكن بعد أن كتب مرقص إنجيله صار يُتلى في الكنائس، ثمَّ ذهب مرقص إلى إسكندرية وأسّس هناك الكنيسة المسيحية ـ ولا يزال القبط يسمّون كنيستهم بالكنيسة المرقصيّة ـ وعاش هناك بين سنة ٤٥ و ٤٧ للمسيح.

أمَّا مجموعة متّى فقد كتبها هذا بين سنة ٥٠ و٦٠ وكان متّى من الحواريين وكان متصوّفًا متقشفًا لا يأكل اللحم، ولا يشرب الخمر، وبقي في فلسطين اثنتَي عشرة سنة بعد المسيح، ونشر إنجيله بلغة العبريين، بينما كان بطرس، وبولص يؤسّسان كنيسة رومة. فهذان الإنجيلان هما أقدم الأناجيل.

وجاءت بعد ذلك الأناجيل الثانوية وكثُر عددها، ولمّا تغلّبت الكنيسة في الدولة الرومانيّة أحرقت جانبًا عظيمًا من هذه الأناجيل الثانوية، بحيث لم يبقَ منها إلاَّ أسماء فقط. فمنها إنجيل «أندرياس» جاء ذكره في منشور من البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ ومنها إنجيل «بارنابي» الذي ذكره «جيلاسيوس» ولم يكن يفترق عن إنجيل متّى. ومنها إنجيل «باسيليديس» ذكره «أوريچيتيس» وقد كتب سنة ١٢٥. ومنها إنجيل «قيرنيتوس» وكان يهوديًا مال إلى شريعة عيسى وكتبه في نحو سنة ١٨٠ وكان يقول إنَّ عيسى هو ابن يوسف من مريم. وقد ذكر هذا الكتاب القديس «هيپوليتوس» الذي ذكره «إيرونيموس» (سنة ٣٤٠ إلى سنة ٤٢٠) ومنها إنجيل يعقوب الصغير ذكره «جيلاسيوس» ومنها إنجيل يهوذا ذكره «إيرينابوس» (١٧٧ ـ ٢٠٢) وكان هذا الإنجيل مستعملاً عند القايينيين وهي نحلة كانت تتمسّك بكلّ شيء تحرمه الكنيسة وكانت تعظّم قايين. ومنها إنجيل «تاداي» ذكره جيلاسيوس. ومنها إنجيل «مقريون» ابن مطران سينوب ألّفه سنة ١٣٠ وذكره إيرنايوس وهو مأخوذ من إنجيل لوقا، ولكنّه لا يذكر الفصل المتعلّق بميلاد يسوع، ولا قصّة الكرمة ولا الابن الشاطر. ومنها إنجيل متّى الذي ذكره «أوريچينيس» ومنها إنجيل «ساتورينوس»

ذكره هيپوليتوس وتاريخه سنة ٢٢٠. ومنها مجموعة الأناجيل الأربعة بقلم "تاتيانوس" الأشوري، تلميذ يوستينوس، وكان من النّحلة التي تحرّم أكل اللحم وشرب الخمر والشهوات البدنيّة. وقد كتب هذا الكتاب سنة ١٧٢ باللغة الآرامية ولا يوجد في هذا الإنجيل النسبة الداودية.

وفي سنة ٤٥٣ وجد "تيودوريتوس"، أسقف سيروس ـ مدينة بقرب الفرات ـ مائتَي نسخة من هذا الإنجيل بين رعيته فمنعها. وفي سنة ٥٤٥ اطلع ڤكتور، أسقف "كابري"، على ترجمة لاتينية لهذا الكتاب. ثمَّ أناجيل الناسينيين "Naasseniens" والبيراتيين "Perates" والسيتيين "Sethiens" ذكرها كلها هيپوليتوس وفي الإنجيل الأول منها خُطَب ليعقوب بن يوسف أخي يسوع. ومنها إنجيل السمعانيين "Simoniens" جاء ذكره في المقدّمة العربية لمجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥. ومنها الإنجيل الأبدي، جرى تأليفه في القرن الثاني عشر بقلم راهب اسمه "جيوفاشينو" "Giovacchion" وحرمه الباباوات سينيبالدو الذي عاش من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤؛ وبطرس الذي عاش سنة ١٢٧٦. ثمَّ تاريخ فرار مريم العذراء ويوسف إلى مصر، وهو منسوب إلى " ثيوفيلوس " الإسكندري وقد ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) ومنها أسئلة مريم التي ذكرها "أبيفانوس" (٣٢٠ ـ ٤٠٣) وفيها قضيّة تطهير الأنفس. ومنها إنجيل الكمال ذكره أبيفانوس ومنها الإنجيل الحيّ كان منتشرًا بين المانويين.

ويوجد أناجيل أخرى محفوظة منها بعض قطع، وذلك مثل إنجيل حوّاء وكان معروفًا عند الأوفيتيين "Ophites" الذين كانوا يعبدون الثعبان، وهو مشابه لإنجيل الكمال. ومنها إنجيل "بارتلماي" الذي حرمه جلاسيوس، وجد فيه بعض المؤلّفين قطعًا مهمّة باليوناني والقبطي مترجمة عن العبري. ومنها إنجيل فيليبُّس من القرن الثاني وكان هذا يحرّم الزواج، ويذهب إلى أنَّ النسل نتيجة مبدأ غير حسن، ولم يبقَ منه إلاَّ قطعة ذكرها أبيفانوس.

ومنها إنجيل شمعون الصفا ويذهب بوستينوس إلى صحّته، وليس بينه وبين إنجيل متّى إلاَّ فرق قليل وتاريخه من سنة ١٦٠ إلى ١٧٠ وبقي معمولاً به إلى سنة ١٩٠ وفي سنة ١٨٨٧ وجدوا في أخميم بمصر في قبرراهب قطعة منه. ومنها إنجيل توما المحرّر في القرن الثاني بقلم بعض مسيحيين من سورية باللغة اليونانية. ومنها إنجيل الحقيقة محرّر سنة ١٥٠ ذكر منه هيپوليتوس بعض قطع. ومنها تعاليم الرسل الاثنَي عشر، عثروا عليه بشكل

مخطوط يوناني ويقال إنَّه كان في القرن الثاني. ومنها إنجيل الاثنَي عشر حواريًا وجده ريفيليو "Revillout" باللغة القبطية، ومنه مخطوط في مكتبة ستراسبورج وكاتبه يزعم أنه غمليل القديم الذي كان يدافع عن شيعة يسوع أمام مجلس اليهود. وهذا الإنجيل تاريخه يرجع إلى القرن الثاني. ومنها ذكريات الرسل أشار إليها يوستينوس سبع عشرة مرّة، وكانوا يقرأونها كلّ يوم أحد في النصف الثاني من القرن الأول. ومنها الإنجيل بحسب العبرانيين أو الناصريين، كتب باللغة الآرامية في أواخر القرن الأول، وهو يشبه إنجيل متّى. ويذهب "إيرونيموس"، و"ريشارد" سيمون إلى أنَّ هذا الإنجيل أعلى درجة من إنجيل متّى. فالغلطة التي غلطها متّى في جعله زكريا ابنًا لبريكيا مصحّحة في إنجيل العبرانيين الذي يجعله ابن يُووادا. وقد كان هذا الإنجيل مستعملاً في فلسطين وسورية وبقي منه اثنتا عشرة قطعة وأشار إليه "إغناطيوس" في رسائله إلى أهل إزمير و"طيطوس" و"فلاڤيوس" و"كليمان" و"أوريچينيس" و"أورينيموس". وليس في هذا الإنجيل ذكر لبكارة مريم. ثمَّ إنجيل العبرانيين الإبيونيم وهم جماعات في السامريّة كانوا يحافظون على بعض عادات اليهود لكنّهم كانوا يمتنعون عن أكل اللحم وكانوا يحبّون الاغتسال كثيرًا، ويعيشون في الفقر. وإنجيلهم هذا مشتقّ من إنجيل الحواريين الاثنَي عشر، وليس فيه نسبة يسوع، ولا حمل مريم له بصورة عجيبة ولا قصّة ملوك المجوس، ولا قصّة فرار مريم بيسوع إلى مصر. وهم يقولون: إنَّ يسوع هو ابن يوسف من مريم، ولم تكن مريم بكرًا، ولا كان يسوع إلهًا. وقد حفظ أبيفانوس قطعة من هذا الإنجيل. ثمَّ الإنجيل بحسب المصريين كتب باللغة الآرامية سنة ١٥٠ يقرّب من إنجيل لوقا، وإنجيل متّى، وهو ينسب إلى يسوع ألفاظًا غريبة. وقد ذكره تيتوس، وفلاڤيوس، وكليمان، وغيرهم. ثمَّ الإنجيل المتهوّد وهو منسوب إلى "فوسطُس كليمانس" ولا يوثق به. ووجد "بيكل" "Bickel" في ڤينا قطعة من إنجيل لم يعرف صاحبه. ويوجد كتاب فيه كلمات منسوبة إلى يسوع لا توجد في الأناجيل واسمه أغرافا "Agrapha" وكشف "ريفليو" قطعًا فيها أخبار عن مريم في صغرها كان يسوع يحدّث بها الرسل، ونشر ذلك في الجريدة الآسيوية. ووجد طرس في البهنسا من مصر يحتوي واحدًا وعشرين سطرًا على الوجهين، يظهر أنَّ تاريخها راجع إلى سنة ٢٠٠. ووجد خبر موت القديس يوسف النجّار والد السيِّد المسيح - بحسب زعمهم - عثروا على ثماني ورقات من هذا الكتاب. ووجد خبر موت العذراء مريم في مخطوط قبطي نشره "أدوار دولورييه Dawrulier".

ثمَّ إنَّه يوجد أناجيل محفوظة بتمامها ووثائق أخرى ساميَّة متعلّقة بالسيِّد المسيح وعائلته منها الكتاب المسمّى عقيدة أداي "Addai" وهو مؤلّف سرياني من القرن الرابع كتب تحت إملاء بارسلناك كاتب أبقار "Abgar" الأسود ملك الرّها من سنة ١٤ إلى سنة ٥٠ وجد من هذا الكتاب مخطوط تاريخه القرن الخامس، عثر عليه "كيرتون Cureton" سنة ١٨٧٦ وقد وجد في هذا الكتاب مكتوب من "أبقار" إلى يسوع يرجوه أن يحضر إليه في الرّها حتّى يشفيه من مرض هو مصاب به. ومكتوب من يسوع إلى أبقار يذكر له فيه أنَّ كلّ من يؤمن به ينال الخلاص، وأنه سيرسل إليه أحد تلاميذه ليشفيه من مرضه. وقد ذكر أوزيبيوس (٢٦٥ ـ ٣٤٠) هذين الكتابين في تاريخ الكنيسة ولم يشكّ كثير من العلماء في صحتهما، منهم "تيلمونت Tillemont" والسمعاني و"كاف Cave" و"جراب Grabe" و"رنك Rinck" وفيليبُّس.

ثمَّ إنجيل برنابي وصاحبه يزعم أنه عاش في زمن يسوع، وكان مخالطًا له ولأمّه وهو يذكر أنه لم يكن إلاَّ نبيًّا من الأنبياء، وأنَّ الصلب إنَّما وقع على يهوذا الأسخريوطي لشدّة شبهه بعيسى، وأنَّ عيسى رجع إلى أمّه وتلاميذه ولم يُصلب، وهذا الكتاب هو تأليف أحد المسلمين.

قلنا: إنَّ الحكم بدون دليل لا يصح، فقول الدكتور بينيه سانغليه إنَّ هذا الكتاب تصنيف أحد المسلمين بدون ذكر المسلم الذي صنّفه، بل بمجرّد الظنّ ليس بوارد، فالظنّ لا يغني من الحقّ شيئًا، وكان الدليل عنده على هذا هو نفي الصلب، والقول بأنه وقع على غير عيسى تشبيهًا له به؛ فليس المسلمون وحدهم قالوا بهذا، وهذه الرواية موجودة من زمن عيسى نفسه. حتّى أنَّ إميل لودفيج اليهودي الألماني المشهور بتأليف التراجم ذكر في آخر كتابه الذي ألّفه لهذا العهد عن المسيح أنه لمّا سرق النصارى جثّة عيسى من المغارة بعد الصلب جاء اليهود وشكوا إلى بيلاطوس النبطيّ سرقة جسد عيسى وقالوا له: كيف يمكن بدون التواطؤ مع الحكومة أن يتمكّن النصارى من إخراج الجسد من المغارة! وشائع اليوم كثيرًا أنَّ عيسى لم يصلب، وأنَّ الصلب إنَّما وقع على غيره. وقد استوفينا قضيّة الصلب هذه في حواشينا على "حاضر العالم الإسلامي" في عرض الكلام على كتاب "درمنجهم" الذي أراد التوفيق بين الإسلام والنصرانية. فمَن شاء فليراجعهما هناك. وقد نشر الأستاذ صاحب المنار (رحمه الله) مباحث في هذا الموضوع ورسالة سديدة لأحد الدكاترة المصريين.

وبديهي أنَّ من الأناجيل المحفوظة بتمامها إنجيل مرقص، وإنجيل يوحنّا وإنجيل متّى، وإنجيل لوقا، وهي الأربعة التي يعوّل عليها النصارى.

ثمَّ هناك كتاب يقال له طولدوس يشوع "Toldos Jeschou" وهو مؤلّف عبراني من القرن الثاني عثروا عليه في أواخر القرن الثالث عشر، ونشر سنة ١٦٨١ وفيه أكثر القصص المذكورة في الأناجيل، وفيه ذكر موت يعقوب أخي المسيح. ثمَّ تلمود أورشليم وبابل، وفيه ذكر المسيح. ثمَّ قصّة المسيح وهو صغير بقلم توما الفيلسوف الإسرائيلي يذكر معجزات عيسى وهو محفوظ بكل من اللغات السريانية واليونانية، واللاتينية. ثمَّ مكتوب يسوع النازل من السماء ذكره "ليستيانوس"، أسقف قرطاجنّة في القرن الرابع للمسيح. ثمَّ تاريخ يوسف النجار كتب في مصر في القرن الثاني وهو بالقبطية. ثمَّ قصّة مولد مريم وهي ثلاثة أقسام؛ اثنان منها كتبا في القرن الثاني، والثالث في القرن السادس. وفي هذا الكتاب مذكور ولادة مريم ومنشؤها في الهيكل، وزواجها وحملها بيسوع، وغضب يوسف النجّار عندما علم أنها حامل. وهذا الكتاب محرَّر باليونانية. ثمَّ كتاب ولادة مريم وطفولية عيسى لمؤلّف مجهول اسمه متّى، ويظهر أنه من القرن السادس، وفيه قصص وردت في كتاب ولادة مريم، وفي كتاب توما الفيلسوف الإسرائيلي، مع زيادات، وهو محرّر باللاتيني. ومثله كتاب عن ولادة مريم أيضًا كتب في القرن الخامس باللغة اللاتينية. ثمَّ مكاتيب السيدة مريم إلى أهالي مسّيني، وفلورانسا، وجواب السيدة مريم إلى أغناطيوس، وهذه المكاتيب ظهرت سنة ١٤٩٥ في خاتمة تاريخ توما دوكانتربوري "Thomas de Cantorbery" ثمَّ كتاب عن مريم أيضًا جاء ذكره في منشور البابا جيلاسيوس، وهو منسوب إلى يوحانان بن زبده. وقد وصل إلى الناس هذا الكتاب بالعربية. وكتاب آخر يتعلّق بمريم تأليف "ميلتون" مطران السارد تاريخه القرن الثاني. ثمَّ رسالة للقديس يوحانان اللاهوتي على قيامة مريم من بين الأموات، مظنون أنه كتب في القرن الثاني عشر. ثمَّ الإنجيل المسمّى بإنجيل الحداثة كتبه أحد النساطرة الذين ينكرون وجود المطهر، ولا يقولون بعزوبة القسيسين، وقد وصل إلى الناس باللغة العربية، ولعله مترجم عن السرياني ثمَّ الرسائل المنسوبة إلى يعقوب بن يوسف، وإلى يهوذا بن يوسف إخوة المسيح. ثمَّ أعمال الرسل تأليف لوقا، ثمَّ تاريخ الرسل تأليف أوباديا ـ أو عُبَادية ـ كتب بالعبراني في صدر النصرانية. ثمَّ تاريخ الكنيسة لأوزيبيوس (٢٦٠ ـ ٣٤٠).

فجميع هذه الكتب ما عدا الأناجيل الأربعة عُدَّت أحاديث خرافة، وحرّمتها الكنيسة، واضطرّ الذين بأيديهم منها شيء أن يخفوه. وبرغم هذا فقد كانت من القرن الخامس إلى

القرن السادس عشر منتشرة جدًا، وربّما كانت هي السبب في انتشار العقيدة المتعلّقة بمريم حتّى انتهى الأمر بأن عبدوها. فأمَّا الأناجيل الأربعة فقد تقرّرت صحتها في المجمع اللاوديقي في أيام البابا سلفتر الأول (٢٧٠ ـ ٣٣٧) وفي مجمع قرطاجنّة المنعقد سنة ٣٩٧ وقد ثبّت ذلك البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ وأقدم هذه الأناجيل الأربعة إنجيل مرقص، وهو رأي «ڤيلكه» «Wilke» و«ڤايس Weiss» و«أرنست رينان» و«جول سوري» و«ألبير ريفيل» و«إدمون ستاپفر» وليس في هذا الإنجيل صنعة ولا اهتمام بتأييد العقيدة، بل هو يذكر الحوادث كما هي بدون زيادة ولا نقصان، وليست فيه النسبة الداودية ولا أعجوبة الحمل، ولا ميلاد المسيح ولا صعوده، وإنشاؤه ساذج، ولذلك فقيمته التاريخية عظيمة، ويأتي بعده إنجيل متّى وقد كتب بالعبرية، وترجم إلى اليونانية، وكاتبه يروي روايات غير مضبوطة، فيها كثير من التعسّف، ويزيد وينقص، ويحرّف ويبدّل، ويضع في يوم واحد حوادث وقعت في يومين مختلفين ولا يتنبّه إلى أنه قد روى القصّة مرتين، ويحاول أن يعلّل كيف أنَّ يسوع الذي كان أكبر من يوحنّا المعمدان جاء يطلب من يوحنّا أن يعمّده. وفي المحل الذي يذكر مرقص مريضًا واحدًا نال الشفاء على يد عيسى يذكر هو مريضين، وفي المحل الذي يقول مرقص فيه لفظه «كثير» يقول متّى «الجميع» والفتاة النائمة يقول عنها إنَّها ميتة، وقد ورد في إنجيل مرقص: «لماذا تدعونني صالحًا. ما من صالح غير الله» فمتّى يبدّل ذلك قائلاً عن لسان المسيح «لماذا تسألونني عما هو صالح لا يوجد إلاَّ صالح واحد» ومحل «طوبى للفقراء» يقول «طوبى للفقراء بالعقل» ومحل «الجياع» يقول «الجياع إلى العدل» ثمَّ إنَّ متّى يحذف الجملة التي وردت في إنجيل مرقص من أنَّ أقارب يسوع ظنّوا به جُنَّه، ومتّى يتعب كثيرًا في إثبات أنَّ عيسى ولد في بيت لحم، وأنَّ جميع النبوّات المتعلّقة بالمسيح قد تمّت به، وهكذا يؤوّل ما جاء في العهد العتيق متعلّقًا بحوادث لا صلة بينها وبين المسيح، وهو يحذف ما جاء في إنجيل مرقص من زيارة النساء لقبر المسيح وكونهنَّ لم يكنَّ منتظرات قيامه من بين الأموات. ثمَّ إنَّه يذكر التوراة إحدى عشرة مرَّة، وفي نقله عنها يخلط خلطًا كبيرًا، إمَّا في النص أو في اسم القائل، إلى غير ذلك من التحريف والتبديل وفيه كثير من الخرافات. ا هـ.

فأنت ترى أنَّ مؤلّف هذا الكتاب الذي لا يوجد أوسع منه في هذا الباب يطري في الصدق إنجيل مرقص، ويبالغ في انتقاد إنجيل متّى. والحال أنه منذ ثلاث سنوات ظهر كتاب عنوانه «لأجل فهم حياة يسوع» تأليف الأستاذ «بروسبير الفاريك Prospere Alfarie»

المدرّس بجامعة استراسبورغ، ذهب فيه الأستاذ المذكور مذهب مَن يرى أنَّ أكثر ما ورد في إنجيل مرقص مطبّق عمدًا على نبوّات سبقت في العهد القديم، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة، وهذا من قبيل الدعاية لا التاريخ. وقد اجتهد هذا المؤلّف أن يثبت كلّ ما هناك من التناقضات تارة، ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طورًا، مثل أنَّ الدنيا كلّها أظلمت من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيِّد المسيح على الصليب، وأنه انشقّ حجاب الهيكل، وغير ذلك من القصص. وكذلك ظهر كتاب جديد اسمه حياة يسوع للمسيو "موريس غوغويل Goguel" من علماء فرنسا توخّى فيه الردّ على الدكتور "كوشو Couchoud" الإفرنسي وغيره من علماء الألمان والإنجليز والهولنديين الذين لم يجدوا في الأناجيل حقائق تاريخية تثبت على التمحيص، بل كلّ ما وجدوا فيها تقريبًا هو من باب الدعاية الدينية المحضة. ومنهم من رجّح كون المسيح رمزًا، وأنه لم يوجد أصلاً. فالمسيو غوغويل يبيّن ما في هذه الأقاويل من المبالغات، وهو يقول إنَّ وجود عيسى محقّق، وأنَّ الأخبار الواردة في الأناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها، وهو يرى أنَّ ادّعاء كون المسيح رمزًا فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل.

نعم أنَّ المسيو موريس غوغويل يعتقد أنَّ كثيرًا من روايات الأناجيل غير واقعية، بل مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقًا لمجرّد الدعاية، أو بحسب الاعتقاد وأنَّ هذا في وادٍ والتاريخ في وادٍ. وكذلك رينان في كتابه الشهير "حياة يسوع" يعترف بتطبيق بعض الروايات على النبوات السابقة تعمّدًا أو تعملاً.

ولنعد إلى بحث الدكتور "بينيه سانغليه" فهو يذكر أنَّ إنجيل لوقا كتب سنة ٦٤ وأنَّ لوقا لم يكن من الذين عاصروا المسيح، ولا كان يهوديًا، ولكنّ في كلامه كثير من العبري والآرامي فهو بدون شكّ من أصل سامي. وقد كان لوقا فيما يظهر من المتصوّفة وكان مذهبه في التاريخ أن يجمع ويرتّب الحوادث بدون اعتناء في أمر صحتها وعدمه. ولكنّه لم يكن يسلم من التكرار والتناقض. ويظهر أنه كان طبيبًا، وله عدا الإنجيل المذكور كتاب اسمه "أعمال الرسل". وهذه الأناجيل الثلاثة لم يأت القرن الثاني للمسيح حتّى كانت هي المساند المعوّل عليها عند جميع النصارى. أمَّا إنجيل يوحنّا بن زبدي فقد كتب بين سنة ٨٠ و٩٠ في آسيا الصغرى وهو يأخذ عن الأناجيل السابقة، وعن وثائق لم يطّلع عليها مرقص ومتّى. وقد كان يوحانان هذا يهوديًا وكانت كتابته بالعبرانية، وكان مطّلعًا على العهد

العتيق، وكان يجتهد في إثبات أنَّ المسيح هو ابن الله، ويأتي بجمل من العهد العتيق ليستخرج منها إشارات إلى مجيء المخلّص، ويكثر من الكنايات والاستعارات والتأويلات، وعندما يذكر أنَّ المسيح قال: « اهدموا هذا الهيكل وأنا أقيمه بعد ثلاثة أيام » زعم أنَّ مراده بالهيكل إنَّما هو جسده! وبرغم كلّ هذا فالذين حكموا بصحّة هذا الإنجيل عدد لا يحصى من العلماء، وذهبوا إلى أنه ناقل أمين، وأنَّ يوحانان هذا كان أعلم بالأسماء والأعلام من أصحاب الأناجيل الأخرى، وربّما أوضح أمورًا من أحوال المسيح وعلاقاته مع أخبار اليهود وأعماله في القدس قد فاتت أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى.

وبرغم أنَّ في كلامه عن أيام المسيح في القدس بعض سقطات فهو في هذا الموضوع أعلى درجة من مرقص ومتّى ولوقا. وذهب بعضهم إلى أنَّ يسوع في إنجيل يوحانان هو يسوع الحقيقي التاريخي. وقال آخرون: إنَّ أوثق الأناجيل هما إنجيل مرقص، وإنجيل يوحنّا المذكور. وطعن بعضهم في يوحانان المذكور فقالوا: إنَّه كان جاهلاً متكبّرًا متعصّبًا منتقمًا، وكانت فيه ميول شاذة، وكان تلميذًا ليوحنّا المعمدان، وأنَّ والده كان صياد سمك فترك والده واتّبع المسيح، وقال عن نفسه: إنَّه التلميذ الذي كان يسوع يحبّه، وبعد موت المسيح صار من رؤساء الفرقة المسيحية، فحُبس واضطُهد، وكانت وفاته في أفسوس سنة ٩٨. وقد كان لإنجيله نجاح عظيم، لأنَّ الناس كانوا يعلمون خلطته بالمسيح من البداية ومن قبل متّى. وقد سأله بعض المؤمنين عن رأيه في أصحاب الأناجيل الثلاثة التي سبقته فقال: إنَّ الذي أهملوه من جهة المعجزات التي يجب أن تُرْوَى كان شيئًا قليلاً. فرغب إليه المؤمنون بسدّ النقص الذي وقع في الأناجيل الأخرى، فكان ذلك هو الحامل له على وضع إنجيله.

وكانت هذه الأناجيل الأربعة مكتوبة على ورق البردي، وما انتهى القرن الثاني حتّى وجد منها ستون ألف نسخة! ويقال إنَّه يوجد اليوم ١٠٧٧ مخطوطًا من الأناجيل الأربعة، وإنَّ أقدمها هو إنجيل تاريخه القرن الرابع، عثر عليه « تشندوف » في جبل سيناء في ٤ فبراير ١٨٥٩. انتهى.

ثمَّ إنَّ الدكتور «بينيه سانغليه» تكلّم عن قيمة الأناجيل التاريخية فنقل أكثر الأقوال المختلفة في هذا الموضوع، ورجّح الرأي القائل بأنَّ أصحابها كانوا قومًا سذّجًا رووا الأمور على علاّتها، وأنهم لو كانوا من أهل الصنعة والدهاء لم تقع في أناجيلهم الأغلاط والتناقضات التي وقعت. نعم أنَّ سذاجتهم أوقعتهم في أخطاء كثيرة كما هو الشأن في كلّ

ساذج يريد أن يروي قصّة، لكن ممّا لا جدال فيه أنهم لم يضعوا أكاذيب من عندهم، وغاية ما هناك أنَّ هوسهم كان يحملهم على نقل أشياء غير مطابقة للواقع. ا ﻫ ملخّصًا.

فالقارئ يرى ممّا لخصّناه هنا عن العهدين العتيق والجديد أنَّ الاختلاف واقع في كلّ منهما. فالعهد العتيق قد أضاف إليه اليهود ما لا يليق بالكتب المُنزلة بوجه من الوجوه كما تقدّم الكلام عليه، فلم يكن التبديل منحصرًا في تحريف الكلم، ولا في تأويله كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون رحمه الله، هذا فضلاً عما وقع من الاختلاف في الأقسام التي يجب أن تعدّ من التوراة، والأقسام التي يجب إخراجها منها.

وأمَّا العهد الجديد فإنَّ التناقضات واقعة فيه من كلّ مكان، فمنه أناجيل رفضتها الكنيسة بالمرّة، ومنه أناجيل لم ترفضها الكنيسة بالمرّة ولكنّها لم تُدخِلها في الكتب الكَنَسية المعوّل عليها، ومنه الأناجيل الأربعة التي قرّرت المجامع العمل بها. وليس رفض الكنيسة لبعض الأناجيل وبعض التواريخ المتعلّقة بالعهد الجديد دليلاً كافيًا على عدم صحتها، لأنَّ الكنيسة تنفي كلّ ما هو خارج عن عقيدتها، ودليل ذلك أنَّ ما ينفيه الكاثوليك مثلاً قد يثبته البروستانت، فالاختلافات بين الأناجيل المردودة والأناجيل المصدّقة لا تكاد تحصى. وأهمّ من هذا أنَّ الأناجيل المصدّقة والمعوّل عليها هي أيضًا لم تسلم من الاختلافات ولا من الأخطاء كما أجمع على ذلك العلماء الأوروبيون الذين محّصوها.

وقد يعترف العلماء المسيحيون أيضًا بوقوع الاختلاف فيها، لكنّهم يردّونه إلى التأويل، ويجعلونه من الأعراض التي لا تمسّ جوهر الحقيقة، وهذا فيه نظر. وعلى فرض جواز هذا القول فإنَّ وجوه الاعتراض الكثير الواقع على الأناجيل من جهة العلماء المدقّقين غير المؤمنين بالدين المسيحي إنَّما هي مخالفة رواياتها للسنن الطبيعية ومن جهة كونها إنشاء جماعة إن لم يجُز وصفهم بالكذب لم يجُز وصفهم بالعلم وهذا كله لا ينفي ما يجب من حرمة التوراة والإنجيل وتقديسهما وفقًا لِما في القرآن العظيم الذي يوجب لهما الحرمة من حيث وجودهما الأصلي، ولكنّه لم يضمن صحّة نسخ التوراة ونسخ الإنجيل، التي تعاورتها أيدي الناس بالحذف والتبديل بحسب الأهواء، والله تعالى من وراء العلم.

* * *

تاريخ العرب الأوّلين *

لا يزال المؤرّخون عمومًا، والمتخصّصون في تاريخ الأمم السامية، متّفقين على كون تاريخ العرب القدماء غامضًا، وأنه لا يزال مفتقرًا إلى وثائق كثيرة تجلو حقيقته ولقد عثروا على كتابات غير قليلة كشفت بعض نواح منه، إلاّ أنَّ كثيرًا من هذه الكتابات لا يزال مجهولاً. وما دام هذا القسم من الكتابات لا يزال مغيّبًا، فلا يزال تاريخ العرب الأوّلين ناقصًا. والآن تجد معوّل المؤرّخين في هذا التاريخ على بعض الكتابات التي تمكّنوا من حلّها في بلاد العرب، وعلى ما هو وارد في تواريخ الأمم الأخرى من بابليين وأشوريين ومصريين وعبرانيين ويونانيين ورومانيين وكذلك على ما هو وارد عن علماء الإسلام بشأن عرب الجاهلية.

وقد جاء في الكتابات البابلية الخزفية التي عثروا عليها ما يدل على وجود ملك اسمه "مانيوم" كان ملكًا على "ماغان" أو بلاد العرب الشرقية. ويظنون أنَّ "ماغان" هذه هي معان، كما أنه ورد في محل آخر ذكر "ملوخ" الذي يظن أنَّ منه اشتقّ اسم العمالقة. وكان السومريون ذوي علاقات مع هؤلاء. ثبت إذن وجود العمالقة في التاريخ منذ ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح. فأمّا الكتابات التي عثروا عليها في جزيرة العرب فهي ترجع إلى ألف سنة فأكثر قبل المسيح، وأكثر من خدم العلم في كشف هذه الكتابات المنقوشة على الصخور هو بحسب ما ورد بالانسكلوبيدية الإسلامية؛ يوسف هاليڤي "Joseph Halevy" وأدوار غلازر "Edoard Glaser" وهذه الكتابات تنقسم إلى قسمين بحسب اللغة؛ فالأول هي المعينية، والثاني هي السبئية نسبة إلى معين وسبأ، وهما قبيلان يقال إنّهما من حضرموت. وفي سنة الخمسمائة قبل المسيح كان ملوك مأرب في اليمن يطلق عليهم لقب ملوك سبأ، ثمَّ ظهر بعدهم الحميريون وتمكّنوا في مأرب أيضًا. وفي نحو السنة الثلاثمائة قبل المسيح كان يقال للواحد من هؤلاء ملك سبأ وذي رَيْدَان وحضرموت، ثمَّ أضافوا إلى ذلك اللقب جملة "وعربهم في الجبل وتهامة" وبقي ملك الحمير بين هؤلاء إلى ما بعد استيلاء الأحباش على اليمن أي في القرن الرابع بعد المسيح إلى القرن السادس.

* تعليق على ما جاء في السطر ١٨ من ص.٢٣، ج١ من ابن خلدون.

وقد وجد العلماء كتابات منقوشة على الصخور من ذلك العهد. وكان غلازر الآنف الذكر هو الذي كشف الكتابة الطويلة المتعلّقة بسيل العرم، أي انفكاك سدّ مأرب، وهو الحادث العظيم الذي وقع في سنة خمسمائة وثلاث وأربعين بعد المسيح وهذه الكتابة كتبها أبرهة ونصّها: (بقوّة الرحمان «رحمانان» ولطفه ورحمته وبمسيحه والروح القدس نقشت هذه الكتابة على الحجر بأمر أبرهة الوالي من قبل الملك اليكومسي «رامفيس ذي بيامان» ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم في الوعر والسهل). ثمَّ يوجد في هذه الكتابة إشارة إلى رسل ملك الروم وملك فارس والمنذر والحارث بن جَبَلة، ممّا يدل على أنَّ دسائس كلّ من الدولتين الرومية والفارسية كانت بدأت في جزيرة العرب منذ ذلك العهد، ولم يطل الأمر حتّى خلع أبرهة عامل الحبشة آخر الملوك الحميرين الملقّب بذي نواس، وأزال مملكة حمير وأبرهة هذا هو الذي زحف إلى مكّة ومعه الفيل وإليه أشار صاحب البردة بقوله:

كأنهم هربًا أبطال أبرهة — أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى

وفي ذلك الوقت تغلّب العجم على اليمن لعهد كسرى الأول، فاستناب عنه رجلاً يقال له وهريز. ولمّا ظهر الإسلام كان في اليمن عامل لكسرى أبرويز الثاني يقال له « باذان » فأسلم ودخل بعد ذلك اليمن في الحوزة المحمَّدية، ولم يقدر العلماء أن يكشفوا شيئًا عن المملكة السبئية يرجع إلى أقدم من سنة سبعمائة قبل المسيح.

فأمَّا المعينيون فالمظنون أنَّ الكتابات المتعلّقة بهم، تملأ تواريخها خمسة قرون ويظهر أنَّ المعينيين كانوا معاصرين للسبئيين، وغاية ما هناك أنهم رجّحوا أنَّ أقدم الكتابات السبئية يرجع تاريخها إلى أحدث الكتابات المعينية، وقد جاء في الكتابات المعينية ما يثبت وجود دولة السبئيين في اليمن. وكان ملوك المعينيين مثل «خالي كاريبا صادوق» و«يحتيل ريام أبو تبع كرب» في الزمن الذي كان فيه ملوك سبأ، والمظنون أنَّ هذا كان بين سبعمائة وستّمائة سنة قبل المسيح، وقد جاء في كتابة معينية ما يفيد أنَّ السبئيين وقبيلة أخرى اسمها «خولان» كانوا يشنّون الغارات على الطريق المؤدّي من نجران إلى معان في بلاد الشراة جنوبي سورية، وقد أشار كتاب أيوب من التوراة إلى هذه الغارات.

ووجدت كتابات أشورية سابقة لسنة السبعمائة قبل المسيح فيها إشارة إلى وجود أمير من سبأ اسمه «أيطع آماده» يظنّ أنه كان في بلاد العرب الوسطى. وفي المظنون أيضًا أنَّ ملكة

سبأ كانت مالكة لشمالي بلاد العرب. هذا ولم تنفرد سبأ ومعين بملك اليمن، بل كان هناك دولتان قحطان وحضرموت، فالجملة دول أربع أعظمها سبأ.

وكان للمعينيين مستعمرة في مدين نظرًا لتجارتهم بالطيب، وقد ثبت ذلك من كتابات كشفها العالم (أوتنغ Eutung) في «العلي» شمالي المدينة المنوّرة. وسقطت دولة المعينيين في نحو الستمائة والخمسين قبل المسيح، وقد ورث السبئيون مستعمرتهم في مدين. وفي ذلك الوقت تقدّم نحو بلاد العرب دول أخرى مثل حكومة «نبوكدنصر»، فقد كشف أوتنغ و«هوبر Huber» في تيماء كتابات تدل على كون حكم الآراميين البابليين وصل إلى هناك، وربّما كان الملك العربي الذي أشار إليه هيرودوتوس بأنه عاش في نحو السنة الخمسمائة والعشرين قبل المسيح هو ملك اللحيانيين الذي قال پلينوس الروماني المؤرّخ «Pline» إنَّ عاصمته كانت هَجَر. فاللحيانيون هؤلاء يجوز أن يكونوا ورثوا المعينيين والسبئيين ووجدوا قبل النبطيين أي كانت دولتهم بين الخمسمائة والثلاثمائة سنة قبل المسيح. ثمَّ ظهرت آثار النبطيين، في القرن الثاني قبل المسيح، وبقيت دولة هؤلاء النبطيين إلى سنة مائة وستة قبل المسيح، إذ تغلّب عليهم الرومان. وكانت مدينة النبطيين هي بتراء ـ أي وادي موسى اليوم ـ وكان يمتدّ ملكهم إلى مدين وبلاد بني سُليم الوارد ذكرها في نشيد الأنشاد من التوراة، وقد عثروا في وعرة الصفاة من حوران على كتابات مشابهة لحروف الهجاء العربية اليمنية. أمَّا الكتابة النبطية ـ موصولة الحروف ـ فهي مشتقّة من الفرع الآرامي من الكتابة الكنعانية، أو يرجّح أنها هي أصل الكتابة العربية التي اصطلحوا عليها في القرن الثالث بعد المسيح.

وأقدم كتابة عربية معروفة اليوم هي كتابة « نماره » في شرقي حوران، تاريخها سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين بعد المسيح، وهذه الكتابة تتعلّق بملك يقال له امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب، وملك أسد وطيء ونزار، ومن هذه الكتابة يعلم أنَّ ملك امرئ القيس هذا كان يمتدّ إلى نجران اليمن.

جاء في الإنسكلوبيديا الإسلامية أنه ربّما كان امرؤ القيس هو أحد ملوك المناذرة اللخميين. قلنا: هذا محقّق إذ جاء فيهم بحسب ما في تاريخ أبي الفداء ذكر امرؤ القيس ابن عمرو، ثمَّ عمرو بن امرئ القيس، ثمَّ امرئ القيس المحرق بن عمرو وهو والد النعمان الأعور، ثمَّ جاء امرؤ القيس بن النعمان. وقد تابع أبا الفداء في ذلك جرجي زيدان

السوري، وعلي ظريف الأعظمي العراقي، وقابلنا بين هذه السلسلة التي ذكرها كلّ منهما، وبين تاريخ صالح بن يحيى التنوخي فوجدنا أنَّ في سلسلة صالح ابن يحيى ذكر امرئ القيس المحرق بن عمرو بن امرئ القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمي، وقابلناها مع سجل نسب العائلة الإرسلانية اللخمية فوجدنا أنَّ المنذر الذي أمه ماء السماء، أي المنذر الأول هو ابن امرئ القيس الثالث بن النعمان الثاني بن امرئ القيس الثاني بن النعمان الأول ابن عمرو الثاني بن امرئ القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمي.

فمن هنا يعلم أنه يوجد عدّة ملوك من اللخميين بأسم امرئ القيس، ولكن المقصود بالذات هنا هو الملك الذي تولّى منهم بين سنة مائتين وخمسين وثلاثمائة وثلاثين بعد المسيح.

فهذا هو امرؤ القيس الأول الذي يقال له المحرق، ويقال له البدء، فإنَّه ملك بين سنة مائتين وثمان وثمانين، وثلاثمائة وثمانية وعشرين. وقد كان اللخميون عمّالاً للأكاسرة كما كان الغسانيون عمّالاً للقياصرة، وكان مقصد ملوك الفرس باستعمال ملوك الحيرة أن يكونوا فاصلاً بين الفرس والعرب، ويصدّوا غارات القبائل العربية على العراق. ومثل ذلك كان مقصد ملوك الروم بواسطة الملوك أولاد جفنة الغسانيين ردع العرب عن شنّ الغارات في جنوبي سورية.

فهذا جُلّ ما يعرف من تاريخ العرب قبل الإسلام، وكلّما توغّل هذا التاريخ في القدم يزداد غموضًا كما لا يخفى. غير أنَّ هناك حقيقة اتّفق عليها الباحثون من علماء الإفرنجة، ولا سيَّما الذين نقّبوا عن الكتابات الحجرية المبثوثة في جزيرة العرب. وهذه الحقيقة أنه في نحو الألف سنة قبل المسيح كانت العرب ـ لا سيَّما في اليمن ـ مدنيّة في غاية الارتقاء والازدهار. وبعض العلماء يذهب ومنهم صاحبنا الأستاذ المستشرق «موريتز Morits» الألماني إلى أنَّ أصل إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغلوفية كان في اليمن، وهو يعتقد أنَّ اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور.

وقد أفضى موريتز إليَّ بأدلّته على هذا الرأي وقال: إنَّ الفينيقيين إنَّما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية، ثمَّ إنَّ اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين وعنهم أخذ الرومانيون، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، وبهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنيّة.

وأمَّا المستشرق "هومل Hommel" ففي الإنسكلوبيدية الإسلامية يذكر أخذ اليونان عبادة أبولّون وأمّه "ليتو ـ Leto" عن العرب. وقال روبيرتسون سميث "Robertson Smith" إنَّ ليتو هذه هي اللات، وإنَّ اليونان بحسب رأي بريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن، والبعض الآخر عن كتابة الكنعانيين قال هومل: إنَّ جنوبي بلاد العرب كانت فيه مَدَنيّة في أوائل الألف قبل المسيح بالغة الحدّ الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون، ومحافد وقصور، وكتابات.

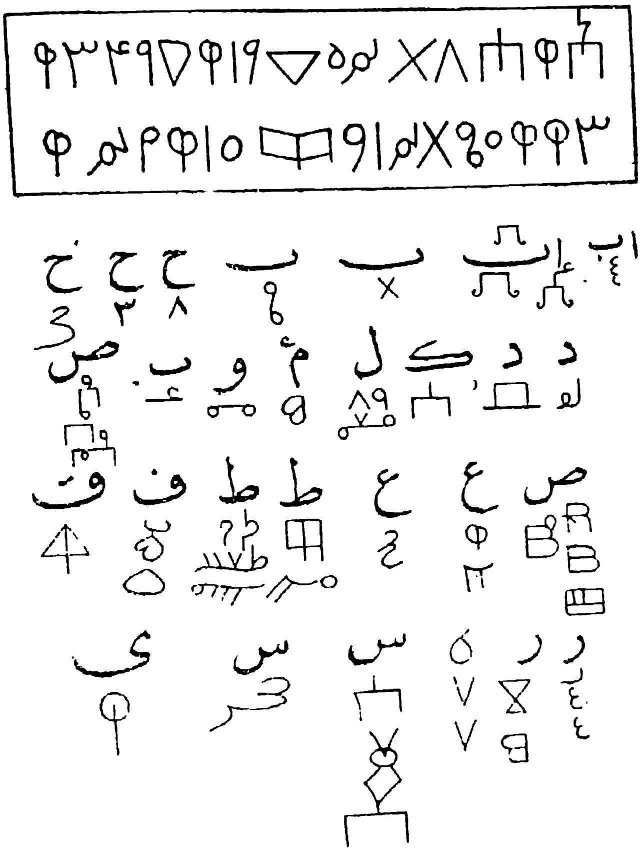
فأمّا الكتابة الحميرية هي التي يقال لها الخطّ المسند؛ فقد جاء في الجزء الثامن من كتاب "الإكليل" للفيلسوف العربي الحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتاب "صفة جزيرة العرب" تصوير هذه الكتابة كما سيأتي. وقد اشتهر كتاب "الإكليل" كثيرًا، ولكن أكثره مفقود حتّى في بلاد اليمن نفسها، فقد بحثنا عنه فلم نجدهم يذكرون إلاَّ جزئين، والحال أنه عشرة أجزاء، الأول مختصّ بالمبتدأ وأصول الأنساب، والثاني نسب ولد الهميسع بن حمير، والثالث في فضائل قحطان، والرابع في السيرة القديمة إلى عهد تبع أبي كرب، والخامس في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذي نواس، والسادس في السيرة الأخيرة إلى الإسلام، والسابع في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة، والثامن في ذكر قصور حمير ومدنها وما حفظ من شعر علقمة والمرائي والمساند، والتاسع في أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند، والعاشر في معارف حاشد وبكيل.

وقد اطّلعت على الجزئين الثامن والعاشر في المكتبة الملوكية في برلين وأخذت صورتهما بالفوتوغرافيا، وعلمت أنَّ أحد هذين الجزئين لا يزال محفوظًا في استانبول كما أني علمت أنَّ الجزء الثامن الذي يدور على القصور والمحافد والمساند قد طبعه الدكتور مولر وشرحه سنة ١٨٧٩، وأمَّا سائر الأجزاء فما علمنا بوجودها.

وإليك الآن ما جاء في الجزء الثامن عن الخطّ المسند، قال الهمداني: باب حروف المسند، وهو كتاب حمير ومثلاته في حروف أ . ب . ت . ث . وغيرها. قال الهمداني: أكثر ما يقع بين الناس الخلف فيما تقولوه في لسان حمير من اختلاف صور الحروف، لأنه ربّما كان للحرف أربع صور وخمس، ويكون الذي يقرأ لا يعرف إلاَّ صورة واحدة، فلما وقع الخلل في هذا الموضع رأينا أن نثبت تحت كلّ حرف من حروف؛ ألف، باء، تاء، ثاء، صورة جميعها. وإنَّما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتاب العربي، وكانوا

يطرحون الألف إذا كانت وسطًا مثل ألف همدان، وألف ريام، فيكتبون ريم وهمدان، كذلك تبع كتّاب المصاحف الحروف في الرحمن وألف إنسان، ويثبتون ضمّة آخر الحرف وواو عليهمو.

(إلى أن يقول): ويقرأون كلّ سطرين بخط، ويفصلون بين كلّ كلمتين في السطر بخط، ومثال ذلك في أول مسند هذه صورته:



والذي عليه جمهور المؤرّخين والمنقّبين اليوم وفي مقدّمتهم سبرنجر، وشرادر؛ هو أنَّ جزيرة العرب هي مهد الأمم السامية، وأنَّ المهاجرة بدأت منها إلى الخارج.

وقد خالف في ذلك بعضهم وذهبوا إلى أنه يجوز أن يكون وقوع المهاجرة بالعكس، أي بدلاً من أن يكون العرب ارتحلوا من الجزيرة إلى بابل؛ يجوز أن يكون بعض الأقوام الذين على شواطئ الفرات قد ارتحلوا منها إلى الجزيرة العربية، فأمَّا كون البربر هم من العرب، وأنهم جاءوا من جزيرة العرب، وأنَّ اللغة البربرية هي من اللغات السامية؛ فهذا سيكون البحث فيه بمكان آخر.

فبعض العلماء ومنهم «نولدكه»، المستشرق الألماني المعروف، يقول بهذا الرأي وبعضهم يردّه، وقد ذهب «هومل Hommel» إلى أنَّ السبئيّين كانوا في الجوف في شمالي بلاد العرب (التابعة لابن سعود اليوم) وأنهم تقدّموا منها إلى الجنوب. وقد جاء ذكر سبأ في التوراة مرارًا ولكن بأقوال يناقض بعضها بعضًا، وإنَّما يمكن الاتّفاق على أنَّ السبئيّين كانوا تجّارًا في تلك الأعصر يبيعون عود الطيب في مصر والشام ويتجرون بالحجارة الكريمة. والتوراة تشير إلى ثروة السبئيّين، ويؤيّد ذلك مؤرّخو اليونان والرومان.

وقد ذكر «سترابون»، المؤرّخ الجغرافي اليوناني، أنَّ الرومانيين في زمن أغسطس غزوا سبأ، وذلك سنة ٢٤ ـ أملاً بالاستيلاء على أموال هذه الأمّة ـ ففشلت هذه الغزوة الرومانية فشلاً تامًّا، ولكنّها عرّفت الرومانيين ببلاد العرب. فقد جاء في كتب مؤرّخي الرومان واليونان مثل «ديودور» و«هيرودوت» وغيرهما، كلام كثير عن حضرموت واليمن، ووجد مطابقًا للكتابات التي عثروا عليها في جنوبي الجزيرة العربية. ومن ذلك كلّه يظهر أنَّ أهالي اليمن كانوا أشدّاء في الحروب، أصحاب إقدام ونشاط في الأعمال، وكانت لهم زراعة راقية جدًّا، وتجارة ممتدّة إلى سائر الأقطار وعلاقات اقتصادية مع مصر وفينيقية، وكان لهم قيام على الملاحة وركوب البحر يعجب به المؤرّخون.

وكان السبئيّون سبّاقين في هذه المزايا كلّها، وكانوا أصحاب يسار وترف. ولكن يظهر أنه لمّا غزا الرومان تلك البلاد بقيادة «جالّوس Gallus» كان قد بدأ ظهور دولة الحميريين، وكان قد تقهقر السبئيّون. فالقائد جالّوس يذكر أنهم ـ أي الحميريين ـ أصحاب الكلمة العليا في اليمن.

وقد كان هذا في القرنين الأول والثاني قبل المسيح. ولكن السبئيّن بحسب ما جاء في تاريخ «بلين الروماني» كانوا لا يزالون ذوي سيادة ومكانة، وكانت بقيت لهم بعض المدن، وهذا مؤيّد بالكتابات المنقوشة على الصخور، وبآثار العمران، من أقنية وسدود وصهاريج، وبأقوال الهمداني صاحب كتاب «الإكليل وصفة جزيرة العرب».

وقد ذكر بلين الروماني معادن جزيرة العرب، واستخراج هذه الأمّة للذهب الذي زاد في ثروتها، وسهّل طرق مدنيّتها. وأمَّا محصول الطيب فقد كان خاصًّا بالسبئيّين والمعينيين.

وفي أوائل القرن الثاني قبل المسيح تقدّم الأحباش إلى بلاد سبأ، وصار «أيزاناس» يلقّب بملك حمير وسبأ، ويُستدل من الكتابات المنقورة في الصخور أنه من نهاية القرن

الثالث إلى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح لم يكن في اليمن ملوك من أهل اليمن أنفسهم؛ وأنَّ الحكم كان قد صار للحبشة، ولذلك منذ أواخر القرن الرابع لا تكاد تجد ذكرًا لسبأ في كتابات اليونان والرومان.

وقد كان "سپرنجر" منذ نصف قرن لا غير يقول: إنَّ مؤرّخي اليونان وبلين الروماني هم الذين نستقي منهم جميع المعلومات عن السبئيّين، وكذلك قبل هذا التاريخ كانت جميع المعلومات التي لدينا عن جنوبي بلاد العرب هي ما جاء في العهد العتيق، وما يتناقله العرب من القصص التي فيها من التخيّل أكثر ممّا فيها من الحقيقة. فلمّا عثر المنقّبون على ما عثروا عليه من الكتابات هناك انكشف لديهم ما يجدر بأن يسمّى تاريخًا، والفضل أكثره في كشف هذه الكتابات راجع إلى غلازر وقبل غلازر كان "كارستن نيبور Caresten Nie Buhr" ذهب إلى جزيرة العرب في بعثة علمية أنفذتها الحكومة الدانمركية سنة ١٧٦٣، وكان فيها "راتكن الألماني" حدثني بذلك حفيده الأستاذ رانكن في هامبورغ.

فهذه البعثة التي هي أول بعثة علمية إلى جزيرة العرب تنبّهت لقضية الكتابات المنقوشة على الصخور، فجابت البلاد من لحية، إلى مخا، إلى تعز، فصنعاء، وكان غرضها معرفة الجغرافية وأحوال السكّان، وأصولهم وأنسابهم، مع درس طبقات الأرض ونباتاتها، لكنّها علمت بوجود كتابات في ظفار لم تصل هي إليها، غير أنَّ هولنديًا كان قد أرسل إلى هذه البعثة نسخة عن كتابات عثر عليها. وعلى كلّ حال فأول من نبّه إلى هذه الكتابات ووجوب حلّها خدمة للعلم هو "نيبور الدانمركي" ثمَّ تلاه "ستزن Seetzen" من أولدنبورغ فإنّه نسخ الكتابات المنقوشة على صخور ظفار وأرسل نسخة عن بعض جمل سبئيّة إلى أوربا وذلك سنة ١٧١١، ولم يفهموا مآلها في أول الأمر، ثمَّ توصّلوا إلى حلّها فاشتدّت رغبتهم في معرفة غيرها.

وفي سنة ١٨٣٤ كشف الإنجليزي "ولستيد Wellsted" كتابة في حصن غراب على ساحل حضرموت، وكتابة في محل يقال له "نقاب الحجر" وفي سنة ١٨٣٦ كشف "كروتندن Cruttenden" خمس قطع سبئيّة في صنعاء، ثمَّ نشر الرحالة "ڤريده Wrede" في سنة ١٨٧٠ كتابات وجدها في حضرموت، ثمَّ إنَّه جاء "أرنود Arnaud" وهو أول أوربي توصّل إلى سدّ مأرب فنسخ عما وجده في مأرب وفي صنعاء ٥٦ كتابة أكثرها كان جُملاً قصيرة، ثمَّ كثر الاطلاع على هذه الكتابات في بلاد اليمن. وكان الفضل في حلّ هذه الكتابات ومعرفة معانيها إلى "جيسنيوس Gesenius" و"روديجر Rodiger" سنة ١٨٤١

وإلى «أوزياندر Oseander» (سنة ١٨٥٦ ـ ١٨٦٣) واطّلعوا على كتاب ليعقوب بن صافر اليهودي كتبه بالعبري في سنة ١٨٦٦ فأنه ذهب من الحُديّدة إلى عمان على طريق صنعاء، وجاء في كتابه بمعلومات ذات قيمة، وبها استدلّ «هالڤي Halévy» على الأماكن التي يجب ارتيادها لأجل الاطلاع على الكتابات الحجرية.

ويُظنّ أنَّ هاليڤي كان أول أوربي تمكّن من الإيغال إلى وادي نجْران، وإلى الجوف اليماني مركز بلاد معين. وبذلك تمكّن من الاطّلاع على كتابات كثيرة من أقدم عهود البشرية، ولم يطّلع عليها بعده غيره من الأوروبيين. فنسخ هاليڤي ٦٨٦ كتابًا منها خمسون من الكتابات الطويلة، ومن هذه الخمسين ثلاثون معينيّة.

وقد كان ما اطّلع عليه هاليڤي هذا هو الأساس الذي اتّخذه العلماء للتاريخ العربي المتعلّق بجنوبي جزيرة العرب.

ثمَّ ذهب إلى هناك الكابتن «ميلز Miles» ثم «هينرك ملتسان Heinrich Von Maltzan» الذي ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠ ثمَّ «ميلنجن Millingen» الذي ذهب من الحديّدة إلى صنعاء سنة ١٨٧٣ ثمَّ «مانزوني Manzoni» الذي جاب البلاد بين عدن وصنعاء والحُديّدة سنة ١٨٨٠ ثمَّ «شابيرا» الذي جوّل في تلك البلاد سنة ١٨٧٩ ثمَّ «هاريس Harris» الذي ساح في اليمن سنة ١٨٩٣. ولم يأت هذا الأخير بكتابات جديدة، ولكنّه أتى بمعلومات عن تلك البلاد مهمّة. ثمَّ جاء «لانجر Langer» النمساوي فتوصّل إلى ٢٢ كتابة لم تكن معروفة من قبل، ومات ضحيّة بحثه وتنقيبه، كما مات ستزن من قبله، وهوبر من بعده. وإنَّ القارئ الذي يهمّه هذا البحث جدير بأن يطالع كتاب «ڤبر Weber» الذي أسماه «العرب قبل الإسلام» «Arabien dem Islam» وكتاب هومل المسمّى برحلة هلبرخْت.

وأمّا «غلازر» الألماني البوهيمي فقد برع على الجميع لأنه تمكّن من نقل ألفَي كتابة حجرية، وبدأ سياحته سنة ١٨٨٢ فذهب من الحُديّدة إلى صنعاء، وجاب البلاد ثلاث مرات في الشمال، والغرب، والجنوب الشرقي، والشرق. ثمَّ ذهب إلى بلاد ظفار، كما أنه ذهب إلى مأرب ونقل أربعمائة كتابة منها، وحقّق معلومات جغرافية أطلسية كثيرة، ووقف على فوائد عظيمة من جهة اللغة، واقتنى أكثر من ستّمائة مخطوط عربي، فنشرت أكاديمية باريس جانبًا من هذه الكتابات. والآن يوجد حجارة عليها كتابات معينيّة في لوندرة،

وأخرى في برلين. فأمّا المخطوطات فأكثرها في برلين، ومنها جانب في المتحف البريطاني. وأهم هذه الكتابات هي كتابة "حدقان" وكتابة "صرواح" التي منها يؤخذ أهم الوثائق التاريخية على جنوبي بلاد العرب.

ولمّا سافر غلازر المرّة الرابعة إلى اليمن حصل أيضًا على مائة كتابة لم نعرفها من قبل، وعلى ٢٥١ مخطوطًا عربيًا، وجمع معلومات كثيرة.

وأنه يعود أكثر الفضل في تفسير الكتابات واستخراج معانيها إلى هاليڤى المارّ ذكره، وبريتوريوس، ومُوردتمان، ومولر، وهومل، وغلازر. ثمَّ قام بعض العلماء بسياحات أخرى في اليمن منهم "دڤلر Deflers" سنة ١٨٨٧ لكن غرض سياحته كان علم النبات، ثمَّ "هِرْش" ساح إلى حضرموت سنة ١٩٨٣ وهو أول أوربي دخل "شبام"، و"تريم" ولم يكن باحثًا إلاَّ عن الأمور الطبيعية، ثمَّ في سنة ١٨٩٣ جاء "بانت Beant" إلى حضرموت فدخل شبام وظفار، ثمَّ جاء "كارلو لاندبرج Carrlo Landberg" في سنة ١٨٩٦ وكتب رحلة مهمّة، ثمَّ أرسلت أكاديمية ڤينا سنة ١٨٩٨ بعثة أنفق عليها ملك السويد فلم تفز بكبير طائل، فتحوّلت إلى جزيرة سقطرة وقامت هناك بمباحث طبيعية ولغوية. ثمَّ إنَّ "بوري Bury" جاء من قبل هذه البعثة إلى "بيحان وخولان" وصوّر عدة كتابات، وفي سنة ١٩٠٢ أرسلت أكاديمية ڤينا رجلاً اسمه "هاين Hein" إلى حضرموت رجع بمعلومات كثيرة لم يكونوا عرفوها.

هذا ويقال إنَّ جميع ما اطّلع عليه غلازر الذي هو إمام هذا الفنّ لم ينشر بأجمعه لأنه لم يتّسع له الوقت، ومات قبل أن يتمكّن من نشر جميع معلوماته، وبعد موته نشروا في ڤينا جانبًا منها لا كلّها. وقد ذهب غلازر إلى أنَّ الكتابات المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفَيّ سنة، ولذلك تكون أقدم من الكتابة الفينيقية التي لم تظهر قبل المسيح إلاَّ بألف سنة، فلذلك اعترض العلماء على غلازر في هذا الزعم بحجّة أنَّ الكتابة المعينية مستقيمة وأشكالها هندسية، ولا يظن أنَّ مثل هذا الشكل يكون متوغّلاً في القدم إلى تلك الدرجة.

جاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية أنه لم يوجد بين كتّاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن، وبمعلومات مؤسّسة على قواعد متينة مثل الهمداني. فقد كان هذا الرجل يمانيًّا مولودًا في صنعاء، فحمله حبّ وطنه والإعجاب بقومه على تأليف كتاب "الإكليل" الذي

ذكر فيه تاريخ اليمن ووصف العاديّات التي هي فيها. والجزء الثامن من الإكليل كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور «مولر H. Muiler».

كما تقدّم. وقد أخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ما ورد في كتاب الهمداني الآخر المسمّى «بصفة جزيرة العرب» وقد كان في كتاب الهمداني قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمداني على علاّتها، إلاَّ أنه برغم ذلك هو الكتاب العربيَّ الوحيد الذي يفهم القارئ ما اليمن، ومن أهل اليمن؟ وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن، وطبائع أهلها، وعن مواقع مدنها، وعن قصورها وحصونها لا توجد في كتب الإفرنج برغم جميع تدقيقاتهم.

وكذلك في أكليل الهمداني عن سبأ وعن سيل العرم ما لا يتم تاريخ اليمن إلاَّ به وقد ذهب مولر إلى أنَّ الكتابات الحجرية لا تكفي لجلاء تاريخ سبأ ومعين وبلاد اليمن. فأمَّا قول الهمداني إنَّ باني سدّ مأرب هو لقمان بن عاد فهو قول تابع فيه العوام والحقيقة التي ظهرت من الكتابات أنَّ باني السدّ هو إثيعمر، فأمَّا وصف آثار السدّ بعد خرابه فإنَّ أرنود وهاليڤي لم يصفا تلك الآثار بغير ما صوّرها به الهمداني.

وقد قسّم مؤرّخو العرب أدوار اليمن قبل الإسلام إلى ثلاثة؛ الأول من البدء إلى عهد تبع أبي كرب، والثاني من عهد أبي كرب إلى ذي نواس، والثالث من عهد ذي نواس إلى الإسلام. ولكنّ علماء الإفرنج قسّموا هذه الأدوار إلى ثلاثة بشكل آخر. فقالوا: الدور الأول هو السبئ المعيني. والدور الثاني هو الحميري، والدور الثالث هو الحبشي فالفارسي. ولعل الوقت يأتي بمعلومات أوضح ممّا تيسّر حتّى الآن فإنَّ تاريخ الأعصر الغابرة كان ظلمات بعضها فوق بعض، فانكشف جزء منها بالحفر والتنقيب وحلّ الكتابات القديمة، ولا يزال تحت التراب ـ وربّما فوق التراب ـ كتابات كثيرة لم يصل المنقّبون إليها.

ولمّا كنت في الحجاز منذ ست سنوات، وصعدت إلى جبال الطائف، وجدت كتابات كثيرة على الصخور، وقيل لي إنّها مستفيضة في كلّ مكان تقريبًا من جزيرة العرب، وقيل لي أيضًا إنَّ بين المدينة ونجد كتابات لا تحصى. وكيف ضرب الإنسان في أرض جزيرة العرب يجد كتابات على الصخور، فإنَّ من عادتهم أن ينقشوا أخبار الحوادث التي تقع عندهم على الجنادل، وقد شاهدنا من هذه الأخبار المحفورة على الصخر بالخط الكوفي شيئًا كثيرًا، وأوردت أمثلة عليه في رحلتي الحجازية.

ومرّة قرأت في طريق وادي ليّة على صخر قحط أصحاب الناس وأجدبوا ثمَّ بعث الله الغيث وسُقوا. على أنَّ مؤرّخي الإفرنج يعترفون بأنَّ في كتب مؤرّخي الإسلام روايات عن مدنيّة سبأ القديمة والأدوار التي تلتها تنطبق أشدّ الانطباق على الكتابات المنقوشة في الحجر، وعلى المنابع اليونانية والرومانية، وكلّها تفيد أنَّ مدنية سبأ كانت راقية جدًّا، وأرقى من المدنيّات العربية الأخرى، فالمباني القديمة الدائرة من آثار سبأ، والنقوش والتماثيل، وبقايا الأعمدة والهياكل، والقصور والأسوار والأبراج، وسدود المياه، ممّا شاهده سيّاح الإفرنج بأعينهم يطابق أشدّ المطابقة الأوصاف التي وصف بها اليونان والرومان تلك الآثار المدهشة، ولا يجدون فيها مبالغة، كما أنه عندما ينظر السائح إلى تلك الآثار الباهرة لا يعود متعجّبًا ممّا جاء عنها في كتب الإسلام ممّا كان يظنّه من أساطير الأولين. وحسبك بما ذكره الهمداني من قصر غمدان وغيره من قصور سبأ مثل قصر سالحين، وبينون، وما ذكره عن عظمة سدّ مأرب، وما كتبه مؤرّخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور، وهاتيك الأسداد والقلاع، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان.

فقد كان العرب في جنوبي الجزيرة في حاجة إلى خزن مياه الأمطار لأجل زراعتهم، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياض أقصى درجة يتصوَّرها العقل وترقَّت الزراعة في اليمن لذلك العهد القديم إلى حدّ لا يخطر ببال أحد.

وروى الهمداني أنه كان يقال لليمن: اليمن الخضراء. لكثرة أشجارها وفواكهها ومحصولاتها، ولم تكن الزراعة وحدها هي التي بلغت الأمد الأقصى من الرقيّ؛ بل ضارعتها التجارة من جهة، والصناعة من جهة أخرى. فأمّا خصب أراض اليمن الذي روى عنه هذه الروايات مؤرّخو اليونان والرومان متّفقين في ذلك مع مؤرّخي العرب؛ فقد اعترف به سيّاح الإفرنج الذين جوّلوا في بلاد اليمن، إلاَّ أنَّ هؤلاء أشاروا إلى تناقص الأشجار بالقياس إلى الماضي.

وقد ذكر الهمداني اعتدال الإقليم في جهات صنعاء بخاصّة، وهذا يطابق ما قاله غلازر وغيره من السيّاح الأوروبيين، وهو أنَّ أعالي اليمن معتدلة الهواء، وأنَّ هذا الاعتدال هو السبب في كثرة محصولاتها.

ولقد شاهدت بنفسي في سياحتي إلى اليمن السنة الماضية اعتدال بقعة صنعاء منذ صعدنا «عقبة آنس» حتّى انتهينا إلى قرية يقال لها «القبّة» ثمَّ إلى قرية أخرى يقال لها

«المعبر» ومن هناك سرنا عدّة ساعات بالسيّارة الكهربائية في بسيط من الأرض يعلو ألفين إلى ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر، إلى أن بلغنا صنعاء فمررنا ببقعة من أحسن بقاع الأرض، وأكثرها قابلية زراعية، وأجودها هواءً وماءً ولمّا وصلنا إلى صنعاء، سألنا هل يوجد كثير من نمط هذه البقعة في اليمن؟ فأجابونا بأننا لم نشاهد إلاَّ جزءًا يسيرًا من البسائط المربعة المحيطة بصنعاء من الجهات الأربع. وقد كاشفت بما في نفسي من هذا الأمر الأمير الخطير السيِّد عبد الله بن الوزير، أمير الحُديّدة ـ وهو من العقل والفضل بالمقام الذي يندر مثله ـ فقال لي: إنَّ اليمن في الحقيقة هي عبارة عن جبالها.

ولم تكن الزراعة وحدها سبب ثروة اليمن المدهشة في ذلك العصر كما تقدّم الكلام عليه؛ فقد أفاض المؤرّخون الأولون من اليونان والرومان مثل ديودور واسترابون، وأغاترشيد، في ذكر تجارة سبأ، واستخراجها للذهب والحجارة الكريمة التي كانت تبيعها من البطالسة بمصر، وإلى الفينيقيين بالشام، هذا مع تجارة العنبر وعود الطيب، وأيّدت التوراة هذه الروايات كلّها.

جاء في الإنسيكلوبيديا الإسلامية أنه لا مبالغة فيما نقلوه من أنَّ أبواب منازل سبأ وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثير مموهًا بالذهب والفضّة، مرصّعًا بالحجارة الكريمة ، وأنَّ آنيتهم كانت مصوغة من أنفس المعادن. وهذا ما ذكره الهمداني والمسعودي وغيرهما من مؤرّخي العرب، وما أيّدته الكتابات الصخرية نفسها فيما ترويه عن التقادم العظيمة من الذهب والفضّة ونفائس الأحجار. وقد وجد كثير من المسكوكات السبئية ومن الحلى تؤيّد أيضًا روايات الرواة من كلّ قبيل.

وقد عنى بعض علماء الإفرنج بالتنقيب عن هذه الحياة الاقتصادية التي كانت في اليمن السعيدة من جميع نواحيها، وكان السابق في هذه الحلبة «رودوكَنَاكِيس Rhodocanakis» الذي ألّف كتابًا استخرج فيه من الكتابات الحجريّة ممّا أمكنه أن يستخرجه من المسائل الاقتصادية التي كان يعوّل أهل اليمن، والمسائل الحقوقية المتعلّقة بها.

وثبت من هذه التدقيقات أنه كان يوجد عند العرب الأولين قانون صارم يقتضي استثمار الأرض بدون إهمال شيء منها، وأنه كان يوجد إدارة خاصّة لأجل تقسيم المياه وتوزيع الأعمال الزراعية. وهذه القوانين المتعلّقة باستثمار الأرضين واستيفاء أسباب القيام عليها؛ كانت متشابهة في جميع بلاد العرب الجنوبية. وهذا البحث قد حمل «جرومان

« Grohmann » على تأليف كتاب خاصّ بهذا الموضوع وصف فيه طبقات الأرض والمناخ، وكيفيّة توزيع المياه، واستخراج المعادن، وتربية المواشي والصيد وغير ذلك ممّا اعتمد فيه على الكتابات الحجرية من جهة، وعلى شهادات المؤرّخين والسيّاح من جهة أخرى. وقد استقى في هذا التأليف من بعض منابع مجهولة حتّى الآن، نظير الآثار التي جمعها غلازر ولم يتيّسر له نشرها كلّها. وبالجملة فرأي محقّقي الإفرنج عن بلاد العرب يتلخّص فيما يلي:

الأول ـ إنَّ المدنيّة العربية ـ لا سيَّما في جنوبي جزيرة العرب ـ هي من أقدم مدنيّات العالم وأرقاها، وهم على خلاف فيما إذا كان الساميّون هم الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى بلاد بابل؛ أو كانوا نزحوا من بابل إلى الجزيرة، وكلّ فئة من المؤرّخين تفترض افتراضات لا يمكن معها الجزم بشيء.

الثاني ـ إنَّ أهمّ أمّة في الجزيرة العربية في الثروة والعظمة والآثار في الأرض كانت أمّة سبأ، وكان يعاصرها ويضارعها المعينيون وقحطان وحضرموت، وأنَّ هاتين الأمّتين «سبأ ومعين» بقيتا سائدتين إلى الزمن الذي ظهرت فيه الدولة الحميرية، وأنَّ هذه الدولة تغلّبت على اليمن وبقيت فيه إلى أن جاء الأحبوش فاستولى على اليمن وأزال ملك الحميريين، وبقيت اليمن خاضعة للحبشة حتّى جاء الفرس فأزالوهم عنها وبقيت اليمن تابعة للأكاسرة حتّى ظهر الإسلام.

الثالث ـ إنَّ تاريخ اليمن وبلاد العرب أجمع لم يكن له منابع سوى العهد القديم وكتابات هيرودوتس، واسترابون، وديودور، وأنختريد. وغيرهم من يونانيين ورومانيين، مع بعض تواريخ للعرب أنفسهم بعد الإسلام ممّا اختلط فيه التاريخ بالخرافة. فيجب على الناظر في التواريخ العربية أن يجرّد الأقاصيص من الأخبار التاريخية، وأنَّ أحسن ما كُتِبَ عن جزيرة العرب بأقلام العرب هو كتب الهمداني أي «الأكليل وصفة جزيرة العرب».

الرابع ـ إنَّ تاريخ العرب الأوّلين لم يبدأ في الحقيقة إلاّ منذ بدأ سيّاح الأوربيين بالاطّلاع على كتابات المنقوشة على الأحجار، وأخذوا ينظرون فيها إلى أنَّ تمكّنوا من حلّها وفهم معانيها، فمنها ما وافق كتابات المؤرّخين، ومنها ما اختلف عنها، إلاّ أنَّ الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيّدة للتاريخ، ولم يبقَ شكّ في صحّة المجموع، وإن يكن وقع اختلاف في التفاصيل. والقضيّة الأصلية وهي ارتقاء مدنيّة العرب إلى تلك الدرجة العليا في تلك الأعصر المتوغّلة في القدم؛ قد ثبت بالكتابات الحجرية التي أيّدت أقوال المؤرّخين كما أنَّ أقوال المؤرّخين قد أيّدتها.

وهذه مسألة يجب أن تكون عبرة ودرسًا للذين يحملون جميع ما يتناقله الناس من الأخبار القديمة محمل الأساطير والأقاصيص الوهمية، وهو ظنّ باطل، وراي فائل. فأنه مهما كان التوتّر قد تداخله أقوال عامّية، وآراء ساذجة؛ فإنَّه يرجع إلى نصاب صدق في الأصل لا شبهة فيه في مجموعة، وهذه قضيّة تاريخ جزيرة العرب شاهدة على ذلك، بعد أن جاءت فيها المكتوبات الحجرية معزّزة للقراطيس والأوراق المخلّفة عن اليونان والرومان والعرب، تعزيزًا لم يكن لينتظره أحد.

الخامس ـ إنَّه وجد أقوام دخلت إلى جزيرة العرب، كما وجد أقوام خرجت منها. وأنه بسبب استيلاء الحبشة على اليمن، ثمَّ استيلاء الفرس، قد حصل اختلاط في الدماء في جنوبي الجزيرة، كما حصل اختلاط في شماليها بسبب تقدّم الآراميين إلى مدائن صالح وتيماء، وأنَّ النبطيين كانوا أيضًا تقدّموا من بلاد الشراة إلى شمالي الحجاز.

السادس ـ إنَّه يوجد عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة، كما جاء في تواريخ الإسلام. وأنَّ من العرب البائدة عادا، وثمود، وطسما، وجديس، وكلّهم نزحوا من اليمن إلى الشمال. وبعضهم يذكر منهم العمالقة، وقد ورد ذكرهم في التوراة، وقد وجدت كتابات آرامية في شمالي الحجاز، كمدائن صالح منتشرة على الصخور، ويذهب بعضهم إلى أنَّ هذه الكتابات من بقايا النبط الذين اختلطوا بالعرب ولذلك يجد فيها الإنسان ألفاظًا عربية مع الألفاظ النبطية.

وقد روى «هورات Huart» في «تاريخ العرب» أنَّ الكتابات التي وجدت في تيماء هي أقدم جدًّا من الكتابات التي وجدت في مدائن صالح، والمظنّون أنها ترجع إلى ستّمائة سنة قبل المسيح، وهي خطوط بارزة كما هي خطوط العرب المحدّثين بعكس سائر الخطوط الساميّة التي حروفها مجوّفة.

السابع ـ على ظنّ محقّقي الإفرنج أنَّ الكنعانيين في الأمم السامية نزحوا من الجنوب وأوطنوا فلسطين، وأنَّ الفينيقيين جاءوا من شواطئ خليج فارس الغربية وأقاموا على شواطئ الشام، واستدلّوا على أنَّ أصل الفينيقيين هو من شواطئ خليج فارس بوجود النواويس ـ أي القبور المنحوتة في الصخور ـ في وطن الفينيقيين الأصلي كما في سواحل سورية، وكذلك الرعاة في مصر كانوا عربًا فتحوا قسمًا من وادي النيل وخرجت منهم ملوك. وقد ثبت أنَّ الآشوريين في حروبهم مع المصريين قد تكلّموا عن العرب، ووجدت لذلك آثار في كتاباتهم الخزفية.

وقد جاء في هذه الآثار وجود دولتين في شمالي جزيرة العرب يقال لإحداهما «موصري Mousri» وللأخرى «ملوحة Melouhha» ولم يعلم شيء عن ملوحة هذه ولكن ظهر أنَّ دولة موصري هي المستعمرة المعينية التي كانت في شمالي الحجاز فإنَّ تغلاط بيلسَّر الثالث ملك الآشوريين الذي عاش بين سنة ٧٤٥ و ٧٢٧ قبل المسيح كان قد غزا العرب في شمالي الحجاز.

فهذه لمحة دالّة ممّا يتعلّق بالعرب وتاريخهم القديم؛ يقدر أن ينشد منها القارئ مظانّ البحث.

ولكن الذي لم أجده حتّى الآن في كتب الإفرنج هو أصل اشتقاق لفظة «عرب» ومن أين جاءت؟ فعلماء العرب قالوا: إنَّ هذه اللفظة جاءت من قولهم أعرب عن الشيء أي أبان عنه، سمّى العرب بذلك لفصاحتهم وحسن إعرابهم عن مقاصدهم. وقيل: إنَّهم انتسبوا إلى ناحية بقرب المدينة المنوّرة اسمها عربة، وذلك أنَّ أولاد اسماعيل نشأوا بهذه الناحية فسمّوا عربًا، ثمَّ غلب الاسم على الجميع. ورُدَّ على هذا القول بأنَّ الغالب هو أنَّ أسماء الأرضين والبلاد تنقل من أسماء ساكنيها، أو من صفة ثابتة لها، ولم يعهد أنَّ الناس أخذت أسماءها من الأرض التي نزلت فيها إلاَّ على وجه النسبة. والأكثرون على أنَّ اشتقاق لغة «العرب» هو من مادّة الإعراب أي الإبانة عن الضمير، وذلك لِما اتّصفت به هذه الأمّة من حسن البيان، وبلاغة التعبير، ومن كون لغتهم هي أشرف اللغات، والله أعلم.

* * *

الترك *

هذه الأمّة هي بدون شكّ من أشهر أمم الكرة الأرضية، وأكثرها عددًا وأشدّها شكيمة، وأوسعها فتوحات، وأمجدها تاريخًا. وقد حرّرت خلاصة تاريخها في حواشي "حاضر العالم الإسلامي"(١) بما أرى مناسبًا إعادته هنا مع زيادة تفصيل.

قلت هناك: إنَّ الترك هم من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية، وإنَّهم معدودون من الشعوب الطورانية، وهم متشابهون في الخلقة مع الصين والتبت واليابان. ولا عبرة بما تجده من سحناء أتراك الأستانة والأناضول؛ فإنَّ هؤلاء قد تولّدوا وتناسلوا في غربي آسية من قرون متطاولة، واختلطوا بالأمم الأخرى كالقوقازيين، والمكدونيين والأرناؤوط، والروم، والبلغار، والأكراد، والصرب، وبقايا أهالي الأناضول القدماء وتولّدت منهم أمّة لا تشبه المغول، ولا الصين، ولكن الترك الأناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الأمم الغريبة يشبهون كثيرًا أتراك بخارى، وخيوه، وكاشغر، وهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين، والتبت، والمغول.

كان الترك من على عنق الدهر في جبل الذهب بين سيبيريا والصين، ثمَّ أخذوا ينتشرون في الأقطار، فهاجروا إلى شمالي سيحون وجيحون، وإلى الشرق الشمالي من بحر خوارزم، وإلى الشمال الغربي من الصين والخطا. فكان منهم قسم في الغرب وهم "المجار والفنلانديون" ـ أهل فنلاندا على البلطيك ـ والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم "الأوراليون". وكان منهم قسم في الشرق وهم الذين يقال لهم "المانشو والتونغوز". وقسم في الجنوب الشرقي وهم "المغول".

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الأمّة الفارسية، وقيل إنَّ هيردوتس أبا المؤرّخين أشار إليهم تحت اسم تاركيتاوس.

وباني أول دولةٍ منهم أوغوز خان بن قره خان، وكان له ستة أولاد؛ وهم كون خان، وآي خان، ويلديز خان، وكول خان، وطاغ خان، ودكز خان. فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق، وثلاثة سكنوا الغرب. وكان لكلّ منهم أربعة أولاد، فصار لأوغوز خان ٢٤ حفيدًا هم رؤساء القبائل التركية، هكذا قال نسّابوهم.

---

* تعليق على ما جاء في السطر ٢ ص.٢٧، ج١ من ابن خلدون.

ومن البداية انقسم الترك إلى قسمين؛ الساكنين في شرقي تركستان، وهم «الأويغور» والساكنين في الغرب منها وهم «الترك أو التركمان» وكان «الأوريغون» بادئ ذي بدء أرقى وأرق وأكثر مدنية، وكان لسانهم لسان الترك الأدبي، وكان لهم خط ومؤلّفات. ثمَّ جاء رهبان من النساطرة ونصّروا بعضهم وعلّموهم خطًّا مأخوذًا من السريانية، وموجود بهذا الخط كتب تركية إلى اليوم.

وفي سنة ٨٥ للهجرة غزا «قتيبة الباهلي» بالمسلمين العرب بلاد الترك، وافتتح بخارى، ومرو، وخوارزم، وسمرقند، وغيرها. واجتمع عليه ملك السغد، وملك الشاش، وغيرهما، فهزمهم وأثخن في الترك فصالحوه على أموال يؤدّونها إليه، وكان في صلحه بيوت الأصنام والنيران فأُخرجت الأصنام فسُلبت حليتها. وكانوا يقولون إنَّ هناك أصنامًا من استخف بها هلك، فلمّا حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول إسلامهم.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولّى خالد بن عبد الله القسري العراقي، وأخوه أسد بن عبد الله خراسان، وغزا أسد بلاد الترك ومنها «جبال نمرود» فصالحه نمرود وأسلم. ثمَّ استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي، فدعا أهل ما وراء النهر إلى الإسلام، وطرح الجزية عن الذين أسلموا، فسارعوا إلى الإسلام ثمَّ لمّا صارت الخلافة إلى بني العباس وتولّى المأمون خراسان ـ وذلك قبل خلافته ـ أخذ يغزو السغد، وأشروسنة، وفرغانة، ويقول البلاذري في «فتوح البلدان» إنَّه كان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيهما.

نعم! ولمّا تولّى الخلافة سنة ١٩٨ دخل في الإسلام كاوس، ملك أشروسنة، بعد حروب ومقاتلات تغلّب فيها العرب على أهالي تلك البلدان، وكان المأمون، رحمه الله، بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم إلى الإسلام من جهة أخرى. قال البلاذري: «وكان يوجّه رسله فيفرضون لمَن رغب في الديوان، وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم. ثمَّ استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك، حتّى صار جلّ شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد، والفراغنة، والأشروسنة، وأهل الشاش وغيرهم. وحضر ملوكهم بابه، وغلب الإسلام على من هناك» اهـ.

ولا يخفى أنَّ البلاذري كان قريب العهد من هذه الحوادث، لأنَّ الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرّخ أحمد بن يحيى البلاذري مات سنة ٢٧٩.

وسنة ٣٥٠ أسلم سالورخان، سلطان التركمان، سلالة طاغ خان وتسمّى قرّه خان وأسلم معه قومه، وجاء ابنه فبنى جوامع، وفتح عمه بغراجان كاشغر، وأخذ بخارى من السامانية. وجاء بعده أحمد خان بن أبي نصر فأكمل إسلام من لم يهتد من الأتراك، وازداد تردّد الترك إلى بغداد، وامتلأت منهم العراق وارضروم وأذربيجان ووصلوا إلى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة، واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربي، وبعضهم اتّخذ اللسان الفارسي، ولم يهتم أحد منهم بلسان "الأوريغور التركي القديم" ولم يجعلوا التركي لسانًا رسميًا إلاَّ في زمان بني سلجوق في الأناضول. ثمَّ ترقى هذا اللسان في زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق، لا سيَّما في أيام محمَّد الفاتح، وسليم وسليمان. وفكر سليم في جعل العربي لسان الدولة الرسمي فلم يطيعوه، لكنّه بقي لسان الدين والعلم. وأمَّا لسان الأوريغور فقد كان في زمن جنكيزخان ترقّى كثيرًا، لكنّه عراه بعد ذلك التوقّف، وهو الذي يعرف بـ"جغطاى" ثمَّ بتوالي الزمن تباعد "التركي الغربي العثماني" عن "التركي الجغطائي" كثيرًا. ثمَّ هناك "تركي تتر القريم" وهو متوسّط بين الفريقين.

وعلماء الألسن يجعلون التركي خمسة أقسام؛ الأول الأوريغوري أو الجغطائي الثاني التاري، والثالث القيرقيز، الرابع الياقوتي، الخامس العثماني، وليس للقيرقيز والياقوت أدبيات في ألسنتهم. والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لا يزالون وثنيين. وقيل إنَّ الياقوتي هو أصل التركي، والباقي فروع عنه. ويقول المدقّقون: إنَّ التركي يشبه في الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة الطورانية، وفي الدرجة الثانية لسان المغول، وفي الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين.

هذا والفرقة الأنقرية من الأتراك المستبدّة بأمر تركيا اليوم تعلم في مكاتب تركيا مذهبًا جديدًا في التاريخ، وهو أنَّ أصل الترك الذين في الأناضول وغربي آسية هم من الحثّيين؟ وأنَّ هذه البلدان هي لهم من أربعة آلاف سنة، وهم في هذا الكشف التاريخي الجديد يستندون إلى تخمينات بعض مؤرّخين محدّثين من أصحاب النظريات الجديدة في أوروبة، ولكن شيئًا من هذا لم يثبت.

وأكثر مؤرّخي الأوروبيين يقولون إنَّ أصل الحثّيين من جهة الدم لم يتحقّق بعد وغاية ما تقرّر - تاريخًا - أنهم أخذوا مدنيّتهم عن السومريين والأكاديين أهل بابل، وقلّدوهم في الكتابة والديانة والشعائر الدينية، ومزجوها كلّها بمدنيّتهم وديانتهم وتقرّر أيضًا عند بعض

المؤرّخين أنَّ الحثّيين هم كانوا الواسطة بين المدنية السامية والمدنيّة الإغريقية. ولا يزال تاريخ الحثّيين في أول عهده، ولا تزال العلماء لم تحلّ الكتابات الباقية عنهم، ولا يعملون على لغة الحثّيين هي هندية أوروبية، أم قوقاسية؟ وغاية ما لحظوا أنَّ فيها دخيلاً من لغات أخرى.

أمَّا الآكاديون من أهل بابل فإنَّهم ساميّون بلا نزاع، ولغتهم ساميّة، والأرجح أنهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين.

وأمَّا السومريون فلا يعرف أصلهم، وقصارى ما نرجّح من أمرهم أنهم غير ساميين، وأنه وجدت مدنيّة معاصرة لمدنيّتهم في جهات بحر الخزر.

ولا يعلم أحد ما فائدة أتراك أنقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لا تستند على قواعد متينة؟! وهل إذا كان ترك الأناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من ألف سنة فقط يسقط حقّهم بالأناضول؟! ولا بدَّ من أن يثبتوا أنَّ هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من السنين حتّى يستحقّوها؟! كلّ هذا من جملة الغرائب التي ولدت مع الانقلاب الأنقري. انتهى ما كتبتُه في «حاضر العالم الإسلامي».

وجاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية أنَّ لفظة «ترك» هي محرّفة عن لفظة «توكو» عن الصينيين، وهو شعب ظهر في القرن السادس بعد المسيح وأسّس ملكًا طويلاً عريضًا امتدّ من بلاد المغول وشمالي الصين إلى البحر الأسود، وكان أصحاب هذا الملك من القبائل الرحّالة. وكان مؤسّس هذا الملك الكبير رجلاً يقال له «تومان» عند الصينيين، و«ترك بومين» عند الأتراك، وقد مات سنة ٥٥٢ للمسيح. وكانت أكثر الفتوحات على يد خاقان الذي مات سنة ٥٧٦ والصينيون يقولون لهؤلاء: ترك الشمال والغرب وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق. وفي القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعًا الشرقيون والغربيون لسلالة «تانغ» الصينية، ولكن تُرك الشمال عادوا فاستقلّوا في سنة ٦٨٢ للمسيح، وفي مدّة هذه الدولة التركية الغربية وجدت الكتابة المسمّاة بكتابة «أورخون» نسبة إلى نهر في بلاد المغول يقال له «أورخون» وهي أقدم كتابة تركية. واشتهر في قبائل الترك الغربية قبيلة «ترغش» وحاز أمراؤها لقب «خان» في أواخر القرن السابع المسيحي. وفي ذلك الوقت جاء العرب فقضوا على ملك الترغش هؤلاء في زمان نصر بن سيّار سنة ١٢١ للهجرة. ا هـ كلام الإنسيكلوبيدية.

قلت: في زمان هشام بن عبد الملك تولّى نصر بن سيار بلاد طخارستان، فغزا «أشروسنة» وذلك في أيام الخليفة مروان بن محمَّد الأموي. وقد كان مضاء العرب في فتح خراسان وما وراء النهر من أبدع ما جاء في التواريخ، وممّا يدلّ على أنَّ العرب إذا استقام أمرهم لم يقف في وجههم قبيل. فإنَّ الترك الذين تغلّب العرب عليهم مشهورون بشدّة البأس وقوّة المراس، وقد حشدوا للعرب من كلّ حدب فما نالوا منهم نيلاً، وتغلّب العرب عليهم في أوساط بلادهم، وأثخنوا فيهم، ولم يكفّوا عنهم حتّى دخلوا في الإسلام. فكان الإسلام هو الذي أنجاهم في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

وفي زمن معاوية استولى العرب على خراسان، وكان الوالي عبيد الله بن زياد وهو لا يزال ابن خمس وعشرين سنة، فقطع النهر في ٢٤٠٠٠ مقاتل فأتى "بيكند" وقصد إلى بخارى، فأرسلت "خاتون" ملكة بخارى إلى الترك تستنجدهم، فزحفوا إلى العرب فهزمهم العرب واستولوا على "بخارى، ورامدين، وبيكند". ثمَّ ولّى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر بجنده، وكان معه رجل يقال له رفيع أبو العالية الرياحي، فتفاءل بهذا الأسم خيرًا وقال: رفيع أبو العالية رفعةٌ وعلوّ. وبلغ خاتون ملكة بُخارى عبوره النهر فحملت إليه الصلح، وأدّت الأتاوة، وبينما هي داخلة في الطاعة أقبل الترك من " السغد وكَش ونَسَف " في مائة وعشرين ألف مقاتل والتقوا ببخارى، وندمت خاتون على طاعتها للعرب، ونكثت العهد، إلاَّ أنَّ العرب هزموا الترك فرجعت خاتون إلى الصلح. ودخل سعيد بن عثمان بن عفان مدينة بخارى، ثمَّ زحف إلى سمرقند، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها، وما زال يضيق عليها الحصار حتّى صالحوه وأعطوه رهائن من أبناء ملوكهم. ثمَّ أقام على الترمذ وما زال يضيق عليها حتّى فتحها، ثمَّ انتفض أهل الترمذ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلي.

وفي فتح بلاد الترك استشهد قثم بن العباس بن عبد المطّلب، كان مع سعيد بن عثمان فلّما بلغ خبر شهادته أخاه عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: شتّان ما بين مولده ومقبره!! ولم يوجد أناس تباينت قبورهم مثل أولاد العباس بن عبد المطّلب فقد توفّي الله بن عباس بالطائف، وتوفّي الفضل بن عباس شهيدًا بوقعة أجنادين بفلسطين، وقيل بطاعون عمواس، واستشهد معبد وعبد الرحمن ابنا عباس بأفريقية وقيل إنَّ معبدا مات شهيدًا بأفريقية، وعبد الرحمن مات بالشام. واستشهد قثم بن العباس بسمرقند، ومات عبد

الله بن العباس بالمدينة، وقيل باليمن. ثمَّ إنَّه بعد موت معاوية ولّى ابنه يزيد بن معاوية سلم بن زياد ما وراء النهر، فصالحه أهل خارزم على أربعمائة ألف وحملوها إليه، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمَّد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي، وكانت أول عربية عبرت النهر. وأقام سلم بن زياد بالسغد، وسرّح جيشًا إلى «خنجدة» وفيهم أعشى همدان الشاعر، فانهزم هذا الجيش فقال الأعشى:

ليت خيلى يوم الخجندة لم تُهزم وغودرت في المكر سليبا

تحضر الطير مصرعي وتروَّحت إلى الله في الدماء خضيبا

ثمَّ رجع سلم بن زياد إلى مرو وحشد هناك جيشًا وغزا بلاد الترك، فجمع له أهل السغد فقاتلهم ودوّخهم. ثمَّ إنَّ سلم ابن زياد انصرف عما وراء النهر وتولاّها عبد الله ابن خازم السلمي بعهد من سلم بن زياد، فعصاه سليمان بن مرثد من بني سعد بن مالك من المراثد بن ربيعة واقتتلا، وكان ذلك في أثناء فتنة ابن الزبير مع بني أمية. وطال القتال بين العرب فانتهز الترك الفرصة وشنّوا الغارات حتّى بلغوا قرب نيسابور ولكن انتهت هذه الفتنة بين العرب بالطائلة لابن خازم. وكانت العصبية العربية بين القبائل هي العامل في تلك الفتن، كما كانت في الأندلس وفي بلاد الإفرنجة. وكان عبد الله بن خازم لا يتولّى غير عبد الله بن الزبير، ولا يطيع عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح يولّيه خراسان، فقاتل ابن خازم وتغلّب عليه وقتله، وأرسلوا برأسه إلى عبد الملك بن مروان فنصبه بدمشق، واشتدّت الفتنة بين العرب في خراسان إلى أن كتب وجوه العرب إلى عبد الملك بن مروان أنه لا تصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلاَّ برجل من قريش، فولّى عبد الملك على خراسان أمية ابن عبد الله بن خالد، وغزا أمية بلاد الختل فافتتحها. ثمَّ جاءت أيام الحجّاج بن يوسف وكانت خراسان من جملة ولايته، فولاها المهلّب بن أبي صفرة من الأزد وذلك سنة ٩٩ فغزا مغازي كثيرة، وانتقضت الختل في أيامه فدوّخها وفتح «خجندة» وأطاعت له «السغد» و«كُش» و«ونَسَف» ومات المهلّب فقام بعده ابنه يزيد ابن المهلّب، فغزا مغازي كثيرة في بلاد الترك، وفتح «البتم» ثمَّ غزا يزيد «خارزم». ثمَّ ولّى الحجاج بن يوسف المفضّل بن المهلّب بن أبي صفرة ففتح المفضّل بلدانا منها «بادغيس وشومان». وكان موسى بن عبد الله بن خازم السلمي بعد قتل أبيه قد امتنع بالترمذ، فاستنجد أهل الترمذ الترك على موسى فهزمهم موسى، وحدث مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلّب فيها كلّها.

وكان أهل خراسان يقولون عن موسى بن عبد الله بن خازم السلمي هذا: ما رأينا مثل موسى!! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَلَّ، ثمَّ أتى الترمذ فغلب عليها وهو في عدّة يسيرة وأخرج ملِكَها عنها، ثمَّ قاتل الترك والعجم فأوقع بهم، إلاَّ أنه لمّا تولّى المفضّل بن المهلّب خراسان أرسل جيشًا يقاتل موسى على الترمذ، فانهزم موسى وقتل وتولّى الترمذ مدرك بن المهلّب، وكان قتل موسى في آخر سنة ٨٥، وقيل إنَّ رجلاً ضرب ساق موسى وهو قتيل، فلمّا تولّى قتيبة الباهلي وعلم به قتله. ثمَّ ولّى الحجاج ابن يوسف قتيبة، وهو أشهر فاتح عربي لبلاد الترك، خرج يريد بلاد "آخرون" فلمّا كان ببلاد الطالقان تلقّاه دهاقين بلخ، فعبروا معه النهر، وقدّم عليه ملك الصغانيان بهدايا وأعطاه الطاعة، واستعان به على ملك "آخرون" و"شومان" الذي كان عدوًّا لملك الصغانيان، ثمَّ أقبل على قتيبة ملك "كفيان" وقدّم له الطاعة فانصرف قتيبة إلى مرو، وخلف أخاه صالحًا على ما وراء النهر، ففتح صالح "كاسان" و"أورشت" من بلاد فرغانة و"بيعنخر" و"خشكت" وكان في جيش صالح هذا نصر بن سيّار المشهور. وأطاع ملك "الجورجان" وقدم على قتيبة، ثمَّ غزا قتيبة "بيكند "سنة ٨٧ فاستصرخ أهالي "بيكند" أتراك السغد، فهزمهم قتيبة وفتح "بيكند "ثمَّ فتح "تومشكت" و"كرمينيه" سنة ٨٨، ثمَّ استخلف على "مرو" أخاه بشّارًا، وغزا "بخارى "ودخلها صلحًا، ثمَّ أوقع بالسغد وافتتح "كش" و"نسف" وكان ملك خارزم قد عصاه أخوه خرزاد فالتجأ الملك إلى قتيبة، فوجّه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلّم بجيش فقاتل خرزاد فقتله وأوقع بجماعته، وأعاد الملك إلى أخيه، ثمَّ وثب الأهالي بالملك فقتلوه، فولّى قتيبة أخاه عبيد الله بن مسلم على خارزم ثمَّ غزا قتيبة "سمرقند" فاجتمعوا لقتاله، وكتب ملك السغد إلى ملك الشاش (الشاش ما يقال له اليوم طاشقند) فنهدوا إليه في خلق كثير فقاتلهم المسلمون وهزموهم وصالحهم أهل سمرقند على ألف ومائتي ألف درهم في كلّ عام، وعلى أنَّ يصلي قتيبة في المدينة، فدخل قتيبة سمرقند وصلّى واتّخذ مسجدًا، وخلف بها جماعة من المسلمين فيهم الضحّاك بن مزاحم "صاحب التفسير" وكان في صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران، فأخرج قتيبة الأصنام وسلب حليتها وأحرقها، وكانوا يعتقدون بها فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ولم يحصل له سوء أسلم منهم خلق.

وفي زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أنَّ قتيبة دخل مدينتهم غدرًا وأسكنها المسلمين، فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيما ذكروا، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم

على سواء، فكره أهل سمرقند الحرب وبقي المسلمون فيها. ثمّ فتح قتيبة عامّة بلاد الشاش وبلغ «اسبيجاب» وقالوا «إنّ قتيبة فتح خارزم وسمرقند عنوة. وقد كان سعيد بن عثمان بن عفان قد تغلّب على سمرقند وخارزم صلحًا، ولكن قتيبة استقلّ هذا الصلح وأبى إلاّ فتحها بالقوّة، ثمّ فتح «بيكند، وكش، ونسف» وقيل والشاش وبعض فرغانة، وغزا «أشروسنة» ولمّا تولّى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلي مستوحشًا منه، كارهًا لخلافته، فكتب سليمان إلى قتيبة يأمره بإطلاق كلّ من حبسه، وأن يعطي الناس أعطياتهم، ويأذن لمَن أراد القفول في القفول، وكانوا متطلّعين إلى ذلك. وكان من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفًا، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف، ومن الموالي سبعة آلاف. فلم يأذن قتيبة في القفول، فثاروا به فانتصر له العجم على العرب، وكانت حرب بين الفريقين فظفر العرب بقتيبة وقتلوه، وهو الذي مهّد لهم بلاد خراسان وما وراء النهر، وقتل معه جماعة من إخوته، وقُتلت زوجته، ونجا أخوه ضِرار بواسطة بني تميم، وأخذت الأزد رأس قتيبة وخاتمه وبعثوا به إلى الخليفة مع سليط بن عطية الحنفي، وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة. وبعد أن قتل قتيبة رحمه الله تولّى خراسان وكيع بن حسان ابن قيس التميمي، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يثبّته في الولاية فقيل له: إنّ وكيعًا ترفعه الفتنة، وتضعه الجماعة، وفيه جفاء وأعرابية، وكان وكيع يدعو بطست فيبوّل والناس ينظرون إليه، فلم يكن يصلح للولاية. فقدّم عليه يزيد بن المهلّب واليًا فقدّم يزيد ابنه مُخْلَدًا فغزا مخلد «البتم» ففتحها، ثمّ نقض أهلها العهد فكرّ عليهم وفتحها ثانية، وأصاب بها مالاً وأصنامًا.

ولمّا استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فإنّ همّه كان نشر الإسلام قبل كلّ شيء، فأسلم بعضهم. وكان عامل عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي، فوجّه الجراح أحد قواده عبد الله بن معمّر اليشكري إلى ما وراء النهر، فأوغل في بلاد العدو وهَمَّ بدخول الصين فلمّا تكاثر عليه الترك رجع إلى الوراء وامتنع ببلد الشاش، ورفع الخليفة رضي الله عنه الخراج عمن أسلم بخراسان، وفرض العطاء للمسلمين منهم، وبنى الخانات. وكان الجرّاح بن عبد الله الحكمي قد كتب للخليفة أنه لا يُصلح خراسان إلاّ السيف فاغتاظ عمر من كلامه هذا وعلم أنه والٍ يستخف بالدماء فعزله، ولكن قضى الدَّين الذي عليه. ثمّ ولّى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي حرب خراسان، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري خراجها. وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولّى خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصي

بن أمية، فنزل خراسان وبعث ابنه إلى ما وراء النهر فنزل "اشتيخن" فزحف إليه الترك فقاتلهم وهزمهم. ثمَّ لقي الترك مرّة ثانية فانهزم أصحاب سعيد، فولّى سعيد نصر بن سيار على الجيش. وشخص قوم من وجوه خراسان إلى مسلمة بن عبد الملك والي العراق وشكوا سعيدًا، فعزله مسلمة، وولّى سعيد بن عمر الجرشي على خراسان، فافتتح الجرشي عامّة حصون السغد.

وقال البلاذري: إنَّه نال من العدو نيلاً شافيًا. وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولّى العراق عمر بن هبيرة الفزاري، فعزل الجرشي واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد، فغزا "الأفشين" فصالحه على ستة آلاف رأس، ودفع إليه قلعتَهُ. وتولّى طخارستان نصر بن سيار كما تقدّم الكلام عليه، فخالفه خلق من العرب فأوقع بهم ثمَّ سفرت بينهم السفراء فاصطلحوا.

ثمَّ تولّى العراق خالد بن عبد الله القسري من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فولّى خالد أخاه عبد الله بلاد خراسان، وبلغ ذلك مسلم بن سعيد فسار إلى فرغانة وأناخ على مدينتها وعاث فيها، فاجتمع عليه الترك وعليهم خاقانهم، فارتحل عن فرغانة وغزا أسد بن عبد الله القسري "جبال نمرود" فصالحه نمرود وأسلم، وغزا "الختل" فلم يقدر عليها.

ثمَّ استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السُّلمى فدعا أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم، فسارعوا إلى الإسلام وانكسر الخراج. ثمَّ استعمل الخليفة هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن المرّي على خراسان، فحارب الترك وهزمهم وظفر بابن خاقان فبعث به إلى الخليفة هشام، ولم يزل يقاتل الترك حتّى دوّخهم، وأمدّه الخليفة بعمرو بن مسلم في عشرة آلاف رجل من أهل البصرة وبعبد الرحمن بن نعيم في عشرة آلاف من أهل الكوفة، وحمل إليه ثلاثين ألف قناة، وثلاثين ألف ترس، وأطلق يده في الفريضة، ففرض لخمسة عشر ألف رجل، وكانت للجنيد مغازٍ كثيرة. وفي زمانه عصت نواح من طخارستان ففتحها، وكانت وفاته بمرو. فولّى الخليفة هشام عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي.

وكان نصر بن سيّار غزا "أشروسنة" أيام الخليفة مروان بن محمَّد فلم يقدر عليها وكان من بعده من الخلفاء يُولّون عمّالهم فينتقصون حدود أرض العدو، ويحاربون مَن نقض العهد. وبقي الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامه بخراسان، فكان يغزو بلاد الترك من "السغد" و"أشروسنة" و"فرغانة" ويوالي عليهم الغارات، ولكنّه من جهة ثانية

يدعوهم إلى الإسلام. وكتب إليه "كاوس" ملك "أشروسنة" يسأله الصلح على مال يؤدّيه على شرط أن لا يغزي المسلمين بلده، فأجيب إلى ذلك فلمّا تولّى المأمون الخلافة امتنع كاوس من الوفاء بالصلح. فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الأحوَل الكاتب لغزو "أشروسنة" في جيش عظيم، فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته، ولكنّ أحمد بن أبي خالد أناخ على "أشروسنة" قبل وصول الأتراك فاستسلم كاوس له، وورد كاوس مدينة السلام وأظهر الإسلام، وملّكَهُ المأمون على بلاده. ثمَّ ملك ابنه "خيذر بن كاوس" الملقّب بالأفشين بعده (واسمه بالخاء المعجّمة كما رأيت في تاريخ أبي الفداء) وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عمّاله في خراسان بغزو من لم يسلم من الترك، ويُسْني العطاء لمَن أسلم. وإذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم وإكرامهم وأدرّ عليهم الأرزاق. ثمَّ جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته في الترك أكثر من كلّ الخلفاء، وصار أكثر جيشه من أهل السغد، وفرغانة، والأشروسنة، والشاش، وغلب الإسلام على تلك البلاد، وصار أهلها يغزون مَن وراءهم من الترك. وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد "الغوزية" ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله. وكان قتيبة الباهلي أسكن العرب في أرض "فرغانة والشاش".

والأفشين هذا هو الذي بعد أن أسبغ عليه الخلفاء النِّعم الجسام، عاد فظهر أنه لم يكن إسلامه إلاَّ خداعًا، وأنه لم يكن طهّر قلبه من عبادة أصنامه، فانتهى الأمر بأنَّ المعتصم قاتله وأخذه، وبعد وقوعه باليد أحرقه. وفي ذلك يقول أبو تمام الطائي شاعر الحضرة:

يـا رُبّ فتـنـة أمـة قـد بـزهـا ... جبّارهـا فـي طـاعـة الـجبّار
جالت "بخيذر" جولة المقدار ... فـأحـلـه الـطـغـيـانُ دار بـوار
كم نـعـمـة لله كـانـت عـنـده ... فـكـأنـهـا فـي غـربـة وإسـار
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء في الأطمار
صـادي أمير المؤمنين بزبرج ... في طيه حُمَةُ الشجاع الضاري
حتّى إذا مـا الله شـق غـبـاره ... عن مستكنّ الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى ... والحق منه قـانـىء الأظـفـار
هذا النبيُّ وكـان صفـوة ربّـه ... من بيـن بـار في الأنـام وقـار
قد خص من أهل النفاق عصابةً ... وهـمـو أشـد أذًى مـن الكفـار

واختار من سعد لعين بني أبي ... سرح لوحي الله غير خيار
حتّى استضاء بشعلة النور التي ... رفعت له سجفًا عن الأسرار

ومنها:

ما كان لولا فحش غدرة "خيذر" ... ليكون في الإسلام عام فجار
ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه ... حتّى اصطلى سرّ الزناد الواري
نارًا يساور جسمه من حرّها ... لهبٌ كما عصفرت شقّ إزار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءَها للساري
صلى لها حيًّا وكان وقودها ... ميتًا ويدخلها مع الفجَّار
قد كان بوّأه الخليفة جانبًا ... من قلبه حرما على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرَّدٍ ... وأنامه في الأمن غير غرار
فإذا ابن كافرة يسرّ بكفره ... وجدًا كوجد فرزدقٍ بنوار
وإذا تذكّره بكاه كما بكى ... كعبٌ زمانَ رثى أبا المغوار
دلّت زخارفهُ الخليفةَ أنه ... ما كلّ عود ناضر بنضار
يا قابضًا يد آل كاوس عادلًا ... أتبع يمينًا منهم بيسار
وأعلم بأنك إنَّما تلقيهم ... في بعض ما حفروا من الآبار

وذلك أنَّ « الأفشين خيذر بن كاوس » كان مقربًا عند المعتصم، ولخيذر جهاد عظيم في حروب الروم ولا سيَّما في فتح عمورية، وهو الذي هزم «بابك الخرَّمي» الذي خرج على الخلافة في « جبال طبرستان » واشتد أمره، وهزم عساكر المعتصم مرارًا، فرماه المعتصم بالأفشين، فما زال يقاتله حتّى أخذه. ولكن في سنة ستّ وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الأفشين خيذر بن كاوس وحبسّه إلى أن مات في حبسه وأُخرج فصُلب إلى جانب "بابك" كما هو مبسوط في التواريخ.

وجاء في الإنسكلوبيدية الإسلامية أنَّ الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملك الترك إلى الإسلام، وأنَّ مؤلّفي العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك إلاَّ في القرن الثالث للهجرة. فذكروا من أصنافهم « الطوغوزغوز » و« الغزغِز » و« الكيماك » و« الغُز » أو «الأوغُز» و« القارلُق » وكانِ الغزغز أبعدهم مكانًا عن العرب وكان الأوغز والقارلق هم

الساكنين على حدود المملكة العربية مثل جرجان، وفاراب وأربيجاب. وكان الطريق من المملكة العربية إلى الصين مارًّا ببلاد القارلق، فكان المسافر يمشي ثلاثين يومًا من حدود فرغانة الشرقية في بلاد القارلق إلى أن يصل إلى البحر المحيط.

وذكر ابن خرداذبه قبيلا من الترك كان يسكن بقرب مشاتى القارلق وهم «الخلاج». وذكروا أنَّ مدينة «خاقان ترغُش» كانت بقرب «نهر كو» وكان الترغش ينقسمون إلى «تخسي» وإلى «آز» وكان التخسي يسكنون على ضفاف «كو» ولهم مدينة اسمها «صوياب». وكان إلى الشرق منهم قبيل يقال له «الصيغل» وكان إلى الجنوب من نهر «مارين» قبيل يقال له «يغمة» من الطوغوزغوز وفي بلادهم كانت مدينة «كاشغر». وقال محمود الكشغري: إنَّ اليغمة والتخسي كانوا يسكنون على ضفاف نهر «اللي» وكان بالقرب منهم قسم من «الصيغل» وكان هؤلاء الصيغل ثلاثة أقسام «صيغل اللي» و«صيغل كاشغر» والصغيل الذين بقرب «تاراز». وكان الأوغز يسمّون جميع الترك من سيحون إلى الصين «صيغل» ويقول محمود الكشغري: إنَّ الأوغز والقارلق كان يقال لهم «التركمان».

وذهب بعضهم إلى أنه قد يكون التركمان من سلائل الإيرانيين الرحّالة، وقد استتركوا بكرور الأيام، لأنَّ سحنتهم تختلف عن سحنة سائر الترك. ويظنون أنَّ «التارتار» هم من قبائل «الكيماك» السبع، وأصلهم من الطوغوزغوز. وقسّم بعضهم الترك إلى قسمين؛ الشمالي، والجنوبي، وقالوا إنَّ كلاًّ منهما عشرة شعوب فالشماليون هم؛ البجنك، والقبجاق، والأوغز، واليمك، والباشكرد، والباسميل، والقاي، واليابا كو، والتتر، والغرغز. وإنَّ الجنوبين هم؛ الجيكيل، والتخسي، واليغمة، والأغراق، والجاروق، والجومول، والأويغور، والتنكوت، والحيطاي، والتفغاق. وقد يقع اختلاف في هذا التقسيم، لأنَّ شعوبًا منسوبة إلى الشمال قد ثبت أنها سكنت في الجنوب.

ومن شعوب القسم الشمالي من كانت لهم لغات مخصوصة بهم مثل القاي والياباكو، والتتر، والباسميل، ولكنّهم كانوا يعرفون اللسان التركي العامّ. وكان الياباكو يسكنون على ضفاف النهر الكبير «يامار» الذي يُظنّ أنه النهر الذي يقال له اليوم «أومور» وقد روى بعض المؤرّخين أنَّ جيشًا إسلاميًّا عبر هذا النهر في القرن الحادي عشر للمسيح تحت قيادة أرسلان تكين، الذي ذهب يغزو الياباكو والباسميل وأمّا الشعوب الجنوبية من الترك. فكان منهم شعب «الجومول» يتكلّم بلغة غير التركي، ولكنّه يعرف التركي، وقيل

مثل هذا عن «الأويغور» فقد كانت لهم عدا التركي لغة خاصّة. وأمَّا «التنكوت» فكانوا قبيلاً غريبًا في الحقيقة، سكن في وسط الترك. وكذلك أهل «خوطان» و«التبت» فقد كانت لهم لغات خاصّة بهم. وفي بلاد الصين وماسين كان للأهالي لغة غير التركي، وإنَّما كانوا يعرفون التركي وفي أصناف الترك «الجاروق» وكانوا يسكنون في مدينة برقوق التي هي اليوم «مار الباشي» وكان في بلاد الأويغور خمس مدن؛ منها «بشبالق» و«قوقو» و «قرّه خوجه» وكان الأويغور بوذيين يعبدون الأصنام. وقد ذكر محمود الكشغري قبائل تركية أخرى ليست داخلة ضمن الشعوب العشرين التي ذكرناها، من جملتها «الأدغيش» و«الكوجات» الذين كانوا في خوارزم. وقد ذكروا من جملة مَن هم من أصل تركي «البلغار» و«الصوغار». وذهب الكشغري إلى أنَّ لغة البلغار والصوغار، والبجنك، كلّها لغة واحدة. ولكن الأصطخري يقول: إنَّ لغة البلغار والخزر، تفترق عن لغة الترك. وكانت لهجات القرغز، والقبجاق، والأوغز، والنخسى، واليغمة، والصيغل، والأغراق، والكاروق؛ تركية محضة، ويقرب منها لغات اليمكة، والباشكير. وبالإجمال فالترك الرحّالة الساكنين بين «الأيتل» و«اليامار» كانوا يتكلّمون بلغة أنقى من لغات أهل المدن، وقد كانت اللغة الصُّغدية مستعملة إلى جانب التركي في المدن، وكان يغلب على لغة الأوغز ـ أو التركمان ـ لهجة الشعوب التركية الجنوبية. ثمَّ جاء في الإنسكلوبيدية الإسلامية؛ أنَّ ظهور العرب على الترك في أول الدولة العربية لم يؤثّر في قضيّة اتّخاذ الترك الإسلام دينًا، وكانوا يروون الحديث النبوي: «إتركوا الترك ما تركوكم». وما أسلم الترك إلاَّ اختيارًا في القرن الرابع للهجرة (وقد ظهر لك ممّا تقدّم أنَّ الإسلام بدأ في الترك من أيام بني أميّة، ثمَّ فشا فيهم لعهد المأمون والمعتصم).

وإنَّه في سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة، كان زحف الترك الوثنيين على المملكة السامانية، فدحرهم المسلمون، وفي سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة للهجرة، ودخل الترك المسلمون بخارى واستولوا عليها. وفي القرن الخامس للهجرة فتح الترك المسلمون تحت راية بني سلجوق بلاد الأناضول. وقد رويت أحاديث عن الرسول عليه السلام بخلاف الحديث السابق، أي أنه كان يحرّض على تعلّم لسان الترك لأنه سيكون لهم ملك طويل العهد ـ وأظنّه من الأحاديث الموضوعة ـ ولم يعلم شيء عن تاريخ الحادث الذي قيل فيه إنَّ شعبًا تركيًا يبلغ مائتَي ألف خيمة قد أسلم في يوم واحد.

(قلت ورد هذا في صبح الأعشى) والمظنّون أنَّ لهذا الحادث علاقة بدولة "ألك خان" من قبيلة "أفراسياب" وكان أمراء كاشغر المسلمون استولوا على بلاد "خوطان" ولم تعلم تفاصيل هذا الاستيلاء. وكانت بلدة "كوزن" وقلعة "بوغور" وغيرها معدودة ثغور الإسلام في بلاد التركستان الصيني. وكان دخول الأتراك الذين في الغرب متأخّرًا عن دخول الذين كانوا في الشرق في الإسلام.

وقد روى ابن الأثير أنَّ شعبا تركيا كان يشتو في بلاد " بالازاغون " ويصيّف في بلاد "بلغار" بقرب "الأورال" قد أسلم في شهر صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وروى أنهم كانوا عشرة آلاف خيمة. وكان "القبجاق" في أواسط القرن السادس للهجرة لمّا يدخلوا في الإسلام، وذلك يستفاد من كتاب قيل فيه عن وصول أمير القبجاق إلى "جند" ثمَّ يقول صاحب الرواية عنه: رزقه الله الإسلام. وكان الروس منذ أواسط القرن الثاني عشر للمسيح يسمّون جميع أصناف الترك ما عدا القبجاق "سرنيكلوبوكي" أي الطرابيش السود. ومن هؤلاء قبيلة "البكنج" يظن أنَّ أصلها ليست من الترك، بل أمّة غربيّة، وهم يخالفون الأتراك الطارئين من أواسط آسية بكونهم يربّون البقر، وقد أسلموا كسائر من أسلم من الترك. ولمّا تأسّست سلطنة "قرّة خيطاي" التركية بعد سنة ثلاثين ومائة وألف مسيحية، كان الإسلام قد فشا في الترك، ولكن هذه السلطنة كانت وثنية فأخذت تضطهد الإسلام ولكنّها لم تقدر عليه، وكانت إمارة "بالأزاغون" الواقعة في الشمال إمارة إسلامية وعند انحلال سلطنة قرّة خيطاي كانت توجد إمارات إسلامية في شمالي "اللي" مثل إمارة "قارلق" وإمارة أخرى في بلاد "ما ناس" هي الحدّ الفاصل بين الترك الإسلامية وغير الإسلامية.

أمَّا دخول الأتراك في الأناضول وقبل ذلك في أذربيجان فما بدأ إلاَّ في زمن السلاجقة، وقد تمّ تتريك تلك البلاد فيما بعد.

وفي زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يوجد أتراك في مصر ومنها دخلوا إلى أفريقية، وبعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشي. ولكن لم يكن أثر يذكر للترك في الأندلس. انتهى كلام الانسكلوبيدية الإسلامية ملخّصًا. وفيه بعض خطأ، وهو في ظنّه أنَّ الترك لم يعرفوا مصر إلاَّ في زمن صلاح الدين، بل عرفوا مصر قبل صلاح الدين بكثير، وقبل الفاطميين.

وآل طولون هم من الترك وقيل: إنّه كان في مجلس الخلفاء الفاطميين أناس من الترك، فبعد انصرافهم سئل عنهم فقال: هؤلاء الذين سيكونون أمراءنا في الغد.

قلنا: إنّه في القرن الحادي عشر للمسيح كانت جميع بلاد الأناضول التي يقال لها "آسية الصغرى" مع بلاد "قيلقية" أي "ولاية أطنة" الحاضرة، ومع شمالي سورية كإنطاكية، واللاذقية، ومع أرمينية كلّها داخلة في ملك القسطنطينية. وكان الإسلام يومئذ منقسمًا إلى دولتين؛ الخلافة العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر. وكانت فارس الغربية تخصّ بني بويه الذين استأثروا بالأمر في بغداد وحجروا على الخلفاء العباسيين، وأمّا في شرقي إيران فكانت الدولة السامانية تارة في بخارى، وتارة في سمرقند. وبقيت مستتبّة إلى زمان محمود الغزنوي التركي الذي استولى على خراسان وعلى قسم من بلاد العجم، ولو لم يشغل بفتوحات الهند لربّما كان تقدّم إلى بغداد فشغلت الهند الدولة الغزّنوية، وبذلك اتّسع المجال لدولة أخرى تركية من الغوز يقال لها "الدولة السلجوقية". وكان آل سلجوق أتباعًا للغزّنويين في بادئ الأمر، فظهر منهم رجل يقال له طغرل بك، واستولى على نيسابور قاعدة خراسان، فأراد الغزّنويون أن يقضوا عليهم ولكن جاءوا متأخّرين بما شغلهم من فتوحات الهند. وظهر طغرل بك على الغزنوية، فتمكّن طغرل بك من خراسان، وانتشر أبناء عمّه في البلاد الغربية مثل إيران، وكرجستان، وأرمينية.

وكان طغرل بك أحسن السلاجقة سياسة، وأوفرهم عقلاً، فاتّخذ لنفسه خطّة معيّنة، وصار يفتح بلدًا بلدًا حتّى وصل إلى بغداد. وكان بنو بويه غلبوا على بغداد وحجروا على الخلفاء، وكانوا شيعة متعصّبين. فجاء طغرل بك إلى بغداد ورفع منار السنّة، وأيّد الخلافة العباسية، وقلّده الخليفة السلطنة، وسمّاه بملك الشرق والغرب. وكان في ذلك الوقت أرسلان البساسيري قد دعا للخليفة الفاطمي في وسط بغداد وانهزم القائم العباسي من وجهه، فجاء طغرل بك وهزم البساسيري وقتله، وأعاد الخليفة إلى مكانه. ثمّ تزوّج طغرل بك بابنة الخليفة، وعاد أمر الخلافة العباسية كما بدأ من القوّة، وانتصرت السنّة أيضًا على يد طغرل بك السلجوقي. ومنذ أن تمكّن طغرل بك من بغداد نشر غاراته هو وأبناء عمّه في بلاد الأناضول، وأخذ ينتقص أطرافها، فبدأ السلاجقة بأرمينية وفارس، وأغار عليها طغرل بك بذاته سنة ١٠٥٤ مسيحية. وكان إمبراطور بيزنطية في ذلك الوقت قسطنطين التاسع المسمّى "مونوماك" فعجز عن دفعهم، وجاء بعده قسطنطين العاشر الملقّب "دوكاس"

فوصل الترك في زمانه إلى «سيواس» في قلب الأناضول. ثمَّ توفّي طغرل بك وخلفه ألب أرسلان، ابن أخيه، فزحف صوب مملكة الروم واستولى على «أرمينية» وهزم ملوك الأرمن، وهكذا انفتحت أمامه مسالك الأناضول، فبثّ فيها الغارات من كلّ جانب، ووصل إلى قيصريّة. وتولّى الأمر في القسطنطينية قيصر شديد الشكيمة اسمه «رومان ديوچينوس» فجهّز الجيوش وزحف إلى الأتراك، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً. وكان ألب أرسلان قد كرّ راجعًا إلى إيران بسبب عصيان أولاد عمّه عليه، فلمّا فرغ من قتالهم عاد إلى الأناضول فنهد إليه «رومان ديوچينوس» بمائة ألف مقاتل وذلك سنة ١٠٧١ مسيحية فتلاقى الجمعان في ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ عند بلدة «مالازغرد» بقرب «خلاط» فدارت الدائرة على الروم، وجرح «رومان ديوچينوس» ووقع في الأسر، وكان ذلك أعظم خطب حلَّ بالنصرانية في الشرق، وانقصم بمعركة «مالازغرد» ظهر السلطنة الرومانية البيزنطية.

ووصلت الأخبار إلى الغرب فهاج هائج جميع العالم المسيحي ورأوا أنَّ المملكة البيزنطية أصبحت لا تصلح خصمًا للإسلام، ولا حاجزًا دون تقدّمه صوب «أوروبة» ومن ذلك اليوم تولّدت فكرة الحرب الصليبية، ومعناها أنَّ المسيحيين الشرقيين لا يقدرون أن يقفوا في وجه الإسلام، فيجب على المسيحيين الغربيين أن ينهضوا ويزحفوا إلى الإسلام في عقر داره. وبرغم الحروب الصليبية لم يزل الترك يتقدّمون في آسيا الصغرى حتّى بلغوا بحر مرمرة، وذلك في زمان ملك شاه بن ألب أرسلان وبمعاونة ابن عمهم «سليمان بن قطولمش» ووصل الأتراك إلى أزمير في سنة ١٠٨١ وأخذ ظلّ الروم يتقلّص عن تلك البلاد الواسعة. نعم أنَّ الصليبيين أخّروا تتريك الأناضول مدّة من الزمن، ولكن عاد الأتراك فأتمّوا فتح هذه البلاد، ووجدت دولة ثانية تركية غير السلاجقة وهي الدولة «الدانشمندية» التي تأسّست في «كپادوكية» وكانت لها قيصرية، وسيواس، وأماسيه، وأخيرًا جاء بنو عثمان وخلفوا السلاجقة والدانشمندية، وفتحوا بورسة وجعلوها دار مملكتهم، ثمَّ أجازوا إلى الروملي ونقلوا دار ملكهم إلى أدرنة قبل أن فتحوا القسطنطينية.

ثمَّ وفّق الله محمَّدًا الثاني الملقّب بالفاتح فاستولى على عاصمة النصرانية في الشرق واستصفى بلاد الأناضول كلّها، وعاد فأكمل فتح الروملي واستولى على جميع ملحقات الملك القسطنطيني، وأوغل في بلاد البلقان حتّى استولى على بلاد الصرب وبوسنة، وأكمل خلفاؤه عمله فاستولوا على جميع الممالك التي في شبه جزيرة البلقان وأدخلوها في الحكم العثماني، واستلحقوا مملكة المجار، ووصلوا إلى بولونية، وحصروا ڤينّا، ولولا قليل لكانت

سقطت في أيديهم. ولم يبدأ تقلّص الأتراك عن شبه جزيرة البلقان إلاّ عند ظهور الروسية، فأصبح الترك بإزاء عدوّين كبيرين معًا؛ السلطنة الألمانية، والسلطنة الروسية. فما مضى بعد ذلك أربعة قرون حتّى عاد الأتراك فخرجوا من جميع تلك الممالك التي كانوا افتتحوها في البلاد البلقانية، ولم يبقَ لهم إلاّ القسطنطينية أرْبُضُها[1] الذي ينتهي عند أدرنة. وسنذكر شيئًا عن تتمّة تاريخ الأتراك العثمانيين عند الانتهاء من مبحث الترك الأصلي.

ونعود إلى تاريخ الترك في أيام زحف المغول من الشرق إلى الغرب فنقول: إنَّ المغول شعب آخر غير الترك ولكنّهم من أصل واحد، وقد دخل من المغول كثير في الترك فصاروا منهم، ولمّا زحف جنكيز خان وأعقابه كان يقال لهم "المغول" ويقال لهم أيضًا "التتار" ولكن بعد أن أسلمت الدولة المغولية في القرن الرابع عشر للمسيح غلب على المغول اسم التتار. فتأسّست سلطنة في "قازان" وسلطنة أخرى في "استراخان" وسلطنة أخرى في "القريم" وكلّها كانت دولاً تترية إسلامية. ثمَّ تأسّست دولة تترية إسلامية في "سيبيريا" بقرب "طوبولسك" الحاضرة وغلب اسم التتار على جميع الأتراك غير العثمانيين. وهذا هو اصطلاح الروس واصطلاح كثير من الأوربيين. وذلك بأن يسمّوا بالترك أتراك السلطنة العثمانية وبالتتر الأتراك الذين في الروسية الحاضرة. ومن هؤلاء شعب يقال لهم "الأوزبك" تغلّبوا في القرن السادس عشر المسيحي على "بخارى" و"خيوه" وأزالوا مملكة "الجغطاي" ثمَّ أسّسوا دولة "خانات خوقند". وجاء شعب آخر اسمه "النوغاي" من الترك فكانت لهم دولة في بلاد "الڤولغا". ثمَّ غلب عليهم شعب تركي آخر اسمه "الكلموك". ومن الشعوب التركية المعروفة شعب يقال له "القزق" كانوا مستقلّين، وإن كانوا جيرانًا للأوزبك.

وقد كانت تأسّست في "كاشغري" من التركستان الصيني دولة تركية على أثر سقوط دولة الجغطاي، واتّخذت الإسلام دينًا في أواسط القرن الرابع عشر، أي مذ نحو أربعمائة وخمسين سنة. واشتهر منها أمير يقال له "محمود خان" اعتنى جدًّا بنشر الإسلام. وكان المغولي أو التركي الذي لا يلبس عمامة يدق له مسمار في رأسه!! وأخذت الديانة البوذية تتقهقر من تلك الديار، وكان "الأويغور" من أشهر شعوب الترك لا يزالون بوذيين، فانتشر الإسلام فيهم أيضًا. ولم يبقَ على البوذية إلى يومنا هذا إلاّ قسم منهم يقال لهم "الأويغور الصفر".

وممّا يجب أن يعرف أنَّ الأتراك العثمانيين هم من جنس الترك الذي يقال له

---

(1) الربض: الضاحية. [المحقّق]

"التركمان". وهؤلاء التركمان منهم قسم يقال له "الخروف الأسود" وقسم آخر يقال له "الخروف الأبيض". وقد انتشروا في غربي آسية، ودخلت منهم أقوام في البلاد العربية. وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر للمسيح تغلّب "الكلموك" على هؤلاء التركمان كما تغلّب الكلموك على "الغرغز" و"القزق" ثمَّ سقطت دولة "الكلموك". ومن الغرغز فرقة تسكن في بلاد "يني زاي" ويقال لها اليوم "خاكاس" ليسوا كسائر أصناف الترك تابعين للمدنيّة الإسلامية، كما أنه يوجد في "جبال الألطاي" ترك غير مسلمين، والروس يقولون لهم "كَلْموك الجبال" وليس هؤلاء مسلمين. وكذلك الأمّة المسمّاة "بالياقوت" هم أتراك غير مسلمين، ولغتهم لغة تركية قديمة. وقد كانت جميع البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح من شبه جزيرة البلقان، وشطوط البحر الأسود إلى الصين ممالك إسلامية متّصلة كما ورد في الإنسيكلوبيدية الإسلامية، ولكن كان قد بدأ دخول هذه الممالك في دور الانحطاط، فتقلّص ظلّ المدنيّة وعادت البداوة القديمة. وكان قد بدأ الروس من ذلك العهد يتغلّبون على من جاورهم من الترك، فاستولوا على مملكة "قازان" سنة ١٥٥٢ وعلى مملكة "استراخان" سنة ١٥٥٤ فقطعوا ما بين الترك المشارقة والترك المغاربة أي العثمانيين.

ومذ ذلك الوقت أخذ الروس يزحفون صوب الشرق فيستولون على مملكة من هذه الممالك التركية الإسلامية، واتّفقوا مع الصين على أنه لا يجوز أن يبقى للإسلام ملك من بحر الخزر إلى حدود الصين. فالذي لم يدخل تحت حكم الروسية يجب أن يدخل تحت حكم الصين، وقد انعقد هذا الاتّفاق بين الروسية والصين بمعاهدة تاريخها (٢٤ فبراير ١٨٨١). وبرغم هذا يقول "بارتولد" محرّر هذا الفصل من الإنسيكلوبيدية الإسلامية: إنَّ الإسلام والتركية لم يرجعا إلى الوراء في الروسية وأنه بعد الانقلاب الروسي والحكومة البلشفية تأسّست للأتراك في الروسية جمهوريات تابعة لموسكو مثل جمهوريتي "الأوزبك" و"التركمان" وجمهورية "أذربيجان" في القوقاز. وبالإجمال فللأتراك تحت حكومة السوڤييت الحاضرة سبع جمهوريات لها شبه استقلال؟ وهي جمهورية القريم، وجمهورية قوفاس، وجمهورية الباشكيرد وجمهورية التتار، وجمهورية القزق، وجمهورية الغرغز، وجمهورية ياقوت. ويوجد أربع نواح لها أيضًا إدارة مستقلّة، وأكثر أهلها من الترك وهي؛ بلاد قرّة كاي وبالكار، وقرّة كالبكيك، وأويرات. ويقول إنَّ هذا الدور قد أحيا أسماء القبائل التركية القديمة. ويذكر أنَّ أكثر هؤلاء الأتراك قد عوّلوا في الكتابة على الحروف اللاتينية. أمَّا "الكوڤاش" و"الكاكاس" و"الأويرات" فقد بقوا متمسّكين بأحرف الهجاء الروسية. أ هـ.

قلنا : إنَّ السبب في هذا هو الدعاية الأنقرية والدعاية البلشفية نفسها، فإنَّ كلاً من موسكو وأنقرة أخذتا بالحروف اللاتينية، فالأتراك المسلمون في الروسية قلّدوا في ذلك أنقرة، وأمّا الأتراك غير المسلمين مثل « الكاكاس، والأويرات » فبقوا متمسّكين بالحروف الروسية، وذلك لأنه لا يجمعهم بأنقرة جامعة إسلامية حتّى يقلّدوها، وقد بلغ من انقلاب الأوضاع أن صارت الحروف اللاتينية هي موضوع دعاية الأتراك المسلمين!! ويقلّد بعضهم بعضًا فيها، وأنَّ الأتراك غير المسلمين لا يعرفونها. وجاء في الإنسيكلوبيدية أنه في إحصاء سنة ١٨٨٥ كان عدد الترك في الروسية ٢٦ مليونًا وقيل إنَّ هذا العدد مبالغ فيه، وأنَّ أتراك الروسية ليسوا غير ١٦ مليونًا، وأنَّ جميع الأمّة التركية في العالم ثلاثون مليونا. ولكن كتّاب الأتراك ومؤلّفيهم يجعلون للترك أكثر من هذا العدد بكثير. فأحمد أغاييف يقول: إنَّهم من سبعين إلى ثمانين مليونًا، ومصطفى كمال باشا يقول: مائة مليون! انتهى ما في الإنسيكلوبيدية الإسلامية.

والحقيقة أنَّ الذين قالوا إنَّ الترك بأجمعهم ثلاثون مليونا قد نقصوا عددهم كثيرة كما أنَّ كتّاب الترك قد يكونون زادوا العدد على ما هو في الحقيقة، ولا شكّ أنَّ الترك الذين في الروسية لا يقلّون عن ثلاثين مليونًا، كما أنَّ الترك الذين في التركستان الصيني يبلغون عشرة ملايين، فيبقى ترك الأناضول ومن يليهم من الترك الذين في تراقية، وبلاد البلغار، ورومانيا، فهؤلاء كلّهم لا يقلّون عن خمسة عشر مليونًا. ويجب أن نضيف إلى هذا العدد أتراك إيران وهم أربعة إلى خمسة ملايين، فالجميع ستّون مليونًا، وهذا أقرب تعديل.

وقد جاء في « صبح الأعشى » في الجزء الخامس خير كيفية استيلاء الترك على بلاد الأناضول بعد أن كانت كلّها للروم قال: إن ثغور المسلمين كانت من جهة الشام « ملطية » ومن جهة أذربيجان « أرمينية » إلى أن دخل بعض قرابة « طغرل بك »، أحد ملوك السلجوقية، في عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء، ثمَّ دخلها بعد ذلك «ممانى»،أحد أمرائهم، بعد الثلاثين وأربعمائة ففتح وغنم، وانتهى في بلادهم حتّى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة. ثمَّ فتح «قطلمش» ابن اسرائيل بن سلجوق «قونية» و«أقصرا» وأعمالهما. ثمَّ وقعت الفتنة بين قطلمش وبين ألب أرسلان السلجوقي وقتل قطلمش في حربه سنة ست وخمسين وأربعمائة، وملك البلاد من بعده ابنه سليمان ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. وملك بعده « قلج أرسلان » ثمَّ خَلَفَهُ بقونية وأقصرا ابنه مسعود. ثمَّ مسعود سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وملك بعده ابنه قلج أرسلان. وهذا

قسم المملكة بين أولاده؛ فأعطى قونية وأعمالها ابنه غيات الدين كيخسرو، وأعطى أقصَرا والسيواس ابنه قطب الدين، وأعطى «دوفاط» ابنه ركن الدين، وأعطى أنقرة ابنه محيي الدين وأعطى ملطية ابنه عز الدين قيصر، وتخلّى إلى ابنه غيّاث الدين عن عن الأبلستين؛ ولابنه نور الدين محمود عن قيسارية، وأعطى أماسية لابن أخيه. ثمَّ ندم على هذه القسمة وأراد انتزاع هذه الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته، إلاَّ ابنه غيّاث الدين فإنَّه بقي معه. وحاصر قلج أرسلان ابنه محمودًا في قيسارية فتوفّي وهو محاصر لها سنة ٥٨٨. ووقعت الحروب بين الإخوة، وتغلّب عليهم أخيرًا ركن الدين صاحب «دوفاط» وخلفه ابنه قلج أرسلان، ثمَّ قبض عليه أهل قونية وملّكوا عمه غيّاث الدين كيخسرو، وبقي حتّى قتل في حرب مع صاحب القسطنطينية، وملك بعده ابنه كيكاوس الغالب بالله، وبقي حتّى مات سنة ٦١٦. وخلفه أخوه علاء الدين فتوفّى سنة ٦٣٤. وملك بعده ابنه غيّاث الدين كيخسرو وتوفّي سنة ٦٥٤. وملك بعده ابنه علاء الدين.

ولمّا جاء المغول واستولوا على بغداد كان الملك لعز الدين كيكاوس، وركن الدين قلج أرسلان، فخضعا لهولاكو سلطان المغول، وكان هولاكو أقام رجلاً اسمه «ألبرواناه» وكيلاً من قبله في بلاد الأناضول، فغلب على ركن الدين قلج أرسلان ثمَّ قتله، وحجر على ابنه غيّاث الدين كيخسرو. وفي تلك الأيام دخل الملك الظاهر بيبرس، صاحب الديار المصرية، إلى بلاد الروم سنة ٦٧٥ ولقيه «صمغان بن بيدو» الشحنة من «جهة التتار» فهزمهم، وثار بيبرس إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل سلجوق بها، ثمَّ رجع إلى مصر. وبلغ ذلك «أبغا» بن هولاكو، صاحب إيران، فسار في جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشقّ عليه، واتّهم «البرواناه» بممالآة الظاهر بيبرس فقبض عليه وقتله، واستقلّ بالملك غيّاث الملك بن ركن الدين قلج أرسلان، وبقي في الملك حتّى قتله أرغون بن أبغا صاحب إيران سنة ٦٨١ وجعل مكتنه مسعود ابن عمّه كيكاوس وجعل شحنة في الأناضول رجلاً اسمه «هولاكو» وليس لمسعود بن كيخسرو من الملك إلاَّ الاسم. وبعد ذلك استقلّ الشحنة بالمملكة، وصار ملوك التتر يرسلون إلى الأناضول شحنة بعد شحنة ـ أصل معنى الشحنة حامية البلد من قبل السلطان ـ وربّما عصى عليهم بعض هؤلاء فلجأوا إلى صاحب مصر، وكثيرًا ما تقلّدوا الإمارة بعهد من صاحب الديار المصرية مثل «الناصر محمَّد بن قلاوون» وصارت الأناضول من مضافات الديار المصرية، وكان في بلاد الأناضول ـ وصبح الأعشى يقول بلاد الروم ـ : طوائف كثيرة من التركمان كان

«السلاجقة» يستعينون بهم في الحروب، فظهر منهم أمراء، وأسّسوا ممالك مثل «أولاد قرمان» أصحاب «أرمناك» و«قسطمونية» و«وبنو الحميد» أصحاب «أنطاكية». و«بنو آيدين» أصحاب البلاد التي يقال لها «أزمير» اليوم. و«بنو منتشة» وبلادهم إلى الجنوب من أزمير. و«بنو أورخان بن عثمان جق» وهو صاحب «بورسة». وكان قد اتّخذ بورسة دارًا لملكه، لكنّه لم يفارق الخيام إلى القصور. وكان ينزل بخيامه في ضواحي بورسة ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال القلقشندي في صبح الأعشى: وملك بعده ابنه «مراد بك» وتوغّل في بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القسطنطيني في الجانب الغربي، وفتح بلادهم إلى أن قَرُبَ من خليج البنادقة، وصيّر أكثرهم أمراء ورعايا له، وأحاط بالقسطنطينية من كلّ جانب حتّى أعطاه صاحبها الجزية. ولم يزال حتّى قُتل في حرب الصقالبة سنة ٧٩١ وملك بعده ابنه أبو يزيد فجرى على سنن أبيه، وغلب على البلاد فيما بين سيواس وإنطالية والعلايا، ودخل قرمان وسائر التركمان في طاعته، ولم يبقَ خارجًا عن ملكه إلاّ «سيواس» التي كانت بيد قاضيها ابراهيم المتغلّب عليها، و«ملطية» الداخلة في مملكة الديار المصرية، ولم يزل أبو يزيد حتّى قصده «تمرلنك» بعد تخريب الشام في سنة ثلاث وثمانمائة، وقبض عليه فبقي في يده حتّى مات. وملك بعده ابنه «سليمان شلبي» وبقي حتّى مات. وملك بعده أخوه «محمَّد بن أبي يزيد ابن مراد بن عثمان جق» وهو القائم بمملكتها إلى الآن. انتهى بتصرّف.

قلنا: أيام زحف جنكيز خان على بلاد خوارزم جاء رجل يقال له «سليمان شاه ابن كيّالب» من بعض قبائل «الأوغوز» ومعه خمسون ألفًا من قبيلته ونزل على شواطئ الفرات بين أرزنجان وخلاط، وذلك في سنة ١٢٢٤ مسيحية، وتوفّي سليمان شاه هذا غريقًا في الفرات، وبعد وفاته رجع أكثر قومه إلى خراسان وبقي منهم أربعمائة عائلة مع ولديه «دندار» و«أرطغرل». وتقدّم أرطغرل إلى الغرب وكانت حصلت في ذلك الوقت حرب مع «علاء الدين السلجوقي» فخدمه أرطغرل ونصره، فأقطعه السلجوقي إقطاعات معلومة مكافأة له، ثمَّ تقدّم عنده فأقطعه بلادًا على مقربة من «يني شهر». وولد لأرطغرل سمّاه عثمان، وكان عثمان يخطب ابنة شيخ من الأولياء اسمه (آده بالي) ووالدها يأبى أن يزوّجه بها، فرأى يومًا فيما يرى النائم أنه تزوّج بملك خاتون ابنة الآده بالي وخرج من حجرها هلال وصعد إلى صدرها، ثمَّ ظهرت من جوانبها شجرة عمّت البرّ والبحر، إلى آخر ما تحدّثوا عن هذا الحلم، فلمّا أصبح الصباح قصَّ رؤياه على الشيخ الآده بالي فأزوجه ابنته،

وولدت له ابنه أورخان. وكان عثمان كبير أولاد أرطغرل، وكان المقدّم عند سلطان قونية فحسده الأمراء على حظوته عند السلطان، ثمَّ ملك عثمان بلدة «قرة حصار» وزاد السلطان في إقطاعه ومنحه حقّ ضرب السكّة، وصار اسمه يقرن بأسم السلطان في صلاة الجمعة، وكان (المغول) قد غزا بلاد الأناضول سنة ١٣٠٠ للمسيح، فانهزم علاء الدين الثالث الذي كان يقال له سلطان الروم، والتجأ إلى «ميشيل باليوغ» ملك القسطنطينية، فمات في حبسه. وصار كرسي ملك الإسلام في الروم فارغًا.

فتولّى عدّة أمراء منهم «بنو قرمان» ومنهم «بنو قرة سي» ومنهم «بنو صاروخان» ومنهم «بنو آيدين» ومنهم «بنو حميد» ومنهم «بنو منتشة» ومنهم «بنو عثمان» الذين كان بيدهم يني شهر وما والاها.

وكان عثمان شديد البأس صارمًا، وكان لا يزال للقسطنطينية قلاع وبلاد في الأناضول، فأرسل عثمان إلى قوّاد هذه القلاع يخيّرهم بين الإسلام أو الخضوع له وكان له صاحب من الروم اسمه «ميشيل كيوز» فأسلم، وأقطعه عثمان بلادًا، وهذا هو جدّ عائلة «ميكال أوغلو» التي لها ذكر شهير في الدولة العثمانية. وخضع له بعض أمراء الروم وأدّوا الجزية، ثمَّ استولى ابنه أورخان على بورسة، أخذها من أيدي الروم، وكانت أحصن بلدة في آسية الصغرى، وذلك الفتح كان سنة ١٣٢٦ مسيحية. ومات عثمان وحزن عليه قومه لأنه كان بطلاً مغوارًا، وهو الذي أسس هذا الملك فقيل الدولة العثمانية من ذلك الوقت، وكان زاهدًا يقتدي بأصحاب رسول الله (ﷺ)، ولم يكن يدّخر مالاً، بل يوزّع كلّ ما يدخل في يده على أصحابه، وكان يعيش في بيته من قطيع غنم لا يزال من ذرّيته حتّى اليوم في نواحي بورسة.

بويع للسلطان عثمان، مؤسّس السلطنة العثمانية، في سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستّمائة. وقد كان الآده بالي الذي تزوّج السلطان عثمان ابنته من علماء القرامان، وتفقّه في البلاد الشامية، وكان عاملاً عالِمًا عابدًا زاهدًا، وكانوا يرجعون إليه بالمسائل الشرعية.

ومن العلماء المعروفين في أيام عثمان؛ المولى طوسون ختن الآده بالي، وقد قرأ عليه وقام مقامه في أمر الفتوى. ومنهم المولى خطّاب بن أبي القاسم القره حصاري، قرأ أيضًا في البلاد الشامية، وله شرح نافع على منظومة الشيخ عمر النسفي في الخلافيات. ومنهم مخلّص بابا من بلاد قرامان، وكان يرافق السلطان عثمان في فتوحاته. ومنهم ابنه عاشق

باشا، وكان عابدًا زاهدًا متصوّفًا. ومنهم ابن عاشق باشا المذكور، وكان أيضًا على قدم الصلاح نظير آبائه. ومنهم العارف بالله الشيخ حسن، وكانت له زاوية ببلدة بورسة.

وكان أكبر أولاد عثمان علاء الدين، إلاَّ أنه كان مشغوفًا بالعلم، محبًّا للعزلة فعهد عثمان بالملك لولده أورخان، فعرض أورخان على أخيه الأكبر قسمة المُلك فأبى علاء الدين، وأراد الاعتزال جانبًا، واختار أن يقيم على ضفّة نهر "نيلوفر" الجاري في مرج بورسة، فعرض عليه أورخان نصف قطعان الغنم التي خلّفها لهم أبوهم فرفض أيضًا، فقال له أورخان: من حيث أنك رفضت أن تأخذ حصّتك من الغنم والبقر والخيل؛ فإنِّي أعرض عليك أن ترعى رعيّتي وتكون وزيرًا لي، فلم يسعه إلاَّ القبول وصار وزيرًا لأخيه، وأَحْسنَ الإدارة. وكان عثمان لم يضرب السكّة باسمه فالذي ضربها هو ولده علاء الدين في أيام أخيه أورخان، ثمَّ جعل علاء الدين للمملكة جيشًا دائمًا. ولكن هذا الجيش لم يطُلْ أمره، فاتّفق أورخان وأخوه علاء الدين على حلّه، واعتمدا على طريقة أخرى أشار بها خليل جندرلي، وهي تأسيس وجاق الانكشارية، وكانوا يأتون بأحداث من أبناء النصارى وغيرهم فيربّونهم في الإسلام، فأكثر الانكشارية هم من هؤلاء. ولمّا أسّسوا هذا الجيش باركه "الحاج بكتاش" وهو الذي أعطاه اسم "يني شاري" وفي البداية لم يكن هذا الوجاق أكثر من ألف جندي، ولكنّه صار يزداد سنة فسنة. وقضيّة أخذ أولاد النصارى وتربيتهم في الإسلام وجعلهم جنودًا، كان العثمانيون قد أخذوها عن الروم أصحاب القسطنطينية الذين كانوا إذا غزوا بلاد الإسلام سبَوا كثيرًا من الأولاد وربّوهم في النصرانية، وجعلوهم جندًا يقاتلون به المسلمين. ولمّا استولى "نيقوفورفوقاس" على حلب سبي عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم في دار ملكه وعمّدهم وصيرهم من أعز جنوده. وكذلك عندما استولى "البطريق ميشيل بورتستريس" على إنطاكية سنة ٩٦٩ سبي من أولاد المسلمين عشرة آلاف أيضًا وربّوهم في القسطنطينية فخرجوا نصارى وصاروا جندًا. فالعثمانيون لم يعملوا إلى ما عمله البيزنطيون من قبل، ورتّب أورخان وأخوه عدّة أصناف من الجيوش؛ منهم الجيش الذي يقال له "العَزَب" ومنهم الخيالة وهم أنواع "السباهيّة" و"السلحداريّة" و"العلوفه جية" و"الغُربَاء" و"المسلمان" و"الأيكنجي" وبقيت قيادة الأيكنجي - وهم الكشّافة - في ذرّية عائلة ميكال أوغلي مدّة أعصر.

وجعل أورخان وأخوه مدينة بورسة قاعدة المملكة، وأخذا يفتتحان كلّ يوم بلدًا جديدًا وحاصرًا "نيقية" التي كانت العاصمة الثانية لمملكة الروم، وبعد حصار سنتين أخذاها

عنوة وهي البلدة التي انعقد فيها المجمع النيقي الذي به تقرّرت العقيدة الكاثوليكية، فحوّل الأتراك كنيسة المجمع المقدّس جامعًا. وأسّس أورخان وأخوه في نيقية مدرسة عالية وملجأ للفقراء، وشيّدا فيها عمارات كثيرة، وعهدا بقيادة موقع نيقية إلى «سليمان باشا» كبير أولاد أورخان الذي صار فيما بعد خلفًا لعمّه علاء الدين في الوزارة.

ثمَّ مضى العثمانيون في فتوحاتهم فاتّسعت المملكة، وكان أولاده أمير «قَرَسِي» قد اختلفوا بعد موت والدهم، فوضع أورخان يده على هذه الإمارة. وعمرت بورسة في ذلك الوقت واجتمع فيها العلماء، والأدباء، والشعراء، وصارت عاصمة حقيقية، ولا تزال عماراتها ومآثرها إلى اليوم تدهش الأبصار. وفيها مدافن ستة من السلاطين آل عثمان. وكان «دوشان» ملك الصرب جمع الصقالبة وافتتح بلاد البلغار وأراد أو يزحف على القسطنطينية فأرسل ملك القسطنطينية «يوحنّا باليولوغ» وعرض على أورخان أن يزوّجه ابنته حتّى يستعين به على قتال الصقالبة. ولكنّ دوشان مات قبل أن يتمكّن من الزحف على بيزنطية، وفي سنة ١٣٥٧ أجاز سليمان باشا ابن السلطان إلى البرّ الأوروبي بستّين مقاتلاً فقط، ثمَّ أجاز بعده ثلاثة آلاف مقاتل واستولوا على «مدينة غاليبولي» على الدردنيل، ثمَّ على «كونور» و«بولايير» و«مالاجره» و«أبسالة» و«رودُستو» وبينما سليمان باشا يتقدّم في الفتوحات تردَّى به جواده فمات، ولم يلبث أبوه إلى أن لحق به.

بويع للسلطان أورخان بالسلطنة في سنة ستّ وعشرين وسبعمائة، وقد نبغ في زمانه المولى داود القيصري القراماني، قرأ في مصر، وكان له قدّم راسخة التصوّف، وشرح فصوص أبن العربي. ولمّا بنى السلطان أورخان مدرسته في بلدة أزنيق انتدبه للتدريس بها. ومنهم المولى تاج الدين الكردري، وكان فقيهًا علامة، ولمّا مات داود القيصري جعله السلطان أورخان مكانه في التدريس. ومنهم المولى علاء الدين الأسود، وقرأ في بلاد العجم وله مؤلّفات، ودرس في مدرسة أزنيق. ومنهم المولى خليل الجندري وهو أول قاض من قضاة العساكر، وصار فيما بعد وزيرًا، وكان من أقارب الشيخ أدبالي. ومنهم المولى محسن القيصري، وقرأ في البلاد الشامية، وله نظم في علم الفرائض وشرح عليه. ومنهم الشيخ الغزال ومولده ببلدة (خوى) من بلاد العجم، وكان يركب الغزال، وحضر فتح بروسه مع السلطان أورخان وكان متجرّدًا عن العلائق الدنيوية، وكان لسلطان أورخان يحبه حبًّا جمًّا؛ فأقطعه موضعًا قريبًا من مقامه مع ما حوّله من القرى فلم يقبل ذلك الشيخ وقال: الملك والمال هما ممّا يلزم الملوك والأمراء وممّا يحتاج إليه الفقراء. ومنهم الشيخ العالم بالله قرّة جه

أحمد، وأصله من بلاد العجم سلك مسلك الزهد. ومنهم الشيخ العارف بالله أخي أوران. ومنهم الشيخ المجذوب موسى أبدال، حضر مع السلطان أورخان فتح بروسة. ومنهم أبدال مراد وهو أيضًا حضر فتح بروسة [1] مع السلطان. ومنهم بداغلوبابا وهو أيضًا من المجاهدين الذين حضروا ذلك الفتح.

ثمَّ جلس على كرسي السلطنة مراد بن أورخان، أخو سليمان باشا، وكان سلطانًا عظيمًا في حبّ الفتوحات، وحسن التدبير، وهو الذي استولى على «أدرنة» في البرّ الأوروبي ونقل إليها كرسي ملكه، وهي من أهمّ المدن واقعة في ملتقى ثلاثة أنهار ومن أدرنة زحفت جيوشه فاستولت على «كملچنة» في «تراقية» وعلى «ڤاردار» و«فيليپولي» وبنى مراد جامعًا كبيرًا في «أدرنة».

ولمّا رأى أهالي بلاد البلقان تقدّم العثمانين وتوالي فتوحهم؛ هالهم الأمر وعمدوا إلى مصادمتهم، وكان البابا «أوربانوس الخامس» نادى بالحرب الصليبية فزحف «أوروشق الخامس»، ملك الصرب، ومعه أمراء بوسنة، والفلاخ، والمجر قاصدين الأتراك في أدرنة. وكان السلطان مراد يحاصر بلدة «بيغا» في الأناضول فالتقاهم الحاج «إلْبيكي»، من قوّاد مراد، وهزمهم هزيمة شنيعة سنة ١٣٦٣، واستولى الترك على أثر هذه الوقعة على «قيزِلْ أغاج» و«يَانْبول» و«إسْتِيمان» و«سَمَاكوف». ثمَّ رجع مراد فاستولى على «قِرْق كْلِيسة» و«آيدوس» ومُدُن أخرى. وفي تلك المدّة أزْوج مراد ابنه بايزيد المسمّى «يِلْدِرِم» الذي تقدّم أنَّ تيمورلنك أخذه أسيرًا، وذلك من ابنة أمير «كوتاهية» واستولى عليها. وأجْبَر أمير حميد في الأناضول أن يبيعه إمارته، وسرّح «تيمور طاش» أحد قوّاده فافتتح «مناستير» و«بيرلِيبَه» و«إشتيب» في بلاد الصرب، وافتتح أيضًا «صوفيا» من بلاد البلغار. ثمَّ سرّح جيشًا آخر بقيادة الصدر الأعظم «خير الدين» فافتتح «سلانيك». وكان خير الدين هذا من أحسن الوزراء تدبيرًا، فلمّا مات طمع أعداء العثمانيين، وزحف البلغار من جهة أوروبة، وأمراء قرامان في الأناضول في وقت واحد؛ فأسرع مراد إلى صدّ أمير قرامان وهزمه وأسره، وعاد إلى البلقان لقتال الصرب والبلغار، وزحف الوزير «علي باشا» فاستولى على بلاد البلغار، وأسر «سيسمان»، ملك بلغاريا، ولم يقتله، وعيّن له مرتّبًا يعيش به. وصار ابن ملك البلغار من أتباع السلطان. وأمَّا ملك الصرب «أليعازر» فكان قد جمع جموعه وزحف

---

[1] بورسة أو بروسّا: مدينة تركية، عاصمة العثمانيين. [المحقّق]

بالصرب والأرناؤوط، فالتقى الجمعان في صحراء «قوصْوَه» فكانت معركة من أشدّ ما عرف التاريخ، وانهزم الصرب وأحلافهم، وبينما السلطان مراد يسير على أشلاء قتلى الصرب نهض أحد الجرحى فأغمد فيه خنجره، فجرح السلطان جرحًا بليغًا مات به، ولكن بعد أن أمات أليعازر ملك الصرب.

وكان لقبه عند الناس «غازي خداوندكار» بويع له سنة إحدى وستّين وسبعمائة ونبغ في زمانه المولى محمود قاضي بروسة، وكان قاضيًا بالعدل تقيًّا متورّعًا، وكان له ولد اسمه محمَّد فبرع في العلوم إلاَّ أنه مات شابًّا. وكان له ولد آخر اسمه موسى باشا ارتحل إلى بلاد العجم وقرأ على علماء خراسان وما وراء النهر، وبلغ شهرة عظيمة واتّصل بخدمة ملك سمرقند «أولغ بك»، وكان هذا الملك محبًّا للعلوم الرياضية، فقرأها عليه لأنه كان من علماء هذه العلوم، ومن المؤلّفين فيها، وشرح أشكال التأسيس في الهندسة وله كتاب في علم الهيئة، وقرأ على السيِّد الشريف ولكن لم تحصل الملاءمة بينهما فتركه، وقال السيِّد الشريف في حقّه؛ غلبت عليه الرياضيات. ومنهم الشيخ جمال الدين محمَّد بن محمَّد الأقصرائي، كان علامة في العلوم العقلية والنقلية، وله كتب منها كتاب في الطبّ، ويقال إنَّه من نسل الفخر الرازي. ومنهم المولى برهان الدين أحمد، قاضي أرزنجان، وكان عالِمًا فاضلاً ورعًا وصار أميرًا على أرزنجان وقُتل في أواخر سنة ثمانمائة في إحدى الوقائع. ومنهم الحاج بكتاش، وكان من الأولياء، وجاء في «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» أنه انتسب إليه فيما بعد بعض الملاحدة نسبة كاذبة وهو بريء منهم. ومنهم الشيخ محمَّد الكشتري، أصله من العجم توطّن بروسة. ومنهم بيوستين بوش، أصله من العجم بنى له السلطان مراد زاوية في قصبة ينى شهر.

ثمَّ تولّى السلطنة بعد مراد ابنه «بايزيد يلدرم» أي الصاعقة. وفي أيام بايزيد صارت مملكة الصرب تابعة للمملكة العثمانية، ولكن بقي «إتيان بن أليعازر» أميرًا عليها يؤدّي الجزية لبايزيد. وكانت بقيت لمملكة القسطنطينية في الأناضول بلدة فيلادلفيا والأتراك يقولون لها «آلاشِهِر» فأراد السلطان بايزيد أن يلحقها بمملكته وحاصرها، فأرسل السلطان إلى ملك القسطنطينية باليولوج بأن يأمر القائد بتخلية البلدة، فزحف باليولوج إلى البلدة وأجبر أهلها على تسليمها للسلطان. وفي ذلك الوقت استولى السلطان على إمارة «آيْدِين» وعلى قسم من إمارة «قَرامَان» ثمَّ حاصر بايزيد القسطنطينية وزحف صوب بلاد «الفلاخ» من رومانيا الحاضرة ودوّخها حتّى ارتضى أهلها بدفع الجزية. ثمَّ استولى بايزيد على مملكة

«قرامان» كلّها وعلى «طوقات» و«سيواس» فلم يبق في آسية الصغرى مملكة تركية مستقلّة إلاّ إمارة «قسطموني» والتجأ إليها الأمراء الذين كان بايزيد أخذ بلادهم، فطلب بايزيد من أمير قسطموني تسليم أولاد أمراء «منتشة» و«آيدين» فرفض طلبه، فزحف إليه واستولى على «صمصون» و«عثمان جيك» وغيرهما، وفرّ أمير قسطموني لاحقًا بتمرلنك. وفي أيام بايزيد استلحقت السلطنة العثمانية مملكة البلغار تمامًا، وأسلم ابن الملك «سيسمان» فاعترض «سيجسموند» ملك المجر على استلحاق بايزيد لبلاد البلغار كلّها، وتأهّب للحرب وأرسل يستصرخ الفرنسيس والبابا، فأعلن البابا الحرب الصليبية على العثمانيين وأرسل «دوق برغونية» ستّة آلاف مقاتل لمعاونة المجر، وانضمّ إلى ذلك الجيش أكابر أمراء فرنسة مثل «الدوق دوبور بون» و«الدوق دويار» أولاد عم ملك فرنسة، والماريشال «بوسيكو» وانضمّ إليهم كثير من الألمان من «باڤاريا» و«استيريا» ولمّا تلاقى هذا الجيش مع المجر وزحفوا لقتال الأتراك كان عدد هذا الجيش الصليبي ستّين ألفًا. ولكن جيش آل عثمان كان مائتَي ألف؛ فعندما التقى الجمعان هجم الفرنسيس على مقدّمة العثمانيين فأحاط هؤلاء بهم فانهزموا، فلمّا رأى الهزيمة جيش الميمنة من الصليبيين تحت قيادة «لازكوڤيتش»، أمير تراتسلڤانيا، تقهقر إلى الوراء وكذلك تقهقر «مانيس»، قائد الميسرة المؤلّفة من الفلاخيين، وثبت القلب وكان فيه المجر والألمان، واشتدّ القتال وكادت تتزلزل أقدام العثمانيين، إلاّ أنهم تغلّبوا في الآخر على أعدائهم بعد معركة تشيب لها الأطفال هي من أشهر معارك التاريخ.

ويقال إنَّ العثمانيين لم يقهروا الجيش الصليبي ذلك اليوم إلاّ بعد خسائر تفوق التصوّر، حتّى أنَّ بعض مؤرّخي الإفرنج ذكروا أنَّ المسلمين خسروا في تلك المعركة ستّين ألف قتيل ممّا هاج غضب السلطان حتّى أمر بقتل عشرة آلاف أسير من الإفرنج واستحيى السلطان منهم الكونت «دي نيڤير De Nevers» الذي يقال له «جان بلاخوف» وأربعة وعشرين أميرًا من أعظم نبلاء فرنسة، فهؤلاء لم يقتلهم السلطان، بل اكتفى بأخذ الفدية منهم، ولمّا سرّح الكونت «دي نيڤير De Nevers» قال له: «أنت في حلٍّ من العهد الذي تعهّدت به أن لا تقاتل عساكري، وذلك أنك لو أتيتني بكل جيوش النصرانية لَما كان ذلك إلاّ سببًا في انتصاري عليهم» وأدّى «باليولوج»، ملك القسطنطينية، الجزية السنوية لبايزيد، وبنى جامعًا ومحكمة في القسطنطينية، وكان للمسلمين فيها قاضٍ شرعي قبل أن فتحوها!!

وقال بايزيد: إنَّه لا بدَّ أن يطعم حصانه الشعير في رومة، صارت إيطالية كلّها ترتجف منه، وبينا بايزيد في أوج عظمته إذ التجأ إليه «أحمد جلاير»، أمير بغداد، الذي كان تمرلنك

تغلّب على بلاده، فبعث تمرلنك إلى بايزيد يطلب تسليم أحمد جلاير، فقابل بايزيد تلك الرسالة بالازدراء، فزحف تمرلنك إلى الأناضول واستولى على سيواس، وقتل ارطغرل بن بايزيد في المصاف، فسار بايزيد إلى قتال تمرلنك بجيوشه، وتلاقى الجمعان في سهل أنقرة فكان بايزيد في ذلك اليوم صاعقة كما هو اسمه، ولكن طالع الحرب لم يكن معه فانهزم وتردّى به جواده فوقع أسيرًا في ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ وأسر معه ابنه موسى، ونجا أولاده الثلاثة سليمان، ومحمَّد وعيسى، واختفى ابنه مصطفى ولم يطل أَسْر بايزيد إذ مات غمًّا في السنة التالية. فأخذ الأمير موسى جثّة والده بإذن تمرلنك ودفنها في بروسة. ويقال إنّه في زمن بايزيد ابتدأ فساد الأخلاق في الدولة، وانتشرت الرشوة، إلى أنَّ السلطان أمر في يوم واحد بقتل ثمانين قاضيًا.

بويع لبايزيد في رابع رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ومن علماء زمانه شمس الدين محمَّد بن حمزة الفناري، قال ابن حجر: كان الفناري عارفًا بالعلوم العربية، وعلمَي المعاني والبيان، وعلم القراآت، كثير المشاركة في الفنون، أخذ عن علماء بلاده ثمَّ ارتحل إلى مصر، ثمَّ رجع إلى الروم وتولّى قضاء بروسة، وكان مقدّمًا عند السلطان، ويقال إنَّه أثرى إلى الغاية، حتّى كان عنده من النقد خاصّة مائة وخمسون ألف دينار، وحجّ مرتين، وزار القدس، ثمَّ أصابه رمد أشرف به على العمى، ثمَّ ردَّ الله إليه بصره فحجّ بعد ذلك الحجّة الأخيرة، وله كتاب يسمّى «فصول البدائع في أصول الشرائع». وشرح «الرسالة الأثيرية في الميزان» شرحًا لطيفًا، وشرح «الفوائد السراجية» وعلّق على «شرح المواقف للسيِّد الشريف» تعليقات تتضمّن مؤاخذات لطيفة على السيِّد، وبلغ من الجاه والثروة الدرجة القصوى وتزاحم الناس على بابه، وخلّف عشرة آلاف من الكتب. وقيل إنَّه شهد السلطان أمامه شهادة في قضيّة فردَّ شهادته، فسأله عن السبب في ردّها فقال له: إنَّك تارك للجماعة، فلم يترك السلطان الجماعة بعد ذلك. ثمَّ اختلف المولى الفناري مع السلطان والتحق بصاحب قرامان، ولكن السلطان ابن عثمان عاد فاسترضاه ورجع إلى بروسة ومنهم المولى حافظ الدين بن محمَّد الكردري المشهور بـ «ابن البرازي» وله «الفتاوي البزازية» وكتاب في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه، وقيل إنَّه تباحث مع المولى الفناري فغلب عليه في الفروع، وغلب الفناري في الأصول وسائر العلوم. ومنهم مجد الدين أبو طاهر محمَّد بن يعقوب بن محمَّد الشيرازي الفيروز آبادى، صاحب القاموس، وكان ينتسب إلى الشيخ أبي أسحق الشيرازي. قال صاحب «الشقائق النعمانية». وربّما يُرفع نسبُه إلى أبي

بكر الصدّيق رضي الله عنه. دخل بلاد الروم واتّصل بخدمة السلطان بايزيد يلدرم، وأنعم عليه، وحظي عند السلطان وجوّل في البلدان، وبرع في العلوم كلّها لا سيَّما الحديث والتفسير واللغة، وله تصانيف كثيرة تنيف على الأربعين، وأجلّ مصنفاته «اللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب». وكان تمامه في ستين مجلّدًا، ثمَّ لخّصه في مجلّدين وسمّاه «بالقاموس المحيط، والقابوس الوسيط، فيما تفرّق من كلام العرب شماطيط». وكان آية في الحفظ والاطّلاع. ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وتوفّي باليمن قاضيًا بزبيد ليلة العشرين من شوال سنة ستّ أو سبع عشرة وثمانمائة، وهو ممتع بحواسه، ودفن بتربة الشيخ اسماعيل الجبرتي، قال صاحب «الشقائق النعمانية»: وهو آخر مَن مات من الرؤساء الذين انفرد كلّ منهم بفنّ فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن، وهم؛ الشيخ سراج الدين البلقيني في الفقه الشافعي، والشيخ زين الدين العراقي في الحديث، والشيخ سراج الدين بن الملقّن في كثرة التصانيف في الفقه والحديث، والشيخ شمس الدين الفناري في سعة الاطّلاع على العلوم العقلية والنقلية، والشيخ أبو عبد الله بن عرفة في فقه المالكية، والشيخ مجد الدين الشيرازي في اللغة.

وممَّن نبغ في زمان السلطان بايزيد يلدرم الشيخ شهاب الدين السيواسي، وأصله عبد لبعض أهالي سيواس، تعلّم في صغره ونبغ ومال إلى التصوّف وتوطّن في بلاد آدين وأكرمه أميرها، وله تفسير للقرآن العظيم، وله رسالة في التصوّف سمّاها «رسالة النجاة في شرف الصفات». ومنهم المولى حسن باشا بن المولى علاء الدين الأسود وله شرح «المراح في الصرف» وشرح «المصباح في النحو». ومنهم المولى صفر شاه وكان من علماء ذلك العصر. ومنهم محمَّد شاه بن المولى شمس الدين الفناري، وكان مطّلعًا على ما اطّلع عليه والده من العلوم، وفوّض إليه في حياة أبيه تدريس المدرسة السلطانية في بروسة وهو في سنّ الثمانية عشرة، وكانت وفاته سنة ٨٣٩. وكان له أخ هو المولى يوسف بن المولى الفناري، وتولّى التدريس بمدرسة بروسة واستقضى فيها. ومنهم الشيخ قطب الدين الأزنيقي، وكان زاهدًا متورّعًا متصوّفًا، علاّمة في العلوم الشرعية، قيل إنَّه لمّا اجتاز تمرلنك بالبلاد الرومية اجتمع مع هذا الشيخ فقال له: عليك أن تترك صنيعك هذا من قتل عباد الله وسفك الدماء المحرّمة، فقال له تمرلنك: يا شيخ إنِّي أنزل في منزل وباب خيمتي إلى الشرق فأجد بابها في الغد إلى الغرب، وإذا ركبت يركب أمامي خمسون رجلاً لا يراهم غيري فأقْفوا أثرهم. فقال له الشيخ: كنت سمعت أنك رجل عاقل، فالآن علمت أنك جاهل. فقال: من أين علمت هذا؟

قال: لأنك تفتخر بوصف الشيطان، وهو كونه مظهرًا لقهر الله سبحانه وتعالى. ومات هذا الشيخ سنة ٨٢١. ومنهم المولى بهاء الدين عمر بن قطب الدن الحنفي، كان من الفقهاء أرباب الفتوى، ومثله المولى ابراهيم بن محمَّد الحنفي ومثله أيضًا نجم الدين الحنفي. ومنهم الشيخ محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن علي الجزري المكنّى بأبي الخير، ولد بدمشق، ورحل إلى الديار المصرية وقرأ بها وجلس للإقراء وولّى قضاء الشام سنة ٧٩٣ وجاء إلى بروسة في زمان السلطان بايزيد بن عثمان. ولمّا تغلّب تمرلنك على السلطان المذكور أخذ تمرلنك هذا الشيخ معه إلى بلاد تركستان وقرأ عليه الناس في سمرقند. ثمَّ بعد وفاة تمرلنك خرج من تلك البلاد إلى خراسان ودخل هراة، ثمَّ جاء إلى أصفهان، ثمَّ إلى شيراز. وكان الناس يقرأون عليه في كلّ محلّ، ثمَّ جاء إل البصرة، ثمَّ جاور بمكّة والمدينة، وكان متخصّصًا في علم القرآت، وله التصانيف فيه، وتوفّي سنة ٨٣٣ في شيراز، وله ولدان فاضلان أكبرهما محمَّد أبو الفتح، وكان من العلماء الكبار ذوي التآليف. والثاني محمَّد أبو الخير وكان أيضًا من العلماء، وولد ثالث اسمه أحمد وكان أيضًا كأخوَيه. ولمّا وقعت الفتنة التيمورية أرسله تمرلنك رسولاً إلى الناصر فرج بن برقوق، صاحب الديار المصرية، وافترق عن والده نحوًا من عشرين سنة ثمَّ اجتمعا بمصر.

وأدرك أبو الخير، ابن الشيخ الجزري، زمان السلطان محمَّد بن مراد، ونصّبه السلطان موقعًا بالديوان العالي، وأكرمه إلى الغاية. ومنهم المولى عبد الواحد بن محمَّد بن محمَّد كان بارعًا في العلوم العقلية والنقلية، وله كتاب في الأسطرلاب، ودرس في مدرسة كوتاهية، وأصله من بلاد العجم. ومنهم المولى عز الدين عبد اللطيف بن الملك، وكان عند الأمير محمَّد بن آيدين. شرح «مشارق الأنوار» للإمام الصاغاني، وله تصانيف أخرى. ومنهم أخوه محمَّد بن عبد اللطيف بن الملك. ومنهم الشيخ العارف بالله عبد الرحمن بن علي بن أحمد البسطامي من أهل إنطاكية، وكان متخصّصًا بعلم الحروف والأوفاق والجفر، وله معرفة بالتاريخ، وسكن في بروسه. ومنهم المولى علاء الدين الرومي، أخذ عن العلامة التفتازانى، والسيِّد الجرجاني، وحضر مباحثهما وحفظ منهما أسئلة كثيرة مع أجوبتها. ومنهم الشيخ العارف بالله فخر الدين الرومى وكان من العلماء الزهاد. ومنهم الشيخ رمضان، اتّخذه السلطان بايزيد شيخًا لنفسه ثمَّ جعله قاضيًا للعسكر. ومنهم المولى أحمدي، أصله من كرمان، وصار المولى أحمدي معلّمًا للأمير ابن كرميان. وكان المولى أحمدي شاعرًا، وابن كرميان كان محبًّا للشعر ثمَّ صحب الأمير سليمان بن السلطان

بايزيد، ولأجله نظم المولى أحمدي الديوان المسمّى «اسكندر نامه». ومنهم الشيخ بدر الدين محمَّد بن إسرائيل المعروف بابن قاضي سماوة. وكان قد تعلّم في الديار المصرية، وقرأ مع السيِّد الجرجاني على مبارك شاه المنطقي، المدرّس في القاهرة، وعلى الشيخ أكمل الدين، وقرأ عليه السلطان فرج بن برقوق، ملك مصر، ثمَّ التحق ببلاد الروم. ولمّا تسلطن الأمير موسى الملقّب بشلبي، من أولاده عثمان وهو أخو السلطان محمَّد الأول؛ نصّب الشيخ بدر الدين قاضيًا للعسكر. ثمَّ وشوا به إلى السلطان فأمر بقتله بإفتاء مولانا حيدر العجمي، وله تصانيف كثيرة. ومنهم المولى الحاج باشا، وكان من رفاق الشيخ بدر الدين عندما كان يقرأ بالقاهرة وتخصّص بالطبّ، وفوّض إليه بيمارستان مصر فدبّره أحسن التدبير، وصنّف كتاب «الشفاء» باسم الأمير محمَّد بن آيدين. ومنهم الشيخ العارف بالله حامد بن موسى القيصري، وكان يبيع الخبز والناس يشترون منه تبرّكًا به، ولمّا بنى السلطان بايزيد الجامع الكبير بمدينة بروسة رغب إليه أن يكون واعظًا فيه، ومات بمدينة آقسراي.

ومنهم شمس الدين محمَّد بن علي الحسيني البخاري، ولد في بخارى وكان له قدم راسخة في التصوّف وجاء إلى بروسة وأحبّه أهلها واشتهر عندهم باسم أمير سلطان، وأحبّته بنت السلطان بايزيد فتزوّج بها. وكان آل عثمان يتبرّكون به، ومات في بروسة. ومنهم العارف بالله الحاج بيرم الأنقروي، ولد بقرية قريبة من أنقرة، ونبغ في العلوم، وصار مدرّسًا في أنقرة، ومات بها. ومنهم الشيخ عبد الرحمن الأرزنجاني، كان ساكنًا في الجبال بقرب أماسية. ومنهم العارف بالله (طابدق أمره) كان من الزهّاد النسّاك يسكن بقرب نهر سقارية.

ولمّا أسر بايزيد ثارت الممالك البلقانيّة التي كان السلطان العثماني قد أخضعها مثل بلغاريا، والصرب، ورومانيا. وكذلك ثار أمراء الأناضول من الأتراك مثل أمراء قرامان، ومنتشه، وآيدين، وصاروخان، واسترجعوا استقلالهم. ووقع الشقاق بين أولاد بايزيد فصاروا يقتتلون ويستأثر كلّ واحد منهم بشطر من المملكة؛ ولكن تمرلنك انكفأ عن آسيا الصغرى قاصدًا الصين، وبقي القتال بين أولاد بايزيد بعضهم مع بعض، وبينهم وبين أمراء الأناضول الذين استرجعوا استقلالهم، وذلك مدّة عشر سنوات والأمور فوضى إلى أن تغلّب محمَّد على الجميع. وكان ملك القسطنطينية «باليولوج» حليفًا لمحمَّد، فلذلك عندما صفا الوقت له لم يحاول أن يستولي على بلدته، بل ردَّ له بعض المدن التي كانت من قبل تابعة للقسطنطينية، وكان السلطان محمَّد هذا وهو محمَّد الأول عظيم الأمانة، محبًّا للعفو، وقد أجمع المؤرّخون على وصف معالي أخلاقه، وهو الذي مهّد المملكة تمهيدًا جديدًا،

ورتق جميع فتوقها بعد أن مزّقتها الفتن تمزيقًا، وكان محبًّا للعلم والعلماء، متمسّكًا بالدين الإسلامي، منفّذًا لأحكامه.

وهو أول سلطان عثماني أرسل صرّة إلى أمير مكّة، وفرّق الصدقات في الحجاز، وفي زمانه نبغ كثير من الشعراء والأدباء والمؤلّفين، ومن جملتهم ابن عرب شاه، صاحب تاريخ تيمور المسمّى «بعجائب المقدور» وكان معلّمًا لأولاد السلطان محمَّد، ومات السلطان محمَّد سنة ١٤٢١ مسيحية.

بويع له بالسلطنة سنة ستّ عشرة وثمانمائة، وممَّن نبغ في ذلك الزمان الشيخ المسمّى بأمير سلطان ونبغ في زمانه برهان الدين حيدر بن محمود الحوافي الهروي من تلاميذ السعد التفتازانى، له حواش على «شرح الكشاف للسعد» أورد فيها أجوبة على اعتراضات السيِّد الجرجاني، وكان تقيًّا ورعًا. ومنهم المولى فخر الدين العجمي قرأ على السيِّد الجرجاني، ثمَّ أتى إلى بلاد الروم وصار مفتيًا في زمن السلطان مراد وتعيّن له ثلاثون درهمًا كلّ يوم، فأراد السلطان أن يزيد عليها فلم يقبل وقال: حقّي في بيت المال ما يقوم بكفايتي ولا يحلّ الزيادة عليه. وكان شديد الوطأة على أتباع فضل الله التبريزي، رئيس الطائفة الحروفية الضالّة، ومات في أورفة، ولمّا مرِض مرَض الموت عاده المولى علي الطوسي واستوصاه، فأوصى بأن لا يخلّي ظهر العوام من عصا الشريعة. ومنهم المولى يعقوب الأصغر القراماني، وكان عالِمًا مدقّقًا، وجاء إلى بروسة وله رسالة في دفع العارض بين الآيتين؛ قوله تعالى: ﴿إنّا ننصر رسلنا﴾ وقوله تعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير حقّ﴾. ومنهم المولى المعروف بقرّة يعقوب من بلاد قرامان ومنهم المولى بايزيد الصوفي، نصّبه السلطان بايزيد معلِّمًا لابنه محمَّد. ومنهم العلاّمة محيي الدين الكافية جي، سُمي بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية في النحو. قال السيوطي: شيخنا العلاّمة أستاذ الأستاذين محيي الدين أبو عبد الله الكافية جي، ولد سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. واشتغل بالعلم أول ما بلغ، ورحل إلى بلاد العجم وتبريز ولقي العلماء الأجلاّء فأخذ العلوم عن شمس الدين الفناري، والبرهان حيدرة، والشيخ واجد، وابن فرشتة؛ شارح المجمع؛ وحافظ الدين البرازي، وغيرهم. ودخل القاهرة وأخذ عنه الفضلاء والأعيان، وولّى مشيخة الشيخوخة لمّا رغب عنها ابن الهمّام.

وكان إمامًا كبيرًا في المعقولات كلّها؛ الكلام، وأصول الفقه، والنحو، والتصريف، والإعراب، والمعاني، والبيان، والجدل، والمنطق، والفلسفة، والهيئة، بحيث لا يشقّ أحد

غباره بشيء من هذه العلوم. وله اليد الحسنة في الفقه، والتفسير، والنظر في علوم الحديث، وألّف فيه وأمّا تصانيفه في العلوم العقلية فلا تحصى بحيث أنّى سألته أن يسمّي لي جميعها لأكتبها في ترجمته فقال لا أقدر على ذلك.

قال السيوطي: وكان صحيح العقيدة، حسن الاعتقاد في الصوفيّة، محبًّا لأهل الحديث، كارهًا لأهل البدع، كثير التعبّد على كبر سنّه، كثير الصدقة والبذل لا يبقى على شيء، سليم الفطرة، صافي القلب، كثير الاحتمال لأعدائه، صبورًا على الأذى، واسع العلم جدًا، لازمته أربع عشرة سنة فما جئته من مرّة إلاّ وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك. قال لي يومًا: ما إعراب زيدٌ قائمٌ؟ فقلت: قد صرنا في مقام الصغار نسأل عن ذلك!!. فقال: لي فيها مائة وثلاثة عشر بحثًا؛ فقلت: لا أقوم من هذا المجلس حتّى أستفيدها، فأخرج لي تذكرتها فكتبتها منه. انتهى.

قلت: وما سبقنا الأوروبيون في المعارف العمرانية والوسائل المادّية إلاّ بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحدّ الذي يخرج عن اللزوم، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية، والتجارب الطبيعية المفيدة، وهكذا تفوّقوا وتغلّبوا علينا.

وممَّن نبغ في زمانه السلطان محمَّد الأول العثماني؛ الشيخ عبد اللطيف المقدسي وكان عالِمًا ثمَّ مال إلى التصوّف، وسكن بروسة ومات فيها. ومنهم العارف بالله عبد الرحيم بن الأمير عزيز المرز يفوني، وكان متصوّفًا أيضًا. ومنهم العارف بالله پير الياس الأماسي، وكان من الزهاد الأتقياء، وله مريدون. ومنهم عبد الرحمن شلبي، ابن بنت پير الياس. ومنهم شجاع الدين القراماني. ومنهم بدر الدين الدقيق. ومنهم العارف مظفر الدين الأرندوي. ومنهم مصلح الدين خليفة. ومنهم عمردده البروساوي. ومنهم الشيخ لطف الله. وكلّ هؤلاء من مشاهير الاتقياء رحمهم الله.

وخلفه ابنه مراد وكان عمر مراد عندما تولّى السلطنة ثماني عشرة سنة، وبدأ عمله بمهادنة أمير القرامان، وملك المجر. وثار على مراد عمّه مصطفى، وعضده ملك القسطنطينية، فتغلّب مراد على عمّه وأخذه أسيرًا وشنقه، وزحف على القسطنطينية وجرت معركة شديدة إلاّ أنَّ الأتراك لم يقدروا ذاك اليوم على فتح البلدة، أمّا في الأناضول فاستولى مراد على إمارة «آيدين» بعد أن كان أمراؤها استقلّوا في أثناء الفتنة التي وقعت بين أولاد السلطان بايزيد، وكذلك استولى على «صاروخان» وعلى «منتشة» وعلى «بلاد القرامان»

وعلى نصف إمارة "قسطموني" فاسترجع مراد جميع ما كانت معركة أنقرة المشؤومة مع تمرلنك أخسرته إياه من البلدان.

ولمّا استراح فِكر مراد من جهة آسية؛ وجَّه همّته نحو أوربة، وكان "جورج برانكوويتش" ملكًا على الصرب، و"سيجيسموند" ملكًا على المجر، فظفر العثمانيون بالمجر ظفرًا عظيمًا، فاضطرّ "برانكوويتش" خوفًا على ملكه أن يخضع ويؤدّي سنويًّا خمسين ألف دوكة للسلطان مراد، ويقطع كلّ علاقة مع المجر.

واحتل العثمانيون "كروش واتس" في قلب بلاد الصرب؛ ثمَّ وجّه السلطان قوّته صوب بلاد "الأرناؤوط" وكان الجنوبي منها يليه "بنو توكشى" والقسم الشمالي يليه "جان كستريوت" فاستولى السلطان على القسمين، ثمَّ زحف نحو بلاد الفلاخ أي رومانية فخضع أميرها "ڤلاد دارا كول" للسلطان، ولكن "سيجيسموند"، ملك المجر ثار، ومالأه ملك الصرب وأمير الفلاخ من جهة أوربة، وأمير القرامان من جهة آسية، فقهرهم السلطان جميعًا، واستسلم أمير الفلاخ للسلطان، وطلب ملك الصرب العفو وأزوج السلطان ابنته. فبقي ملك المجر وحده برأسه، فعاث الأتراك في بلاده ورجعوا بسبعين ألف أسير. ثمَّ استأنف "برانكوويتش"، ملك الصرب، ثورته، فزحف السلطان إلى بلاد الصرب، وفرَّ "برانكوويتش" إلى المجر، واستولى السلطان على أكثر بلاد الصرب، إلاَّ أنه لم يقدر على بلغراد فرجع عنها بعد حصار ستّة أشهر. وأمَّا المجر فكان ظهر فيهم بطل اسمه "جان هونياد" فهزم العثمانين وقتل منهم عشرين ألفًا مع قائدهم مزيد بك. فأرسل السلطان "شهاب الدين باشا" ومعه ثمانون ألف مقاتل للأخذ بالثأر فكسرهم "هونياد" بفئة قليلة، وأخذا أكابر قوّادهم أسرى، ووالى الهزائم على العثمانين، ثمَّ زحف السلطان بنفسه فانهزم هو أيضًا في واقعة "نيشل" وخسر ألفَي قتيل، وأربعة آلاف أسير، وتقهقر إلى الوراء. ثمَّ تقدّم هونياد إلى الأمام، واستولى على مدن كثيرة للعثمانيين، فاضطرّ السلطان مراد للصلح وأعاد إمارة الفلاخ إلى أميرها "داركول".

وعقد هدنة مع المجر إلى عشر سنوات، وصارت بلاد الصرب وبلاد الفلاخ تابعة لملكة المجر. فحزن السلطان من هذه الحوادث، وعقب ذلك أنَّ ولده "علاء الدين" توفّي فخلع السلطان نفسه وذهب معتزلاً الملك وأقام "بمغنيسيا" وتولّى مكانه ابنه محمَّد الثاني وهو في الرابعة عشرة من العمر، ولم يصل السلطان إلى مغنيسيا حتّى نقض المجر عهدهم

بتحريض البابا الذي أرسل إليهم أنَّ العهد ليس مسئولاً إذا كان مع المسلمين فزحف «هونياد» واستولى على بلاد البلغار، وحاصر «وارنة» فرجع السلطان إلى أوربة وزحف «هونياد» وهزمه؛ وكان معه «الكردينال سيزاريني»، رسول البابا، فقُتل الكردينال في المعمعة. وبعد هذه الطائلة على المجر رجع السلطان إلى عزلته وأراد أن يستريح. وإذا بالانكشارية قد قاموا بثورة في أدرنة فجاء السلطان بنفسه فأطاعوا. ثمَّ زحف بستّين ألف مقاتل على بلاد اليونان فدوّخها، وانعطف نحو بلاد الآرناؤوط وكان أمير هذه البلاد المسمّى أمير المرديت جعل أولاده الأربعة رهائن عند السلطان، ومنهم «جورج» الذي تربّى في الإسلام، وكان السلطان يحبّه جدًّا لشجاعته وهو الذي أطلق عليه اسم «اسكندر بك» إلاَّ أنَّ اسكندر بك هذا لم ينسَ وطنه، فانسلَّ خفية وأثار الأرناؤوط على العثمانيين وهزم القائد «علي باشا» واستقلّ بالبلاد. فسرّح السلطان إليه «فيروز باشا» و«مصطفى باشا» بعساكر وافرة، فتغلّب اسكندر بك عليهما وأخذ مصطفى باشا أسيرًا فاضطرّ السلطان مراد أن يخرج من عزلته مرّة ثالثة وزحف بمائة ألف مقاتل وهزم الأرناؤوط واستولى على «دبرة» بعد معارك شديدة.

وانتهز هذه الفرصة «جان هونياد» المجري وشنَّ الغارة على العثمانيين بجيش عدده أربعة وعشرون ألفًا، منهم عشرة آلاف من الفلاّحين، ولم ينضمّ إليه ملك الصرب خوفًا من السلطان، فتلاقي هونياد وجيشه في صحراء قوصوه مع السلطان مراد وجيشه فبقي القتال ثلاثة أيام؛ ولكن انتهت الواقعة بانكسار المجر وتفرّغ السلطان لمحاربة اسكندر بك فلم يقدر عليه، وبقي يناوشه القتال معتصمًا بالجبال ومات السلطان مراد في فبراير سنة ١٤٥١.

بويع له بالسلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، ومن علماء عصره؛ المولى محمَّد ابن أرمغان، انتهت إليه رئاسة الفتوى في بروسة بعد المولى شمس الدين الفناري. ومنهم ابنه محمَّد شاه استقضى ببروسة. ومنهم ابنه يوسف وكان مدرّسًا. ومنهم المولى محمَّد بن بشير، وكان من مدرّسي بروسة. ومنهم المولى شرف الدين بن كمال القريمي ومنهم المولى سيِّد أحمد بن عبد الله القريمي، ومات بالقسطنطينية بعد فتح السلطان محمَّد الثاني لها. ومنهم السيِّد علاء الدين السمرقندي، وكان عالِمًا ثمَّ مال إلى التصوّف ومنهم أحمد بن اسماعيل الكوراني، كان فقيهًا أصوليًّا، ارتحل إلى القاهرة وأجازه ابن حجر في الحديث. وجاء الكوراني إلى بلاد الروم فأجّله السلطان مراد الثاني وأعطاه مدرسة جدّه مراد الأول

في بروسة ثمَّ مدرسة جدّه بايزيد يلدرم في بروسة أيضًا. روى صاحب "الشقائق النعمانية" أنَّ الأمير محمَّد بن السلطان مراد ـ وهو الذي صار فيما بعد السلطان محمَّد الفاتح ـ كان أرسل إليه والده عدّة من المعلّمين ليعلّموه، فلم يمتثل أمرهم ولم يقرأ شيئًا، حتّى أنه لم يختم القرآن. فطلب السلطان مراد رجلاً ذا مهابة وحِدّة ليتمكّن من تعليم ابنه فذكروا له المولى الكوراني فجعله معلّمًا لولده، وأعطاه بيده قضيبًا يضربه إذا خالف أمره، فذهب إليه والقضيب بيده. فقال له: أرسلني والدك للتعليم وللضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمَّد من هذا الكلام، فضر به المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا حتّى خاف منه السلطان محمَّد وختم القرآن في مدّة يسيرة، ففرح بذلك السلطان مراد وأرسل إلى المولى الكوراني أموالاً عظيمة، ثمَّ إنَّ السلطان محمَّد خان لمّا جلس على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه عرض على الكوراني الوزارة فلم يقبل وقال له: إنَّ مَن في بابك من الخدام والعبيد إنَّما يخدمونك لأن ينالوا وزراة آخر الأمر، وإذا كان الوزير من غيرهم تنحرف قلوبهم عنك فيختلّ أمر سلطتك، فاستحسنه السلطان محمَّد وعرض عليه قضاء العسكر فقبله. ولمّا باشر أمر القضاء أعطى التدريس والقضاء لأهلهما من غير عرض على السلطان، فأنكره السلطان ولكن استحيى من أن يظهره له، فشاور الوزارء فأشاروا على السلطان بأن يقول له: سمعت أن أوقاف جدّي في بروسة قد اختلّت فلا بدَّ من أن تداركها. فلمّا قال السلطان هذا الكلام قال الكوراني: إن أمرتني بذلك أصلحها. فقال السلطان: هذا يقتضي زمانًا مديدًا. فقلّده قضاء بروسة مع تولية الأوقاف. فقبل الكوراني وذهب إلى بروسة، وبعد مدّة أرسل السلطان إليه واحدًا من خدّامه بيده مرسوم السلطان وضمّنه أمرًا يخالف الشرع، فمزّق الكتاب وضرب الخادم فاشمأزّ السلطان لذلك فعزله ووقع بينهما نفور، فارتحل المولى الكوراني إلى مصر وسلطانها يومئذ قايتباي، فأكرمه غاية الإكرام، ثمَّ إنَّ السلطان محمَّدًا الفاتح ندم على ما فعله، فأرسل إلى السلطان قايتباي ذلك للكوراني وقال له: لا تذهب إليه فإنِّي أكرّمك فوق ما يكرّمك هو. قال الكوراني: نعم هو كذلك، إلاَّ أنَّ بيني وبينه محبّة عظيمة كما بين الوالد والولد، وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر، وهو يعرف أنى أميل إليه بالطبع، فإن لم أذهب إليه يفهم أنَّ المنع من جانبك فيقع بينكما خلاف. فاستحسن السلطان قايتباي هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً، وهيّأ له أسباب السفر، وأرسل معه هدايا إلى السلطان محمَّد، فلمّا جاء إلى القسطنطينية ولاّه السلطان قضاء بروسة ثانية سنة ٨٦٣، ثمَّ قلّده منصب الفتوى، وعاش في كنف حمايته عيشًا رغدًا وصنّف تفسيرًا

للقرآن العظيم سمّاه «غاية الأماني في تفسير السبع المثانى» عقب فيه على العلاّمتين الزمخشري والبيضاوي، وشرح البخاري وسمّاه «بالكوثر الجاري على رياض البخاري» وله تصانيف أخرى، وكان قوّالاً بالحق، وكان يخاطب الوزير والسلطان باسمه، وكان إذا لقي السلطان يسلّم عليه ولا ينحني له، ويصافحه ولا يقبّل يده، ولا يذهب إليه يوم عيد إلاَّ إذا دعاه؛ وكان رحمه الله ينصح للسلطان محمَّد الفاتح فيقول له: إنَّ مطعمك حرام، وملبسك حرام، فعليك بالاحتياط. فاتّفق في بعض الأيام أنه أكل مع السلطان، فقال له السلطان: أيّها المولى أنت أكلت أيضًا من الحرام؟! فقال: ما يليك من الطعام حرام، وما يليني منه حلال فحوّل السلطان الطعام، فأكل المولى فقال السلطان: أكلت من جانب الحرام؟! فقال المولى: نفد ما عندك من الحرام، وما عندي من الحلال، فلهذا حوّلت الطعام. وتوفّي الكوراني سنة ٨٩٣ في القسطنطينية. ومنهم المولى مجد الدين، صار قاضي عسكر في زمان الفاتح. ومنهم المولى خضر بك بن جلال الدين، أعطاه السلطان محمَّد مدرسة جدّه في بروسة، وكان علاّمة يُلقّب بجراب العلم.

ولمّا فتح محمَّد الفاتح القسطنطينية جعله قاضيًا فيها، وهو أول قاض بتلك العاصمة وتوفّي فيها ودُفن في جوار أبي أيوب الأنصاري عليه رحمة الله. ومنهم المولى ابراهيم ابن الخطيب. ومنهم المولى خضر شاه من منتشة، قرأ في بلاده ثمَّ ارتحل في طلب العلم إلى مصر، وعاد إلى الروم، وكان زاهدًا وتوفّي قاضيًا. ومنهم المولى محمَّد بن قاضي أياجلوغ وكان عالِمًا زاهدًا. ومنهم المولى علاء الدين علي الطوسي، وأصله من العجم وجاء إلى بلاد الروم، ولمّا فتح السلطان محمَّد الثاني قسطنطينية جعل ثمانيًا من كنائسها مدارس وأعطى واحدة للطوسي وهي مدرسة جامع زيرك. وجاءه السلطان محمَّد الفاتح مرّة وأمر بأنَّ الطوسي يدرس كالعادة، وجلس على يمينه وجلس محمود باشا الوزير على يساره وصار الطوسي يقرأ في شرح العضد للسيِّد الجرجاني، وحلّ كثيرًا من الدقائق فطرب السلطان، ويقال إنَّه قام وقعد من شدّة طربه، وخلع عليه بعد الدرس وأعطاه عشرة آلاف درهم، وأحسن إلى جميع الطلبة. ثمَّ أعطاه السلطان مدرسة والدة السلطان مراد في أدرنة، وعيّن له كلّ يوم مائة درهم: ثمَّ أمر السلطان محمَّد المولى الطوسي والمولى خوجة زادة أن يصنّف كلّ منهما كتابًا للمحاكمة بين تهافت الإمام الغزالي والحكماء. فكتب المولى خوجة زادة كتابه في أربعة أشهر، وكتب المولى الطوسي كتابه في ستّة أشهر، ففضّل الناس كتاب خوجة زادة، وأعطى السلطان محمَّد كلاً منهما عشرة آلاف درهم، وزاد خوجة زادة

خلعة نفيسة، فكان ذلك سببًا في ذهاب المولى الطوسي إلى بلاد العجم. ومنهم المولى حمزة القراماني. والمولى ابن التمجيد، وكان معلِّمًا للسلطان محمَّد. ومنهم المولى علي العجمي، حصل العلوم في بلاده، وقيل قرأ على السيِّد الجرجاني. ثمَّ أتى بلاد الروم ونزل بقسطموني فأكرمه أميرها اسماعيل بك غاية الإكرام. ثمَّ أتى إلى أدرنة فأعطاه السلطان مراد الثاني مدرسة جدّه السلطان بايزيد يلدرم في بروسة، وعاش إلى زمان السلطان الفاتح. ومنهم المولى علس القومنانس وبلده قريبة من مدينة طوقات. ومنهم المولى حسام الدين الطوقاتي. ومنهم المولى الياس بن ابراهيم السينابي. ومنهم المولى الياس بن يحيى بن حمزة. ومنهم المولى محمَّد بن ميناس. ومنهم المولى علاء الدين القوجة حصاري ارتحل إلى بلاد العجم، وقرأ على التفتازاني. والسيِّد الجرجاني. ومنهم المولى قاضي بلاط. ومنهم المولى بخشايش صنّف رسائل للسلطان مراد. ومنهم المولى محمَّد بن قطب الدين الأزنيقي، ومنهم المولى فتح الله الشيرواني قرأ على السيِّد الشريف الجرجاني، وقرأ العلوم الرياضية على قاضي زاده الرومى بسمرقند، ثمَّ أتى بلاد الروم وتوطّن قسطموني ومنهم المولى شجاع الدين الياس ويلقّب بشيخ أسكوب، درس فيها مدّة أربعين سنة ومنهم المولى الياس الحنفي، ومنهم المولى سليمان شلبي ابن الوزير خليل باشا، وكان خليل باشا وزيرًا للسلطان مراد خان. وتولّى هو القضاء بالعسكر المنصور في زمن والده. ومنهم المولى آقبيق، وهو من العارفين. ومنهم الشيخ محمَّد بن الكاتب توطن غاليبولي منقطعًا عن الخلق. ومنهم الشيخ أحمد بن الكاتب أخوه، وسكن غاليبولى أيضًا، ومنهم المولى شيخي من بلاد كرميان، ومنهم مصلح الدين المعروف بإمام الدبّاغين بمدينة أدرنة. ومنهم الشيخ پيري خليفة الحميدي، ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن بخشي فقيه. ومنهم الشيخ العارف حسن خوجة من بلاد قرسي، ومنهم شمس الدين من خلفاء حسن خوجة.

وخلفه ابنه محمَّد الثاني الفاتح بويع له في سنة خمس وخمسين وثمانمائة للهجرة، وكانت آسية الصغرى ـ أي الأناضول ـ كلّها في يده، ما عدا إمارة القرامان وولاية طرابزون التي كانت تابعة للقسطنطينية، أمَّا في أوربة فلم يكن للروم غير القسطنطينية وضواحيها وأمَّا بلاد اليونان فكانت مقسّمة بين البنادقة، وبين بعض أمراء من الأهالي، وأمَّا الأرناؤوط فكانت تحت حكم اسكندر بك، وأمَّا بوسنة فكانت لها إمارة مستقلّة وأمَّا الصرب فكانت تؤدّي الجزية للسلطنة العثمانية، وكان باقي ما بقي تابعًا للسلطنة رأسًا، فلمّا تولّى محمَّد الثاني فكّر في فتح القسطنطينية حتّى يجمع شمل المسلمين، وكان «بايزيد يلدرم» بنى من

قبل بإزاء القسطنطينية حصنًا من جهة آسية، فجاء محمَّد الثاني فبنى حصنًا يقابله من جهة أوربة، فلمّا رأى الإمبراطور قسطنطين مباشرة السلطان محمَّد هذه البناية أرسل يستعطفه، وعرض عليه دفع إتاوة سنوية، فاستنكف السلطان عن قبول أي شيء، وبدأت الحرب؛ فاستأصل السلطان الروم الذين في ضواحي القسطنطينية، وأجمع كلّ من الفريقين على القتال، وصنع رجل مجريّ للسلطان مدفعًا كبيرًا يرسل قذائفه إلى مسافة ميل، كان موكّلاً به سبعمائة رجل، فكان تأثير هذا المدفع عظيمًا لضخامته وبعد مرماه.

وكان السلطان محمَّد يقدر أن يحشد مئات ألوف من المقاتلة، أمَّا الإمبراطور قسطنطين فلم يقدر أن يحشد إلاَّ أربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستّين مقاتلاً، فهذا العدد كان يقابل مائتين وخمسين ألف جندي عثماني، معها أربع عشرة بطارية من المدافع، يعاونها من البحر مائة وثمانون سفينة حربية!!، فاستصرخ "قسطنطين باليولوغ" ممالك النصْرانية فخذلته، وكلّ ما أنجدته به هو أنَّ البابا وعد بإعلان حرب صليبية إذا كانت الكنيستان الشرقية والغربية تتّحدان، وأرسلت جنوة أسطولاً صغيرًا خمس سفائن، وتمكّن خمسة آلاف مقاتل من الغرباء من الوصول إلى المدينة، فنقل السلطان مراكبه البحرية إلى البرّ، وأزلقها على الشحم، وأنزلها في خليج "قاسم باشا" في ليلة واحدة، ولمّا أصبح الصباح كان سبعون سفينة حربية في وسط الخليج، وبقي الحصار خمسين يومًا فتهدّمت الأبراج، فأرسل السلطان إلى قسطنطين يعرض عليه الاستسلام فامتنع، فعرض عليه السلطان يوليه بلاد المورة بدلاً من فروق فاستنكف أيضًا، وفي ٢٩ مايو من تلك السنة قام العثمانيون بهجوم عامّ، وكان المهاجمون مائة وخمسين ألفًا، فدافع الروم في ذلك اليوم دفاعًا شديدًا ولكن المسلمين دخلوا من الأسوار، فلجأ الروم إلى كنيسة آيا صوفيا يرجون المعجزة التي تنقذهم، فدخل عليهم العثمانيون من كلّ جهة، وأخذوا البلدة عنوة، وقتل الإمبراطور قسطنطين وهو يقاتل بنفسه. وكان للاستيلاء على القسطنطينية دويّ لا يوصف، ووصلت الأخبار إلى المورة فحلَّ من الرعب في قلوب اليونانيين ما لا يحيط به تعريف، وأخذوا يجلون عن بلادهم إلى حيث لا يعلمون، وامتلأ البحر بالسفن التي تشحن الأثقال، وتحمل الأنام، ولجأ كثيرون من الأروام إلى الجزر الخاصّة بالبنادقة، والجنوية. فصدر أمر السلطان بتأمين الناس، ونادى المنادي في كلّ مكان بأنَّ كلّ رومي يريد الرجوع إلى وطنه فهو آمن على حياته ودينه وماله!! وترك السلطان للأروام عددًا كبيرًا من الكنائس، وكان البطريرك قد قُتل في المعمعة فعيّن السلطان بطريركًا جديدًا اسمه "جناديوس" وسلمه العصا وقال له: إني أعطيك

الامتيازات التي كان يتمتّع بها أسلافك. وصار البطريرك منذ ذلك اليوم رئيسًا للأمّة الرومية، وكان له في الدولة العثمانية "رتبة وزير" وكانت عنده محكمة، ومجلس روحاني، فكان يحكم بين الأروام في القضايا، وكان المجلس الروحاني أشبه بمحكمة استئناف، وكان أعضاؤه ذوي امتيازات أيضًا فلا يدفعون شيئًا من الخراج وبالاختصار لم يتعرّض الأتراك إلى الأروام في دينهم، ولا في أملاكهم إلاَّ كنيسة "آياصوفيا" فقد جعلها السلطان جامعًا.

وبعد أن انتهى السلطان من فتح "العاصمة الرومانية" أخضع بلاد اليونان بأجمعها، ودخلت جيوشه بلاد الصرب، وسبت خمسين ألف نسمة من رجال ونساء فأرسل "جان هوينياد" بطل المجر إلى "برانكوويتش"، ملك الصرب، يعرض عليه التحالف للزحف معًا لقتال العثمانيين، فبعث برانكوويتش إلى هوينياد يقول له: ماذا تصنع فيما إذا تغلّبت أنت جهة الكنيسة؟ فأجابه هوينياد: إنَّني أقرّر العقيدة الكاثوليكية، وكان سفراء برانكوويتش سألوا السؤال نفسه السلطان محمَّد الفاتح فأجابهم: بجانب كلّ جامع أبني كنيسة، وكلّ من الفريقين يعبد ربّه كما يشاء. فسار السلطان بمائة وخمسين ألف مقاتل، وثلاثمائة مدفع، وحاصر بلغراد لكنّه لم يقدر عليها، ولحقت به خسائر كثيرة في الحصار. وكان "هوينياد" قد جُرح في المعركة ومات، فضعفت المقاومة ولم تمضِ سنتان حتّى دوّخ العثمانيون جميع بلاد الصرب. وبعد أن انتهوا من الصرب زحفوا إلى "بوسنة" وأخذ محمود باشا، قائد الأتراك، أمير "البوشناق" أسيرًا، ولكنّه وعده بالأمان على حياته، ثمَّ إنَّ السلطان محمَّدًا أخذ فتوى من شيخ الإسلام بجواز قتله. وأمَّا الأهالي فمنهم مَن هاجر، ومنهم مَن أسلم. وأكثر مَن أسلم كانوا من طائفة يقال لها "البوغوميل" وكانت مسيحية لكنّها لم تكن تعتقد بألوهية عيسى كما يعتقد جمهور النصارى، وكانت لها آداب خاصّة بها، وعقائد بعيدة عن العقيدة المسيحية، وكان من هذه النحله أقوام في بلاد البلغار. ونظرًا لتعصّب المجر للكنيسة الكاثوليكية طالما اضطهدوا هؤلاء البوغوميل وأرادوا إكراههم على قبول الكثلكة، وكانت الباباوات لا تزال تلحّ على ملوك المجر باستئصال هذه الطائفة فكان هؤلاء يعانون ألوان العذاب، فلمّا دخل الأتراك إلى بلاد البلقان التي يقولون لها "الروملي" بدأ هؤلاء البوغوميل يدخلون في الإسلام، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمَّد الفاتح مملكة بوسنة. ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختيارًا من تلقاء أنفسهم. فمؤرّخو الإفرنج يزعمون أنه لمّا دخل السلطان إلى بوسنة خيَّر الناس بين الإسلام والنصرانية، وأنَّ الذي أسلم بقيت له أملاكه، ومَن لم يقبل الإسلام جرّده الأتراك من ثروته،

وكلّ هذا من أكاذيب المؤرّخين الأوروبيين!! والحقيقة هي ما ذكرناه. ولو كان السلطان محمَّد الفاتح عامل البوشناق هذه المعاملة لكان أولى به أن يعامل النصارى بها في سائر البلاد، والحال كما هو معلوم ومشهور أنَّ السلاطين العثمانيين لم يتعرّضوا لأحد في دينه. فـ «البوشناق» المسلمون لم يكن أصلهم نصارى بالمعنى المعروف، بل كانوا من هذه الطائفة التي وصفنا شيئًا من عقيدتها، والتي كانت أرقى من جميع سكّان تلك البلاد.

ولنا رحلة إلى بلاد «بوسنة وهرسك» جمعنا فيها كلّ المعلومات اللازمة عن أصل «البوشناق» وعن أصل «البوغوميل» ومرادنا نشرها في أول فرصة. وقد رأينا بأعيننا قبور «البوغوميل» القديمة وليس عليها شيء من الصلبان، ولا من علامات النصرانية. وبديهي أنه لمّا كان البوغوميل هم في الأصل ذوي الوجاهة في بلاد بوسنة وهرسك، صاروا هم ذوي الوجاهة في الإسلام أيضًا. وكان استيلاء الأتراك على سنة ١٤٦٣. وفي تلك المدّة استولى السلطان محمَّد على بلاد «طرابزون» التي كان يليها ملوك من الأروام من عائلة «كومين». ثمَّ زحف السلطان لفتح بلاد الفلاخ فقاومه أميرها «ڤلاد» مدّة من الزمن، لكنّه انهزم والتجأ إلى بلاد المجر. فجعل السلطان أخاه «رادول» أميرًا على الفلاخ، فأمَّا الأرناؤوط فكانوا لا يزالون عُصاة، وكان اسكندر بك لا يزال مظفّرًا في حروبه مع الأتراك، فزحف السلطان بنفسه إلى بلاد الأرناؤوط واستولى على بعض المدن مثل «برات» وغيرها ثمَّ رجع وترك القيادة «لبَلَبان باشا» فلم يوفّق، وبقيت ألبانيا متمرّدة إلى أن مات اسكندر بك.

واشتعلت الحرب بين السلطان وبين جمهورية البندقية. فأرسل السلطان أسطولاً مؤلّفًا من ثلاثمائة سفينة حربية، عليها سبعون ألف مقاتل تحت قيادة «محمود باشا» فاستولى هذا الإسطول على جزيرة «نيغروبون» وأخذها عنوة واستأصل حاميتها فتحالف البنادقة، ومملكة نابولي، والبابا، مع أوزون حسن من أمراء التركمان في شرقي الأناضول، وذلك لمحاربة السلطان، فزحف السلطان لصدّ أوزون حسن بمائة ألف مقاتل، وقهره في واقعة «أوقلق بيلي» وفي ذلك الوقت استولى على برّ القرامان في جنوبي الأناضول بعد مقاتلات شديدة، وكان السلطان اعتزم فتح بلاد البغدان «من رومانية الحاضرة» فساق مائة ألف مقاتل لفتحها، وكان أميرها «إيتيان الرابع» صلبًا شديدًا فقاوم أشد مقاومة، وأوقع بالأسرى. فحنق السلطان وزحف من جهة الجنوب، وأوعز إلى تتر القرم بالزحف من الشرق، وكان في القرم عائلة مالكة من التتر تنتسب إلى «جنكيز خان». وكانت هذه المملكة تشتمل على شبه جزيرة القرم وبلاد قوبان، وبلاد الشركس، ولها جانب من بلاد البغدان،

وبسرابيا. وكان فيها عدّة إمارات تخضع «للخان الكبير» مثل آل «شيرين» و«آل منصور» و«آل سُجُد» و«آل إرغين» و«آل بارون». وكلّ هذه العائلات كانت من سلائل أعوان «جنكيز خان». وكان الجنويّون قد استولوا على جانب من القرم وأوقعوا الشقاق بين أمراء التتر، فجاء السلطان محمَّد الفاتح وطرد الجنويّة من هناك بأسطول مؤلّف من ثلاثمائة شراع، واستولى هو على بلاد القرم، ووضع على كرسي تلك المملكة «منفلي غراني» وصار من الملوك التابعين للسلطنة العثمانية. واستولى الإسطول العثماني على مصابّ نهر الطونة، وزحف بمائة ألف مقاتل لقتال «إيتيان الرابع» فكانت الحرب سجالاً. وكانت أساطيل البندقية تجتاح سواحل الأناضول، واشتعلت الحرب بين البنادقة والسلطان في ألبانيا، وبعد حصار شديد استولى السلطان على «أشقودره» سنة ١٤٧٩ ثمَّ تصالحت جمهورية البندقية مع السلطان فتفرّغ لقتال المجر، وزحف أربعون ألف مقاتل من الأتراك إلى «ترنسيلفانيا» ثمَّ إنَّ الخلف وقع بين القواد فظفر بهم «إيتيان باتوري»، أمير ترانسيلفانيا، والجنرال «نايتاس كورفين» وهزموا الجيش الإسلامي، وارتكبوا من فظائع التعذيب للأسرى ما روته التواريخ. ولكن السلطان لم يتوقّف في فتواحاته، بل صمّم على فتح «إيطالية» أيضًا وأرسل أسطولاً ففتح عنوة مدينة «أوترانت» في ١٤ أغسطوس ١٤٨٠ فوقع الرعب في جميع إيطالية وكان مسيح باشا يغزو «رودس» لطرد فرسان مار يوحنّا أورشليم، وهم الذين كان يسميهم العرب بالاسبتارية، ولهم ذكر شهير في الحروب الصليبية، ولمّا طردهم المسلمون من فلسطين جعلوا رودس مركزًا لهم، وكانت قاعدة سياستهم محاربة المسلمين، فجاء مسيح باشا بمائة وستين شراعًا وحصر رودس، وأنزل العساكر إلى البر، وبقي الحصار مدّة شهرين، فدافع الاسبتارية دفاعًا شديدًا، واضطرّوا مسيح باشا إلى رفع الحصار. وبعد ذلك بقليل مات السلطان الفاتح في ٢ مايو ١٤٨١. وخلاصة أعمال السلطان محمَّد الفاتح هو أنه فتح القسطنطينية، وكان ذلك فتحًا مبينًا انتهت به القرون الوسطى فصيَّرها عاصمة للإسلام، وفتح أيضًا ملحقاتها، وفتح مملكتَي الصرب وبوسنة، وبلاد الأرناؤوط، وجمعَ جميع آسية الصغرى في ملكه.

ولم يكن السلطان الفاتح من أعظم الفاتحين في الحروب فقط؛ بل امتازبحسن الإدارة، وتنظيم الملك، وهو الذي حرّر النظام المسمّى «بقانون نامه» وفيه جميع أنظمة السلطنة من علمية، وإدارية، وسياسية، وعسكرية، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدّة طويلة، ولا سيَّما التراتيب المتعلّقة بالقضاة والعلماء والمدرّسين فإنَّه اعتنى بها الفاتح أشدّ

الاعتناء، وكان الفاتح نفسه على جانب عظيم من العلم وحسن الثقافة، يتكلّم بلغات متعدّدة وكان بدون شكّ من أعاظم رجال الدهر ومن حسنات الإسلام الكبرى، وجميع هؤلاء السلاطين من عثمان إلى الفاتح لم يوجد منهم إلاَّ بطل مجاهد وسلطان عظيم الشان، وقلّما تصادف ذلك في دولة أخرى بهذا النَّسق خلفًا عن سلف.

وفي زمان السلطان محمَّد الفاتح نبغ من العلماء المولى خسرو، قاضي العسكر المنصور، أخذ العلم عن المولى حيدر الهروي، وصار مدرّسًا بمدينة أدرنة، ولمّا فتح السلطان القسطنطينية جعله قاضيًا فيها مع التدريس في آياصوفيا، وكان إذا دخل جامع آياصوفيا يقوم له من في الجامع كلّهم، ويصلّي عند المحراب، وكان السلطان ينظر إليه من مكانه ويقول لوزرائه: أنظروا هذا أبو حنيفة رفاقه، وكان كثير الاشتغال بالمطالعة، وله تآليف متعدّدة، ومساجد متعدّدة بناها في القسطنطينية، ومات فيها ونقل جثمانه إلى بروسة. ومنهم خير الدين خليل بن القاسم بن الحاج صفا. ومنهم المولى محمَّد الشهير بزيرك، وكان مدرّسًا بمدرسة السلطان مراد في بروسة، ووقعت له مناظرة مع خواجة زادة أمام السلطان محمَّد الفاتح، وكان السلطان مدقّقًا متبحّرًا يحبّ مناظرات العلماء بعضهم لبعض، ويميّز بينها تمييزًا مدهشًا، ففي ذلك اليوم استحسن السلطان قول خواجة زادة فوقع في نفس المولى زيرك شيء، فترك القسطنطينية وذهب إلى بروسة فعاد السلطان يحاول تطييب خاطره وعرض عليه مناصب عالية فرفضها. ومنهم مصلح الدين مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوي المشتهر بين الناس بخواجة زاده والمذكور كان أبوه من التجّار فمال إلى تحصيل العلم برغم إرادة أبيه، ولم يكن أبوه مع ثروته يعطيه شيئًا، فعاش معيشة الفقراء، وتولّى القضاء في زمان السلطان مراد ولمّا انتهت السلطنة إلى الفاتح ـ وكان محبًّا للعلم والعلماء ـ صار هؤلاء يشدّون الرحال إليه، وكان خواجة زادة ممَّن قصد السلطان فلقيه وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة، فلمّا رآه محمود باشا الوزير الأكبر قال له: أصبت في مجيئك لأني ذكرتك عند السلطان فاذهب إليه وعنده البحث، فذهب إلى السلطان فسأل عنه فقال محمود باشا للسلطان: هو خواجة زادة، فكان في جانب السلطان المولى زيرك، وفي الجانب الآخر المولى سيِّدي علي، فجلس خواجة زادة إلى جانب سيِّدي علي واعترض على المولى زيرك وأفحمه، حتّى قال له السلطان: كلامك ليس بشيء! ثمَّ ذهب المولى زيرك وبقي خواجة زادة عند السلطان، ثمَّ جعله السلطان معلِّمًا لنفسه وقرأ عليه السلطان متن عزّ الدين الزنجاني في التصريف، وصار مقرّبًا عند السلطان إلى النهاية حتّى

حسده محمود باشا الوزير وقال للسلطان: إنَّ خواجة زادة يريد منصب قضاء العسكر. فقال السلطان: لأيّ شيء يريد أن يترك صحبتي؟ فقال الوزير: هكذا يريد. ثمَّ قال الوزير لخواجة زادة: أمرك السلطان أن تصير قاضي العسكر. فقال : أنا لا أريد ذلك، قال الوزير: هكذا جرى الأمر. فامتثل خواجة زادة أمر الوزير وصار قاضيًا للعسكر وكان والد خواجة زادة لا يزال في الحياة، وكذلك إخوته. فجاءوا يزورونه وهو في منصبه العالي، ورأوا ذلك الإقبال العظيم، فقال خواجة زادة لوالده: لو كنت أعطيتني مالاً لَما صرت إلى هذا الجاه الذي تراه الآن. يشير بذلك إلى أنه في صغره لمّا عوّل خواجة زادة على طلب العلم وخالف مسلك أبيه في التجارة أمسك أبوه عن الأنفاق عليه، فصار يكدّ ويجتهد حتّى بلغ تلك الدرجة العالية، وكان الشيخ ولي شمس الدين البخاري رأى خواجة زادة وهو يطلب العلم في صباه وثيابه رثّة ورأى إخوته متجمّلين بالثياب النفيسة، فسأل أباهم؟ لماذا أولادك هؤلاء كلّهم عليهم علامات اليسار وولدك هذا وحده بحالة فقر؟ فقال له: هذا لأني أسقطته من نظري حين ترك طريقتي. فقال الولي شمس الدين: إنَّ هذا الولد سيكون له شأن عظيم ويقوم إخوته أمامه بمقام الخدم، وقد تحقّق كلام الولي هذا، لأنَّ خواجه زاده عندما صار قاضي العسكر صنع ضيافة عظيمة لأبيه، وحشد إليها الأكابر والأعيان والعلماء، فجلسوا على مراتبهم، ونظرًا للازدحام لم يوجد مكان في السفرة لإخوة خواجه زاده فلبثوا واقفين كالخدم، وتذكّر خواجة زادة قول الولي شمس الدين.

وصنّف خواجه زاده كتاب «التهافت» بأمر السلطان، وقال المولى الفناري: المصيبة كلّ المصيبة أنَّ الخواجة زاده قَبِل القضاء، إذ لو داوَم على الاشتغال بالتأليف لظهرت له آثار تتحيّر فيها الألباب.

ثمَّ إنَّ السلطان جعل محمَّد باشا القرماني وزيرًا، وكان متعصّبًا على المولى خواجة زادة لميل الوزير إلى المولى علي الطوسي، فقال للسلطان الفاتح. إنَّ خواجة زادة يشكو هواء القسطنطينية ويمدح هواء إزنيق. فقال السلطان: أعطيته قضاء إزنيق مع المدرسة التي فيها، فمضى خواجه زاده إلى إزنيق، ثمَّ ترك القضاء واشتغل بالتدريس فقط، ثمَّ رجع إلى القسطنطينية بعد وفاة الفاتح. ولمّا جلس السلطان بايزيد بن السلطان الفاتح على سرير السلطنة أعطاه المدرسة السلطانية في بروسة، مع منصب الفتوى فيها. وكان لا يكتب الفتوى إلاَّ بعد النظر في الفتاوى، وإذا تكرّرت عليه مسألة واحدة لا يهمل لأن يعيد النظر في الفتاوى قائلاً: لو سامحت نفسي في هذه لربّما تسامحت في غيرها. وكان إذا لم يجد المسألة في

الفتاوى سلك مسلك الرأي، وكان يقول إنّي قد أرجّح وجهًا من الوجوه ثمَّ إذا طالعت في الكتب وجدت هذا الوجه قد ذهب إليه بعض الأئمة قبلي. وكان يقول ما نظرت في كتاب أحد بعد تصانيف السيِّد الشريف بنية الاستفادة. وكان خواجة زادة يقول: إنّي صاحب إقدام وإحجام. فقيل له: ما تريد بذلك؟ فقال: إذا كملت مطالعتي لا أخاف أحدًا كائنًا من كان وإذا لم تكمل أخاف كلّ أحد. ونقل عنه أنه قال: إنَّ العلوم على ثلاثة أقسام؛ قسم منها ما يمكن تقريره وتحريره وهو المكتوب في المصنّفات. ومنها ما يمكن تقريره ولا يجوز تحريره وهو الجاري في المباحثات. ومنها ما لا يمكن تقريره ولا تحريره وهو ما لا يمكن التعبير عنه لدقّته إلاَّ إذا حصل لأحد تلك الحالة الذوقيّة فيتكلّم بالإيماء والإشارة. وأمر السلطان بايزيد خواجة زادة أن يكتب حاشية على شرح المواقف فامتثل أمره. وكان قد وقع شلل في يده اليمنى فكان يكتب الحاشية باليد اليسرى وتوفّي خواجة زادة سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة، وكان له ولد اسمه الشيخ محمَّد من العلماء الكبار، مال في آخر الأمر إلى التصوّف.

ومن علماء عصر الفاتح المولى شمس الدين أحمد بن موسى الشهير بالخيالي، وكان عالِمًا عاملاً ورعًا، ولمّا توفّي تاج الدين الخطيب، مدرّس أزنيق، طلب السلطان محمَّد الفاتح مدرّسًا مكانه، فعرض الوزير محمود باشا اسم الخيالي فقال له السلطان: أليس هو الذي كتب الحواشي على شرح العقائد وذكر فيها اسمك؟ قال الوزير: نعم هو ذلك. قال السلطان: إنَّه مستحقّ لهذا المنصب. وأعطاه المدرسة المذكورة وعيّن له كلّ يوم مائة وثلاثين درهمًا، ومات وهو مدرّس فيها وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان كثير العبادة. حكى مَن لازمَه أنه لم يره فرح ولا ضحك. وكان دائم الصمت لا يتكلّم إلاَّ عند مباحث العلوم.

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى القسطلاني، كان مدرّسًا في مدرسة «ديموطقة» في الروملي ثمَّ لمّا بنى الفاتح المدارس في القسطنطينية أعطاه واحدة منها وصار قاضيًا بالعسكر المنصور فخامة محمَّد باشا القراماني لأنَّ القسطلاني كان قويًّا لا يداري أحدًا، فقال الوزير للسلطان: الأولى أن يكون للعسكر قاضيان؛ أحدهما القسطلاني يكون قاضيًا لعسكر الروملي، والآخر يكون قاضيًا لعسكر الأناضول. وفي تلك المدّة مات السلطان الفاتح وجلس السلطان بايزيد، فعزل القسطلانى عن قضاء العسكر. وكانت له تصانيف عالية الدرجة، ولم يتفرّغ لأكثر منها لكثرة اشتغاله بالدرس والقضاء، وتوفّي سنة إحدى وتسعمائة ودُفن بجوار أبي أيوب الأنصاري.

ومنهم المولى محيي الدين محمَّد بن الخطيب كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية، وادّعى مرّة أنه يقدر على مباحثة خواجه زاده، فقال له السلطان الفاتح: أأنت تقدر على البحث معه؟ قال: نعم لا سيَّما أن لي مرتبة عند السلطان. فعزله السلطان محمَّد لهذا الكلام. وكان طليق اللسان، جريء الجنان، وقهر كثيرًا من علماء زمانه. ويروي عنه أنه ذهب ومعه جماعة من العلماء إلى السلطان بايزيد فقبّل العلماء يد السلطان، وأمَّا ابن الخطيب فلم يقبّل يده!! قال: أنتم لا تعرفون، يكفيه فخرًا أن يذهب إليه عالم مثل ابن الخطيب وهو راضٍ بهذا القدر. ثمَّ إنَّ السلطان بايزيد جمعه مع المولى علاء الدين العربي وغيره من العلماء وانتهى البحث إلى كلام غضب منه السلطان، فصنّف ابن الخطيب رسالة وذكر السلطان بايزيد خان في خطبتها وأرسلها إلى السلطان بيد الوزير ابراهيم باشا، فازداد السلطان غضبًا وقال للوزير ما اكتفى بذكر لك الكلام الباطل باللسان حتّى كتبه في الورق! اضرب برسالته وجهه وقل له يخرج من مملكتي. فالوزير كتم ذلك عن ابن الخطيب ولم يشأ كسر خاطره، وأرسل إليه عشرة آلاف درهم باَسم السلطان والسلطان لا يعلم ذلك. وله مؤلّفات كثيرة.

ومنهم المولى علاء الدين علي العربي، أصله من نواحي حلب، قرأ أولاً في حلب ثمَّ قدم إلى بلاد الروم فقرأ على المولى الكوراني، وقال المولى الكوراني له: أنت عندي بمنزلة السيِّد الشريف عند مبارك شاه المنطقي. وتحرير الخبر أنَّ السيِّد الشريف كان قرأ شرح المطالع ستّ عشرة مرَّة، ثمَّ قال في نفسه: أريد أن أقرأ هذا الكتاب على مصنّفه. فذهب إليه وهو بهراة والتمس منه أن يقرأ عليه شرح المطالع، وكان الشيخ قد بلغ من الكبر عتيًّا، فنظر إلى السيِّد الشريف فقال له: أنت شاب وأنا شيخ كبير لا أقدر على التدريس، فاذهب إلى مبارك شاه فهو يقرئك كما سمع مني وكان مبارك شاه وقتئذ يدرّس بمصر، فذهب السيِّد الشريف من هراة إلى مصر ومعه الكتاب، فقال له مبارك شاه: نعم إلاَّ أنه ليس لك درس مستقلّ، ولا آذن لك بالتكلّم، بل تقنع بمجرّد السماع. فرضي السيِّد الشروط كلّها وحضر الدرس. وكان بيت مبارك شاه متّصلاً بالمدرسة وله باب إليها، فخرج ليلة إلى صحن المدرسة وبينما كان يدور فيها سمع السيِّد الشريف يقول: قال الشارح كذا، وقال الأستاذ كذا، وأنا أقول كذا، وكرّر كلمات لطيفة أعجبت مبارك شاه حتّى رقص من شدّة طربه، فأذن للسيِّد الشريف أن يقرأ ويتكلّم، وسوّد الشريف حاشية شرح المطالع هناك، فالمولى الكوراني قصّ على المولى العربي هذه القصّة وقال له: إنّي أفتخر بك افتخار مبارك شاه

بالسيِّد الشريف ودرّس المولى العربي بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية، ثمَّ صار مفتيًا فيها. وكان رجلاً قويّ المزاج إلى الغاية يجلس عند الدرس مكشوف الرأس في أيام الشتاء ويقال إنَّه كان يأتي النساء كلّ ليلة، وكان يغتسل في بيته مهما اشتدّ البرد، ثمَّ يصلّي مائة ركعة، ثمَّ ينام، ثمَّ يقوم للتجهّد، ثمَّ يطالع إلى الصبح وقد وُلد من صلبه سبع وستّون نفسًا، ولمّا مرِض مرض الموت عاده الوزراء ومعهم طبيب، فأشار عليه الطبيب بالاستحمام فلم يرضَ، فحمله الوزراء جبرًا على سرير قبض كلّ واحد طرفًا منه وذهبوا به إلى الحمّام.

ومنهم المولى عبد الكريم كان هو والوزير محمود باشا والمولى إياس عبيدًا لمحمَّد أغا من أمراء السلطان مراد، وقد جيء بهم من بلادهم وهم صغار، فمحمود باشا صار فيما بعد وزيرًا للسلطان الفاتح، والمولى عبد الكريم قرأ العلوم بأسرها، واشتهر بالفضل وأخذ عن المولى علي الطوسي، والمولى سنان العجمي، ثمَّ صار مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان التي أحدثها الفاتح بعد فتحه القسطنطينية، وصار قاضيًا للعسكر، ومات في أيام السلطان بايزيد خان.

ومنهم المولى حسن بن عبد الصمد الصمصوني، كان عالِمًا فاضلاً محبًّا للفقراء أخذ عن المولى خسرو، ودرّس في إحدى المدارس الثمان، ثمَّ صار معلِّمًا للسلطان محمَّد الفاتح ثمَّ قاضيًا لمدينة القسطنطينية، وكان محمودَ الطريقة في قضائه، وكان له خطّ حسن، كتب للسلطان الفاتح صحاح الجوهرى بخطّه. ومنهم المولى محمَّد بن مصطفى بن الحاج حسن. قرأ على علماء عصره، وصار قاضيًا بمدينة «غاليبولي» ثمَّ أعطاه السلطان محمَّد مدرسة والده بمدينة بروسة، ثمَّ استقضى فيها ثمَّ استقضى بالقسطنطينية، ثمَّ صار قاضيًا للعسكر ومات في سنة إحدى عشرة وتسعمائة في زمان السلطان بايزيد خان. وله تآليف منها حاشيته على تفسير سورة الأنعام للبيضاوي، وحاشيته في المحاكمة بين الدوانيّ ومير صدر الدين، وكتاب في الصرف اسمه ميزان التصريف.

ومنهم علاء الدين علي بن محمَّد القوشجي كان أبوه من خدام أولغ بك ملك ما وراء النهر، وكان حافظ البازى «وهو معنى القوشجي بالتركية» قرأ على علماء سمرقند، وقرأ على قاضي زاده الرومي العلوم الرياضية، وكان الأمير أولغ بك أيضًا عالِمًا بهذه العلوم فأخذها عنه، وبنى الأمير أولغ بك مرصدًا في سمرقند عظيمًا وتعيّن له المولى القوشجي هذا، وله زيج شهير. وبعد وفاة أولغ بك لم يعرف أولاده قدر القوشجي فرحل

إلى تبريز وكان أميرها السلطان حسن الطويل فأكرمه كثيرًا، وأرسله في رسالة إلى السلطان محمَّد العثماني، فلمّا جاء إلى الفاتح بالرسالة أكرمه فوق ما أكرمه السلطان حسن ورغب إليه أن يسكن في ظل حمايته، فوعده بالمجيء بعد إتمام الرسالة، وعاد إلى السلطان حسن وأدّى الجواب، ثمَّ أرسل الفاتح من جاء به إلى القسطنطينية بالحشمة الوافرة، وقدّم للسلطان رسالة في علم الحساب وسمّاها المحمَّدية، ولا يوجد أنفع منها في هذا العلم. ثمَّ حصلت حرب بين الفاتح والسلطان حسن الطويل فاستصحب السلطان المولى القوشجي وهو ذاهب إلى الحرب، فصنّف له في أثناء السفر رسالة في علم الهيئة سمَّاها «الفتحيّة» ولمّا رجع السلطان من فتح العجم أعطى القوشجي مدرسة أيا صوفيا وأكرم أولاده وأتباعه وكان معه مئتا نفس من الأتباع. ورووا أنَّ المولى القوشجي ذكر مباحثة السيِّد الشريف مع العلاّمة التفتازاني ورجّح جانب التفتازاني وكان المولى خواجه زاده يقول: كنت أظن الأمر كذلك إلاَّ أني حقّقت البحث المذكور فظهر لي أنَّ الحقّ في جانب السيِّد الشريف فكتبت ذلك في حاشية كتابي وطالعها القوشجى فاستحسن ما كتبت. ولمَّا لقي القوشجي السلطان محمَّدًا الفاتح قال له السلطان: كيف شاهدت خواجة زادة. قال: لا نظير له في العجم والروم. قال السلطان: ولا نظير له في العرب أيضًا. وللقوشجي حاشية على أوائل شرح الكشاف للتفتازاني توفّي في القسطنطينية ودُفن بجوار أبي أيوب الأنصاري.

ومنهم المولى علي بن مجد الدين محمَّد بن مسعود بن محمود بن محمَّد بن عمر الشاهروري البسطامي الهروي الرازي العمَري البكري الشهير بالمولى «مصنفك» والكاف علامة التصغير عند العجم، ولقب بذلك لاشتغاله بالتصنيف مذ حداثة سنّه، وهو من ذرّية فخر الدين الرازي، ويقال إنَّ الفخر الرازي صرّح في بعض مصنّفاته بأنه من ذرّية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقيل، بل هو من ذرّية أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

ولد المولى «مصنفك» سنة ثلاث وثمانمائة، وسافر إلى هراة لتحصيل العلم سنة اثنتَي عشرة وثمانمائة، وصنّف شرح الإرشاد سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ـ أي وهو ابن عشرين سنة ـ وشرح المصباح في النحو سنة خمس وعشرين، وشرح آداب البحث سنة ستّ وعشرين، وشرح اللباب سنة ثمان وعشرين، وشرح المطوَّل سنة اثنتين وثلاثين، وشرح شرح المفتاح للتفتازاني سنة أربع وثلاثين، وصنّف حاشية التلويح سنة خمس وثلاثين، وشرح البردة والقصيدة الروحية لابن سينا في تلك السنة، ثمَّ ارتحل إلى هراة وشرح «الوقاية» ثمَّ شرح «الهداية» سنة تسع وثلاثين. ثمَّ صنّف حدائق الإيمان لأهل العرفان، ثمَّ

ارتحل إلى بلاد الروم سنة ثمان وأربعين وشرح المصابيح للبغوي، وشرح شرح المفتاح للسيِّد الشريف، وصنّف شرح الكشاف للزمخشري. وله عدّة تآليف بالفارسية، وقرأ العلوم الأدبية على المولى جلال الدين يوسف الأَبَهمي من تلاميذ التفتازاني، وقرأ فقه الشافعي على الإمام عبد العزيز بن الأبهري، وقرأ الفقه الحنفي على الإمام نصيح الدين محمَّد بن محمَّد علاء الدين.

وكان سريع الكتابة يكتب كلّ يوم كرّاسًا، وكان يدرّس الطلبة بالكتابة يكتبون إليه مواضع الأشكال فيجيب كلاً في ورقة ويدفعها إلى الطالب، مات بالقسطنطينية سنة خمس وسبعين وثمانمائة، ودُفن عند أبي أيوب الأنصاري وأصيب بالصمم في آخر حياته.

ومنهم المولى سراج الدين محمَّد بن عمر الحلبي، لمّا أغار تمرلنك على البلاد الحلبية أخذه معه إلى ما وراء النهر فقرأ هناك، ثمَّ قدم إلى بلاد الروم في زمن السلطان مراد خان ونصّبه معلِّمًا لابنه السلطان محمَّد الذي فتح استانبول ثمَّ أعطاه مدرسة بأدرنة وبقي يدرّس ويصنّف حتّى مات فيها.

ومنهم المولى محيي الدين دويش محمَّد بن خضرشاه، كان مدرّسًا بسلطانيّة بروسة وكان في غاية الورع والناس تتبرَّك به. ومنهم المولى إياس، وكان متصوّفًا انقطع للعبادة والمطالعة، وكان له غرام بتصحيح الكتب وكتابة الفوائد في حواشيها، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم. ومنهم المولى خير الدين معلِّم السلطان محمَّد الفاتح، وكان له جامع ومدرسة في القسطنطينية. وكان عالِمًا فاضلاً متفنّنًا لذيذ الصحبة حسن النادرة. ومنهم المولى حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى، صبورًا على الشدائد، تولّى التدريس بمدرسة السلطان مراد في بروسة ثمَّ عزل عنها في أوائل سلطنة الفاتح، وأتى إلى القسطنطينية. وكان الفاتح أحيانًا يخرج ماشيًا في عدّة من أعوانه فصادفه الشيخ حميد الدين فنزل عن فرسه ووقف، فقال له السلطان: أنت ابن أفضل الدين؟ قال: نعم، قال: احضر إلى الديوان غدًا. فلمَّا حضر أعطاه مدرسة السلطان مراد في بورسة، وأجرى عليه أرزاقًا تكفيه وأوصاه بالاشتغال بالعلم وقال له: أنا لا أغفل عنك. ثمَّ أعطاه السلطان إحدى المدارس الثمان في القسطنطينية، ثمَّ استقضاه، وبعد وفاة الفاتح صار مفتيًا في زمان ولده السلطان بايزيد. وكان شديد الحفظ قلّما توجد مسألة شرعية أو عقلية إلاَّ وهو يحفظها، ولم يكن يعرف الغضب ومنهم المولى سنان الدين يوسف بن المولى خضر بك

ابن جلال الدين، كان عالِمًا فاضلاً واسع الاطّلاع حادّ الذهن، ولشدّة ذكائه غلب عليه الشكّ فصار يشتبه في أكثر الأشياء، وكان والده يلومه على ذلك، وكانا يأكلان مرّة معًا فقال له والده: بلغ بك الشكّ إلى مرتبة أنك قد تشكّ في أنَّ هذا الظرف من نحاس؟! فقال له: نعم، يمكن ذلك لأنَّ للحواس أغاليط. فغضب والده عليه وضربه بالطبق على رأسه. ولمّا مات والده كان في العشرين من سنّه. فأعطاه السلطان الفاتح مدرسة بأدرنة، ثمَّ أعطاه دار الحديث، ثمَّ جعله من خواصه، وتعلّم سنان الدين العلوم الرياضية على المولى علي القوشجي الذي تقدّم ذكره، ثمَّ سفر الجوّ بينه وبين السلطان فعزله وحبسه. فلمّا عرف العلماء اجتمعوا في الديوان العالي وقالوا: لا بدَّ من إطلاق سبيله وإلاّ نحرق كتبنا ونخرج من المملكة، فأمر السلطان بتخلية سبيله، ولكنّه أخرجه من القسطنطينية إلى سفر حصار، وبقي غضبان عليه. إلاَّ أنَّ السلطان بايزيد عاد فاستدعاه إلى أدرنة، وجعله في دار الحديث فيها، وأنعم عليه وكتب هناك حواشي على مباحث الجواهر من شرح المواقف، وأورد أسئلة كثيرة على السيِّد الشريف، فنصحه بعض أصحابه قائلاً له: لا بدَّ من انتخاب تلك الأسئلة لأنَّ السيِّد رفيع الشأن، فأوعز للطلبة بأن يطالعوا تلك الأسئلة، فأسقط منها ما أجابوا عنه، ثمَّ ترك المناصب ومات بقسطنطينية، ودُفن بجوار أبي أيوب الأنصاري سنة إحدى وتسعين وثمانمائة. وكان ينفق كلّ ما في يده، ولمّا مات لم يوجد في بيته حطب يسخّن به الماء. ومنهم المولى يعقوب باشا بن المولى خضر بك بن جلال الدين، وكان عالِمًا محقّقًا صالحًا، استقضى في مدينة بورسة ومات وهو قاض بها سنة إحدى وتسعين وثمانمائة. ومنهم أحمد باشا بن خضر بك بن جلال الدين كان أيضًا. عالِمًا فاضلاً متواضعًا محبًّا للفقراء، أعطاه السلطان محمَّد إحدى المدارس الثمان وهو دون العشرين ثمَّ صار مفتيًا بمدينة بروسة في زمان السلطان بايزيد، ومات سنة سبع وعشرين وتسعمائة وقد ذرّف على التسعين. ومنهم المولى صلاح الدين، كان عالِمًا عابدًا جعله الفاتح معلِّمًا لابنه بايزيد، وتوفّي في بورسة.

ومنهم المولى عبد القادر أصله من «اسبارتة» من ولاية حميد، قرأ على المولى علي الطوسي وترقّى في المناصب حتّى صار من خواص السلطان الفاتح، فنقل الوزير محمود باشا عنه إلى السلطان ما غيَّر خاطره عليه، فذهب إلى وطنه ومات مكسور الخاطر. ومن نكاته أنه كان مع السلطان في قونية، فخرج العلماء لاستقبال السلطان مشاة، وكان المولى عبد القادر راكبًا، فقال له السلطان: قد أضناك السفر فانظر إلى هؤلاء العلماء وقوّة مزاجهم، فأنشده بيتًا بالفارسية معناه: إنَّ الفرس العربي وإن كان نحيفًا فهو أجود من

جماعة الحُمُر، فضحك السلطان واستحسن جوابه. ولكنّه لم يستحسن منه قوله مرّة: إنَّه لو كان العلاّمة التفتازني والسيِّد الجرجاني في عصره لحملا قدّامهُ غاشية سرجه، فإنَّ السلطان اشمأزّ من كلامه، وأمره بالمباحثة مع خواجة زادة فأفحمه خواجة زادة، كأنَّ السلطان جعل ذلك عقابًا له. ومنهم المولى علاء الدين علي بن يوسف بالي بن المولى شمس الدين الفناري، كان من العلماء المحقّقين ارتحل إلى بلاد العجم وأخذ عن علماء هراة، ثمَّ عن علماء سمرقند، وبخاري، ثمَّ عاد إلى بلاده. وكان المولى الكوراني يقول للسلطان الفاتح: يجب أن يكون عندك أحد أبناء المولى الفناري، فلمَّا بلّغه وجود المولى علاء الدين من ذرّية الفناري استقضاه بمدينة بورسة ثمَّ جعله قاضيًا للعسكر المنصور، وفي زمانه ارتقى شرف العلم وكانت للعلماء سيادة تامّة. ثمَّ عُزل، ثمَّ أعاده السلطان بايزيد لقضاء العسكر، ثمَّ عزل وأقام على جبل فوق مدينة بورسة يشتغل بالعلم، وكان يقضي في ذلك الجبل الفصول الثلاثة وينزل إلى بورسة في الفصل الرابع. وكان لا ينام على فراش، فإذا غلب عليه النوم استند على الجدار والكتب بين يديه. وكان ماهرًا في العلوم الرياضية، وفي علم الكلام، وعلم الأصول، وفي الفقه والبلاغة، وسلك أيضًا طريق التصوّف ودخل في خدمة العارف بالله حاجي خليفة، ومع سعة علمه لم يرغب في التأليف، وليس له إلاَّ شرح الكافية في النحو. وكان ينفق كلّ ما بيده ولم يدّخر من رواتبه الكثيرة التي جرت عليه وهو قاضٍ للعساكر أقلّ شيء، فقيل له في ذلك؟ فقال: كنت رجلاً سكران ولم يوجد عندي مَن يحفظ المال. يريد أنه كان سكرانًا بخمرة الجاه. فقال له بعض الحاضرين: إذا رجعت إلى المنصب فيلزم أن تحفظ المال، فقال: لا يفيد فإنَّه إذا عاد المنصب يعود معه السكر. توفّي سنة ثلاث وتسعمائة، وقيل إحدى وتسعمائة.

ومنهم المولى حسن شلبي بن محمَّد شاه الفناري، كان عالِمًا عابدًا محبًّا للفقراء وكان مدرّسًا بالمدرسة الحلبية في أدرنة، وكان ابن عمّه المولى علي الفناري قاضيًا بالعسكر في أيام الفاتح، فدخل عليه وقال: استأذن لي من السلطان لأني أريد أن أذهب إلى مصر لقراءة كتاب «مغنى اللبيب» في النحو على رجل مغربي سمعته بمصر يعرف ذلك الكتاب غاية المعروفة، فأذن له السلطان وقال قد اختلّ دماغه. وكان السلطان لا يحبّه لأنه صنّف حواشيه على كتاب التلويح باسم السلطان بايزيد في حياة والده، ثمَّ ذهب إلى مصر وقرأ مغنى اللبيب على العالم المغربي قراءة تحقيق وتدقيق وكتب الكتاب بخطّه، وكتب له المغربي إجازة على ظهر الكتاب، وقرأ البخاري على بعض تلاميذ ابن حجر وأخذ إجازة في الحديث، ثمَّ حجّ

ورجع إلى بلاد الروم فأرسل كتاب مغنى اللبيب إلى السلطان فلمَّا نظر فيه رضي عنه وأعطاه مدرسة إزنيق، ثمَّ أعطاه إحدى المدارس الثمان. وفي زمان السلطان بايزيد سكن بورسة وعيّن له السلطان رزقًا كافيًا، ومات ببورسة. وله حواشي على الشرح المطوّل للتلخيص وحواشي على شرح المواقف للسيِّد الشريف، وحواشي على التلويح للتفتازاني.

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن المولى حسام، وكان عالِمًا في العلوم الشرعية والعلوم الأدبية، ومتصوّفًا أيضًا، وكانت له اليد الطولى في الإنشاء، وصار مفتيًا في بورسة، ومات بها. ومنهم محيي الدين محمَّد الشهير بـ "أخوين" قرأ على علماء الروم ودرّس في إحدى المدارس الثمان في قسطنطينية. ومنهم المولى قاسم المشتهر بـ "قاضي زادة" كان أبوه قاضيًا في مدينة قسطموني، وكان عالِمًا عابدًا، وكانت له معرفة بالعلوم الرياضية، وتولّى القضاء في بورسة، وكان محمود الطريقة، ومات وهو قاض في بورسة ومنهم المولى محيي الدين الشهير بـ "ابن مغنيسا" اتّصل بخدمة المولى خسرو وهو مدرّس بمدرسة آيا صوفيا، وكان يسكن في الطبقة العليا من المدرسة، ويشعل سراجه طول الليل ويرى ذلك السلطان محمَّد من دار السعادة، فسأل السلطان يومًا المولى خسرو: مَن أفضل تلاميذك؟ فقال له: ابن مغنيسا. وقال: ثمَّ من؟ قال: ابن مغنيسا. قال السلطان: أهو رجُلان؟ قال: لا ولكنّه واحد كالف، فقال له السلطان: إنَّه ساكن في الحجرة الفلانية، وذلك لأنَّ السلطان كان يرى سراجه موقدًا طول الليل. ولمَّا بنى الوزير محمود باشا مدرسته بالقسطنطينية أعطاها السلطان لابن مغنيسا، ففي أول درس ألقاه قال أستاذه المولى خسرو بحضور جمّ من العلماء: حضرت درسين؛ أحدهما لمحمَّد شاه الفناري، والآخر هذا الدرس. قال ذلك لشدّة إعجابه بتلميذه. ثمَّ صار قاضيًا بالقسطنطينية، ثمَّ قاضيًا بالعسكر المنصور. واتّفق أن سافر السلطان الفاتح إلى الحرب في الروملي فسأل ابن مغنيسا عن بيت من الشعر العربي فقال له: أتفكّر فيه بالمنزل ثمَّ أجيب. فقال له السلطان محمَّد: أيحتاج بيت واحد من الشعر إلى كلّ هذا؟ وأمر بحضور المولى سراج الدين - وكان موقّعًا في الديوان العالي - فسأله عن ذلك البيت ففي الحال أجابه قائلاً: هو للشاعر الفلاني من القصيدة الفلانية من البحر الفلاني. ثمَّ قرأ السباق والسياق، وحقّق معنى البيت. فقال السلطان لابن مغنيسا: ينبغي أن يكون العالم هكذا في العلم، ثمَّ عزله عن قضاء العسكر وأعطاه إحدى المدارس الثمان وقال هو محتاج بعد إلى التدريس. ثمَّ بعد ذلك استوزره ثمَّ عزله عن الوزارة. وفي زمان السلطان بايزيد رجع قاضيًا للعسكر وتوفّي وهو قاضٍ.

ومنهم المولى حسام الدين حسين بن حسين بن حامد التبريزي المشهور بـ «أم ولد» لقّب بذلك لأنه تزوّج أم ولد المولى فخر الدين العجمي، كان عالِمًا عابدًا منقطعًا عن الخلق، عاكفًا على الدرس والعبادة، أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان وكان يحبّه لصلاحه ويحسن إليه. ومنهم ابن المعرّف كان من ولاية بالي كسرى وكان معلِّمًا للسلطان بايزيد، وكان السلطان يقول: لولا صحبتي معه ما صحّت عقيدتي ومنهم المولى بهاء الدين بن الشيخ الحاجي بيرم، كان عالِمًا فاضلاً عابدًا، صار مدرّسًا بمدرسة السلطان بايزيد بن مراد في بورسة، وأخذ عن الخواجة زادة ودرّس في إحدى المدارس الثمان، ولمّا بنى السلطان بايزيد بن محمَّد مدرسته بأدرنة أعطاها إلى المولى بهاء الدين المذكور. ومنهم المولى سراج الدين كان معيدًا لدرس خواجه زاده، ثمَّ أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان بقسطنطينية، وكان يحفظ جيدًا قصائد العرب، وينظم الشعر العربي، وقد تقدّم كونه تغلّب على ابن مغنيسا في معرفة الشعر العربي، ومات في عنفوان شبابه، وحزن عليه الناس.
ومنهم المولى محيي الدين محمَّد ابن كوبلو، وجعله الفاتح قاضيًا بالعسكر المنصور، وتزوّج بأخته سليمان شلبي بن كمال باشا فولد له منها ولد اسمه أحمد شاه، وهو المولى العالِم الفاضل المعروف بـ «ابن كمال باشا» ومنهم المولى محيي الدين محمَّد المعروف بمولانا «ولدان» وكان قاضيًا بمدينة غاليبولي ثمَّ جعله السلطان مدرّسًا في بورسة، ثمَّ قاضيًا بها، ثمَّ جعله قاضي العسكر، ثمَّ عزله وبقي إلى زمان ولده بايزيد خان فأعاده إلى قضاء العسكر وحصل في زمانه أنَّ أحد خدّام السلطان في أدرنة ظهر منه فساد، فأرسل نائب المحكمة أناسًا من قبله لمنعه فلم يمتنع، فغضب النائب وركب إليه بنفسه وقصد منعه فضرب هو النائب ضربًا شديدًا، وبلغ الخبر السلطان فأمر بقتله لتحقيره نائب الشرع، فشفع له الوزراء فلم يقبل شفاعتهم، فالتمسوا من مولانا ولدان أن يتوسّط في الأمر فقال للسلطان: إنَّ النائب مخطىء في قيامه من مجلس القضاء بسبب الغضب. فلمَّا ذهب فضربه ذلك الغلام لم يكن عند الضرب قاضيًا، بل كان قد أسقط نفسه، فلذلك لا يقال إنَّه حصل تحقير للشرع يستحقّ فاعله القتل. فسكن السلطان الفاتح، ثمَّ جيء بالغلام بين يدي السلطان فضربه ضربًا شديدًا مرض من بعده أربعة أشهر ثمَّ بُرّيء بعد ذلك وترقّى وصار وزيرًا للسلطان بايزيد، وكان يترحّم على الفاتح ويقول: ما حصل لي هذا الرشد إلاَّ من ضربه. ومنهم أحمد باشا بن المولى ولي الدين الحسيني، كان مدرّسًا بمدرسة السلطان مراد في بورسة، ثمَّ صار قاضيًا بأدرنة، ثمَّ جعله السلطان محمَّد الفاتح قاضيًا بالعسكر، ثمَّ جعله معلِّمًا لنفسه، وكان حلو

الفكاهة يقرض الشعر بالتركية، واستوزره السلطان ثمَّ عزله، وجعله أميرًا على بورسة ومات بها. ومنهم المولى تاج الدين ابراهيم باشا بن خليل بن ابراهيم بن خليل باشا، جدّه الأعلى خليل باشا أول قاض بالعسكر المنصور في الدولة العثمانية، وأمَّا والده خليل باشا فكان وزيرًا للسلطان مراد والد الفاتح، فلمَّا تولّى الفاتح عزل خليل باشا ونكبه ومات محبوسًا، وكان ولده تاج الدين ابراهيم باشا قاضيًا بأدرنة، فعزله أيضًا وتحوّلت به الأحوال وصار إلى فقر شديد، ثمَّ ولاّه السلطان قضاء أماسيه، ولمّا مات وتولّى ابنه بايزيد استدعاه إلى القسطنطينية وجعله قاضيًا للعسكر، ثمَّ جعله رئيسًا للوزراء وكانت سيرته في القضاء والوزارة محمودة، وكان يأكل من مطبخه كلّ يوم ستّمائة نفس من الفقراء، وعند وفاته لم يوجد في خزانته إلاّ ثمانية آلاف درهم!! وله جامع ومدرسة في القسطنطينية. ومنهم المولىمصلح الدين مصطفى بن أوحد الدين البارحصاري، كان عالِمًا فاضلاً عالي الهمّة، عظيم الحرمة، أخذ عن خواجة زادة ودرّس في أدرنة وفي القسطنطينية، واستُقضى فيها أيام دولة السلطان بايزيد، ومات وهو قاضٍ، ولم يصنّف كتبًا إلاّ رسالة في تجويز الفرار من الوباء. ومنهم المولى يوسف بن حسين الكرماسني قرأ على خواجة زادة، ودرّس في القسطنطينية ثمَّ استُقضى فيها، وكان سيفًا من سيوف الحقّ لا يخاف في الله لومة لائم، خرج مرّة إلى المسجد بعمامة صغيرة، فطلبه الوزير ابراهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره في الحال فلم يبدّل عمامته الصغيرة، فسأله الوزير عن ذلك فأجابه: حضرت خدمة الخالق بهذه الهيئة، ثمَّ لمّا استدعيتني لم أجد في نفسي رخصة في تغيير الهيئة لأجل الوزير فوقع هذا الكلام عند الوزير موقع القبول، ورواه للسلطان بايزيد فسرّ السلطان بذلك وأنعم عليه.

ومنهم المولى ابن الأشرف، قرأ على خواجة زادة، ثمَّ على المولى علي الطوسي ونبغ نبوغًا عجيبًا، ولكنّه التحق أخيرًا بزمرة الصوفيّة ورغب في السياحة إلى أن مات. ومنهم المولى عبد الله الأماسي، كان مدرّسًا عظيم الشأن في أماسية، زاهدًا في الدنيا. ومنهم المولى حاجي بابا الطوسي، اشتغل بالتدريس وأخذ عنه الكثيرون، وله تصانيف كثيرة في النحو. ومنهم المولى ولي الدين القراماني، والد الشاعر المشهور بـ «نظامي»، توفّي ولده نظامي في حياته. ومنهم المولى علاء الدين على الفناري، وليس من أولاد المولى الفناري تولّى القضاء في بورسة، ثمَّ صار قاضي عسكر الأناضول، ومات في أيام السلطان بايزيد، وكان له ملَكة في الإنشاء بالعربية. ومنهم سنان الدين يوسف المشهور بـ «قره سنان» كان ماهرًا في العلوم العربية والأدب، شرح مراح الأرواح في الصرف، وشرح الشافية في الصرف أيضًا. ومنهم

المولى مصلح الدين مصطفى بن زكريا القراماني، قرأ في القاهرة، ثمَّ عاد إلى بلاد الروم، وله التصانيف. ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى، أخو زوجة المولى عبد الكريم، كان مدرّسًا بمراديّة بورسة. ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير بقراجه أحمد، كان مدرّسًا بمراديّة بورسة، وله تصانيف. ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير بـ "دنقوس" كان مدرّسًا في بورسة وصنّف شرح المراح في الصرف، وله شرح على كتاب المقصود في الصرف.

ومنهم المولى طشغون خليفة، وكان متصوّفًا توفّي في زمان السلطان بايزيد ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى الشهير بـ "البغل الأحمر" وكان عالِمًا حافظًا لجميع المسائل درّس مدّة في بورسة، ثمَّ في أدرنة، وكان عظيم الجثّة جدًا لا يحمله إلاَّ فرس قوي. ومنهم المولى شمس الدين أصله من ولاية "آيدين" ارتحل إلى بلاد العجم، وقرأ على علمائها. ثمَّ إلى بلاد العرب وقرأ أيضًا على علمائها، وبرع في علم النغمات، واتّصل بالفاتح ثمَّ غضب عليه فذهب إلى بورسة، واختلّ عقله في آخر عمره من حزنه لأجل مفارقته للسلطان. وكان ينظم القصائد العربية، والفارسية والتركية، وكلّ قصيدة إذا صُحِّفَت من أولها إلى آخرها يحصل منها هجو كما جاء في "الشقائق النعمانية".

ومنهم المولى المليحي، مهَر في العلوم وذهب إلى بلاد العجم فأخذ عن علمائها وكان يحفظ صحاح الجوهري كلّه، ولكنّه ابتلى في آخر الأمر بالخمر وسقطت منزلته ونقل إلى السلطان الفاتح أنَّ المليحي شرب الخمر في سوق البزّازين، وصبّ الخمر على الناس، فأرسل فأتوا به فسأله لماذا شربت الخمر وصببته على الناس؟ فكان المليحي يقول: عجبًا للسلطان كيف صدّق قولهم أنَّ المليحي صبّ الخمر على الناس مع أنَّ المليحي إذا وجد الخمر لا يضيّع منها قطرة!! وقد تاب المليحي عن الخمر في زمان السلطان محمَّد، فلمَّا توفّي رجع إلى شأنه عفا الله عنه والله يعفو عن كثير. ومنهم المولى سراج الخطيب، وكان من بلاد العجم جاء إلى بورسة ثمَّ إلى استانبول فجعله السلطان الفاتح خطيبًا في الجامع الذي بناه المعروف بالفاتح، وكان له في رعاية النغمات شيء عظيم لم يلحقه به أحد بعده.

ومنهم قطب الدين العجمي، كان وزيرًا لبعض ملوك العجم ثمَّ جاء إلى بلاد الروم وخدم السلطان الفاتح فأكرمه جدًّا، وكان يعرف علم الطب غاية المعرفة. ومنهم الحكيم شكر الله الشيرواني، وكان طبيبًا ماهرًا وعالمًا بالعلوم العربية. ولمّا حجّ أقام بمصر وقرأ على علمائها كالشيخ السخاوي، وغيره. وأجازه بالروم المولى الكواني واتّصل بخدمة السلطان

محمَّد ومات في أيامه. ومنهم خواجة عطا الله العجمي، جاء من بلاد العجم إلى بلاد الروم في أيام الفاتح، ومات في أوائل سلطنة بايزيد، وكان ماهرًا في الفلك والرياضيات، ومعرفة الأزياج واستخراج التقاويم، قال صاحب «الشقائق النعمانية» :رأيت له رسالة كبيرة في العلوم الرياضية لحلّ الأسطرلاب والربع المجيّب، والمقنطرات، ورسالة لطيفة في معرفة الأوزان. ومنهم يعقوب الحكيم كان يهوديًا، وكان من أمهر الأطباء فحظي عند السلطان محمَّد لأجل طبه، ثمَّ أسلم فاستوزره السلطان، ولمّا مرض السلطان الفاتح رحمه الله عالجه يعقوب الحكيم هذا فلم ينجع علاجه، فأشار الوزير محمَّد باشا باستدعاء الحكيم اللاّري فعالج السلطان بخلاف معالجات يعقوب فازداد ضعف السلطان، فاستدعى يعقوب مرّة ثانية، فلمَّا عاينه عرف أنَّ مرضه غير قابل للشفاء، فصوّب رأي الحكيم اللاّري ولم يلبث السلطان إلاَّ قليلاً حتّى مات روّح الله روحه، وجزاه عن الإسلام خيرًا. ومنهم الحكيم اللاّري العجمي، اتّصل بخدمة الفاتح. ومنهم الحكيم «عرب» حصّل الطبّ في بلاد العرب ثمَّ جاء إلى بلاد الروم واتّصل بخدمة عيسى بك بن أسحق بك أمير أسكوب، ثمَّ اتّصل بخدمة السلطان محمَّد. ومنهم ابن الذهبي، كان عالِمًا عابدًا زاهدًا ورعًا، وكان ماهرًا في معرفة الأعشاب، وكان لا يؤتى إليه بشيء منها إلاَّ عرفه بأسمه ورسمه ومنافعه! وكان طبيبًا حاذقًا. ومنهم محمَّد بن حمزة الشهير بـ«آق شمس الدين»، نجل العارف بالله شهاب الدين السهروردي، ولد بدمشق الشام، ثمَّ أتى مع والده إلى بلاد الروم، وكان مائلاً إلى التصوّف واتّصل بخدمة الشيخ بيرم، وكان طبيبًا للأبدان كما هو طبيب للأرواح. ولمّا عزم السلطان محمَّد على فتح القسطنطينية دعا هذا الشيخ للجهاد فقال الشيخ آق شمس الدين: سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني، وقت الضحوة الكبرى، وكان الأمر كما قال. فاعتقد فيه السلطان محمَّد مزيد الاعتقاد، وقال: ما فرحت بهذا الفتح كفرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني. ثمَّ جاءه السلطان يومًا من الأيام وهو مضطجع في خيمته فلم يقم للسلطان فقبّل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة! قال: ما هي؟ قال: أريد أن أدخل الخلوة عندك أيامًا. فقال الشيخ: لا. فألحّ السلطان مرارًا والشيخ يقول لا. فقال له السلطان وهو غضبان: إنَّ واحدًا من الأتراك يجيء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة فلماذا تمنعني أنا وحدي؟ فأجابه الشيخ آق شمس الدين: إذا دخلت الخلوة تجد فيها لذّة تسقط السلطنة من عينك، وتختلّ أمورها، فيمقتنا الله، والغرض من الخلوة إنَّما هو تحصيل العدالة، فأنت عليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر ما بدا له من النصائح ثمَّ قام السلطان من

عنده والشيخ مضطجع لا يقوم له، فقال السلطان لابن ولي الدين ما قام الشيخ لي؟! ـ وكان مستاءً من ذلك ـ فقال له ابن ولي الدين: إنَّ الشيخ خاف عليك الغرور لهذا الفتح الذي لم يتيسّر لغيرك من السلاطين العظام، والشيخ كما لا يخفى هو مرشد. ثمَّ دعا السلطان الشيخ في الثلث الأخير من الليل وجاء والليل مظلم فما رآه بالبصر ولكن عرفه بالروح، فعانقه وضمّه وجلس إليه حتّى طلع الفجر، فصلّى السلطان خلفه، وبعد الصلاة قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه فلمّا أتمّها التمس السلطان من الشيخ أن يعيّن له موضع قبر أبي أيوب الأنصاري وكان يروي في التواريخ أنَّ قبره بموضع قريب من سور القسطنطينية، فقال آق شمس الدين: إنّي أشاهد في هذا الموضع نورًا، فلعلّ قبر أبي أيوب هو هنا. قال له السلطان إنّي أصدّقك، ولكن أريد علامة يطمئنّ بها قلبي، فتوجّه الشيخ ساعة ثمَّ قال: احفروا هذا الموضع من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر رخام عليه خطّ عبراني تفسيره كذا، فحفروا مقدار ذراعين فظهر الرخام الذي قال عنه وعليه الخطّ ففسّروه فإذا هو كما قال. فاندهش السلطان وغلب عليه الحال حتّى كاد يسقط وأمر ببناء القبّة على ذلك الموضع، وببناء جامع، والتمس من الشيخ أن يجلس هناك مع مريديه، فأبى الشيخ واستأذن أن يرجع إلى وطنه. فلم يشأ السلطان أن يخالفه فلمّا عبر البحر قال لولده: لمّا جاوزت البحر امتلأ قلبي نورًا، وقد فسدت إلهاماتي في قسطنطينية من ظلمة الكفر فيها. وعاد إلى وطنه «قصبة قومنك» وبقي فيها حتّى مات. وله رسالة في التصوّف اسمها «رسالة النور» وكان ماهرًا في علم الطبّ، وله رسالة فيه.

حاصر العرب القسطنطينية من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة، ومنهم من يمدّ ذلك إلى سنة ٥٥ ويقولون: إنَّ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه وهو خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بلحارث بن الخزرج الذي شهد «بدرًا» و«أُحُدًا» و«الخندق» والمشاهد كلّها مع رسول الله (ﷺ)، وخرج غازيا في زمان معاوية ومرض في غزو القسطنطينية، فلمَّا ثَقُل قال لأصحابه: إنْ أنا متُّ فاحملوني فإذا صادفتم العدوّ فادفِنوني تحت أقدامكم، وسأحدّثكم بحديث سمعته من رسول الله (ﷺ) وهو «مَن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة». قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: ولمّا مرض أتاه يزيد بن معاوية يعوده فقال ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا أنا متُّ فاركب بي ثمَّ سُغ بي في أرض العدوّ ما وجدت مساغًا، فإذا لم تجد مساغًا فادفني ثمَّ ارجع. فلمَّا مات ركب به ثمَّ سار في أرض العدوّ ما وجد مساغًا، ثمَّ دفنه ثمَّ رجع. قال محمَّد بن عمر: توفّي أبو أيوب عام غزا يزيد

بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه سنة ٥٢ وصلّى عليه يزيد بن معاوية وقبره بأصل حصن القسطنطينية، ولقد بلغني أنَّ الروم يتعهّدون قبره ويرمّونه ويستسقون به إذ قحطوا، انتهى ما جاء في الطبقات. وقد نقلته إلى حواشي «حاضر العالم الإسلامي» ثمَّ قلت: إنَّ الأتراك عند ما فتحوا القسطنطينية بقيادة السلطان محمَّد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبّة، وجعلوا عنده جامعًا.

وجاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية: أنَّ ابن قتيبة هو أول مَن ذكر قبر أبي أيوب. قلت: كانت وفاة ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وقيل ستّ وسبعين ومائتين على ما في وفيّات الأعيان، والحال أنَّ وفاة محمَّد بن سعد صاحب «الطبقات» كان يوم الأحد لأربع خَلَون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين، أي قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيّات الأعيان أيضًا. فيكون جزم أصحاب الإنسكلوبيدية الإسلامية بأنَّ ابن قتيبة هو أول مَن ذكر قبر أبي أيوب الأنصاري هو بغير محلّه، وذلك لأنَّ ابن سعد سابق لابن قتيبة، وأنت ترى أنه قد ذكره. وأمَّا قضيّة كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في القحط فقد جاء في الإنسكلوبيدية المذكورة نقلها عن الطبري، وابن الأثير، وابن الجوزي، والقزويني، والحال أنها مذكورة في طبقات ابن سعد الذي تقدّم في الزمن هؤلاء جميعًا، وقد جاءت هذه القصّة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركي للحاج عبد الله اسمه «الآثار الماجدية في المناقب الخالدية» طبع استانبول سنة ١٢٥٧. ثمَّ ذكرت في حواشي «حاضر العالم الإسلامي» رواية كون المولى آق شمس الدين كشف ضريح أبي أيوب، وأنَّ السلطان الفاتح بنى سنة ٨٦٣ جامعًا عند الضريح المذكور. وبعد طبع «حاضر العالم الإسلامي» اطّلعت على روايات لا أتذكر الآن مظنّها بالتحقيق تدّل على أنَّ قبر أبي أيوب كان معروفًا إلى القرن السادس للهجرة. وقد حدّث أحد التجّار المسلمين بأنه رأى بنيّة بيضاء في ذلك الموضع، فسأل عنها فقالوا له: هذا قبر أبي أيوب الأنصاري. فإن كان طمس القبر بعد ذلك حتّى اختفى أثره وانكشف للمولى آق شمس الدين فهذا لا يتعارض مع هذا.

ومنهم الشيخ عبد الرحيم المعروف بابن المصري، اتّصل بخدمة العارف بالله آق شمس الدين، وله كتاب اسمه «وحدة نامة». وهو من بلدة «قره حصار» ومات فيها. ومنهم الشيخ ابراهيم بن حسين السيواسي، قرأ العلوم على المولى يعقوب بقونية ثمَّ تولّى التدريس بمدرسة خوند خاتون بمدينة قيصرية، فلمّا اطّلع على أنَّ المدرسة للحنفيّة تركها لأنه كان شافعيّ المذهب، وكان متصوّفًا وتوفّي بقيصرية. ومنهم الشيخ حمزة المعروف

بالشامي. ومنهم الشيخ مصلح الدين بن العطار وكلاهما من جماعة آق شمس الدين. ومنهم العارف بالله أسعد الدين بن الشيخ آق شمس الدين وكان على قدم أبيه في الصلاح والانقطاع عن الدنيا، وكان من علماء عصره. وكذلك أخوه فضل الله، كان من العلماء والاتقياء. ومنهم أخوه أمر الله. ومنهم أخوه حمد الله المشهور بـ "حمدي شلبي" وكلّهم كانوا على قدم والدهم رحمه الله. ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير بـ "ابن الوفاء" وكان جامعًا بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة وكان يعرف الموسيقى معرفة تامّة، وكان يختار الخلوة على الصحبة. وقصد السلطان الفاتح أن يشاهده فلم يقبل أن يجتمع معه، وكذلك قصد ولده السلطان بايزيد فلم يرضَ هو أن يرى السلطان. وكان حنفيّ المذهب، إلاّ أنه كان يجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية، فأنكر عليه علماء الحنفية ذلك فأجاب عنه المولى سنان باشا قائلاً: لعلّه اجتهد فيحقّ له ذلك، فقاولوا هل يمكنه الاجتهاد؟ قال: نعم، شرائط الاجتهاد موجودة فيه، فسكتوا. ومنهم العارف بالله عبد الله حاجي خليفة، أصله من قسطموني وكان من العارفين، وله مناقب كثيرة، ومثله الشيخ سناد الدين الفروي، ومثله الشيخ مصلح الدين القوجوي، وهو من العارفين أيضًا. ومثله الشيخ مصلح الدين الأبصلاوي وكان أيضًا عارفًا منقطعًا عن الناس ومنهم الشيخ محيي الدين القوجوي وكان جامعًا بين الظاهر والباطن، معرضًا عن أبناء الزمان مشغولاً بتهذيب الفقراء. ومنهم العارف بالله سليمان خليفة، وكان من المنقطعين إلى الله، توطّن بالقسطنطينية قريبًا من جامع زيرك.

ومنهم الشيخ عبد الله الإلهي من أهل الأناضول، وذهب إلى ما وراء النهر واتّصل بخدمة عبيد الله السمرقندي وغيره، ثمَّ رجع إلى القسطنطينية وسكن في جامع زيرك، واجتمع عليه الأكابر والأعيان ففرّ منهم إلى بلاد الروملي، فأقام عند الأمير أحمد بك الأورنوسي وأقبل عليه الطلبة ومات هناك. ومنهم العارف بالله عبيد الله السمرقندي، ولد في طاشقند من تركستان، ويقول بعضهم إنَّ نسبه ينتهي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكان يقول: الوحدة خلاص القلب عن العلم بوجود ما سوى الله، ويقول: الاتّحاد الاستغراق في وجود الحقّ سبحانه وتعالى. ويقول: السعادة خلاص السالك عن نفسه في مشاهدة الله تعالى. ويقول الوصل نسيان العبد نفسه في شهود نور الحقّ، والفصل قطع السرّ عمّا سوى الله تعالى، توفّي سنة خمس وتسعين وثمانماية وقبره بسمرقند، ومن تلاميذه الشيخ عبد الرحمن ابن أحمد الجامي. وله تآليف كثيرة بالعربية، والفارسية. ومنهم

العارف بالله علاء الدين الخلوتي جاء إلى القسطنطينية فخاف منه السلطان الفاتح لكثرة إقبال الناس عليه فأمره بالذهاب إلى بلاد أخرى فتوفّي في بلاد القرامان. ومنهم العارف بالله دَدَه عمر الآيديني، وأقام في تبريز عند الأمير حسن الطويل. ومنهم الشيخ حبيب العمري القراماني، كان عمريًّا من جهة الأب، وبكريًّا من جهة الأمّ، وكان من بلاد القرامان، وكان من كبار المتصوّفة. ومنهم المولى مسعود وتوطّن بمدينة أدرنة واشتغل بتربية المريدين. ومنهم محمَّد الجمالي الشهير بـ "شلبي خليفة" وكان أيضًا من المتصوّفة ومنهم الشيخ سنان الدين، وكان من العارفين المنقطعين عن الناس، يسكن بالقرب من القسطنطينية. ومنهم السيِّد يحيى بن بهاء الدين الشرواني. وكان يقول: يجوز إكثار الخلفاء بتعليم الآداب للناس، وأمَّا المرشد الذي يقوم بمقام الإرشاد بعد شيخه فلا يكون إلاَّ واحدًا.

هذا، وبعد وفاة الفاتح رحمه الله بويع بالسلطنة لولده السلطان بايزيد سنة ستّ وثمانين وثمانمائة. وكان محمَّد باشا القراماني يميل إلى أخيه "جمّ" معجبًا بمزاياه العالية فأرسل إلى جمّ يعجّل عليه بالحضور، فعلم الانكشارية بذلك فثاروا بالوزير فقتلوه وكان بايزيد في أماسية، فجاء ومعه جيش فاقتتل الأخوَان بايزيد وجمّ في صحراء يني شهر، فتغلّب بايزيد على جمّ وفرّ هذا إلى مصر. ثمَّ إنَّ أنصار جمّ مثل قاسم بك ومحمود صنجق بك الأنقري دعوا جمّ ثانية إلى القتال، فجمع جموعه وتلاقى مع عساكر أخيه فانهزم هذه المرّة أيضًا، واضطرّ أن يلتجئ إلى فرسان مار يوحنّا في رودس فاستقبلوه برًّا وترحيبًا، فأرسل بايزيد إليهم يعرض عليهم خمسة وأربعين ألف دوكا في السنة بشرط أن لا يَدَعوا جمّ يفرَّ من عندهم، فاتّفقوا مع بايزيد على ذلك وأرسلوا جمّ إلى فرنسة واعتقلوه في برج "بورغانوف Bourganeuf" ثمَّ نقلوه إلى رومة في زمن البابا "اينوشنسيوس" الثامن، ولمّا ارتقى اسكندر بورجيا إلى كرسي البابوية بعث إلى السلطان بايزيد يعرض عليه هذه المساومة؛ وهو أنه إن أراد أن يقتل له أخاه فهو يتقاضى على ذلك ثلاثمائة ألف دوكا، وإن كان يكتفي بحبسه فهو يطلب على ذلك أربعين ألف دوكا في السنة. وفي أثناء ذلك زحف كارلوس الثامن ملك فرنسة على إيطالية. فتخلّص جمّ من البابا مدّة قصيرة، إلاَّ أنَّ ملوك النصرانية حاولوا أن يستعملوه لإثارة الفتنة في المملكة العثمانية، فاتّفق فرسان رودس مع ملوك "إيكوسية" و"المجر" و"بولونيا" و"فرنسة" و"المرديت" من الأرناؤوط وغيرهم على أن يزحفوا بجمّ ويقاتلوا السلطان بايزيد، فبلغ ذلك السلطان فأرسل إلى البابا المبلغ الذي اقترحه من المال لأجل قتل جمّ فسمّوه في نابولي في ٢٤ فبراير ١٤٩٥ ومات مسمومًا، وتخلّص بايزيد من أخيه.

وبعد موت أخيه حاول بايزيد أن يشنّ الغارة على إيطالية إلاَّ أنَّ الأحوال لم تساعده إذ كانت الحرب قد اشتعلت بينه وبين الدولة المصرية، فإنَّ المصريين كانوا قد احتلّوا بعض القلاع بقرب طرسوس وأَطَنَه فأمر السلطان بايزيد قره جوز باشا، والي القرامان، بأن يطردهم من هناك، ولكن المصريين تغلّبوا على جيش بايزيد واشتدّت الحرب بين الفريقين، وبينما الحرب قائمة بين السلطان بايزيد وسلطان مصر، مات ملك المجر "ماتياس كورفين" فاهتبل بايزيد هذه الغرّة وأغار على المجر من جهة، وحاصر بلغراد من جهة أخرى. وكان قائد عسكره في المجر سليمان باشا فهزمه المجر ورجع أدراجه، ورفع الترك الحصار عن بلغراد إلاَّ أنَّ السلطان دخل في بلاد الألمان مثل "كارنتيا" و"استيريا" وعاث وغنم وسبى، وكان معه من المسيحيين خمسة عشر ألف أسير يجرّهم الجيش العثماني من ورائه، فزحف الألمان بقيادة الكونت "كينتز" والتقى الجمعان في كارنتيا، فأفلت الأسرى المسيحيون من الوراء، ووقع العثمانيون في الوسط، فانكسروا. وفعل فيهم المسيحيون الأفاعيل وعذّبوا الأسرى بألوان العذاب، ولكن الأتراك في السنة التالية بقيادة يعقوب باشا عادوا فشنّوا الغارة على "استيريا" وهزموا الألمان.

وسنة ١٤٩٥ عقد الأتراك هدنة مع المجر ووجّهوا قوّتهم لقتال البندقية، وقهر الأسطول العثماني أسطول البندقية، واستولى على "ليپانت" وغزا اسكندر باشا، والي بوسنة، بلاد "طارنت" وخرّبها تخريبًا تامًّا، وكان أمير البحر داود باشا استولى على "مورون" و"ناڤارين" و"كورون" فوجدت البندقية نفسها عاجزة وحدها عن مقاومة العثمانيين، فاتّفقت مع دول النصرانية فرانسة وإسبانية والمجر والبابا على مقاتلة السلطان بايزيد، وبثّوا أساطيلهم من كلّ جهة. وفي أثناء ذلك ثارت قبائل القرامان على السلطان فألجأته الضرورة إلى عقد الصلح.

وفي ذلك العهد ظهر اسم "الروس" وكانوا من قبل تحت حكم المغول ـ أي التتر ـ ولبثوا تحت حكمهم إلى سنة ١٤٨١ حينما ظهر منهم "الغراندوق إيڤان الثالث" فهزم التتر ووحّد كلمة الروس. وفي سنة ١٤٩٢ طلب إيفان الثالث محالفة السلطان بايزيد، وجاء سفراؤه بعد ذلك إلى استانبول، وانعقد الاتّفاق بين بايزيد وإيڤان واضطرّ السلطان إلى السلم لأنه كان حصل زلزال خارق للعادة انهدم فيه سبعون ألف بيت، ومائة وتسعة جوامع في القسطنطينية، وخرّبت مدن كثيرة مثل أدرنة وغاليبولي، وديموطيقة، وشورلو.

وكان بايزيد قد قسّم ولايات السلطنة بين أولاده، فأعطى كلاً منهم ولاية وأخطأ في هذا التدبير لأنهم بدأوا يقتتلون بعضهم مع بعض في حياة أبيهم. بل ثار به ابنه سليم واستولى على بعض المدن، فقام أخوه «قورقود» واستولى على مدن أخرى وكان الانكشارية يميلون إلى سليم، فطلبوا من السلطان أن يعتزل الملك وأن يولّي السلطان سليمًا فلم يجد بُدًّا من إجابتهم، ومات بعد ذلك بقليل. ويقال إنَّه كان حليمًا محبًّا للعلم والعلماء، وللشعر والأدب، وإنَّه لم يكن يحبّ الحرب بفطرته، وإنَّما كان يُساق إليها بالضرورة. وقام بإصلاحات كثيرة، وفي زمانه وجدت العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية والدول المسيحية، وفي زمانه نبغ من العلماء المولى محيي الدين محمَّد ابن ابراهيم البلكساري، وكان مدرّسًا في قسطموني، ثمَّ جاء إلى القسطنطينية، وكان السلطان يحضّر درسه في جامع آيا صوفيا، وكان بارعًا في علم التفسير وصنّف تفسيرًا لسورة الدخان وأهداه للسلطان بايزيد. ومنهم يوسف بن جنيد الطوقاني، أخذ عن المولى خسرو، وتولّى التدريس في بورسة ثمَّ في القسطنطينية.

ومنهم المولى قاسم بن يعقوب الأماسي المشهور بـ «الخطيب» كان مدرّسًا ببلدة أماسية واتّصل بالسلطان بايزيد يوم كان أميرًا على تلك البلدة، فلمّا تولّى السلطنة جعله معلّمًا لابنه الأمير أحمد. ومنهم سنان الدين يوسف، اتّصل بخدمة المولى علي القوشجي وقضى حياته في التدريس والإفادة. ومنهم سنان الشاعر، أخذ العلم عن المولى خسرو ومنهم المولى شجاع الدين الياس، وكان من المدرّسين المعروفين. ومنهم شجاع الدين الياس الشهير بـ «أوصلو شجاع» ومنهم المولى علاء الدين اليكاني، وكان مفتيًا بمدينة بورسة. ومنهم لطف الله الطوقاتي، أخذ عن المولى علي القوشجي، وكان بارعًا في العلوم الرياضية، وصار أمينًا على خزانة الكتب عند السلطان الفاتح، وكان عالِمًا علاّمة، إلاَّ أنه كان يطيل لسانه على أقرانه، وأحيانًا يطعن على السلف فأبغضه العلماء ونسبوه إلى الزندقة، وحكم المولى خطيب زاده بإباحة دمه فقُتِل!! وجاء في تاريخه (ولقد متّ شهيدًا) وقيل إنَّه لمّا قُتل خرجت روحه وهو يكرّر كلمتَي الشهادة، وجاء في «الشقائق النعمانية»: أنه كان يُقرىء صحيح البخاري فتنزل دموعه على الكتاب. وحكى يومًا وهو يبكي أنَّ عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه ضُرب في بعض الغزوات بسهم فثبت نصل السهم في بدنه فلم يقدروا على إخراجه، فلمّا قام للصلاة أخرجوه من بدنه ولم يحسّ بذلك. قال المولى لطفي: هذه حقيقة الصلاة، وأمَّا صلاتنا نحن فهي قيام وانحناء لا فائدة فيها، فجاء الوشاة ونقلوا عنه أنه

قال: الصلاة قيام وانحناء لا عبرة بها، وشهدوا عليه بذلك. وأمّا المولى أفضل الدين فتوقّف عن إباحة دمه وكذلك المولى محيي الدين القوجوي قال: أشهد بأنَّ المولى لطفي بريء من الإلحاد والزندقة.

ومنهم المولى قاسم الكرمياني، وكان علاّمة في عصره وكثر عنده الطلبة، وكان مجلسه كثير الفوائد. ومنهم المولى قوام الدين قاسم بن أحمد الجمالي، تولّى قضاء القسطنطينية، وكان عالِمًا كثير الحفظ إلاَّ أنه لم يصنّف شيئًا. ومنهم المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي وقضى حياته مدرّسًا ينتقل من مدرسة إلى مدرسة، ثمَّ صار مفتيًا في العاصمة، وكان متواضعًا خاشعًا طاهر اللسان لا يذكر أحدًا بسوء، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه، وكان يقعد في أعلى داره وله زنبيل معلّق فيلقي المستفتي ورقته في الزنبيل ويحرّكه فيجذبه المولى علاء الدين ويأخذ الورقة ويكتب جوابها، وذلك حتّى لا ينتظر الناس لأجل الفتوى. وكان السلطان سليم ابن بايزيد قد تولّى السلطنة، وكان سفّاكًا للدماء فأمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن، فجاء المولى علاء الدين إلى الديوان العالي وقال للوزراء: أريد أن أقابل السلطان، فعرضوا الأمر للسلطان، فدخل عليه وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد بلغني أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً لا يجوز قتلهم شرعًا فيجب أن تعفو عنهم. فغضب السلطان سليم وقال له: إنَّك تتعرّض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فأجابه المفتي: بل أتعرّض لأمر آخرتك وإنَّه من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلاَّ فعليك عقاب عظيم. فانكسرت عند هذا القول حدّة السلطان وعفا عنهم، وتحدّث مع المفتي ساعة ولمّا أراد المفتي أن ينصرف قال للسلطان: تكلّمت معك في أمر آخرتك، وبقي لي كلام متعلّق بالمروءة قال السلطان: ما هو؟ قال المفتي: إنَّ هؤلاء من عبيد السلطان، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكفّفوا الناس؟ قال السلطان لا. قال فقرّرهم في مناصبهم، فقال له السلطان: نعم، إلاَّ أني أعزّهم في تقصيرهم في خدمتهم، فقال المفتي: هذا جائز لأنَّ التعزيز مفوّض إلى رأي السلطان. ومرّة أخرى أمر السلطان بقتل أربعمائة رجل كانوا قد اشتروا الحرير خلافًا لأمر السلطان، فعارضه المفتي في ذلك. فغضب السلطان أيضًا وقال له: أيها المولى أما يحلّ قتل ثلثَي العالم لنظام الباقي؟ فقال: نعم، لكن إذا كان هناك خلل عظيم. فقال السلطان: ليست هذه من وظيفتك. فقال له: بلى هي من وظيفتي لأنها متعلّقة بالآخرة. وانصرف المفتي ولم يسلّم على السلطان فبقي السلطان واجمًا مدّة طويلة، ولكنّه عاد فعفا

إجابة لطلب المفتي. ثمَّ فكّر في استقامة هذا المفتي وولاّه قضاء العسكر وقال له: إنّي تحققت أنك تتكلّم بالحقّ، وتوفّي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة.

ومنهم المولى عبد الرحمن بن علي بن المؤيّد الأماسي. كان متبحرًا إلى الغاية في العلوم العقلية والنقليّة، شيخًا في العلوم العربية، ناظمًا بالتركية والعربية والفارسية. وقرأ في حلب كتاب «المفصّل في النحو للزمخشري» وقرأ على المولى جلال الدين الدواني في بلاد العجم، وجاء إلى استانبول في أيام بايزيد خان ودرّس في إحدى المدارس الثمان ثمَّ استقضاه السلطان بالعسكر المنصور. ولمّا تولّى السلطنة السلطان سليم بن بايزيد وسار إلى حرب الشاه اسماعيل كان المولى المذكور معه، وفي أثناء الطريق اختلّ عقله فجاءوا به إلى استانبول حيث مات، ودُفن بجوار أبي أيوب الأنصاري. ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن البركي زادة، نصّبه السلطان بايزيد معلّمًا لابنه أحمد في أماسية ثمَّ استقضاه في أدرنة، ومات في القسطنطينية. ومنهم المولى محيي الدين محمَّد الصامصوني، قضى حياته مدرّسًا واستقضاه السلطان سليم في أدرنة. ومنهم المولى سيِّدي الحميدي قضى حياته مدرّسًا بين بورسة، وإزنيق، والقسطنطينية، ثمَّ صار قاضيًا في العاصمة. ومنهم المولى سيِّدي القراماني، وكان مدرّسًا ثمَّ صار قاضيًا بالعسكر المنصور. ومنهم المولى نور الدين القراصوي كان مدرّسًا في بورسة، ثمَّ صار مدرّسًا في أسكوب، ثمَّ صار مدرّسًا في إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية، وصار قاضيًا بالعسكر المنصور، وكان قوّالاً بالحقّ، محافظًا على الشريعة، ورعًا متعبّدًا. ومنهم المولى محيي الدين محمَّد القوجوي، وقضى حياته مدرّسًا إلى أن استقضاه السلطان سليم في القسطنطينية، ثمَّ استقضاه بالعسكر المنصور، ثمَّ جعلوه قاضيًا بمصر وذهب من هناك إلى الحجّ ومات سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة. ومنهم المولى بالي الآيديني وكان من كبار المدرّسين. ومنهم المولى عبد الرحيم بن علاء الدين العربي وكان من عظام المدرّسين أيضًا. ومنهم المولى موسى بن حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني، وكان عالِمًا عابدًا. ومنهم المولى محيي الدين العجمي وكان قاضيًا بأدرنة متصلّبًا في الحقّ. ومنهم المولى سنان الدين يوسف العجمي وكان من كبار المدرّسين، ومن الصلحاء، ومن المؤلّفين وله حواشٍ على شرح المواقف للسيِّد الشريف ـ وقلّما يوجد عالِم كبير من علماء الترك ليس له حواشي على كتب السيِّد الشريف الجرجاني، أو على كتب التفتازاني ـ ومنهم المولى السيِّد ابراهيم من سادات العجم، جاء إلى بلاد الروم وكان معدودًا من أولياء الله، وكانت تُروى عنه الكرامات، وتوفّي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة في القسطنطينية.

ومنهم المولى علاء الدين علي الأماسي وكان مدرّسًا أرسله السلطان بايزيد إلى قايتباي سلطان مصر فأصلح بينهما، ومنهم المولى بدر الدين محمود بن الشيخ محمَّد، كان إمامًا للسلطان بايزيد. ومنهم المولى الخليلي كان مدرّسًا ثمَّ استقضى بالعسكر المنصور. ومنهم پير محمَّد الجمالي كان قاضيًا في صوفية بلاد البلغار، ثمَّ صار حافظًا للدفتر بالديوان العالي، ثمَّ استوزره السلطان سليم خان ولقّبه پير باشا، ثمَّ عزل عن الوزارة وكان محمود السيرة، كثير المبرّات، توفّي في حدود الأربعين وتسعمائة. وكان السلطان سليم يقول: إن كان اسكندر يفتخر بوزيره أرسطو فأنا أفتخر بوزيري پير باشا في عقله ورأيه.

ومنهم المولى محمَّد المشهور بـ "ابن زيرك" بعد أن قضى مدّة من عمره مدرّسًا بين بورسة، وإزنيق، وكوتاهية؛ تولّى القضاء في أدرنة، ثمَّ بالقسطنطينية، ثمَّ بالعسكر المنصور وأرسله السلطان سليم إلى السلطان الغوري، صاحب مصر، ومات سنة تسع وثلاثين وتسعمائة. ومنهم قوام الدين يوسف المعروف بـ "قاضي بغداد" كان قاضيًا في بغداد فلمّا حدثت فتنة لبن أردبيل ارتحل إلى ماردين، ثمَّ جاء إلى القسطنطينية، وكان عالمًا علاّمة له شرح على "نهج البلاغة" للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. ومنهم المولى إدريس بن حسام الدين البدليسي كان من بلاد العجم ارتحل إلى بلاد الروم وأكرمه السلطان بايزيد غاية الإكرام، وأنشأ تاريخ آل عثمان بالفارسية ويقال إنَّه تاريخ منقطع النظير. انتقل إلى رحمة ربّه في زمان السلطان سليمان القانوني. ومنهم المولى يعقوب بن سيِّدي علي كان من كبار المدرّسين، له شرح على كتاب "شرعة الإسلام" وكان السلطان بايزيد يلقّبه بشارح الشرعة لميله إلى الشرح المذكور. ومنهم المولى نور الدين حمزة كان حافظًا لدفتر بيت المال بالديوان العالي في زمان السلطان بايزيد.

ومنهم شجاع الدين الياس الرومي كان من قصبة ديموطقه في الروم‌للي، وكان من كبار المدرّسين معروفًا بالعلم والصلاح والزهد، وله حواشٍ على حاشية شرح التجريد للسيِّد الجرجاني، وحواشي على حاشية المطالب للسيِّد أيضًا، وحواشٍ على حاشية شرح الشمسية للسيِّد أيضًا، وحواشٍ على حاشية شرح العضد كذلك السيِّد، وكان أكثر اشتغاله بالعلوم العقلية. ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير بـ "ابن الأستاذ" وكان من المدرّسين في زمان السلطان بايزيد. ومنهم ابن المعيد كان مدرّسًا في أسكوب ومات فيها. ومنهم ابن العبري وكان من المدرّسين. ومنهم شمس الدين أحمد اليكاني وكان من المدرّسي أيضًا. ومنهم عبد الرحمن بن محمَّد بن عمر الحلبي كان من أصحاب السلطان محمَّد الفاتح، ونال

عنده القبول التامّ، ثمَّ صدر منه ما غاظ السلطان فأبعده عن جنابه وقال: لولا أنه ابن أستاذي لدمَّرته. ومات قاضيًا في كوتاهية. ومنهم المولى عبد الوهاب بن عبد الكريم، كان حافظًا لدفتر الديوان في أيام سليم خان، وتوفّي في زمان السلطان سليمان. ومنهم المولى يوسف الحميدي المشهور بـ «شيخ سنان» كان من العلماء المدرّسين، وله حواشٍ على شرح المفتاح للسيِّد الشريف. ومنهم المولى جعفر بن الناجي وكان من أصحاب السلطان بايزيد وبلغ عنده حظوة تامّة، ثمَّ غضب عليه وبقي إلى السلطان سليم فجعله قاضيًا للعسكر، ثمَّ نكبه وقتله.

ومنهم المولى سعدي بن ناجي ودرّس مدّة طويلة، وكان متقنًا للعربية يقرض الشعر كأنه من فُصَحَاء العرب، وله حواشٍ على شرح المفتاح للسيِّد الشريف، وقد نظم العقائد النفيسة بالعربية نظمًا بليغًا.

ومنهم المولى محمود بن محمَّد بن قاضي زادة الرومي، درس في غاليبولي، وفي أدرنة ثمَّ جعله السلطان بايزيد من أصحابه، وقرأ عليه العلوم الرياضية إذ كان لا يدانيه فيها أحد، وفي زمان السلطان سليم بن بايزيد تولّى قضاء عسكر الأناضول.

ومنهم المولى غيّاث الدين بن أخي العارف بالله آق شمس الدين، قرأ على الخيالي وعلى خواجة زادة، ودرّس بالمدرسة السيفيّة في أنقرة، ثمَّ بالمدرسة الحسينية في أماسية، ثمَّ بالمدرسة الحلبية بأدرنة، ثمَّ بسلطانيّة بورسة، ثمَّ بإحدى المدارس الثمان في قسطنطينية، ثمَّ في مدرسة أبي أيوب الأنصاري، ومات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة. ومنهم الشيخ مظفّر الدين علي الشيرازي، قرأ في بلاد العجم على صدر الدين الشيرازي، والجلال الدواني، وارتحل إلى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة مصطفى باشا بالقسطنطينية، ثمَّ أعطاه إحدى المدارس الثمان، ثمَّ كُفَّ بصره فتوطّن مدينة بورسة. وكان شافعيّ المذهب، وكانت له اليد الطولى في العلوم العقلية والمنطق وعلم الكلام، وكذلك في الحساب والهيئة والهندسة، وكان مع هذا صالحًا مؤثرًا الفقر، باذلاً ماله للفقراء. ومنهم الحكيم شاه محمَّد القزويني كان من تلاميذ الجلال الدواني ومهَر في علم الطبّ، وجاور مدّة في مكّة المكرّمة، واستدعاه السلطان بايزيد إلى استانبول ونال حظوة تامّة عند ولده السلطان سليم، ومات في أيام السلطان سليمان القانوني لأنَّ صاحب «الشقائق النعمانية» يقول: «ومات في أيام سلطاننا الأعظم سلّمه الله تعالى وأبقاه» يريد به السلطان سليمان. وله حواشٍ على شرح العقائد العضدية للدواني، وترجمة حياة الحيوان إلى الفارسية، وغير ذلك من التواليف

ومنهم المولى السيِّد محمود، كان نقيبًا للأشراف في زمان السلطان بايزيد، وكان كريم الأخلاق، طارحًا للتكلّف، مشتغلاً بنفسه، جوّادً بماله. ومنهم المولى محيي الدين المشتهر بـ«طبل البازي» وكان مدرِّسًا مشهورًا. ومنهم المولى ابراهيم المشهور بـ«ابن الخطيب» مات وهو مدرّس في بورسة. ومنهم المولى يحيى بن بخشي، كان عالِمًا واعظًا، وكان يُقرئ الطلبة تفسير القاضي البيضاوي بلا مطالعة، وله حواشٍ على شرح الوقاية لصدر الشريعة. ومنهم كمال الدين اسماعيل القراماني، وكان من المدرّسين الكبار، وله تصانيف منها حواشٍ على الكشّاف، وحواشٍ على تفسير البيضاوي، وحواشٍ على شرح الوقاية لصدر الشريعة، وحواشٍ على شرح المواقف للسيِّد الجرجاني. ومنهم المولى عبد الأول بن حسين الشهير بـ«ابن أمّ الولد» قرأ على المولى خسرو الشهير، وتزوّج بابنته، وكان قاضيًا في البلدان الكبيرة، ثمَّ اعتقل[1] لسانه فلزم بيته في القسطنطينية، ومات عن مائة سنة. ومنهم المولى شمس الدين أحمد الأماسي كان مدرّسًا وتوفّي في أوائل سلطنة سليم خان. ومنهم علاء الدين الآيديني الملقَّب بـ«اليتيم» وكان مدرّسًا زاهدًا، أرادوه على القضاء فلم يرضَ، وكان يقرأ عشرين درسًا في اليوم ولا يأخذ أجرةً من أحد، وربّما قبل الهديّة، وكان راضيًا من العيش بالقليل، ومات عن تسعين سنة.

ومنهم المولى الشيخي، كان مدرِّسًا بمدرسة أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) وأخذ عنه كثيرون. ومنهم المولى المعروف بـ«ضميري» أعطاه السلطان بايزيد إحدى المدارس الثمان، فقال له المولى ابن المؤيّد: إنَّه غير قادر على التدريس فيها، فقال السلطان بايزيد: فليدرّس الشرح المتوسِّط للكافية لعلّه يقدر على ذلك. ومنهم عمر القسطموني كان علاّمة بالقراآت. ومنهم علاء الدين علي القسطموني أخذ عن المولى عمر القراآت، وأقرأها الطلاّب، ومنهم ابن عمر زادة وكان أيضًا يعرف القراآت السبع وأقرأها للناس. ومنهم حسام المشهور بـ«ابن الدلاّك» كان خطيبًا بجامع الفاتح في القسطنطينية، وكان عالِمًا صالحًا. ومنهم محيي الدين الطبيب، جعله السلطان رئيسًا للأطبّاء وأكرمه غاية الإكرام، وكان عالِمًا عابدًا يحبّ المساكين، وبعد موته جعل السلطان بايزيد مكانه الحكيم حاجي، وكان السلطان يحبّ علاج الحكيم المذكور.

ومنهم محيي الدين محمَّد الأسكليبي، وكان من رجال التصوّف. وكان السلطان

---

(1) اعتقل: انعقد. [المحقّق]

بايزيد أميرًا على أماسية، فذهب هذا الشيخ إلى الحجّ ولمّا ودَّع السلطان بايزيد قال له: سأراك بعد إيابي من الحجاز جالسًا على سرير السلطنة، فلمّا رجع من الحجّ كان الأمر كما قال. فأحبّه السلطان حبًّا جمًّا وبنى له زاوية في القسطنطينية، وكانت تزدحم في بابه الوزراء وقضاة العساكر، وكان يدعوه السلطان إلى مصاحبته فحصل له جاه عظيم، لكنّه لم يتغيّر طوره، وبقي ملازمًا الزهد والتقوى. ومنهم الشيخ مصطفى اليروزي، كان من خلفاء الشيخ الأسكليبي، وكان عالِمًا عابدًا. ومنهم العارف بالله السيِّد «ولاية» من قصبة كرمستي في الأناضول وكان شريفًا صحيح النسب، حجَّ ثلاث مرّات وكان في غاية الورع. ويقال إنَّ السلطان سليم عندما طلب السلطنة في أيام والده بايزيد وسلّمه والده السلطنة، التجأ إلى المشايخ الصوفيّة، ومنهم السيِّد ولاية المذكور. فقال له السيِّد: ستصير سلطانًا ولكن ليس في عمرك امتداد. وهكذا كان لأنَّ السلطان سليم لم يبقَ في السلطنة أكثر من ثماني سنوات. ومنهم الشيخ محيي الدين محمَّد الشهير بـ «بولولي شلبي» كان مدرِّسًا، ثمَّ تصوّف وصار مرشدًا ومنهم شجاع الدين الشهير بـ «نيازي» وهو أيضًا كان قاضيًا ثمَّ تصوَّف وترك الدنيا. ومنهم صفيّ الدين مصطفى، وكان من الزهّاد المرشدين. ومنهم الشيخ رستم خليفة البروسي كان ينتسب إلى الشيخ حاجي خليفة، وكان عابدًا متوكِّلاً. ومنهم العارف بالله ابن علي دَدَة خليفة العارف بالله ابن الوفاء، وكان شيخًا عابدًا زاهدًا. ومنهم علاء الدين الأسود، أخذ عن حاجي خليفة، وكان متوجِّهًا إلى الله بكلّيته.

ومنهم السيِّد علي بن ميمون المغربي الأندلسي، جاء في «الشقائق النعمانية» أنه أخذ عن ابن عَرَفة وعن الشيخ الدبّاسي، وجاء إلى الشرق لأجل الحجّ، ودخل مصر ثمَّ الشام، ثمَّ جاء إلى بورسة، ثمَّ رجع إلى البلاد الشامية وتوفّي بها سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان على جانب عظيم من التقوى، قوّالاً بالحقّ، وكان لا يخالف السنّة. فلا يقوم للزائرين، وكان يقول: لو أتاني بايزيد بن عثمان لا أعامله إلاَّ بالسنّة. وكان لا يقبل الوظائف ولا هدايا الملوك. وجاء في «شذرات الذهب» لعبد الحيّ ابن العماد الحنبلي ترجمة العارف بالله سيِّدي علي بن ميمون فقال: إنَّه ابن ميمون بن أبي بكر بن علي بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف بن اسماعيل بن أبي بكر بن عطاء الله ابن حسّون بن سليمان بن يحيى بن نصر الهاشمي القرشي المغربي الغماريّ أصله من «جبل غمارة» وسكن مدينة فاس، واشتغل بالعلم ثمَّ درّس ثمَّ وُلّى القضاء. ثمَّ ترك ذلك ولازم الغزو على السواحل، وكان رأس العسكر، ثمَّ ترك ذلك أيضًا وصحب مشايخ الصوفيّة منهم الشيخ عرفة القيرواني فأرسله إلى أبي

العبّاس أحمد التوزي الدباسي ومن عنده توجّه إلى المشرق. قال الشيخ موسى الكناوي: فدخل بيروت في أول القرن العاشر، وكان اجتماع سيِّدي محمَّد بن عراق به أولاً هناك.

ولمّا دخل بيروت استمرّ ثلاثة أيام لم يأكل شيئًا، فاتّفق أنَّ ابن عراق قال لجماعته وقد أتوا بالطعام: ادعوا ذلك الفقير، فقام السيِّد علي وأكل ثمَّ قال ابن عراق قوموا بنا نزور الإمام الأوزاعي، فصحبهم ابن ميمون ففي أثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان، فعاب عليه ابن ميمون. فقال له ابن عراق: أتحسن اللعب على الخيل أكثر منّي؟ قال: نعم، فنزل ابن عراق عن فرسه فحلّ ابن ميمون الحزام وشكَّهُ كما يعرف، وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره في ذلك، ثمَّ انفتح الأمر بينهما إلى أن شهر الله تعالى سيِّدي علي بن ميمون. وقال في «الشقائق»: إنَّه دخل القاهرة وحجّ منها، ثمَّ دخل البلاد الشامية وربّى كثيرًا من الناس، إلى آخر ما نقل عن صاحب الشقائق. وقال ابن العماد الحنبلي: إنَّه كان من طريقته ما حكاه محمَّد بن عراق في كتابه «السفينة» وهو أنه لا يرى لبس الخرقة ولا إلباسها وذكر الشيخ علوان أنه كان لا يرى الخلوة ولا يقول بها. ومن وصاياه: اجعل تسعة أعشارك صمتًا، وعُشرك كلامًا. وكان يقول: الشيطان له وحي وفيض، فلا تغترّوا بما يجري في نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام في التوحيد والحقائق حتّى تشهدوه من قلوبكم. وكان ينهي أصحابه عن الدخول بين العوام والحكّام. ويقول: ما رأيت لهم مثلاً إلاَّ الفأر والحيّات، فإنَّ كلاًّ منهما مفسد في الأرض، وكان شديد الإنكار على علماء عصره، ومن كلامه: لا ينفع الدار إلاَّ ما فيها. ومنه: لا تشتغل بأن تعدّ أموال التجّار وأنت مفلس. ومنه: أسلك ما سلكوا تدرك ما أدركوا. ومنه: عجبت لمَن وقع عليه نظر المفلح كيف لا يفلح. ومنه: كنزك تحت جدارك، وأنت تطلبه من عند جارك. وله من المؤلَّفات شرح الجرومية على طريقة الصوفيّة، وكتاب غربة الإسلام في مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والأعجام، ورسالة لطيفة سمّاها «تنزيه الصدّيق عن وصف الزنديق» ترجم فيها الشيخ محيي الدين بن العربي ترجمة في غاية الحسن والتعظيم.

وذكر ابن طولون أنه دخل دمشق في أواخرسنة اثنتَي عشرة وتسعمائة، ونزل بحارة السكّة بالصالحيّة، وهرع الناس إليه للتبرّك به. وقال محمَّد بن عراق في «سفينته» إنَّه لم يشتهر في بلاد العرب بالعلم والمشيخة والإرشاد إلاَّ بعد رجوعه من الروم إلى حماة سنة إحدى عشرة، ثمَّ قدم إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وتسعمائة، وأقام في قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا يربّي ويرشد، ويدعو إلى الله على بصيرة، واجتمع

عليه الجمّ الغفير، ثمَّ دخل عليه قبْض (١) وهو بصالحيّة دمشق واستمرّ ملازمًا له حتّى ترك مجلس التأديب، وأخذ يستفسر عن الأماكن التي في بطون الأودية ورؤوس الجبال، فذكر له محمَّد بن عراق «مجدل معوش» فهاجر إليها في ثاني عشر محرَّم هذه السنة. قال سيِّدي محمَّد بن عراق: ولم يصحب غيري والولد علي ـ وكان سنّه عشر سنين ـ وشخصًا آخر عملاً بالسنّة. وأقمت معه خمسة أشهر وتسعة عشر يومًا، وتوفّي ليلة الاثنين حادي عشر جمادى الآخرة ودفن بها في أرض موات بشاهق جبل حسبما أوصى به قال: ودفن خارج حضرته المشرفة رجلان وصبيّان، وامرأتان، وأيضًا امرأتان وبنتان، الرجلان محمَّد المكناسي، وعمر الأندلسي، والصبيّان ولدي عبد الله ـ وكان عمره ثلاث سنين ـ وموسى بن عبد الله التركماني. والمرأتان أمّ ابراهيم وبنتها عائشة، زوجة الذعري، والأخريتان؛ مريم القدسيّة، وفاطمة الحمويّة. وسألته عن وفاته أين أجعل دار هجرتي؟ فقال: مكان يسلم فيه دينُك ودنياك ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿ الذين تتوفّاهم الملائكة ﴾ الآية.

قلت: قرية «مجدل معوش» هي في قضاء الشوف من بلادنا في جبل لبنان وكان أهلها مسلمين من أهل السنّة، ووقعت بينهم عداوة شديدة فخرجوا منها، واشتراها النصارى وذلك منذ مائتَي سنة. ولمّا دخلها السيِّد علي بن ميمون المغربي كانت لا تزال قرية إسلامية، وبقي قبر السيِّد من ذلك الوقت معروفًا لا يجهله أهل القرية وجاءنا مرّة الخبر بأنَّ بعض النصارى أرادوا استعمال ذلك القبر للدفن وكان في ذلك الوقت عمّنا الأمير مصطفى أرسلان، قائمقام قضاء الشوف، فأخبرته بالخبر فأمر مدير ناحية العرقوب الشمالي التي منه تلك القرية بأن يتحقّق هذا الأمر ويمنع تعرّض أحد للقبر، ثمَّ جمعنا إعانة مالية وأدّى كلّ منّا ما قدر عليه، فبلغ المجموع مائة جنيه ذهب وجدّدنا القبر المذكور لأنه كان قد خرّب تقريبًا، فخشينا بسبب خرابه أن يستعمله النصارى لدفن موتاهم.

وبلغ المرحوم الأمير علي بن الأمير عبد القادر الجزائري شروعنا ببناء هذا القبر فأراد أن يكون له حصّة في المثوبة، فأرسل أيضًا شيئًا من المال وهكذا جدَّدنا قبر الولي المشار إليه قدَّس الله سرّه بعد نحو من أربعمائة سنة من وفاته وكان هذا العاجز (٢) السبب في ذلك وأخمّن أنَّ هذه القضيّة مضى عليها سبع وثلاثون سنة، وقد أطلتُ في ترجمة السيِّد علي بن

(١) القبْض أو القبَض: مرضٌ يصيب الكبد من أكل التمر على الريق وشرب الماء عليه. [المحقّق]
(٢) الكاتب نفسه، الأمير شكيب أرسلان. [المحقّق]

ميمون لكونه من أقمار أهل المغرب التي طلعت على المشرق، ولكوني قمت له بخدمة قبره بعد دفنه بأربعة قرون، والله على ذلك شهيد.

ثمَّ نعود إلى ذكر العلماء الذين اشتهروا في زمان السلطان بايزيد، فمنهم العارف بالله الشيخ علوان الحميدي، اتّصل بخدمة السيِّد علي بن ميمون وكان بحرًا من بحار الحقيقة، وكان شافعيّ المذهب، توفّي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة. ومنهم الشيخ محمَّد الشهير بـ«ابن عراق» كان من أولاد الأمراء الشراكسة، وكان من طائفة الجند، وكان صاحب ثروة وحشمة وافرة، فترك كلّ هذا واتّصل بخدمة السيِّد على ابن ميمون، واشتغل عنده بالرياضة، وكان عالِمًا زاهدًا. وجاور مدّة بعد وفاة ابن ميمون بالمدينة المنوّرة، ومات ودُفن فيها. وأتذكّر أنه يوجد في بيروت زاوية منسوبة إلى ابن عراق. ومنهم «ابن صوفي» واسمه عبد الرحمن كان عالِمًا مدرِّسًا ثمَّ اتَّصل بالسيِّد علي بن ميمون وصار من تلاميذه، ولمّا ذهب السيِّد إلى الشام بعد أن سكن مدّة في بورسة نصّبه خليفة له في بلاد الروم. ومنهم المولى اسماعيل الشرواني قرأ على جلال الدين الدواني، وخدم العلم طول حياته، وتوطّن أخيرًا في مكّة المكرّمة ومات فيها. ومنهم الشيخ بابا نعمة الله، وكان من السادة الصوفيّة، سكن بقصبة آق شهر وتوفّي بها. ومنهم الشيخ محمَّد البدخشي[1] كان زاهدًا متجرِّدًا من علائق الدنيا، ثمَّ ذهب إلى دمشق وسكن بها، ولمّا دخل السلطان سليم دمشق زار هذا الشيخ مرّتين: ففي المرّة الأولى جلسا صامتين، وسئل السلطان سليم عن ذلك فقال: فتحُ الكلام ينبغي أن يكون من العالي، ولا علوّ لي عليه وقد تأدّب الشيخ هو أيضًا واختار الصمت تنزُّلاً منه. وأمّا في الزيارة الثانية فقال الشيخ البدخشي للسلطان: كلانا عبد الله تعالى، وإنّما الفرق هو أنَّ ظهرك ثقيل من أعباء الناس، وظهري أنا خفيف، فاجتهد أن لا تضيّع أمتعتهم. ومات البدخشي بدمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة. ومنهم السيِّد أحمد البخاري الحسيني، جاء من بخارى إلى بلاد الروم، وصحب الشيخ الألهي، وكان من أشدّ الناس ورعًا، وتعلَّق به الناس كثيرًا وتركوا المناصب، واختاروا خدمته، فبنى مسجدًا وحجرات حوّله للطالبين وذلك في القسطنطينية، وكان مجسله في غاية الوقار، تجلس فيه الناس كأنَّ على رؤوسهم الطير، ولا تجري في مجلسه كلمات دنيوية أصلاً، وكانت طريقته العمل بالعزيمة وترك البدعة، واتّباع السنّة، وإقامة الصلاة، والانقطاع عن الناس، والمداومة

---

(1) نسبةً إلى بدخشان وهي منطقة جبلية شرق أفغنستان. [المحقق]

على الذكر الخفيّ، والعزلة عن الأنام، وقلّة الكلام والطعام، وإحياء الليالي وصوم الأيام. مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة.

ومنهم الشيخ مصلح الدين الطويل، أصله من كرة النحاس من ولاية قسطموني كان من المشتغلين بالعلم، ثمَّ التحق بالشيخ الأهلي واشتغل بالتصوّف. ومنهم عابد شلبي من ذرّية مولانا جلال الدين الرومي[1]، كان قاضيًا ثمَّ ترك القضاء واتّصل بالشيخ الألهي وبنى مسجدًا في القسطنطينية، وحوّله حجرات للفقراء. ومنهم الشيخ لطف الله الأسكوبي. وهو ممَّن اتّصل أيضًا بالشيخ الألهي، وكان في الآخر زاهدًا ناسكًا ساكنًا على جبل من جبال أسكوب، منقطعًا عن الدنيا. ومنهم بدر الدين بابا وكان أيضًا من جماعة الشيخ الألهي، ثمَّ منهم علاء الدين خليفة، وكان أولاً من طائفة الجند ثمَّ اقتدى بالشيخ علاء الدين أبدال ورووا عنه الكرامات وبنى زاوية بالقسطنطينية، ومن هذا النمط الشيخ سليمان خليفة وبنى زاوية أيضًا. ومنهم الشيخ سونديك الشهير بـ"قورجي ددة" ومنهم العارف بالله ابن الإمام من السادة الصوفيّة من أهل آيدين. ومنهم الشيخ صلاح الدين الأزنيقي كان من مريدي شيخي خليفة ومنهم الشيخ بايزيد خليفة، وكان عالمًا متصوِّفًا سكن بمدينة أدرنة. ومنهم الشيخ سنان الدين يوسف المعروف بـ"سنبل سنان" وكان مرشدًا مربِّيًا، وعلى جانب من العلم. ومنهم الشيخ جمال الدين القراماني المعروف بـ"جمال خليفة" جاء من بلاد قرامان إلى القسطنطينية وكان مربِّيًا مرشدًا، وتاب على يده كثيرون.

وقال صاحب "الشقائق النعمانية": إنَّه عاده في مرض موته وطلب منه الوصيّة فقال له: لا تسلك مسالك الصوفيّة، إذ لم يبقَ لها اليوم أهل. وقال: التوحيد والإلحاد يصعب التمييز بينهما، فالوقوف على طريقتك أسلم. ثمَّ قال له: فإن غلب عليك خاطرك بالميل إلى التصوّف فاَختَر من المشايخ مَن كان ثابت القدم في الشريعة وإن رأيت فيه شيئًا يخالف الشرع ولو قليلاً فاحترز منه، فإنَّ مبنى الطريقة رعاية الأحكام الشرعية. ومنهم الشيخ داود من قصبة مدرني، وكانت تروى عنه الكرامات. ومنهم الشيخ قاسم شلبي، وكان متصوّفًا جلس في زاوية الوزير علي باشا في القسطنطينية، ومنهم الشيخ رمضان كان من أتباع طريقة الحاج بيرم، وكان مرشدًا كبيرًا. ومنهم الشيخ بابا يوسف السفر حصاري، وكان منتسبًا إلى هذه الطريقة. ولمّا بنى السلطان بايزيد جامعه بالقسطنطينية حضر للصلاة في أول جمعة بعد

---

(١) شاعر فارسي، من كبار الصوفيين. [المحقق]

بنائه، وصعد الشيخ بابا يوسف المنبر ووعظ الناس فحصل لكلامه تأثير عظيم في السامعين، وكان بعض النصارى يستمعون من خارج الجامع فأسلم منهم ثلاثة ففرح السلطان بايزيد بذلك وأنعم عليهم وصار السلطان يحبّ هذا الشيخ كثيرًا وعندما ذهب الشيخ للحجّ أعطاه السلطان مقدارًا من الذهب وقال له: هذا المال حصل لي من كسب يدي، وأوصاه أن يجعله في قنديل الصدقات في التربة المطهّرة بالمدينة وأن يقول عند التربة المطهّرة: يا رسول الله إنَّ راعي أمّتك العبد المذنب بايزيد يقرئك السلام، وأرسل هذا الذهب الحاصل من طريق الحلال ليصرف إلى زيت قنديل تربتك، وتضرَّع إليك أن تقبل صدقته. ففعل الشيخ ما أمره به السلطان، وكانت وفاة هذا الشيخ في أوائل سلطنة سليم خان، ودُفن في جوار أبي أيوب الأنصاري عليه رحمة الباري.

ولمّا جلس السلطان سليم بن بايزيد على كرسي السلطنة، وذلك في الثاني عشر من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة، طلب الانكشارية زيادة رواتبهم، فاضطرّ أن يرضيهم لأنهم كانوا السبب في سلطنته، وزاد الرسوم المضروبة على البضائع الواردة إلى بلاده، رفعها من ثلاثة في المائة إلى خمسة. وكان الأمير أحمد، أمير أماسية، استقلّ واستولى على بورسة، واتّفق مع مصطفى بك، والي أنقرة. فرأى السلطان سليم أنَّ لا بدَّ من قتل إخوته، ولمّا وقع أخوه «قورقوت» في يده قتله. وكذلك زحف إلى قتال أخيه أحمد، فتلاقيا في صحراء يني شهر فكانت الطائلة للسلطان سليم ووقع أحمد في يد أخيه فقتله أيضًا فاتّسق له الأمر، وأرسلت الدول المجاورة تهنّيه ما عدا الشاه اسماعيل، سلطان العجم، فكان هواه مع الأمير أحمد. وقد بلغ الشاه اسماعيل في زمانه أقصى درجات القوّة، وكان في يده جميع فارس، وخراسان، والعراق العربي، وكردستان، وديار بكر ـ أي من الفرات إلى سيحون وجيحون ـ فكانت الدولة الصفوية في أوج مجدها. وكانت دولة شيعية خالصة، وقد أخذت تبثّ التشيّع في البلاد العثمانية. فثار غضب السلطان سليم وزحف بمائة وثمانين ألف مقاتل، فصار جيش شاه اسماعيل ينكصُ إلى الوراء ولا يقاتل، فوصل العثمانيون إلى تبريز فاعتصم الإيرانيون بأعالي الجبال المشرفة على صحراء «تشالديران» فقبل أن أصلاهم السلطان سليم نار الحرب عقد مجلسًا حربيًّا، فأشار الوزراء بإراحة العسكر أربعًا وعشرين ساعة بالأقلّ، وخالفهم في ذلك پيرى باشا قائلاً: تجب المناجزة في الحال. فأعجب رأيه السلطان سليم وهجم على الإيرانيين وتغلّب عليهم بواسطة مدافعه، ووقع في يد السلطان أثقال الشاه اسماعيل وأمواله مع حرمه، وعدد كبير من الأسرى فأمر بقتل الجميع ما عدا النساء والأولاد.

وأراد السلطان سليم أن يشتو تلك السنة في تبريز، وأن يزحف في أول الربيع إلى فارس، ولكن الانكشارية كاونوا قد ملّوا القتال والسفر، وأصبحوا يريدون الرجوع. فعاد بهم إلى أماسية، وقيل إنّه رجع لفقد القوت والعولفة في بلاد العجم لأنَّ الشاه اسماعيل كان قد خرّب البلاد. ثمَّ أرسل الشاه اسماعيل يطلب من السلطان سليم زوجته التي وقعت في الأسر في معركة «تشالديران» فرفض السلطان تسليمها إليه، وأزوجها من وزيره جعفر شلبي. ثمَّ إنَّ الانكشارية ثاروا مرّة ثانية في أماسية وأجبروا السلطان على الرجوع إلى القسطنطينية، فأراد السلطان الانتقام من رؤسائهم، وقتل اسكندر باشا، وسقبان باشي عثمان، وقاضي العسكر جعفر شلبي. ثمَّ إنَّ بلاد كردستان كانت بعد واقعة «تشالديران» دخلت في حوزة السلطان وجاء جيش من قبل الشاه اسماعيل يسترجع ديار بكر، فهزمهم العثمانيون واستولوا على «حصن كيفا» و«سنجار» و«بيرجك» و«الموصل». ثمَّ فكَّر السلطان سليم في فتح بلاد العرب، فزحف إلى «حلب» وجاء من مصر السلطان قانصوه الغوري وكان شيخًا كبيرًا بلغ سنّ الثمانين، إلاَّ أنه كان عالي الهمّة، فتلاقى مع السلطان سليم في مرج دابق عند حلب، وكانت مدافع العثمانيين جعلت الرجحان في جانبهم وإنحاز جانب من جماعة قانصوه الغوري إلى السلطان سليم، ومن هؤلاء «جان بردي» الغزالي و«خير بك» الجركسيان، وكان معهما أمراء لبنان.

وكان الملك الأشرف قانصوه الغوري أمر الغزالي وخير بك أن يتقدّماه أمام الجيش أملاً بأن يقتلا لوحشة كانت بينه وبينهما، فراسلا السلطان سليمًا واتّفقا معه وانحازا إلى جيشه ومعهما جمٌّ من رجال الجيش المصري ومعهما أمراء لبنان منهم الأمير «فخر الدين المعني» والأمير «جمال الدين الأرسلاني» وهو جدّنا على عمود النسب والأمير «عسّاف التركماني» ولمّا دارت المعركة كان النصر للسلطان سليم وقتل الغوري في المعركة. وكانت هذه الواقعة سنة ١٥١٦ وقيل ١٥١٥ وهو الأصحّ. فدخل بعدها السلطان سليم حلب، ثمَّ دمشق بدون قتال. وقيل إنَّ السلطان سليم صلّى الجمعة في جامع سيِّدنا زكريّا في حلب فخطب الخطيب ودعا له بالنصر ولقّبه «سلطان البرّين والبحرين، وصاحب الحرمين الشريفين» فأمر السلطان بأن يقال «خادم الحرمين الشريفين» وسجد شكرًا لله.

ولمّا مرَّ بحماة نزل في دار آل الكيلاني السادة المشهورين من ذرّية السيِّد عبد القادر الكيلاني، ورأيت بعيني الغرفة التي بات فيها وهي مطلّة على نهر العاصي وأنعم السلطان على آل الكيلاني وأكرمهم، وكان شاعرًا أديبًا. فأطربه مركز حماه وأعجبه ما هم عليه

السادة الكيلانيّة من الوجاهة والكرم فنطق لسانه بهذين البيتين:

بني كيلان هُنِّئتم بعيش | أرى من دونه السبع الطباقا
أطاع لديكموا العاصي ولمّا | تشرّف بالجوار حلا وراقا

رواهما لي السيِّد عبد القادر حسني الكيلاني كبير هذه الأسرة الشريفة اليوم.

وجلس على كرسي مصر بعد قتل الغوري «طومان بك» واستعدّ للقتال فزحف السلطان سليم إلى مصر واشتبكت معركة من أشدّ المعارك المعروفة في التاريخ، ولكن الأتراك بسبب مدافعهم تغلّبوا على المماليك. ودخل السلطان سليم إلى القاهرة وانهزم طومان بك بعد أن ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة، ولم يقع طومان بك في المعركة أسيرًا، بل انحاز بمَن بقي معه إلى الريف، وشرع يهاجم العثمانيين. فأرسل السلطان يعرض عليه الصلح فأبى المماليك الصلح، فزحف السلطان إليهم. وفي هذه الوقعة أخذ طومان بك أسيرًا، وشنقه السلطان وعلّقه على باب القاهرة وذلك سنة ١٥١٧ في ١٣ أبريل وبعد ذلك دخل الحجاز تحت حماية الدولة العثمانية. ويقال إنَّ السلطان سليم كتب بيده على عمود المقياس الذي على شاطئ النيل هذين البيتين:

الملك لله من يظفر بنيل غنى | يردده حقًّا[١] ويضمن بعده الدَّركا
لو كان لي أو لغيري قيد أُنملة | فوق التراب لكان الأمر مُشتَرَكا

[منه ما ذكره القطب الهندي المكّي أنه رآه بخطّه في الكشك الذي بُنِيَ له بروضة المقياس بمصر][٢].

وقد ظنَّ بعض المؤرِّخين أنَّ هذين البيتين هما من نظمه لأنه كان شاعرًا بليغًا بالعربية والتركية والفارسي، ولكنَّنا وجدنا هذين البيتين في لزوميّات المعرّي، فيكون السلطان قد استشهد بهما.

ثمَّ إنَّه بعد أن استودع إدارة مصر خير بك، رجع إلى سورية وأخذ بتنظيم إدارتها، وكان نشاط هذا السلطان غير معهود المثال، وتوقد ذهنه فوق الخيال. وكان محبًّا للعلماء والأدباء، مغرمًا بالعلم والعرفان. وكانت همّته أعلى ما عهد في همم الرجال، وكان يتنكّر

---

(١) وقيل قسرًا، بحسب القطب الهندي المكّي. [المحقّق]
(٢) ما ورد في موضع آخر من كتاب المؤلّف نفسه الأمير شكيب أرسلان. [المحقّق]

ويخرج متنكرًا فيختلط بالشعب ليطّلع على حقائق الأحوال، ويعرف ممَن تشكو الرعايا فيقتصّ من العمّال الذين يتحقّق خروجهم عن جادة العدل ولم يكن فيه عيب يُذكَر سوى شدّة ميله إلى سفك الدماء، وكم قتل من إخوته ووزرائه وعمّاله، ولم يكن يجرؤ عليه إلاّ المفتي الجمالي، الذي يلقّبه الأتراك بـ"زنبيللي علي أفندي" لأنه كما تقدّم الكلام كان عنده زنبيل معلّق يضع فيه السائل سؤاله ويحرّكه فيجذبه الشيخ ويُخرج منه السؤال ويُجيب عليه ويعيده بالزنبيل الذي يسقط إلى أسفل فيؤخذ الجواب منه.

ويقال إنَّ السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين في المملكة على الإسلام جميعًا، أو يخرجوا من البلاد، فعارضه زنبيللي علي أفندي ـ أي المفتي الجمالي ـ وقال له: لا يحلّ لك ذلك، وليس لنا إلاَّ أن نأخذ منهم الجزية والطاعة. ويروي الناس بالتواتر شيئًا آخر، وهو أنَّ السلطان سليم أراد أن يجعل العربية لسانًا رسميًّا للدولة فعارضه الأتراك في ذلك، ولم أطّلع على هذه الرواية في الكتب ولكن الناس يتناقلونها كثيرًا، والله أعلم.

فأمَّا قضيّة حمل النصارى الذين في المملكة على قبول الإسلام أو الرحيل منها فهو مروي بالتواتر، وفي الكتب أيضًا فيكون قد ثبت أنَّ الشريعة الإسلامية بعدالتها وأمانتها هي التي حفظت المسيحيين في السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفّذ جميع ما يريده بهم، ولذلك نجد ملاحدة الترك ينتقدون دائمًا العمل بالشرع الإسلامي بحجّة كونه السبب في بقاء النصارى في السلطنة العثمانية، وأنَّ بقاءهم كان السبب في ضعف تركية، فملاحدة الترك يجعلون الشرع الإسلامي مذنبًا في تهيئة الخطر السياسي الذي أصاب تركية، ولذلك لمّا استولوا على الحكم بعد الحرب العامّة أخرجوا جميع النصارى من تركية، ولم يبقَ إلاَّ النصارى الذين في القسطنطينية فقط لأنَّ الدول في مؤتمر لوزان لم توافق على إخلاء القسطنطينية من النصارى تمامًا، وتقرّر بمقابلتهم إبقاء مسلمي تراقية الغربية في بلاد اليونان.

ومن العجب أننا نرى الأوروبيين يعملون بكلّ قوّتهم لمحو الشريعة الإسلامية التي في ظلّها ـ وبسببها لا غير ـ بقي النصارى في جميع الممالك الإسلامية، وفي السلطنة العثمانية، وكان نصارى البلاد العثمانية بضعة عشر مليون نسمة، متمتّعين بجميع الحقوق التي يتمتّع بها المسلمون منذ ظهور الإسلام إلى يوم الناس، هذا يفضّلون أن تكون الحكومات الإسلامية ملحدة، ولو كانت تخرج جميع النصارى من بلادها، وهذا أقصى ما يتصوّره العقل من التحامل والتعصّب على الإسلام! يكرهونه ولو حفظهم، ويحبّون زواله ولو كان في ذلك زوالهم!

هذا ومات السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فلم يقم في السلطنة أكثر من ثماني سنوات، ولو طالت مدّة هذا الرجل العظيم على كرسي هذه السلطنة العظمى لَما عرف أحد على أيّة درجة من الشوكة والبسطة كانت تنتهي السلطنة العثمانية؟!

وجاء في "شذرات الذهب" عن السلطان سليم ما يأتي:

وفي سنة ستّ وعشرين وتسعمائة توفّي السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمَّد السلطان المفخّم، والخاقان المعظّم، سليم خان بن عثمان تاسع ملوك بني عثمان. هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادّخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية، رفعوا عماد الإسلام، وأعلوا مناره وتواصوا باتّباع السنّة المطهّرة، وعرفوا للشرع الشريف مقداره، وصاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب، واستخلصها من أيدي الشراكسة بعدما شتَّت جمعهم فانفلّوا عن مليكهم، وجدّوا في الهرب. ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ستّ وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه عن السلطنة وسلّمها إليه، وكان السلطان سليم ملكًا قهّارًا، وسلطانًا جبّارًا، قويّ البطش، كثير السفك، شديد التوجّه إلى أهل النجدة والبأس، عظيم التجسّس عن أخبار الناس، وربّما غيَّر لباسه وتجسّس ليلاً ونهارًا، وكان شديد اليقظة والتحفّظ يحبّ مطالعة التواريخ وأخبار الملوك، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية.

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه "نزهة الناظرين": وفي أيامه تزايد ظهور شأن اسماعيل شاه، واستولى على سائر ملوك العجم، وملك خراسان، وأزربيجان، وتبريز، وبغداد، وعراق العجم، وقهر ملوكهم، وقتل عساكرهم، بحيث قُتل ما يزيد على ألف ألف! وكان عسكره يسجدون له، ويأتمرون بأمره، وكان يدّعي الربوبية. وقتل العلماء، وأحرق كتبهم، ونبش قبور المشايخ من أهل السنّة وأخرج عظامهم وأحرقها، وكان إذا قتل أميرًا أباح زوجته وأمواله لشخص آخر فلمّا بلغ السلطان سليم ذلك تحرّكت همّته لقتاله، وعدّ ذلك من أفضل الجهاد؛ فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرّار، وكانت وقعة عظيمة، فانهزم جيش اسماعيل شاه واستولى سليم على خيامه، وأعطى الرعيّة الأمان، ثمَّ أراد الإقامة بالعجم للتمكّن من الاستيلاء عليها فما أمكنه ذلك لشدّة القحط، بحيث بيعت العليقة بمائة درهم، والرغيف بمائة درهم، وسببه تخلّف قوافل الميرة التي كان أعدّها السلطان سليم، وما وجد في تبريز شيئًا. لأنَّ اسماعيل شاه عند انهزامه أمر بإحراق أجران الحبّ فاضطرّ سليم للعود إلى بلاد الروم.

وفي أيامه كانت وقعة الغوري، وذلك أنَّ سليم لمّا رجع من غزو اسماعيل شاه تفحّص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه، فأخبر أنَّ سببه سلطان مصر قانصوه الغوري، فإنَّه كان بينه وبين اسماعيل شاه محبّة، ومراسلات وهدايا، فلمّا تحقَّق سليم ذلك صمَّم على قتال الغوري أولاً، ثمَّ بعده يتوجّه لقتال اسماعيل شاه ثانيًا، فتوجّه بعسكره إلى جهة حلب سنة اثنتين وعشرين كما تقدّم، فخرج الغوري بعساكر عظيمة لقتاله، ووقع المصاف بمرج دابق شمالي حلب، ورمى عسكر سليم عسكر الغوري بالبندق، ولم يكن في عسكر الغوري شيء منه، فوقعت الهزيمة على عسكر الغوري بعد أن كانت النصرة له أولاً، ثمَّ فُقِدَ تحت سنابك الخيل، وكان ذلك بِمُخامَرة خير بك والغزالي، بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام.

ثمَّ بعد الوقعة أخليا له حلب لأنهما معه في الباطن، فأقبل سليم إلى حلب فخرجوا للقائه يطلبون الأمان ومعهم المصاحف يتلون جهارًا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ فقابلهم بالإجلال والإكرام. ثمَّ حضرت صلاة الجمعة فلمّا سمع الخطيب خطب باَسمه وقال: "خادم الحرمين الشريفين" سجد لله شكرًا على أن أهَّله لذلك ثمَّ ارتحل للشام بعد أن أخلاها له خير بك والغزالي، فخرجوا للقائه ودعوا له فأكرمهم وأقام بها لتمهيد أمر المملكة. وأمر بعمارة قبّة علي الشيخ محيي الدين بن عربي بصالحيّة دمشق، ورتّب عليها أوقافًا كثيرة، ثمَّ توجّه إلى مصر فلمّا وصل إلى خان يونس بقرب غزّة قُتل فيه وزيره حسام باشا.

ثمَّ لمّا دخل مصر وقع بينه وبين "طومان باي"، سلطان الجراكسة، حروب يطول ذكرها، وقتل بها وزير سليم يوسف سنان باشا، وكان مقدامًا ذا رأي وتدبير فأسف سليم عليه بحيث قال: أيّ فائدة في مصر بلا يوسف؟! وقاتل طومان باي ومن معه من الأمراء قتالاً شديدًا، وظهر لطومان باي شجاعة قويّة عُرِف بها وشهد له بها الفريقان، وأوقع الفتك بعسكر السلطان سليم، ولولا شدّة عضده بخير بك والغزالي ومكيدتهما ما ظفر بطومان باي. ثمَّ لمّا ظفر به أراد أن يكرمه ويجعله نائبًا عنه بمصر؛ فعارضه خير بك وخاف عاقبة فعله، وقال لسليم: إنَّك إن فعلت ذلك استولي على السلطنة ثانيًا، وحسّن له قتله فقتله وصلبه بباب زويلة، ودفنه كما أسلفنا.

ونزل السلطان سليم بالمقياس مدّة إقامته بمصر بعيدًا عن روائح القتلى، وحذرًا من المكيدة إلى أن مهدَها، ثمَّ ولّى خير بك أمير الأمراء على مصر، وولّى الغزالي على الشام،

وولّى بمصر القضاة الأربعة وهم؛ قاضي القضاة كمال الدين الشافعي وقاضي القضاة نور الدين علي بن يس الطرابلسي الحنفي، وقاضي القضاة الدميري المالكي، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن النجّار الحنبلي واستولى على الأرض الحجازية وغيرها، ورتّب الرواتب، وأبقى الأوقاف على حالها، ورتّب لأهل الحرمين في كلّ سنة سبعة آلاف إردب حَبّ. ثمَّ عاد إلى القسطنطينية وقد صرف غالب خزائنه، فأخَّر السفر إلى بلاد العجم ليجمع ما يستعين به على القتال، فظهر له في ظهره جمرة منعته الراحة ، وعجزت في علاجها حذّاق الأطبّاء، ولا زالت به حتّى حالت بينه وبين الأمنية فتوفّي رحمه الله في رمضان ـ أو شوّال ـ بعد علّة نحو أربعين يومًا. وذكر العلائي في تاريخه «أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنة وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه، فلم يفطن بها حتّى وصل إلى المكان الذي بارز فيه أباه أبا يزيد حين نازعه في السلطنة، فطلب له الأطبّاء فلم يدركوه إلاَّ وقد تأكّلت ووصلت إلى الأمعاء، فلم يستطيعوا لها دفعًا ولا نفعًا، ومات بها ودُفن بأدرنة عند قبر أبيه». انتهى ملخَّصًا.

قلت: ونبغ من العلماء في عصر السلطان سليم المولى شمس الدين أحمد بن سليمان ابن كمال باشا، وكان جدّه من أمراء الدولة العثمانية، ونشأ في حجر العزّ والدلال ثمَّ غلب عليه حبّ العلم والكمال فاشتغل بتحصيل العلم ليلاً ونهارًا، وبعد أن مهر في العلوم تولّى التدريس، وانتقل من مدرسة إلى مدرسة، ثمَّ تولّى قضاء العسكر، ثمَّ تولّى الإفتاء في القسطنطينية بعد وفاة زنبيللي علي أفندي، ومات وهو في الإفتاء سنة أربعين وتسعمائة. وله تصانيف كثيرة منها حواشي على الكشّاف، وله كتاب في الفقه متنٌ وشرح سمّاه «الإصلاح والإيضاح»، وله كتاب في الأصول متن وشرح، وله كتاب في علم الكلام متن وشرح، وله كتاب في الفرائض متن وشرح، وله حواشي على شرح المفتاح للسيِّد الشريف ـ ومَن مِن فحول علماء الأتراك لم يكتب حواشي على كتب السيِّد الشريف ـ وله تآليف في التركية والفارسية، ومن جملة كتبه التركية تاريخ لآل عثمان. ومنهم المولى عبد الحميد بن علي، وقرأ في بلاد العرب ثمَّ في بلاد العجم، ثمَّ جاء إلى بلاد الروم وسكن ببلدة قسطموني. ولمّا جلس السلطان سليم على سرير السلطنة اتّخذه إمامًا لنفسه، ومات بصحبة السلطان بمدينة دمشق بعد قفول السلطان من مصر. ومنهم المولى محيي الدين محمَّد شاه بن علي بن يوسف بالي بن شمس الدين الفناري، وهم بيت علم كابرًا عن كابر، وتولّى التدريس مدّة طويلة، ثمَّ استقضى بالقسطنطينية، ثمَّ تولّى قضاء العساكر. ومنهم المولى محيي الدين

محمَّد بن علي بن يوسف بن شمس الدين الفناري، ودرّس مدّة طويلة، واستقضى بالعسكر المنصور، وكان عالِمًا ورعًا، مدقِّقًا محتاطًا في معاملاته مع الناس، محبًّا للفقراء والصلحاء، قال صاحب "الشقائق": كان رحمه الله علاّمة في الفتوى، وآية كبرى في التقوى.

ومنهم محيي الدين محمَّد بن علاء الدين علي الجمالي المتقدِّم الذكر، وهم بيت علم وفضل، تولّى التدريس ثمَّ القضاء، وكان من ذوي الطريقة الحسنة. ومنهم محمَّد شاه بن محمَّد بن الحاج حسن، وتولّى التدريس مدّة طويلة، وله تواليف منها شرح علي مختصر القدّوري. ومنهم المولى حسام الدين حسين بن عبد الرحمن ودرّس في أكثر المدارس المشهورة، ثمَّ تولّى القضاء. ومنهم مصلح الدين مصطفى بن خليل، والد "صاحب الشقائق"، ولد سنة فتح القسطنطينية ـ أي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت ولادته ببلدة "طاش كوبري". وأخذ عن علماء كثيرين، وأشهرهم خواجة زادة، وتولّى التدريس تارةً في أنقرة، وتارةً في بورسة، وطورًا في أسكوب وطورًا في أدرنة، ثمَّ جعله السلطان بايزيد معلِّمًا لاَبنه السلطان سليم، ثمَّ استقضاه السلطان سليم بمدينة حلب، ثمَّ استعفى من القضاء ورجع إلى التدريس، وكان زاهدًا عابدًا صاحب أدب ووقار فيما يروي عنه ولده، وقال: إنَّه لم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب، ولا كلمة فيها فحش، وكان طاهر الظاهر والباطن، وكانت أكثر براعته في الحديث، والتفسير، وأصول الفقه، والعلوم الأدبية. ولم يتبحّر في المعقول. وله عدّة تصانيف. ومنهم قوام الدين قاسم بن خليل، وهو أخو المترجم السابق، وكان مدرِّسًا كبيرًا، وكانت أكثر مهارته في العلوم الأدبية، والعقلية. ومنهم عبد الواسع بن خضر من أولاد الأمراء أصله من بلدة "ديموطقة" في الرومللي وارتحل إلى بلاد العجم وخراسان، وقرأ على شيخ الإسلام حافد العلامة التفتازاني حواشي شرح المطالع، وحواشي شرح العضد للسيِّد الشريف، ثمَّ رجع إلى بلاد الروم في أواخر سلطنة بايزيد، وفي زمان السلطان سليم تولّى التدريس، وفي زمان السلطان سليمان القانوني تولّى قضاء العساكر، وبعد أن بقي مدّة في القضاء وبنى مدارس ومكاتب؛ ارتحل إلى مكّة المكرّمة واعتزل الناس، وعكف على العبادة إلى أن مات سنة خمس وأربعين وتسعمائة.

ومنهم عبد العزيز بن يوسف بن حسين الحسيني الشهير بـ"عابد شلبي" وكان مدرِّسًا ثمَّ تولّى القضاء. ومنهم عبد الرحمن بن يوسف بن حسين الحسيني، وكان أيضًا مدرِّسًا ثمَّ انقطع عن الخلق لأجل العبادة. ومنهم پير أحمد شلبي الآيديني وكان من المدرِّسين الكبار. ومنهم محيي الدين محمَّد بن الخطيب قاسم، وكان مدرِّسًا وتولّى تعليم الأمير

أحمد بن السلطان بايزيد، وكان عالِمًا أديبًا عابدًا ورعًا، وكان ينظم الشعر العربي والتركي، ويحفظ المحاضرات والتواريخ. ومنهم زين الدين محمَّد بن محمَّد شاه الفناري، وكان عالِمًا فاضلاً خدم العلم الشريف مدّة طويلة مع التقوى والورع ومنهم المولى داود بن كمال القوجوي، وكان مدرِّسًا كبيرًا، وله اليد الطولى في العلوم العقلية. ومنهم بدر الدين محمود الشهير بـ"بدر الدين الأصغر" وكان أيضًا من المشتغلين بالعلوم العقلية، وبعلم الحديث أيضًا. ومنهم المولى نور الدين حمزة، وكان من الفقهاء ولكنّه كان حريصًا على جمع المال، وبنى بماله مسجدًا بالقسطنطينية وحجرات لسكنى العلماء. قال له الوزير ابراهيم باشا: إنَّك تحبّ المال فكيف صرفت هذه الأموال في الأوقاف؟ قال: هذا من غاية محبّتي للمال؛ حيث لا أرضى أن أخلّفه في الدنيا، وأريد أن يذهب معي إلى الآخرة. ومنهم المولى محيي الدين محمَّد البردعي وكان بارعًا في العلوم العربية، وصاحب أخلاق، وله تصانيف. ومنهم محمود الشهير بـ"ابن المجلد" وكان عالِمًا زاهدًا، وتوفّي في أوائل سلطنة سليمان القانوني. ومنهم محيي الدين محمَّد بن يوسف بن يعقوب الملقَّب "باجة زادة" وكان من المدرِّسين، ثمَّ صار من القضاة في زمان السلطان سليم. ومنهم محيي الدين محمَّد المشهور بـ"شيخ شاذلو" وكان من العلماء العابدين. ومنهم سنان الدين يوسف بن علاء الدين اليكاني كان مدرِّسًا ثمَّ صار قاضيًا، وفي زمان السلطان سليم تولّى قضاء دمشق وله حواشي على شرح المواقف للسيِّد الجرجاني. ومنهم پير أحمد بن نور الدين حمزة، درَّس في أشهَر المدارس ثمَّ تولّى القضاء وصار قاضيًا بمصر مرّتين. ومنهم المولى باشا شلبي اليكاني بقي مدّة في التدريس، وله حاشية على شرح المفتاح للسيِّد الشريف. ومنهم باشا شلبي بن زيرك، وكان من المدرِّسين المعروفين. ومنهم محيي الدين بن زيرك استقضى في عدّة من البلدان. ومنهم عبد العزيز، حفيد المولى المشهور بـ"ابن أمّ الولد"، وكان من العلماء الأدباء. ومنهم محيي الدين محمَّد بن مصلح الدين القوجي، وكان عالِمًا زاهدًا وانتفع به خلق كثير، وله عدّة تصانيف.

ومنهم الشريف عبد الرحمن العبّاسي، ولد بمصر ومهر في العلوم الأدبية، وجاء إلى القسطنطينية في زمن بايزيد خان ورجع إلى مصر، ثمَّ لمّا انقرضت دولة السلطان الغوري عاد إلى القسطنطينية. وتوفّي سنة ثلاث وستّين وتسعمائة، وقد عاش نحوًا من مائة سنة، وله كتاب "معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص" وهو شهير. وقرأته أول مرّة في استانبول منذ ٤٥ سنة أعارنيه قبل أن اقتنيته الشريف عبد الإله باشا أمير مكّة سابقًا رحمه

الله، فوجدت الشيخ محمَّد بن التلاميذ الشنقيطي المعروف بالشنقيطي الكبير قد قرأ هذه النسخة، وقرأت تعقيبات له على المؤلِّف من جملتها أنه ذكر أحمد بن خلف، وذكر أنه قُتل، فقال الشنقيطي في الهامش: "هو خلف بن أحمد، والمعروف أنه مات حتف أنفه".

ومنهم المولى بخشي، خليفة الأماسي، ولد بأماسية وقرأ على علماء عصره، ثمَّ ارتحل إلى بلاد العرب وقرأ على علمائها أيضًا، ثمَّ اختار طريق التصوّف وجلس للوعظ والتذكير، وانتفع به خلق كثير، وتوفّي في جوار الثلاثين وتسعمائة. ومنهم محيي الدين محمَّد بن عمر بن حمزة، كان جدّه من بلاد ما وراء النهر من تلاميذ السعد التفتازاني، وضرب في الأرض (١) فوصل إلى إنطاكية. وبها ولد محمَّد هذا، وتفقّه في إنطاكية، ثمَّ سار إلى "حصن كيفا" و"آمد" ثمَّ إلى "تبريز" وأخذ عن علماء تلك البلاد، ثمَّ رجع إلى إنطاكية، وحلب، ثمَّ ذهب إلى القدس وجاور هناك وحجّ البيت الحرام. ثمَّ ذهب إلى مصر وأخذ عن السيوطي، ولقي قبولاً عظيمًا عند السلطان "قايتباي" وبقي عنده إلى أن توفّي. فسافر إلى الروم من طريق البحر وأول بلدة أقبل عليها "بروسة" فحصل له فيه إقبال عظيم، ثمَّ ذهب إلى القسطنطينية فأحبّه أهلها، وسمع السلطان بايزيد وعظه فمال إليه كلّ الميل، وألَّف له كتابًا اسمه "تهذيب الشمائل" في السيرة النبوية. ولمّا خرج السلطان إلى الغزو كان هذا الشيخ محمَّد بن عمر معه، فلمّا فتح "قلعة مشون" كان هو ثاني الداخلين إليها أو ثالثهم ثمَّ ذهب إلى حلب ورجع إلى الروم في زمن السلطان سليم، وحرّضه على الجهاد في طائفة "قزلباش" - هي طائفة تؤلّه عليًّا - وكان يعظ الجنود وعظًا مؤثِّرًا، ويذكر لهم ثواب الجهاد. ثمَّ ذهب إلى "الروملي" وأخذ يعظ أهلها، فأصلح كثيرًا من الخلق وأسلم على يديه كثيرون من غير المسلمين، وبنى جامعًا في سراي بوسنة ومسجدًا في أسكوب.

وأقام في تلك البلاد عشر سنوات يعظ ويفسّر القرآن الكريم، وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة غزا مع السلطان سليمان بلاد المجر، ووافقهم الفتح المبين. ثمَّ سكن في بورسة، وشرع في بناء جامع كبير توفّي قبل إتمامه في رابع المحرّم ٩٣٨ وذلك عن سبعين سنة. وولد من صلبه قريب من مائة نفس، وله كتب ورسائل وكم أحيا من سنن، وأمات من بدع. فهذا من الرجال الذين اشتغلوا في حياتهم وفقدهم الناس عند مماتهم! ومنهم خير الدين خضر

(١) ساح وتنقل. [المحقق]

المعروف بـ"العطوفي" كان معلِّمًا لعبيد السلطان بايزيد، ثمَّ اختار طريقة الوعظ فصار يفسّر أيام الجمع في مساجد القسطنطينية، وكان ماهرًا في التفسير، وله اليد الطولى في علمَي المعاني والبيان. ومنهم عبد الحميد بن شرف من أهل قسطموني، قرأ على علماء عصره، ثمَّ رغب في التصوّف، وصحب مصلح الدين الطويل من شيوخ النقشبندية. وبعد وفاته اختار طريق الوعظ، وعكف على التفسير، وكان زاهدًا في الدنيا.

ومنهم عيسى خليفة من قسطموني أيضًا، وكان متصوِّفًا، واختار طريق الوعظ وكان لكلامه تأثير في النفوس. ومنهم المولى شعيب الترابي، جعله السلطان بايزيد معلِّمًا لعبيده، ثمَّ اختار طريقة الوعظ، وكان على الفطرة، وكان قويّ البدن إلى النهاية وقيل إنَّه كان في شبابه يكسر نعال الدواب بأصبعيه! ومنهم محيي الدين محمَّد الأماسي وكان من العلماء المحدّثين والوعّاظ، وكانت الناس تحبّه لورعه وتقواه. ومنهم المولى الطوقاتي من أماسية، لم يفارقها إلى أن مات، ومات في أوائل سلطنة سليمان القانوني وكان مشتغلاً بالدرس والعبادة، منقطعًا عن الناس. ومنهم المولى مصلح الدين موسى بن موسى الأماسي، اشتهر بين الناس بـ"حافظ الكتب" لأمه كان قيّمًا على خزانة كتب جامع السلطان بايزيد ببلدة أماسية، قرأ على علماء العجم، ثمَّ على علماء العرب. وكان صحيح العقيدة، مَرْضيّ السيرة، وكانت له اليد الطولى في الفقه والأصول وله تآليف نفيسة. ومنهم المولى الشهير بـ"ابن المعيد الأماسي" وكان فاضلاً محقّقًا، سالكًا مسلك التصوّف، مقبلاً على شأنه. ومنهم المولى عبد الله خواجة نزيل "قصبة كوبرجك" اشتهر بعلم العربية، والفقه، وكان من الصالحين. ومنهم المولى ابن ددة جك، وكان مشهورًا بالقراآت العشر، مَرْضيّ السيرة، زاهدًا عابدًا.

ومنهم المولى الشهير في علم القراآت صادق خليفة المغنيساوي، وكان من القانتين العابدين. ومنهم المولى محمَّد بن الحاج حسن وكان عالِمًا، ولكنّه لم يكن على نمط العلماء في الزهد وخشونة العيش، بل كان مائلاً إلى الزينة والترف، فجعله السلطان سليم من الأمراء، وكان بارعًا بالإنشاء، وله معرفة بالتواريخ. ومنهم محمَّد باشا، حفيد المولى "ابن المعرف"، معلّم السلطان بايزيد، وكان محمَّد باشا هذا من وزراء السلطان سليم، وكان على جانب من المعرفة بالآداب السلطانية. ومنهم المولى عيسى باشا بن الوزير ابراهيم باشا، وكان من العلماء، ثمَّ صار موقّعًا بالديوان العالي، ثمَّ تولّى الإمارة في بلاد الشام. ومنهم المولى الشهير بـ"نهاني" وبقي مدّة من حياته يشتغل بالتدريس، ثمَّ ذهب إلى الحجّ، ومات

بمكّة المكرّمة. وكان من العلماء الأدباء. ومنهم المولى حيدر ابن أخي المولى الخيالي، وقرأ على علماء عصره، ثمَّ ذهب إلى مصر وأخذ عن علمائها، ثمَّ رجع إلى الروم وأقام ببورسة، وتوفّي في أواخر سلطنة سليم خان وكان جميل الطلعة، مَرْضيّ السيرة، جيّد المحاضرة، زينة للمجالس. ومنهم المولى محمَّد ابن الحاجّ حسن، تولّى القضاء في عدّة من البلاد، وكان حليم الطبع معرضًا عن أبناء الزمان مشتغلاً بنفسه. ومنهم محمود بن الكمال المشتهر بـ«أخي شلبي» كان أبوه من الأطبّاء المشهورين، وطلبه السلطان محمَّد ليصير طبيبًا عنده فاعتذر وقال: كيف أختار الرقّ بعد الحرّية. وبعد وفاته نبغ ولده محمود في صناعة الطبّ، حتّى صار رئيسًا للأطبّاء في المستشفى الذي بناه محمَّد الفاتح بالقسطنطينية، ثمَّ صار رئيسًا للأطبّاء في زمان ولده السلطان بايزيد، ثمَّ عزله السلطان سليم، ثمَّ أعاده إلى مكانه. ولمّا تولّى سليمان القانوني عزله أيضًا، ثمَّ أعاده إلى مكانه. ثمَّ حجّ بيت الله. ومات بمصر منصرفه من الحجّ، ودفن عند قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه.

ومنهم هدهد بدر الدين، وكان من الأطبّاء المعروفين في دار السلطنة. ومنهم من أكابر الصوفيّة العارف بالله الشيخ نصوح الطوسي. ومنهم العارف بالله الشيخ مصلح الدين الإمام بمدينة بروسة. والعارف بالله محمَّد الشهير بـ«ابن أخي شوروه». والعارف بالله محيي الدين المعروف بـ«أبي شامة» والعارف بالله الشيخ عبد الرحيم المؤيدي المعروف بـ«حاجي شلبي». والشيخ محيي الدين محمَّد بن المولى بهاء الدين أخذ عن العارف بالله محيي الدين الأسكليبي. والشيخ مصلح الدين مصطفى المنسوب إلى المولى خواجة زادة. والعارف بالله مصلح الدين مصطفى المعروف بـ«ابن المعلّم». والعارف بالله الشيخ نبي خليفة. والشيخ محيي الدين الأسود. والشيخ لطف الله. والشيخ أمير علي بن أمير حسن. والمولى خضر بك بن المولى أحمد باشا. والشيخ محمود بن عثمان بن علي النقّاش المشتهر بـ«اللامعي» وسيِّدي خليفة الأماسي. والشيخ عبد اللطيف من أتباع طريقة الشيخ ابن الوفاء. والحاج رمضان المتوطّن في قسطموني. والشيخ سنان الدين الشهير بـ«سخته سنان».

* * *

سلطنة السلطان الأعظم
سليمان القانوني

هذا ثمَّ تولّى سلطنة آل عثمان، السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان في شهر شوّال سنة ٩٢٦.

وأكثر المؤرِّخين على أنَّ سليمان خان هو أعظم سلاطين آل عثمان، وعلماء الإفرنج يسمّونه سليمان العظيم "Le Grand" أو سليمان الفاخر "Le Magnfique" وكان عمره ستًّا وعشرين سنة يوم تولّى الملك، وبدأ ملكه بالحلم والعفو، فأطلق سبيل ستّمائة أسير مصري، وكان أبوه السلطان سليم قد ضبط لتجّار الحرير مقدارًا عظيمًا عن متاجرهم، فعوّضهم السلطان سليمان ممَّا خسروه وأخذ على أيدي الولاة الظالمين وأمر بالعدل والإحسان، وجعل هذه الآية القرآنية ﴿ إنَّ الله يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وِالإِحْسَانِ ﴾ شعاره.

وعقد سليمان معاهدة مع البندقيّة ليس هنا محلّ ذكرها، وبموجبها كانت البندقيّة تؤدّي إتاوتين إلى السلطان عن بعض البلاد التي كانت تحت احتلالها. وفي زمن سليمان القانوني ثار الغزالي والي الشام الذي انحاز إلى السلطان سليم في واقعة مرج دابق فأرسل السلطان سليمان جيشًا بقيادة فرهاد باشا، فتغلّب عليه وقتله. وغزا سليمان القانوني بلاد المجر فأرسل أحمد باشا فحصر "شاباتس" وبيري باشا فحصر "بلغراد" ومحمَّد ميكال أوغلي فاجتاح "ترانسلفانيا" فاستولى على شاباتس ودخلها السلطان ظافرًا، ثمَّ استولى على بلغراد وعلى سملين، وكان نصرًا باهرًا. ثمَّ فكَّر السلطان في فتح "رودس" لأنَّ فرسان رودس كانوا ملؤا البحر المتوسّط اعتداءً على المسلمين، وكانوا يقطعون الطريق على الحجّاج إلى مكّة إذا ذهبوا في البحر. ففي ١٦ يونيو سنة ١٥٢٢ سار الأسطول العثماني عليه مائة ألف مقاتل. وضيّق السلطان الحصار عل رودس ووالى عليها الهجمات نحوًا من شهرين بدون انقطاع. ويقول مؤرِّخو الإفرنج ـ وربّما كانوا يبالغون في تقدير خسائر العثمانيين ـ: إنَّ هؤلاء فقدوا في حصار رودس مائة ألف مقاتل، منهم أربعون ألفًا ماتوا بالأمراض. إلاَّ أنَّ العثمانيين دخلوا أخيرًا رودس عنوةً واستولوا عليها وعلى الجزر التي في جوارها. وأخرج السلطان قائد فرسان رودس وكان اسمه "Villiers de l'Sile-Adam"

سالمًا فذهب إلى مالطة وهناك جدَّدوا قوّة الفرسان المذكورين؛ فصاروا يقطعون الطرق على مراكب المسلمين كما كانوا يفعلون وهم في رودس.

وفي زمن سليمان عصى أحمد باشا، والي مصر، وحدّثته نفسه بالاستقلال، فأرسل إليه السلطان جيشًا فهزمه، وانتهى الأمر بالقبض عليه فقطعوا رأسه وعلّقوه على أسوار القسطنطينية. ثمَّ وقع الخلاف بين والي مصر والدفتردار - أي رئيس الجباية - فأرسل السلطان وزيره ابراهيم باشا وأصله مملوك، صار مقرّبًا عند السلطان وبلغ من الحظوة ما لم يبلغه أحد، فابراهيم باشا عزل العاملين المتخاصمين، ورتّب الأمور ونصّب واليًا على مصر سليمان باشا الذي كان واليًا على سورية. ثمَّ غزا السلطان بلاد المجر بمائة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، فنشبت معركة هائلة. قاتل فيها الفريقان أشدّ قتال، وانتهت بظفر السلطان وغرق « لويس الثاني » ملك المجر وهو منهزم هو وجانب من جماعته في مستنقعات "موهاش" وسقط « بول طوموري »، رئيس أساقفة المجر، ومعه سبعة مطارين، واثنان وعشرون أميرًا. وخمسة وعشرون ألف جندي قتلى. وكانت هذه الواقعة في ٢٦ أغستوس سنة ١٥٢٦ وعلى رواية كانت خسارة المجر مائتي ألف رجل. ولم تكن خسائر العثمانيين أكثر من مائة وخمسين رجلاً.

وقيل: إنّه وقع في أسر الأتراك عشرة آلاف مجري فذبحوهم عن بكرة أبيهم ودخل الأتراك بودابست قاعدة المملكة، واستولوا على ما فيها من الخزائن والكنوز وأسروا مائة ألف نسمة من رجال ونساء، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن أجلس على كرسي المجر أمير ترانسلڤانيا المسمّى "سابوليا". وكان المجر الذين فرّوا من أمام الترك نادوا بفرديناند، أخي الإمبراطور شارلكان ملكًا عليهم، وفي أيام سليمان حصلت فتن في بلاد قرامان، وكليكيا وثارت البكطاشية، وسارت الجيوش تلو الجيوش، وخسرت الدولة جندًا كثيرًا إلاّ أنَّ ابراهيم باشا قمع الفتنة.

وفي زمن سليمان اشتدّت العداوة بين فرانسة والإمبراطور شارلكان، وكان الإمبراطور شارلكان أعظم سلطان مسيحي في عصره، إذ كان يلي ألمانية، وإسبانية وإيطالية، وهولاندة، وكانت له الكلمة العليا في البحر المتوسّط فأوشك أن يخنق فرانسة، ولم يبقَ أمل للفرنسيس إلاّ بالالتجاء إلى العثمانيين لأنَّ السلطان سليمان لم يكن يجد أمامه قرنًا يقاومه في أوربة غير الإمبراطور شارلكان، الذي كانت الوقائع متّصلة بينه وبينه على حدود

النمسا. فكان من الطبيعي أنَّ فرانسة تتّفق مع السلطان العثماني عدوّ عدوّها، ولكن فرانسة المشهورة بكثرة حروبها الصليبية، وبشدّة عداوتها للإسلام، لم يكن من السهل عليها أن تحالف العثمانيين بدون أن تكبر هذا الأمر جميع أمم النصرانية، والأمّة الإفرنسية نفسها، غير أنَّ « فرنسيس الأول » الذي كان وقع في أسر شارلكان، مضى في عزيمته في الالتجاء إلى العثمانيين، ومدّ يده لمحالفة السلطان سليمان، وكانت العلاقات الرسمية قد بدأت بين فرانسة والدولة العثمانية في زمن السلطان بايزيد الثاني من جهة؛ ولويس الحادي عشر من جهة أخرى ثمَّ كتب السلطان بايزيد كتابًا إلى «شارلوس الثامن». وفي سنة ١٥٠٠ كتب السلطان إلى « لويس الثاني عشر » يطلب منه التوسّط بينه وبين البندقية.

وكان « فرنسيس الأول » لأول حكمه عرض على إمبراطور ألمانية وعلى فرديناند الكاثوليكي، صاحب أسبانية، مشروعًا مآله تقسيم السلطنة العثمانية بين ملوك النصرانية ولكن لم يتمّ هذا الأمر لأنه لم يكن سهلاً عليهم هذا العمل. ثمَّ اتّفق أنَّ الحرب وقعت بين الألمان والفرنسيس، وأخذ فيها فرنسيس الأول أسيرًا، فأرسلت الملكة « لويزا دوساڤواي » بناء على مشورة وزيرها «دوبراه Duprat» معتمدًا بهدايا نفيسة إلى السلطان سليمان، وذلك في ٢٥ فبراير سنة ١٥٢٥ ثمَّ كتب الملك فرنسيس الأول نفسه كتابًا إلى السلطان يخطب صداقته. ولمّا كان شارلكان قد عرض من جهّته الصلح على السلطان واقترح التحالف؛ ففضّل السلطان محالفة الفرنسيس لِما كان الأتراك يعلمون من شدّة الفرنسيس، ولكن لم يرضَ الترك وقتئذٍ بكتابة حلف بالورق وإنّما أجاب السلطان على كتاب الملك فرانسيس بكتاب تعالى فيه على ملك فرانسة، وأظهر له مزيد عظمته. وهذا الكتاب لا يزال مشهورًا في التاريخ بعد أن ذكر فيه سليمان جميع ألقابه السلطانية. قال لفرنسيس: قد انتهى إلينا ما قدّمته إلينا من العرض عن أنَّ عدوّك قد استولى على مملكتك، وأنك الآن في أسره، وأنك تلجأ إلينا لأجل إنقاذك وحمايتك، فكلّ هذا قد عرض على سدّتنا السنية ملجأ العالم، وأحاط به علمنا السلطاني، وليس غير معهود أن تدور الدائرة على الملوك، وأن يقعوا في الأسر، فليكن قلبك ثابتًا، ولتكن نفسك طيّبة...إلخ. ثمَّ وعده خيرًا.

ثمَّ إنَّ فرنسيس الأول تخلّص من أسره بموجب معاهدة مجريط، ولكنّه لم يعدل عن خطّته من جهة محالفة السلطان سليمان وكتب إليه يشكره قائلاً له: إنّنا مغتبطون بما نراه من كرم أخلاقك، وما وعدتنا به من المساعدة في حالتنا الحرجة...إلخ. ثمَّ أخذ فرنسيس الأول يجتهد في إقناع شعبه بأنَّ تقرّبه إلى العثمانيين يكون وسيلة لنشر نفوذ فرانسة في الشرق،

ومحافظتها على المسيحيين الذين هناك، وقد حصل بالفعل على امتيازات عديدة للفرنسيس بموجب الخطّ الشريف السلطاني المؤرّخ في ٢٠ سبتمبر سنة ١٥٢٨، فإنَّ السلطان سمح للفرنسيس والكتالان أن يجولوا في مصر ويتجروا كما يشاؤون، وأنهم في الخصومات التي بينهم يراجعون قناصلهم فيما عدا الدم إذ يبقى الحكم فيه لقضاة الشرع. وأذِنَ للفرنسيس والكتالان بإنفاذ وصاياهم وأنَّ القناصل يحرّرون التركات، وغير ذلك من الامتيازات التي تساهل فيها السلطان ليتّخذ من فرانسة رِدءًا ضدّ ألمانية.

ثمَّ إنّه جرى كلام بين فرانسة والسلطان بموجبه يتولّى أحد أولاد ملك فرانسة على عرش المجر. وكانت الحرب قد اشتعلت بين المجر والعثمانيين، فكان العثمانيون من جهة ومعهم الأمير «سابوليا الترانسلڤاني» المولّى من قبلهم على المجر؛ والمجر والنمسويون من جهة أخرى. فانكسر سابوليا ودخل فرديناند، أخو شارلكان، إلى بودابست. فزحف الجيش الإسلامي بقيادة ابراهيم باشا ـ وكان الجيش مائتين وخمسين ألف مقاتل ـ فدخل العثمانيون بودابست وأعادوا سابوليا إلى الملك. وجاء أمير البغدان وخضع للسلطان وسار السلطان سليمان في شهر سبتمبر سنة ١٥٢٩ إلى ڤينا يحاصرها ومعه مائة وعشرون ألف مقاتل، وأربعمائة مدفع، ولاقاه في نهر الطونة ثمانمائة قلع. ولم يكن في ڤينا أكثر من ستّة عشر ألف مقاتل، واثنين وسبعين مدفعًا، ولم تكن الأسوار متينة، ولكن خوف الألمان على بلادهم بعث فيهم حمية خارقة للعادة، فصدّوا هجمات العثمانيين كلّها. ويقال إنَّ السلطان خسر في هذا الحصار أربعين ألف جندي، واضطرّ إلى الرجوع خائبًا، وهي أول خيبة عرفتها جيوش سليمان القانوني!

ولمّا رجع السلطان إلى بودابست توّج سابوليا ملكًا على المجر، وكان فرديناند أخو شارلكان يسعى في استمالة ابراهيم باشا حتّى يقنع السلطان بقبوله ملكًا محلّ سابوليا، فعرض على ابراهيم باشا الرشوة فلم يجبه إلى شيء، وبقيت الحرب تشتعل وفي سنة ١٥٣٢ استولى العثمانيون على «غون Guns» بعد حصار شديد، ثمَّ بثّوا الغارات في إستيريا من بلاد النمسا، وحصلت هناك معارك كانت فيها الحرب سجالاً وجاء أمير البحر «أندري دوريا» المشهور فعاث في بلاد اليونان، واستولى على الحصون التي كان بناها السلطان بايزيد على جوانب خليج ليبانت، ثمَّ حصلت متاركة بين السلطان وبين شارلكان أراد السلطان خلالها أن يتفرّغ لمحاربة العجم، وذهب ابراهيم باشا على رأس جيش جرّار

فاستولى على تبريز، ولكنّه عامل الأهالي بالرفق. وزحف السلطان بنفسه واستولى على بغداد، ورجع ظافرًا بعد أن غاب أربعة أشهر.

وفي ذلك الوقت اشتهر في البحر المتوسّط "أندري دوريا"، أمير الأساطيل المسيحية، وبمقابلته "خير الدين بربروس"، أمير الأساطيل الإسلامية؛ وكان هذا في مبدأ أمره هو وأخوه "عروج" من متلصصة البحر، ثمَّ دخلا في خدمة السلطان محمَّد الحفصي، صاحب تونس، ومن هناك امتدّت سلطتهما على سواحل الجزائر. وقُتل عروج في حرب بينه وبين الاسبانيول على تلمسان، فانفرد بالأمر أخوه خير الدين، وسمّاه السلطان أمير البحر سنة ١٥٣٣، وأخذ يعيث في البحر المتوسّط، ويغزو سواحل إيطالية. ثمَّ استولى على تونس فاضطرّ شارلكان إلى غزو تونس وأخذها عنوة. وأطلق فيها خمسين ألف أسير مسيحي، وأعاد سلطانها مولاي الحسن على شرط أن يؤدّي له الإتاوة، وأن تبقى هناك حامية اسبانيولية.

ثمَّ إنَّ فرنسيس الأول أرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه المحالفة مع معاهدة تجارية على أنَّ سليمان وفرنسيس يحاربان شارلكان إذا كان شارلكان يمتنع عن إعادة دوقية ميلانو، وجنوة، وبلاد فلاندر، إلى فرانسة. وطلب من السلطان سليمان أن يقرضه مليونًا من الذهب حتّى يقوم بنفقات الحرب اللازمة، وكذلك كان من جملة الاقتراحات أن يغزو خير الدين جزيرة صقلية، ومملكة نابولي وجزيرة سردينية، وكان المتولّي لهذه المهمّة الوزير الإفرنسي "جان دولا فوره Jean de la Forest" فانعقدت معاهدة تتضمّن حرّية التجارة بين المملكتين العثمانية والإفرنسية برًّا وبحرًا، وأن تكون الدعاوى بين الفرنسيس جزائية كانت أو حقوقية متعلّقة بقناصل فرانسة. وإذا وقعت جناية من إفرنسى فلا يساق كسائر الناس إلى الحبس، بل لا بدّ أن يساق إلى الباب العالي، وأنَّ تجّار الفرنسيس لا يؤدّون إلاّ خمسة في المائة عن بضائعهم، وأنَّ الإفرنج من غير الفرنسيس كالإنكليز، والكتلان والصقليين، والجنوية؛ ممَّن ليست بينهم وبين الدولة العثمانية معاهدات إذا سافروا تحت العلم الإفرنسي يتمتّعون بالحقوق التي يتمتّع بها الفرنسيس، ولكن برغم الحرّية الدينية التي يكفلها السلطان لرعايا فرانسة لا يحقّ أن يملك الفرنسيس، ولا تملك الكنائس اللاتينية عقارات في بلاد الإسلام، وكذلك الإفرنسي الذي يتزوّج بمسيحية عثمانية تكون أولاده من رعايا السلطان، وتضمّن الاتّفاق تحالفًا عسكريًّا في الهجوم والدفاع، فالسلطان تعهّد بمهاجمة مملكة

المجر، ومملكة نابولي، والملك فرنسيس تعهّد بشنّ الغارة على بلاد لومبارديا، وجرى الاتّفاق على أنَّ المدن الإيطالية التي يستولي عليها الأسطول العثماني يكون للأتراك حقّ انتهابها وسَوق أهلها أسرى، ولكن ملكية هذه المدن تعود إلى ملك فرانسة. ولمّا انعقدت هذه المعاهدة كانت اليد الطولى في عقدها لابراهيم باشا الصدر الأعظم، ويقال إنّه جعل توقيعه في ذيل هذه المعاهدة بأسم (سر عسكر سلطان) فغاظ ذلك سلطان سليمان وأساء فيه الظنّ وفي ٥ مارس ١٥٣٦ ذهب ابراهيم باشا إلى السراي بحسب عادته فقُبض عليه وخُنق وتولّى مكانه إياس باشا الأرناؤطي. وكان السلطان سليمان والملك فرنسيس اتّفقا على إدخال جمهورية البندقية في هذه المعاهدة، فأبى البنادقة أن يدخلوا في هذا العقد فغزاهم السلطان بأسطول يبلغ مائة شراع، فاجتاح سواحلهم ورجع بعشرة آلاف أسير، واستولى على جزر الأرخبيل اليوناني.

وجاء أمير البحر أندري دوريا، قائد أساطيل شارلكان، لينازل الأسطول الإسلامي فدارت الدائرة على أندري دوريا، وذلك في واقعة «بريڤيزا» التي وقعت في سبتمبر ١٥٣٨. وفي السنة التالية حشد السلطان مائة ألف مقاتل في ألبانيا ناويًا شنّ الغارة على إيطاليا، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية، فأنزل عساكره في مدينة «أوترانت». وانتظر السلطان من ملك فرانسة أن يزحف على شمالي إيطالية ويرسل أسطوله لمعاونة الأسطول العثماني، فلمّا انتشر هذا الخبر في الأمم النصرانية قامت له وقعدت ولم يجرأ فرنسيس على الإتيان بحركة، بل اشترط لأجل الهجوم على مملكة «بيمون» أن يخرج الأتراك من إيطاليا، وعقد معاهدته مع شارلكان فلم يقع ذلك عند السلطان سليمان موقعًا حسنًا، لكنّه اجتنب أن يخرق عهده لملك فرانسة، واستمرّت الحرب بين السلطان وبين شارلكان ومعه البنادقة، وكانت الحرب بين السلطان والبنادقة سجالاً، إلاّ أنَّ البنادقة اضطرّوا أخيرًا إلى طلب الصلح وتركوا جميع جزر الأرخبيل الرومي، وتخلّوا عن دالماسيا، ودفعوا غرامة حربية للسلطان ثلاثمائة ألف دوكة. وفي ذلك الوقت مات اياس باشا بالطاعون وكان أرناؤطيًّا في الأصل من عائلة كاثوليكية؛ وكان ممدوح السيرة، فتولّى مكانه لطفي باشا وكان أرناؤطيًّا أيضًا. وكان السلطان أزوجه بشقيقته، واشتعلت الحرب في بلاد المجر بين العثمانيين والنمسويين، وثار أمير البغدان متّفقًا مع النمسا، فولّى السلطان أخاه مكانه وفي أثناء هذه الحرب مات سابوليا ملك المجر من قبل السلطان سليمان فتولّت الأمر امرأته إيزابيلا، فزحف جيش النمسا لحصار بودابست، فاستصرخت الملكة إيزابيلا السلطان سليمان فزحف بنفسه وجاؤا

للسلطان بابن سابوليا وهو طفل عمره سنة وإذا بالانكشارية دخلوا بغتة إلى "بود" وتحوّلت هذه البلدة من بلدة مجرية إلى بلدة إسلامية. فاعتذر السلطان للملكة إيزابيلا بأنَّ مقصده بذلك تأمين بلاد المجر من غائلة النمسا وأنه متى بلغ ابنها رشده يسلّمه مدينة بود.

وكان "رنسون ـ Rincon"، سفير فرانسة في القسطنطينية، يعمل ليلاً ونهارًا لأجل بقاء الاتّحاد بين فرانسة وتركية، وكان هذا السفير يلوم مولاه فرانسيس الأول على مهادنته لشارلكان، وفي أثناء ذلك انخدع فرانسيس بسياسة شارلكان وأرسل إلى السلطان سليمان يطلب منه مصالحة عدوه شارلكان، فاستغرب السلطان هذا الطلب!! ولكن رنسون أصلح خطأ سيِّده، فكتب السلطان إلى فرانسيس قائلاً له: "إنَّ شارل ملك أسبانيا يلتمس الهدنة بواسطتك، فإذا كان يريد الهدنة وكنت أنت تريد ذلك من قبلك فأنا أشترط عليه بأن يردّ لك جميع البلاد والحصون والأراضي التي أخذها منك، فإذا قام بهذا الشرط، وأنت أعلمت بابي العالي بذلك، فأنا أعمل لك ما تشاء".

وظهر أنَّ الحقّ كان مع السلطان سليمان، وأنَّ الإمبراطور شارلكان كان قد خدع ملك فرانسة، ثمَّ تجدّدت الحرب وبعث فرانسيس الأول يلتمس من السلطان تجريد الأسطول العثماني كلّه لمباشرة الحرب، وكان للسفير رنسون اليد الطولى في ذلك. فأرسل شارلكان مَن قتل رنسون السفير الإفرنسي غيلة بحجّة أنه خائن للنصرانية فكتب فرانسيس الأول إلى ندوة نور نبرغ يشكو عمل شارلكان، ويتّهمه بأنه زوّر وثائق لا صحّة لها تبرئة لنفسه من ذلك الجرم.

وبلغ السلطان سليمان مقتل رنسون بينما كان في "بود" فبلغ منه الغضب أنه كاد يقتل سفراء النمسا الذين عنده، ولولا توسّط المعتمد الإفرنسي "بولين Boline" الذي أتاه بخبر قتل رنسون لكان السلطان من شدّة غضبه قتلهم. وأمّا سياسة فرانسيس الأول فكان قد ظهر للسلطان أنها سياسة تذبذب، وكاد يرغب عن صحبته إلاّ أنَّ بولين المعتمد الإفرنسي التجأ إلى خير الدين بربروس، وكان هذا أصبح مقرّبًا جدًّا عند السلطان لا سيّما بعد أن كسر أسطول شارلكان في بحر الجزائر، وكان بربروس يميل إلى فرانسة. فما زال بالسلطان حتّى أقنعه بإرسال الأسطول العثماني نجدة لملك فرانسة على الإمبراطور شارلكان، وذلك سنة ١٥٤٣. فسار الأسطول العثماني إلى "نيس" بقيادة خير الدين بربروس، وكان مركبًا من مائة وعشر بوارج عليها أربعة عشر ألف مقاتل، فانضمّ إليه أسطول ملك فرانسة بقيادة

الكونت "دانغين d'enghien" وكان مركبًا من أربعين بارجة عليها سبعة آلاف مقاتل فاستولى العثمانيون والفرنسيس على نيس، ولكنّهم اختلفوا وقامت قيامة النصرانية على فرانسيس الأول من أجل تحالفه مع المسلمين على النصارى، ومن أجل موافقته على إذلال النصرانية في بلادها، حتّى قيل: إنَّ الكنائس في سواحل نيس لم تكن تجرأ على قرع أجراسها مدّة إقامة الأسطول العثماني أمام نيس.

فتصالح فرانسيس الأول مع شارلكان، ووجّه السلطان قوّته إلى حرب المجر ففتح "ڤالبو" و"سيكلوز" و"غران" و"نيوغراد" و"ڤيس غراد" و"ڤيلكا" وغيرها، فأرسل شارلكان وأخوه فرديناند يلتمسان الصلح من السلطان وكاد السلطان يجنح إلى الصلح لولا مساعي "جبرائيل دارامون d'Aramont"، سفير فرانسا، الذي كان يهوّن على السلطان أمر شارلكان، قائلاً له: إنّه في المقيم المقعد مع أمراء البروتستانت في ألمانيا. فعاد السلطان سليمان وأجمع على الحرب وقرّر الزحف، وكتب بذلك إلى الملك فرانسيس في شهر مايو ١٥٤٧، فوصل كتاب السلطان إلى فرانسة بعد وفاة فرانسيس الأول. فتبدّلت الحالة، وجنح السلطان إلى مصالحة شارلكان، وانعقدت بينهما متاركة لمدّة خمس سنوات على أن يدفع الأمير فرديناند أخو شارلكان للسلطان العثماني خمسين ألف دوكة كلّ سنة جزية عن القسم الباقي من بلاد المجر تحت ولايته.

ولمّا استراح فكر السلطان من جهة أوربة وجّه نظره إلى آسيا، فاستنجده أمراء الإسلام في الهند على البرتغال، وأنجدهم، وأرسل فاحتلّ اليمن، ووقع القتال بين العثمانيين والزيديين، وكتب السلطان إلى إمام صنعاء يعاتبه على قتاله للجيش العثماني ولكن الإمام أجابه بجواب سديد قائلاً له: إنّا نعلم بلاءك العظيم في حفظ بيضة الإسلام، ولا نشكو منك، وإنّما نشكو من سوء إدارة عمّالك، وقد كان الأولى بهم أن يسوقوا هذه القوّة على الكفّار بدلاً من أن يسوقوها على المسلمين الذين هم على كلّ حال تبعة السلطان. وهذا الكتاب مذكور في تاريخ البرق اليماني. ثمَّ جاء ابن شاه العجم والتجأ إلى السلطان، فزحف السلطان إلى تبريز، وفتحها بعد أن فتح "وان" ثمَّ فتح جانبًا من "كرجستان".

وبينما كان جيشه يتقدّم في آسيا إذ تجدّدت الحرب في بلاد المجر، وذلك أنَّ الملك سابوليا كان أوصى امرأته إيزابيلا بقسّيس اسمه "جورج مارتيموزي" فصارت تعمل برأيه، وكان هذا القسّيس يشتغل لفصل الملكة إيزابيلا عن السلطان ولتأليفها مع الأمير فرديناند، وأقنعها بأن تترك له "ترانسلڤانيا" و"البانات" وكلّ ذلك لم يعلم به السلطان إلاّ فيما بعد. فلمّا بلغه

الخبر سيّر ثمانين ألف مقاتل فعبرت نهر الطونة، واستولت على «ليبا» واشتدّت الوقائع، ولكنّها انتهت بظفر السلطان. وأرسل أحمد باشا على أثر الواقعة أربعة آلاف أنف من أنوف النمسويين إلى الأستانة ورجعت «أطمشوار» و«البانات» إلى حكم الدولة العثمانية، وأخذ العثمانيون البارون «غوندن دورف» أسيرًا مع أربعة آلاف مقاتل.

ثمَّ استولى فرسان مالطة على طرابلس الغرب، فأرسل السلطان الأسطول العثماني فطردهم منها وضمّ تلك البلاد إلى السلطنة العثمانية. وكان هنري الثاني بن فرانسيس الأول لا يقلّ رغبة عن أبيه في محالفة الدولة العثمانية، وفي سنة ١٥٥١ تعهّد هنري الثاني للسلطان بتأدية ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية بدلاً عن مساعدة الأسطول العثماني لفرانسة ورهن تحت ذلك جانبًا من سفنه، واتّفقا على أنَّ السلطان ينجده بستّين مركبًا حربيًّا وخمسة وعشرين مركبًا من مراكب القرصان، وأنه إذا أراد ملك فرانسة أن يستعمل هذه القوّة البحرية خارجًا عن بحر طوسكانة فعليه أن يؤدّي مائة وخمسين ألف ذهب وتقرّر أنَّ جميع السفن التي يغنمها الأسطول العثماني تكون ملكًا للسلطان، وأنَّ المدن التي يستولي عليها العثمانيون يصير رجالها وأموالها ملكًا أيضًا للسلطان، إلاّ أنَّ المدن نفسها تصير لملك فرانسة، وتقرّر أنَّ الأسطول العثماني يكتسح ما شاء من ممالك شارلكان، ويسبي بقدر ما يستطيع. وسار الأسطول العثماني بقيادة «طورغوت ريس» وانضمّ إليه الأسطول الإفرنسي بقيادة «البارون لا غارد» فاكتسحا بلاد كالابرة وصقلية، واحتلاّ كورسيكا، ودانت لهما جميع المدن التي في تلك السواحل.

إلاّ أنه لم يلبث الخلف أن وقع بين الحلفاء لأنَّ الإفرنسيس اعترضوا على عدم حرمة العثمانيين للدم، والدين، والمال، فافترق الأسطولان، وغضب السلطان على «طورغوت» وأرسل أسطولاً آخر بقيادة بيالي باشا كان عدده سبعين بارجة حربية ولكن هذه المرّة أيضًا لم يقع الوفاق بين أمراء الأسطولين. والفرنسيس يقولون إنَّ قوّاد الترك لم يكونوا يفكّرون إلاّ في النهب والسبي، وأرسل هنري الثاني إلى سفيره في القسطنطينية يقول له: إنِّي مع الأسف لم أقدر أن أستفيد من عضد الجيش العثماني لي لا لعدم رغبة السلطان في ذلك؛ بل لاهتمام قوّاده بالغنائم دون الاهتمام بتنفيذ إرادة مولاهم. ومن بعد هذه الواقعة تصالح هنري الثاني ملك فرانسة مع فيليب الثاني ملك أسبانيا وملحقاتها، وعادت المحالفة التركية الإفرنسية من ذلك التاريخ حبرًا على ورق، لا سيّما أنَّ السلطنة العثمانية بعد السلطان سليمان بدأت بالتقهقر.

وكان السلطان سليمان في آخر حياته قد اختلف مع أولاده، لأنَّ وزيره الأعظم «رستم باشا» وشى للسلطان على ولده مصطفى، وكان العسكر يحبّ مصطفى حبًّا جمًّا لكرمه وشجاعته، وكان العلماء والأدباء يحبّونه أيضًا لاعتنائه بالعلم والأدب فزيّن رستم باشا للسلطان أنَّ ابنه يريد أن يخلعه ويجلس مكانه، ووقّر ذلك في نفس السلطان، فأمر بقتل ولده مصطفى في مخيّمه وهو في الأناضول، وذلك في ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣ وكان لمصطفى ولد في بروسة فقتلوه أيضًا، وبكت المملكة كلّها على مصطفى لِما كان له من المنزلة في قلوب الأمّة، ولا سيّما عند العلماء وعند العساكر ـ أي رجال السيف والقلم معًا ـ وكان مصطفى شاعرًا له أغزال لطيفة نشرها تحت اسم مستعار (مخلصي) وكان له تفسير للقرآن، وتعليقات على البخارى وكتب نحوية، ورثاه الشعراء ولم يخشوا والده وكان لمصطفى أخ اسمه «جهانغير» فمات حزنًا على أخيه، وثارت العساكر على السلطان وطلبت عزل الصدر الأعظم رستم باشا الذي كان الواشي بالأمير مصطفى، وكان السبب في هذه المأساة التي جرحت القلوب بأجمعها، وكان مرجع كلّ هذه الدسائس إلى السلطانة «خورشم» التي كانت تهيّء العرش للأولاد الذين منها. وكان رستم باشا صهرها، وهي التي في الحقيقة قتلت الصدر الأعظم ابراهيم باشا، ثمَّ قتلت الصدر الأعظم أحمد باشا الذي كان قد خلف صهرها في الوزارة وهي التي قتلت الأمير مصطفى ابن السلطان.

ثمَّ نشبت الحرب من جديد بين العثمانيين والمجر، فزحف خادم علي باشا على بلاد المجر واستولى على عدّة من المدن، وقام المجر يقاتلونه وعلى رأسهم الأمير فرديناند، ولكن الدولة اضطرّت إلى توقيف الحرب والمتاركة، نظرًا لِما طرأ من الحوادث في بيت السلطنة، لأنَّ الأمير بايزيد ابن السلطان ثار على أبيه على أثر دسائس بين الوزراء، لا محلّ لذكرها هنا فجمع بايزيد عشرين ألف جندي وقاتل بهم عساكر أبيه، فتغلّب أبوه عليه وفرّ بايزيد مع ولده أورخان إلى أماسية، ومن هناك كتب إلى والده يلتمس منه العفو، فوقع الكتاب والرسول في يد «لالا مصطفى باشا» الذي كان عدوًّا لبايزيد، فأخفى الكتاب عن السلطان، ولمّا لم يجد بايزيد جوابًا من أبيه ذهب ملتجئًا إلى شاه العجم، وكان معه اثنا عشر ألف جندي، فقبله الشاه طماسب برًّا وترحيبًا في ظاهر الحال، ولكنّه وضع نصب عينه استثمار هذه الحادثة بقدر الاستطاعة. وبالاختصار فقد قبض طماسب أربعمائة ألف ذهب، وقتل بايزيد مع أولاده الأربعة، وكان لبايزيد طفل في بروسة في سنّ ثلاث سنوات فقتلوه أيضًا.

وكان قد تولّى الوزارة علي باشا، وكان رجلاً حليمًا كريمًا، يكره الشرّ، فعقد مع النمسا صلحًا في يوليو سنة ١٥٦٢، وبعد عقد هذا الصلح تفرّغ السلطان لمشروعاته البحرية، وأجمع غزو مالطة. فسير يبالي باشا قبطان البحر، ومعه صالح بك، أمير الجزائر، ودراغوت، أمير طرابلس، وكان الأسطول العثماني مؤلّفًا من مائة وثمانين بارجة وفي ٢٠ مايو ١٥٦٥ أنزل الأسطول عشرين ألف عسكري في مالطة وبدأوا بحصار قلعة "سنت إيلم Saint - Elme" وفي أول يوم من المهاجمة سقط "دراغوت" أمير طرابلس قتيلاً، وبقي الأتراك يضيّقون على ذلك الحصن حتّى أخذوه عنوة ولكن أدّوا عنه ثمنًا غاليًا جدًّا.

وكان رئيس فرسان مالطة "بطرس لاڤاليت" فأرسل قائد الجيش العثماني مصطفى باشا يعرض عليه الاستسلام، فأجاب بأنه ليس أمامه سوى الدفاع أو الموت، إلاّ أنَّ الخبر ورد بأنَّ الحرب نشبت من جديد في بلاد المجر، فأقلع العثمانيون عن مالطة، وذلك أنه كان الأمير "فرديناند" قد مات وخلفه ابنه مكسيمليان، وكان راغبًا في الصلح، إلاّ أنَّ إتيان بن سابوليا، ملك المجر، من قِبل الدولة العثمانية تجاوز حدود النمسا ودخل بلدة "ساتمار" فلم يسع مكسيمليان إلاّ أن يحشد جيشه ويدخل إلى بلاد المجر، وكان علي باشا الصدر الأعظم قد مات فخلفه "محمَّد باشا سوقولوڤيتش" من بوسنة، وكان راغبًا في الحرب. فدخلت الجيوش العثمانية في "كرواسية" "وترانسلڤانيا" وجاء السلطان سليمان إلى بلاد المجر، ودخل عليه إتيان بن سابوليا فوعده بأنه لن يفارق المجر قبل أن يوطّد له ملكه، فحصر السلطان بنفسه مدينة "سيغيت Szigeth" واستولى عليها، وامتنعت القلعة وبقي العثمانيون يحاصرونها مدّة أربعة أشهر، في أثنائها مات السلطان سليمان فأخفى سوقولوڤيتش خبر موته عن الجيش وكانت وفاة السلطان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦ وفي ٨ سبتمبر استولى العثمانيون على القلعة وذبحوا كلّ من فيها، وبقي الصدر الأعظم كاتمًا موت السلطان عن الجيش يقرأ الأوامر بآسمه إلى أن وصل السلطان الجديد من كوتاهية.

ولا شكّ في أنَّ السلطان سليمان القانوني كان أعظم سلطان أنجبه البيت العثماني، وبرغم ما عابوه من انقياده للسلطانة التي كانت أحظى حظاياه المسمّاة "روكسلان"، وبرغم قتله وزيره ابراهيم باشا الذي كان عماد سلطنته، وقتله أولاده فقد قال المؤرّخ "هامر Hammer"، أشهر مؤرّخ لسلطنة آل عثمان: "إنَّ هذه الأغلاط لا ينبغي أن تنسينا محاسن هذا السلطان الباهرة، التي جعلت من زمانه العصر الأكبر للسلطنة العثمانية، وذلك بعلوّ

همّة هذا السلطان، وسعة عقله، ومتانة عزمه، وشدّة بأسه، مع محافظته التامّة على الشريعة الإسلامية، ومع حبّه للنظام والضبط، ومع تثميره للمملكة وخيراتها، ومراعاة الاقتصاد مراعاة لا تخلّ بشيء من إظهار عظمة الملك، والبذخ في مقام البذخ، وكان السلطان سليمان محبًّا للعلم والعلماء موقرًا لهم عارفًا بأقدارهم، لا يألو جهدًا في الإحسان إليهم، والاعتناء بشأنهم».

وقال المؤرّخ الإفرنسي «لاجونكيير La Jon quiere»: إنَّ عصر سليمان القانوني لم يكن له نظير؛ سواء من جهة الفنون والآداب، أو من جهة المفاخر الحربية سوى عصر لويس الرابع عشر في فرانسة، مع الفرق بأنَّ دور سليمان انتهى كما بدأ في عنجهية الظفر، ولم تكن نهاينه إدبارًا وبدايته إقبالاً، ولم يعهد أنَّ السلطنة العثمانية أنجبت في عصر من الأعصر من أعاظم الرجال بقدر ما أنجبت في عهد السلطان سليمان فقد نبغ فيها من رجال السياسة؛ ابراهيم باشا، ورستم باشا، وصقولي باشا. ومن رجال البحر؛ خير الدين بربروس، وطور غوت، ودراغوت، وبيالي. ومن قادة الجيوش فرهاد باشا، وأرسلان باشا، وحمزة باشا، وميكال أوغلي. ومن كتّاب السلطنة جلال زادة، ومحمَّد إيغري عبدي. ومن الفقهاء؛ أبو السعود أفندي، وابن كمال باشا.

ونبغ في عصره من الشعراء؛ عبد الباقي الذي كان عند الأتراك كما كان المتنبّي عند العرب، وحافظ عند الفرس. وكان السلطان سليمان يجلّ عبد الباقي إجلالاً زائدًا ويجعله حلية عصره. ولمّا كان السلطان سليمان نفسه شاعرًا فقد بعث إليه بأبيات يلقّبه فيها بشاعر آل عثمان. ومن شعراء ذلك الوقت يحيى بك الذي رثى الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان ولم يحقد عليه السلطان بسبب ذلك، بل خصّص له مرتّبًا. ومن شعراء ذلك العصر فضولي، والرواني، والسامعي، وغيرهم. ومن مآثر السلطان سليمان المعدودة؛ جامع السليمانية الذي لا يوجد بناء أجلّ ولا أدقّ منه في أبنية آل عثمان، وكذلك جامع السليمية الذي بني على قبر السلطان سليم الأول. وجوامع محمَّد وجهانغير في غلطة. وجامع السلطانة الخاصكي. وفي زمانه جرى إصلاح قناة المياه المسمّاة بـ «قناة يوستنيانيوس» في استانبول. وكذلك جدّد السلطان سليمان قناة جديدة على الحنايا إلى دار السلطنة، ولو شاء الكاتب أن يحصي جميع مآثر السلطان سليمان من الأبنية الفخمة، والآثار الخالدة، لاحتاج إلى كتاب كبير، وهو مع ذلك إنّما تخصّص بالقوانين حتّى أطلق عليه المؤرّخون اسم «القانوني» وكان له مزيد الاعتناء برتب العلماء، وتوفير الجرايات لهم، وإغنائهم عن الناس. وقد ميّزهم في أمور كثيرة وهذا دأب جميع آل عثمان.

وله قوانين كانت في غاية الحكمة، لولاها لم تكن السلطنة العثمانية بلغت ما بلغته من السعادة في زمانه، فإنّ الحروب بينه وبين دول النصرانية، وبين دول آسيا أيضًا كانت متّصلة، وكانت الجيوش تتلو الجيوش، والزحوف تتبع الزحوف، وجميعها تقدّر بمئات الألوف من العساكر، فلو لم تكن البلاد معمورة، والنعم موفورة والأرزاق فائضة، والخيرات دارّة؛ لم يكن يتيسّر للسلطان قضاء نصف قرن في الجهاد المستمرّ، وتعبية الجيوش الجرّارة بدون استنزاف حياة المملكة. والحقيقة أنّ السلطان وجّه عناية خاصّة إلى مسئلة تنظيم المالية، وترتيب الخراج، بشكل يفي باحتياجات الدولة بدون أن يرهق الرعية. وبلغت واردات السلطنة في أيّامه نحوًا من تسعة ملايين وعشرين ألف دوكة!! هذا عدا واردات الخزانة الخاصّة التي كانت تبلغ أيضًا خمسين ملايين دوكة، هذا ولمّا بلغ سليمان سنّ الكبر صار قليل الخروج إلى الديوان، وصار الوزراء يستبدّون ويسترسلون إلى شهواتهم ـ وفي هذا أصاب سليمان من الانتقاد ما أصاب عبد الرحمن الناصر الأموي الذي يشبه سليمان في طول مدّة حكمه، بل تولّي عدّة سنوات زيادة على حكم سليمان ـ ويشبهه في سعة ملكه، وعظمة أعماله، وتوالي فتوحاته، وسعادة الرعية في ظلّه، ولكنّه في آخر الأمر اعتمد على خواصه، وأخلد إلى الراحة. فشكا الرعية من عمّاله، وتناولوه باللوم، وأشرعوا إليه أسنة الانتقاد، ولكنّه لم يمنع هذا أن يكون عبد الرحمن الناصر وسليمان القانوني كلّ منهما نسيج وحده، وأن يكون مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى.

وجاء في «شذرات الذهب» أنه في سنة ٩٧٤ كما في «النور السافر» أو ٩٧٥ كما في كتاب «الأعلام». توفّي السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادي عشر من ملوك آل عثمان. قال في الأعلام: كان سلطانًا سعيدًا، ملكًا أيّده الله بنصر الإسلام تأييدًا، ولّي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ستّ وعشرين وتسعمائة، وجلس على تخت السلطنة وما دَلِيَ أنف أحد، ولا أريق في ذلك محجمة من دم. ومولده الشريف سنة تسعمائة، واستمرّ في السلطنة تسعًا وأربعين سنة، وهو سلطان غاز في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، مرغم أنوف عداه، بلسان سيفه وسنان قناه، كان مؤيّدًا في حروبه ومغازيه، مسدّدًا في آرائه ومعازيه، مسعودًا في معانيه ومغانيه، مشهودًا في وقائعه ومراميه، أيان سلك ملك، وأنّى توجّه فتح وفتك، وأين سافر سفر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفّار والملاحدة بقوّة الطعان والضرب. وكان مجدّد دين هذه الأمّة المحمّدية في القرن العاشر، مع الفضل الباهر،

والعلم الزاهر، والأدب الغض الذي يقصر عن شأوه كلّ أديب. وشاعر إن نَظَم فعقود الجواهر أو نثر فمنثور الأزاهر، وإن نطق قلّد الأعناق نفائس الدرّ الفاخر. له ديوان فائق بالتركي، وآخر عديم النظير بالفارسي، تتداولها بلغاء الزمان، وتعجز أن تنسج على منوالها فضلاء الدوران. وكان رؤوفًا شفوقًا، صادقًا صدوقًا، إذا قال صدق، وإذا قيل له صدّق، لا يعرف الغلّ والخداع، بل يتحاشى عن سوء الطباع، ولا يعرف المكر ولا النفاق، ولا مساوي الأخلاق، بل كان صافي الفؤاد، صادق الاعتقاد، منوّر الباطن، كامل الإيمان، سليم القلب خالص الجنان.

وما تناهيت في بثّي محاسنه   إلاّ وأكثر ممّا قلت ما أَدَعُ

وأطال صاحب الأعلام في ترجمته وترجمة أولاده، وذكر غزواته، فذكر له أربع عشرة غزوة انتصر وفتح في جميعها، وذكر كثيرًا من مآثره، فمن ذلك الصدقة الرومية التي هي الآن مادّة حياة أهل الحرمين الشريفين، فإنّه أضاف إليها من خزائنه الخاصّة مبلغًا كبيرًا. ومنها صدقات الجوالي ـ ومعناه ما يؤخذ من أهل الذمّة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمّة وعدم جلائهم عنها ـ وهي من أجلّ الأموال ولأجل حلّها جعلت وظائف للعلماء والصلحاء، والمتقاعدين من الكبراء. ومنها إجراء العيون، ومن أعظمها أجرًا عين عرفات إلى مكّة المشرفة، ومنها بمكّة المدارس الأربع، ومنها تكيّته ومدرسته العظيمة بمرجة دمشق، إلى غير ذلك ممّا لا يحصى فرحمه الله رحمة واسعة. انتهى ملخّصًا. ومَن أراد البسط الزائد فليراجع الأعلام. أ.هـ.

قلت: كان سليمان القانوني يجمع أحيانًا بين الأضداد، فإنَّه قد اشتهر عنه من الرأفة والعفو ما لا خلاف فيه، كما أنه ثبت كونه أمر بقتل أولاده الذين بلغه أنهم كانوا يريدون أن يخلعوه، والملك ـ كما يقال ـ عقيم، فلا تنفع في جانب الاستئثار بالملك رأفة ولا شفقة، وهذا من وجوه الشبه أيضًا بين السلطان سليمان القانوني والخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، الذي قتل أيضًا ابنه. وكان الحامل له على قتله سبب أشبه بالسبب الذي حمل السلطان سليمان على قتل ابنه مصطفى، وهو ولوع الناس به، وحوم القلوب عليه، واشتهاره بالعلوم والآداب.

هذا وقد رثى السلطان سليمان المفتي أبو السعود العمادي الشهير بمرثية هي وإن كانت من شعر العلماء، وعلى لهجة الفقهاء؛ فهي لا تخرج عن طبقة الشعر العالي قال:

أَصوتُ صاعقةٍ أم نفخةُ الصور ... فالأرض قد ملئت من نقر ناقور
أم ذاك نعيُ سليمان الزمان ومن ... قضت أوامره في كلّ مأمور
وَمَنْ وَمَنْ ملأ الدنيا مهابته ... وسخرت كلّ جبّار وتيمور
مجاهد في سبيل اللّه مجتهد ... مؤيّد من جناب القدس منصور
وصدق عزم إلى الخيرات منصرفٍ ... وحُسن لحظٍ على الألطاف مقصور

ومنها:

يا نفس مالك في الدنيا مخلفة ... من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلةً ... أليسَ جثمانه فيها بمقبور
يا نفس فاتّئدي لا تهلكي أسفًا ... فأنت منظومة في سلك معذور

وأمّا العلماء الذين نبغوا في زمان السلطان سليمان القانوني، فمنهم المولى خير الدين الذي كان معلّمًا للسلطان، وكان قد حصل على حشمة وافرة بسبب جاهه عند السلطان سليمان، ومع ذلك لم يتبدّل ما في طبعه من التواضع ولين الجانب. ومنهم قادري شلبي، وتقلّب في المناصب العلمية حتّى صار قاضيًا للعساكر، ثمَّ عزل عن ذلك وتولّى الإفتاء بالقسطنطينية ومنهم سعد الله بن عيسى، وأصله من قسطموني وتولّى القضاء بالقسطنطينية، ثمَّ تولّى الإفتاء بها، وكان محمود السيرة مرضيّ الطريقة. ومنهم الشيخ محمَّد بن الياس المشتهر بـ "چوي زادة" تولّى القضاء بمصر، ثمَّ صار قاضيًا للعسكر المنصور، ثمَّ تولّى الإفتاء بالقسطنطينية، ثمَّ تقاعد عن الفتوى وعاد إلى التدريس وكان قوّالاً بالحقّ، صادعًا بالشرع، وقال صاحب "الشقائق النعمانية": إنَّه كان من محاسن الأيام. ومنهم المولى محيي الدين محمَّد بن قطب الدين، وكان مدرّسًا وما زال يترقّى حتّى تولّى قضاء العساكر، ثمَّ عزل عن القضاء فرجع إلى التدريس، ثمَّ ترك التدريس وذهب إلى الحجّ ورجع، وانقطع للعبادة واعتزل الناس. ومنهم المولى حافظ محمَّد بن أحمد باشا بن عادل باشا أصله من بردعة، في حدود العجم، قرأ في تبريز وفاق أقرانه، وبلغ الغاية من العلوم العقلية مع الرسوخ التامّ في الفقه، والتفسير والحديث، ومع الأدب، والتاريخ، ولم يكن يفتر عن الكتابة، وله تآليف كثيرة وشروح وحواش على كتب السيِّد الشريف الجرجاني، وله رسالة اسمها "الهيولي" وله كتاب اسمه "مدينة العلم" جعله ثمانية أقسام، وأورد في كلّ قسم منها اعتراضات على

ثمانية من العلماء المشهورين في الآفاق؛ كصاحب الهداية، وصاحب الكشّاف والبيضاوي، والتفتازاني، والشريف الجرجاني، ونحوهم. وله رسالة اسمها «نقطة العلم» ورسالة أخرى اسمها «معارك الكتائب» ورسالة أخرى اسمها «السبعة السيّارة» وكان بالجملة من أعاظم العلماء، ومنهم الشيخ محمَّد التونسي المغوشي، قال عنه الطاشكُبْري، صاحب «الشقائق النعمانية»: إنّه أجازه، وقال إنّه كان آية من آيات الله الكبرى في العلم والفضل والتحقيق، وكان يقرأ القرآن العظيم على السبع القراآت، بل على العشر. وذلك بدون مطالعة كتاب، وكان يحفظ الشرح المطوّل للتلخيص، مع حواشيه للسيِّد الشريف، ويحفظ شرح المواقف للسيِّد، وشرح المطالع لقطب الدين الرازي، والكشّاف مع حواشي الطيبي، وغير ذلك من الكتب يحفظها بأسرها. ولم يكن يحتاج إلى كتاب، ولا إلى ورقة، بل كان يملي كلّ شيء من حفظه! وقد يكون شأنه في هذا من خوارق العادة، وفي آخر الأمر استأذن السلطان سليمان في الذهاب إلى مصر فرارًا من برد استانبول الذي لم يألفه، وتوفّي في مصر.

ومنهم المولى عبد الفتّاح بن أحمد بن عادل باشا، كان من المدرّسين الكبار وتوفّي وهو يدرّس بمدرسة الوزير ابراهيم باشا في القسطنطينية، ومنهم المولى علاء الدين علي الأصفهاني، وكان أيضًا من كبار المدرّسين، وأصله من بلاد العجم. ومنهم مصلح الدين المشهور بـ «جاك» وأصله من بلاد منتشا، وكان مدرّسًا ثمَّ انقطع عن التدريس، وانقطع للعبادة. ومنهم شاه قاسم بن الشيخ المخدومي من أهل تبريز لمّا فتح السلطان سليم تلك البلدة أتى به معه إلى بلاد الروم، وكان من الأدباء.

ومنهم قاضي زادة الأردبيلي، وهو من تبريز أيضًا، فلمّا فتحها السلطان سليم أتى به أيضًا إلى بلاد الروم. وقد ترجم «تاريخ ابن خلكان» إلى الفارسية وقتل مع الوزير أحمد باشا، نائب السلطان سليمان في مصر. ومنهم محيي الدين محمَّد القراباغي قرأ في بلاد العجم ثمَّ أتى إلى بلاد الروم، وعاش مدرّسًا، وله تآليف منها شرح لرسالة «إثبات الواجب» للدواني، وحواشٍ على شرح «الوقاية لصدر الشريعة» وكتاب في المحاضرات اسمه «جالب السرور» وقد تلقّى علماء عصره هذه الكتب بالقبول. ومنهم ابن الشيخ الشبشري، وقرأ في بلاد العجم، وجاء إلى بلاد الروم وله قصيدة بالفارسية مقدار ستّين بيتًا مصراع كلّ بيت منها تاريخ لجلوس السلطان سليمان وكان المصراع الأخير تاريخًا لفتح قلعة رودس وله كتب وحواشٍ على تآليف السيِّد الجرجاني، وأثنى السيِّد الطاشكوبري عليه في أخلاقه.

ومنهم الشريف العجمي، قرأ في بلاد العجم، ثمَّ جاء إلى بلاد الروم وعاش مدرّسًا ومات وهو مدرّس في إزنيق. ومنهم حسام الدين ابن الطباخ، ولد في مدينة غاليبولي وكان من المدرّسين، وتولّى القضاء ثمَّ ترك القضاء والتدريس، وكان عالي الهمّة لا يتذلّل إلى أرباب الجاه ولا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم محمَّد بن پير محمَّد باشا الجمالي قرأ على والده، ثمَّ على أحمد بن كمال باشا، وتولّى التدريس بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية، ثمَّ صار قاضيًا في أدرنة ومات هو قاضٍ بها. ومنهم المولى عبد اللطيف بن قسطموني، وكان أيضًا من أكابر المدرّسين، ثمَّ استقضى في أدرنة ثمَّ ترك القضاء وكان على جانب عظيم من الصلاح، همّه في آخرته لا في دنياه. ومنهم المولى بايزيد الشهير بـ «نقيضي» وكان مدرّسًا صالحًا لا يلتفت إلى الدنيا، وكان يرضى من العيش بالقليل. ومنهم يعقوب الحميدي، وهو من المدرّسين أيضًا وكان عابدًا متصوّفًا. ومنهم محمَّد الشهير بـ «ابن المعمار» كان مدرّسًا في أسكوب، ثمَّ جاء مدرّسًا في إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية واستقضى في مدينة حلب مرّتين، ومات وهو قاضٍ بحلب، وكان مَرْضيّ السيرة. ومنهم شمس الدين أحمد المشهور بـ «ابن الجصّاص» صار قاضيًا بدمشق، ثمَّ صار مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية، ومات وهو مدرّس بها. ومنهم علاء الدين علي المشهور بـ «جرجين» وكان يدرّس في المدارس المشهورة، ومات وهو يدرّس بإحدى المدارس الثمان. ومنهم سيِّدي المنتشوي الملقّب بـ «الدبّ» وكان من المدرّسين. ومنهم المولى حيدر الملقّب بـ «حيدر الأسود» كان مدرّسًا، ثمَّ استقضى بمدينة حلب ولم تحمد سيرته في القضاء فغضب عليه السلطان وعزله، فعاش في القسطنطينية وبنى مسجدًا ووقف عليه أوقافًا إلاّ أنَّ اشتغاله بأمور الدنيا كان أكثر من اشتغاله بالعلم عفا الله عنه. ومنهم عبيد الله شلبي بن يعقوب الفناري من جهة الأم، كان قاضيًا في مدينة حلب. قال صاحب الشقائق: إنّه كان حميد الأخلاق إلى الغاية، وكان من الكرم بما لا مزيد عليه، وربّما تجاوز حدّ الكرم إلى الإسراف، وملك أموالاً عظيمة وكان ينفقها كلّها، وملك عشرة آلاف مجلّد من الكتب، وله شرح على «البردة الشريفة» من أحسن شروحها.

ومنهم حسام الدين حسين الشهير بـ «كدك حسين» كان من المدرّسين الكبار ومات وهو مدرّس في طرابزون، وكان من أهل التقوى والصلاح. ومنهم محمَّد الشهير بـ «ابن القوطاس» أصل أبيه من بلاد العجم وجاء إلى الروم، وتوفّي محمَّد المذكور وهو يدرّس بمدرسة محمود باشا في القسطنطينية. ومنهم سنان الدين يوسف، ابن أخي الآيديني الشهير

«باخي زادة»، قرأ في بلاد العجم، ودرّس في بلاد الروم وكان عالِمًا سليم النفس على فطرة الإسلام. ومنهم المولى جلال الدين القاضي، كان مدرّسًا ثمَّ صار قاضيًا، وكان عالِمًا فاضلاً صالحًا محمود الطريقة في قضائه. ومنهم محمَّد بن عبد الرحمن بن محمَّد بن عمر الحلبي، كان مدرّسًا ثمَّ تولّى القضاء، وكان مشتغلاً بنفسه، سليم الطبع خاشعًا متواضعًا، وقد بنى دار التعليم بالقسطنطينية. ومنهم ابن الكتخدا الكرمياني قرأ في بلاد العجم على العلامة جلال الدين الدواني، وتولّى التدريس في الروم، ثمَّ صار قاضيًا وحمدت سيرته في القضاء. ومنهم بدر الدين محمود، من أولاد الشيخ جلال الدين الرومي، كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، وكان صاحب أخلاق كريمة. ومنهم بدر الدين محمود بن عبيد الله، كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ تولّى القضاء بحلب، ثمَّ بأدرنة، ومات وهو قاضٍ بها. وكان مستقيم الطريقة. ومنهم اسحاق الأسكوبي، كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ استقضى بدمشق، ومات وهو قاضٍ بها. وكان صدوقًا صحيح العقيدة.

ومنهم أبو السعود المشتهر بـ «ابن بدر الدين زادة» وكان قاضيًا ومن أهل العلم ومنهم دلي برادر، وكان من المدرّسين ثمَّ ترك التدريس وسكن في القسطنطينية بقرب البحر، وبنى مسجدًا ووقف عليه حمّاما، ثمَّ ارتحل إلى مكّة وجاور بها إلى أن مات. ومنهم جعفر البروسوي المشتهر بـ «نهالي» كان مدرّسًا ثمَّ صار قاضيًا في غلطة من القسطنطينية، ثمَّ مال إلى العزلة وكان خفيف الروح ظريف الطبع. ومنهم باشق قاسم، وكان من المدرّسين وهو من أصحاب اللطائف والنوادر، ولكنّه كان من الصالحين، وقد عمّر نحوًا من مائة سنة. ومنهم فخر الدين بن اسرافيل زادة، كان من المدرّسين ثمَّ صار قاضيًا بدمشق أولاً وثانيًا، وكان له اختصاص بالعلوم العقلية. ومنهم شمس الدين أحمد بن عبد الله، كان من المدرّسين ثمَّ تولّى قضاء دمشق ومات وهو قاضٍ بها وكان محمود الطريقة. ومنهم حسام الدين حسن شلبي القراصُويّ كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ استقضى بالقسطنطينية، وكان من العلماء ومنهم أمير حسن الرومي، كان من المدرّسين ومات وهو يدرّس بدار الحديث في أدرنة. وله حواشٍ على شرح الفرائض للسيِّد الشريف. ومنهم محمَّد الشاه بن شمس الدين اليكاني، كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ومات وهو مدرّس بها وكان مشتغلاً بنفسه لا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم سليمان الرومي، كان مدرّسًا ومات وهو مدرّس بإحدى المدرستين المتجاوزتين بأدرنة. قال صاحب الشقائق: وكانت وفاته في مجلس خاصّ بالعلماء عند حضور سلطاننا الأعظم في وليمته المباركة لختن أولاده

الكرام، وقد سقط مغشيًا عليه، فحمل من المجلس إلى خيمة ومات هناك وكان معرضًا عن أبناء الزمان لا يذكر أحدًا إلاّ بخير - يريد بقوله سلطاننا الأعظم السلطان سليمان القانوني. ومنهم قطب الدين المرزيفوني، وكان من المدرّسين، ومات وهو يدرّس في طرابزان، وله تعليقات على "شرح المفتاح" للسيِّد الشريف. ومنهم المولى پير أحمد، كان مدرّسًا ثمَّ استقضى بحلب، وكان صحيح العقيدة لا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم محمَّد بن الشيخ محمود المغلوي الوفائي، كان من المدرّسين، وكان محبًّا للطريقة الوفائية، وكان عالِمًا مؤلِّفًا وله حواشٍ على حاشية شرح التجريد للسيِّد الشريف ومنهم أحمد بن حمزة القاضي الشهير بـ "عرب شلبي" قرأ في مصر الصحاح الستّة من الأحاديث، والفقه، والأصول، والهندسة، والهيئة، وجاء إلى القسطنطينية فبنى له الوزير قاسم باشا مدرسة بقرب مدرسة أبي أيوب الأنصاري، فدرس هناك طول حياته. ومنهم ورق شمس الدين، وكان مدرّسًا بمدرسة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وكان صالحًا لا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم محمَّد بن عبد الأول التبريزي كان والده قاضي الحنفية بتبريز، ورأى المولى جلال الدين الدواني وهو صغير، وحكى أنَّ علماء تبريز كانوا يجلسون بين يدي الدواني مطرقين رؤوسهم. وجاء محمَّد المذكور إلى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة، ثمَّ أعطاه السلطان سليمان مدرسة أيضًا، ثمَّ استقضى بحلب، ثمَّ بدمشق، ثمَّ بالقسطنطينية، وكانت له اليد الطولى في العلوم العربية والإنشاء، وكان كثير الاهتمام بالمحسنات اللفظية، ولم يكن يذكر أحدًا بسوء. ومنهم محمَّد بن عبد القادر المشتهر بـ "المعلول" كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان ثمَّ تولّى قضاء مصر، ثمَّ قضاء العسكر، وكان من أصحاب الثروة بنى دار القرّاء في القسطنطينية وغيرها. ومنهم محمَّد الشهير بـ "مرجا شلبي" كان من مدرّسي المدارس الثمان، وتولّى قضاء دمشق، ثمَّ قضاء أدرنة، ومات وهو قاضٍ بها، وكان محمود السيرة. ومنهم پير محمَّد بن علاء الدين علي الفناري، كان من مدرّسي المدارس الثمان، وعلى جانب من العلم والورع. ومنهم علاء الدين علي بن صالح، كان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ استقضى بأدرنة، ومات وهو قاضٍ بها، وكانت له يد في الإنشاء، وترجم "كليلة ودمنة" إلى التركية ترجمة حسنة. ومنهم صالح الأسود وكان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ومات وهو يدرّس بها، وكان عالِمًا صالحًا كاسمه. ومنهم المولى أبو الليث وكان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ استقضى بحلب، ثمَّ بدمشق، وتوفّي وهو قاضٍ بها، وكان فاضلاً حسن العقيدة. ومنهم فخر الدين بن محمَّد بن يعقوب، وكان مدرّسًا

بإحدى المدارس الثمان، فاضلاً صاحب أخلاق، مات في عنفوان شبابه، ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير بـ "مصدر" درس بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ استقضى بمدينة حلب، ثمَّ صار قاضيًا بمكّة المشرّفة واتّصل بخدمة العارف بالله السيِّد علي بن ميمون المغربي. ومنهم محمَّد الشهير بـ "شيخي شلبي" درّس بإحدى المدارس الثمان، ومات وهو يدرّس بها، وكان محمود الطريقة لا يذكر أحدًا إلاّ بخير. ومنهم سنان الدين يوسف الشهير "كوبرجك زادة" ودرس بإحدى المدارس الثمان، وبمدرسة أياصوفيا، وأفتى ببلدة أماسية، وكان مَرْضيّ الطريقة. ومنهم عبد الرحمن المؤيّدي المشهور بـ "حاجي شلبي" وكان مدرّسًا بمدرسة أبي أيوب الأنصاري، ثمَّ بإحدى المدارس الثمان، وكان عالمًا بالعلوم العربية، وينظم الشعر العربي الحسن، ومات وهو شابّ. ومنهم محيي الدين محمَّد بن عبدار الشهير بـ "محمَّد بك" اتّصل بخدمة الفاضل ابن كمال باشا، ثمَّ صار مدرّسًا بالمدارس المشهورة ثمَّ ظهر اختلال في دماغه، ثمَّ برىء منه فسافر إلى مصر، فأسره النصارى واستردّه بعض أصدقائه منهم، وفي زمان السلطان سليمان تولّى التدريس، ثمَّ استقضى بدمشق وكان ماهرًا في العلوم العقلية والعلوم الرياضية.

ومنهم مناستري شلبي، درس في مناستر، ثمَّ اختار العزلة واشتغل بالعلم والعبادة وكان من الصالحين. ومنهم الشيخ ابراهيم الحلبى. خطيب جامع السلطان الفاتح بالقسطنطينية، وكان من حلب وقرأ في مصر، ثمَّ أتى القسطنطينية فصار خطيبًا بجامع السلطان محمَّد، ومات عن تسعين سنة، وكان فقيهًا أصوليًّا تقيًّا نقيًّا، ملازمًا لبيته لا يراه أحد إلاّ في بيته أو في المسجد، وإذا مشى في الطريق يغضّ بصره عن الناس، ولم يسمع منه ذكر أحد بسوء، وله عدّة تصانيف أشهرها كتاب في الفقه سمّاه بـ "ملتقى الأبحر". ومنهم محمَّد الحسيني الشهير بـ "سيرل محيي الدين" كان معلِّمًا للأمير محمَّد بن السلطان سليمان، وكان من ذوي السمت الحسن. ومنهم محيي الدين محمَّد القوجوي الشهير بـ "محيي الدين الأسود" كان معلِّمًا للأمير مصطفى بن السلطان سليمان، وكان عالمًا عاملاً مستقيم الطريقة، لا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم المولى خير الدين خضر، كان معلِّمًا للأمير مصطفى بن السلطان سليمان، وتوفّي وهو معلِّم له. ومنهم هداية بن يار علي العجمي، كان من المدرّسين بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ صار قاضيًا بمكّة، ثمَّ ترك القضاء وجاء إلى مصر وتوفّي بها، وكانت له مشاركة في العلوم مع الأدب والتواضع. ومنهم محيي الدين محمَّد بن حسام الدين، تنقل في المدارس الشهيرة بين بروسة، وتيرة، وأماسية، وشورلو،

ومناستر، ومغنيسيا، وأدرنة وتولّى القضاء بدمشق، ثمَّ في أدرنة، ثمَّ في القسطنطينية. وكان مطّلعًا على علم الكلام، وله يد في التواريخ والمحاضرات. ومنهم محيي الدين الآيديني المشتهر بـ «اهلجه» وكان من المدرّسين، ومات وهو يدرّس بسلطانية بروسة، وكان من الصالحين. ومنهم عبد القادر الشهير بـ «عبدي» كان من كبار المدرّسين، ثمَّ صار قاضيًا بمكّة، ثمَّ في مصر، وتوفّي وهو قاضٍ بها، وكان مَرْضيّ السيرة في قضائه. ومنهم حسام الدين حسين شلبي القراصوي، وكان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان وتوفّي وهو مدرّس بها، وكانت له نسبة خاصّة إلى العلوم العقلية. ومنهم كمال الدين الشهير بـ «كمال شلبي» وكان من المدرّسين بإحدى المدارس الثمان، واستقضى بدار السلام بغداد، وتوفّي وهو قاضٍ بها، وكان صحيح العقيدة كريم الأخلاق. ومنهم أمير حسن شلبي، وكان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ بمدرسة أيا صوفيا، وكان من أهل المروءة والفتوة. ومنهم محمَّد بن الوزير مصطفى باشا، كان مدرّسًا بسلطانية بروسة ومات شابًّا. ومنهم محيي الدين محمَّد بن المولى خير الدين، معلِّم السلطان سليمان، كان مدرّسًا بمدرسة الوزير مصطفى باشا بالقسطنطينية، ومات شابًّا. ومنهم فرج خليفة القراماني، وكان مدرّسًا بإحدى المدارس الثمان، ومات وهو مدرّس بها. ومنهم شمس الدين أحمد اللازبي المعروف بـ «شمس الأصغر» وتنقل في التدريس إلى أن صار بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ صار مدرّسًا بمدرسة السلطان سليمان بالقسطنطينية. ومنهم شمس الدين أحمد البروسوي، وكان من المدرّسين وتوفّي في أوائل أيام السلطان سليمان. ومنهم عبد الرحمن بن يونس الإمام، وكان مختصًّا بعلم الكلام، وقد مات شهيدًا. ومنهم عبد الكريم الويزوي، كان مدرّسًا وتوفّي مفتيًا في مغنيسيا. ومنهم شمس الدين أحمد الشهير بـ «القاف» تنقل في المدارس الشهيرة، ثمَّ قضى بدمشق، وكان حسن السمت، ومنهم سعد الدين الأقشهري تنقل في المدارس الشهيرة وأفتى بأماسية، ومات وهو مدرّس بمدرسة السلطان مراد في بروسة، وكان عابدًا زاهدًا. ومنهم خير الدين الأصغر ودرس في أسكوب، ثمَّ في شورلو، ثمَّ مات وهو يدرّس بها. ومنهم عبد الرحمن المشهور بـ «ابن الشيخ» كان مدرّسًا ثمَّ اعتزل التدريس وانقطع إلى الله تعالى، وكان لا يذكر أحدًا بسوء، وكان يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، هذا مع القناعة والورع، والرضى من العيش بالقليل. ومنهم حسن القراماني، وكان مدرّسًا ثمَّ استقضى في غلطة، ثمَّ في طرابلس، ثمَّ في سلانيك وتوفّي بالقسطنطينية، وكان صاحب ثروة مع الخير والدين وحسن السمت في قضائه ولم يكن يذكر أحدًا بسوء. ومنهم محيي الدين الشهير بـ «ابن

الحكيم » كان قاضيًا بالمدينة المنوّرة صلّى الله على ساكنها، ومات وهو قاضٍ بها، وبنى مدرسة بالقسطنطينية ومنهم عبد الحيّ بن عبد الكريم بن علي بن المؤيد من أماسية، درّس ببلده، ثمَّ بالقسطنطينية، ثمَّ صار قاضيًا بعدّة من البلاد، ثمَّ اعتزل القضاء ورغب في التصوّف وكان محمود الطريقة. ومنهم سنان الدين يوسف، أصله من قره سيس، كان متصوّفًا واعظًا يجلس للوعظ في جامع الأمير محمَّد بن السلطان سليمان، وكان عابدًا زاهدًا تتلألأ أنوار الصلاح من جبينه، ذا شيبة جليلة.

ومنهم بدر الدين محمود الآيديني، توفّي وهو يدرّس بمدرسة محمَّد باشا في القسطنطينية وكان مشتغلاً بالعلم والعبادة. ومنهم علاء الدين الآيديني، وكان مشتغلاً بالتدريس مع العبادة. ومنهم شمس الدين محمَّد بن عمر بن أمر الله بن الشيخ آق شمس الدين المشهور،وكان معلِّمًا للأمير سليم بن السلطان سليمان، وهو الذي تولّى السلطنة بعد أبيه، وتوفّي شمس الدين محمَّد هذا في سنّ الشباب. ومنهم المولى خير الدين من قسطموني، وكان مدرّسًا ثمَّ صار معلِّمًا لبعض أبناء السلطان سليمان. ومنهم المولى بخشي، كان معلّمًا للسلطان سليم بن السلطان سليمان. ومنهم جعفر المنتشوي، وكان معلِّمًا للسلطان بايزيد بن السلطان سليمان، وكان مشتغلاً بنفسه. ومنهم المولى درويش سبط المولى سنان باشا، وكان من المدرّسين. ومنهم مصلح الدين بن المنتشوي وكان من المدرّسين المعروفين. ومنهم سعد الله المعروف بـ« ابن شيخ شاذيلو » وكان من المدرّسين أيضًا، وعلى الفطرة الإسلامية. ومنهم عبد الكريم ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم، وكان عالِمًا صالحًا وتوفّي شابًّا. ومنهم الشريف مير علي البخاري، قرأ على علماء عصره في بخارى، وسمرقند، ثمَّ جاء إلى بلاد الروم في زمان السلطان سليمان، وله شرح لطيف على « الفوائد الغيّاثية » من علم البلاغة للعلاّمة عضد الدين. ومنهم حسام الدين حسين النقّاش العجمي، من أهل تبريز رأى العلاّمة الدواني، وكان رجل من العلماء يقال له غيّاث الدين منصور، يريد أن يباحث الدواني، فقال ملك تبريز للعلاّمة الدواني: يريد غيّاث الدين أن يتكلّم معك في بعض المباحث؟ فقال الدواني: يتكلّم مع الأصحاب ونحن نتشرّف باستماع كلامه، ولم يتنزّل إلى المباحثة مع غيّاث الدين. ثمَّ إنَّ النقّاش العجمي المذكور جاء إلى بلاد الروم، ثمَّ جاور بمكّة، ثمَّ جاء إلى القسطنطينية. وكان شافعيّ المذهب وكان حافظًا للأحاديث والتواريخ، وله شرح على « البردة الشريفة ». ومنهم مهدي الشيرازي الشهير بـ

«نكاري» قرأ في شيراز وأتقن علم الكلام، والمنطق والحكمة، وجاء إلى بلاد الروم وصار مدرّسًا بمدرسة فلبة، ومات وهو مدرّس بها وكانت له تآليف، وكان كاتبًا بالعربية.

ومنهم المولى سعيي، وكان أديبًا بالعربية والفارسية والتركية، وتوفّي في أوائل سلطنة سليمان خان. ومنهم المولى قاسم، لازم خدمة العارف بالله ابن الوفاء، ثمَّ نصبه السلطان بايزيد معلّمًا لخدّامه، وذلك لعلمه وصلاحه، وكان سريع الكتابة وسرعة كتابته لو وصفت لربّما لم يصدّق السامع. ومنهم ابن المكحل، كان خطيبًا بجامع الفاتح بالقسطنطينية، وكان بليغًا صالحًا. ومنهم محيي الدين بن العرجون وكان حسن الصوت عارفًا بالقرآن، وتولّى الخطبة بجامع أيا صوفيا. ومنهم المولى پير محمَّد، كان ماهرًا بالقراآت، وصار خطيبًا بجامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية ومنهم الحكيم سنان الدين يوسف، ومهَر في الطِب، ونُصّب طبيبًا في مارستان أدرنة، ثمَّ في مارستان القسطنطينية، ثمَّ صار طبيبًا للسلطان سليم خان «الثاني» وهو بعد أمير علي طرابزان، ولمّا تولّى السلطنة جعله طبيبًا لدار السلطنة. ثمَّ جعله السلطان سليمان رئيسًا للأطبّاء وبقي على ذلك إلى أن توفّي سنة إحدى وخمسين وتسعمائة. قال صاحب الشقائق: وسألته عن مدّة عمره قبيل موته بشهر أو شهرين فأخبر أنَّ سنّه مائة أو أكثر بسنتين. ومع ذلك لم يتغيّر عقله، إلاّ أنه ظهر في يديه رعشة، فسألته عن ذلك فقال: إنّها من ضعف الدماغ، فتعجّبت من إخباره عن ضعف الدماغ مع ما له من كمال الإدراك والفهم. وكان طبيبًا مباركًا، وله احتياط عظيم في معالجاته لقوّة صلاحه، وكان لا يذكر أحدًا بسوء. ومنهم الحكيم عيسى، كان طبيبًا لمارستان أدرنة، ثمَّ صار طبيبًا بدار السلطنة، وكان متّصفًا بكرم الأخلاق، مملوءًا بالخير من فَرْقِهِ إلى قدمه. ومنهم الطبيب عثمان أصله من العجم جاء في زمان السلطان سليم إلى بلاد الروم وصار طبيبًا بدار السلطنة، وكان خيِّرًا صالحًا. ومنهم يحيى شلبي المعروف بـ«أمين زادة» كان أبوه من أمراء الدولة العثمانية، وغلب عليه حبّ الكمال، واشتغل بالعلم، وكان صاحب كمال وجمال، وقرأ على المولى كمال باشا زادة، وعلى المولى علي شلبي الجمالي، ثمَّ صار معيدًا لدرسه، ثمَّ صار مدرّسًا وأخذ يتنقّل في المدارس الشهيرة، ثمَّ صار قاضيًا ببغداد، ثمَّ صار مدرّسًا بدار الحديث التي بناها السلطان سليمان بالقسطنطينية وكان أبعد الناس عن ذكر مساوئ الناس. قال صاحب الشقائق: ولم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب أصلاً ولا كلمة فحش، وكان ماهرًا في العلوم الأدبية، وفي التاريخ، والمحاضرة.

ومنهم عبد الكريم القادرى الملقّب بـ "مفتي شيخ" كان متصوّفًا، جلس في زاوية أيا صوفيا الصغير بالقسطنطينية، واشتغل بالإرشاد، ونصبه السلطان سليمان مفتيًا، وظهرت مهارته في الفقه، وكان إذا قعد في الخلوة الأربعينية يرتاض رياضة قوية، ويحفر في الأرض كالقبر ويقعد في تلك الحفرة، وربّما تتعطّل حواسه من شدّة رياضته، وبعد تمام الأربعين يخرج إلى الناس ويعظهم إلى وقت الخلوة من السنة القابلة، وكان متواضعًا خاشعًا، يستوى عنده الكبير والصغير. ومنهم الشيخ محمود شلبي، انتسب إلى العارف بالله السيِّد أحمد البخارى وتزوّج بابنته، وبعد موته قام مقامه. قال صاحب الشقائق: وكنت لا أقدر على النظر إلى وجهه الكريم لانعكاس حيائه إليّ، وكان يقرأ عنده كتاب "المثنوي" يؤَوّله على طريقه الصوفية ومنهم الشيخ پيري، خليفة الحميدي، وكان من أتباع السيِّد البخاري، زاهدًا عابدًا منقطعًا عن الناس. ومنهم حاجي، خليفة المنتشوي، كان من طلبة العلم ثمَّ انتسب إلى خدمة الشيخ محمود شلبي الذي ذكرناه وحصل عنده التصوّف، وأكمله وأجاز له بالإرشاد، وكانت له كلمات مؤثّرة في القلوب، وكلّ من جالسه يمتلىء قلبه خشية. ومات وهو مجاور بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية. ومنهم الشيخ بكر، خليفة السيماوي، وكان من المتّصلين بخدمة الحاج خليفة المذكور، وخلفه بعد وفاته، وكان مشتغلاً بالحقائق، منقطعًا عن الخلائق. ومنهم سنان الدين يوسف الأردبيلي، وكان من أتباع العارف بالله شلبي خليفة، اشتغل بالإرشاد، وسكن بزاوية عند جامع أيا صوفيا، ومات عن مائة سنة. ومنهم الشيخ رمضان وهو من المتصوّفة أخذ عن الشيخ قاسم شلبي وجلس مكانه بعد وفاته في زاوية الوزير على باشا بالقسطنطينية. ومنهم الشيخ بالي خليفة كان من خلفاء الشيخ قاسم شلبي، ومات ببلدة صونية بعد الخمسين والتسعمائة. ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير بـ "مركز خليفة" وكان من أتباع العارف بالله الشيخ سنبل سنان، صارفًا أوقاته للرياضة. ومنهم الشيخ سنان خليفة، من خلفاء الشيخ سليمان خليفة. وكان رجلاً أميًّا إلاّ أنه كان صاحب أحوال سنية، وجذبات عظيمة! ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير بـ "كندر" كان متصوّفًا اتّصل بالشيخ محيي الدين القوجوي، وخلفه بعد وفاته. وكان منقطعًا عن الناس لا يخرج من بيته إلاّ ليصلّي في مسجده. ومنهم محيي الدين الإزنيقي، وكان من أتباع محيي الدين الأسكليبي، وكان من الزاهدين. وممَّن تربّى عند الأسكليبي الشيخ اسكندر ددة بن عبد الله، وكان رجلاً أميًّا حصل ببركة التصوّف على معارف ذوقية تتحيّر فيها العقول، كما يقال عن سيِّدي عبد العزيز الدبّاغ (رضي الله عنه). ومنهم

محيي الدين محمَّد، كان ببلدة اشتب في الروملي وكان من العارفين بالله. ومنهم الشيخ إدريس، كان من خلفاء شلبي خليفة وتوطّن بدمشق.

وكان من خلفاء الشيخ إدريس مريد اسمه الشيخ داود خليفة وكان عابدًا إلاّ أنه كان يدّعي أنه يصاحب المهدي، وأنَّ المهدي من جماعته. ومنهم الشيخ بابا حيدر السمرقندي، جاء إلى بلاد الروم وبنى له السلطان سليمان مسجدًا في ظاهر القسطنطينية وكان خاشعًا يستوي عنده الكبير والصغير. ومنهم صفي الدين الملقّب بـ«شيخ السرّاجين» من أماسية. ومنهم الشيخ محيي الدين محمَّد من قرية بقرب أماسية ولم يكن يأكل إلاّ من زراعة يده. ومنهم الشيخ عبد الغفّار من بلدة مدرني، وكان أبوه منتسبًا إلى طريقة الزينيّة، وكان في شبابه تابعًا لهوى نفسه، فرأى في منامه أنَّ والده قد ضربه ضربًا شديدًا ووبّخه، فلمّا أصبح ذهب إلى الشيخ رمضان وتاب على يده. وكانت له توبة عظيمة. ومع هذا فقد كان من العلماء والأدباء، قال صاحب الشقائق: وكان من محاسن الأيام. ومنهم الشيخ إسحق، وكان طبيبًا نصرانيًّا قرأ على المولى لطفي الطوقاتي المنطق، والعلوم الحكمية، واهتدى للإسلام، فترك الطبّ والحكمة، واشتغل بتصانيف الإمام الغزالي، وداوم على العمل بالكتاب والسنة، إلاّ أنه أنكر التصوّف لأنه لم يصل إلى أذواقهم. ومنهم الشيخ أحمد شلبي الأنقروي كان من العلماء، ثمَّ رغب في التصوّف، ولمّا بلغ سنّ الشيخوخة أقام بمدينة أنقرة. ومنهم السيِّد الشريف عبد المطلب بن السيِّد مرتضى، وكان سيِّدًا صحيح النسب، وحصل العلم والأدب، ثمَّ رغب في التصوّف وصحب الشيخ ابن الوفاء وأجاز له بالإرشاد الشيخ يحيى الطوزلري وزوّجه بابنته، إلاّ أنه لم يؤثر العزلة والخلوة، بل بقي يختلط بالناس. ومنهم الشيخ عبد المؤمن من أتباع السيِّد علي بن ميمون، انقطع في مدينة بروسة، ومن الناس من لم يكن يعتقد به، ولكن يقال إنّهم كانوا يفترون عليه إتباعًا لأغراضهم. ومنهم الشيخ شجاع الدين الياس من الطريقة الخلوتية وكان أميًّا تغلب عليه الجذبة. ومنهم الشيخ أحمد بن مركز خليفة، حصل العلم، ثمَّ مال إلى التصوّف، وانتفع به كثير من الناس. ومنهم نور الدين حمزة الكرمياني كان من طلبة العلم ثمَّ رغب في التصوّف، واتّصل بسنبل سنان، ثمَّ بمحمَّد بن بهاء الدين، وكان مواظبًا على آداب الشريعة. ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير بـ«الشيخ الأصغر العريان» وكان منقطعًا عن الناس، ساكنًا بقرب «مغنيسيا» ومنهم محيي الدين المعروف بـ«إمام قلندرخانة» صحب الشيخ حبيبًا القراماني والشيخ ابن الوفاء، والسيِّد أحمد البخاري، وكان عالِمًا ولكن انقطع عن الناس، وكان خطيبًا بجامع

قلندرخانة. قال الطاش كوبري، صاحب الشقائق: سألته عن سنّه فقال مائة أو أقلّ منها بسنتين، وعاش بعد ذلك مقدار ثمان سنين.

ومنهم مصلح الدين مصطفى من خلفاء السيِّد أحمد البخارى، كان متوطّنًا في القسطنطينية في زاويته المسمّاة بـ"ذات الأحجار" منقطعًا إلى الله مشتغلاً بإصلاح أصحابه. ومنهم العارف بالله الشيخ علي الكازروني، وكان في أول أمره اتّصل بخدمة السيِّد على بن ميمون المغربي، وكان له اطّلاع على الخواطر وأحوال القلوب. ومنهم أحمد بن مصطفى بن خليل الطاش كوبري، صاحب كتاب "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية"، ونشأ في أنقرة، وكان أبوه من العلماء فاعتنى به، فقرأ على علاء الدين الملقّب باليتيم النحو والصرف، وقرأ على عمّه، وعلى أبيه، وعلى خاله وعلى المولى محيي الدين الفناري، وعلى المولى محيي الدين القوجوي، وعلى المولويي محمود، ابن قاضي زادة، وعلى الشيخ محمَّد التونسي، وأجازه العلماء الكبار. وتولّى التدريس بمدرسة قلندرخانه بالقسطنطينية، ثمَّ انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ثمَّ إلى مدرسة السلطان بايزيد بأدرنة، واستقضى في بروسة وتوفّي وهو مدرّس بإحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية وله كتاب اسمه "المعالم في علم الكلام" وحاشية على "حاشية التجريد" للسيِّد الشريف، وله كتاب كبير في التاريخ جمع فيه ما ذكره ابن خلكان وأضاف إليه. وقد جمع كتابه الشقائق النعمانية بعد أن أصابه الضرر في عينيه، لأنه بعد أن تولّى القضاء كفّ نظره، فصحّ فيه المثل: إذا جاء القضاء عمى البصر. ومنهم يحيى بن نور الدين الشهير "كوسج الأمين" وتنقّل في المدارس الشهيرة، ولمّا بنى السلطان سليمان مدرسته بالقسطنطينية، وجعلها دار الحديث أعطاه إيّاها، ثمَّ بلغ السلطان عنه شيء فغضب عليه وعزله، فأصابه غمّ شديد لم يعش بعده كثيرًا. ومنهم محمود الآيديني المعروف بـ"خواجة قايني" وكان من كبار المدرّسين، وتولّى القضاء بحلب، ثمَّ بمكّة. ومنهم المولى مصلح الدين وكان مدرّسًا في المدارس الشهيرة، وتولّى قضاء بغداد، وقضاء حلب، واستقضى في أدرنة، ثمَّ في القسطنطينية، وأناف عمره على تسعين سنة. ومنهم مصلح الدين بن شعبان من غاليبولي، وكان معلّمًا للأمير مصطفى ابن السلطان سليمان، وكان لا يقطع أمرًا إلاّ بمشورته، فلمّا قتل السلطان ابنه عند خروجه من طاعته وقع في هوّة الفقر، وصبر على نوائب الدهر. ومنهم المولى محيي الدين الشهير بـ "جرجان" وكان يدرّس في المدارس الشهيرة، ثمَّ تولّى الإفتاء، ثمَّ عزل بكائنة خروج الأمير بايزيد بن السلطان سليمان. ومنهم محمَّد بن محمَّد الشهير بـ "عرب زادة" وكان مدرّسًا في إحدى

المدارس الثمان، وتولّى قضاء مصر وسافر إليها بحرًا في قلب الشتاء فأصابتهم عاصفة فغرق هو وجماعة من رفاقه. ومنهم نعمة الله الشهير بـ «روشني زادة» وتنقّل في المدارس الشهيرة، ثمّ تولّى قضاء المدينة المنوّرة، وحمدت سيرته في القضاء، ولكنّه كان في لسانه بذاءة يحذره الناس من أجلها. ومنهم شاه علي شلبي بن قاسم بك، وكان من أصحاب الزهد والصلاح. ومنهم شمس الدين أحمد بن أبي السعود وكان مدرّسًا في إحدى المدارس الثمان، ثمّ في مدرسة الأمير محمَّد بن السلطان سليمان، وتوفّي وهو مدرّس فيها. ومنهم قورد أحمد شلبي ابن خير الدين معلِّم السلطان سليمان، وكان مدرّسًا. ومنهم غرس الدين أحمد، نشأ في حلب، ثمَّ قصد دمشق وأخذ الطبّ فيها عن رئيس الأطبّاء المشهور بـ «ابن المكّي» ثمَّ ارتحل إلى مصر وأخذ العلوم العقلية والرياضيّات عن الشيخ ابن عبد الغفّار، وأخذ علوم الدين عن القاضي زكريا. ومنهم عبد الباقي بن علاء الدين العربي الحلبي، وكان من المدرّسين المشهورين، وتقلّد القضاء في حلب، وفي مكّة، وفي مصر، وكانت له شهرة عظيمة إلاّ أنه كان مقبلاً على الدنيا. ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين المعروف بـ «شيخ زادة» وكان من جلّة العلماء، وأجازه المفتي أبو السعود. ومنهم محمَّد بن المفتي أبي السعود، وكان مدرّسًا وتقلّد القضاء في دمشق. ومنهم المولى صالح بن جلال وكان السلطان سليمان أمره بترجمة بعض الكتب الفارسية فأتمّها في قليل من الزمن ثمَّ تولّى قضاء حلب، ثمَّ قضاء مصر، ومنهم محيي الدين الشهير بـ «ابن الإمام» وتولّى قضاء حلب. ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن عبد الله، وكان يدرّس بمدرسة سليمان باشا في إزنيق، وله تآليف من جملتها ردَّ على ابن كمال باشا. ومنهم ددة خليفة وتولّى التدريس ثمَّ الإفتاء، وله تآليف منها حاشية على «شرح التفتازاني في الصرف».

السلطان سليم الثاني

هذا وتولّى بعد السلطان سليمان الكبير ولده السلطان سليم الثاني، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وكانت وفاة السلطان سليمان رحمه الله في اليوم الثاني والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وجاؤا بجنازته إلى القسطنطينية، وكان يومًا عظيمًا، وبقي خبر موته مكتومًا خمسين يومًا، وجاء في تاريخ سلطنة سليم الثاني: سليم تولّى الملك بعد سليمان.

ولمّا جاء سليم بجنازة أبيه إلى القسطنطينية لم يوزّع على الانكشارية العطايا التي

اعتاد السلاطين توزيعها عند جلوسهم على عرش السلطنة، فحصلت ثورة صارت تتفاقم، وعجز الوزراء عن قمعها، وخاف السلطان على نفسه فاضطرّ إلى إجابة طلب العساكر، وأنفق جميع ما في الخزانة حتّى أسكتهم. وكان سليم الثاني أول سلطان انحرف عن الجادة التي كان يسير عليها آل عثمان، فإنّهم كانوا بأجمعهم أبطالاً يباشرون القتال بأنفسهم، ولا يعرفون للراحة معنى، ولم يكن لهم غرام إلاّ بالفتوحات وتأييد الإسلام، وتحصين ثغور المملكة، وقهر عداها. وكانت همم جميعهم سامية لا يعرف منهم نكْس ولا وكَلَ، فما بدأ دور التراخي في آل عثمان إلاّ في زمن سليم الثاني. وكان محبًّا للدعة والراحة، ملازمًا للحرم مدمنًا لشرب الخمر، مسترسلاً إلى الشهوات وفي أيامه ارتفع التحريج عن الخمرة، فكاد يعم شربها. وإنّما روى صاحب الدرّ المنظوم أنه قبل موته تاب وكسر أدوات اللهو وأواني الشراب، وكان قد ألقى السلطان سليم بمقاليد الأمر إلى وزيره الصوقلي، ولولا الصوقلي لسقطت هيبة السلطنة. ولم يمت سليمان القانوني حتّى انعقدت في ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ معاهدة بين الدولة العثمانية والمجر على أنَّ كلّ فريق يحفظ ما بيده، وأنَّ النمسا تؤدّي للدولة ثلاثين ألف دوكة سنويًّا، وتعترف بسيادة الباب العالي على البغدان، والفلاخ، وترانسلفانيا. ولم تحصل النمسا على هذا الصلح إلاّ بعد أن رشت رجال الباب العالي بأربعين ألف دوكة.

وكان الصوقلي يريد أن يرسل عساكر تستولي على بلاد الفولغا في شمالي الروسيا حتّى يقطع ما بين الروس وبين آسيا، فسرّح جيشًا إلى استراخان ولكن لم توفّق تلك الغزاة برغم جميع ما بذله الصوقلي من العناية، ولم يساعده خان القريم "دولة غرائي" كما كان ينتظر. وفكّر الصوقلي في فتح "ترعة السويس" لتتمكّن الدولة العثمانية من البحر الأحمر والبحر الهندي، ولكنّه لم يتمكّن من إجراء فكرته هذه بسبب توالي الحروب. وفي زمن السلطان سليم الأول كانت الحجاز واليمن دخلتا في طاعة الدولة، ولكن الزيدية لم يلبثوا أن ثاروا على العثمانيين بقيادة الإمام مطهر وبعد أن دخل الأتراك إلى صنعاء أخرجوهم منها ومن سائر المدن، ولم يبقَ ترك إلاّ في زبيد. فأرسلت الدولة سنان باشا الأرناؤوطي فتغلّب على الزيدية واعترف الإمام مطهر بسيادة السلطان. وفي زمن سليم الثاني افتتحت الدولة "جزيرة قبرص" ويقال إنَّ الذي رغّب السلطان في فتحها رجل يهودي برتغالي اسمه "يوسف ناسي" مدح له خمر قبرص، فجرّد عليها أسطولاً وفتحها، وقيل إنّه وعد هذا البرتغالي بتوليته قبرص، ولكنّه بعد الفتح استحيى من إنجاز ذلك الوعد المدني الذي

حمله عليه الشرب ولكنّه أعطى البرتغالي لقب «دوك ناكسوس» وكان الوزير الصوقلي غير مرتاح إلى فتح قبرص، يفضّل على ذلك إنجاد مسلمي الأندلس الذين كانوا يثورون المرّة بعد الأخرى على الاسبانيول، ويستنجدون آل عثمان. ولكن «لالا مصطفى باشا» والوزير «بيالي» وقبطان البحر أرادوا السلطان على فتح قبرص. فساقت الدولة مائة ألف مقاتل إلى تلك الجزيرة، ونزلت العساكر في ١ آب سنة ١٥٧٠. وحاصر العثمانيون «نيكوزيا» وأخذوها عنوة، ويقال إنّهم قتلوا عشرين ألفًا من الأهالي واستولى الأتراك على «ليماسول» و «لارناكا» وامتنعت «فاماغوسته» وردّت هجمات الأتراك، لكنّها لم تقدر على المقاومة إلى الآخر، واستولى الترك عليها، وقتلوا قائدها «براغادينو» الذي أبدى تلك المقاومة الشديدة. ولمّا وصل خبر قبرص إلى أوربة اتّفقت البندقية، والبابا، ودولة أسبانيا، وفرسان مالطة، وجهّزوا أسطولاً كبيرًا منه سبعون سفينة اسبانيولية، وتسع سفن لفرسان مالطة، واثنتا عشرة سفينة للبابا، ومائة وأربعون سفينة للبندقية، فتلاقى هذا الأسطول بالأسطول العثماني في ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١ وكان الأسطول العثماني ثلاثمائة سفينة، واشتبك القتال بإزاء جزائر «كور زولاري» على سواحل بلاد الأرناؤوط.

ووقعت سفينة قبطان البحر العثماني بين سفينتَي الأميرال الاسبانيولي، والأميرال البندقي، فجاءت أربع سفن عثمانية لأجل تخليص أمير البحر العثماني، وفي أثناء المعمعة أصابته رصاصة فسقط، وهجم الاسبانيول وقطعوا رأسه، ودارت بعد ذلك الدائرة على العثمانيين، فأخذ الأسطول المسيحي منهم مائة وثلاثين سفينة غصبًا، وأحرقوا أربعًا وتسعين، وغنموا ثلاثمائة مدفع، وأسروا ثلاثين ألف مقاتل، وأنقذوا خمسة عشر ألف أسير مسيحي. ولم ينج من الأسطول الإسلامي إلاّ أربعون سفينة لأمير الجزائر. وكانت خسائر أسطول النصرانية لا تزيد على خمس عشرة سفينة، وثمانية آلاف مقاتل. وبعد هذه المعركة المشهورة بمعركة «ليبانت» لم تقم للبحرية الإسلامية قائمة تحمد في البحر المتوسّط.

ولهذه المعركة قُرعت طبول البشائر في جميع العالم الإسلامي، ولا يزال أهل إيطاليا يحتفلون كلّ سنة بتذكار هذه الواقعة. ولمّا بلغ الخبر السلطان امتنع ثلاثة أيام عن الطعام، وطرح نفسه على الأرض يستغيث بالله أن يرأف بالإسلام، لأنَّ القوّة البحرية التي كان أسّسها سليم الأول وسليمان القانوني استولى عليها البوار بهذه الكائنة، ولكن الصوقلي بمهارته لم يلبث أن شرع بتجديد الأسطول العثماني بسرعة خارقة للعادة، وعضده في ذلك أمير الجزائر «أولوج علي» وتوجّهت عليه أمارة البحر. فبنى العثمانيون مائة وخمسين

سفينة حربية، وكان القرار هو أن يبنوا مائة وخمسين سفينة ثانية، فقال قبطان البحر: إنّه يصعب على الدولة استحضار كلّ لوازم هذه السفن، فأجابه الصوقلي الصدر الأعظم: بأنَّ السلطنة بمنابع ثروتها تقدر أن تجعل جميع الأسلحة من الفضّة، وجميع الأشرعة من الأطلس. وهكذا خرج الأسطول العثماني في سنة ١٥٧٢ بمائتين وخمسين بارجة حربية، فعادت البندقية تحسب للعاقبة حسابًا. وفي ٧ مارس سنة ١٥٧٣ ارتضت بالصلح مع الباب العالي، وتخلّت عن جزيرة قبرص، ودفعت ثلاثمائة ألف دوكة تعويضات. ثمَّ طرد العثمانيون الاسبانيول من تونس واستولوا على هذه البلدة، وامتنع الاسبانيول بحلق الواد إلاّ أنَّ «الدون جوان دوتريش» جاء بأسطول إلى تونس وردّ مولاي حسن الحفصي إلى الملك، ولم يطل هذا الأمر إذ بعد سنة ونصف جاء سنان باشا ومعه أربعون ألف مقاتل، فطرد الحفصي والاسبانيول معًا، واستولى على قلعة حلق الواد التي كان امتنع الاسبانيول بها.

ثمَّ عصت بلاد البغدان؛ فأرسلت الدولة جيشًا خلع أميرها، ونصّب مكانه رجلاً اسمه «إيڤونيا» وفرّ أمير البغدان السابق إلى الروسيا حيث قتله «إيڤان» ملك الروس. ثمَّ إنَّ إيڤونيا نفسه عصى على الدولة، وظاهره القوزاق، واستولى على «برايلا» و«بندر» و«اكرمن» فزحفت إليه الجنود العثمانية فهزمته ووقع في الأسر واستؤصل القوزاق بأجمعهم. ومات السلطان سليم في ١٢ دسمبر ١٥٧٤. ومع ما كان عليه هذا السلطان من القصور فقد كانت وفاته مصيبة على الدولة لأنه بعد وفاته سقط الصدر الأعظم الصوقلي وكان رجلاً من دهاة الرجال، وكان نادر المثال.

وجاء في «شذرات الذهب» نقلاً عن الإعلام أنَّ السلطان سليم الثاني ولد سنة تسع وعشرين وتسعمائة، وجلس على تخت السلطنة يوم الإثنين لتسع من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة، ومدّة سلطنته تسع سنوات. وسنّه حين تسلطن ستّ وأربعون سنة، وعمره كلّه ثلاث وخمسون سنة، وكان سلطانًا كريمًا، رؤوفًا بالرعية، رحيمًا، عفوًا عن الجرائم حليمًا، محبًّا للعلماء والصلحاء، محسنًا إلى المشايخ والفقراء، طالما طافت بكفّيه الآمال واعتمرت، وصدع بأوامره الليالي والأيام فأتمرت كم أظهرت لسواد الكفرة يد صارمة البيضاء آية للناظرين، وكم جهز جيوشنا للجهاد في سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين.

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرص بسيف الجهاد، ومنها فتح تونس المغرب وحلق الواد، ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة. ومن خيراته تضعيف صدقة الحبّ

على أهل الحرمين، والأمر ببناء المسجد الحرام. وتولّى بعده ولده السلطان مراد، وتاريخ جلوسه:

بالبخت فوق التخت أصبح جالسًا ملك به رحم الإلـه عباده
وبه سرير الملك سرّ فأرّخوا حاز الزمان من السرور مراده

ا.هـ. وهو من نظم الشاعر «ماميه» الرومي.

وفي زمان السلطان سليم الثاني نبغ من العلماء؛ الشيخ محيي الدين المشتهر بـ «حكيم شلبي» وكان من الأطبّاء. وعلاء الدين المنوغادي، وكان من المدرّسين الكبار، وتولّى قضاء بغداد. والمولى شمس الدين أحمد بن أخي القراماني، وكان أيضًا مدرّسًا، ثمَّ تولّى قضاء المدينة المنوّرة. ويعقوب الشهير بـ «جالق» وكان مدرّسًا أخيرًا بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ تولّى قضاء بغداد. وتاج الدين ابراهيم، وقضى حياته في التدريس، وكان في المدرسة التي بناها السلطان سليمان في دمشق. ومحمَّد ابن عبد الوهّاب بن عبد الكريم، وأخذ عن أبي السعود المفتي، وعن كمال باشا زادة، وتولّى قضاء حلب، ثمَّ قضاء الشام، ثمَّ قضاء مصر، ثمَّ صار قاضيًا بالعسكر المنصور. ثمَّ اختلف مع الوزير الكبير فاعتزل، وكان من الأجواد الكبار فوق علمه وفضله. ولمّا جمع المولى محيي الدين سباهي زادة حواشيه التي علّقها على «حاشية التجريد» للسيِّد الشريف صدّرها باسمه فأعطاه مائة دينار. ويقال إنَّه حصل له من قضائه بالعسكر سبعون ألف دينار، أنفقها كلّها ومات عليه أربعة آلاف دينار. وكانت له مقالات على منوال «مقامات الحريري» وعلّق حواشي على «حاشية الدواني للتجريد» وله شعر عربي بديع، ومنهم السيِّد حسن بن سنان خدمَ المفتي أبا السعود، ودرس في المدارس الشهيرة ثمَّ تقلّد قضاء حلب، ثمَّ انتقل إلى مكّة وحمد أهل الحجاز قضاءه. ومنهم مصلح الدين داود زادة، وتنقّل في المدارس حتّى صار إلى إحدى المدارس الثمان، ثمَّ إلى مدرسة سليم خان، ثمَّ تقلَّد قضاء المدينة. ولمّا دخل الحرم الشريف أعتق مماليكه ومات بالمدينة ودُفن بالبقيع.

ومنهم المولى محمود معلِّم الوزير الكبير محمَّد باشا، وتنقّل في المدارس، ثمَّ تولّى قضاء القاهرة، وحمد الناس قضاءه. ومنهم مصلح الدين الشهير بـ «معلِّم السلطان جهانكير ابن السلطان سليمان، وكان من العلماء العاملين. ومنهم محيي الدين الشهير بـ «ابن النجار» نشأ في اسكوب من الرومللي، وتولّى التدريس مدّة طويلة ثمَّ تولّى قضاء بغداد، وكان

فاضلاً أديبًا، وله نظم بالتركي والعربي. ومنهم عبد الرحمن المعروف بـ «الدار زادة» كان مدرّسًا في ديموطقة، ثمَّ في القسطنطينية، وتولّى قضاء المدينة المنوّرة، وقضاء حلب. ومنهم مصلح الدين بستان، وكان مدرّسًا في إحدى المدارس الثمان ثمَّ تولّى قضاء بروسة، ثمَّ قضاء أدرنة، ثمَّ قضاء القسطنطينية، ثمَّ قضاء العسكر المنصور. وكان من فحول العلماء، وله تآليف قيّمة. ومنهم مصلح الدين الشهير «كوجك بستان» وكان من كبار المدرّسين. وأفتى في بلاد مغنيسيا.

ومنهم المولى عبد الله الشهير بـ «غزالي زادة» وهو من ذرّية الإمام الغزالي، وكان منسوبًا إلى الوزير الكبير رستم باشا وولاّه القضاء في قصبة أبي أيوب الأنصاري مع قصبة غلطة، فلمّا عُزل رستم باشا عُزل هو أيضًا معه، وكان محمود الطريقة. ومنهم المولى جعفر ابن عم المفتي أبي السعود، كان مدرّسًا ثمَّ تولّى قضاء دمشق، ثمَّ قضاء العسكر في الأناضول، وكان عالِمًا عابدًا. ومنهم شاه محمَّد بن حزم، وهو من ذرّية جلال الدين، صاحب «المثنوي»، وكان من أكابر المدرّسين، وتقلّد قضاء القاهرة، ثمَّ قضاء القسطنطينية، وكان من فحول العلماء إلاَّ أنه كان معجبًا مستبدًّا صعب المقادة، وله حواش على كتاب «الإصلاح والإيضاح» لكمال باشا زادة، وحاشية على «حاشية التجريد» للسيِّد الشريف. ومنهم أحمد بن عبد الله المشتهر بـ «الغوري» ودرس بمدرسة السلطان بايزيد في دمشق، وكان عالِمًا أديبًا له رسالة «في علم الخط» ومنهم المولى يحيى بن عمر من أماسية، وكان من المدرّسين العظام، وبلغ السلطان عنه شيء فعزله عن التدريس، فانقطع عن الوزراء واتّخذ مسكنًا في بشكطاش من القسطنطينية، وبنى أيضًا مدارس ومسجدًا، وكان يطعم الفقراء، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية، ولمّا مات صلّى عليه المفتي أبو السعود، وكانت له جنازة عظيمة. ومنهم أحمد بن محمَّد بن حسن الصامسوني، وقضى حياته في التدريس، وتولّى مرّة قضاء حلب، وحمده الناس في قضائه. ومنهم المولى عطاء الله معلِّم السلطان سليم الثاني وكان يعلِّمه عندما كان أميرًا على مغنيسيا، فلمّا جلس على كرسي السلطنة حظي عنده وصار يشاوره، وصار يقدّم رجاله وربّما قدّم غير المستحقّ على المستحقّ، فخاض الناس في عرضه ونسبوه إلى التعصّب، ولمّا مات كانت له جنازة حافلة، وصلّى عليه المفتي أبو السعود، ونزل السلطان إلى الباب العالي بنفسه. ومنهم الشيخ رمضان وكان خطيبًا في جامع أحمد باشا في «چورلو» وتوفّي هناك، وكانت له تآليف وحواش. ومنهم پير أحمد المشهور بـ «ليث زادة» كان أبوه قاضيًا في مصر وقضى حياته

في التدريس. ومنهم المولى سنان وكان أيضًا من المدرّسين المعروفين، ومن مزاياه أنه كان يسعى في مصالح الناس مقصدًا لذوي الحوائج. ومنهم علاء الدين علي بن محمَّد المعروف بـ «حناوي زاده» وكان مدرّسًا في إحدى المدارس الثمان، ولمّا بنى السلطان سليمان المدرستين اللتين بناهما غربي جامعه الكبير أعطاه إحداهما، ثمَّ تولّى القضاء في دمشق، ثمَّ في بروسة ثمَّ في أدرنة، ثمَّ في القسطنطينية، ثمَّ صار قاضي العساكر وكان من فحول العلماء، وقد جمع الأدب إلى العلم، وله بدائع النظم، وله كتب كثيرة. ومنهم الشيخ يعقوب الكرماني. وكان أبوه من الجند، ولكنّه رغب في العلم والعبادة. ومنهم محمَّد بن خضرشاه المعروف بـ «ابن الحاج حسن»، وكان مدرّسًا شهيرًا. ثمَّ تقلَّد قضاء المدينة المنوّرة، ثمَّ قضاء مكّة المشرفة. ومنهم مصلح الدين اللاّري نسبة إلى «اللار» بالراء المهملة. وهي مملكة بين الهند وشيراز، جاء من بلاده إلى القسطنطينية ثمَّ خرج إلى ديار بكر وآمد، ومات هناك. وله تآليف وحواش على الكتب المشهورة، وأراد معارضة المفتي أبي السعود في قصيدته الميمية فقصّر عنه. ومنهم الشيخ أبو سعيد بن الشيخ صنع الله، أصله من بلاد تبريز وكان من المرشدين، ومن الأجواد، وكانت له كلمة نافذة عند الملوك. ومنهم شمس الدين أحمد بن مصلح الدين المشتهر بـ «معلِّم زادة» يقال إنّه من ذرية ابراهيم أدهم رضي الله عنه. وكان مدرّسًا ثمَّ تولّى القضاء، وما زال يرقى في القضاء حتّى تولّى قضاء عسكر الروملّي.

قال صاحب «العقد المنظوم، في ذكر أفاضل الروم»: إنّه كان مجبولاً على اللّطف والكرم، غير أنَّ فيه طمعًا زائدًا، وحرصًا وافرًا، سامحه الله أولاً وآخرًا. ومنهم الشيخ بالي الخلوتي المعروف بـ «سكران» وتعاطى في أول أمره التدريس، ثمَّ تبع الطريقة الصوفية فترك التدريس والإفادة، وعكف على الزهد والعبادة. ومنهم علي بن عبد العزيز المشتهر «أم الولد زادة» وكان مدرّسًا كبيرًا، ولكنّه لم يكن له حظّ فعانى كثيرًا من الفقر، ونكبات الدهر، ثمَّ تولّى قضاء حلب، ولم يكد يتولاّه حتّى مات. وعارض المفتي أبا السعود في قصيدته الميمية لأنه كان ضاربًا بسهم في الأدب؛ متمكّنًا من لغة العرب. ومنهم الشيخ محيي الدين بركيلو، وكان عالِمًا عادلاً قوّالاً بالحقّ لا يهاب الحكّام والأمراء، وربّما وبّخهم في وجوههم. ومنهم محيي الدين فكساري زادة وكان مدرّسًا، وكان في قول الحقّ صارمًا. ومنهم عبد الكريم بن محمّد بن أبي السعود، وتولّى قضاء القسطنطينية ثمَّ قضاء العسكر، وكان من أفذاذ العلماء وتوفّي وما بلغ عمره الثلاثين سنة.

وأمَّا أبو السعود أفندي المفتي بن مصطفى العمادي الشهير؛ فإنَّه كان حسنة زمان السلطان سليمان، وكان منه بمقام القاضي أبي يوسف من هرون الرشيد، والقاضي الفاضل من صلاح الدين يوسف، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي من عبد الرحمن الناصر الأموي، ولم تطر شهرة أحد من شيوخ الإسلام في دولة آل عثمان مطار شهرته.

ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية، من خواص أوقاف الزاوية التي كان السلطان بايزيد خان قد بناها للمولى محيي الدين العمادي والد أبي السعود، وقرأ المولى أبو السعود على والده، وعلى الشيخ عبد الرحمن المشتهر بـ"شيخ زادة" وبدأ أبو السعود أفندي بالتدريس يتنقّل من مدرسة إلى مدرسة حتّى انتهى إلى إحدى المدارس الثمان، ولمّا فارقها ودّعها بأبيات منها:

دنا النأيُ عن نجد فأصبحت قائلاً ... وداعًا لمَن قد حلّ هذي المنازلا

فيا حبّذا تيك المعالم والربى ... بها كلّ من تهوى وما كنتَ آملا

نسيم الصبا عرّج عليها ونادِها ... سقتك الغوادي وابلاً ثمَّ وابلا

نأت عنك دارى لا قِلى وسآمة ... بلى فَعَلَ التقدير ما كان فاعلا

ولن تبرح الأشواق تزداد في الحشا ... إلى أن أرى أمرًا من الدهر هائلا

وتقلّد قضاء بروسة، ثمَّ قضاء القسطنطينية، ثم قضاء العسكر في الروملي.

قال صاحب الدرّ المنظوم: "ولمّا انتقل المولى سعد بن عيسى بن أمير خان إلى رحمة ربّه؛ اضطرب أمر الفتوى، وانتقل من يد إلى يد، ولم يثبت سقف بيته على عمد حتّى تسلّم أبو السعود أفندي زمام الإفتاء وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، وبقي في عهدته نحوًا من ثلاثين سنة، وكتب الجواب مراراً في يوم واحد. ثمَّ قال صاحب الدرّ المنظوم: "وسارت أجوبته في جميع العلوم مسير النجوم" وكانت وفاة أبي السعود في أول جمادي الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وصلّى عليه المولى سنان مُحَشّى "تفسير البيضاوي" ودُفن في جوار أبي أيوب الأنصاري. ثمَّ قال صاحب الدرّ المنظوم: "إنّه تفرّد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، وضاقت عن إحاطته صدور الحصر والحدّ ما صارع أحدًا إلاّ صرعه، وما صمّم شيئًا إلاّ قطعه، وانقطع عن القرين. ولم يبقَ مَن يعارضه ويكايده، وقد وصل تلاميذه وأصحابه إلى المناصب السميّة، والمراتب السنيّة، فكان لا يضيع منه كلام،

ولا يفوت له مرام. وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهمّ وأقوى؛ عن التفرّع للتصنيف، سوى أنه اختلس فرصًا وصرفها إلى التفسير الشريف، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأذهان، ولم تقرع به الآذان وسمّاه بـ "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" ولمّا وصل منه إلى آخر سورة ص ورد التقاضي من طرف السلطان سليمان خان، وظهر كمال الرغبة والانتظار فلم يمكن التوقّف والفرار، فبيّض الموجود وأرسله بصهره المولى محمَّد المشتهر بـ "ابن المعلول" فقابله السلطان بحسن القبول، وأنعم عليه بما أنعم، وزاد في وظيفته كلّ يوم خمسمائة درهم. وبعد ذلك تيسّر له الختام، ورتّبه بالكمال والتمام، وأرسله إلى السلطان ثانيًا بعد إتمامه، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه، وزاد في وظيفته مائة أخرى.

وكان يمنعه عن الإكثار من التأليف تواتر الفتوى من الآفاق. ومن شمائله أنه كان ذا مهابة عظيمة قلّما يقع في مجالسه أخذ ورد، ولكنّه كان كثير المداراة للناس مائلاً إلى مداهنة رجال الحكومة، وكان طويل القدّ، خفيف العارضين، غير متكلّف في اللباس والطعام. انتهى بتصرّف. وله من النظم القصيدة الميمية المشهورة:

أبعدَ سليمى مطلبٌ ومرام ... وغير هواها لوعة وغرام
وفوق حماها ملجأ ومثابة ... ودون ذراها موقف ومقام
وهيهات أن يُثنى إلى غير بابها ... عنان المطايا أو يُشدّ حزام
هي الغاية القصوى فإن فات نَيْلها ... فكل منى الدنيا عليّ حرام
سلا النفس عنها واطمأنت بنأيها ... سلوّ رضيعٍ قد عراه فِطام

وهي تسعون بيتًا شرحها كثير من العلماء. وله مشيرًا إلى تعلّق الإنسان بالعالم الجسماني قصيدة مطلعها:

طال الثواء بدارة الهجران ... مثوى الكروب قرارة الأشجان

ومنها:

حتّى مَ ترتع في مراتع غفلة ... وإلى مَ تسلك مسلك الخسران
فكأن قلبك في جناحي طائر ... بادي التقلّب دائم الخفقان
ما زلت تبغي مطلبًا عن مطلب ... وتحل في مغنى عقيب مغاني

أو ما كفى ما قد بلغت عن المنى
قد كان ما في حيّز الإمكان

ألقى الزمان إليك حبلَ قياده
مع ما به من شدّة وحران

لو أنت تملك كلّ ما قد رُمته
فاعلم بأنَّ جميع ذلك فاني

سر في فضاء العالم العلويّ كم
هذا الجثوم بعالم الجثمان

قد آن من شمس الحياة طلوعها
من حضرة الأشباح والأبدان

وجاءه كتاب من شريف مكّة، فأجابه بجواب فيه ما يأتي:

وخريدة برزت لنا من خدرها
كالبدر يبدو من خلال غمام

عربيّة فتنكّرت وازّينت
بملابس الأعجام والأروام

طوبى لمَن رزق الوقوف ببابها
فهو المرام وأيّ أيّ مَرام

باب إليه تشوّقي وتوجّهي
حَرَم عليه تحيّتي وسلامي

يا ليت شعري هل أفوز بزورة
يومًا وقد ضربت هناك خيامي

السلطان مراد الثالث

وتولّى بعد سليم الثاني ابنه مراد الثالث، وكان محبًّا للعلم والأدب، إلاّ أنه استولى عليه شهوتان؛ إحداهما حبّ المال، والثانية حبّ الجمال. وأفرط في معاشرة النساء إلى الحدّ الذي أضرّ بعقله، ولكنّه أصدر أمرًا قاطعًا بمنع الخمر، فثار به الانكشارية والسباهية، حتّى اضطرّوه إلى إلغاء هذا الأمر، فانعكس المثل، وصار: اليومَ أمرٌ وغدًا خمر. وفي زمانه خرقت النمسا الصلح، فسارت العساكر العثمانية وهزموا جنودها وقتل "هربرت بارون أوسبرغ" في المعركة وأرسل رأسه إلى القسطنطينية. فطلبت النمسا الصلح، ولكن العثمانيين لم يزالوا يشنّون الغارات على استيريا، وكارنيتا فاضطرّ النمسويون إلى القتال. وفي ذلك الزمان صار "إتيان باتوري" ملكًا على بولونيا، فاتّفق مع البابا ومع إمبراطور ألمانيا على حرب صليبية يصلونها الأتراك، وبدأت المذاكرة في كيفيّة تقسيم السلطنة العثمانية. وقد سبق لنا في حواشي "حاضر العالم الإسلامي" أنَّ الممالك الأوربية في مدّة ستّمائة سنة قرّرت تقسيم السلطنة العثمانية وبلاد الإسلام مائة مرّة، ذكرنا كلّ واحدة منها، وكيفيّة المذاكرات التي جرت بها فمَن شاء فليراجع ذلك هناك.

وقد كانت عزيمة إتيان باتوري هذا من أهمّ هذه العزائم النصرانية بحقّ دولة آل عثمان. وكان يريد أيضًا استئصال إمارة موسكو، ولكنّه مات قبل أن يضع عزيمته هذه موضع الإجراء. وفي مدّة مراد الثالث ضعفت قوّة الصدر الأعظم الصوقلي، وتغلّب عليه رقباؤه، وتمكّنوا من عزل حواشيه والمنسوبين إليه، وما زالوا يقصّون من أجنحته إلى أن أرسلوا من قتله سنة ١٥٧٩ ففقدت الدولة بفقده رأسها المفكّر، وعقلها المدبّر.

وكان شاه العجم طهماسب قد مات مسمومًا، وخلفه ابنه حيدر فقُتل في يوم مبايعته، وتولّى أخوه اسماعيل فاستقرّ في الملك ثمانية عشر شهرًا، فانتهز العثمانيون الفرصة وشنّوا الغارة على أطراف العجم، واستولوا على بلاد كرجستان كلّها، وقسّموها إلى أربع ولايات؛ فتولّى أزدمير عثمان باشا ولاية شيروان، وتولّى محمَّد باشا تفليس وحيدر باشا صخوم، وتولّى ابن اللاوند على كرجستان الأصلية. فأرسلت سلطنة العجم أربعة جحافل لاسترداد بلاد كرجستان، فوقعت المعارك بين الفريقين، وكانت الحرب سجالاً بينهما. إلاّ أنَّ أزدمير عثمان باشا في الداغستان كان دائمًا مظفرًا. فأتمّ فتح داغستان وكرّ على الروس.

ولمّا كان خان القريم تخلّف عن مساعدة الدولة أراد أن يقاتله، فزحف محمَّد غرائي خان القريم بأربعين ألف فارس، وكاد يوقع بأزدمير عثمان باشا، إلاّ أنَّ إسلام غرائي أخا محمَّد تولّى القريم من قِبَل السلطان، فزحف على أخيه فتفرّق عن محمَّد غرائي جميع جنده وقُتل. فلمّا رجع أزدمير عثمان باشا إلى القسطنطينية، دخل بأبّهة عظيمة لم تحصل لقائد قبله، وتولّى الوزارة العظمى مع قيادة الجيش الزاحف لحرب العجم. ثمَّ إنّه سار بمائة وستّين ألف مقاتل إلى تبريز، وهزم العجم، ودخل تلك البلدة، ولكن ساءت صحّته فتعطّلت الحركات العسكرية، وظفر حمزة مرزا قائد العجم بالعثمانيين. وفي أثناء ذلك مات عثمان باشا، وتقهقر الجيش العثماني، ورجع العجم فحصروا تبريز وحملوا عليها خمسة عشر حملة، وأصلوها ثمانية وأربعين معركة ولكنّهم لم يقدروا عليها، وأرسلت الدولة فرهاد باشا لنجدتها. وفي هيعة ذلك اغتيل القائد حمزة مرزا، وظفر فرهاد باشا ظفرًا عظيمًا بالإيرانيين، فاضطرّ الشاه عباس إلى طلب الصلح، فانعقدت المعاهدة على أن تبقى كرجستان، وشيروان، ولورستان وتبريز، وقسم من أذربيجان للدولة العثمانية. وفي زمن مراد الثالث اضطربت المملكة بكثرة الفتن، وظهرت علامات اختلال الإدارة، فثار الانكشارية في استانبول لأنهم أرادوا أن يؤدوا إليهم رواتبهم بمعاملة ورق رقيق لم يرتضوا بها، فهجموا على قصر السلطان.

وفي مصر ثار الجند على أويس باشا الوالي، وفي تبريز خرج الجند أيضًا عن الطاعة فذبح منهم جعفر باشا ألفًا وثمانمائة، وفي بود عاصمة المجر انتقض الجند بسبب تأخّر أرزاقهم وقتلوا الوالي. وما زال الجند ـ لا سيّما الانكشارية ـ يزدادون تمرّدًا حتّى قرّر سنان باشا الصدر الأعظم الدخول في حرب مع دولة أجنبية ليشغل الانكشارية عن العصيان، فسرح جيشًا تحت قيادة حسن باشا والي بوسنة يهاجم النمسا، فانهزم حسن باشا وزحف سنان باشا بنفسه ففتح "ڤيسيريم" و"بالوته" إلاّ أنَّ قائد بود انهزم واستولت النمسا على تسع قلاع، ثمَّ ثارت "ترانسيلڤانيا" و"الفلاخ" و"البغدان" واتّحدت هذه الإمارات الثلاث مع النمسا وقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين فيها، ولم تكن أحوال السلطنة العثمانية في زمن هذا السلطان على ما يرام بل اضطرب الحبل، ومات السلطان في ٦ يناير سنة ١٥٩٦.

ونبغ في زمن هذا السلطان من العلماء؛ الطبيب الياس القراماني، وكان في الأصل طبيبًا ثمَّ تبحّر في العلوم العقلية والنقلية، ولكنّه بقي يتعاطى الطبّ. وكان فرهاد باشا من وزراء السلطان مراد الثالث مبتلي بحبس البول، فأشار عليه الطبيب الياس بتناول معجون تناوله، فمات بعد ذلك بالزحير، فاتّهم الطبيب بأنه تعمّد قتل فرهاد بإشارة من الوزير محمَّد باشا الذي كان رقيبه، فدخلت زوجة فرهاد باشا على السلطان وطلبت قتل الطبيب، فأخذ وحبس وأمر السلطان بالتحقيق، فلم يثبت شيء على الطبيب وشفع به المفتي والعلماء، فأخرج من الحبس، فجاء خدّام فرهاد باشا وقتلوه. ولمّا وقف السلطان على ذلك غضب غضبًا شديدًا، وقبض على ستّين شخصًا من جماعة فرهاد باشا، وصلب منهم عشرة، ونفى الباقين. ومنهم مصلح الدين بن علاء الدين المشتهر بـ "جراح زادة" ولد في أدرنة وقرأ على المولى لطف الله بن المولى شجاع، ثمَّ تبع طريق الصوفية، وصار من الأولياء، ومات بأدرنة، وتنسب إليه الكرامات الكثيرة. ومنهم عبد الرحمن بن علي الأماسي، كان من المدرّسين ثمَّ استقضى في بروسة ثمَّ في أدرنة، ثمَّ في العسكر المنصور، ثمَّ في مكّة المكرّمة. وكان ذا حظوة عند السلطان سليم الثاني، وبقي إلى زمن السلطان مراد الثالث. ولكن صاحب الدرّ المنظوم نبزه بمداهنة الوزراء وانهماكه بالرئاسة، وليس ذلك مستحسنًا في العلماء. ومنهم الشيخ محرم بن محمَّد من قسطموني، وكان من المتصوّفة. ولمّا أتمّ السلطان سليمان جامعه الشهير نصب له به كرسي، فكان يدرّس تارة ويعظ أخرى. ومنهم المولى شمس الدين أحمد، وكان من العلماء وأصحاب الأخلاق. ومنهم محمَّد بن أحمد المشتهر بـ "زَن" كان أبوه من ندماء السلطان سليم الأول، وطلب

العلم وانتهى بأن صار من المدرّسين، يتنقّل من مدرسة إلى أخرى، ودرس في مدرسة السلطان سليمان بجزيرة "رودس"، وكان أطلس [1] بحيث إذا عرى عن زيّ الرجال يشتبه أمره على النظر، ويكون مصداق ما قال الشاعر:

وما أدري وسوف أخال أدري | أقوم آل حصن أم نساء؟!

يحكى أنه كان مع السلطان مراد الثالث ببلدة مغنيسيا، وكان قد ظهر الجراد وأكل الزروع كلّها، فقال السلطان: كأنما الجراد لعب بلحية المفتي أيضًا. ومنهم أحمد بن حسن الصامسوني، وكان من المدرّسين، ثمَّ تولّى قضاء حلب، ثمَّ قضاء دمشق، ثمَّ قضاء مكّة، وحمدت سيرته. ومنهم محمَّد بن عبد العزيز المشتهر بـ"معيد زادة" من مرعش، لازم المولى خير الدين معلِّم السلطان سليمان، وصار يتنقّل في المدارس، ودرس في مدرسة السلطان سليمان في دمشق، ثمَّ تولّى قضاء بيت المقدس وكان عالمًا أديبًا، وله نظم يمدح به أهل بروسة ويقول فيهم:

رأيناهم أشدّ الناس حبًّا | لأهل العلم رأسًا أو مسوسًا
فلو كان البلاد بني أبينا | لكانت هذه فيهم عروسًا

ومنهم المولى محمود المشتهر "بالكاتب" ولد في سلانيك، وكان من المدرّسين المعروفين، وتولّى قضاء بغداد، ثمَّ قضاء آمِد. ومنهم المولى زين العباد من أولاد الشيخ ابراهيم التنوري القيصري، ولد في قيصريه، وطلب العلم، واتّصل بكبار العلماء، وأخذ عنهم، وصار من المدرّسين ودرّس في دمشق بمدرسة السلطان سليمان. ومنهم رمضان المشتهر بـ"ناظر زادة" وكان من المدرّسين المعروفين، وتقلّد قضاء الشام، ثمَّ قضاء مصر، وكان عالِمًا عاملاً حسن الصورة والسيرة، احترز من التأليف خوفًا من الخطأ. ومنهم المولى حسن ولازم المفتي أبا السعود، ودرس بإحدى المدارس الثمان، وتقلّد قضاء الشام، ثمَّ قضاء مصر، ثمَّ قضاء مكّة، ثمَّ قضاء القسطنطينية. ومنهم المولى حامد من قونية. وكان من المدرّسين، وتقلّد قضاء دمشق، ثمَّ قضاء مصر، ثمَّ قضاء بروسة. وتولّى قضاء العسكر في الروملي، وكان من الفقهاء المشهورين وكان عظيم النفس مهيبًا في أعين الناس. ومنهم المولى محمَّد بن عبد اللطيف المشتهر بـ"بخاري زادة" تولّى القضاء بطرابلس الشام.

(1) تساقط شعره. [المحقّق]

ومنهم المولى يوسف المشتهر بـ «سنان» قرأ على محيي الدين الفناري، وعلى علاء الدين الجمالي، ودرس بدار الحديث في أدرنة وتقلّد قضاء حلب، ثمَّ قضاء دمشق، وانتهى أمره بأن صار من قضاة العساكر ومات عن تسعين سنة. وكان شيخًا جميل الصورة والسيرة على أخلاق كريمة كثيرة وكتب حواشي على تفسير البيضاوي. ومنهم أحمد بن محمَّد المشتهر بـ «نشانجي زادة» وكان مدرّسًا وتقلّد قضاء مكّة، وقضاء مصر. ومنهم المولى محمَّد المعروف «همشيره زادة» وكان من المدرّسين.

قال صاحب الدرّ المنظوم: إنَّه كان محبًّا للصلحاء، متردّدًا إلى مجالسهم اللطيفة مستمدًّا من أنفاسهم الشريفة، غير أنه كان كثير الاقتحام في مصالح الفئام، باذلاً عرضه الخطير في الأمر الحقير. ومنهم محمَّد بن المولى سنان، كان مدرّسًا بمدرسة داود باشا، ثمَّ بمدرسة خانقاه، ثمَّ بالمدرسة الخاصكية، ثمَّ بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ بإحدى المدارس السليمانية، وكان معروفًا بحدّة الذهن، وفرط الذكاء، وقوّة البحث، وله حواش على الشرح «الشريفي للمفتاح». ومنهم المولى أحمد المعروف بـ «الكاملي» كان مدرّسًا بمدرسة مصطفى باشا باستانبول، ثمَّ نقل إلى مدرسة السلطان محمَّد بجوار أبي أيوب، ثمَّ بإحدى المدارس الثمان، ثمَّ بإحدى مدارس السلطان سليمان. ولمّا فتح السلطان سليم الثاني جزيرة قبرص تولّى قضاءها، وتسلّم هناك زمام الحكومة، لكنّه عجز عن القيام بأمور قبرص، فاستقال من ذلك المنصب وعاد إلى القسطنطينية. قال صاحب الدرّ المنظوم: إنَّه كانت له مكاتيب تارة يختار فيها الحروف العارية عن النقط؛ وتارة يلتزم في كلمة حرفًا واحدًا فقط، ومن الذي ما ساء قط. ومنهم محمود المشتهر بـ «معلِّم زادة» وكان ملازمًا للمفتي أبي السعود، ودرس بمدرسة مراد باشا ثمَّ بمدرسة داود باشا، ثمَّ بمدرسة رستم باشا في القسطنطينية، ثمَّ بمدرسة بنت السلطان سليمان باسكدار ثمَّ بإحدى المدارس الثمان، ومات شابًّا. ومنهم محمود المشتهر بـ «بابا شلبي» قرأ على المولى القادري ثمَّ ذهب مذهب الصلاح، واشتهر بالتقوى فنصب لتعليم بنت السلطان سليمان صاحبة الخيرات الحسان، فلمّا تزوّجت بالوزير الكبير رستم باشا أكرمه غاية الإكرام وجمع كتبًا كثيرة نفيسة. ومنهم شمس الدين أحمد بن بدر الدين المشتهر بـ «قاضي زادة» وكان مدرّسًا في المدارس الشهيرة، وتولّى قضاء حلب، ثمَّ قضاء القسطنطينية ثمَّ قضاء العسكر. وفي زمان السلطان مراد الثالث نال الحظوة التامّة، وتقلّد الفتوى بدار السلطنة. قال صاحب الدرّ المنظوم: «إنَّه أفحم من عارضه بشقاشقه الهادرة وأرغم من عاناه بحقائقه النادرة، كثير الاعتناء بدرسه،

دائم الاشتغال في يومه وأمسه، رفيع القدر، شديد البأس، عزيز النفس، يهابه الناس ثمَّ قال: إنَّه كان فيه من التهوّر المفرط والحدّة ما زاد على المعتاد. ومنهم أحمد المشهور بـ "مظلوم ملك" وكان معلِّمًا لأبناء السلطان سليم، فلمّا جلس على سرير السلطنة السلطان مراد الثالث وقتل إخوته الذين كان هذا الشيخ معلِّمًا لهم ـ فقد قيل إنَّ السلطان مراد قتل من إخوته خمسة ـ أصبح هذا الشيخ منكوبًا. ثمَّ قلّدوه قضاء بيت المقدس، ثمَّ قضاء المدينة المنوّرة، ثمَّ قضاء مكّة المشرفة، ثمَّ عاد إلى القسطنطينية، وكانت سيرته مرضية. ومنهم عبد الواسع بن محمَّد ابن المفتي أبي السعود، كان من المدرّسين المعروفين وكان يكتب الخطّ النادر الجميل. ومنهم محمَّد بن نور الله المشتهر بـ "أخي زادة" أخذ عن عرب شلبي، وعن المولى عبد الباقي، ولازم خير الدين معلِّم السلطان سليمان ثمَّ درّس بمدرسة خير الدين باشا في بشكطاش وفي غيرها. ثمَّ تقلّد القضاء، وانتهى بأن صار قاضيًا للعساكر، وكان بحرًا من بحار العلوم، أنظر أهل زمانه. ومنهم شمس الدين أحمد المعروف بـ "العزمي" ولد في القسطنطينية. وطلب العلم ودرس بالمدرسة الأفضلية، ثمَّ بمدرسة سنان باشا ببشكطاش. ومنهم المولى محمَّد المعروف بـ "صارو كرد أوغلي" كان من ملازمي المفتي أبي السعود، وتنقّل في المدارس الشهيرة. ومنهم المولى خضر بك بن عبد الكريم القاضي، وكان من المدرّسين، وتوفّي وهو مدرّس في بروسة.

قال صاحب الدرّ المنظوم: "وكان من الغائصين في بحار العلوم، غير أنه لا يخلو عن القيل والقال، مطلق اللسان في السلف، ومزدريًا بشأن الخلف، مع غاية الإعجاب بنفسه، لطف الله به في رمسه".

السلطان محمّد الثالث

وتولّى بعد مراد الثالث محمّد الثالث، وكانت أمّه من البندقية (يافّه) ولمّا تولّى محمّد الثالث كان له تسعة عشر أخًا فقتلهم جميعًا!! وبرغم هذه الفعلة الغريبة كان حسن العقيدة، صارمًا في إحقاق الحقوق، مهتمًّا بتنفيذ الشريعة الغرّاء!! وفي زمانه تولّى الأمور سنان باشا، وحسن باشا، وسيكالا زادة، وعسفوا الرعيّة، وأثقلوا كواهل الأهالي بالضرائب. ولم يقدر السلطان على إصلاح الحال، وكانت الحرب مستمرّة، وكانت العساكر العثمانية غير موفّقة في بلاد الفلاخ حيث اتّفق أمير الفلاخ مع أمير ملداڤيا، وأمير ترانسلڤانيا، والإمبراطور رودلف الثاني. فزحف سنان باشا واستولى على بخارست سنة

١٥٩٥ إلاّ أنَّ ميشيل أمير الفلاخ عاد فهزم العثمانيين وقتل أسرى الأتراك بـ«الحازوق» وشوي «علي باشا» و «كدجي بك» على النار!! وصار الفلاخيون يتقدّمون كلّ يوم الأمام، ولكن الدولة العثمانية لم تكن تستغني عن بلاد الفلاخ لِما كانت تستدرّه من أخلافها، وتنعم به من خيراتها. وبينما هي تفكّر في استرداد بلاد الفلاخ التي هي في هذا العصر مصاص مملكة رومانيا مات الأمير ميشيل هذا فتخلّصت الدولة العثمانية من شرّه.

وأمّا النمسا فكانت جيوشها استولت على «غران» و«ويسغراد» و«بابقشه» و«كليس» فهاجت خواطر العثمانيين جدًّا، واضطرّ السلطان أن يخرج بنفسه إلى الحرب سائرًا على خطّة أجداده الأوائل. فوقع المصاف في سهل «كيرستس» في ٢٦ أكتوبر ١٥٩٦ ودارت الدائرة على النمسويين والمجر، وخسروا خمسين ألف مقاتل في تلك الموقعة، إلاّ أنَّ العثمانيين لم يحسنوا الاستفادة من هذا الظفر العظيم. وفي سنة ١٥٩٨ رجعت النمسا وهاجمت مدينة «راپ» وعرضت على «ساتورجي باشا» تسليم البلدة فرفض، ولمّا وقع في أيدي النمسويين قطّعوه إربًا!! والتجأ ثلاثمائة من العثمانيين إلى القلعة، ووضعوا النار في البارود فانفجر مخزن البارود، وقُتل فيه المحاصِرون والمحصورون، واستولى النمسويون بعد ذلك على «دولا» و«ويسپريم» و«پاپا» وانكسر حافظ أحمد باشا في «نيقو بوليس» ثمَّ في «بود». فزحف الصدر الأعظم ابراهيم باشا وأنقذ «بود» واستولى على «كانيشة» سنة ١٦٠٠ واستعمل ابراهيم باشا حسن السياسة مع الصرب والفلاخيين، فانقادوا إلى الطاعة.

وأمّا حالة السلطنة في الداخل فقد كانت من أسوأ ما يكون، فلم تكن تسكن ثورة في جهة حتّى تثور ثورة في جهة أخرى. وأهمّها ثورة «قره يزيدجي عبد الحليم» في الأناضول، وكان استولى على «أورفة» ثمَّ اتّفق مع أخيه الدلي حسن، والي بغداد، وادّعى السلطنة. ولم تتغلّب الدولة عليه إلاّ بعد جهاد طويل، وثار والي ديار بكر، ووالي الشام، ووالي حلب، ووالي كوتاهيه، ووالي بغداد الدلي حسن المذكور؛ فتغلّبت الدولة عليهم بعد عناء لا يوصف ونقلت والي بغداد إلى بوسنة.

ولكن أوجاق السباهيّة ثار على الحكومة بسبب تأخّر أرزاقه، ولو شاركه أوجاق الانكشارية لقلبوا الحكومة والسلطان معًا، ولكن الانكشارية حافظوا على الأمانة. وفي أثناء ذلك مات محمَّد الثالث.

وخلفه ابنه أحمد الأول[1] وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر، وكانت السلطنة منهوكة القوى بكثرة الفتن، وهي تحارب النمسا في أوربا، والعجم في آسيا، لأنَّ الشاه اسماعيل كان أعلن الحرب، واسترجع تبريز، ووان، وإبروان، بينما العصاة في أكثر بلاد الأناضول قد رفعوا رؤوسهم. وفي ذلك الوقت عصى الأكراد تحت قيادة «جان بولاد» في حلب، وعصى الدروز الذين تحت قيادة الأمير «فخر الدين المعني» فاسترضى مراد باشا، الصدر الأعظم، جمًّا من رؤساء العُصاة، وأرسلوا جان بولاد واليًا على «طمشوار» في البلقان. وأرضوا «قلندر أوغلي» بولاية أنقرة فرفضت أنقرة، قبول الثائر فعاد إلى العصيان. فزحف إليه مراد باشا فهزمه. وأرسل مَن فتك بـ«موصلي شاويش»، وهو من رؤساء العصاة، كما أنه استجلب إليه يوسف باشا، والي منتشة، وآيدين الذي كان عاصيًا أيضًا. فلمّا حصل في يده خنقه. وفرّ الأمير فخر الدين المعني إلى البادية، والخلاصة أنَّ مراد باشا أتى بخوارق العادات من الحزم والدهاء، حتّى استأصل جراثيم الفتن التي كادت تقضي على كيان السلطنة العثمانية، فلقّبوه بمجدِّد اللطنة. وما انتهى من قمع الفتن الداخلية حتّى وجّه همّته لمحاربة العجم.

ومن أغرب الأمور أنَّ هذا الشيخ قام بجميع تلك العزائم والعظائم وهو في سنّ التسعين ـ أي كان أسنّ من موسى بن نصير يوم فتح الأندلس ـ ولكن أثّر فيه التعب، وفي ٥ آب ١٦١١ انتقل إلى رحمة باريه. فاستدعى السلطان أحمد للصدارة الوزير نصّوح باشا، والي ديار بكر، فعقد الصلح مع العجم، وأعاد لهم البلاد التي كانت الدولة أخذتها منهم. فأمّا من جهة النمسا فإنّه كان وقع بينها وبين المجر خلاف نفع العثمانيين، وبايع المجر ملكًا اسمه «بوسكاي» فدخل تحت حماية السلطان وزحف لالا محمَّد باشا بجيش استرجع «غران» و«ويسغراد» و«ويسپريم». فعادت النمسا فصالحت «بوسكاي»، ملك المجر، وبقيت عساكر الدولة وحدها تحارب النمسا. وكانت الدولة مضطرّة إلى الصلح، تطفئ نيران الفتن المشتعلة في الأناضول فانعقدت بين الدولة وبين النمسا معاهدة «سيتڤاتوروك Sitvotorok» سنة ١٦٠٦ فنزلت الدولة عن الجزية السنوية التي كانت تدفعها لها النمسا وهي ثلاثون ألف

(١) السلطان أحمد الأول بن محمَّد الثالث. [المحقّق]

دوكة، واكتفت بقبض مائتَي ألف ريال غرامة حربية. وأعاد كلّ من الفريقين الأسرى الذين في يده، وبقيت للدولة "غران" و"إيرلو" و"كانيشة". وبقيت في يد النمسا "راب" و"كومورنو" وهذه المعاهدة هي أول معاهدة حصلت بها المساواة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية، لأنه إلى حدّ ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعامل الدول الأوربية معاملة الأعلى للأدنى، وتتقاضى من الأوربيين جُزًى سنوية، وإتاوات متنوّعة: وبهذه المعاهدة حصلت ترانسلڤانيا على نصف استقلال وتخلّصت مملكة المجر من دفع الجزية عن القسم الذي لم يكن العثمانيون يحتلّونه.

ومن خصائص تلك المعاهدة أنَّ الدول المسيحية أمكنها أن تناقش الدولة العثمانية في كيفيّة تحرير الصكّ، وقبل ذلك كانت الدولة تملي مثل هذه المعاهدات باللغة التركية، وتبلّغها أعداءها، وكان عليهم أن لا يراجعوا فيها. وبالاختصار كانت هذه المعاهدة أعظم إرهاص بين يدي تقهقر آل عثمان.

هذا وقد رفض أهالي ترانسيلڤانيا الدخول في طاعة النمسا، فرجع الباب العالي عمّا تقرّر في المعاهدة، وزعم أنَّ "بوسكاي" لم يكن له حقّ بالتصرّف بالإمارة بدون رضى الأهالي فولّى أمراء آخرين من قِبله منهم "بيتلنغابور" وكان من أشدّ أعداء النمسا، فاعترضت النمسا على ذلك، فأجاب الصدر الأعظم بأنَّ المتاركة غير شرعية، لأنه لم يكن وقّع عليها مفتي السلطنة. فثارت إمارة "مولداڤيا" وطرد الأهالي "طومزه" الأمير الذي كان من قِبل الباب العالي، إلاّ أنَّ اسكندر باشا جاء فقمع الثورة، وأعاد طومزه إلى مكانه. ثمَّ نشبت الحرب في تلك المدّة بين الدولة وأسبانيا، وجاءت سفن فرسان مالطة وصارت تعيث في سواحل الدولة، وغنمت أساطيل الطليان عدّة سفن حربية عثمانية، فوجّهت الدولة قوّتها البحرية إلى البحر المتوسّط، وانتهز القوزاق هذه الفرصة ونزلوا في سينوب ونهبوها. فغضب السلطان على الصدر الأعظم نصّوح باشا وأمر بخنقه. وفي سنة ١٦٠٤ تجدّدت العهود التي كانت بين الدولة وفرانسا، وربّما زِيد فيها وشدّدت الدولة في منع الأعمال القرصانيّة في البحر المتوسّط، وعزلت والي تونس، وخنقت والي الجزائر، ثمَّ تجدّدت العهود بين الدولة وبولونيا وتعهّدت بولونيا بمنع القوزاق من الغارة على مولداڤيا، كما تعهّد الباب العالي بمنع التتار من الغارة على بولونيا. وفي سنة ١٦١٢ انعقدت معاهدة تجارية بين هولاندة والباب العالي.

وفي ذلك الوقت ظهر التبغ بواسطة الهولانديين، فأفتى شيخ الإسلام بمنعه بحجّة أنه

من الخبائث على نحو ما يذهب إليه اليوم الوهابية، وأتباع الطريقة السنّوسية أيضًا. ولكن الشعب ثار بالمفتي وقالوا إنَّه لا يوجد تحريم للدخان في الكتاب أو السنّة، فمن أين للمفتي حقّ تحريم ما لم يرد على منعه نصّ؟ فاضطرّ المفتي إلى إلغاء فتواه. وكان السلطان أحمد الأول قد بلغ رشده وظهرت مناقبه، فكان عادلاً كريمًا محمود السيرة، معتنيًا بأمر المملكة، وكان موصوفًا بالتقوى والورع، أهدى نفائس نادرة إلى الحجرة الشريفة النبوية، ولو لم يكن له علّة إلاّ أنَّ رئيس الخصيان في القصر السلطاني كان في زمانه صاحب الأمر والنهي!! ولمّا مات السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٧ كان ابنه عثمان في سنّ الثالثة عشرة.

السلطان مصطفى

فرجّحت الأمّة مبايعة السلطان مصطفى أخي السلطان أحمد، وفي زمن السلطان أحمد هذا أجلى الأسبان بقيّة مسلمي الأندلس الذين كانوا أُكرهوا على التنصّر لكنّهم لبثوا مسلمين في الباطن، وسبب ذلك أنَّ هؤلاء أرسلوا وفدًا إلى السلطان أحمد يستغيثون به، فخاف ملك أسبانيا من الدولة العثمانية فقرّر إجلاءهم ودخل منهم ألوف إلى فرانسا، فأرسل السلطان أحمد إلى هنري الرابع، ملك فرانسا، يطلب منه إرسالهم إلى بلاده وبلاد الإسلام، ففي الحال أركبوهم السفن إلى بلاد الإسلام.

وفي بداية زمن السلطان مصطفى وقعت حادثة كادت تشعل الحرب بين الباب العالي وفرانسا، وذلك أنَّ أميرًا من أمراء بولونيا كان معتقلاً في الأبراج السبعة بالقسطنطينية، ففرّ منها بمساعدة أحد كتّاب سفارة فرانسا، فقبضت الدولة على السفير واعتقلته، ووضعت مأموري السفارة تحت الاستنطاق، ولبثوا في الاعتقال أربعة أشهر. فأرسلت فرانسا تهدّد بالحرب وتطلب التعويضات، فلم يصل معتمد فرانسا إلى الأستانة حتّى كان العثمانيون خلعوا السلطان مصطفى.

السلطان عثمان الثاني

وبايعوا السلطان عثمان الثاني، ابن أخيه، فكانت مدّة مصطفى ثلاثة أشهر فقط. واعتذرت الدولة لفرانسا، وكتب السلطان والصدر الأعظم، وقبطان البحر كتاب اعتذار إلى لويس الثالث عشر، وانتهت المسألة. وفي ذلك الوقت وقع خلاف بين الدولة وبولونيا من أجل مسائل تتعلّق بترانسلڤانيا، فأجمع السلطان على غزو بولونيا، وكان ينوي ذلك

حتّى يتمكّن من منع تجاوز الروسيا التي كان قد بدأ أمرها يستفحل. فزحفت الجيوش العثمانية وقطعت نهر «دينستر» وحملت على الجيش البولوني حملات شديدة لكنّها لم تقدر عليه، فلمّا رأى العثمانيون عقم هذه الحرب وكان البولونيون في وجل شديد من الهزيمة؛ انعقدت معاهدة الصلح في ١٦ أكتوبر ١٦٢٠.

وفي ذلك الوقت حصلت مؤامرة في فرنسا على الدولة العثمانية يرأسها كارلس الثاني الملقّب بـ «كارلس دو غنزاغ De Gauzague» وزعموا أنهم يريدون الاستيلاء على القسطنطينية، وكان منهم البرنس «دو كليف De Cleves» التي كانت جدّته «مرغريت باليولوغ» من سلالة الإمبراطور «أندرونيك باليولوغ» فبدأ هؤلاء الأمراء بالسعي لدى إمبراطور ألمانيا، وملك أسبانيا، حتّى يعضداهم في هذه الحرب الصليبية، وأرسلوا يوقدون نيران الفتن في بلاد العرب وكرواسيا، ودالماسيا، وألبانيا ومكدونيا. وفي ٨ سبتمبر ١٦١٤ حصل اجتماع حضره زعماء من الصرب، والهرسك والبشناق، والدالماسيين، في أرض القبيلة الألبانية الكاثوليكية المسمّاة بـ «كوتچي» وكان في هذا الاجتماع بطريرك الصرب وكثير من الأساقفة، وتقرّر إدخال أسلحة وأعتدة من البحر إلى أرض الجبل الأسود وتوزيعها على القبائل الألبانية، وأن تثور هذه القبائل وينضمّ إليها الصربيون، وقدّروا أنَّ عدد الثوّار لن يقلّ عن اثنين وأربعين ألف مقاتل، منهم اثنا عشر ألفًا من الفرسان، وأنهم يدهمون المدن مثل «ڤالونة» و«شقودرة» و«كاستلنوڤو» قبل أن يتنبّه الترك للمكيدة.

وبلغ الخبر أمراء مولداڤيا والفلاخ فوعدوا بأنهم بمجرّد اشتعال الثورة يعبرون نهر الطونة بجيوشهم وينضمّون إلى الثوّار المسيحيين، وكان كارلس الثاني دو غنزاغ قد شرع بتكتيب كتائب من فرانسا، وفي بناء سفن حربية على نفقة نفسه! وتبرّع البابا بمبلغ مائتَي ألف ذهب لهذه الحرب، وبتقديم ألفَي مقاتل في عشر سفن! ووعد ملك أسبانيا بستّمائة ألف ذهب، وعشرين سفينة، ووعد فرسان مالطة بستّ سفن وتعهّد اليونان بالدخول في هذه الثورة، واتّفق الكاثوليك والأرثوذكس من يونانيين وألبانيين، وصرب، وبلغار، وتعاهد الأساقفة على ذلك. وكان الرأي العامّ في فرنسا مائلاً إلى إصلاء هذه الحرب الصليبية على المسلمين، ونشر «ساڤاري دو بريڤ» «De Bréves»، سفير فرنسا في تركيا سابقًا ١٦١٩، نشرة في وجوب محو السلطنة العثمانية، ودعا القسّيسون والأساقفة في الكنائس، وأعلنوا الحرب الصليبية سواء في فرانسا، أو في النمسا، أو في بولونيا، أو في إيطاليا، إلاّ أنَّ كلّ هذا

توقف من نفسه وحُبط العمل، ويقال: إنَّ الأسطول الذي كان أعدّه كارلس دو غنزاغ المسمّى بـ "دوك نيفير" احترق بسبب لا يزال مجهولاً، واضمحلّت هذه المسألة من ذلك الوقت.

وقد أشرنا في حواشي "حاضر العالم الإسلامي" إلى هذه المؤامرة الصليبية في جملة المائة مشروع التي ائتمرت بها أوربا على الإسلام في مدّة ستّمائة سنة، فمَن شاء فليراجع ذلك هناك.

وكان السلطان عثمان قد صمّم أن يتخلّص من أوجاق الانكشارية، ويستبدل به جيشًا يكون أطوع للسلطنة منه. فعلم الانكشارية بذلك وثاروا به، وعيّنوا داود باشا صدرًا أعظم، وخلعوا السلطان وساقوه إلى الأبراج السبعة، وهناك قتلوه في ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢. وهو أول سلطان قُتل في الدولة العثمانية.

السلطان مصطفى (ثاني مرّة)

وتولّى مكان السلطان عثمان عمّه السلطان مصطفى فما مضى يومان على مبايعته حتّى ثار السباهية بداود باشا وطالبوه بدمّ السلطان عثمان، فقال لهم: إنَّه ما قتله إلاّ بأمر السلطان مصطفى، فلم ينفعه هذا العذر وأسقطوه من الوزارة، وصارت الحكومة ألعوبة في أيدي العساكر، حتّى يقال إنَّهم أسقطوا ستّة صدور عظام في مدّة الخمسة عشر شهرًا التي تولاّها مصطفى، وصارت الأمور في نفس الأستانة أشبه بالفوضى، وعصى باشا طرابلس الشام فطرد الانكشارية من بلده، وعصى باشا أرضروم وزحف إلى أنقرة وسيواس وعذّب مَن سقطوا في يده من الانكشارية، وانضمّت بلدان كثيرة في الأناضول إلى الثوّار كرهًا بالانكشارية، وأراد العلماء أن يوقفوا الانكشارية عند حدّهم فلم يفلحوا، وأخيرًا تولّى الصدارة علي باشا فرأى أنه لا يستتبّ النظام بوجود سلطان بلغ هذا الحدّ من ضعف العزم، فقرّر خلعه ومبايعة مراد أخي السلطان عثمان.

السلطان مراد الرابع

وكان مراد مراهقًا لم يتجاوز اثنتَي عشرة سنة من العمر، فلذلك بقي السباهية والانكشارية يسرحون ويمرحون كما يشاؤون، ويعسفون الأهالي باَسم السلطان.

واستفادت العجم من هذه الحالة فتجاوزت على ملك آل عثمان، وزحف الشاه عباس على بغداد وفتحها بعد حصار ثلاثة أشهر، وعذّب أهل السنّة، وشنق نوري أفندي، قاضي

بغداد، وعمر أفندي، خطيب الجامع الأعظم. وكان والي بغداد في الأصل ضابطًا من ضبّاط الشرطة اسمه "بكير آغا" فعصى الوالي وأراد أن يستأثر هو بالولاية واعصوصب حوله جماعة على شاكلته، فتغلّب عليه حافظ باشا وكاد يوقع به، فأرسل بكير آغا إلى الشاه عباس ليأتي إلى بغداد فيسلّمه البلد، فلمّا جاء الشاه عباس وطلب مفاتيح بغداد وجد بكير آغا قد صالح العثمانيين على شرط أن يكون واليًا فالتزم الشاه عباس أن يحصر بغداد، وأخذ يغاديها القتال ويراوحها، ولم يتمكّن منها إلاّ بخيانة ابن بكير آغا الذي وعده الشاه عباس بأن يجعله واليًا محلّ أبيه. فلمّا فتح الشاه عباس بغداد بقي يعذّب بكير آغا سبعة أيام، ثمَّ وضعه في زورق مطلي بالقطران الملتهب، وتركه في دجلة، ثمَّ قتل ابنه الذي خان أباه!

ولمّا وصل خبر سقوط بغداد إلى السلطان مراد الرابع، حاول علي باشا، الصدر الأعظم، إخفاء الخبر عن السلطان، ولكن المفتي أسعد أفندي أخبره بالحادثة. فصدر أمر السلطان بقتل الصدر، وعيّن مكانه « شركس محمَّد » وسرّحه بجيش لقتال أباظة، والي أرضروم، الذي عصى الحكومة، وأخذ يقتل الانكشارية في كلّ سهل وجبل. فزحف إليه القائد حافظ باشا وهزمه، ثمَّ صالحه على أن يبقى واليًا على أرضروم، وفي أثناء ذلك مات الصدر الأعظم محمَّد باشا، فتولّى مكانه "حافظ باشا" وزحف إلى بغداد لطرد العجم منها، فما زال الانكشارية يثورون عليه حتّى اضطرّ إلى ترك حصار بغداد، وانكفأ إلى الموصل، ثمَّ إلى ديار بكر. وعاد الانكشارية إلى الثورة، فعزل السلطان حافظ باشا وولّى مكانه خليل باشا، فزحف هذا ليأخذ أباظة، والي أرضروم، فلم يقدر عليه، فعزله السلطان وولّى خسرو باشا، فتمكّن هذا من إخضاع أباظة ولكنّه عوّضه من أرضروم بولاية بوسنة.

وبقيت الثورات تتوالى في وسط السلطنة، والحالة تسوء، ولكن الله فرّج عن الدولة العثمانية بموت الشاه عباس أكبر سلاطين الدولة الصفوية. فخلفه ابنه وكان شابًّا غرًّا، فزحف خسرو باشا إلى العراق وهزم جيوش العجم، لكنّه لم يقدر على فتح بغداد برغم مهاجماته الكثيرة لها، ورجع خسرو باشا إلى الموصل، فردَّ السلطان إلى الصدارة حافظ باشا الذي لم يكن عنده مثله في كفايته.

فلمّا علم العسكر أنَّ السلطان عزل خسرو باشا ثاروا على السلطان وتقاضوه رأس حافظ باشا، وكان المحرّك للعسكر على هذا العمل هو خسرو باشا نفسه. فأذن السلطان

للعساكر في الانصراف من العراق أملاً بتسكينهم، فلمّا وصلوا إلى الأستانة ازدادوا تمرّدًا وهجموا على القصر ففتح السلطان لهم الأبواب، واستدعى اثنين من الانكشارية واثنين من السباهية، وقال لهم قولاً ليّنًا لعلّهم يتناهون عن غيّهم، فلبثوا مصرّين على أخذ رأس حافظ باشا، فبذل حافظ باشا نفسه لأجل راحة مولاه، وخرج إليهم حتّى قتلوه طعنًا بالخناجر، ولكن لم يسقط رخيصًا برغم شيخوخته، ولم يُقتَل إلاّ بعد أن قتل منهم عدّة. وسكنت ثورة العسكر مؤقّتًا، ولكن السلطان لم ينسَ عصيانهم لأمره، وكونهم إنَّما عملوا بدسائس خسرو باشا، فأمر بخنقه. فثار العسكر مرّة ثانية ونادوا بخلع السلطان مراد. وكان متولّي كبر هذه الثورة رجب باشا، فظهر في هذه الحادثة أنَّ السلطان الشابّ كان بطلاً غشمشمًا، فإنَّه أمر حالاً بقتل رجب باشا والرمي بجثّته إلى العسكر ولم يبال بهم!! وطلب السلطان من أحمد آغا، قائد السباهية، أن يقبض على رؤوس الثورة، فماطل في إنفاذ الأمر السلطاني، فأمر السلطان بقتله مع أربعة من رفاقه. وجاء المفتي الأعظم يخوِّف السلطان من عاقبة استخفافه بغضب العلماء فقتله، فعلمت السلطنة أنَّ على رأسها رجلاً غير الرجال الذين عرفتهم إلى ذلك الوقت منذ مدّة طويلة ودخلت الناس في الطاعة.

وكان الأمير «فخر الدين المعني»، أمير لبنان، ثار بالدروز على الدولة، وعقد معاهدات مع بعض الدول الأوربية، ولمّا لم يقدر على مقاومة الدولة جاء إلى فلورانسة من إيطاليا، ثمَّ بعد أن أقام عدّة سنوات في فلورانسة في خبر يطول شرحه، ولا يسعه هذا المختصَر؛ زحف إليه «الكوجك أحمد باشا» بجيش جرّار، وبعد وقائع شديدة دارت الدائرة على الأمير فخر الدين، وقُتل ابنه الأمير علي ـ وكانت أمّ الأمير علي أرسلانية ـ في واقعة حاصبيا، فالتجأ الأمير فخر الدين إلى مغارة في جبل الشوف اسمها «شقيف تيرون» ويقال لها اليوم «قلعة نيحا». وهي كهف عظيم في بطن جبل أشبه بالحائط لا يمكن الرقيّ إليه من الأسفل، ولا النزول إليه من سطح الجبل، ولا العبور إليه من الجانبين!! وإنَّما يدخلون إليه من أحد الجانبين زحفًا على البطن واحدًا وراء واحد، على صخرة ضيّقة مشرفة على الوادي لا يمكن الإنسان أن يمرّ بها واقفًا.

وقد دخلت أنا بنفسي زحفًا على هذه الصورة إلى هذا الكهف الذي كان يلجأ إليه العصاة في كلّ حين؛ وكان ممَّن لجأ إليه الضحّاك بن جندل الخارجي في أيام الحروب الصليبية، وهذا الكهف يسع نحوًا من خمسمائة مقاتل، وليس فيه ماء نبع ولكن آبار تجري

إليها مياه تحت الأرض بأنابيب من عين يقال لها «عين الحلقوم» كانت في ذلك الوقت مطمورة، فلمّا جاء الكوجك أحمد باشا ورأى استحالة الوصول إلى الكهف، لأنه لا يؤتى لا من فوق ولا من أسفل، ولا من عن أيمانه ولا من عن شمائله، سأل عن مشرب أهل الكهف، فقيل له إنَّ الماء يجري تحت الأرض، ولكنّه غير معلوم أصله، ولا مكان جريه. فأتى القائد المذكور بخيل تركها عدّة أيام عطاشًا، فلمّا أفلتها على سطح الجبل وهي عطاش شمّت رائحة الماء فصارت تضرب بأرجلها على الأماكن التي كان الماء يجري تحتها! فعلم الكوجك أنَّ الماء هو هناك، فأمر بحفر الأرض حيث كانت الخيل تضرب بأرجلها، فوجد أنابيب الماء، فلم يقطع الماء لأنه لو قطع الماء والآبار التي في الكهف ملآى لَبقيَ الأمير فخر الدير قادرًا على الامتناع مدّة طويلة، فذبح الكوجك بقرًا في مجرى الماء فجرى دمًا إلى الآبار. وفي أحد تلك الأيام قام الأمير فخر الدين صباحًا فقال له جماعته: تعال فانظر الآبار، فنظر فإذا هي دم، فأمر الجند الذين معه بأن يخرجوا ويستسلموا للقائد، وفي جوف الليل دلّى نفسه هو ومدبّر أموره «أبو نادر الخازن» ومعهما خادم وذلك من الكهف إلى أسفل، وهو علوّ خمسين مترًا، ومن هناك ذهب إلى كهف آخر يشابه «شقيف تيرون» واسمه «مغارة جزين» فأرسل الكوجك أحمد باشا جماعة نقبوا الصخور من تحت الكهف الثاني وما زالوا يحشونها بالبارود ويقطعون منها جانبًا بعد جانب حتّى أوشكوا أن يصلوا إلى المغارة، فاضطرّ الأمير فخر الدين أن يستسلم إلى الكوجك أحمد الذي أرسله إلى الأستانة مع أولاده الثلاثة منصور وحيدر، وبلك.

فلمّا وصل الأمير فخر الدين إلى الأستانة قال للسلطان: إنَّني مظلوم، ولم أبنِ القلاع إلاّ حماية من الأعداء، ولم أحارب إلاّ مَن كان عاصيًا للدولة، وقد أمّنت طريق الحجّ، ومنعت الأعراب عن التعدّي، وأدّيت الأموال الأميرية، وأيّدت الأحكام الشرعية، فعفا عنه السلطان. إلاّ أنَّ الأمير «ملحم المعني» جمع رجالاً من حزبه القيسية ونهض لقتال الأمير «علي علم الدين» الذي كانت الدولة ولّته جبل الشوف، فنهض الأمير علي لقتاله ومعه اليمنيّة، فجرى بينهم قتال دارت فيه الدائرة على اليمنيّة، فكتب الكوجك أحمد باشا للسلطان بأنَّ هذه المشاغبات كلّها هي من دسائس الأمير فخر الدين، فصدر أمر السلطان بقتله مع أولاده، وذلك ٣ مايو ١٦٣٥، واستحيى السلطان من أولاده الأمير حسيْنًا، واستُخدم بالحضرة وترقّى وعاش زمنًا طويلاً. وكان عمر الأمير فخر الدين يوم قُتل اثنتين

وخمسين سنة، وكان قصير القامة طويل الباع، عالي الهمّة، استولى على معظم سورية ما عدا دمشق، وحمص، وحماه، وحلب، وقيل له سلطان البرِّ، وكان عنده جيش دائم ١٢ ألفًا.

هذا ولقد تمكّن السلطان مراد الرابع بحزمه وشدّة بأسه من قمع الفتن الكثيرة وهدأت الأحوال في زمانه، وزحف لقتال العجم على رأس جيش جرّار. وبينما كان زاحفًا كان يأتي من الصرامة أعمالاً توقع الرعب في قلوب الذين تحدّثهم أنفسهم بالانتفاض، وفي طريقه استولى على قلعة «أريوان» ثمَّ على قلعة «تبريز» وأحرقها ثمَّ عاد إلى القسطنطينية يستريح من وعثاء السفر، فما كاد يستقرّ به المقام حتّى رجع الإيرانيون فحشدوا واسترجعوا أريوان وكسروا العثمانيين في صحراء ميربان. فنهض السلطان مراد ثانية وزحف إلى بغداد، ولبس ثياب جندي من عامّة الجند، ونزل بنفسه يقاتل في الخنادق! وكان معه الصدر الأعظم، فلمّا حمل العسكر العثماني كان السلطان والصدر الأعظم والوزراء يقاتلون بأنفسهم كسائر العسكر وأصابت الصدر الأعظم «طيّار محمَّد باشا» رصاصة برأسه فسقط قتيلاً، وأخذ السلطان مراد بغداد عنوة على أثر حملة استمرّت ثمانيًا وأربعين ساعة، ثمَّ انعقد الصلح بين الدولة والعجم على أن بغداد تعود لآل عثمان، وأنَّ أريوان تعود للعجم.

وكان مراد الرابع في شدّة بأسه، ومضاء عزمه، وعظمة مهابته، أشبه بآل عثمان الأوّلين، ولو طالت حياته لَجدّد عهد سليمان القانوني، ولكنّه بعد أن استولى على بغداد استرسل إلى الشهوات البدنية، وأدمن شرب الخمر فاعتلّت صحّته، وبلغت منه العلّة أن صارت الروح فيه ذماء. وبقي يأمر بسفك الدماء، ويقال إنَّه بينما كان وصل إلى دور النزع أمر بقتل أخيه ابراهيم!! ولكن السلطانة الوالدة أمرت بعدم إنفاذ هذا الحكم، وقالت له إنَّه نفذ، وفي ٩ فبراير سنة ١٦٤٠ أسلم الروح وكان عمره تسعًا وعشرين سنة. وهو الذي أنقذ السلطنة بعد أن كادت تتمزّق أيدي سبأ بالفتن والثورات وانتفاض الأمراء كلّ واحد من جهة. فأعاد مراد وحدة السلطنة بشدّة حزامته وصرامته، وأزال كثيرًا من المظالم، وأعاد النظام إلى الجيش. وفي أيامه ازدادت واردات السلطنة وحسنت جباياتها. ولم يكن يُعاب إلاّ في ظمئه إلى سفك الدماء؛ فإنَّه كان يتلذّذ بالقتل. وكان له عيب آخر؛ وهو شدّة غرامه بالمال، فكان يحبّ الأحمرين «الدم والذهب» ولم يكن لمراد الرابع أولاد، فتولّى السلطنة بعده أخوه السلطان ابراهيم، ولولا وجود السلطان ابراهيم هذا لانقرضت عائلة آل عثمان لأنه لم يكن بقي منها غيره.

وبدأ السلطان ابراهيم ملكه بمصالحة النمسا، ولكن حصلت حادثة أدّت إلى الحرب بينه وبين جمهورية البنادقة، وهذه الحادثة من أغرب حوادث التاريخ، وهي أنَّ رئيس الخصيان في القصر الذي يسمّونه "قيزلر آغاسي" كان عنده في الحرم جارية حسناء بارعة الجمال، اختيرت لتكون ظئرًا للأمير محمَّد بن السلطان ابراهيم، وكانت هذه الجارية قد حملت ثمَّ وضعت ولا يعلم من أين وقع حملها، فشغف حبّها السلطان حتّى صار يفضّل طفلها على طفله، فوقعت الغيرة في السراي وكاد السلطان يقتل طفله من شدّة شغفه بالجارية وحبّه لطفلها، فلم يجد "القيزلر آغاسي" حيلة أحسن من أن يقصد الحجّ ويأخذ معه الجارية والطفل.

ومن المعلوم أنَّ فرسان مالطة لم يكن لهم مهمّة سوى قطع طرق البحر على المسلمين فهاجموا الأسطول الذي كان فيه "القيزلر آغاسي" فاشتبكت بين الفريقين معركة ووقع "القيزلر آغاسي" قتيلاً بعد أن دافع أشدّ الدفاع عن نفسه، ووقعت الجارية وطفلها في أيدي فرسان مالطة، فظنّ الفرسان أنَّ الطفل هو ابن السلطان وبالغوا في الاعتناء به وبأمّه، إلاّ أنهم عرفوا فيما بعد أنَّ الطفل لم يكن ابن السلطان، فربّوه في الديانة المسيحية، ونشأ قسّيسًا وكان يُطلق عليه اسم "الأب العثماني inamotto ereaP" وكان الناس في أوربا يعتقدون أنه من ذرّية السلطان. ثمَّ إنَّ فرسان مالطة بعد هذه الغنيمة عرّجوا على قندية من جزيرة "إقريطش" ونزلوا على البنادقة هناك فأكرموهم فوصل هذا الخبر إلى السلطان فجنّ جنونه، وأصدر أمره بادئ ذي بدء باستئصال جميع المسيحيين، إلاّ أنَّ شيخ الإسلام عارضه بشدّة فتوقّف عن إنفاذ هذا الأمر وأمر بقتل جميع الافرنج، فجاء الوزراء وأبدوا وأعادوا حتّى أرجعوه عن أمره هذا وحسّنوا الاكتفاء بقتل كهنة الكاثوليك، ولكنّه رجع عن هذا أيضًا. وإنَّما اعتقل سفراء الدول المسيحية كلّهم، وأرسل يقول لهم: إنَّه يجعلهم مسؤولين عن الإهانة التي لحقت به، فأجابه سفراء البندقية وإنكلترة وهولاندة بأنه لا يوجد في فرسان مالطة واحد من تبعة حكوماتهم، وأنَّ جميع فرسان مالطة هم فرنسيس. فهاج غضب السلطان ابراهيم على الفرنسيس، وبينما هو يريد الانتقام منهم أغراه الصدر الأعظم بفتح جزيرة "كريت" أو "قريطش" وفي ٢٤ يونيو ١٦٤٥ كان الأسطول العثماني المؤلَّف من ثلاثمائة وثمان وأربعين سفينة أمام هذه الجزيرة، وأنزل إلى "خانيا" خمسين ألف مقاتل، فجاء أسطول

البنادقة متأخّرًا فأخذوا ثأرهم بإحراق «باتراس» و«كورون» و«مورون» وأخذوا خمسة آلاف أسير من العثمانيين. فلمّا اتّصل الخبر بالسلطان اشتدّ غضبه وأصدر أمرًا جديدًا بقتل المسيحيين في السلطنة، ورجع المفتي فعارضه أيضًا بشدّة. وفتح العثمانيون «ريتمو» و«أبوكورونو» و«كسانو» من مدن «إقريطش» ولكن امتنعت عليهم «قندية».

وكان السلطان مسترسلاً إلى شهواته البدنية، منقادًا لجواريه الحسان يفعل لهنَّ ما يشأن، فاستنزفن خزانة السلطنة، وأسفت الرعية من هذه الحالة التي عليها السلطان وكثر القال والقيل، فعزم السلطان على البطش بقوّاد الانكشارية والسباهية، فتجمّعوا وانضمّ إليهم العلماء وقرّروا خلع السلطان ومبايعة ابنه محمَّد الرابع ـ وهو طفل ـ ووقع ذلك في ٨ آب ١٦٤٨ وما مضى أسبوع على هذا العمل حتّى قام السباهية يطلبون إرجاع السلطان ابراهيم إلى العرش، فخاف المفتي والعلماء على أنفسهم إذا رجع وجاءوا بالجلاّد «قره علي» ودخلوا على السلطان، فأخذ السلطان يستغيث وقال للمفتي: كان يوسف باشا سوَّل لي قتلك وأنا لم أقبل منه، واستحييتك وأنت الآن تريد قتلي أفلا تلوت القرآن وعلمت كيف يكون حكم الظالمين؟! وبينما يقول هذه الكلمات إذ وضع الجلاّدون الحبل في عنقه وشدّوه فأزهقوا روحه.

السلطان محمَّد الرابع

وبقي السلطان محمَّد الرابع على عرشه وهو ابن سبع سنوات، ورجعت الفوضى كما كانت قبل أيام مراد الرابع، واضطرّ العثمانيون لرفع الحصار عن قندية، وانكسر الأسطول العثماني فقُتل الوزير صوفي محمَّد باشا بسبب هذه الهزيمة، وزحف الثوّار من الأناضول صوب القسطنطينية، وقابلهم الصدر الأعظم «قره مراد» فهزموه وكادوا يستولون على الأستانة؛ إلاّ أنَّ الخلف وقع بينهم فتفرّقوا، وتمكّنت الدولة من الإيقاع بهم، ومن استرضاء بعضهم.

وفي سنة ١٦٥١ ثار الانكشارية طالبين عزل شيخ الإسلام «بهائي» لأنه أفتى بجواز الدخان والقهوة، وكانت الصدور العظام لا تستقرّ في الدسوت إلاّ أيامًا قلائل. وفي سنة ١٦٥٦ ثار الانكشارية والسباهية بسبب تأخّر رواتبهم، وطلبوا عقاب الوزراء. فاضطرّ السلطان لإرضائهم. ولحسن الحظّ كانت النمسا مشغولة بحرب الثلاثين سنة. فلم تقدر أن تسترجع بلاد المجر. ولكن الحرب بين البندقية والدولة العثمانية لم تكن سعيدة الطالع للدولة

وتغلّب الأسطول البندقي على الأسطول العثماني بإزاء الدردنيل واستولى على "تيندوس" وعلى "لمنى" وبينما الحالة هي في الدرجة القصوى من الخلل، تولّى زمام الصدارة الوزير "محمَّد باشا الكوبرلي الشهير" ولم يقبل الصدارة إلاّ على شرط إطلاق يده في العمل فوعدته السلطانة الوالدة بعدم معارضته بشيء. وأول ما بدأ به من الأعمال أنه ألغى الأمر الصادر بقتل سلفه، ثمَّ ثار العسكر فأنزل بهم العقاب الصارم، ورمى في البحر أربعة آلاف جثّة. وبدت خيانة من "بطريرك الروم" فشنقه. ثمَّ جدّد الحرب على البنادقة بشدّة عظيمة واسترجع تيندوس ولمنى. وجاء رسل "شارل غوستاف"، ملك السويد، يعرضون على الباب العالي محالفة دفاع وهجوم على بولونيا. فرفض الكوبرلي وألقى في السجن معتمدي أمير ترانسلڤانيا "راكوشي" الذي كان تحالف مع السويديين ومع القوزاق على البولونيين. ثمَّ عزله الكوبرلي وأقام مكانه رجلاً يونانيًا. وانقرضت بذلك عائلة (باسارابية) التي نبغ منها عدّة أمراء. فثار راكوشي على الدولة، وانتصر في أول الأمر، إلاّ أنَّ الكوبرلي تغلّب عليه. ووقعت معارك في بلاد رومانيا أوقع بها المسيحيون بالمسلمين الذين هناك. فزحف الكوبرلي على بلاد الفلاخ، وظاهَره التتار فزحفوا إلى مولداڤيا وقهروا الرومانيين، وأقاموا أميرًا من قِبلهم على تلك البلاد.

ثمَّ إنَّ التتار تجاوزوا حدود مملكة النمسا فوقعت الحرب بين النمسا والدولة من أجل ذلك فصارت الحرب بين الدولة من جهة، والنمسا والبندقية من جهة أخرى وكادت تقع مع فرنسا أيضًا. وكانت امتيازات فرنسا في المملكة العثمانية مقرّرة ومسكوكاتها مقبولة، وما عدا الإنكليز والبنادقة فكلّ الأمم لأجل أن تتَّجر في البلاد العثمانية يجب عليها رفع العلم الإفرنسي. وكان الفرنسيس لا يؤدّون شيئًا من الضرائب في بلاد الدولة، وكان قرصان الجزائر لا يقدرون أن يمسّوا بسوء السفن الإفرنسية، وكان للفرنسيس حقّ اصطياد الصدف في سواحل الجزائر، وأكثر مَن وطّد هذه الامتيازات لفرانسا هو السفير "ساڤاري دو بريڤ" ولكن بعد انقضاء أيام هذا السفير أخذت المحبّة بين فرنسا والباب العالي بالنقصان، ولا سيّما في زمان مراد الرابع.

وكان الإنكليز والهولنديون أقنعوا السلطان بطرد الجزويت، وجاء سفير لفرانسا اسمه "هنري دو غورنيه De Gournay" فأساء السياسة، فصدر الأمر بإغلاق كنائس غلطة التي كانت تحت حماية فرانسا، وبمنع الفرنسيس من حمل السلاح، وبإجبارهم على دفع الرسوم والضرائب. ثمَّ إنَّ الأروام في القدس الشريف حصلوا على الإذن بحراسة الأماكن المقدّسة،

وقد كانت من قبل في أيدي الفرنسيسكان. وأخذ قرصان الجزائر يعتدون على مراكب الفرنسيس، وانضمّ إلى ذلك أنّ سفير فرانسا عندما تولّى الصدارة «محمَّد باشا الكوبرلي» لم يقدّم له الهدايا المعتادة، وقد كانت هذه سُنّة متبعة، ثمَّ رأى السفير الموسيو «دولاهاي» أنّ هذا الصدر الأعظم طالت أيامه، فقدّم له الهدايا اللازمة وعوّض ما فرط، ولكن كانت سخيمة[1] الصدر الأعظم تمكّنت من قلبه، فصار يترصّد الفرصة ليوقع بين فرانسا والدولة.

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة بين البنادقة والدولة على «إقريطش». وفي سنة ١٦٥٩ جاء إفرنسي اسمه «ڤيرتامون» إلى الصدر الأعظم وسلّمه رسائل واردة من جيش البنادقة في قندية باسم المسيو «دولاهاي»، سفير فرانسا في الأستانة، وكان هذا الإفرنسي خائنًا لقومه، فسُئل السفير عن ذلك وكان طريح الفراش بمرض الحصى، وكان الصدر الأعظم وقتئذٍ في أدرنة، فأرسل السفير ابنه ينوب عنه فبينما كان الصدر الأعظم يسأل ابن السفير عن معنى هذه المكاتيب لأنها كانت محرّرة بالأرقام؛ أجابه الولد بغلطة، فأمر الصدر بحبسه وقال: لا نتحمّل من ابن سفير ما يجوز أن نتحمّله من سفير! فقام السفير من فراشه وذهب إلى أدرنة يحاول تخليص ابنه، فسأل الصدر السفير عن معنى هذه المكاتيب؟ فأبى السفير أن يجيب بشيء فبقي الولد في الحبس، وأرسل الكردينال «مازارين» المارشال «بلونديل» ومعه مكتوب من ملك فرانسا إلى السلطان يطلب فيه عزل الصدر الأعظم، فلم يلتفت الكوبرلي لمعتمد فرانسا، ولا أذن له بمقابلة السلطان. فتحمّل الكردينال مازارين هذه الإهانة، وانتقم لفرانسا بإرسال متطوّعين يساعدون البنادقة في «إقريطش» وكان أمر الكوبرلي يغلظ يومًا فيومًا، وكلّما ازدادت سنّه علوًّا ازداد بطشًا وعتوًّا. وحصلت بعض فتوق في أيامه فسدها بدهائه وحزمه، وأطفأ ثورة حصلت في مصر وقبل أن مات سأله السلطان عن الشخص الذي يليق بأن يخلفه، فأشار عليه بابنه «أحمد باشا الكوبرلي» وكان كأبيه في الدهاء والحزم.

ولمّا تولّى هذا الصدارة عرضت النمسا والبنادقة الصلح فلم يجب أحمد باشا الكوبرلي هاتين الدولتين إلى الصلح، وزحف وعبر الطونة عند «غران» وهزم الكونت «دو فورغاكس» وضيّق الحصار على بلدة نوهيزل Neuhoesel وهي أمنع معقل في بلاد المجر كان يقال إنّها لا تؤخذ ففتحها الكوبرلي عنوة بعد حصار ستّة أسابيع ثمَّ عاث الجيش

---

(١) ضغينة. [المحقق]

العثماني في المجر، ومراغية، وسيليسية، وسحب في رجوعه ثمانين ألف أسير فاستغاث الإمبراطور ليوبولد، صاحب النمسا بدول النصرانية، فدعا البابا جميع النصارى إلى حرب صليبيّة.

وكان «لويس الرابع عشر» غير ناس الإهانة التي لحقت بسفيره، فوعد بتجهيز ستّين ألف مقاتل لحرب الترك، وأرسل بالفعل ثلاثين ألفًا بقيادة الكونت «دو كليني De Coligny» وتطوّع في هذا الجيش أكثر أبناء بيوتات الشرف في فرانسا وكان الكوبرلي قد استولى على «سيرين ڤار» و«كورمورن» الصغرى ولكن عندما وصل جيش الفرنسيس صارت الحرب سجالاً، وقطع الكوبرلي الأمل من محو قوّة النمسا. فعقد الكوبرلي الصلح المسمّى بصلح «ڤازڤار» سنة ١٦٦٤ ووقع الاتفاق على أنَّ ترانسلڤانيا لا يكون فيها عثمانيون ولا نمسويون، وأن يتولاّها أمير تحت سيادة السلطان، وفي الولايات المجرية السبع يكون منها ثلاث للنمسا، وأربع للدولة العثمانية. وبقي الفرنسيس في البحر المتوسّط يتجاوزون على سواحل الدولة ويتعرضّون لمراكبها، فاشتدّ غضب الأتراك ونادوا يا للثارات.

وكان في فرانسا الوزير «كولبير Colbert» لا يرى في هذه العداوة خيرًا فأرسل ابن المسيو لاهاي لأجل السعي في الصلح، ولم يكن هذا الاختيار في محلّه لأنه هو الذي أغلظ القول لمحمَّد باشا الكوبرلي وأمر هذا بحبسه، فلمّا وصل لاهاي الصغير وقابل الكوبرلي الصغير اختصما في الكلام فسمع لاهاي من الصدر الأعظم كلامًا مهينًا، فخرج مغاضبًا وقال للصدر إنَّه سيغادر القسطنطينية، فلمّا وصل عند الباب قبضوا عليه وحبسوه. ولمّا بلغ الخبر السلطان أمر بإطلاق لاهاي واسترضائه ولكن الكوبرلي رفض تجديد امتيازات الفرنسيس، ومنعهم من المرور بالبحر الأحمر ومصر في تجارتهم مع الهند، وأذن في ذلك للإنكليز والجنوبيين. فأخذ الفرنسيس يوالون النجدات لجزيرة «إقريطش» وكان الحصار على قندية، فركب أحمد باشا الكوبرلي بنفسه وضيَّق الخناق على تلك البلدة، وأقبل فرسان مالطة وأكثر أبناء النبلاء في فرانسا ينجدون قندية إلاّ أنهم انكسروا في واقعة حاسمة وتركوا ميدان القتال منصرفين إلى بلادهم. فازداد ضغط الأتراك على تجّار الفرنسيس فأرسل لويس الرابع عشر أربع سفن لأجل حمل السفير ورجال السفارة وجميع التجّار الفرنسيس الذين في القسطنطينية، ثمَّ جهّز اثنَي عشر تابورًا وثلاثمائة فارس في خمسة عشر سفينة تحت قيادة «الدوك بوفور Beaufort» وأرسلها إلى كريت. ولكن هذه الحملة لم تكن عظيمة الفائدة لكريت والبنادقة، ولم تمنع تغلّب العثمانيين على الجزيرة. وانعقد الصلح في

٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩، ودخلت كريت كلّها تحت حكم الدولة، ما عدا ثلاثة مراس "كورابوزه" و"صوده" و"اسپينالونفة" وكان فتح العثمانيين لكريت هو آخر فتح لهم فتحوه من ممالك النصرانية. ولم يوجد في التاريخ بلدة اشتدّ حصارها وطال نظير قندية، واستمرّت حرب كريت خمسًا وعشرين سنة، في أثنائها قام العثمانيون بستّ وخمسين حملة، وصدّوا خمسًا وأربعين هجمة!! وأحرق المحصورون ألفًا ومائة واثنين وسبعين "لغمًا" وأحرق الأتراك ثلاثة أضعاف ذلك. وبلغ عدد خسائر البنادقة أربعين ألفًا.

وذكر المؤرّخ هامر أنّ خسائر العثمانيين بلغت مائة ألف.

وكان لويس الرابع عشر وأكثر شبّان فرانسة يريدون محاربة تركيا، إلاّ أنّ "كولبير"، الوزير المعروف، كان لا يزال يعارض في هذه الحرب، وعزل السفير لاهاي وأرسل مكانه المركيز "دو نوانتل De Nointel" فطلب من تركيا مطالب رفضها الكوبرلي، وقال إنّ تلك الامتيازات التي كان يتمتّع بها الفرنسيس كانت من قبيل الإنعام لا غير، وليست شرطًا لازمًا، فإن لم يكن السفير يفهم هذا فما عليه إلاّ أن يرجع إلى بلاده. فلمّا علم لويس الرابع عشر بما جرى أمر بتجهيز أسطول خمسين بارجة حربية، ولكن في آخر الأمر تغلّب الميل إلى السلام، وأعيدت معاملة الفرنسيس في تركيا إلى ما كانت عليه، واعترفت الدولة لفرنسا بحماية الكاتوليك في الشرق. ومع هذا فإنّ لويس الرابع عشر بقي طول حياته يكره تركيا ويفكّر في شنّ الغارة عليها، ولم يتأخّر عن ذلك إلاّ عجزًا، لأنّ الدولة في أيام أحمد باشا الكوبرلي عادت فصعدت إلى ذروة المجد.

وفي أيام الكوبرلي دخل القوزاق الروس في طاعة الدولة، وكانت الدولة أعلنت الحرب على بولونيا في ١٨ آب ١٦٧٢ وزحف السلطان بذاته وكسر البولونيين، وعقد ملك بولونيا "ميشيل ڤيسموڤيكي" صلحًا مهينًا، وتخلّى عن "پادوليه" للعثمانيين وعن "أوكرانيا" للقوزاق، وتعهّد بدفع جزية سنوية عشرين ألف دوكة. فالشعب البولوني لم يوافق على هذا الصلح، وعاد القوّاد فاستأنفوا الحرب، وكانت سجالاً بين الفريقين. فتوسّط خان القريم في الصلح، وانعقدت المعاهدة على أن يبقى قسم من أوكرانيا تابعًا للدولة العثمانية. ومن سوء حظّ الدولة مات أحمد باشا الكوبرلي؛ وكان لم يتجاوز إحدى وأربعين سنة، وكانت وفاته في ٣٠ أكتوبر ١٦٧٦، ولم يكن سفّاكًا للدماء كأبيه، ولا كان شرهًا إلى المال. وكان محبًّا للعدل، قائمًا بالقسط. فتولّى الصدارة بعده ابن عمّه قره

مصطفى باشا، ولم يطل الأمر حتّى استؤنفت الحرب في رومانيا، وبلاد القوزاق، فزحف قره مصطفى بجيش جرّار، واستولى على كورين من أوكرانيا.

وبينما العثمانيون يحاربون في أوكرانيا إذ حصلت وقائع في بلاد المجر حملتهم على عقد الصلح، وذلك أنَّ المجر كانوا قد اقتتلوا مع النمسويين، وكانوا منقسمين إلى قسمين؛ أحدهما حزب الكونت "تكلي Tekeli" وهؤلاء كانوا يعتمدون على تركيا، والحزب الآخر كان يعتمد على النمسا، فاستعان تكلي بالدولة، وزحف قره مصطفى باشا على رأس مائة وأربعين ألف مقاتل، وكان النصر حليف جيشه، فاغترّ بقوته وساق الجيش إلى ڤينا طامعًا في أخذها. وكان الكونت تكلي والقائد العثماني في بود وأكثر القوّاد ضدّ هذا الرأي، إلاّ أنَّ قره مصطفى أصرّ على حصار ڤينا. وكان قائد البلدة الأمير "اشتارنبرغ Stharemburg" فجنّد الأهالي كلّهم، وقابل هجمات الأتراك بمدافعة نادرة المثال. وقام الترك بثمانية عشر هجمة، وحمل النمسويون من الداخل أربعًا وعشرين حملة، ووقع كثير من الحصون في أيدي الأتراك.

ويقول المؤرّخ الإفرنسي "دولا جونكيير": إنَّه لولا بخل قره مصطفى لربّما كان الجيش العثماني استولى على ڤينا، وذلك أنه كان يعتقد كون ڤينا ملأى بالأموال والكنوز، فلو كان أمر بحملة عمومية واستولى الجند على البلدة لكانوا نهبوها لأنفسهم فكان يريد أن يأخذها بدون أن يترك للعسكر حقّ التصرّف بالغنائم، فبقي منتظرًا النصر مع حفظ النظام إلى أن تمكّن إمبراطور النمسا "ليوبولد" من استجلاب البولونيين لنجدة ڤينا. وكان البابا استصرخ لويس الرابع عشر بأسم النصرانية، إلاّ أنَّ شدّة بغضاء ملك فرنسا لإمبراطور ألمانيا حالت دون نجدة ملك فرنسا الذي كان يثبط سائر الدول المسيحية عن أصراخ الألمان.

وبرغم كلّ مساعي لويس الرابع عشر في خذلان النمسا زحف "صوبيسكي"، ملك بولونيا. وزحف أمراء "الساكس" و"الباڤير" لنجدة النمسا وفي ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ اشتبكوا في معركة حاسمة مع العثمانيين، فخاب السعد في هذه المعركة وفقد العثمانيون عشرة آلاف قتيل، وغنم الألمان والبولونيون ثلاثمائة مدفع وخمسة آلاف خيمة وصناديق لا تُحصى ملأى بالعِدد. وسقط في أيدي الألمان أعلام الجيش العثماني عدا السنجق الشريف، وتقهقر قره مصطفى باشا قاصدًا إلى بود فتعقّبه البولونيون وهزموه هزيمة ثانية، وقتلوا من جيشه ثمانية آلاف واستولى الرعب على الأتراك فولّوا مدبرين، ووصلت الأخبار إلى الأستانة

ثار ثائر الأمّة، واضطرّ السلطان محمَّد الرابع إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا، وأرسلوا رئيس القرناء إلى بلغراد لأجل تنفيذ هذا الأمر، وتولّى الصدارة ابراهيم باشا في أحرج وقت عرفته السلطنة، وتألبت على الدولة العثمانية عصبة من دول النصرانية؛ ألمانيا، وبولونيا، والبندقية، والبابا، وفرسان مالطة: وانضمّ إليهم الروس طمعًا في دخول البحر الأسود، وغزو بيزنطية، وكان الشيخ العثماني قد دبّ الرعب في قلبه، وكانت الخزانة خاوية، وكانت فرانسا غير داخلة في هذا الحلف بغضًا بألمانيا، ولكن كانت المراكب الإفرنسية تغزو سفن المسلمين. ووقع قتال بين الأسطول الإفرنسي والمراكب العثمانية أمام جزيرة «شيو» وضرب أمير البحر الإفرنسي «دوكين Duquesne» مدينة الجزائر بالقنابر ودمّرها، ولم يرجع الفرنسيس عنها إلاّ بعد أن أخذوا غرامة الحرب من إمارة الجزائر، وتسلّموا الأسرى المسيحيين الذين عندهم. وضرب أيضًا دوكين مدينة طرابلس فأوقع بها ما أوقع بالجزائر. وجاء الفرنسيس فضربوا مراسي المغرب، ودمّروا الأسطول المغربي. ثمَّ إنَّ الهزائم التي وقعت على جيش قره مصطفى باشا في النمسا تركت الطريق مفتوحًا للعدوّ، فزحف إلى المجر كما أنَّ البنادقة أعملوا الحركة لأجل فتح بلاد المورة، ووقعت «پريڤيزه» في أيدي البنادقة، ثمَّ «ناڤارين» و«مورون» و«أركاديه» و«پاتراس» و«ليپانت» و«كورنتيه» و«أثينا».

وأمّا النمسويون فإنَّهم استولوا على «فيسغراد» و«ڤاكس» ودخلوا «پست» وحصروا «بود» واستولوا على بعض مواقع للعثمانيين في «كرواسية» ودحروا والي بوسنة. ثمَّ استولى قائد النمسا «الدوك دولورين» على «غران» و«نوهيزل» كما أنَّ الكونت «هربشتاين» استولى على «ليكة، وكورباڤية، ووادي أودڤينه» كما أنَّ الجنرال «شولتس» هزم «تكلي»، الأمير المجري المُولّى من قِبل العثمانيين، فعيّن السلطان سليمان باشا صدرًا أعظم وعهد إليه باسترداد شرف السلطنة التي أصيبت من النوائب بما لم يسبق له مثيل! وكان سليمان باشا شديد البأس مِقدامًا إلاّ أنه كان ينقصه علم الحرب الذي كان موصوفًا به «الدوك دولورين» وهو القائد الأول في زمانه وكان الدوك دولورين يحاصر بود وفيها القائد عبدي باشا، وكان المحاصرون تسعين ألف مقاتل، فردّهم عبدي باشا على الأعقاب مرّتين. إلاّ أنه قُتل في المعمعة وبعد قتله دخل النمسويون وحلفاؤهم إلى بود، وذلك في ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦. وكانت بود هي آخر حدود الإسلام من جهة أوربا. وبقي العثمانيون فيها مائة وخمسًا وأربعين سنة، وكانت هي باب الجهاد ومفتاح السلطنة. وكانت فيها

مساجد ومدارس عديدة فلم يبقَ منها شيءٌ سوى مدفن لمجاهد يقال له «كل بابا» حافظ عليه المجر إلى الآن وهو على رابية عالية من بود.

ومن آثار العثمانيين في بود حمّامات معدنية لا تزال إلى الآن. ثمَّ اشتبك سليمان باشا مع العدوّ في «موهاك» وهو مكان كان العثمانيون كسروا فيه المجر قبل ذلك التاريخ بمائة وستّين سنة. فلم يسعدهم طالع الحرب هذه المرّة وخسروا عشرين ألف مقاتل، مع المدافع، والذخائر. ودخل العدوّ بلاد ترانسلڤانيا واستولى عليها، واستولى على أربعة عشر حصنًا في «سلاڤونيا» وعلى كثير من القلاع في كرواسية، والمجر السفلي. فبعد توالي هذه المصائب على الدولة لم تجد الأمّة أمامها وسيلة لإصلاح الحال سوى خلع السلطان محمَّد الرابع، فخلعوه في ٨ نوفمبر ١٦٨٧ وبايعوا أخاه السلطان سليمان الثاني.

السلطان سليمان الثاني

وكان سليمان الثاني محبوسًا مدّة ستّة وأربعين سنة في أحد القصور، لا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد، وكان يقضي أوقاته بالمطالعة، فلمّا عرضوا عليه السلطنة حاول الاستعفاء منها، فأجبروه على القبول. ولكن الانكشارية والسباهية ثاروا على الحكومة وقتلوا الصدر الأعظم، وأهانوا حرمه. فلمّا شاع الخبر في الأستانة ثارت حمية الشعب، وخرج العلماء تحت العلم النبوي ودعوا الأهالي إلى تأديب العسكر فانقضوا عليهم وفتكوا بهم، وقتلوا كثيرًا من رؤسائهم، فأخلدوا إلى السكون. وبقي النمسويون والبنادقة يتقدّمون في فتوحاتهم فاستولوا على «أرلو» وطردوا العثمانيين من «دالماسية» وأخيرًا دخلوا بلغراد، فالتمس الأتراك الصلح فاشترطت النمسا شروطًا ثقيلة إلى الغاية، فحاول العثمانيون الثبات فتقهقروا أيضًا، وأخرجهم العدوّ من «نيش» و«ودن» وأصبحت أسكوب تحت خطر السقوط. وقال أحد الوزراء: لا يزال أمامنا حملة واحدة، ويصير العدوّ في الأستانة. فعقدت الدولة مجلسًا في أدرنة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ السلطنة، وعهد بالصدارة إلى مصطفى باشا الكوبرلي ابن الكوبرلي الكبير، وأخو أحمد باشا الكوبرلي. فقام بالأمور خير قيام، وبدأ بإصلاح السلطنة من الداخل وملأ الخزائن بالأموال، واستأصل الرشوة، وأخذ على أيدي الظالمين وسنَّ قوانين عادلة للخراج. وكان جانب من موارد السلطنة تحوّل إلى الأوقاف فاسترجعها الكوبرلي، وقال: إنَّ الجهاد أَولى بها، ثمَّ بعد أن ملأ خزانة السلطنة بالأموال اللازمة؛ نشر فرمانًا يقول فيه: إنَّ الله يأمر المؤمنين بالجهاد، إلى آخر رمق من

حياتهم، وإنّه يجب على المسلمين أن ينفروا خفافًا وثقالاً، فثارت الحمية في رؤوس المسلمين ونفروا من كلّ صوب. وفي الوقت نفسه عامل النصارى بمزيد الرفق، وأطلق حرّية التجارة، فاستفاد من ذلك اليهود والنصارى. ومن جملة ما شدّد به هذا الصدر الأعظم الرشيد منع العساكر من الاعتداء على الأهالي ولو بمثل حبّة الخردلة، ومَن خالف ذلك أنزل به العقاب الصارم: ثمّ نظر إلى أحوال القضاء فطهّر المحاكم، وأشعر الرعيّة وجود العدل، وأعاد مجد السلطنة كما بدأ، وبحسن إدارته هذه حفظ للسلطنة بلاد «المورة» لأنّ الأهالي قاموا إذ ذاك وانتصروا للدولة على البنادقة، لا سيّما أنّ هؤلاء كانوا يسعون في نشر المذهب الكاثوليكي بين الأروام الأرتوذكسيين. فلّما رأى الأروام ما رأوا من عدالة هذا الصدر وحسن إدارته رجعوا إلى الدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم.

وبعد أن سدد الكوبرلي أحوال السلطنة وأعاد هيبة الحكومة كما كانت زحف إلى الثغور ووافاه خان القريم سليم غرائي، فبدأوا ببلاد الصرب فدوّخوها وهزموا جيشًا ألمانيًا في قوصوة. وهزم الأمير «تكلي المجري» حليف الدولة الجنرال «هوسلر» وأخذه أسيرًا. واسترجعت الدولة «نيش» و«ودن» و«سيمندريا» و«بلغراد» وذلك سنة ١٦٩٠. ثمّ مات السلطان سليمان الثاني.

السلطان أحمد الثاني

وخلفه أخوه أحمد الثاني في ٢٣ يونيو ١٦٩١ فكان للكوبرلي في مدّة أحمد من نفوذ الكلمة ما كان في مدّة سليمان، حتّى أنّ السلطان أحمد قال مرّة: إنّي لا أريد أن أعترض الكوبرلي في شيء من أمور الإدارة خوفًا من أن يتعطّل بذلك ما هو أدرى منّي. إلاّ أنّ الأقدار أبت إلاّ حرمان السلطنة العثمانية من هذا الرجل العظيم، فإنّه في الحرب مع النمسا تلاقى في «سالان كنيم Salan kenem» مع جيش ألماني يقوده «لويس فون بادن». وكان الصدر الأعظم مخترطًا سيفه أمام الجيش، فأصابته رصاصة في صدره فخرّ قتيلاً، ودارت الدائرة على الأتراك وفقدوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل، ومائة وخمسين مدفعًا، وكانت مصيبة من أعظم المصائب على الدولة، وفقدت بفقده وزيرًا عاقلاً، عادلاً، نشيطًا، جريئًا، مهذّبًا، صادقًا، اجتمع فيه من الخلال الباهرة ما قلّما وُجد في رجل من رجال السياسة. فبكاه المسلمون والمسيحيون معًا، وأسف الجميع لفقده. وبقيت الدولة مدّة أربع سنوات لم يلتئم جرحها الذي تركه موت الكوبرلي.

ثمَّ تولّى السلطنة مصطفى الثاني بن محمَّد الرابع، وكان عهده متّسمًا بالمتانة والصلابة ورجع السلطان إلى دأب أجداده الأوّلين، وأعلن أنه سيباشر قيادة الجيش بنفسه، فقال له بعض وزرائه: إنَّه لا يجوز له أن يعرض للتهلكة شخصه المقدّس، فرفض كلامه وفي بداية أمره كسر الأسطول العثماني في خلج «شيو» أسطول البنادقة، وزحف خان التتار إلى بولونيا، وأوقع بأهلها، ولم يتوقّف إلاّ عند «لمبرغ». وجاء الروس فحاصروا «آزوف» فهزمهم العثمانيون والتتار، وقتلوا منهم ثلاثين ألفًا. وذلك في أكتوبر سنة ١٦٩٥، ثمَّ دخل السلطان بنفسه بلاد المجر وفتح «ليپّه» وجاء الجنرال «ڤيتيراني» ليصدّه فأحاط به الجيش العثماني، وبعد عراك شديد كثرت فيه الخسائر من الفريقين أخذ ڤيتيراني أسيرًا وأمر السلطان بدقّ عنقه. ثمَّ انتصر السلطان في وقعة «أولاش» على أمير الساكس. وبينما كانت الأمور جارية وِفق مراد العثمانيين؛ إذ تولّى البرنس «أوجيه دو ساڤوا» قيادة الجيش الألماني.

سلطنة مصطفى الثاني ابن محمَّد الرابع التي ابتدأت سنة ١٦٩٥ كانت فاتحتها فاتحة حزم وعزم، وما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتّى أعلن نيّته أن يتولّى قيادة الجيوش بنفسه خلافًا لِما كان عليه أسلافه المتأخّرون. وقد حاول بعض وزرائه أن يأفكه عن عزمه هذا فلم يستفد شيئًا، وقال له السلطان: إنِّي ماضٍ في خطّتي هذه، ثمَّ إنَّ عهد هذا السلطان بدأ بالظفر، فالأسطول العثماني كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة «ساقس» واستولى العثمانيون على هذه الجزيرة، وزحف خان القريم على بولونيا وأوغل وأثخن، ولم يتوقّف إلاّ عند «لمبرغ»: وكذلك الروس تركوا حصار «آزوف» بعد أن فقدوا ثلاثين ألف مقاتل، وذلك في أكتوبر سنة ١٦٩٥ ثمَّ إنَّ السلطان نفسه دخل بلاد المجر وافتتح مدينة «ليپّه» عنوةً وأسر الجنرال «ڤيتيرافي» وأمر بقطر عنقه. ثمَّ تغلّب السلطان في واقعة «أولاش» على أمير الساكس قائد الجيش الألماني في السنة التالية، فاشتعلت حماسة العثمانيين وصاروا يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش، ولتكتيب كتائب من المتطوّعة، إلاّ أنَّ طالع الحرب لم يستمرّ طويلاً على هذا الشكل، فإنَّ بطرس الأول، قيصر الروسيا، عاد فافتتح «آزوف» والبرنس «أوجين دو ساڤوي» تولّى قيادة الجيوش النمسوية فكسر الجيش العثماني على نهر «تيس Thaiss» حيث فقد العثمانيون ثلاثين ألف مقاتل، منهم عشرة

آلاف غرقوا في النهر، وقُتل الصدر الأعظم، وفرّ السلطان ودخل العدوّ بلاد بوسنة وذلك سنة ١٦٩٧ فعاد الخطر فأحدق بالسلطنة، وعوّل السلطان على وزير جديد من آل كوبرلي وهو الكوبرلي حسين باشا، وكانت الخزانة فارغة، فجاء الكوبرلي هذا ورمّم الأحوال، وحشد جيشًا عهد بقيادته إلى «دالتَبان باشا» وسرّحه إلى بوسنة فأجبر النمسويين على الانكفاء إلى الوراء فعبروا «نهر الساف». وكان لويس الرابع عشر يغري تركيا بمتابعة القتال، ويتعهّد لها بواسطة سفيره الماركيز «دو فريول» بأنه لا يصالح النمسا إلاّ إذا استرجعت تركيا بلاد المجر وجميع البلدان التي فقدتها. ولكن سياسة النمسا تغلّبت في ذلك الحين وقيل إنَّ الذهب لعب دوره في هذه المسألة، وانعقد الصلح بين تركيا والنمسا على شرط ترك الأولى للثانية جميع المجر وترانسلڤانيا. وسُمّيت هذه المعاهدة بمعاهدة «كارلوڤيتس» وتاريخ انعقادها ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩، وبموجبها تقرّرت الهدنة بين الدولتين إلى مدّة خمس وعشرين سنة، وصار نهر «الساف» ونهر «أُنّة» فاصلاً بين تركيا والنمسا، واسترجعت بولونيا «كامينيك» و«ڤادولية» و«أوكرانية» وبقيت آزوف للروسيا. وصارت بلاد المورة وجميع دلماسية إلى جمهورية البندقية، وأُلغيت جميع الجُزى التي كانت تدفعها الدول المسيحية إلى الدول العثمانية.

ومعاهدة كارلوڤيتس هذه كانت إلى ذلك العهد أعظم ضربة على السلطنة العثمانية، فتراجع الأتراك عن بولونيا والمجر إلى ما وراء نهر الدنيستر، والساف والأُنّة، وظهر للجميع الضعف الذي كان قد بدأ يعمل عمله في سلطنة آل عثمان.

وكان الخلل عامًّا جميع فروع الإدارة، وكانت الفتن مشتعلة على حدود إيران وفي القريم، وفي أفريقيا، وفي بلاد العرب. فقام الكوبرلي حسين الذي اقتفى أثر عمّه برأب الصدوع، وسدّ الفتوق، وأعفى أهل بوسنة و«البانات» ممّا كانوا يؤدّونه بأسم الجيش، وترك لأهل الروملّلي مليونًا ونصف مليون من متأخّر الضرائب وأصدر أوامر في جميع السلطنة بأنَّ جميع المأمورين يجب أن يكونوا علماء، وأن يحفظوا القرآن وقواعد الدين، وشدّد في انتخاب المدرّسين، ووضع الإدارة وقيادة الجيش تحت رقابة شديدة، وأصلح الأمور المالية، وسنَّ قانونًا للبحريّة، وبنى المساجد، والمدارس، والأسواق، والثكن العسكرية، ورمّم أسوار بلغراد، وتمشوار ونيش. وشحنها بالأقوات، ونظر في أحوال المسيحيين من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين. ولكن هذه الإصلاحات كلّها لم تقع بدون مقاومة؛ فتألّب على الصدر الأعظم حزب ممَّن كانوا يعيشون بالغلول من أموال الدولة، وأخذوا يدسّون

الدسائس حوله وحول أعوانه، إلى أن اضطرّوه إلى الاستقالة، وكان أصيب بمرض عضال وفي ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ بعث إلى السلطان بختم الصدارة، ومات بعد ذلك بسبعة عشر يومًا، وفقدت الدولة به رجلاً عظيمًا ممَّن أخّروا أَجَل سقوطها نظير سائر آل الكوبرلي.

وقد أحدث موت الكوبرلي هذا فتوقًا جديدة في السلطنة، وتولّى الصدارة "دالتَبان باشا" وكان مغرمًا بالحرب يريد نقض المعاهدة التي انعقدت مع النمسا إلاّ أنه لم يطل أمره وقُتل قيل بدسائس بعض العلماء. فتولّى الصدارة "نامي محمَّد باشا" فأراد أن يحذو الكوبرلي في الإصلاح فأثار عليه المشايخ جيش الانكشارية وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى الثاني، ومبايعة أخيه أحمد الثالث.

السلطان أحمد الثالث

وفي أول الأمر اضطرّ السلطان الجديد إلى إرضاء الثوّار، وقتل المفتي فيض الله أفندي بفتوى من خَلَفه محمَّد أفندي وهو حادث لم يسبق له مثيل، غير أنَّ السلطان بعد أن تمكّنت أقدامه في السلطنة عاد فأخذ ينكّل بزعماء الثورة فقَتل منهم وغرّب، وعهد بالوزارة إلى صهره المسمّى داماد حسن باشا، فسار بالمملكة سيرة حسنة، وثارت في أيامه بلاد الكرج فدوّخها، واعتنى بتأمين قافلة الحجّ من الشام إلى مكّة، وبنى مدارس، وأنشأ دار صنعة بحريّة.

وفي أيام أحمد الثالث كان لويس الرابع عشر قد خاض الحرب المسمّاة بحرب الوراثة في أسبانيا، فعرض بواسطة سفيره على تركيا أن تدخل في حرب مع النمسا وتسترجع ما فقدته، ولكن حزب السلام كان في تركيا غالبًا، فرفض السلطان طلب ملك فرنسا. وكانت الروسيا قد نجمت قرونها إذ ذاك، فانتهزت فرصة اشتغال الدول الغربية بالحرب وخلا لها الجوّ، ورأت تركيا قد مالت إلى الدعة فجعلت تتأهّب لقتالها، وتركيا كانت لا تحفل بما تفعله الروسيا بقيادة بطرس الأكبر. وكان كارلوس الثاني عشر قد خشى مغبّة قوّة الروسيا، فحمل عليها وطلب معاونة السلطان فوعدوه بإرسال خان القريم لمعاونته، فاعتمد على هذا الوعد وأوغل في أرض الروسيا بستّة عشر ألف مقاتل لا غير، فانكسر والتجأ إلى "بندر" ضمن الحدود العثمانية وحاول أن يجرّ العثمانيين إلى محاربة الروسيا فلم يفلح. وذلك لأنَّ نعمان باشا الكوبرلي، الصدر الأعظم، كان يكره دخول الدولة في الحرب، وكان هذا الكوبرلي نظير أسلافه في العدل، إلاّ أنه كان ينقصه علوّ أفكارهم، فسقط أخيرًا. وكان أكثر

السبب في سقوطه مشرِّفًا له، لأنه عارض السلطان في إسرافه، وأبى أن يجعل معاشات الانكشارية من طرق غير شرعية. فقال له السلطان: إنَّ سلفك «شورلولي» كان يجد طرقًا لتأديته رواتب العساكر، فأجابه الكوبرلي: لي الفخر بأن أجهل مثل هذه الطرق. فعزله السلطان وولّى مكانه «محمَّد باشا البلطجي» الذي أعلن الحرب على الروسيا، وتولّى بنفسه قيادة الجيوش.

وكان بطرس الأكبر يؤمل أنَّ المسيحيين في السلطنة العثمانية يرفعون لواء الثورة فلم يتحرّك منهم أحد، وسار البلطجي بمئتَي ألف مقاتل من الترك والتتار وأحاطوا بجيش بطرس الأكبر على ضفاف نهر البروت، وأوشك بطرس وجيشه أن يقعوا في الأسر وكانت الروسيا لو أسروا ستسقط من عداد الدول، فبادرت كاترينا بدهائها لتلافي الخطب، ودخلت في المذاكرة مع الصدر الأعظم، وعزّزت الكلام بهدايا فاخرة قدّمتها له، وانعقدت معاهدة «فالكسن» وذلك سنة ١٧١١ وبموجبها تعهّد قيصر الروسيا بإعادة قلعة «آزوف» وبهدم القلاع التي بناها في تلك البلاد، وبعدم التدخّل في أمور القوزاق. فكانت هذه المعاهدة مفيدة لتركيا إلاّ أنها كانت أفيَد جدًّا للروسيا، لأنها أنقذت القيصر من الأسر. وثار غضب ملك السويد ووبّخ البلطجي على عدم أسره بطرس الأكبر، فأجابه البلطجي جوابًا باردًا وهو أنه لو أسر بطرس لبقيت بلاد الروس بدون رئيس. فهذا الكرم كان بغير محلّه، بل كان نوعًا من الخبال. وجاء الكونت «بونياثوڤسكي»، سفير السويد، وعرض القضيّة للسلطان وعضده خان القريم «دولة غرائي» فغضب السلطان على البلطجي وعزله ونفاه، على أنَّ خلَفه يوسف باشا لم يكن أيضًا مغرمًا بالحرب، فعقد متاركة مع الروسيا إلى مدّة ٢٥ سنة. وصدر الأمر لكارلوس الثاني عشر بأن يعود إلى بلاده. وكان كارلوس جبّارًا عنيدًا فأبى أن يمتثل الأمر وبقي معلِّقًا أمله بجرّ العثمانيين إلى محاربة الروسيا فالتزمت الدولة أن تعالج إخراجه من أرضها بالقوّة فعصى الأمر، فساقوا إليه عشرين ألف عسكري من التتار وستّة آلاف من الترك، فحاول مقاومة هذا الجيش بثلاثمائة من رجاله ولكن العثمانيين لم يريدوا أن يغدروا بنزيلهم، وصبروا عليه حتّى رجع إلى السويد من نفسه بعد أن أقام سنتين في تركيا.

وفي تلك المدّة استفادت الدولة من الهدنة مع الروسيا، وطردت البنادقة من جميع بلاد المورة، ومن بعض البلاد التي كانت باقية لهم في كريت. ولكن جزيرة «كورفو» امتنعت على العثمانيين، فالتجأت البندقية إلى النمسا وكان قائد جيوشها «أوجين دو ساڤوي»

الشهير فأعلن الحرب على تركيا وهزم الجيش العثماني في «پترڤاردين» وذلك في ٥ أغسطس سنة ١٧١٦ وقُتل الصدر الأعظم في الوقعة واستولى النمساويون على «تمشوار» وحاصروا «بلغراد». فزحف الصدر الأعظم الجديد خليل باشا لنجدة بلغراد فانكسر أيضًا، فالتزمت الدولة أن تعقد الصلح مع النمسا، وأخلت لها تمشوار وبلغراد وقسمًا من بلاد السرب، ومن بلاد الفلاخ، ورجع بطرس الأكبر فاستفاد من هزيمة تركيا هذه وأخلَّ بالمعاهدة التي كان عقدها معه البلطجي، فتجدّدت معاهدة أخرى وأقنعت الروسيا عدوّتها تركيا بالاتّحاد معها على قضيّة النظام الإرثي في مملكة بولونيا، وغفلت تركيا عن كون بولونيا حصنًا حصينًا لها فسايرت الروسيا.

وتولّى الصدارة ابراهيم باشا، فقام يحارب العجم، وأثار السنيّة الذين في بلادها فانتهز بطرس الأكبر الفرصة وأغار على الطاغستان وسواحل بحر الخزر، فأرسل خان القريم ينذر الدولة بسوء المصير فزحفت الجيوش العثمانية على أرمينية وكرجستان وكادت الحرب تقع بينها وبين الروس فخاف بطرس الأكبر أن تدور عليه الدائرة هذه المرّة أيضًا فوسَّط فرنسا بينه وبين الدولة؛ فسعى «دوبوا»، سفير فرنسا، في إرضاء الفريقين وذلك من أملاك العجم.

وكانت فارس يومئذٍ في حال أشبه بالفوضى، وكان الشاه مير محمود قد تغلّب عليه أشرف ابن عمّه واستولى على الملك ونازعه طاهماسب، وكان هذا أحقّ بالملك شرعًا فتحارب الاثنان، وانتهى الأمر بهزيمة أشرف والتحاقه بسجستان حيث مات وكان عند طاهماسب قائد عظيم اسمه «نادر كولي» كان في الأصل زعيم أشقياء فزحف صوب تركيا واسترجع الولايات الفارسية التي كانت قد دخلت في الحوزة العثمانية، فلم يشأ السلطان أن يثير على فارس حربًا، فغضبت الانكشارية وثاروا وطلبوا رأس الصدر الأعظم، ورأس شيخ الإسلام، ورأس القبطان باشي فامتنع السلطان عن إعطائهم رأس شيخ الإسلام، ولكن قتل لهم الآخرين. فلم يزدهم ذلك إلاّ تمرّدًا، وخلعوا السلطان أحمد وبايعوا محمود الأول.

وفي زمن أحمد الثالث دخَلت المطبعة في تركيا وأفتت مشيخة الإسلام بجوازها إلاّ أنه بقي طبع المصحف الشريف ممنوعًا. وطبع في ذلك الوقت كتب كثيرة مثل «جيهان نوما» وهو جغرافية للشرق مع أطالس وخلاصات تاريخية. و«تقويم التواريخ» وهو سلسلة ملوك الشرق وعظمائه إلى سنة ١٧٣٢ و«تحفة الكبار» وهي تاريخ البحرية العثمانية إلى سنة ١٦٥٥ و«تاريخ تيمور» من قلم نظمي زاده. و«تاريخ مصر للسهيلي». و«تاريخ

الأفغان» مع «مختصر تاريخ الدولة الصفوية في فارس». و«تاريخ بوسنة» من سنة ١٧٣٦ إلى سنة ١٧٣٩ وهي مدّة اتّصلت فيها الحروب في ذلك الإقليم. و«تاريخ الهند الغربية». وكتاب «الفيوضات المغنطيسية» يتكلّم عن خصائص المغناطيس وإبرته المعروفة. فهذه هي الكتب الأولى التي طبعت بالمطبعة العثمانية بحسب رواية المؤرّخ «لاجونكيار La Jonquiére» وقد قرأت في بعض المظان ما يخالف هذا وهو أنَّ أول كتاب طبع في الأستانة هو «صحاح الجوهري». ثمَّ إنَّ الدولة عادت فمنعت المطبعة، وبقي ذلك إلى زمن السلطان عبد الحميد الأول الذي أصدر خطًّا شريفًا في تاريخ ١٢ مارس ١٧٨٤ بإعادة المطبعة تحت إدارة محمَّد رشيد أفندي، وأحمد واصف أفندي. فكانت مدّة إهمال المطبعة أربعين سنة ثمَّ إنَّ السلطان محمود الأول اهتمّ بها مزيد الاهتمام.

وكان السلطان أحمد الثالث شاعرًا أديبًا، وله شعور رقيق لا سيّما في الغزل. أحفظ من جملته:

عجبًا لسلطان يذلّ له الورى ويصول سلطان الغرام عليه

وما أكثر الأدباء والشعراء في آل عثمان!!

السلطان محمود الأول

تولّى السلطان محمود الأول سنة ١٧٣٠ ولأول سلطنته ثار الانكشارية وعلى رأسهم المسمّى «بترونه خليل» فقمعت الحكومة ثورتهم وقتلت منهم سبعة آلاف وعاد السكون إلى العاصمة. ثمَّ استأنفت الدولة محاربة العجم وأجبرت الشاه طهماسب على طلب الصلح، فانعقد في ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ ونزلت العجم عن تبريز، وأردهان وهمذان، وجميع اللورستان، وأيضًا تركت لتركيا الداغستان، وناختشيفان، وأريفان وتفليس، وغيرها. ولكن هذا الصلح لم يطل أمره، فإنَّه برز «نادر كوليخان»، من قوّاد العجم، وخلع الشاه طهماسب وصار هو كافلاً للمملكة الفارسية ووصيًّا على القاصر الشاه عباس الثالث. فنقض نادر المعاهدة وغزا البلاد العثمانية وحصر بغداد فاشتبكت معركة شديدة على دجلة وانكسر العجم أولاً وثانيًا، ولكنّهم عادوا فانتصروا في المعركة الثالثة، ووقع السرّ عسكر طوبال عثمان باشا قتيلاً. وكان هذا قائدًا بطلاً، ووزيرًا عادلاً فاضلاً، خسرت تركيا بموته خسارة لا تعوّض. وأرسلت الدولة جيشًا آخر بقيادة السرّ عسكر عبد الله باشا الكوبرلي

بن مصطفى باشا الكوبرلي فقُتل هذا السرّ عسكر أيضًا فاضطرّت الدولة إلى طلب الصلح وعقدته مع نادر شاه الذي كان تولّى سلطنة العجم، ورجعت مع إيران إلى الحدود التي كانت تحدّدت بين السلطان مراد الرابع والعجم سنة ١٦٣٩ وأكثر السبب الذي حدا تركيا على طلب الصلح هو نشوب الحرب بينها وبين الروسيا.

وكانت بولونيا في فوضى مستمرّة، فانتهزت الروسيا من جهة، والنمسا من جهة أخرى الفرصة لأجل اقتسامها. وقاتل "ستانسلاس"، ملك بولونيا، قتالاً شديدًا إلاّ أنَّ الروس تغلّبوا عليه فصارت بولونيا في قبضة الروسيا، بينما فرنسا مشغولة بالحرب مع النمسا.

وكان عند الدولة العثمانية رجل إفرنسي اسمه أحمد باشا أصله من البحرية الإفرنسية وقد جرت معه وقائع خرج من أجلها من وطنه ودخل في خدمة النمسا وامتاز بالبسالة في الحرب بين النمسا وتركيا، ثمَّ وقع الخلاف بينه وبين البرنس أوجين فألقاه في السجن، فوجد وسيلة للفرار من السجن والتجأ إلى تركيا وصار قائدًا وتَسمّى بأحمد باشا، وقدّم للسلطان تقريرًا يطلعه فيه على أسرار السياسة الأوربية، وأشار على السلطان بعقد محالفة مع فرنسا وأقنعه بها، فرضي السلطان بذلك حتّى يتمكّن من قهر النمسا. ولمّا علم كارلس الثاني، إمبراطور النمسا، بمشروع هذه المحالفة مع فرنسا أسرع بمصالحة هذه، وفي أثناء ذلك زحف الروس إلى تركيا بينما هي في حرب مع العجم فاستولوا على آزوف، والقريم، وغيرهما.

ولمّا كانت النمسا قد صالحت فرنسا واستراحت من حروبها مع أسبانيا وسردانيا عبّت جيشًا كبيرًا وغزت به بلاد السرب، والفلاخ، والبوسنة، وظنّت نفسها قد نالت مرامها فانكسر جيشها في بنالوقة، والتزمت أن تُخْلي البوسنة. وكذلك انكسر جيشها في الصرب تحت قيادة البرنس "هيلد بورهوَزِن" فطلب إمبراطور النمسا الصلح وذلك سنة ١٧٣٧ وتوسَّطت إنكلترا وهولاندا في إعادة السلام، إلاّ أنَّ الباب العالي اشترط أن يكون الصلح بواسطة فرنسا. واسترجعت الدولة في تلك النوبة بلادًا كثيرة كانت قد استولت عليها النمسا. ولولا غفلة الحاج محمَّد باشا الصدر الأعظم لكان الجيش النمسوي قضى عليه بتمامه. فأمّا الحرب مع الروسيا فكانت سجالاً، ففي البداية انكسر الروس على نهر "الدينيستر" وأحرق الأسطول العثماني أسطول الروسيا إلاّ أنهم عادوا فيما بعد فانتصروا على العثمانيين ودخلوا مُلداقيا. وبمساعدة المركيز "فيلنوف Villeneuve" انعقد الصلح بين الدولتين الروسيا والنمسا، وبين الدولة العثمانية وذلك بكفالة فرنسا. وبموجب هذه المعاهدة

رجعت بلغراد و« شاباتز » وجميع بلاد الصرب، والفلاخ، وقلعة أورزوقة إلى تركيا. وجُعِلت هذه المعاهدة لمدّة سبع وعشرين سنة، وقد محت معاهدة كارلوڤيتس السابقة التي كانت وصمة عار على العثمانيين.

فأمّا الروسيا فقد رضيت بالصلح على شرط أن تهدم قلعة آزوف، ولا يكون لها سفن حربية لا في قلعة آزوف ولا في البحر الأسود، وأعاد الروس جميع البلاد التي كانوا احتلّوها من تركيا. وقال المؤرّخ الألماني "هامر Hammar": إنَّه في ذلك الوقت ساد النفوذ الإفرنسي في الأستانة إلى أن صار كلّ شيء بيد فرنسا تقريبًا وطلبت فرنسا تعديلات في الامتيازات الأجنبية المعروفة بامتيازات سنة ١٦٧٣ فأجيبت إليها وذهب السفير العثماني محمَّد سعيد ليقدّم ذلك إلى لويس الخامس عشر في فرساي فقوبل باحتفال عظيم، ورجع ومعه مدرّبون إفرنسيس للجيش العثماني بحسب طلب "بونڤال Bonval" الإفرنسي الذي كان أسلم وتَسمّى بأحمد باشا، وهو الذي مات سنة ١١٦٠ هجرية ودُفن في "بيره" من بلاد اليونان. ثمَّ إنَّ تركيا عقدت محالفة عسكرية هجوميّة دفاعيّة مع السويد في وجه الروسيا.

وفي ذلك الوقت توفّي الإمبراطور "كارلس السادس"، صاحب النمسا، وترك الملك لابنته "ماري تيريز" فتحرّكت أطماع الدول الأوربية وأردنَ اقتسام النمسا. وكانت هذه أحسن فرصة للدولة العثمانية حتّى تسترجع بلاد المجر، وكانت فرنسا على رأس الدول التي تريد تمزيق النمسا، فدعت تركيا إلى الاشتراك معهنّ فأبى السلطان نقض العهد، وشرع يرسل المواعظ إلى تلك الدول حتّى تمتنع عن إثارة الحرب. وأصدر الصدر الأعظم منشورًا طويلاً يصف فيه أهوال الحروب بأبلغ العبارات ويختمه بدعوة الدول المسيحية إلى السلام. وعبثًا حاول بونڤال المسمّى أحمد باشا وسفير فرنسا وغيرهما تحريك السلطان ورجاله لانتهاز هذه الفرصة، وساعدهم في ذلك أرسلان غرائي خان القريم الذي كان يعرف مقاصد الروسيا، فالدولة العثمانية حينئذٍ أصرّت على الْتزام السكوت وتوسّطت إنكلترا بينها وبين الروسيا وأوستريا حتّى عقدت بين الدول الثلاث معاهدة سِلم دائمة. ثمَّ إنَّ الدولة وحّدت بين إمارة الفلاخ وملداڤيا وصارت ترسل إلى هناك أميرًا تنتخبه من أروام استانبول؛ فكان رجال الدولة يضعون هذه الإمارة بالمزاد فيذهب الأمير الرومي من الأستانة فيجمع ما يقدر عليه من الأموال بالطرق الدنيئة وغير المشروعة، ويرشو بها رجال الديوان لأجل إطالة إمارته، حتّى إذا جاء مَن زاد عليه صرفوه عن الإمارة وولّوا الذي زاد. وهكذا

ساءت إدارة الفلاخ والبغدان، وكان هذا النسق في الحكم يزيد بغضاء أهالي رومانيا للأتراك ويحملهم على محبّة الروس. وقد جنت الدولة العثمانية من تحكيم هؤلاء الأروام في بلاد رومانيا اتّحاد الرومانيين مع الروس في وجهها وكان ذلك وبالاً عليها.

السلطان عثمان الثالث

وفي ١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٤ توفّي السلطان محمود الأول بعد أن ملكَ أربعًا وعشرين سنة وكان حليمًا رؤوفًا محبوبًا، فأسف عليه الناس أجمع، وخلفه السلطان عثمان الثالث. وكان الصدر الأعظم هو علي باشا فاستخفّ بأمر السلطان وأكثر الغلول من مال الدولة، فأمر السلطان بقتله ووضع رأسه في صحن من فضّة على باب القصر السلطاني، وولّى الصدارة وزيرًا اسمه محمَّد راغب باشا. وكان في غاية الدهاء والحكمة مع الحزم والعزم، وكانت له خبرة بالسياسة الخارجية. ولم يطل أمر عثمان الثالث ولم يحصل شيء في زمانه سوى حريق لم يسبق له مثيل في الأستانة اَلتهم نصف هذه العاصمة. ومات عثمان الثالث في ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٥٧.

السلطان مصطفى الثالث

وخلفه ابن أخيه وهو السلطان مصطفى الثالث، ابن أحمد الثالث.

وقد بدأت سلطنته في أثناء حوادث أثارت ثائر الأمّة؛ منها الاعتداء الذي جرى على قافلة الحجّاج بين الحرمين، ومنها أنَّ سفينة أمير الماء - أي القبطان باشي - خرج منها جنودها وبقي فيها بعض النواتية من الأرقّاء المسيحيين فذهبوا بها إلى مالطة.

غير أنَّ السلطان بدأ بالإصلاح فعلاً، وأول ما وجّه إليه همّه هو إصلاح الأمور المالية، وضبط الجبايات، واتّباع سياسة التوفير ولا سيّما في القصر السلطاني. وأخذ السلطان إدارة الأوقاف من يد "آغا القصر" وسلّمها إلى الصدر الأعظم. وكان راغب باشا يبني المحاجر الصحّية توقّيًا من الطاعون، ويقوم بإصلاحات أخرى مثل بناء دار الكتب العظيمة التي بناها في استانبول، وكان مراده أن يشقّ بلاد الأناضول بترعة تتكوّن من نهر سقارية، ومن بحيرة واقعة بين سقارية وإزنيق، وذلك تسهيلاً لنقل الحبوب والأقوات فمات قبل أن يتمكّن من إجراء هذه الفكرة الحسنة، وكانت وفاته سنة ١٧٥٢.

وبينما كانت الدولة في أشدّ الحاجة إلى مثل راغب باشا جرت حوادث في غاية الخطورة، منها قتل بطرس الثالث قيصر الروسيا وجلوس كاترينة الثانية على عرش تلك المملكة، وموت أوغوست الثالث، ملك بولونيا، وكانت الروسيا قد دخلت في صفّ الدول العظام، وأخذت تنمو بسرعة فوجّهت جميع دسائسها إلى إسقاط مملكة السويد، ومملكة بولونيا والسلطنة العثمانية. وقد تغلّبت على السويد ونزعت من يدها بموجب معاهدة "نيستاد" أحسن ولاياتها في البلطيق الغربي، ثمَّ قضت الروسيا على مملكة بولونيا وأجلست على عرش هذه المملكة الكونت "ستانسلاس بونياتوفسكي"، عشيق القيصرة كاترينة أو أحد معشوقيها الذين كان لا يأخذهم الإحصاء، فاحتجّت تركيا وفرنسا على عمل الروسيا هذا ولكن الدولة العثمانية كان بلغ منها فساد الإدارة وفشو الرشوة والخيانة إلى أقصى حدّ يتصوّره العقل، وكان الإنكليز يستعملون المال في جميع مقاصدهم، وينالون به جميع ما يريدونه من الدولة وكان السلطان يعرف كلّ ذلك ولا يقدر على الإصلاح نظرًا لشمول الفساد وعموم البلوى حتّى أنه قال لخان القريم: إنَّ جميع الباشوات الذين عندي قد فَسُدَتْ أخلاقهم ولم يبقَ لهم همٌّ إلاّ في اقتناء الجواري، وآلات الطرب، وبناء القصور. وفي أثناء ذلك اعتدى الروس على حدود الدولة ودخل القوزاق إلى "بالطة" فأعلنت الدولة الحرب على الروس ولكن كانت جيوشها في أسوأ حالة، وكان مضى زمن طويل وهي خافضة في السلم فنسيت أهمّ معدّات القتال، وكانت قلاعها قد تداعت إلى الخراب، وكانت المدفعيّة في أشنع حال، وكان الولاة قد أخذوا يستقلّون في ولاياتهم مثل أحمد باشا في بغداد والحاج يكلي في طرابزون، والمملوك على بك في مصر، وغير ذلك. وثار يومئذٍ ظاهر العمر الزيداني في عكّة.

هذا ولمّا أعلنت تركيا الحرب على الروسيا زحف خان القريم كريم غرائي فاخترق حدود الروسيا، وهزم الروس وعاد إلى بندر بخمسة وعشرين ألف أسير منهم. ولسوء الحظّ مات كريم غرائي في أثناء ظفره هذا، فزحف الروس وحاصروا "شوقسين" فامتنعت عليهم، وجاء أمين باشا، قائد العثمانيين، لنجدة التتر فانهزم وأمر السلطان بقتله. وخلفه وزير يقال له "المولدوفنجي" فلم يتوفّق لأنه بينما كان يعبر نهر دِنَيستر طغت المياه فزعزعت أركان الجسرين اللذين على النهر، فازدحم الجيش العثماني ازدحامًا ساعد على انهيار الجسور فغرق منه عدد كبير، بينما كان الروس يرمون على الجيش بنيرانهم فانكفأ العثمانيون إلى نهر الطونة، ودخل الروس إلى بلاد رومانيا. ثمَّ أرسلت الروسيا أسطولاً إلى

البحر المتوسّط فأثار بلاد المورة، وبلاد الجبل الأسود، فتوالت الوقائع بين الأتراك وبين الثائرين من الأروام، ومن السلاف واشتعلت الحرب بين الأسطولين العثماني والروسي، واحترق الأسطول العثماني في "ششمه". وكان يقود الأسطول الروسي "أورلوف" الشهير عشيق القيصرة كاترين الثانية، ولكن قيادته كانت اسمية والفعل كان لأمير الماء الأيكوسي المسمّى "الفِنستون" وأراد الفنستون هذا أن يخترق الدردنيل فأبى أورلوف أن يطيعه وجاء فحصر جزيرة لِمنى التي هي قبالة ذلك البوغاز. وكان العثمانيون قد بادروا إلى تحصين الدردنيل، وحشدوا على الضفّتين ثلاثين ألف مقاتل، وهكذا أمنوا خطر عبور الروس إلى الأستانة.

وأمّا في رومانيا فدارت الدائرة أيضًا على العثمانيين، مع أنه كان عندهم هناك مائة وثمانون ألف مقاتل، وأوشكوا أن يحيطوا بالروس، ولكن بسوء إدارتهم تغلّب الروس عليهم في معركة "كاهولو" وقيل إنَّهم فقدوا خمسين ألف مقاتل. ولم يكن مَن يفكّر في حفظ شأن السلطنة غير السلطان وحده، وكان الوزراء كلّهم تحت تأثير الإنكليز يريدون الصلح، وقد طلبوا وساطة النمسا لذلك. وكان البارون "دو طوط De Tott" الإفرنسي يشتغل بأمر السلطان في ترميم المدفعيّة العثمانية، إذ بعد أن كانت هي المدفعيّة الأولى في أوربا تقهقهرت إلى الدرك الأسفل!! فأنشأ السلطان مدرسة للمدفعيّة والهندسة في الكاغدخانة، وكذلك بنى السلطان مدرسة للبحريّة وذلك في دار الصنعة التي يقول لها الأتراك "الترسانة" وكانت البحرية وصلت إلى أقصى حدود الخلل وصار القبطان باشي ـ أي ناظر البحرية ـ يضع السفن تحت المزاد، فالذي يزيد له في الرشوة يقلّده قيادة السفينة. وممّا لا شكّ فيه أنَّ البارون دو طوط خدم العثمانيين في ذلك الوقت خدمة جزيلة في ترميم المدفعيّة والبحرية.

وفي سنة ١٧٧١ هاجم حسن بك التركي ومعه أربعة آلاف متطوّع جزيرة "لِمنى" وهزم الروس وألجأهم إلى الفرار بأسطولهم، فكافأه السلطان بنظارة البحرية وانهزم الروس أيضًا في كرجستان، وفي طرابزون ، إلاّ أنهم تغلّبوا على القريم وكانت هذه قاصمة الظهر لتركيا إذ أعلن البرنس الروسي قائد جيشهم استقلال القريم عن تركيا، ووضعها تحت حماية الروسيا. ومن بعد ذلك صار البحر الأسود بين الدولتين بعد أن كان عثمانيًا بحتًا.

أمّا النمسا فقد اتّفقت مع بروسيا والروسيا على اقتسام بولونيا، ثمَّ توسّطت النمسا في الصلح بين تركيا والروسيا واجتمع رجال الدول الثلاث في مولداڤيا، وعندما بدأوا

بالمذاكراتس الصلحية اشتطّ الروس في مطالبهم فرفضت تركيا صلحًا كهذا، واستؤنفت الحرب. فانكسر الروس في "روسجق" و"سيلستريه" من بلاد البلغار. فذهبوا إلى "بازَرجيك" وهي مدينة غير محصّنة فانتقموا عن هزائمهم بقتل الأهالي وفيهم النساء والأطفال، وروى المؤرّخ "هامر" أنَّ حسن باشا، قبطان البحر، على رأس جيش من السباهية طرد الروس إلى ما وراء الدانوب، وغنم مدافعهم وأرزاقهم وقدور الطعام فيها اللحوم وهي نصف ناضجة.

ثمَّ إنَّ الدولة تغلّبت على علي بك الثائر بمصر بالاتّفاق مع ظاهر العمر الزيداني، والي عكّة، الذي كانت السفن الروسية تمدّه بالمال والسلاح، ولسوء طالع السلطنة مات مصطفى الثالث بينما كان يريد أن يقود الجيش المرابط على الدانوب، وذلك في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٣ وأسفت الأمّة العثمانية بأجمعها عليه، لأنه كان مصلحًا كبيرًا، وجاء في زمن بلغت فيها الإدارة أبعد ما يتصوّره العقل من الخلل، فعالج أمراض السلطنة بصبر عجيب، وأصلح جانبًا كبيرًا ممّا كان ينوي إصلاحه.

وقد فكّر السلطان في خرق برزخ السويس وكلّف البارون دو طوط بأن يرسم له خطّة لهذا المشروع الذي كان ينوي إجراءه بعد عقد الصلح.

السلطان عبد الحميد الأول

فتولّى المُلك السلطان عبد الحميد الأول والملك جمرة تضطرم، ولم تصل الفوضى في السلطنة العثمانية إلى مثل ما وصلت إليه لذلك العهد، فإنَّ أحمد باشا، والي بغداد، كان قد أعلن استقلاله، وظاهر العمر الزيداني كان قد استفحل أمره واستولى على بلاد الجليل التي يقول لها العرب "بلاد الأردن" وحصّن عكّة واتّخذها عاصمة له وكان محمَّد بك، والي مصر، ثائرًا تقريبًا، وكان محمود باشا، والي أشقودره في شمالي ألبانيا، قد انفصل عن الدولة، وكان أهمّ منه علي باشا، والي بانيا، الذي أسّس في جنوبي ألبانيا مملكة مستقلّة.

دخل عبد الحميد الأول على السلطنة وهي بهذه الحالة، وجاءت الروسيا وأعلنت عليه الحرب انتقامًا عن هزائمها الماضية، وأسرع القائد الروسي الكونت "رومانسوف" فقطع بين الجيش العثماني وبين ميرته التي كانت في "ڤارنة" فوقع الرعب في الجيش وتبدّد شمله، ولم يبقَ مع السرّ عسكر إلاّ ١٢ ألف مقاتل. فرأى السلطان أنَّ مداومة الحرب مستحيلة، وعقد

مع الروسيا معاهدة «كوتشوك قينارجي» في ٢١ يوليو سنة ١٧٩٤. وبهذه المعاهدة انسلخت بلاد القريم، وبلاد بوجاق، وبلاد قوبان عن تركيا، واستولى الروس على كيلبورم، ويني قلعة، وآزوف، وصار لهم حقّ الملاحة في البحر الأسود، ورجعت الفلاخ والبغدان إلى تركيا ولكن مع الاعتراف للروسيا بحقّ إبداء رأيها في شئون تينك الإمارتين، وكذلك صار للروسيا حقّ آخر وهو التكلّم في الشئون العائدة للمسيحيين وكنائسهم، ممّا كان السبب في الحرب المسمّاة بحرب القريم سنة ١٨٥٤.

قال هامر، مؤرّخ السلطنة العثمانية: من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية في قبضة الروسيا، وقلّما وُجدت معاهدة على تركيا أشأم منها، ولم ينشف الحبر على الورق حتّى أعملت الروسيا دسائسها في شبه جزيرة القريم، فثار الأهالي وخلعوا «دولة غرائي»، الأمير الشرعي، وبايعوا «شاهين غرائي» الذي انضوى تحت لواء الروسيا. فلم يقبل أشراف البلاد أن يدخلوا في طاعة الخان الجديد، فاستنجد هذا كاترينة فأرسلت إليه جيشًا سبعين ألف عسكري، فقبضوا على أشراف البلاد وأعيانها، وقتلوا منهم وغرّبوا وارتكبوا الفظائع، وانتهى الأمر بخضوع القريم للحكم الروسي. وبعد أن قضت الروسيا وطرها من القريم رمت الخان شاهين هذا إلى الخارج، فلجأ إلى تركيا فنفوه إلى رودس، وقيل إنّهم قتلوه. وصارت القريم والقوبان من ذلك العهد جزءًا من الروسيا، واعترف الباب العالي بذلك سنة ١٧٨٤ وكانت النمسا والروسيا متّفقتين حينئذٍ، وتعاهد الإمبراطور يوسف الثاني، صاحب النمسا، والقيصرة كاترينة على اقتسام تركيا. فاضطرّ الباب العالي أن يعلن الحرب على الدولتين، فزحفت الجيوش النمسوية من جهة بلغراد فكسرها الصدر الأعظم في «لاغوس» واكتسح بلاد «البانات» التي كانت لتركيا من قبل. وهاجم الأتراك مدينة «كيلبورم» فامتنعت عليهم لأنَّ الروس أحسنوا الدفاع عنها، واستولوا على «هوقسيم» وعلى «أوقزاقوف» وجاء قبطان البحر حسن باشا لينقذ «أوقزاقوف» فخسر خمس عشرة سفينة، وأحد عشر ألف مقاتل، فكانت نتيجة هذه الفادحة أنَّ الروس دخلوا «أوقزاقوف» وذبحوا ٢٥ ألف نسمة من أهلها.

وفي أثناء هذه الحرب ظهر رجل في الأناضول تَسمّى بالشيخ «أوعلان أولو» وزعم أنه المهدي، وكاد يثير الأناضول كلّها على الدولة. ومن الغريب أنَّ هذا المهدي كان في الحقيقة رجلاً طليانيًّا اسمه الأصلي «جيوفنّي فاتيستا بوتّي Jiovanni Battista Boatti» وُلد في «بيازانو» من إيطاليا، ودخل راهبًا عند الدومينيكان في «راڤين Ravenne» فأرسلوه إلى

الموصل، فاختلف هناك مع المطران وخرج من الدير وأخذ يجوب بلاد الأناضول، وبلاد إيران، وانقلب من الرهبانية إلى القيادة العسكرية، وإلى الدعاية المهدوية، وأخذ يخطب في الأمصار في إعادة الإسلام إلى نقائه الأول كما كان عليه السلف، فانقاد الناس إلى كلامه وأطاعوه، وزحف إلى أرضروم واستولى عليها وتلقّب بالمنصور، وأراد أن يتقدّم منها إلى سيواس. فأرسل الباب العالي رسله إلى هذا المهدي يقول له: إنَّه ما دام المهدي المنتظر فليُظهِر حماسته الدينية في محاربة الروسيا؛ فاقتنع المهدي المنصور بهذا الكلام وسار إلى القوقاس يحارب الروس، وانتصر في الوقعة الأولى على القائد الروسي "أبركسين" ثمَّ انكسر وما زال يحارب مدّة أربع سنوات والحرب بينه وبين الروس سجال، إلى أن وقع في أيدي الروس أسيرًا فعاملته كاترينة معاملة حسنة، وأجرت عليه رزقًا كافيًا وعاش في دير الأرمن الكاثوليك إلى سنة ١٧٩٨.

أمّا السلطان عبد الحميد الأول فبعد توالي هذه المصائب على المملكة مات غمًّا وذلك في ٧ أبريل سنة ١٧٨٧.

السلطان سليم الثالث

وتولّى مكانه ابن أخيه السلطان سليم الثالث، وكان عبد الحميد بخلاف السلاطين السابقين بَرًّا بأهله، فكان يعامل السلطان سليمًا معاملة الأب لابنه.

فجلس السلطان سليم أسوأ ما كانت السلطنة حالاً، وكان سليم مقتنعًا بوجوب إصلاحها والأخذ في إدارتها بالطرق العلمية الأوربية. وكانت هذه الفكرة قد ملأت دماغه فتجشّم مشقّة إجرائها، وأنفذ كثيرًا منها. وكان حميد الخصال عاقلاً حليمًا، فبدأ ملكه بالعفو والمرحمة، وساعد المديونين بأداء ثلاثين في المئة إلى دائنيهم من خزانة السلطنة تخفيفًا للأزمة الاقتصادية، ولكن طالع الحرب كان لا يزال مشئومًا. فإنَّ قبطان البحر حسن باشا انكسر في "فورشاني" في ٢١ يوليو سنة ١٧٨٩ وبعد ذلك بشهرين لحقت بالعثمانيين هزيمة أخرى، وكانت الفلاخ، ومولداڤيا، وبلاد السرب في أيدي الأعداء، والروس يحاصرون قلعة اسماعيل التي هي معقل العثمانيين الأعظم على الدانوب، وكانت الخزانة فارغة، فكانت من كل جهة علامات الشؤم مُطبقة إلاّ أنَّ حادثًا جاء فخفّف الأزمة وهو موت يوسف الثاني، إمبراطور النمسا، سنة ١٧٩٠ فإنَّ أخاه ليوبولد خالف السياسة التي كان سائرًا عليها أخوه في عداوة تركيا وعقد الصلح مع الباب العالي، وأعاد إليه جميع البلاد

التي كانت النمسا احتلّتها من تركيا سوى بعض أماكن على ضفّة «نهر الأنّة» ولكن الروس لبثوا ظافرين، وفتحوا قلعة اسماعيل عنوةً بعد حصار شديد يفوق الوصف، فذبح الروس جميع المسلمين كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً، واستمرّت المذبحة ثلاثة أيام، ولمّا وصل الخبر إلى استامبول ثار الشعب وطلبوا الاقتصاص من رجال الدولة، فقتلوا لهم الوزير حسن باشا الذي كان قبطان البحر برغم ما كان من بسالته وقيامه بواجباته، وكان السر عسكر يوسف باشا قد انهزم أيضًا في «ماتشين» فتدخّلت إنكلترة وبروسيا في الصلح، وانعقدت معاهدة «ياسي» في ٩ يناير سنة ١٧٩٢ بموجبها استولت الروسيا على القريم، وعلى شبه جزيرة طامان، وقسم من قوبان ، وقسم من بسارابيا، ومدينة أوقزاقوف وغير ذلك.

ونبغ في ذلك الوقت «كوتشوك حسين باشا» فتولّى نظارة البحرية، وكان صهرًا للسلطان، وكان متحلّيًا بمزايا نادرة، ولو لم يمُت قبل وقته وذلك سنة ١٨٠٣ لبلغت تركيا بواسطة هذا الوزير الدرجة القصوى من الرقيّ، فإنَّه بدأ فطهّر البحر من القرصان بعد أن طال عَيْثُهم فيه، ثمَّ أخذ بترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة، ثمَّ انتدب مهندسين من فرنسا والسويد، ثمَّ أخذ بإنشاء الأساطيل، وجدّد مدرسة المدفعيّة، ومدرسة البحرية اللتين كان أنشأهما البارون الإفرنسي دو طوط. وأنشأ خزانة كتب تشتمل على أحسن كتب الفنّ، واعتمد في أكثر إصلاحاته العسكرية على ضبّاط الفرنسيس وأدخل إصلاحات في دار السبك في الطوبخانة، وكانت الروسيا تنظر إلى هذه النهضة العثمانية بعين الحذر، وقد تحفّزت للنكث بـ«معاهدة ياسي» وثار في ذلك الوقت باشا «وِدْين» من بلاد البغار، فساقت الدولة عسكرًا لمحاربته ولكنّها التزمت أخيرًا أن ترضيه بترك وِدْين له مدّة حياته.

وكانت هذه الفتن المصطلمة المستمرّة في السلطنة العثمانية في داخلها، وهذه الحروب المضطرمة المستمرّة عليها من خارجها؛ قد أطمعت فيها دول أوربا، وصيرتها تفكّر في دنوّ أجل هذه السلطنة. وصارت كلّ دولة تتحفّز للاستئثار بشقص من هذه التركة. وقد كان حديث اقتسام أوربا للسلطنة قديمًا، وطالما تذاكرت الدول الأوربية جمعاء في هذا الأمر، أو تفاوض القسم الأكبر في إتمامه، وكان يحول دول ذلك الاختلاف فيما بينهنّ، مع صعوبة إتمام العمل بنفسه، لأنه ليس بسهل. وقد لخّصنا في حواشي «حاضر العالم الإسلامي» كتابًا لأحد وزراء رومانيا اسمه «مئة اقتسام لتركيا» يدلّ بالوثائق على قدرة الفكرة الصليبية في أوربا وعدم انقطاعها، ومن الغريب أنَّ الأوربيين فكّروا في هذا الأمر أيام كانت تركيا في عنجهيّة أمرها، وكانت جيوشها توغل في قلب أوربا. فبديهي أنهم ازدادوا تفكيرًا به بعد أن

ظهرت عليها علامات الانحطاط، وتوالت فيها الثورات، وتحفّز رعاياها البلقانيون المسيحيون كالسرب[1]، واليونان، للانقضاض عليها.

فلمّا تولّى سليم الثالث السلطنة كان الناس في أوربا يعتقدون أنَّ أَجَل السلطنة أصبح قريبًا جدًّا، ولذلك قرّرت الحكومة الفرنسوية غزو الديار المصرية، وحاولت إقناع تركيا بأنَّ هذه الغزاة لا تنوي بها فرنسا العداوة لتركيا، وإنَّما تريد بها سبيلاً إلى الهند، كما أنها ترى حكم المماليك في مصر شيئًا أشبه بالفوضى فتزيد القضاء عليه. وكانت إنكلترة في غيرة شديدة من نفوذ كلمة فرنسا لدى الباب العالي، فلمّا غزت فرنسا مصر اهتبلت[2] في ذلك الفرصة حتّى تقرّبت إلى الحكومة العثمانية، وصارت معها يدًا واحدة. فأعلنت الدولة الحرب على فرنسا، واتّحدت معها إنكلترة والروسيا وقبضت الدولة على معتمد فرنسا وحبسته في الأبراج السبعة بالآستانة، وضبطت أملاك الفرنسيس في جميع البلاد العثمانية. وكان الفرنسيس قد تغلّبوا على المماليك في واقعتَي «الأهرام وأمبابة» وسقطت مصر كلّها في أيدي الفرنسيس وجاء جيش عثماني بقيادة مصطفى باشا عدده ١٨ ألفًا فنزل عند أبي قير، وقبل أن يتحصّن في مراكزه هجم عليه بونابرت ومزّقه شرّ ممزّق، إلاّ أنَّ الأسطول الإنكليزي أحرق الأسطول الإفرنسي في مياه أبي قير، فتعذّر على الفرنسيس إنجاد عسكرهم، وصار كالمحصور. ومع هذا فقد زحف «بونابرت» إلى سورية، وما زال يتقدّم حتّى وضع الحصار على «عكّة» وكان لو أخذها استولى على سورية، وربّما وصل إلى الأستانة. وهذا شيء لا يقدر مؤرّخ أن يجزم به، وإنَّما يتّفق العقلاء على أنَّ فشل بونابرت أمام عكّة قضى على آمال فرنسا في هذه الحملة المصرية. ف «أحمد باشا الجزّار البوسنوي»، قائد الحامية العثمانية في عكّة، و«الأميرال سيدني سمث»، قائد الأسطول الإنكليزي في بحر عكّة، ردّا بونابرت خائبًا. فرجع إلى مصر ومنها أبحرَ إلى فرنسا، وترك قيادة جيشه للجنرال «كليبَر». فأخذ الإنكليز يفاوضون كليبر في الصلح، ولكنّهم طلبوا منه تسليم جيشه فأبى قبول هذا الشرط المهين، فجاء واحد اسمه سليمان الحلبي سار من حلب إلى مصر بمجرّد حميته، وطعن كليبر بخنجر فقتله، فأنقذ الإسلام من عدوّ كبير. فخلفه الجنرال «مَنُو» فانكسر، وأخيرًا تمَّ الاتّفاق سنة ١٨٠١ على إخلاء الفرنسيس للديار المصرية.

---

(١) الصرب. [المحقق]

(٢) اغتنمت. [المحقق]

وكان السلطان راغبًا جدًّا في عقد الصلح، وذلك لأنَّ الفتوق كانت متوالية من كلّ جهة، فالانكشارية عصوا في بلغراد واستولوا على القلعة. وكانت عصائب من الأشقياء تعيث في بلاد البلغار، ومكدونية. وكان السربيون بقيادة "قره جورج"، جدّ العائلة المالكة اليوم، قد رفعوا لواء الثورة. وكان "علي باشا تبلني" المتغلّب على يانيا قد أعلن استقلاله عن الدولة، وكان الوهابيون قد غزوا الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين، وكانت في نفس العاصمة ثورة أحدثها الانكشارية بالاتّفاق مع العلماء بسبب التشكيلات العسكرية التي قام بها السلطان سليم مقتديًا فيها بالجيوش الأوربية، وقد أطلق عليها اسم "النظام الجديد" فوقع القتال بين الانكشارية والنظام الجديد، وانتهى الأمر بغلبة الانكشارية.

وفي ذلك الوقت رجع التقارب بين تركيا وفرنسا، وأرسل بونابرت الجنرال "سباستياني" لأجل حمل الباب العالي على محاربة الروسيا، وكان الباب العالي عزل أميرَي الفلاخ، ومولداڤيا صنيعتَي الروسيا، فأرسل اسكندر الأول قيصر الروسيا عسكرًا احتلّ تينك الإمارتين وأعلنت الحرب.

ثمَّ لم تكفِ الثورات الداخلية. والفتن والحرب مع الروسيا، حتّى جاء الإنكليز يطلبون من الدولة أن تعقد تحالفًا مع الروسيا وإنكلترة، وأن تعلن الحرب على فرنسا، وتطرد الجنرال سباستياني الذي أرسله بونابرت إلى الأستانة، وأن تتخلّى عن الفلاخ ومولداڤيا للروسيا. وقد طلبوا أن يتسلّموا الدردنيل والأسطول العثماني. فأبى الباب العالي قبول هذه الشروط، ودخل الأسطول الإنكليزي من الدردنيل الذي كانت حصونه ضعيفة جدًّا بسبب إهمال الأتراك لها. وكان الأسطول العثماني أمام غاليبولي فأحرقه الإنكليز، ولمّا وصل الخبر إلى الأستانة عوّل رجال الدولة على الاستسلام لإدارة الإنكليز والروس، وأشاروا على السلطان سليم بترك كلّ مقاومة، إلاّ أنَّ الانكشارية والأهالي ثاروا عليهم، وأجبروا السلطان على المقاومة واستفاد من ذلك الجنرال سباستياني والفرنسيس، وانضمّ إليهم سفير أسبانيا، وحرّضوا الأهالي على القتال، وابتدأت التحصينات بالعاصمة بينما الأميرال الإنكليزي دو كنورت يتفاوض مع رجال الديوان في شروط الصلح. فما مضت خمسة أيام حتّى كانت الحصون قد ترمّمت وصار فيها تسعمائة مدفع، وكان ناظر البحرية من حزب المقاومة مخالفًا لزملائه، فجهّز عشر بوارج وأعدّها للقتال. فلمّا رأى الأميرال دو كنورت أنه بهذه الأيام الخمسة التي أضاعها في المفاوضات الصلحية أصبحت الأستانة في

منعة عظيمة، خاف على أسطوله فأسرع بمفارقة اللآستانة، وبينما هو عابر الدردنيل أطلقت عليه الحصون مدافعها فأغرقت له بارجتين وأهلكت ستّمائة بحري.

فغضب الإنكليز وأرادوا الاستيلاء على الديار المصرية؛ وكانت الدولة قد أرادت التخلّص من المماليك فثاروا عليها وتغلّبوا على خسرو باشا في دمياط.

محمَّد علي باشا

وكان هناك قائد ألباني اسمه «محمَّد علي» من ذوي التدبير استفاد من سوء إدارة المماليك، واستجلب إلى ناحيته عواطف الأهالي، فصار له حزب عظيم وثاروا على المماليك، وثاروا أيضًا على خسرو باشا، الوالي من قِبل الدولة، وسفّروه إلى الأستانة. فأرسلت الدولة مكانه خورشيد باشا، فأراد هذا أن يتخلّص من محمَّد علي فلم يقدر عليه بسبب انتصار الأهالي له. وألحّ المصريون على الدولة بتولية محمَّد علي على مصر، فرضيت الدولة بذلك تسكينًا للفتنة، وأصدرت الفرمان بولاية محمَّد علي، على أن يدفع لها خراجًا سنويًّا سبعة ملايين فرنك، وكان ذلك سنة ١٨٠٥. فاتّفق المماليك تحت رئاسة «محمَّد بك الألفي» مع الإنكليز وشرع الفريقان بمحاربة الدولة، واحتلّ الجنرال «فريزر» الإنكليزي الإسكندرية سنة ١٨٠٧ إلاّ أنَّ محمَّد علي لم يكن على طراز المماليك في الإهمال، فتغلّب على الإنكليز، واسترجع الإسكندرية، وأعلنت الدولة الحرب على إنكلترة وجرت معركة بحريّة هائلة بين الأسطول العثماني والأسطولين الإنكليزي والروسي على باب الدردنيل.

وفي ذلك الوقت عادت الثورة إلى الأستانة، وكان الصدر الأعظم غائبًا مع أعوانه الوزراء في سدّ الفتوق البعيدة فتولّى الأمر قائمقام الصدارة، فخان السلطان وأفسد بين الجند، فهاجموا القصر وطلبوا من السلطان أن يسلّمهم سبعة عشر شخصًا من رجاله ليقتلوهم. وكان السلطان توقّف عن مقابلة الانكشارية بالعسكر الجديد تحرّجًا من سفك الدماء بين عساكره، ولكنّه لم يشأ أن يوافق على تسليم رجاله للقتل، وفي مقدّمتهم «البُستانجي باشي» الذي عندما رأى استفحال الثورة وإحاطة الانكشارية والجيش المسمّى «يَمَك» بالقصر أراد أن يستسلم إليه ليقتلوه ويخلص مولاه السلطان من هذا المأزق وأخذ السيف يعمل في جميع أنصار الإصلاحات الجديدة ثمَّ ازداد تمرّد الجند حتّى طلبوا خلع

السلطان سليم نفسه، فاستفتوا شيخ الإسلام قائلين له: إذا كان السلطان مخالفًا لأحكام القرآن فهل يجوز بقاؤه على عرش السلطنة؟ فأجاب شيخ الإسلام: كلاّ، والله أعلم بما يجب. وكان رئيس الثورة رجلاً يقال له "قاباقتِجي أوغلو" فاستند على هذه الفتوى وخلعوا سليم الثالث.

السلطان مصطفى الرابع

وبايعوا مصطفى بن عبد الحميد الأول، ودخل شيخ الإسلام فأبلغ السلطان سليم فتوى الخلع وإرادة الشعب. فتلقّى السلطان سليم هذا الأمر بالصبر الجميل، واعتزل جانبًا وأخذ يقضي أوقاته في تعليم محمود ابن عمّه الذي تولّى السلطنة فيما بعد بأَسم محمود الثاني. ولمّا وصل الخبر إلى الانكشارية على نهر طونة زاطوا فرحًا، وثاروا على الصدر الأعظم وجعلوا مكانه شلبي مصطفى باشا.

وصار الحكم في استانبول لشيخ الإسلام، وقائمقام الصدارة، ولكن لم يطل الأمر حتّى وقع الخلف بينهما واستفاد "قاباقتجي أوغلو" من ذلك فانحاز إلى شيخ الإسلام وأسقطا الصدر الأعظم فقام مقامه طيّار باشا فاختلفا معه أيضًا فأسقطاه فالتجأ إلى مصطفى باشا البيرقدار، والي رُسجق. وكان البيرقدار من حزب السلطان سليم، فقرّر أن يزحف إلى الأستانة ويخلّصها من هذه الفوضى ويردّ سليمًا إلى السلطنة. فأرسل من قبله سعاة إلى الصدر الأعظم ـ وكان الصدر مصطفى شلبي ـ فأكّد له أنَّ كلّ مراده تخليص الأستانة من شيخ الإسلام وقاباقتجي أوغلي، فوافق الصدر على ذلك، ومالأهم السيِّد علي، ناظر البحرية، وزحف البيرقدار بستّة عشر ألف عسكري على الأستانة، فلمّا علم السلطان مصطفى الرابع بهذه الحركة صدر أمره بعزل شيخ الإسلام وأعوانه، وحلّ نظام عسكر اليَمَك. وكان مصطفى البيرقدار على باب الأستانة، فأظهر رضاه وظنّ السلطان مصطفى أنَّ الفتنة قد انقضت، وذهب إلى كوشك كوك صوتنيزّه ولكن البيرقدار كان ناويًا أن لا يرجع حتّى يردّ السلطان سليمًا إلى السلطنة، فهاجم القصر واتّفق الانكشارية معه، وبلغ السلطان مصطفى ذلك فرجع إلى القصر، وأرسل إلى البيرقدار يقول له ليتمهّل فإنَّه لا يلبث أن يخرج إليه السلطان سليم. وفي الوقت نفسه أمر مصطفى الرابع جماعة من رجاله بقتل سليم الثالث، وكان السلطان سليم قويّ البنية موفَّق العضلات، فصرع جملة

ممّن هاجموه قبل أن سقط قتيلاً. ولمّا قيل للسلطان مصطفى أنه قد قُضي عليه جاء ونظر إليه، وقال: قولوا لباشا روسجق ليأخذ الآن السلطان سليم الذي يريده، وكان البيرقدار ويقال له أيضًا "العَلَمدار" قد دخل القصر عنوةً، فرأى السلطان سليم مدرجًا بدمائه فصاح وَيْ أفندم. وأخذ يلطم نفسه ويبكي. فقال له سيِّد علي، ناظر البحرية: ليس لباشا روسجق مصطفى العلمدار أن يبكي بكاء النساء، فلندع البكاء ولنقتصَّ من قتلة السلطان السليم ولنخلّص السلطان محمود الذي يجوز أن يُقتل أيضًا. فرجع البيرقدار إلى رشده وخلع السلطان مصطفى وحبسه.

السلطان محمود الثاني

وبايع أخاه محمودًا بالسلطنة وذلك في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٨.

وفي سنة ١٩١٧ طفت أنا محرِّر هذه السطور مع بعض زملائي نوّاب الأمّة العثمانية في قصر طوب قبو مقرّ السلاطين العظام قبل أن صاروا يسكنون في قصر "طولمه بغجه" وكشك "يلدز" وكان يدلّنا على آثاره التاريخية، وأقسامه الكثيرة المدهشة، المؤرّخ أحمد رفيق بك. ولمّا وصلنا إلى الغرفة التي قُتل فيها السلطان سليم الثالث، رحمه الله، دلّنا على المكان الذي سقط فيه صريعًا، وهو لا يزال معروفًا إلى الآن. وبهذه المناسبة روى لنا حادثة مصطفى العلمدار هذه بتفاصيلها، وقال: إنَّ الذين قتلوا السلطان سليمًا أرادوا قتل السلطان محمودًا أيضًا بحيث لا يبقى غير السلطان مصطفى فيضطرّ العلمدار إلى قبول سلطنته، فإنَّه كان لم يبقَ إلاّ سليم ومصطفى ومحمود، فجماعة مصطفى بعد قتل سليم جاسوا خلال القصر ليجدوا محمود ليقتلوه، فكان الجواري أخذن محمود وخبّأنه في مدخنة لم تخطر على بال القتلة، فبقي مختبئًا في هذه المدخنة إلى أن قبض مصطفى باشا البيرقدار على السلطان مصطفى، فأخرجوا محمودًا من المدخنة وبايعوه سلطانًا. ولو لم يوجد محمود لكانوا مضطرّين أن يبقوا طائعين للسلطان مصطفى. قال لنا رفيق بك، إنَّه أدرك جارية عاشت طويلاً، وماتت في زمان السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود، وكانت تقصّ له كيفيّة قتل السلطان سليم الثالث لأنها شهدت ذلك عيانًا.

ولمّا تولّى السلطان محمود الثاني ولّى البيرقدار مقام الصدارة العظمى، فبدأ هذا بقتل جميع أعوان السلطان مصطفى، وزعماء عسكر اليَمَك. وانفرد البيرقدار بالأمر والنهي

وعقد مجمعًا من جميع الأعيان والوزراء، وأوضح لهم وجوب إصلاح أوجاق الانكشارية وتأسيس جيش يضارع الجيوش الأوربية في تعليمه ومعدّاته. وقال الصدر الأعظم إنَّه هو من جملة الانكشارية، وهو يفتخر بكونه من هذا النظام، ولكنّه يرى أنَّ هذا النظام قد فسد، وأنه كان نظامًا لا يُغلب لو لم ينحرف عن جادة تعاليم الحاج بيكتاش. ولكن هذا الجيش بعد أن كان مدّة قرون هو عماد السلطنة، وكان العالم يرتجف خوفًا منه، آلَ من الفساد إلى أن فقدَ كلّ مزاياه القديمة، ونسي جميع القوانين التي كان فرض عليه العمل بها السلطان سليمان القانوني، وصار الترقّي فيه بالرشوة وصارت الرّتَب تحت المزاد، وعمَّ الجهل بالفنون العسكرية فانحطّت منزلة هذا الجيش انحطاطًا عظيمًا، ولذلك فقد أمرني السلطان بأن أستأصل جميع هذه المفاسد من أوجاق الانكشارية، وأن أجبر جميع الانكشارية غير المزوّجين على السكن في الثكن العسكرية، وأن لا أدفع رواتب إلاّ للانكشارية المقيمين في الثكن، وأن أمنع بيع الجرايات والرواتب، وأن أوجب على جميع الانكشارية التقيّد بتعاليم السلطان سليمان واتّباع الطرق العصرية الأوربية التي أفتى العلماء بوجوب اتّباعها، كما أنَّ مولاي السلطان عازم على تأسيس جيش جديد من شبّان المسلمين، ومن أنفس الانكشارية يتلقّى الطرق العصرية الأوربية التي يمكّنه أن يقاتل بها الكفّار بنجاح، هذا مع المحافظة على نظام الطاعة والاتّحاد الذي كان عند الانكشارية القدماء.

فوافق جميع الوزراء وأعيان السلطنة على هذا القرار، وأفتى شيخ الإسلام بوجوبه وظنّ الناس أنَّ كلّ شيء قد انتهى.

إلاّ أنَّ فوز البيرقدار كان عظيمًا إلى حدّ أن غصَّ به النظراء، وصاروا يتربّصون به الدوائر. وكان قد أغضب العلماء باحتقاره إيّاهم، وبعزمه على التصرّف بأوقاف المساجد، وارتكب البيرقدار خطيئة تبديد الجيش الذي دخل به الأستانة؛ فإنَّه كان أرسل منه اثني عشر ألفًا إلى مدينة «فيلبّه» لقتال «مولاّ أغا» الثائر بها فلم يبقَ عنده إلاّ سبعة آلاف لم يكونوا بقوّة كافية ليمنعوه من أعدائه، فزحف الانكشارية إلى القصر لينقذوا السلطان مصطفى الرابع ويردّوه إلى السلطنة، فقابلهم البيرقدار بشرذمة من العسكر الجديد فلم يقدر عليهم لتفوّقهم في العدد، فقتل السلطان مصطفى ورمى إليهم بجثّته فازدادوا حنقًا، وأحرقوا جانبًا من القصر، ودخلوا وأوشكوا أن يقبضوا عليه وعلى أعوانه، فلجأ إلى مخزن البارود ووضع فيه النار، فهلك هو وأعوانه تحت أنقاض مخزن البارود، ولم يشأ أن يستسلم إلى أعدائه.

وانتصر للعلمدار رامز باشا، ناظر البحرية، ورمى الانكشارية بالقنابر، وأسرع قاضي باشا بثلاثة آلاف من الجند للمحافظة على شخص السلطان، وأخذ الانكشارية يتراجعون، وأراد رامز باشا أن يعلن العفو إلاّ أنَّ قاضي باشا خالفه في هذا الأمر وأصرَّ على الانتقام. فلمّا رأى الانكشارية أنهم قد أحيط بهم حلَّ بهم اليأس فوضعوا النار بالبلدة وهي كما لا يخفى مبنيّة بالخشب، فكادت النار تلتهم جميع الأستانة لتشاغل الناس بالفتنة عن إطفاء الحريق.

ثمَّ إنَّ رامز باشا وقاضي باشا وأعوانهما عندما علموا أنَّ البيرقدار قد هلك في مخزن البارود سُقط في أيديهم، وفرّوا إلى رسجُق وأرادوا هناك المقاومة فلم يتمكّنوا فالتجأ رامز باشا إلى بطرسبرج لأنَّ أصله من القريم وفرّ قاضي باشا وبهيج أفندي من أعوانه إلى بلاد القرامان فوقعا في أيدي أعدائهما وقُتلا. وقد زعزعت هذه الثورة أركان السلطنة، فاضطرّت الدولة إلى عقد الصلح مع الإنكليز، فانعقد في ٩ يناير سنة ١٨٠٩ أمَّا مع الروسيا فلم يمكن عقد الصلح، وزحف الروس وأخذوا «برايلا» على الدانوب، وكسروا العثمانيين أمام «سيليسترية». ولكن لم يقدروا على القلعة ودارت السنة الثانية والصدر الأعظم معتصم بقلعة «شُمله» لكنّه لا يقدر أن يحمي البلاد. فاستولى الروس على «سيليسترية» و«رسجُق» و«بيقوبوليس» و«بزارجق» فجعلت الدولة أحمد باشا صدرًا أعظم فزحف بستّين ألف مقاتل على الروس وأجبرهم على إخلاء رسجق.

وفي ذلك الوقت أعلنت فرنسا الحرب على الروسيا فاضطرّ قيصر الروسيا إلى طلب الصلح من الباب العالي، فانعقد الصلح في ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ وصار «نهر البروت» هو الحدّ الفاصل بين المملكتين، ولم يبقَ في أيدي الروس سوى أفواه الدانوب، وقسم من بسّارابيه. وندم السلطان على عقد هذه المعاهدة لأنَّ الناس نبّهوه فيما بعد إلى أنَّ الروسيا لم يكن لهم مناص من قبول جميع شروطه، وأنَّ وزراءه أضاعوا الفرصة فعزلهم، وتُسمّى هذه المعاهدة بمعاهدة «بخارست».

ولمّا تولّى محمود الثاني كانت السلطنة في الداخل ممزّقة تمزيقًا، فكان آل شعبان أوغلو حاكمين في شمالي الأناضول، وكان آل قره عثمان أوغلو متغلّبين على البلاد المجاورة لأزمير. وكان في سَرَس من مقدونية وفي فلبّه من تراقية أمراء أصحاب جيوش وقوّة ومنعة لا يخضعون تمام الخضوع للحكومة، وكانت بلاد العرب في أيدي الوهّابيين وكانت مصر

في يد محمَّد علي، وكانت بلاد السرب ثائرة، وكان علي باشا، والي يانيا، مستأثرًا ببلاد تساليا وأبيروس. وكان «مولاّ أغا» غالبًا على وِدين، فأخذ السلطان محمود يعالج أمراض السلطنة، فرمى الوهّابيين بمحمَّد علي، والي مصر، فساق عليهم جيشًا بقيادة ولده طوسون باشا، فتغلّب الوهّابيون على هذا الجيش في الحجاز، ولكن توالت النجدات من محمَّد علي فهزم الوهّابيين.

ثمَّ صارت الحرب سجالاً بين الفريقين، ثمَّ أرسل محمَّد علي ولده ابراهيم باشا فبعد حروب شديدة حصر الوهّابيين في الدرعية، واستولى عليها عنوةً، وأخذ الأمير السعودي أسيرًا وأرسله إلى أبيه ومعه ولده. فمحمَّد علي أرسلهما إلى استانبول، وقال لهما: إنَّني أوصيت الدولة بكما ليحسنوا معاملتكما. فقال له ابن سعود: يكون ما أراد الله. ولكن لمّا وصل الأمير وابنه إلى الأستانة شنقتهما الدولة. وكان محمَّد علي قد ذبح المماليك واستأصلهم جميعًا في القطر المصري، وبعد أن استراح فكره منهم وجّه همّته إلى إصلاح مصر، وقام بأعمال مدهشة بحيث يمكن أن يقال إنَّه من أعظم مُصلحي الشرق، بل مصلحي العالم لأنه بعث مصر من قبرها، وأنقذها من عيث المماليك، وأنشأ لها جيشًا عظيمًا على طراز الجيوش الأوربية، واعتمد في تدريبه على ضبّاط من الفرنسيس وأنشأ أسطولاً عظيمًا، ودار صنعة بحريّة، ومعامل للسلاح، وبنى مدارس، وأرسل طلبة يحصّلون العلم في أوربا، واحتفر ترعة بين الإسكندرية والقاهرة وفتح محمَّد علي السودان، وكان في الحقيقة ملكًا مستقلاً لولا الخراج السنوي الذي كان يدفعه للدولة.

وفي ذلك الوقت ثار الصرب على الدولة لسببين؛ أحدهما نزوعهم الطبيعي إلى استرداد ملكهم، والثاني سوء الإدارة وظلم العمّال لهم. فلمّا انتقضوا أراد الوالي أن يسكّن الأمور باللطف وحسن السياسة فجاء الانكشارية وذبحوا الوالي، وقتلوا من السربيين عددًا كبيرًا. وكان المجر والنمسويون يساعدون السربيين، وامتاز بين السربيين رجل اسمه «جورج» لقّبه الأتراك بـ «قره جورج» أي الأسود. وكان صارمًا جدًّا، فاعصوصب حوله جماعة من السربيين وأرادوا عبور نهر «الساف» لينضمّوا إلى النمساويين، ويقاتلوا العثمانيين. وكان والد قره جورج غير راغب في الثورة، فراود ابنه على الرجوع فأبى، فتنازعا وانتهى الأمر بأنَّ الولد قتل الوالد. وامتدّت الثورة واستولى قره جورج على «شاباتس» و«سَمَندرية» فأرسلت الدولة جيشًا للتنكيل بهم وعزّزته بجيش ثانٍ، ولكنّهم

لم يقدروا على قمع الثورة. وكان القائد ابراهيم باشا تراضى مع السربيين على إعطائهم الاستقلال الداخلي تحت سيادة السلطان، وأن تقيم الحاميات العثمانية في المدن، فأبى الباب العالي تصديق هذا الصلح فاستؤنف القتال بشدّة وحصر السربيون بلغراد وكان فيها سليمان باشا. فلمّا أوشك أن يسقط اتّفق معهم على الخروج بجيشه وتسليم البلدة، ولكن لمّا خرج نكث السربيون بالعهد وقتلوه مع جميع العساكر التي معه. ثمَّ أرسلت الدولة جيوشًا للانتقام من السربيين، فكانت الحرب سجالاً. وازدادت شهرة قره جورج بين السربيين واستبدّ بالأمور فوقعت المنافسة بينه وبين كثير من أقرانه، واستفادت الدولة من هذا الخلاف فساقت العساكر واسترجعت بلغراد وبدّدت شمل السربيين.

وفرَّ قره جورج إلى بلاد المجر، ورجع الحكم إلى الأتراك، فبدأوا هم والأرناؤوط بالانتقام من السربيين، وقتلوا ونهبوا. فعاد السربيون وتألّبوا وثاروا ثورة ثانية وتجدَّد القتال بشدّة. وكان "ميلوش أوبرنوفيتج"، من زعماء السربيين، قد عرض على القوّاد العثمانيين الصلح على شرط العفو العامّ، وتأليف مجلس من ١٢ عضوًا ينتخبهم الأهالي ويكون على يدهم توزيع الضرائب، وتكون بلاد السرب متمتّعة باستقلالها المدني والديني والقضائي، ويكون لها أمير، وأن يبقى في بلغراد قائد عثماني ومعه حامية. فانتُخب أوبرنوفيتج أميرًا، وصار بيده الأمر والنهي. ولم يبقَ في يد الوالي التركي من الولاية إلاّ الاسم. وبلغ قره جورج خبر هذا الاتّفاق بين الدولة وأوبرنوفيتج فثار به الحسد، وجاء إلى بلاد السرب أملاً بإشعال الثورة فوصل إلى سمندرية فلمّا علم به أوبرنوفيتج أرسل إليه من قتله غيلة، وبعث برأسه إلى الأستانة. فنصبت الدولة رأسه على حائط القصر وفوقه كتابة "هذا رأس الشقي قره جورج".

هذا ما كان من أمر السرب؛ فأمّا علي باشا التَّبَليني فكان أرناؤطيًّا وكان أبوه رأس عصابة فورث العيث والفساد في الأرض عن أبيه. ولكنّه كان داهية حكيمًا وبطلاً مغوارًا معًا. ولم يكن عنده وجدان يردعه عن شيء. فدخل في خدمة الدولة وأقنع ولاة الأمور بتوليته "ترحالة" و"تَبالين" أولاً، وسمت نفسه إلى الاستيلاء على يانيا، فبثّ في أطرافها عصائب من قطّاع الطرق أقلقوا راحة الأهلين، وبعث من جهة أخرى إلى الدولة يعرض عليها أن تولّيه يانيا وأنه يعيد الأمن إلى نصابه فقبلت الدولة اقتراحه وولّته يانيا، وكانت فرنسا استولت على جزيرة كورفو وأخواتها فخدع علي باشا ضبّاط الفرنسيس ونال منهم الإذن بالملاحة في بحر كورفو. ولمّا نشبت الحرب بين الدولة وفرنسا زحف علي باشا على

الفرنسيس واستولى على فونيتزة وبريفيزة. ثمَّ وجّه قوّته إلى محو الإمارات المسيحية التي بين بلاد اليونان وبلاد الأرناؤوط ولا سيّما جمهورية «شولي» فقهرهم بعد أن أعمل الحيل والمال والسيف لذلك وبعد هذا حاز علي باشا، والي يانيا، شهرة عظيمة، ولقّبته الدولة بوالي الروماللي. ثمَّ أعطت ولديه «ولي» و«مختار» باشويتي المورة، وضمّت إليه بشوية بَراة. ثمَّ إنَّه كان في أبيروس بلدتان لا تزالان مستقلّتين، وهما «أرجيروكاسترو» و«كارديكي» فشنَّ عليهما الغارة واستأصل أهاليهما، ولا سيّما أهالي كارديكي.

وكان له في ذلك ثأر قديم غريب الشكل. وذلك أنَّ أمه «خاميكو» بعد وفاة أبيه تولّت قيادة العصابة محلّ زوجها، فوقعت في إحدى المرّات في أيدي أهل كارديكي هي وابنتها «شاميتزه» فارتكبوا فيهما الفاحشة، فاستحلفت ولدها عليًّا الذي كان قاصرًا أنه متى بلغ رشده يأخذ بثأر أمّه وأخته من أهل كارديكي. فلم ينسَ عليّ هذا الثأر، ولمّا وقع أهل كارديكي في يده بحث عن الذين اعتدوا على عرض أمّه وأخته فنظمهم بالسفافيد وشواهم على النار كما يُشوى لحم الغنم ولكن المذابح التي أجراها علي أثارت عليه السخط العامّ، وبدأت الدولة تخشى غائلته فأرسلوا إليه من استانبول مَن يقتله فكان بحزمه ويقظته يطّلع على ذلك، فلم يصل أحد من المرسلين لقتله إلى يانيا، بل كان يأخذهم السيف في الطريق قبل وصولهم، وكان جمع أموالاً عظيمة لأنَّ البلاد التي تولاّها كانت مملكة فيها عدّة ملايين، وبقي واليًا عليها نحوًا من ستّين سنة، فتمكّنت قدمه إلى حدّ أنه أصبح لا يعبأ بطاعة السلطان.

وكان أحد المقرّبين إلى علي باشا واسمه اسماعيل باشو قد اختلف معه؛ وجاء فعرض للسلطان جميع ما يعلمه من مظالم علي وأقنع السلطان بعزل ابن علي باشا عن ولاية المورة، فلمّا علم علي باشا بالخبر أرسل إليه مَن يقتله، فهجم الجُناة على اسماعيل باشو على باب جامع أيا صوفيا ولكنّهم لو يوفّقوا لقتله، فقبضوا عليهم واستنطقوهم فأقرّوا بأنهم مرسَلون من قِبل علي باشا. فغضب السلطان غضبًا عظيمًا وولّى اسماعيل باشو على يانيا، ودلفينو، وسرّح معه جيشًا عظيمًا لقتال علي باشا، فلمّا علم علي باشا بأنه لم يبقَ له أمل في عفو السلطان أجمع المقاومة، وحاول أن يستجلب المسيحيين الذين في بلاد اليونان، والأرناؤوط إلى صفّه واعدًا إيّاهم بالتحرّر من حكم الأتراك.

فأجاب بعضهم نداءه وامتنع البعض الآخر. فأمّا الذين التفّوا حوله فسكّان الجبال من

اليونان الغربية ومن تسّاليا، وكان في مقدّمتهم أساقفتهم. وأمّا الذين رفضوا الانضمام إليه فالكاثوليك من الأرناؤوط، لأنه لم يكن لهم ثقة به غير أنه بسبب سوء إدارة اسماعيل باشو انضمّ أكثر المسيحيين إلى علي باشا. وبدأت الحرب فانكسر علي باشا في البداية وذلك في تسّاليا وانحاز اثنان من قوّاده عمر فريّون وطاهر عباس في خمسة عشر ألفًا من الجنود إلى العسكر السلطاني. وخان عليًّا أولاده الثلاثة وسلّموا القلاع التي في أيديهم إلى الدولة، ولمّا بلغه خيانة أولاده له نادى أنهم ليس لهم حقّ أن يرثوه، وقال إنَّه لا يعرف له أولادًا غير الذين هم أنصاره، ولم يبقَ مع علي باشا سوى ثمانية آلاف مقاتل كانوا من نخبة جنوده وبينهم رجال مدفعيّة ماهرون، فوقف بهذه القوّة أمام عشرين ألف مقاتل من عسكر الدولة كانوا أحاطوا بمدينة يانيا، وشرع علي باشا يراسل المسيحيين الذين مع جيش الدولة، وفتح خزائنه لهم، وبثّ الدعاة إلى الثورة في جميع بلاد اليونان، وكذلك في بلاد رومانيا. ثمَّ لجأ إلى حيلة أخرى لأجل استجلاب النصارى إلى صفّه وهو أنه زوَّر كتابًا زعم أنه ورد إليه من خالد أفندي، أحد مقرّبي السلطان، يقول له فيه: إنَّه في الربيع القادم يجب القيام بقتل عامّ يستأصل فيه جميع المسيحيين القادرين على حمل السلاح وتُسبى نساؤهم، ويؤخذ أولادهم المراهقون لينشأوا في الديانة الإسلامية. فصدّق النصارى هذا المكتوب المزوّر، وثاروا بأجمعهم وفي مقدّمتهم أهالي "جمهورية شولي" وانحازوا إلى علي باشا ومعهم كثير من الأرناؤوط المسلمين، فتزعزعت مراكز الأتراك ونسبت الدولة عدم النجاح إلى سوء تدبير اسماعيل باشو فعزلته وعهدت بالقيادة إلى خورشيد باشا وذلك سنة ١٨٢١ فسار خورشيد باشا بعشرة آلاف من بلاد اليونان قاصدًا يانيا. فلمّا وصل إلى "لاريَّسا" بلغه أنَّ أهالي مدينة "باتراس" رفعوا لواء العصيان، فأمر بنزع السلاح من أيديهم وتغريم المسيحيين جميعًا، فبدأت من ذلك الوقت ثورة اليونان. وكان أهالي الجزر اليونانية لم يفقدوا قوّة المقاومة في وجه الأتراك، وكذلك أهالي الجبال الغربية من بلاد اليونان فإنَّهم كانوا حفظوا نوعًا من الاستقلال الداخلي. وكان لهم جند وطني يقال له "الأرماتوليس" - ومعنى هذه اللفظة الرجل الشاكي السلاح - وكان الأرماتوليس الذين في الجبال لا يخضعون للدولة إلاّ قليلاً، فأرادت الدولة أن تخضد(١) شوكتهم، وشكّلت بإزائهم قوّة مسلّحة من الأرناؤوط المسلمين بقيادة الأتراك يقال لها "درفتد باشا" فتنبّه الأروام إلى أنَّ

(١) تكسر شوكتهم. [المحقق]

مراد الدولة هو استئصال قوّتهم والقضاء على الأرماتوليس فلمّا عصى علي باشا وساقت الدولة عليه الجيش حاول علي باشا أن يستجلب إلى ناحيته هؤلاء الأرماتوليس الذين كان هو من قبل آفة عليهم.

وكانت بلاد اليونان قد استعدّت للثورة، وذلك لأنَّ الأروام أهل حركة ونشاط وهم أقوَم على التجارة والملاحة من كلّ قوم، وكانت ثروتهم قد ازدادت كثيرًا عن ذي قبل بانصرافهم إلى التجارة، وكانوا يجوبون البحار كلّها، وفي كلّ مكان من أوربا تجّار من الأروام، فلا يكاد يخلو منهم مكان. كانوا هم الواسطة بين الشرق والغرب، وكانت الدولة العثمانية نفسها تحتاج إليهم وتستخدم منهم في سفنها وباحتكاك الأروام الدائم مع الأوربيين وحروب الأوربيين مع الدولة العثمانية ازداد نزوع الأروام إلى الاستقلال، وانقسموا إلى قسمين؛ منهم مَن يريد الاستقلال العاجل بقوّة السلاح، وآخرون يرون المصلحة في عدم مقاومة الدولة العثمانية بالسيف، بل بتهذيب الأمّة اليونانية وترقيتها حتّى تنال تدريجًا حقوقها، ويأتي وقت تتحرّر من حكم الترك تمامًا.

وفي سنة ١٨١٣ عندما تألّبت جميع دول أوربا على نابوليون ظنّ الأروام أنَّ دول الاتّحاد المقدّس ستمدّ إليهم يد المساعدة؛ ولكن دول الاتّحاد المقدّس كانت تكره تحرير الشعوب لمخالفته لمباديها، فخاب أمل اليونان فيها. ثمَّ إنَّ علي باشا التَّبَليني كان قد ضرب التجارة اليونانية ضربة شديدة باستيلائه على مرافئ أبيروس وألبانيا، فعند ذلك اتّحد اليونان من تّجار رأوا كساد تجارتهم، وضبّاط تدرّبوا في الجيوش الأوربية، وناشئة تعلّموا في مدارس أوربا؛ أنه لا خلاص لبلاد اليونان إلاّ بالثورة العامّة. وكما يحصل في جميع الأمم المقهورة تألّفت الجمعيّات السرّية ودخل فيها ألوف من الأروام، وتألّفت شُعَب لهذه الجمعيّات السرّية في أوربا وفي نفس القسطنطينية، ويقال إنَّه كان في القسطنطينية عاصمة تركيا ١٧ ألف شخص تابعون للجمعيّة المركزية، وكانوا مطّلعين على كلّ شيء. وكانت لهم في بلاد رومانيا وبسّارابيا جمعيّات تعمل بالاتّحاد مع الأروام، فتنبّهت تركيا لهم وبطشت بكثير منهم. وكان أهالي باتراس في بلاد اليونان قد ثاروا بالسلاح على الحامية التركية، وانتظروا أن تأتيهم نجدة من الروس. وكان الثوّار نحوًا من عشرة آلاف، فساقت الدولة جيشًا مزّق شملهم فاعتصموا بالجبال، وامتدّت حركة العصيان في الجزر اليونانية، وبلغت الحماسة من الأروام أنَّ امرأة اسمها بوبولينه جهّزت بمالها ثلاث بوارج حربية وتولّت قيادتها، ووجد من أغنياء اليونان عدد كبير نزلوا عن كلّ ثروتهم لأجل ثورتهم.

وكان أحد القضاة من الأتراك آتيًا مع حرمه في سفينة من مصر إلى الأستانة فظفر اليونان بالسفينة وأهانوا القاضي وضربوه، ويقال إنَّهم اعتدوا على عفّة زوجته، ثمَّ تركوا السفينة تمضي إلى الأستانة. فلمّا وصلت شاع خبر هذا الاعتداء في العاصمة وكانت صدور الأتراك قد امتلأت وغرًا من أخبار الثورة اليونانية، فهاج الشعب التركي وهجموا على دار البطريركية وذبحوا البطريرك غريغوريوس مع ثلاثة من الأساقفة وقتلوا ألوفًا من الأروام. واحتجّ سفراء الدول الأوربية على هذه المجزرة، فأجابتهم الدولة بأنَّ دول أوربا كلّها تقتصّ من جميع الذين يكيدون عليها بلا استثناء، فأيّ حقّ لها في الاعتراض على الذين يأتمرون بسلامة الدولة العثمانية؟ وفتك الأتراك بالأروام في مقدونيا وتراقيا الأناضول. وقيل إنَّه هلك ثلاثون ألفًا رومي منهم ثمانون أسقفًا.

ولمّا وصلت أخبار هذا الانتقام إلى بلاد اليونان؛ اشتدّت الثورة وانتُخب "ديمتريوس إبسيلَنتي" في مدينة "هيدرة" قائدًا عامًّا للثورة. ولكن الجيوش العثمانية كانت دوّخت "مون بازي" و"ناڤارين" وحصرت "باتراس" و"نابولي" و"تريپوليتزة" وغيرها، وأرسل خورشيد باشا وهو يحاصر يانيا عساكر طهّرت كثيرًا من البلاد اليونانية من الثوّار، ولا سيّما في "آرثة" إلاّ أنَّ اليونان ذبحوا من الأتراك في تريپوليتزة ١٢ ألف نسمة، ثمَّ وقع الخلف بين الأروام أنفسهم فكانوا ثلاثة أحزاب كلّ منها يخالف الآخر في آرائه، وكان علي باشا لا يزال يدافع عن يانيا وخورشيد باشا يحاصره إلى أن تمكّن خورشيد من الاستيلاء على قلعة يانيا، ففرّ علي باشا إلى بحيرة يانيا واعتصم بجزيرة في وسط البحيرة حيث يوجد برج فيه مخزن بارود جلس فيه ناويًا إذا وصل إليه العدوّ أن يضع النار في البارود فيطير هو والعدوّ معًا ولكن بقيّة عساكره لم يطيعوه فاضطرّ إلى قبول شروط الصلح التي عرضها خورشيد باشا، وأقسم له هذا على المصحف الشريف بأنه إذا استسلم يسلم، فلمّا استسلم أمر خورشيد باشا الجند بقتله، وكان ذلك الشيخ لم يفقد شيئًا من بأسه، فلمّا هجموا عليه أعمل فيهم النار ثمَّ هجم بيطقانة، وما زال يصارعهم حتّى وقع قتيلا، وكان ذلك في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢.

أمّا الأروام فضجروا من الشقاق، وعقدوا مؤتمرًا في "أپيدور" وأعلنوا استقلال اليونان، وذلك في أول يناير سنة ١٨٢٢ وأعلنوا الحرّية الدينية، واحترام الملك الشخصي، والمساواة التامّة أمام القانون، وانتخبوا مجلسًا يقال له مجلس الشيوخ مؤلّفًا من واحد وخمسين عضوًا ينوب كلّ واحد منهم عن مقاطعة، ولهذا المجلس لجنة إجرائية مركّبة من

خمسة أعضاء، وانتُخب «ديمتريوس إبسيلَنتي» رئيسًا لمجلس الشيوخ، وانتُخب «ماڤروكورداتو» رئيسًا للجنة الإجرائية. ولكن إبسيلَنتي استقال من رئاسة الشيوخ، وأبى كثير من رؤساء العصابات أن يعترفوا بهذا المجلس، ومضوا في أعمالهم، كأنهم غير مرؤوسين.

وكان من أشهر هؤلاء قائد عصابة اسمه «أندروزوز» لم يكن أهالي تيسالية وليڤادية يخضعون لغيره، فهذا الرجل عصى أوامر المجلس فأمر ماڤروكورداتو بعزله عن القيادة وأعلن خيانته. ولمّا سقط علي باشا، والي يانيا، ساق خورشيد باشا عساكره إلى بلاد اليونان ليقضي على الثورة منتهزًا فرصة الخلاف الذي وقع بين زعمائها، ولكن خورشيد أخطأ في كونه أعلن على الأروام بيانًا مهينًا لهم، وفي أثناء ذلك جاء زعيم أرناؤوطي مسيحي اسمه «بوتزاريس» مشهور بالبسالة ومعه عصابة من نخبة رجاله فانضمّ إلى الأروام واشتدّوا به، وكان هذا الرجل أبيّ النفس شريف المبدأ، فوبّخهم على قتلهم نساء الأتراك وأطفالهم قائلاً لهم: إنّكم بهذه الأعمال لوّثتم القضيّة الوطنية بالعار، وزحف ماڤروكورداتو لقتال خورشيد باشا فانكسر، وانكسر أيضًا زعماء عصائب أخرى، وسقط في أيدي الأروام. ولم تعد إليهم حماستهم إلاّ بعد وصول المتطوّعين الأوربيين وكان خورشيد باشا استولى على «قورنتية» وفرّ رجال الحكومة الوطنية التي تألّفت هناك واستولى اليأس على الأروام ما عدا الزعيم إبسيلَنتي، وزعيمًا آخر اسمه «كولوكوتروني» فهذان بقيا يقاتلان واجتمع إليهما بقايا السيف، وأخيرًا هزما الأتراك في «ستفاني» و«بارباتي» ومات بعد ذلك خورشيد باشا، قيل إنّه سمَّ نفسه من شدّ اليأس، غير أنَّ عمر غريّون استولى على جمهورية شولى، وأجلى أهلها من هناك إلى جزيرة كورفو والجزر التي حولها.

وظهر أنَّ الأروام لا يقدرون أن يقاوموا الدولة العثمانية في البرّ، لكنّهم كانوا على جانب عظيم من القوّة في البحر، لأنَّ مراكب القرصان كانت تملأ بحر اليونان وكانت تتعدّى على الجميع. وكان عدد القرصان الأروام وافرًا جدًّا، وكانت الدول الأوربية تضطرّ أحيانًا إلى تأديبهم، فلمّا حصلت حرب الاستقلال الرومي اجتمع هؤلاء القرصان كلّهم ونصروا القضيّة الوطنية، وصار أكبرهم المسمّى «طومبازيس» ومعه مئة سفينة، وأجبر الأسطول العثماني على عبور الدردنيل راجعًا، وبقي يجول الأرخبيل الرومي، ويجاذب الأسطول العثماني الحبل. فاستنجدت الدولة الأسطول المصري وأرسلت قوّة بحرية عظيمة فتمكّن قرصان الأروام من أن يدهموها على غرّة في عيد رمضان، وأن يحرقوا بارجة قائد الأسطول بدون أن يشعر أحد. فوقع الرعب في سائر الأسطول، ودارت الدائرة عليه.

فارسلت الدولة أسطولاً ثانيًا فلم يقدر على قرصان اليونان، ودخلت سنة ١٨٢٣ والوقائع مستمرّة، والحرب سجال بين الفريقين إلاّ أنه في هذه السنة قُتِل "بوتزاريس" المسيحي الذي يُعد هو و"إبسيلنتي" و"كناريس" أعظم رجال الثورة اليونانية.

ولمّا طالت هذه الثورة ثارت الحميّة في جميع بلاد أوربا لنصرة اليونان، الذين يقاتلون لأجل استقلالهم. وهبّ الشبّان في فرنسا وإنكلترة وألمانيا يريدون التطوّع في هذه الحرب، وتألّفت الجمعيّات لجمع الأموال، واكتتب الناس فيها من كلّ فجّ وأقبل كثيرون من القوّاد والضبّاط يركبون البحر إلى بلاد اليونان وانضمّوا إلى الثوّار وقُتل كثير من هؤلاء المتطوّعين، وكان منهم أفراد من أشرف العائلات النبيلة وقوّاد من المشهورين بالبسالة.

وفي سنة ١٨٢٤ استولى الأسطول المصري على جزيرة "كازوس" وقطع المصريون خمسمائة رقبة من الأهالي، وأرسلوا ألوفًا من الآذان المصلومة إلى الأستانة واستولى الأسطول التركي على "بسارة" ولكن لم يطُل فرح الأتراك هذا فإنَّ السفن اليونانية تغلّبت على الأسطول العثماني وفرّ أمير البحر تاركًا الجنود التي أنزلها في "بسارة" فهجم عليهم الأروام وذبحوهم، فأرسلت الدولة أسطولاً اجتمع مع الأسطول المصري في جزيرة "ساقس" إلاّ أنَّ "ميوليس" اليوناني من أكبر زعماء الثورة تغلّب على الأسطولَين، وفقدَ عددًا من جنودهما. فأرسل السلطان محمود إلى محمَّد علي، والي مصر، يوليه بلاد "المورة" وجزيرة "كريت" ويعهد إليه بقمع الثورة، فأرسل محمَّد علي ولده ابراهيم باشا فأنزل عساكره في المورة سنة ١٨٢٥ واستولى على "ناڤارين" و"كالاماته" وجميع السواحل ما عدا "نابولي" وهزم "كولوكوتروني" في مدينة "تريكورفة" وهزم أبسيلنتي في مدينتَي "ريزس" و"إردوفة" برغم مساعدات المتطوّعين الأوربيين الذين كانوا في صفوف اليونان، وكاد ابراهيم يسحق الثوّار بأسرهم فصاروا يفرّون إلى الجبال ولم يبقَ ثائرًا إلاّ زعيم اسمه "بابا فليشاس" فإنَّ هذا الرجل لم يقدر على ابراهيم ولكنّه ألحق بعسكره خسائر غير قليلة، ولم يبقَ بلدة غير طائعة في بلاد اليونان غير "أثينا" و"ميسولونكي" التي جاء القائد التركي رشيد باشا يحاصرها فدافعت هذه البلدة دفاعًا شديدًا، وكان فيها أربعة آلاف من نصارى الأرناؤوط، وأقبلت عليها النجدات من كلّ فجّ بحيث لم يقدر رشيد باشا على فتح البلدة، فاستنجد ابراهيم باشا فجاء وضيّق الحصار على "ميسولونكي" فاشتدّت المجاعة بالمحصورين حتّى أكلوا الخيل والكلاب، وأخيرًا أجمعوا من

يأسهم على الخروج وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم النساء والأولاد، فقاتلوا قتالاً شديدًا ولكنّهم لم يقدروا على النجاة، فسحقتهم عساكر ابراهيم باشا ورشيد باشا واستولى المسلمون على «ميسولونكي» ومن بعد ذلك ذهب رشيد باشا يحاصر أثينا، حيث اجتمع ألوف من الثوّار ومعهم قوّاد أوربيون فانتصر الأتراك عليهم. ثمَّ أخذت البلاد اليونانية تقدّم الطاعة لابراهيم باشا وكاد ينقطع كلّ أمل من استقلال اليونان الذين أخذ الزعماء منهم يقاتل بعضهم بعضًا، وصارت الحالة عندهم أشبه بالفوضى، فعند ذلك تدخّلت الدول الثلاث فرنسا وإنكلترا والروسيا وطلبت من الدولة ومن الثوّار الأروام توقيف الحرب. فالأروام أسرعوا إلى القبول بطبيعة الحال. وأمّا الدولة فقد رفضت هذه المداخلة في مملكتها، واستمرّت على القتال، فاقترحت الروسيا تقسيم بلاد اليونان إلى ثلاث إمارات تحت حماية أوربا، فرفضت ذلك الدولة واليونان معًا فالدولة رأت في هذا التدبير خروجًا لبلاد اليونان من السلطنة العثمانية، واليونان رأوه تدبيرًا يخالف مبدأ استقلالهم ووحدتهم. وفي ذلك الوقت أي سنة ١٨٢٥ في شهر ديسمبر توفّي القيصر اسكندر وخلَفه ابنه نقولا الأول الذي أجبر تركيا على عقد معاهدة تخوِّل للروسيا حقّ الملاحة في البحر الأسود، وتجعل للفلاخ ومولداڤيا إمارتين ينتخب الأهالي أميرَيهما إلى مدّة سبع سنوات، وتجعل سربيا إمارة مستقلّة استقلالاً داخليًّا تحت سيادة السلطان، وإنَّما تبقى حاميات عثمانية في بلغراد، وثلاث قلاع أخرى، وتدفع للدولة جزية سنوية. ثمَّ قرّرت الدول توكيل إنكلترا والروسيا بإيجاد طريقة حلّ للمشكلة اليونانية، ووافقت النمسا، وبروسيا، وفرنسا على ذلك. فلمّا خاطبت إنكلترا والروسيا الباب العالي بشأن حرب اليونان أجاب بأنَّ السلطان لن يقبل تدخُّل الأجانب بينه وبين رعيّته، ولن يجاوب على اقتراحات كهذه.

فعند ذلك اتّفقت الدول الثلاث في ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ على أن تفصل بلاد اليونان عن تركيا فصلاً إداريًّا وتجعلها إمارة مستقلّة داخليًّا، وعليها أن تؤدّي جزية للدولة العثمانية. فأجاب الباب العالي كالأول بالرفض البات، فأمرت الدول الثلاث أساطيلها بمنع الجيوش العثمانية من الحركات العسكرية. فأبلغ أمراء البحر الإنذار اللازم إلى ابراهيم، وهو تعهّد لهم بأن يتوقّف عن كلّ حركة إلى ما بعد ورود الجواب من السلطان ومن محمَّد علي. فأمّا اليونان فلم يتقيّدوا بإنذار الدول الذي كان موجّهًا إليهم أيضًا، وهاجموا بقوّتهم البحرية أسطولاً صغيرًا كان في ميسولونكي فأحرقوه. فثار غضب ابراهيم باشا وأرسل إلى أمراء البحر بأنه لا يمكنه أن يبقى مكتوف اليد بإزاء اعتداء الثوّار، وكان ابراهيم قد جاءه

الأمر من الأستانة بعدم توقيف القتال فكرّر قوّاد الأساطيل الثلاثة إنذار ابراهيم بإرجاع الأسطول العثماني إلى الدردنيل والأسطول المصري إلى الإسكندرية، وبإخلاء بلاد المورة. وكان ابراهيم باشا غائبًا فأجيبوا بأنَّ هذا البلاغ سيرسل إليه، فاجتمعت الأساطيل الثلاثة في مياه ناڤارين وكان الأسطول العثماني ثمانين قطعة مصطفًّا صفّين على شكل هلال؛ ولم يكن عند الفريقين نيّة القتال، ولكن بطريق القضاء والقدر انطلقت رصاصة من جهة الأسطول العثماني فأصابت رجلاً إنكليزيًّا من نوّاب المجلس البريطاني، فقابل ذلك ربّان السفينة الإنكليزية التي وقع فيها هذا الحادث بإطلاق الرصاص المتوالي. ثمَّ إنَّ الإنكليز أرسلوا إلى محرّم بك، قائد الأسطول المصري، يقولون له إنَّهم حاضرون لتجنّب الحرب إذا توقّف العثمانيون عن إطلاق النار، ولكن في ذلك الوقت صابت رصاصة أخرى جنديًّا إنكليزيًّا فقتلته، ويقول الإفرنج إنَّ هذه الرصاصة جاءت من بارجة الأميرال التركي. فنشبت الحرب واستمرّت المعركة خمس ساعات إلى المساء فلم يبقَ من الأسطول العثماني سوى خمس عشرة سفينة. ولمّا بلغ الخبر ابراهيم باشا تلقّاه بسكون جأش وأعلن أنه يقتل كلّ مَن أراد الاعتداء على مسيحي. ووصل الخبر إلى الأستانة فأبلغ الصدر الأعظم سفراء الدول الثلاث الاقتراحات الآتية: الأول عدم التدخُّل في قضيّة اليونان، والثاني دفع غرامة عن السفن الحربية العثمانية التي احترقت في ميناء ناڤارين، هذا مع اعتذار الدول للدولة. فأجاب سفراء الدول الثلاث بأنَّ دولهم قطعت علاقاتهم مع تركيا، وبرحوا الأستانة.

فأعلن السلطان محمود الجهاد بأسم الدين الإسلامي، وحرّض المؤمنين على القتال فأعلنت الروسيا الحرب على الدولة على حين أنَّ الدولة كانت محقت أوجاق الانكشارية فبقيت بدون جيش تقريبًا. ولمّا حصلت معركة ناڤارين تجدّدت آمال اليونان، وزحفوا للقتال من كلّ صوب إلاّ أنَّ الأتراك حفظوا مراكزهم في ناڤارين ومودون، وباتراس وكورون. وأمّا ابراهيم باشا فسحب أسطوله وعاد إلى الإسكندرية بموجب عقد هدنة ولم يترك سوى اثنَي عشر ألف جندي في بعض القلاع. وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ انعقد في لوندرة مؤتمر دولي لأجل تحديد المملكة اليونانية التي قرّرت الدولة تأسيسها واتّفقوا على أن يجعلوا لها ملكًا مسيحيًّا تحت حماية الدول الثلاث، وجعلوا للدولة على هذه الإمارة اليونانية جزية سنوية نصف مليون قرش. وكذلك قرروا التعويض على المسلمين الذين أجلاهم الأروام عن بلادهم، وبعثت الدول إلى السلطان لينيب عنه مندوبًا في المؤتمر فرفض السلطان هذا الطلب، واستؤنفت الحرب في بلاد اليونان ولكن الروسيا أغارت على بلاد

الدولة وعبرت جيوشها نهر البُرُوت واحتلّت الفلاخ ومولداڤيا، ثمَّ حاصر الروس قلعة سيلسترية، وأحاطوا ببرايلة على نهر الطونة وكان السرّ عسكر حسين باشا في قلعة "شُملة" وكان يوسف باشا في "ڤارنة" فالروس الذين أمام سيلسترية انهزموا عنها، ولكن برايلة سقطت في أيديهم. وجاء القيصر نقولا الأول بنفسه إلى ساحة الحرب، ضيّق الروس الحصار على سيلسترية وڤارنة وهاجموا شُملة وأسكي استانبول، ولكنّهم فشلوا، وبينما العثمانيون يدافعون الروس أحسن دفاع إذ باع يوسف باشا، قائد موقع ڤارنة، قلعة هذه المدينة من الروس وقبض على ذلك مبلغًا من المال وفرّ به إلى الروسيا يتنعّم بثمن خيانته؛ فلمّا دخل الروس إلى ڤارنة امتنع ثلاثمائة من الأتراك بالقلعة وأبوا تسليمها برغم الأمر الصادر من يوسف باشا، وبعد أخذ وردّ ارتضى القيصر بأن يخرجوا بأسلحتهم بالعساكر العثمانية.

وأمّا في آسيا فقد ظهر الروس على العثمانيين وأخذوا قارص وأردَهان وغيرهما وتولّى الصدارة في استانبول رشيد باشا، فاتح ميسولونكي وأثينا، فزحف إلى البلقان وناجز الحرب الجنرال "رُوت" فحف الكونت ديابتش، القائد الكبير، للجيش الروسي لمعاونة الجنرال روت وهزموا الصدر الأعظم في ١١ يونيو سنة ١٨٢٩ ثمَّ استولى الروس على سيلسترية. فاعتصم الصدر الأعظم بقلعة "شُملة" فانتهز الروس هذه الفرصة وعبروا الطونة من وراء الصدر الأعظم، ولبثوا يزحفون إلى أدرنة، فاستسلمت البلدة لهم بدون قتال، واحتلّ الروس "قرق كليسة" و"ديموطِقة" وغيرهما.

وأمّا من جهة آسيا فاستولى الروس على أرضروم، وكانوا سائرين إلى الأمام. وأمّا في بلاد اليونان فاشتدّت عزائم الأروام واسترجعوا كلّ المواقع التي خلت منهم.

والخلاصة أنَّ السلطان محمود شاهد في هذه الحرب هزائم لم تَحُلّ بالدولة من قبل فطلب الصلح بواسطة بروسيا، وانعقدت معاهدة أدرنة التي بموجبها استولى الروس على مصابّ الطونة، وصار لهم الحقّ في حرّية الملاحة في البحر الأسود، والخروج منه إلى البحر الأبيض. وأخذوا "پوتي" في آسيا، وفصلوا بين تركيا وبلاد القوقاس. فخسرت تركيا علاقتها بتلك الأمم القوقاسية التي كانت من أشدّ أنصارها! فسهل على الروسيا إدخالهم في الطاعة تدريجًا، وتعهّدت الدولة بأن لا تعزل أمراء الفلاخ ومولداڤيا وأمّا سربيا فبقيت على حالها، وتعهّد الباب العالي بدفع غرامة حربية ١٢٥ مليون قرش يؤدّيها تقسيطًا على عشر

سنوات على شرط أنَّ الروس لا يخلون بلاد الفلاخ ومولداڤيا قبل دفع الأقساط كلّها. وفي سنة ١٨٣٠ اعترفت الدولة باستقلال اليونان وبالحدود التي وضعتها الدول بينها وبين تركيا.

وكان السلطان محمود معتقدًا أنه لا بدَّ من الإصلاح في داخل السلطنة والسير بتركيا على الطرق العصرية الأوربية؛ ولمّا توالت الهزائم على الجيوش العثمانية في زمان سليم الثالث ومحمود الثاني تحقّقت الناس أنَّ السبب في هذه الهزائم إنَّما كان قصور الانكشارية في التعليم العسكري عن الجيوش الأوربية، وأنه لا بدَّ للدولة من جيش مرتّب على نسق الجيوش الأوربية حتّى يمكّنه أن يقاتلها بنجاح أو ثبات، ولم يكن في الإمكان تنظيم هذا الجيش الجديد مع وجود الانكشارية الذين كانوا يعارضون في هذا الأمر معارضة مَن يقاتل عن حياته. وكانت الدولة تعاني من ثورات الانكشارية ما لا يوصف، وكم من مرّة كانت ثوراتهم سببًا في الانهزام أمام الأعداء وكم استبدّوا بالأهالي وعاثوا في البلاد حتّى عاف الناس مجرّد سماع ذكرهم؛ فكانت الصدور ملأى من أعمالهم، وكانت الأمّة ترجو الخلاص منهم. فلمّا أمر السلطان محمود بتنظيم الجيش الجديد كانت جميع الأمّة مؤيّدة لفكرته هذه، وبدأ السلطان بتنظيم هذا الجيش، وأخذت ضبّاط الانكشارية تتعلّم الحركات العسكرية في "آت ميدان". وإذا بالانكشارية تآمروا وثاروا على السلطان بغتة، وزحفوا إلى السراي يهدّدون السلطان ويطلبون منه رؤوس الذين وافقوا على النظام الجديد، ولم يكن السلطان محمود خوّار العزيمة ولا ممَّن يهاب الأخطار، فامتنع من إجابة طلبهم ونادى بالأمّة، وأخرج السنجق النبوي، فاجتمعت الأمّة تحته والعلماء في مقدّمتهم وصمدوا إلى الانكشارية ورموهم بالنيران، وأطلقوا المدافع عليهم فكسروهم، وبعد أن انهزموا أعملت الأمّة السيوف في رقابهم فقتلوا منهم عشرة آلاف رجل، وقيل عشرين ألفًا، وتخلّصت الأمّة من معرّتهم، وبعد ذلك نشر السلطان خطًّا شريفًا يقول فيه: إنَّه من المعلوم بين المسلمين أنَّ السلطنة العثمانية إنَّما رقت ونمت واستولت على الشرق والغرب بقوّة الدين الإسلامي، وأنَّ نظام الانكشارية كان في أول الأمر يوم كانت الطاعة شعاره حصنًا حصينًا للدولة، وطالما كان النصر معقودًا برايات هذا النظام، ولكن في العصر الأخير فشا في الانكشارية روح التمرّد وصاروا بلاء على الدولة، وصاروا لا يلقون الأعداء إلاّ انهزموا، فأجمعت الأمّة على إيجاب التخلّص من هذا النظام البالي، وعلى تنظيم جيش جديد يمكننا أن نصادم به أعداء الدين... إلخ. وما اكتفى السلطان باستئصال الانكشارية، بل أراد استئصال جميع جراثيم الفساد التي كانت آفة على المملكة، فألغى الطريقة البكتاشية، وقتل رؤساءها وأقفل تكاياها.

ولكن بعد أن سار على خطّة التجدّد في المملكة، وغيّر الأزياء القديمة؛ حاول الرجعيون الانتقام، فأشعلوا النار عدّة مرار، وفي إحدى المرار أحرقوا ثُمْن الأستانة! ولكن السلطان ضمّد الجروح، وساعد المصابين. وفي مرّة أخرى أحرقوا "بيك أوغلو" محلّة الأوربيين، وحصلت أيضًا ثورة بالسلاح، فقضى السلطان عليها ولم يثنه شيء عن عزمه، ومضى في سياسة التجدّد، وبنى المدارس، وأسّس المدرسة العسكرية الكبرى، وأنشأ المراكب النارية، وأسّس المحاجر الصحيّة.

وكان بالجملة مقتنعًا بوجوب الإصلاح والتجديد، حازمًا رابط الجأش، غير هيّاب للموت، عادلاً بالرعيّة، مهتمًّا بالصغيرة والكبيرة من شئون الأمّة، مساويًا بين جميع أجناس رعيّته. ولكن المصائب بسبب أطماع الدول الأوربية توالت على السلطنة في زمانه.

وفي سنة ١٨٣١ استولى الفرنسيس على الجزائر في خبر ليس هنا موضعه، فعجزت الدولة عن دفع هذا الاعتداء، لا سيّما أنَّ الجزائر كانت منفصلة عنها ولم تكن سيادتها عليها إلاّ بالاسم، ثمَّ خرج محمَّد علي، والي مصر، على الدولة وأغزى ابنه ابراهيم بلاد الشام بخمسين ألف جندي فاستولى على غزّة، ويافا، وحيفا، وحاصر عكّة التي كان قائدها عبد الله باشا، فأمر السلطان محمَّد علي عساكره إلى الوراء، فاشترط محمَّد علي على السلطان توليته سورية، فأبى السلطان قبول طلبه، وأرسل جيشًا لقتال الجيش المصري تحت قيادة حسين باشا، فانكسر حسين باشا وفتح ابراهيم باشا عكّة عنوةً، واستولى على جميع سورية، وفي ذلك يقول الشيخ أمين الجندي الشاعر:

لو قيل ابراهيم جاء محاربًا	سقطوا ولو كان الكلام تقوُّلا
قامت قيامة عكّة من بأسه	وأحاط من كلّ الجهات بها البلا
بمدافع ما إن لها من دافع	وقنابر تحكي القضاء المنزلا
تنسّيك بدرًا والنضيرَ وخيبرًا	وحروب مكّةَ والبسوس وكربلا
من مبلغ الأتراك أنَّ جنودهم	هُزموا وأنَّ حسينهم ولّى إلى

ولم يقف في وجه ابراهيم باشا غير الدروز، فإنّهم اجتمعوا في "وادي التيم" وناجزوا جيشه القتال في وقائع متعدّدة أشهرها واقعة "وادي بكّا" حيث أحاط ابراهيم باشا ومعه اثنا عشر ألف مقاتل نظامي بخمسمائة من الدروز فقاتلوه طول النهار وأبوا أن يستسلموا إليه إلى أن ماتوا جميعًا. وما نجا منهم غير ٢٥ شخصًا. اخترطوا سيوفهم وشقّوا الجند النظامي

على كثافته، وخلصوا من بين الجند كلّه. وقد عرفت منهم واحدًا عُمِّر طويلاً اسمه أمين المصفي من قصبة بعقلين، وأمّا دروز حوران فالتجأوا إلى اللجاه واتّفقوا مع عرب السلوط، وساق عليهم ابراهيم باشا جيشًا فكسروه مرارًا وقتلوا منه مقتلة عظيمة، وبقي الدروز عصاة على ابراهيم إلى أن انصرف من سورية ولكن الأمير بشير الشهابي، الوالي على جبل لبنان، لان إلى ابراهيم باشا لأنه كان ذهب إلى مصر وتعاهد مع محمَّد علي، فلمّا زحف ابراهيم إلى الشام مهّد له كثيرًا من العقبات ولم تمنع ابراهيم باشا ثورة الدروز من أن يزحف إلى الأناضول ويهزم جيش الدولة عند قونية، وأن يتقدّم من هناك إلى بورسة، فوقع الهلع في الأستانة، وقد كان خوف الروس من محمَّد علي أعظم من خوف الترك. وذلك أنَّ الروس فكّروا في أنَّ محمَّد علي قد يستولي على القسطنطينية وينظّم تركيا كما نظّم شئون مصر، ويؤسّس دولة جديدة شابّة غير الدولة العثمانية التي كان حلّ بها الهرم، فعرضت الروسيا على السلطان محمود محالفة عسكرية في وجه محمَّد علي، وأنزلت خمسة عشر ألف جندي بقرب الأستانة، وكانت على نيّة زيادة هذا الجيش حينما نبّه السلطان سفيرا إنكلترا وفرنسا إلى خطر وجود العساكر الروسية في الأستانة، وقالا له: إنَّ الأَولى به أن يقبل شروط محمّد علي، وهي إضافة سورية كلّها وولاية «آطنة» إلى مصر تحت سيادة السلطان من أن يستعين بالروسيا صاحبة الطمع السرمد في القسطنطينية، وهكذا اقتنع السلطان بإعطاء سورية وكيليكية إلى محمَّد علي، ولكن السلطان لم يكن ليرضى من قلبه مصالحة محمَّد علي على هذا الشرط وبقي يجهّز العساكر ليقاتل ابراهيم باشا ويردّه إلى الوراء فزحفت العساكر العثمانية تحت قيادة حافظ باشا، وتلاقى الجمعان في «نزِّبْ» وكان مع ابراهيم باشا جيش كبير من العرب، فانكسر حافظ باشا كسرة شنيعة وغنم ابراهيم أكثر مدافعه، ومات السلطان محمود من الغمّ عند سماع خبر هذه الهزيمة وذلك سنة ١٨٣٩.

السلطان عبد المجيد

وتولّى السلطنة ولده الكبير السلطان عبد المجيد، وكانت الدولة أصبحت بدون جيش تقريبًا، وكان أمير البحر أحمد باشا اختلف مع الصدر الأعظم فذهب وسلّم الأسطول العثماني إلى محمَّد علي في ميناء الإسكندرية. فصارت الدولة مضطرّة إلى الصلح مع محمَّد علي إلاّ أنَّ الروسيا وإنكلترا والنمسا وبروسيا عقدت مع السلطان عبد المجيد معاهدة سنة ١٨٤٠ بموجبها لا يبقى لمحمَّد علي سوى مصر التي تعود إمارة له ولذرّيته وفلسطين

التي يتولاّها بصورة مؤقّتة، وعليه أن يخلي سورية وبلاد العرب وجزيرة كريت، وبقيت فرنسا خارجة عن هذا الاتّفاق، لكنّها لم تصل في مساعدة محمَّد علي إلى العمل، وذلك بما رأته من تألّب أوربا عليه. فصار محمَّد علي يقاوم بدون سند من جهة الدول، وكانت قوّة ابراهيم باشا أكثرها في عكّة، فجاء الأسطول الإنجليزي وضرب عكّة بالقنابر، وطيَّر مستودع البارود والذخيرة فاستسلمت عكّة وسحب ابراهيم جيشه إلى مصر، وكانت الدولة تريد الخلاص من محمَّد علي تمامًا إلاّ أنَّ الإنكليز كانوا عقدوا معه معاهدة لإبقاء مصر في يده، فأجبروا الدولة على مراعاة هذه المعاهدة.

وأمّا الأمير بشير الشهابي، حليف محمَّد علي، فلمّا التزم ابراهيم باشا إخلاء سورية لم يتبعه إلى مصر، بل بقي يرجو أن يصلح أموره مع الدولة، وكان الأمر والنهي وقتئذٍ في يد الإنكليز، فلمّا نزل إلى صيدا وقابل أمير البحر الإنكليزي سمع منه ما يدلّ على أنَّ إنكلترا لا تريد إبقاءه أميرًا على لبنان، ثمَّ أتوا به إلى بيروت وأبلغوه أنَّ الدولة العثمانية قرّرت عزله فليختَر بلادًا يقيم بها، فاختار فرنسا. فقال له الإنكليز لك أن تسكن في أيّ بلد شئت ما عدا فرنسا، ومصر، فاختار مالطة، ثمَّ وجد مالطة في عزلة عن الدنيا كلّها فسعى في التحوّل إلى استامبول، وجاء إليها وبقي فيها إلى أن مات. وكان قد تعيّن الأمير بشير قاسم الشهابي واليًا على جبل لبنان وكان الفرق بينه وبين ابن عمّه في الحزم والعزم وحسن التدبير كما بين الأرض والسماء، فما مضى على ولايته إلاّ أشهر قلائل حتّى سخط عليه مشايخ الدروز أصحاب الإقطاعات، لأنه كان بذيء اللسان، فكانت بذاءته تجرح في قلوبهم، على حين لا يوجد في الدنيا بلد كجبل لبنان يهتمّ أهله قبل كلّ شيء بالآداب وحفظ اللسان فقرّر الدروز الاجتماع لخلع الأمير بشير قاسم، فانتصر له النصارى لأنه منهم، فوقعت الوقائع بين الفريقين في «دير القمر» سنة ١٨٤١ وتسمّى هذه الوقائع في لبنان بالحركة الأولى. فعزلت الدولة الأمير بشير قاسم، وأرسلت عمر باشا النمساوي إلى جبل لبنان فأخذت فرنسا تسعى في إعادة الحكم إلى آل شهاب بناءً على كون الطائفة المارونية ترغب في ذلك، إلاّ أنَّ الدروز وسائر الطوائف غير المارونية عارضوا رجوع الحكم إلى الشهابيين، فبعد أخذ وردّ بين الدول تقرّرت قسمة الجبل إلى قسمين يفصل بينهما طريق دمشق، وجعلت الدولة الأمير أحمد عباس الأرسلاني واليًا على القسم الجنوبي والأمير حيدر اسماعيل أبي اللمع واليًا على القسم الشمالي، وأُلحقَت بلاد جبيل بباشوية طرابلس. فأغضب هذا التدبير الطوائف الكاثوليكية وحاميتهم فرنسا. ولكن الدول الأخرى حبًّا

بالتوازن وبمقاومة نفوذ فرنسا التي تريد السيادة في جبل لبنان عضدت الدولة العثمانية في الترتيب الجديد. وهنَّ إنجلترة، وبروسيا، وأميركا والروسيا. وتألّف في كلّ من القائمقاميّتين ديوان مختلط تتمثّل فيه كلّ الطوائف وما مضت سنوات قلائل على هذا النظام حتّى تشاجر الدروز والنصارى مرّة أخرى، وحصلت وقائع بين الفريقين، فسكّنت الدولة هذه الفتنة.

وجاء شكيب أفندي، ناظر الخارجية، من الأستانة فرتّب الأمور، وعزل الأمير أحمد أرسلان بسبب حصول الفتنة في أيامه، وجعل مكانه أخاه الأمير أمينًا فبقي إلى سنة ١٨٥٩ فخلفه ولده الأمير محمَّد الأرسلاني، وفي مدّة هذا ثارت العامّة في قضاء كسروان وكلّهم هناك من الموارنة، وكانت ثورتهم على مشايخهم آل الخازن فطردوهم واستولوا على أملاكهم، وقتلوا منهم فذهبوا إلى بيروت يشتكون إلى الوالي التركي، فرأى الوالي أنه لا بدَّ من حرب لقمع ثورة الأهالي، فرأى الأَولى أخذ المسألة بالسياسة فطال الأمر ببني الخازن، فالتجأوا إلى مشايخ الدروز لأنهم أصحاب إقطاعات مثلهم، وبين الفريقين تكافل إقطاعي طبيعي. فقرّر مشايخ الدروز الزحف على كسروان وإعادة بني الخازن إلى بيوتهم، فقامت من أجل ذلك قيامة المارونيين الذين في بيروت وفي بلاد الشوف وجزين، وقالوا: إنَّهم لا يرضون بذهاب الدروز إلى كسروان يقاتلون إخوانهم، فوقع التنافر بين الفريقين، وبدأ المارونيون بالحركة. ثمَّ انفجر الدم في حوادث جزئية في البداية، واجتمع المسيحيون في زحلة وزحف منهم عدّة آلاف قاصدين قضاء الشوف على تفاهم مع نصارى الشوف بأن يثوروا من جهتهم فيضعوا الدروز بين نارين، واعتمدوا على كثرة عددهم لأنَّ الدروز لا يزيدون على السدس بالنسبة إلى النصارى، ولكن الدروز المشهورين بالشجاعة وبحسن الانقياد إلى رؤسائهم في الحروب قابلوا ذلك الجيش الذي زحف إليهم، وذلك في «ظهر البيدر» شرقي عين صوفر، وجرت معركة تقهقر فيها النصارى إلى «قبّ الياس».

ثمَّ حصلت وقائع أخرى كان الفوز في جميعها للدروز، ثمَّ جمع خطّار بك العماد جمعًا كبيرًا من الدروز وقصد مدينة زحلة حيث تجمّع فيها النصارى من كلّ جهة فوقعت واقعة شديدة انتهت أيضًا بأنَّ النصارى تركوا زحلة واستولى عليها الدروز وأحرقوها. وكانت قصبة دير القمر المسيحية الواقعة في وسط بلاد الدروز تدافع بشدّة الدروز الذين يهاجمونها، فلمّا سقطت زحلة خارت عزائم أهالي دير القمر فاستولى عليها الدروز، وأعمل الجهلاء منهم السيف في أهلها، وقتلوا مقتلة عظيمة. ولكن عندما بلغ الخبر آل أرسلان، وآل جنبلاط، وآل نكد، أرسلوا رجالهم إلى دير القمر وأنقذوا ألوفًا من بقايا

السيف من المسيحيين وآووهم، وقاموا بإعاشتهم إلى أن جاءت وزراء الدولة والدول وبدأوا بالتحقيق عن الحوادث، وكذلك حصلت حادثة كهذه في حاصبيا وأخرى في راشيا وكان الدروز مع كونهم أقلّ عددًا يتغلّبون على النصارى، وكانت تقع من الجهلاء بعد الفوز حوادث مؤسفة لا مراء فيها إلاّ أنه في جميع هذه الوقائع لم يكن الدروز هم البادئين بالبشر، وكيف يبدأون وزعماؤهم هم أصحاب الإقطاعات الوافرة وتحت حكمهم عشرات ألوف من النصارى وفي أيديهم أكثر الأملاك. فكان لا يخفى عنهم وهم عقلاء محنّكون أنَّ الفتنة تكون سبب انقراض نعمتهم، وتؤول إلى جعل الحكومة على نسبة عدد الطوائف فيفقدون أكثر امتيازاتهم، بخلاف النصارى الذين كانوا يرون أنهم لا يحصلون على المساواة، ولا يتخلّص ذلك العدد الكبير منهم عن حكم الدروز إلاّ بثورة تجبر الدولة على أنصافهم، فقضيّة أنَّ الدروز كانوا مستولين على أكثر كثيرًا ممّا يحقّ لهم بحسب العدد هذه قضيّة لا نزاع فيها.

وأمّا قضيّة كون الدروز هم الذين بدأوا بقتال النصارى وأنهم هم الذين اعتدوا عليهم فهي كذب محض قد تحقّقته لجنة التحقيق الدولية، التي وقفت على جميع الحقائق، ولذلك أبى الجانب الأعظم من الدول أن يعدّ الدروز معتدين، وإن كانوا حكموا على مئات منهم بالنفي، فلم يكن ذلك مبنيًّا على اعتدائهم، ولكن كان ذلك تسكينًا لخواطر النصارى الذين قُتل منهم عدّة آلاف بعد تغلّب الدروز عليهم. ولقد حكمت الدولة بالقتل على المشير أحمد باشا، قائد الفيلق العثماني في دمشق، وعلى مئات من المسلمين ممَّن كانوا المسئولين عن الحادثة التي وقعت على نصارى الحاضرة السورية، ولكنّـها بالاتّفاق مع الدول عدا فرنسا لم تقتل أحدًا من الدروز لِما ظهر من أنَّ الاعتداء لم يقع منهم، ولِما ثبت بالوثائق والمناشير التي صدرت عن أساقفة النصارى من أنَّ الرؤساء الروحيين كانوا هم المحرّضين على الحرب، وغير معقول أنَّ الدول المسيحية مع شدّة تعصّبها في النصرانية مثل إنكلترا، والنمسا، وبروسيا، والروسيا؛ تساعد الدروز قدر الإمكان وتأبى مجاراة فرنسا على قتل جانب منهم لو تحقّق عندها أنَّ الدروز كانوا هم المعتدين! ولا تبال أصلاً بأقوال المؤلّفين الإفرنسيين الذين ينكرون هذه الحقيقة ويروون روايات إذا قرأها الإنسان يضحك أو يحزن لشدّة بُعدها عن الواقع، ولغياب الوجدان فيها تمامًا، ودعوى الفرنسيس أنَّ الإنكليز لأجل أن يتوكّأوا على الدروز ويتّخذوا لأنفسهم أنصارًا في سورية قد اجتهدوا في إنقاذهم على أثر تلك الحوادث المسمّاة بحوادث «الستّين» ـ لوقوعها سنة ١٨٦٠ ـ هي دعوى لا ترتكز على أدنى أساس، لأنَّ الإنكليز هم أشدّ تحمّسًا للنصرانية من أن يرضوا بذبح الدروز

للنصارى وبأن يُتركوا بدون قصاص، ولمّا وصلت إلى لندرة أخبار هذه الحوادث مقلوبة عن وجهها اشتدّ غضب الإنكليز، وطلبوا في أول الأمر من حكومتهم الاقتصاص من الدروز بكلّ صرامة، إلاّ أنه كان بعض الإنكليز المنصفين المقيمين بسورية لا سيّما المستر «سكوت»، صاحب معمل الحرير في قرية شملان من لبنان، قد كتبوا إلى إنكلترة بحقيقة ما جرى، وقالوا إنّ الدروز إنَّما كانوا مدافعين لا مهاجمين، فهدأ عند ذلك الرأي العامّ الإنكليزي.

ولمّا تألّفت اللجنة الدولية في بيروت ثبت أيضًا أنَّ الدروز لم يكونوا هم البادئين بالقتال. وثبت أنَّ الأمير محمَّد أرسلان، أمير لبنان الجنوبي، راجع الوالي خورشيد باشا لأجل إرسال جيش نظامي يكفي لمنع الحوادث، واستمدّ أيضًا قناصل الدول كلّها حتّى يسعوا في هذا الأمر لدى الوالي، وهذا كان سبب خلاص الأمير محمَّد من القتل والنفي ومن كلّ مسئوليّة، ولا يُنكر أنَّ الإنكليز كانوا قد بدأوا بتأسيس علاقة مع آل جنبلاط وحزبهم من الدروز، وربّما لأجل حفظ التوازن. غير راغبين في استئصال هذه الطائفة القليلة العدد من جبل لبنان، ولكنّهم لو كانوا قد تحقّقوا كون الدروز هم المعتدين لكانوا وافقوا بالأقل على إجراء القصاص بحقّ عدّة مئات منهم كما جرى في دمشق بحقّ المشير أحمد باشا ومئات من المسلمين، وأيضًا فإنَّ الروسيا والنمسا وبروسيا لم يكن عندهنَّ أقلّ سبب سياسي يقتضي العفو عن الدروز، والاكتفاء بنفي مئتين أو ثلاثمائة رجل منهم إلى الخارج، مع أنَّ النصارى قدّموا جدولاً إلى اللجنة الدولية يلتمسون فيها قتل سبعة آلاف من الدروز.

والخلاصة لمّا ثبت أنَّ الدروز لم يكونوا إلاّ مدافعين عن حوزتهم ترفّقت بهم الدولة العثمانية وجميع الدول عدا فرنسا، وإنَّما نُفي مَن نُفي منهم نكالاً وعبرة من أجل المذابح التي لا تنكر ممّا قام به جهلاؤهم بعد الغلبة، ولقد قلب مؤرّخو هذه الوقائع من الفرنسيس حقائقها رأسًا على عقب، وجعلوا الابتداء والاعتداء من الدروز وليس ذلك بصحيح. ثمَّ إنَّه قد ثبت أيضًا باعتراف عقلاء النصارى أنفسهم أنه لم يوجد واحد من الدروز سطا على عُرض امرأة نصرانية، ولا وُجد منهم مَن قتل ولدًا، أو امرأة، أو شيخًا عاجزًا. وقد اعترف بذلك صاحب كتاب «حسر اللثام عن نكبات الشام» المطبوع بمطبعة المقطّم بمصر، وفيه سرد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه من الطعن بالدولة ومن الوقيعة بالمسلمين والدروز ما يزيد على كلّ وصف، إلاّ أنه صرّح بكون الدروز في جميع هذه الوقائع لم يتلوّثوا بالاعتداء على أعراض النساء، ولا قتلوا امرأة، ولا ولدًا ولا عاجزًا. وهو يذكر أيضًا هممَ كثيرين من زعماء الدروز الذين أنقذوا النصارى ألوفًا، كما يذكر أنَّ أعيان المسلمين في الشام مثل

محمود أفندي الحمزاوي وصالح آغا المهايني، وعمر آغا العابد، وعددًا كبيرًا من الوجهاء ليس الأمير عبد القادر الجزائري فقط؛ قد حافظوا على النصارى، وآمنوهم من خوف، وآووهم من فقر، مع أنَّ مؤرّخي الفرنسيس يحصرون هذه المحافظة في الأمير عبد القادر، رحمه الله، وحده وهو بدون شكّ قد حافظ على ألوف من المسيحيين، وكان السبب في نجاتهم من الغوغاء الذين اعتدوا عليهم بدون علم الرؤساء، ولكن الأمير عبد القادر لم يكن هو الوحيد الذي قام بذلك الواجب.

ثمَّ إنَّ السلطان عبد المجيد أعلن التنظيمات المسمّاة بـ «خطّ كولخانة» ومآله أنَّ حياة الأشخاص وأموالهم وأعراضهم تكون مصونة، وتكون الأموال الأميرية عائدة إلى نظام واحد، وأن تُلغى الاحتكارات، وأن تكون الضرائب بحسب الثروة، وأن تكون مدّة الخدمة العسكرية خمس سنوات، وأن تكون المحاكمات علنية وأن تكون المساواة أمام القانون شاملة لكلّ أصناف الرعيّة، وأن يكون الناس أحرارًا في البيع والشراء، وأن يكون ضبط أملاك المجرمين ممنوعًا، بل تعود إلى وَرَثتهم.

وقد زعم بعض مؤرّخي الفرنسيس أنَّ الضرائب وإن أوجب خطّ كولخانة استيفاءها على نسبة الثروة، فقد كانت تُجبى بصورة جائرة على المسيحيين. وهذا الكلام أيضًا غير صحيح؛ فالضرائب في السلطنة العثمانية كانت على حسب مقدار الأملاك وريعها ولم يكن فيها تمييز طبقة على طبقة ممّا هو شأن الدول الاستعمارية الأوربية.

وأسّست الدولة جامعة باَسم «دار الفنون» وجعلت التعليم ابتدائيًّا، وإعداديًّا وعاليًا. وقامت بإصلاحات كثيرة؛ وفي سنة ١٨٤٨ ثارت الفلاخ ومولداڤيا، وكادت الفتنة تؤدّي إلى الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية، ولكن الحرب لم تقع بينهما هذه المرّة، وتفادوها بتدابير سلميّة.

وفي زمان السلطان عبد المجيد نشبت حرب القريم، وأساسها الخلاف بين الروم واللاتين على كنيسة بيت لحم التي فيها المغارة التي يقال إنَّ المسيح وُلد فيها، فاللاتين كانوا يدّعون حقّ الولاية على هذه الكنيسة بموجب فرامين بأيديهم، وزعموا أنَّ الأروام بدسائسهم لدى الدولة قد استولوا على حقوق لم تكن لهم من قبل، وأخذوا مفاتيح كنيسة القيامة وبسطها وقناديلها بفرمان من السلطان محمود الأول. وزعم اللاتين أنَّ السلطان سليمان الثاني كان خوّلهم هذه الحقوق سنة ١٦٩٠ فرجع الأروام واستردّوا ما فقدوه في سنة ١٧٥٧، ثمَّ إنَّ

الروسيا سنة ١٨٠٨ ساعدت الأروام لدى الباب العالي فاستولوا على جميع الأماكن المقدّسة تقريبًا، فبقيت فرنسا تحتجّ على ذلك. وسنة ١٨٥١ طلبت فرنسا من الدولة تأليف لجنة مختلطة لأجل النظر في الفرامين التي بأيدي اللاتين والروم، وادّعت الاستيلاء على كنيسة القيامة، وعلى المكان الذي فيه مدافن ملوك الإفرنج، وعلى قبر العذراء، وعلى كنيسة بيت لحم، وغيرها.

فلمّا بلغ ذلك الروسيا اعترضت على هذا الأمر وقدّمت إلى الدولة مذكّرة لو قبلها الباب العالي لكان ذلك اعترافًا منه بحماية الروسيا لجميع المسيحيين الأرثوذكسيين، فلذلك رفض الباب العالي إجابة طلب الروسيا، فقطعت الروسيا العلاقات مع الدولة وزحفت العساكر الروسية تحت قيادة البرنس "كورتشاكوف" فقطعت نهر الباروت بتسعين ألف ماشٍ وعشرين ألف فارس، وستّة آلاف مدفعيّ، فاحتلّ هذا الجيش الفلاخ، ومولداڤيا، وكانت الحصون العثمانية عند الطونة خرابًا تقريبًا ولكن كان عند الدولة قائد اسمه "عمر باشا النمساوي" أصله خرواطي كان من عظماء القوّاد فرمّم تلك القلاع وجمع جيشًا جرّارًا وصدّ الروس وردّهم، أمّا في آسيا فتقهقر العثمانيون إلى الوراء، وجاء أسطول روسي فأحرق أسطولاً عثمانيًا في ميناء "سينوب".

وفي ذلك الوقت كانت إنكلترة ترى من مصلحتها توقيف الروسيا على حدّها خوفًا من استيلاء الروس على الأستانة، وكان نابليون الثالث إمبراطور فرنسا منقادًا إلى السياسة الإنكليزية، وكانت الأمّة الإفرنسية الكاثوليكية ترى أنَّ الدولة العثمانية قبلت هذ الحرب مع الروسيا من أجل عدم تسليمها حقوق اللاتين في القدس فلمّا أحرق الأسطول الروسي السفن العثمانية التي كانت في سينوب دخل الأسطول الإنكليزي والأسطول الإفرنسي من الدردنيل إلى الأستانة محافظة عليها من الروسيا.

فأرسل نيقولا الأول قيصر الروس يحتجّ على هذه الحركة، ونشر على شعبه منشورًا أشبه بإعلان حرب على فرنسا وإنكلترة، فعقدت هاتان الدولتان محالفة هجومية دفاعية مع السلطان عبد المجيد في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ وكان تحت قيادة "عمر باشا" ـ وكان يقال له السردار ـ مئة وثلاثون ألف نظامي، وخمسون ألف متطوّع. وكان الجيش الروسي تحت قيادة البرنس "باسكيفتش" يبلغ مئة وتسعين ألفًا، فهاجم الروس سيلسترية فدحرهم العثمانيون عنها، فتقهقروا على طول الخطّ. وأراد عمر باشا أن يجتاز نهر البروت إلاّ أنه

كان الفرنسيس والإنكليز قد عمدوا إلى نقل ميدان الحرب إلى القريم، وقرّروا حصار سيباستوبول فانتقل السردار عمر باشا إلى القريم، وهناك جرت الوقائع الكبرى. وثارت بلاد اليونان انتصارًا للروسيا وتجاوز الأروام على الحدود العثمانية فانهزموا. واحتلّ جيش إفرنسي آثينا، وأمّا في القريم فانتصر الإنكليز والفرنسيس والعثمانيون في وقائع «آلمة» و«بالاكلاقة» و« أنكرمان» و«تراكثير» وافتتح عمر باشا «أوبّاتورية» عنوةً. وفتح الحلفاء «برج مالاكوف» بعد معارك شديدة، قيل إنَّ الفرنسيس هناك فقدوا عشرة آلاف مقاتل. ودمّرت أساطيل الحلفاء مرافئ الروسيا في البحر الأسود ودخلت أساطيلهم من البلطيك، واستولوا على بومارسوند، وانضمّ إلى فرنسا وإنكلترة وتركيا في هذه الحرب مملكة الساردوا، والبيمونت، فأرسلت ١٥ ألف مقاتل، فلمّا توالت هذه المصائب على الروسيا طلب القيصر نقولا الصلح، فانعقد مؤتمر في فينّا في أول فبراير سنة ١٨٥٦ وتقرّرت فيه شروط الهدنة، ثمَّ انعقد مؤتمر الصلح في باريز وكان الجانب الواحد هو فرنسا وإنكلترة وتركيا ومملكة الساردوا، والجانب الآخر الروسيا. وكانت بروسيا والنمسا كفيلتين، وبهذه المعاهدة تقرّر استقلال السلطنة العثمانية التامّ، وعدم تدخّل أيّة دولة في شئونها الداخلية، وذلك بموجب المادّة التاسعة، كما أنه بموجب المادّة العاشرة تقرّر عدم مرور السفن الحربية من الدردنيل، وبحسب المادّة الحادية عشرة تقرّرت حرّية التجارة والملاحة في البحر الأسود، وكذلك بحسب المادّة العشرين تقرّر أنَّ الروسيا تتخلّى لمولداڤيا عن قسم من بسارابيا. ثمَّ جعلت مصابّ الطونة تحت إشراف لجنة أوربية، وبهذه المعاهدة جرى إلغاء حماية الروس على بلاد السرب، والفلاخ، ومولداڤيا، ورجعت هذه الإمارات تحت سيادة الباب العالي وحماية أوربا. وبمقابلة معاهدة باريز هذه جدّدت الدولة العثمانية مآل خطّ كولخانة من جهة إعلان المساواة التامّة بين أصناف رعاياها، ومن جهة حرّية المذاهب وغير ذلك من الإصلاحات.

وفي ١٣ يوليو سنة ١٨٥٨ هجم بعض أهالي جدّة بالحجاز على قنصل فرنسا ومعاون قنصل إنكلترا فقتلوهما، فجاء أسطول إنكليزي إفرنسي فضرب البلدة بالقنابر وفي سنة ١٨٦٠ جرت الوقائع التي سبقت الإشارة إليها بين الدروز والنصارى في جبل لبنان، وكانت الدولة سكّنت الأمور، واستدعت زعماء الفريقين إلى بيروت ووقع الصلح بينهما، إلاّ أنَّ بعض الجهلاء في دمشق طمعًا بالنهب والسلب استفادوا من غفلة الحكومة فانقضّوا على حارة النصارى وفجّروا الدماء الغزيرة، وارتكبوا الموبقات الكبيرة ظلمًا وعدوانًا، فكانت هذه الحادثة المشئومة سببًا في احتلال جيش إفرنسي لبيروت ولبنان تحت قيادة الجنرال

"بوفور دو بول Beaufort D'haipoul" فأرسلت الدولة فؤاد باشا المشهور إلى سوريا، فأخذ فؤاد باشا يضمّد جروح المسيحيين ووزّع عليهم تعويضات بالملايين، وبحسن سياسته سكّن الأمور وقتل عددًا من الجناة في حادثة دمشق يبلغ ١٣٠، ونفى كثيرًا من العلماء والأعيان وفي مقدّمتهم الشيخ عبدالله الحلبي، مفتي الشام، وقد كان نفيهم لأجل السياسة لأنهم كانوا بالحقيقة أبرياء من كلّ ما وقع على المسيحيين.

وما رجع فؤاد باشا من سوريا إلى الأستانة إلاّ بعد أن استرجعت فرنسا عساكرها، وكانت يومئذٍ إنكلترا والنمسا مساعدتين لتركيا. وفي ٢٥ يوليو سنة ١٨٦١ توفّي السلطان عبد المجيد، وكان سلطانًا كريم الأخلاق عادلاً حليمًا متواضعًا، وكانت الرعيّة العثمانية من جميع الطبقات تحبّه وتحترمه، ولذلك أسف عليه الجميع.

السلطان عبد العزيز

وتولّى مكانه السلطان عبد العزيز. وفي زمانه لم تحصل حوادث تُذكر سوى ثورة كريت التي قمعتها الدولة بالقوّة، والسلطان عبد العزيز هو أول سلطان زار أوربا عندما دعاه نابليون الثالث سنة ١٨٦٧ إلى معرض باريز مع سائر الملوك، وفي زمانه أيضًا جرى خرق بوغاز السويس بواسطة شركة إفرنسية يرأسها المسيو "داليسبس" وذهب السلطان عبد العزيز بنفسه إلى مصر. وكان السلطان عبد العزيز سليم الطوية جسورًا إلاّ أنه كان مسرفًا ترك على الدولة ديونًا كثيرة. على أنَّ من أهمّ مآثره اعتناؤه بالأسطول، ففي زمانه كان للدولة قوّة بحرية عظيمة، وكانت هي الدولة الثالثة في البحر، وقد كان في أيامه من رجال الدولة "مدحت باشا" وكان مولعًا بالحرّية، فنما بواسطة حزب الأحرار، وصاروا يتحدّثون بخلع السلطان لكثرة إسرافه واستمالوا إليهم السرّ عسكر "حسين عوني باشا" ودبّروا على السلطان مكيدة فاتّفقوا مع ناظر البحرية وأتوا بالأسطول فرسًا أمام سراي طوله بغجه، بينما العساكر كانت تحيط بالسراي من جهة البرّ، ثمَّ أدخلوا على السلطان مَن أبلغه أنَّ الأمّة خلعته. فأراد السلطان أن يستخفّ بهذا الموضوع فأطلعوه على العساكر المحيطة بالقصر من جهتَي البرّ والبحر، وأنزلوه من السراي ووضعوه في قصر آخر.

السلطان مراد

وبايعوا السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد، وما مضى عدّة أيام على خلع السلطان عبد العزيز حتّى وُجد في قصره قتيلاً، فذهب الناس إلى أنه قُتل بأيدي هؤلاء الذين خلعوه. وليس ذلك بصحيح؛ بل كان الخلع فجأة قد أثّر جدًّا في عقل السلطان، فتناول مقراضًا وقطع به عروق زنده فسال دمه إلى أن مات.

وكان ضابط اسمه "حسن الشركسي" شقيقًا لإحدى نساء السلطان، فجاء إلى الباب العالي ودخل على مجلس الوزراء فاغتال السرّ عسكر حسين عوني باشا وناظر البحرية أحمد باشا القيصرلي، وراشد باشا، ناظر الخارجية، وكان مراده قتل مدحت باشا ولكن هذا فرَّ ونجا بأعجوبة، فجاء الجند ولم يتمكّنوا من القبض على حسن الشركسي إلاّ بقتله. وأمّا السلطان مراد فما مضت عليه إلاّ ثلاثة أشهر في السلطنة حتّى حصل له اختلاط في عقله، فاتّفق رجال الدولة على إقصائه عن السلطنة ونصب أخيه السلطان عبد الحميد مكانه.

السلطان عبد الحميد الثاني

وكان ذلك سنة ١٢٩٤ هجرية. وكانت في أواخر مدّة السلطان عبد العزيز قد نجمت قرون الثورة في البلقان، وكانت بدايتها في الهرسك، وكان على رأسها "قره جيورجيوفتش" من ذرّية قره جورج الذي تقدّم الكلام عليه وهو جدّ ملك يوغوسلافيا الحالي. ثمَّ امتدّت الثورة إلى بلاد السرب فأرسلت الدولة جيشًا للتنكيل بالعصاة، فاتّسعت الثورة وكان مراد السربيين أن يستقلّوا استقلالاً تامًّا ولا يؤدّوا جزية للسلطان.

فساقت الدولة جيشًا بقيادة عثمان باشا الذي صار فيها بعد يلقَّب بالغازي، فهزم السربيين ودوّخت الدولة جميع ثوّار البلقان من بلغار وسرب، وهرسك. وكانت الروسيا تظاهر الثائرين كما لا يخفى، فلمّا سحقتهم العساكر العثمانية أعلنت الروسيا الحرب على الدولة العثمانية. وهذه الحادثة تشبه كثيرًا إعلان الروسيا الحرب على النمسا عندما ساقت النمسا جيشها على السرب في أول الحرب العامّة، أي أنَّ الروسيا كانت دائمًا ترى نفسها مرجعًا للأمم السلافية، ولا سيّما الأمم السلافية الأرثوذكسية، فأمّا السلافيون الكاثوليكيون فلم يكونوا يرجعون إليها. فكانت بداية سلطنة عبد الحميد الثاني هي بالحرب مع الروسيا،

ونظرًا لكون تاريخ هذه الحرب معلومًا وعليه تأليف كبير بالإفرنسية « La Puerre Russo Turque » فإنّنا لا نجد لزومًا للتطويل في شأنها، ولا للإسهاب في تاريخ سلطنة عبد الحميد، لأنَّ حوادث أيامه معروفة مشهورة وقد كُتب عنها بكلّ اللغات. فالحرب الروسية التركية جاءت وبالاً على الدولة إذ إنَّ الروسية في القرن الأخير قد نمت نموًا زائدًا فصار عدد سكّانها يفوق عدد سكّان السلطنة العثمانية أربع مرّات بالأقلّ، وكانت البلاد البلقانية من سرب وبلغار وفلاخيين وأروام يدًا واحدة مع الروسيا، ولم تكن هذه الأسباب وحدها كافية للفشل الذي حلَّ بالجيش العثماني، بل حصل خطأ كثير في التدبير العسكري، وكانت لوازم الجيش ناقصة كما هو شأن الدولة في حروبها في العهد الأخير، وتدخّل السلطان كثيرًا في أمور الحرب بدون معرفة. وخلاصة القول أنَّ الروس عبروا نهر الطونة وتقدّموا ظافرين وصار الجيش العثماني بقيادة السردار عبد الكريم باشا يرجع إلى الوراء وكادت الحرب تنتهي بفشل تامّ للعثمانيين، وإذا بعثمان باشا، قاهر السرب، جاء ودخل في قلعة بلاڤنة واعتصم بها، فجمع الروس جيوشهم وصمدوا إليه فكسرهم كسرة شنيعة فأعادوا الكرّة عليه أولاً وثانيًا وفي كلّ مرّة كان يهزمهم، وفي إحدى المرار فقدوا خمسة عشر ألف عسكري، ورجعت الحرب تبشّر بحسن مآل العثمانيين، ولكن عثمان باشا لم يبقَ عنده وهو محصور من كلّ الجهات ذخائر تساعده على الثبات، وجاء قيصر الروسيا اسكندر الثاني بنفسه واستصرخ إمارة رومانيا ـ أي الفلاخ ـ ومولداڤيا وذلك بٱسم النصرانية قائلاً: إنَّها كلّها تحت الخطر، فأنجده الرومانيون بسبعين ألف عسكري انضافت هذه إلى الجيش الروسي المحاصر لعثمان باشا في بلاڤنة. ومع هذا فلولا نفاد الذخيرة لم تكن تلك الجيوش كلّها لتتغلّب على عثمان باشا، وفي آخر وقعة أراد عثمان باشا أن يخرق جيوش الروس برغم كثافتها وينفذ إلى الخارج، فوقع جريحًا فاضطرّ إلى النكوص نحو بلاڤنة. وعرض على إمبراطور الروسيا الاستسلام، ولمّا دخل عليه وأراد أن يسلّمه سيفه كما هي عادة كلّ المستسلمين قال له الإمبراطور: إنَّ قائدًا مثلك يحقّ له أن يُبقى سيفه معه، وبالغ القيصر في إكرامه.

وبعد تسليم بلاڤنة زحفت جيوش الروس إلى الأستانة واحتلّت أدرنة، ووصلت إلى سان استفانو؛ وكان العثمانيون قد أعدّوا جيشًا للدفاع عن الأستانة إلاّ أنهم كانوا يخشون أن تدور عليهم الدائرة بكثرة جيوش الروس، فأمّا من جهة القوقاس فكان القائد الكبير أحمد مختار باشا الغازي قد انتصر على الروس في وقعة "كدكلر" وتقدّم إلى الأمام، ولكن الروس عادوا فتغلّبوا عليه بتفوّقهم في العدد، وكان درويش باشا، قائد الجيش

العثماني المرابط في باطوم، تحت الحصار، فهاجمه الروس مرارًا فدحر جميع مهاجماتهم، وانتهت الحرب وباطوم في يده، هذا وعندما وصل الغراندوق نقولا إلى سان استفانو وطلب السلطان عبد الحميد الصلح، فاشترطت الروسيا شروطًا ثقيلة جدًّا التزمت الدولة العثمانية أن تقبلها خوفًا على الأستانة من السقوط، إلاّ أنَّ الإنكليز وجدوا الصلح على هذه الشروط عبارة عن استيلاء الروسيا القريب على سلطنة آل عثمان ووصولهم إلى البحر المتوسّط، فاعترضوا الروسيا ودخل أسطولهم إلى الأستانة وأجبروا الروس على تمزيق المعاهدة، وفاوضوا الدول السبع في عقد معاهدة ثانية بدلاً عن معاهدة "سان استفانو". فتقرّر عقد مؤتمر برلين المشهور، واتّفقت الدول هناك على أن تكون إمارة رومانيا مملكة مستقلّة تمامًا عن السلطنة العثمانية، وأن تستقلّ تمامًا أيضًا إمارة السرب ويسمّى أميرها "ميلان أونوفتش" ملكًا عليها، وأن يستقلّ الجبل الأسود ويُعطى قسمًا من بلاد الأرناؤوط، وأن تضاف تساليا وأبيروس إلى اليونان، وأن تكون بلاد البلغار إمارة تحت سيادة السلطان ويليها ولاية ممتازة.

ومن جهة آسيا تضاف قارص وأردهان وباطوم توابعها إلى الروسيا؛ وأن تدفع الدولى العثمانية غرامة حربية وتعويضات لتجّار الروس الذين لحقتهم خسائر بسبب تدمير الأسطول العثماني لسواحل الروسيا، وهذا هو مجمل معاهدة برلين، وبعد ذلك اتّفقت الدولة مع إنكلترة على أن تتخلّى لها عن قبرص، وتؤدّي إنكلترة للدولة خراجًا سنويًّا عن هذه الجزيرة، وبمقابلة هذا التخلّي تعهّدت إنكلترة للدولة بأنه إن تجاوزت الروسيا على حدود تركيا من جهة آسيا تكون إنكلترة مساعدة لها، ثمَّ تقرّر بموجب "معاهدة برلين" هذه أن تحتلّ النمسا ولايتَي بوسنة والهرسك احتلالاً مؤقّتًا، ولمّا دخلت الجيوش النمساوية هاتين الولايتين ثار في وجهها مسلمو تلك البلاد وبقيت المعارك بين الفريقين مدّة أربعة أشهر، ولم يساعدهم الأهالي السربيون في شيء، بل انحصرت المقاومة في المسلمين. وكذلك ثار الأرناؤوط في وجه الجبل الأسود وأبوا أن يلتحق من بلادهم شيء بحكومة الجبل المذكور. وكان الشركس والطاغنسطانيون ثاروا على الروس في أثناء الحرب بين الدولة والروسيا، فلمّا انكسرت الدولة هاجر منهم مئات ألوف إلى الأناضول. وبعد مضى عدّة سنوات على معاهدة برلين شنَّ اسكندر، أمير البلغار، الغارة على ولاية الروملّي الشرقية، وألحقها بإمارة البلغار، فصارت الولايتان واحدًا، وفكّر السلطان عبد الحميد في

سوق جيش لإرجاع الشيء إلى ما كان عليه، إلاّ أنَّ كامل باشا أشار بعدم الحرب، وبإقرار هذه المسألة، فأعجب رأيه السلطان وجعله صدرًا أعظم.

ولمّا رأت فرنسا ما حلَّ بالدولة العثمانية من الضعف أرادت أن تستغلّ ضعفها بالاستيلاء على تونس، فلم يصعب عليها أن توجِد لذلك سببًا، وشنّت الغارة على تونس، وأجبرت باي تونس محمَّد الصادق على إمضاء معاهدة تضمن لتونس استقلالها الداخلي تحت حماية فرنسا، وكان ذلك سنة ١٨٧٩ واحتجّت الدولة على ذلك ولكنّها لم تقدر على محاربة فرنسا من أجل تونس. وزعمت فرنسا بأنه جاء وقت على تونس لم يكن فيه للباب العالي عليها إلاّ سيادة إسمية، وثار بعض الأهالي والجند التونسي بقيادة علي بن خليفة ولكن لعدم تكافؤ القوّتين انتهت الثورة بتغلّب الفرنسيس كما حصل في الجزائر من قبل ولو لم تحتلّ فرنسا بلدة الجزائر لم تكن لتستولي على المغرب الأوسط كلّه العمالات الثلاث؛ الجزائر، ووهران، وقسطينة، ثمَّ إنَّه بقيت فرنسا خمسين سنة تقاتل أهل الجزائر حتّى أدخلتهم في الطاعة. فلمّا انتهت منهم بدأت تفكّر في الاستيلاء على تونس، ولمّا انتهت من خطب تونس بدأت تفكّر في الاستيلاء على المغرب الأقصى، ولمّا رأت إيطاليا أنَّ فرنسا استأثرت بهذه الممالك الثلاث من دونها اعترضت على فرنسا من جهة، واعترضت على إنكلترة من جهة أخرى وقالت لهما: إنَّكما تقاسمتما قارّة إفريقية، فمصر والسودان لإنكلترة، وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وأواسط أفريقية لفرنسا، ولم تدعا لإيطاليا شيئًا! فاتّفقت هذه الدول الثلاث على أن تكون لإيطاليا ولاية طرابلس مع برقة، ومن هنا جاءت حرب طرابلس، وهكذا الاستعمار سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض. ومَن تساهل في أمر ملكه في البداية خوفًا من شرّ أعظم فإنَّه لا يلبث أن يقع في أعظم من الشرّ الذي تفاداه. وكذلك احتلال الإنكليز لمصر كان نتيجة وقوع تركيا في الضعف الذي كانت الروسيا هي السبب فيه.

وإذا نظرنا إلى حروب الروسيا نجد أنها كانت تقدّم رجالها وأموالها، وتنفق النفائس والأنفس في سبيل غيرها، فاستقلال اليونان، والجبل الأسود، والسرب والبلغار، والرومانيين واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك، واستيلاء فرنسا على تونس واحتلال الإنكليز لوادي النيل والسودان، واحتلال إيطاليا للأريتري ثمَّ لطرابلس وبسط إنكلترة حمايتها على لحج وحضرموت، وظفار، وسلطنة عمان، وجزيرة البحرين، ومدينة الكويت، ونزولها في جزيرة قبرص، كلّ ذلك كان من نتائج الضعف الذي أوقعته الروسيا بتركيا، فالروسيا كانت تطبخ والآخرون كانوا يأكلون.

وفي زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثة الجلّى وهي احتلال الإنجليز لمصر وبسببها نفر السلطان من إنكلترا نفورًا شديدًا، وصار الإنكليز يعملون بكلّ الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية. وقد تقدّم لنا في التاريخ أنَّ عيون الإنكليز كانت طامحة إلى مصر منذ قرون، وأنها على أثر خروج الفرنسيس من مصر أرادوا أن يستأثروا هم بها، ولكن محمَّد علي لم يكن كالمماليك، فأجبر الإنكليز على الخروج من مصر وبقيت إنكلترا تترصّد الفرصة لاحتلال وادي النيل في أول فرصة، لا سيّما بعد فتح برزخ السويس الذي جعل طريق الهند على مصر.

وكأنَّ إنكلترا استأجرت قبرص من الدول العثمانية لتكون لها قاعدة بحرية في وجه مصر، وقد حدث أنَّ الجيش المصري كان فيه عنصران؛ أحدهما عربي مصري والآخر تركي وشركسي، فحصل خلاف بين العنصرين لم يعرف العقلاء أن يتداركوه ولا حسبوا حسابًا للعواقب، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطني مصري ترأّسه الميرالاي «أحمد عرابي» وصار هذا الحزب يطالب بحقوق المصريين الأقحاح ووقف موقفًا مناوئًا للخديوي توفيق باشا. فشعر الإنكليز بأنَّ هناك حركة يمكنهم أن يستفيدوا منها، فأخذوا يتدخّلون فيها بحجّة أنَّ لهم مصالح مالية في مصر يخشون عليها، وكانت أمنيتهم إنَّما هي إحداث ثورة في مصر يتمكّنون بسببها من الاحتلال، وتحقيق تلك الأمنية القديمة وهي الاستيلاء على الديار المصرية. فأعملوا في هذا الموضوع جميع الدسائس التي اشتهروا بها، ولم تكن شهرتهم فيها بدون أساس. فأخذ الحزب الوطني ينمو تحت زعامة عرابي ومحمود سامي وغيرهما من الزعماء، وانقلب عن أصله فبدلاً من أن يكون منحصرًا في دائرة ضيّقة مناوئًا للأتراك والشركس، أصبح حزبًا هدفه الأسمى كسر نفوذ الأوربيين في مصر، لأنَّ نفوذهم كان بلغ في زمن اسماعيل باشا مبلغًا لا يكاد يتصوّره العقل؛ فإنَّ اسماعيل وضع نصب عينيه إدخال مصر في المدنيّة العصرية الأوربية، وظنَّ أنَّ من لوازم هذا المبدأ ترغيب الأوربيين في السكنى بمصر وتمييزهم على الأهالي في كلّ شيء، فانتهى الأمر بأن أصبح الأهالي في حكم العبيد للأجانب.

فلمّا تألّف هذا الحزب الوطني نظر إلى حالة البلاد فوجدها أصبحت لا تطاق من جهة النفوذ الأوربي، فترك مناوأة الترك والشركس واتّحد معهم على مناوأة الإفرنج، وأخذ الإنكليز يشعلون النار حتّى يحدثوا ثورة من المصريين على الأوربيين وكان السلطان عبد الحميد قد ارتكب هو وأعوانه خطأ كبيرًا ساعد الإنكليز في الوصول إلى مرامهم، وذلك

أنه أخذ يقوّي الحركة العرابية بطريق غير مباشرة على أمل إسقاط الخديوي توفيق وعائلة محمَّد علي كلّها، وإعادة مصر ولاية عثمانية كسائر الولايات، وكان هذا رأيًا سقيمًا جدًّا. إذ لا يُعقل أنَّ الدولة بمكانها من الضعف وكثرة المشكلات والخطوب تفتح على نفسها أبوابًا كهذه يتعذّر عليها سدّها فيما بعد وتجعل العائلة الخديوية ضدّ الدولة أحوج ما كان الفريقين إلى الوئام لِما هناك من الخطر الأجنبي على الاثنين، ثمَّ إنَّه لمّا شعر الأجانب بأنَّ الحركة العرابية منظور إليها بعين الرضا في الأستانة، طلبوا من السلطان أن يصدر فرمانًا بعصيان عرابي باشا ولم يسعه إلاّ إجابة طلبهم فبعد أن كانت سياسة الأستانة مشجّعة للعرابيين على العصيان رجعت تحت الضغط الأجنبي إلى تقوية الخديوي وكسر نفوذ العرابيين بحيث انفضّ عنهم كثيرون بحجّة أنَّ السلطان الخليفة أعلن عصيانه.

ومع هذا فبقيت الثورة تمتدّ وتشتدّ حتّى جرت مذبحة الإسكندرية، وذهب فيها كثير من الأجانب، وانتشرت الفوضى في البلاد، وهذا الذي كانت إنكلترة تتمنّاه حتّى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب، وبالفعل دخلت منه وجاء الأسطول الإنكليزي فضرب الإسكندرية ودمّر قلاعها بالقنابر، ثمَّ بعد تدميرها نزلت العساكر الإنكليزية إلى البلدة، ثمَّ وقعت الحرب بين الإنكليز والعرابيين وكان الإنكليز في ظاهر الحال يحاربون باسم الخديوي والسلطة الشرعية.

وانقسم الناس في مصر إلى قسمين؛ منهم مَن استمسك بالخديوي وقاوم العرابيين بحجّة أنهم خارجون عن السلطة الشرعية، ومنهم مَن انحاز إلى العرابيين بحجّة أنهم المدافعون عن الوطن، وحشد العرابيون جيشًا في التلّ الكبير وصمّموا على المقاومة هناك فزحف إليهم الإنكليز وبدّدوا شملهم في أقلّ من ساعتين، ثمَّ سارت العساكر الإنكليزية ودخلت القاهرة، وكلّ هذا بزعمهم على نيّة تأييد الخديوي، والرجوع من حيث أتوا، ولبث الجيش الإنكليزي مدّة من الزمن في مصر بحجّة توطيد سلطة الخديوي المتزعزعة، فكلّما طالبت الدولة الإنكليزية بالجلاء عن مصر كان جوابهم إنَّ هذا يكون بعد توطيد الأمن، وتمكين الخديوي وكيل السلطان الشرعي. ثمَّ إنّهم عقدوا مجالس عسكرية، وحاكموا العرابيين، ونفوا عرابي باشا ومحمود سامي باشا وعددًا من الباشوات إلى جزيرة سيلان في الهند، كما أنهم نفوا عددًا من الضبّاط الكبار إلى بيروت، ونفوا أيضًا معهم إليها الشيخ محمَّد عبدو، وابراهيم اللقاني وغيرهما من الوطنيين أصحاب الأقلام، وطال مكث الإنكليز في مصر والباب العالي يعترض عليهم ويطلب جلاءهم بحسب وعدهم، حتّى أنهم

أحصوا مواعيدهم الرسمية بالجلاء فبلغت اثنين وستّين وعدًا نكثوا بها كلّها! وكان احتلال الإنكليز لوادي النيل سنة ١٨٨٢ وبعد أخذ وردّ طويلين بين إنكلترة والباب العالي وصل الفريقان إلى اتّفاق على الجلاء اشترطت فيه إنكلترة حقّ احتلالها لمصر فيما إذا تجدّدت فيها حوادث مخلّة بالأمن، أو وقائع ذات خطر على حياة الأوربيين، وكاد السلطان عبد الحميد يوقّع على هذا الاتّفاق، إلاّ أنَّ فرنسا ألحّت عليه برفضه فامتنع في آخر ساعة من التوقيع عليه.

وكان مراد فرنسا الحقيقي أن تتّفق هي رأسًا مع إنكلترة فتترك منازعتها على مصر بمقابلة تخلي إنكلترة عن منازعتها إيّاها على مراكش، وهكذا تمَّ بينهما فيما بعد وأصبحت إنجلترة في مصر لا ينازعها سوى الدولة العثمانية التي كانت مشكلاتها الكثيرة وعداوتها مع الروسيا تقييدها تقييدًا شديدًا عن الاندفاع في عداوة إنكلترة. وأمّا فرنسا فبَطُل اعتراضها على إنكلترة في احتلال مصر بمقابلة سكوت إنكلترة عن احتلال فرنسا للمغرب.

وبقيت الحال على غير استواء بين إنكلترة والدولة العثمانية مدّة سلطنة عبد الحميد كلّها، وذلك كلّه بسبب مصر، وكان السلطان قد أرسل إلى مصر الغازي مختار باشا مندوبًا من قِبله لملاحظة مصالح الدولة، وكان المصريون يجلّون مختار باشا مزيد الإجلال باعتبار تمثيله للسلطان الخليفة، وأيضًا بسبب كونه في نفسه قائدًا عظيمًا، وعالِمًا كبيرًا، ولكن الإنجليز لم يجعلوا له سبيلاً لأيّ تدخُّل في أمور مصر، ووضعوا هناك مسيطرًا على مصر السرّ «إڤلين بارنغ» الذي لقّبوه فيما بعد بـ «اللورد كرومر». وكان هذا الرجل شديد الغطرسة، متكبّرًا فظًّا، وله عداوة خاصّة للإسلام، فتصرّف بأمور مصر كما لو كانت إحدى مستعمرات إنكلترة، وفي زمانه ثار السودانيون تحت قيادة محمَّد أحمد الذي لقّب نفسه بـ«المهدي» فقالوا له المتمهدي، وانقضّوا على العسكر المصري الإنجليزي الذي كان يقوده «غوردون باشا» فاستأصلوه، وكان عدده عشرة آلاف جندي. واستولى المهدي على السودان وانقطع الحكم الإنكليزي المصري من هناك، ومات المهدي فخلفه «التعايشي» وكان هذا ظالمًا عاتيًا جبّارًا، فأسرف في سفك الدماء، وأفنى كثيرًا من الخلق فتغيّرت عليه قلوب الأهالي وصاروا يريدون التخلّص منه.

وفي ذلك الوقت قرّر الإنكليز استرجاع السودان، فجهّزوا جيشًا مصريًّا عهدوا بقيادته إلى ضبّاط منهم، وأنفقوا على الحملة من خزانة مصر، وفتحوا السودان ولكن بدلاً من أن يردّوه إلى مصر كما كان جعلوا الحكم مشتركًا بينهم وبين المصريين ـ بزعمهم ـ والحقيقة

أنهم جعلوا شركة لمصر بالاسم فقط، وبرفع العلم المصري، وقبضوا على كلّ شيء، وتصرّفوا بكلّ شيء كما يشاؤن. وهم الذين أذنوا لإيطاليا في احتلال مصوع، وعصب، والاستيلاء على بلاد عثمانية واسعة كانت تحت إدارة الحكومة المصرية، ولمّا احتلّ الإنكليز مصر كانت الحكومة المصرية تدير من قِبل الدولة شمالي بلاد الحجاز، ففي الحال فطن والي الحجاز لمغبّة هذا الأمر، وأخرج قضاء الوجه من تحت الإدارة المصرية.

ولكنّه بقي في يد مصر القسم الأكبر من شبه جزيرة سينا، فأراد العثمانيون إجراء تحصينات في القلاع التي إلى المغرب من العقبة، فاعترضت إنكلترة على الدولة في ذلك، فأصرّ السلطان على التصرّف ببلاده بحجّة أنها بأجمعها بلاد عثمانية، فاستبدّ الإنكليز في هذه المسألة استبدادًا شنيعًا، وأنذروا الدولة بالحرب. وكأنَّ مصر أصبحت في نظرهم من جملة الإمبراطورية البريطانية، فازداد السلطان عبد الحميد شنآنًا لبريطانيا العظمى، وكان ذلك من جملة أسباب موالاته لألمانيا. وانعقدت بينه وبين الإمبراطور غليوم الثاني مودّة أكيدة صارت تزداد بمرور الأيام؛ وعوّل السلطان على ألمانيا في تدريب جيشه، واستدعى «فون غولتس» من قوّاد ألمانيا ليكون على رأس المدرسة العسكرية في الأستانة واستجاد غيره من أهل العلم والصنعة في ألمانيا واستخدمهم في حكومته. وكان يرسل له كلّ سنة عددًا كبيرًا من الطلبة إلى ألمانيا، وبقي السلطان عبد الحميد صديقًا للإمبراطور غليوم إلى نهاية ملكه.

ولمّا أُعلن الدستور العثماني صار الأمر إلى جمعيّة الاتّحاد والترقّي، ظنَّ رجال هذه الجمعيّة أنهم يتركون صداقة ألمانيا التي كانت تعتمد على السلطان عبد الحميد وتنال بواسطته الامتيازات في تركيا، ومن جملتها سكّة حديد بغداد، رأوا أن يرجعوا إلى صداقة إنكلترة، وأخذوا يتزلّفون إلى هذه ويذكّرونها بالصحبة القديمة يوم كانت إنكلترة تساعد العثمانيين على الروس، ويوم كان السلطان عبد الحميد في ثورة الهند الكبرى يخاطب مسلمي الهند ناصحًا لهم بعدم الاشتراك مع الهنادك في محاربة الإنكليز، إلاّ أنَّ المسألة المصرية منعت كلّ تقارب بين العثمانيين والإنكليز وما مضت ثلاثة أشهر على حكم الاتّحاديين في تركيا حتّى رجع الاتّحاديون وأدركوا أنَّ لا أمل في عطف الإنكيلز وعادوا أصدقاء لألمانيا كما كان السلطان عبد الحميد وبقيت الأحوال في تركيا وإنكلترة مُشربة بروح العداوة إلى الحرب العامّة أي كانت قد بدأت العداوة بين إنكلترة وتركيا من سنة ١٨٨٢، لأجل مصر واستمرّت إلى ١٩١٤ أي إلى سنة الحرب العامّة وهي مدّة اثنتَي وثلاثين سنة. وذلك كلّه بسبب احتلال الإنكليز لمصر والسودان وتوابعهما. ثمَّ خاضت

الدولة غمرات الحرب العامّة إلى جانب ألمانيا نفورًا من إنجلترة، ولمّا بدأت الحرب الكبرى وحاولت دول الحلفاء الروسيا وفرنسا وإنجلترة إقناع الدولة العثمانية باجتناب الحرب؛ كان أول شرط اقترحه رجال الدولة هو إخلاء الإنجليز لمصر، وكان الأتراك مستعدّين أن يقبلوا التحالف مع الإنجليز إذا أراد هؤلاء إخلاء مصر، فلم يقبل الإنجليز أن يسمعوا كلمة واحدة في هذا الموضوع.

وعندما دخلت الدولة في الحرب العامّة أعلنت إنجلترة الحماية على مصر، وخلعت الخديوي عباس حلمي المنصوب بفرمان سلطاني، ونصبت عمّه الأمير حسين بن اسماعيل سلطانًا على مصر، وأرادت تجنيد جيش من المصريين لقتال الأتراك فاعترض على ذلك السلطان حسين نفسه لأنه كان وطنيًا صادقًا، ورضي بعض زعماء مصر بالدخول في الحرب إلى جانب إنجلترة على شريطة أنّ إنجلترة تعترف باستقلال مصر وتخلّي وادي النيل فرفضت إنجلترة هذا الطلب أيضًا وأصرّت على إرادتها وساقت من المصريين عشرات الألوف استخدمتهم في جيوشها، وتصرّفت برجال مصر وأحوال مصر كما تتصرّف بالهند أو بغيرها من المستعمرات الإنجليزية.

وكانت إنجلترة لا تفكّر أصلاً أن تلقي شيئًا من القوّة الحيوية التي ظهرت من السلطنة العثمانية في أيام الحرب الكبرى، ولكن عندما حمى الوطيس ورأت دول الحلفاء ما رأته من قوّة تركيا، وعظمة المقام الذي قامته بجانب ألمانيا؛ علمت خطل رأيها وكونها استخفّت بتركيا استخفافًا دلّت الحوادث على أنه لم يكن في محلّه. ففكّر قوّاد الإنجليز في اختراق الدردنيل والاستيلاء على الأستانة، وعبّأ الحلفاء جيشًا جرّارًا وأرسلوا أساطيلهم وحاولوا عبور مضيق الدردنيل، فقاتلهم العثمانيون قتالاً شديدًا وأغرقوا جانبًا من بوارجهم، فأتوا بجيوش أخرى وأنزلوها في البرّ وحاولوا التقدّم إلى الأمام، فصادمهم الترك بشدّة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصوّر العقل. واستمرّت حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر والحلفاء يكرّون والعثمانيون يصدّونهم، إلى أن قطع الحلفاء كلّ أمل من الفوز وركبوا بوارجهم خائبين، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف جندي حسبما قرأت في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريز، وفيها أنّ هذا العدد هو خسائر الجنود البرّية، ولم يدخل فيه عدّة آلاف من خسائر الأساطيل، وقد جاء في هذا الكتاب أنّ بعض البوارج التي أغرقها العثمانيون بمدافعهم لم ينجُ من بحريّتها إلاّ عشرون جنديًا لا غير، وقد كانت حرب الدردنيل هذه هي ألمع صفحة من تاريخ العثمانيين في الحرب الكبرى، كما كانت حرب

بلفنة ألمع صفحة من تاريخ الحرب الروسية التركية. وتُعدَّل خسائر العثمانيين في حرب الدردنيل بمئتَي ألف مقاتل بين قتيل وجريح.

ولمّا رأت إنجلترة بعينها أنَّ حسبانها من جهة تركيا وقوّة مقاومتها كان أكثره خطأ؛ عادت ففكّرت في فصل العرب عن الترك حتّى تشغل العثمانيين بعضهم ببعض.

وقد كان الشريف حسين بن علي، أمير مكّة، قبيل الحرب الكبرى داخَل الإنكليز في عقد محالفة معهم على أن يثور على الدولة وتمدّه إنكلترة بالمال والسلاح إلى أن تستقلّ البلاد العربية وتنفصل عن تركيا، فرفضت إنجلترة اقتراح أمير مكّة هذا استخفافًا بالقوّة العربية، واعتمادًا على أنها لا تحتاج إلى العرب في القضاء على تركيا إذا نشبت الحرب، وكان معلومًا أنَّ الحرب العامّة ستقع لا محالة، ولذلك اتّفق الإنجليز والفرنسيس على اقتسام سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢، أي قبل الحرب العامّة بسنتين. وهذا من أوضح الدلائل على كون دول الحلفاء كانت تتأهّب لقتال ألمانيا ولاقتسام تركيا بعد تغلّبهم على ألمانيا، وأيضًا يستدلّ على تلك النيّة التي كانت عندهن بأنَّ تركيا في أول الحرب العامّة عندما صار الحلفاء يراودونها على عدم الدخول في الحرب أجابتهم بأنها لا تقدر أن تبقى على الحياد التامّ خوفًا من أن يتّفق الجميع عليها ويتصالحوا على ظهرها، فهي إن لم تدخل في الحرب إلى جانب ألمانيا، فلا بدَّ لها من الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء تحت محالفة تعقد بينهم وبين تركيا. فرفضت إنجلترة هذا الاقتراح، ولم تجد من حاجة إلى عقد محالفة مع تركيا قد تمنعها فيما بعد من الاستيلاء على البلاد العربية. وهذا مثل رفضها للتحالف مع مصر وللسبب نفسه وكذلك مثل رفضها للتحالف مع إيران وللسبب نفسه، أي حتّى لا تضطرّ إلى الاعتراف باستقلال هذه الممالك الإسلامية التي كان الإنجليز وضعوا نصب أعينهم القضاء عليها.

ونعود إلى أخبار السلطان عبد الحميد فنقول: إنَّ من أهمّ الحوادث التي جرت في أيام هذا السلطان هو فتنة الأرمن، وهذه الفتنة أساسها أنَّ الأرمن كانت لهم في الأعصر القديمة دولة، وكان لهم استقلال، وكانت مملكتهم واقعة في شرقي الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية، ولمّا استولى الأتراك على تلك البلاد في أيام الأتراك السلاجقة، وبعد واقعة ملازكرد التي وقع فيها قيصر القسطنطينية أسيرًا رحل منهم جانب إلى غربي الأناضول، وأقاموا في جبال طوروس وفي سهول كيليكيّة. وكانت لهم هناك إمارات لعبت

أدوارًا في الحروب الصليبية، وسواءً كانوا في شرق الأناضول أو في غربيّه، لم تكن لهم أكثريّة عدد بالنسبة إلى السكّان المسلمين. وإذا وجدت منهم جماعة في مقاطعة صغيرة كانت أكثر من غيرها فلم يكن ذلك ليقيم لهم ملكًا مستقلاً، وقد كانت الدولة العثمانية أحصت عددهم في جميع بلادها فكانوا لا يزيدون على ثلاثة ملايين مبعثرة ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليونًا من الأمم الأخرى. ففي بعض الولايات كانوا خمسة في المائة، وفي بعضها عشرة في المائة.

وأكثر الولايات سكّانًا من الأرمن كانت ولايات مُوش، وبِتْلِس، في شرقي الأناضول وكانوا هناك خمسة وثلاثين في المائة، وبرغم هذا كلّه كانوا يزعمون أنَّ لهم حقًّا في الاستقلال كما استقلّ اليونان، والبلغار، والسربيون، والفلاخيون وغيرهم من الأمم المسيحية التي كانت خاضعة لسلطنة آل عثمان. ولكن هذا قياس مع الفارق، فإنَّ الفلاخيين والبُغدانيين كانوا عدّة ملايين من أمّة واحدة، وعلى حدود الروسيا ولم يكن بينهم إلاّ مئتان أو ثلاثمائة ألف من الترك، وإنَّ السربيين كانوا مليونَي نسمة، وليس بينهم سوى بضعة عشر ألف مسلم. وكذلك البلغار كانوا خمسة ملايين وليس بينهم سوى مليون من الأتراك، وكان اليونان من قبل أكثر من مليون في بلادهم وليس بينهم إلاّ مائتان أو ثلاثمائة ألف من المسلمين. فلذلك تيسّر لهذه الأمم أن تقوم وتدّعى الاستقلال، وتقاتل الدولة العثمانية قتالاً لم يكن يخمد حتّى يشتعل، واستمرّ ذلك مئات من السنين، فانتهى الأمر بانسلاخ هذه الأقوام عن السلطنة العثمانية بمساعدة أوربا.

فأمّا الأرمن فلم يكونوا في أوربا مثل اليونان، ولا البلغار، ولا السرب، ولا الرومانيين، ولم يكونوا مجتمعين في ولاية واحدة حتّى تتألّف منهم كتلة تستحقّ الاستقلال، وإنّما كانوا مشتّتين في جميع ولايات السلطنة، وكانوا في كلّ مكان هم الأقلّية، ولم يكن سائر السكّان من أتراك وأكراد يقبلون الخضوع للأرمن. فلهذا كان ادّعاؤهم الاستقلال غير وارد ولا من جهة، وكان بينه وبين إمكانه فعلاً بون شاسع. وهذا ما قد كان يدركه قدماء الأرمن، فلذلك كانوا وطّنوا أنفسهم على الارتباط بالدولة العثمانية التي كانت تعتمد عليهم، وتستخدم كثيرًا منهم حتّى في المناصب العالية. وفي ظلّها نما عددهم، وازدادت ثروتهم، ولمّا كانوا هم أهل جِدّ نشاط، وإقدام على الأعمال؛ كان كثير من مرافق السلطنة في أيديهم، وأينما توجّه الإنسان في البلاد العثمانية كان يجد على الأرمن آثار النعم. وكانت الدولة تثق بهم وكان الأتراك يخلطونهم بأنفسهم، ويسمّون الأرمن «الملّة الصادقة».

واستمرّت الحال على هذا المنوال إلى أن بدأ الضعف في السلطنة العثمانية، فصار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص من خطوب الدولة ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم، وإن كانت قد درست معالم ذلك الملك، وكانوا هم تفرّقوا شذر مذر، وزاد هذا الادّعاء عندهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم في أوربا وأمريكا فجميع هؤلاء الشبّان الذين كانوا يتعلّمون في الديار الأوربية والأمريكية كانوا يعودون متشبّعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية، وكان الأوربيون بواسطة رسالاتهم الدينية الكثيرة يذهبون إلى الديار التي فيها أرمن من تركيا ويفتحون المدارس والملاجئ، وكان جميع مَن يتعلّم في هذه المدارس الأوربية يخرج كارهًا للدولة، عدوًّا للمسلمين، وذلك بسبب المبادئ التي كان الأوربيون - ولا سيّما الأقسّة والمبشّرون - يرضّعونهم إيّاها من الصغر. فأهمّ عوامل الشقاق الذي وقع بين الأرمن وبين سائر الرعيّة العثمانية، كان هو التعليم في مدارس الأوربيين، فأصبح غير ممكن تساكن الجنسين بعضهم مع بعض، وظهرت عند الأرمن نزعات شيطانية، ونزعات عدوانية تخالف ما كان عند آبائهم بتمامه، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم وبين المسلمين ودارت الدائرة على الدولة في الحرب التركية الروسية.

طلب الأرمن من الدول الأوربية استقلالاً داخليًّا للبلاد التي في شرقي الأناضول على أمل أن يجدّدوا هناك مملكة أرمينية القديمة، وبديهيّ أنَّ الدول في مؤتمر برلين أمكنها أن تفصل الولايات الأوربية التي كانت للدولة بسبب كثرة المسيحيين فيها، وقلّة المسلمين الذين يساكنونهم، ولكنّها لم تقدر أن تفصل الأرمن عن حكم الدولة العثمانية نظرًا لقلّة عددهم بالنسبة إلى مَن يساكنهم من المسلمين، فقرّرت اقتراح بعض إصلاحات إدارية في البلاد التي فيها أرمن، ولمّا كانت هذه الإصلاحات ليست هي مرمى الأرمن الحقيقي سواءً أنفّذها الأتراك أو لم ينفّذوها؛ لم تكن هذه المسألة لتشفي للأرمن غليلاً.

فمن ذلك الوقت شرعوا يعدّون معدّات الثورة ويتحفّزون للقيام على الدولة حتّى ينالوا ما يريدونه بالثورة، فأخذوا بتشكيل جمعيّات سرّية جعلوا مركزها في أوربا وهي ذات شعب وفروع في جميع البلاد التي فيها أرمن، فكان المركز الأرمني بالوسائل الكثيرة التي له؛ يجمع الأموال من الأوربيين ومن الأرمن الموسرين، ويقرّر الأعمال ويرسم الخطط والحركات، ويشتري الأسلحة ويعيّن متطوّعين فدائية يفادون بأنفسهم في سبيل مصلحة أمّتهم.

وهكذا جعلوا حركة الانتقاض على الدولة تكاد تكون عامّة، لا سيّما بين النشء الجديد، وكانوا إذا رأوا من أبناء قومهم مَن لا يريد أن يسايرهم في طريقهم إمّا اقتناعًا بفساد عملهم، أو خوفًا من سطوة الدولة؛ بطشوا به وعدّوه خائنًا، كانوا يستحلّون دمه وقد قتلوا من هذا النمط عددًا غير قليل منهم، وكانوا يعلّمون أحداثهم أسماء ملوك الأرمن القدماء، ويذكرون أسماء قدّيسي الأرمن في الكنائس ليثيروا في رؤوس الشبّان الحمية الأرمنية، ويحيوا تذكار الملك الأرمني القديم. وكلّ هذا تحمّلته الدولة العثمانية مدّة طويلة، ولكنّها في الآخر رأت أنَّ رعيّتها المسلمين لن يستطيعوا على هذه الأحوال صبرًا، فأمرت بإقفال بعض مدارس كانت تلقى فيها بعض التعاليم الثورية، فثار الأرمن بسبب إقفال هذه المدارس، وقاموا بحركة عصيان، وكان الأتراك والأكراد قد امتلأت صدورهم وغرا منهم فحصلت حوادث وسالت دماء في ولاية أرضروم، وموش، فجاء الأرمن يشكون إلى الدولة وقامت قيامتهم في الأستانة وطلبوا من بطريركهم عشقيان أفندي أن يراجع السلطان في الاقتصاص من المسلمين الذين حملوا على الأرمن.

ولمّا وجدوا من عشقيان أفندي فتورًا في المراجعة هجموا عليه وهو في كنيسة «قوم قبو» وحاولوا قتله ففرّ من بين أيديهم وتوارى ريثما جاءت الشرطة فقبضت على الثائرين وألقوا عددًا كبيرًا من شبّان الأرمن في غيابات السجون. وكانت تشكّلت في استانبول لجنة أرمنية ثورية اسمها «اللجنة الحمراء» يديرها أرمني من التبعة الروسية اسمه «آغوب بدريكوف» وأخذت هذه الجمعيّة السرّية تفتك بالأرمن الذين كانوا لا يوافقون على الثورة فقبضت السلطة على بدريكوف هذا وحكمت عليه المحاكم بالقتل، ولكن السلطان عفا عنه وسلّمه إلى سفارة الروسيا على شرط إخراجه من الأستانة وخرج، ولكن اغتيال الأرمن الصادقين للدولة بقي مستمرًّا، وكانت هذه الوقائع سنة ١٨٩٠.

ثمَّ إنَّ جمعيّات الأرمن لا سيّما التي يقال لها «هيكان» ازدادت جرأة وأخذت تبثّ حركة العصيان في الأناضول فاشتعلت الفتنة في سيواس، وأنقرة وقونية، وأطنة وقبضت الدولة على المشاغبين، وأخذت بمحاكمتهم، وأكبرَ الناس ـ حتّى عقلاء الأرمن أنفسهم ـ هذه الحركات وأصدر البطريرك عشقيان أفندي منشورًا ينصح فيه أمّته بالإخلاد إلى السكون وتجنّب هذه الحركات المخالفة للأمانة للدولة، ولمصلحة الأرمن أنفسهم. فما مضى على ذلك أيام قلائل حتّى أطلق أحد المنسوبين إلى هذه الجمعيّات الرصاص على البطريرك وهو في كنيسة قوم قبو، ولكنّه أخطأه، فأخذت الحكومة العثمانية تشدّد في معاقبة ثوّار الأرمن.

وفي أثناء ذلك نجمت بوادر الثورة في جبل يقال له «جبل ساسون» من سنجق موش، في ولاية بتِلس. وذلك بأنَّ أهالي هذا الجبل كانوا امتنعوا عن تأدية الضرائب، فأبرق والي بتلس إلى الباب العالي عن عصيان أهالي هذا الجبل، ووجوب تأديبهم. فأرسلت الدولة المشير زكي باشا بقوّة من المشاة والخيل والمدفعيّة فدمّروا ديار العصاة، وجعلوا عاليها سافلها. فما وصلت أخبار إيداب الدولة لعصاة الأرمن إلى صحف أوربا حتّى قامت قيامتها، وأخذت تتكلّم عن مذابح الأرمن كما هي عادتها كلّما ثار ثائر أمّة مسيحية على حكومة إسلامية.

وما زالت الصحف الأوربية تضرب على هذا الوتر حتّى أمر السلطان عبد الحميد بإرسال لجنة تحقيق إلى محلّ الواقعة، ودعا الدول التي هنّ موقّعات على معاهدة برلين أن ترسل معتمدين من قِبلها مع اللجنة المذكورة ليشهدوا سير التحقيق، فجرى التحقيق بحضورهم وثبت عصيان الأرمن بشهادات تفوق الإحصاء وأدلّة لا تقبل المراء، ومع ذلك فقد بقي قناصل الدول فرنسا وإنكلترة والروسيا يدّعون أنهم لم يقدروا أن يتّصلوا تمام الاتّصال بالأهالي حتّى يطّلعوا على الحقائق. ثمَّ عندما وجدوا كون هذا العذر واهيًا جعلوا يقولون إنَّه على فرض وقوع عصيان فلم يكن من العدل أن يتناول العقاب جميع أهالي الناحية، والحال أنه قد بطش الأكراد بالأرمن الذين ثاروا على الدولة وذلك بمرأى ومسمع من العساكر العثمانية، وأخذت الصحف الأوربية تحت تأثير الكنائس لا سيّما في إنكلترة تستفزّ الدول إلى التدخّل لرفع المظالم عن الأرمن، ولمّا كانت إنكلترة تسمع كثيرًا لرؤساء الكنائس في بلادها سعت لدى الدول في التدخّل بهذه المسألة فأجابتها فرنسا والروسيا، واتّفقت الدول الثلاث على تقديم اقتراحات للسلطان لأجل إصلاح الإدراة في البلاد التي كان الأوربيون يطلقون عليها اسم «أرمينية» وهي في الحقيقة بلاد الأكراد.

فمن جملة هذه الاقتراحات تعيين مفتّش عامّ لتلك الولايات، وتشكيل لجنة مختلطة دائمة لمراقبة سير الإصلاحات، ويكون مركز اللجنة في الأستانة. فرفض السلطان قبول تشكيل هذه اللجنة الدائمة المختلطة، وعيّن المشير شاكر باشا مفتّشًا عامًّا لولايات شرقي الأناضول، فرفضت الدول تعيين هذا المفتّش، وأصرّت على تعيين مراقبين أوربيين وجرى بينها وبين السلطان كثير من الأخذ والردّ، والسلطان ثابت لا يتزعزع. فخطب اللورد ساليسبوري في مجلس اللوردية خطابًا أنذر به السلطان بسوء المصير إذا لم يقبل نصائح الدول، فاشتدّ بذلك عزم ثوّار الأرمن وقاموا بمظاهرة عظيمة بحجّة أنهم يطالبون بتنفيذ

الإصلاحات الموعودة، فعند ذلك هجم عوام المسلمين على الأرمن في نفس العاصمة وذبحوا منهم عددًا كبيرًا، لأنهم رأوا الأرمن يتعمّدون إثارة الفتنة سبيلاً لإدخال الدول الأوربية في أمور السلطنة الداخلية. وهذا ما كان يقصده الأرمن فعلاً، وكان يعتقدون أنَّ في ذبحهم فائدة لأنفسهم في المستقبل.

فلمّا وقع هذا الانتقام من الأرمن؛ واتّهم الأجانب رجال الشرطة وناظم باشا، ناظر الضبطية، بأنهم أغضوا النظر على ذبح الأرمن، وأنهم كانوا يقدرون على منع الشرّ فلم يمنعوه؛ أبعد السلطان ناظم باشا عن الأستانة وجعله واليًا على بيروت، وعزل سعيد باشا الصدر الأعظم وجعل مكانه كامل باشا. ثمَّ أصدر خطًّا سلطانيًا يتضمّن قبول اقتراح الدول وتشكيل مجلس مراقبة لسير الإصلاحات، ولكن خبر ثورة الأرمن والمذبحة التي حلّت بهم كان انتشر في ولايات الأناضول وامتلأت صدور المسلمين غيظًا منهم.

وكان للأرمن حينئذٍ بطريرك اسمه إزميرليان عقد الأرمن به جميع آمالهم، وكانوا يبالغون في مدح مناقبه لأنه كان يقوّي عزائمهم، ويجدّد روحهم القومية، فازدادت حركتهم نموًّا. ولمّا كان الأرمن غير مقتصرين في حركتهم هذه على البلاد العثمانية، بل كانت هذه الحركة ممتدّة إلى بلاد القوقاس، فقد تنكّر لها رجال الدولة الروسية أيضًا، وسعوا لدى الباب العالي في استبدال بطريرك آخر بالبطريرك إزميرليان الذي كانت الروسيا ترى فيه مصدر هذه الحركات، فإنَّه كان يعارض في إلغاء التعليم الأرمني في القوقاس، والروسيا تأبى إلاّ التعليم الروسي وحده، ولمّا كان طلب الروسيا موافقًا لهوى تركيا، فقد حملت الدولة العثمانية هذا البطرك على الاستقالة فاستعفى في ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ وعيّن مكانه بطريركًا برلتماوس مطران بروسه، فبلغ الأرمن من الحنق لهذا التبديل أن أجمعت جمعيّاتهم الثورية الهجوم على القصر السلطاني، ووزّعوا الأسلحة سرًّا على كثير من أعضاء الجمعيّات، وعيّنوا عيد الجلوس موعدًا لهذه الحملة إذ يكون الشعب التركي غافلاً منصرفًا إلى إعداد الزينة بعيد السلطان. فوصل الخبر إلى السلطان بواسطة البطريرك برلتماوس نفسه، ويقال إنَّ الحكومة الروسية هي نفسها أبلغت السلطان خبر هذه المؤامرة لأنها كانت تكره جمعيّات الأرمن الثورية، وتعلم اتّصالهم بحزب النيهيلست الذين كانوا اغتالوا القصير اسكندر الثاني: فأخذ السلطان حذره وتهيّأت الضابطة للتنكيل بثوّار الأرمن. وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ دخلت عصابة من الأرمن إلى البنك العثماني بغتة ومعهم أكياس ملأى بقنابر الديناميت، وقتلوا الجند المحافظ على البنك، وقصدوا الاستيلاء

على خزانة البنك فجاء الجند وأحاطوا بهم من الخارج وصاروا يطلقون النار عليهم وهم يقابلون الجند بالمثل، وشاع في الأستانة أنَّ ثوّار الأرمن حاولوا نسف البنك العثماني، فهاج الشعب التركي وصاروا يقتلون الأرمن أينما ثقفوهم، فحصلت مذبحة استمرّت ثلاثة أو أربعة أيام فقتل منهم ألوف، وكان سيقتل أضعاف ذلك لولا أنَّ كثيرين من المسلمين حموا كثيرين من الأرمن وآووهم في بيوتهم، وكان كثير من أئمّة المساجد ومن رجال الدين ينهون العامّة عن أن يمسّوا الأرمن بسوء، وكذلك كثير من رجال الدولة وقوا الأرمن في الحارات التي تجاور بيوتهم. وامتاز بين هؤلاء المشير فؤاد باشا الجركسي.

فأمّا العصابة التي دخلت إلى البنك فقد أخرجوها تحت ضمان سفراء الدول وأبعدوها من الأستانة، بعد أن كانت هذه العصابة هي سبب ذبح عدّة آلاف من الأرمن ربّما كان كثير منهم أو أكثرهم أبرياء.

وكانت جزيرة كريت ـ أو إقريطش ـ قد أخذت تتحرّك وذلك لاختلاف وقع بين أهالي الجزيرة وبين الدولة، وكانت الثورة في كريت خُلقًا متأصّلاً في أهل هذه الجزيرة، ويقال إنَّهم مفطورون على القلق والشغب وقد كانوا كذلك في القديم قبل الدولة العثمانية، بل قبل الدولة الرومانية نفسها، وفي هذه الجزيرة حلَّ ثوّار قرطبة الذين بطش بهم الحكم الأموي أمير الأندلس في وقعة الربض المشهورة، فجلا منهم طائفة إلى فاس، وسارت طائفة أخرى بضعة عشر ألف نسمة إلى الشرق فنزلوا في الإسكندرية وثاروا فيها على الدولة العباسية، فقاتلهم عمّال مصر من قبل بني العباس وأخرجوهم من مصر إلى جزيرة إقريطش قائلين لهم ليتبوّأوا منها ما يشاؤن. فذهبوا ونزلوا بهذه الجزيرة، وأسّسوا لأنفسهم إمارة مستقلّة في جانب من إقريطش تحت رئاسة عبد العزيز بن شعيب البلّوطي، واستمرّت هذه الإمارة على استقلالها أكثر من مائة سنة. ثمَّ أرسل عليهم الروم من بيزانطية جيشًا حصرهم حتّى استسلموا وأخذ أميرهم أسيرًا إلى القسطنطينية، وشرّدهم من تلك الجزيرة، ومَن بقي منهم فيها تنصّروا.

ويقال إنَّه لا يزال في كريت قرى معروفة يقال إنَّ أصل أهلها من العرب وسحناؤهم تدلّ على ذلك، ولا تزال عندهم عادات عربية محفوظة إلى اليوم. وقد ذكرنا في ما سبق كيفيّة فتح الدولة لكريت وأنها آخر فتوحات الدولة العثمانية وأنها بقيت تقاتل كريت سبعًا وعشرين سنة إلى أن دوّختها. وفي سنة ١٧٦٦ عصت هذه الجزيرة الدولة ثمَّ ساقت الدولة عليها عسكرًا أدخلها في الطاعة، وسنة ١٨٧٨ ثارت مرّة ثانية فاتّفقت الدولة مع أهلها على

دستور خاصّ، بهم وعيّنت لهم واليًا مدّته بحسب هذا الدستور خمس سنوات، وتقرّر أنه إذا كان الوالي مسلمًا يكون له معاون مسيحي، وإذا كان مسيحيًّا يكون له معاون مسلم. وكذلك المتصرّفون إذا كان المتصرّف مسلمًا كان المعاون مسيحيًّا، وبالعكس. وكانت نواحي الجزيرة ٨٨ ناحية منها ٥١ مختلطة أي مسلمين ونصارى، و٣٤ مأهولة بمسيحيين فقط، وثلاث نواحٍ ليس فيها غير مسلمين. وكان للجزيرة مجلس تشريعي يجتمع مدّة أربعين يومًا في السنة، وعدد أعضائه ٨٠ منهم ٤٩ مسيحيون و٣١ مسلمون، ولا يتقرّر شيء إلاّ بثلثَي الأصوات. ففي سنة ١٨٨١ طلب المسيحيون تعديل هذا الدستور بحجّة أنه مجحف بحقوقهم، وأنَّ التمثيل في المجلس غير متناسب مع عدد السكّان، فإذا كان أعضاء المسيحيين فيه ٥٠ وجب أن لا يزيد المسلمون على ٢٥، والحال أنَّ الدولة جعلتهم ٣١ ولا شكّ في أنَّ الدولة كانت تعلم من استعداد أهل كريت لانفصال عنها ما جعلها تحتاط لمستقبل الحكم العثماني فيها، وتراعي الأقلّية الإسلامية. ومع ذلك فمسلمو كريت كانوا لا يقلّون عن ثلث السكّان، وكان بينهم عدد غير قليل من عرب برقة وجماعات وافرة من مهاجري بوسنة والهرسك والبلغار المسلمين. ثمَّ إنَّ المسيحيين في كريت اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لإدارة الجزيرة، واشتدّ الخصام في سنة ١٨٨٧ فأرسل السلطان عبد الحميد المشير شاكر باشا لأجل إصلاح الأحوال فوجد أنه لا مناص من استعمال القوّة، فإنَّ المسيحيين خرجوا عن الطاعة وأبوا دفع الضرائب، وصاروا يعتدون على المسلمين في القرى التي أكثرها مسيحيون؛ وصار المسلمون يرحلون من القرى إلى المدن لأنهم في المدن كانوا هم الأكثرية. فساق شاكر باشا القوى العسكرية على عصائب الأروام فشتّت شملها، وأخذ الجميع إلى السكون برغم أنه كان لكريت جمعيّة في أثينا ترسل إلى كريت متطوّعين وأسلحة، فلمّا رأى اليونان أنَّ الدولة العثمانية قهرت ثوّار كريت هاجوا وطلبوا من حكومتهم إرسال الأسطول اليوناني إلى مراسي كريت بحجّة حماية المسيحيين، حيث كان الأتراك بطشوا بالأروام في مدينتَي «خانية» و«قندية» فلمّا رأت الدول استفحال الخطب أرسلن إلى مرسى «سودا» سفنًا حربية فأنزلت عساكر في الجزيرة وذلك في ٣ فبراير سنة ١٨٩٧ ولم تشترك ألمانيا ولا النمسا في هذه الحركة، إنَما كانت الدول اللواتي تولينها إنكلترة، وفرنسا، والروسيا، وإيطاليا. فبدلاً من أنَّ الأروام يسكنون إلى عمل الدول هذا؛ كان منهم أن أرسلوا في ١٠ فبراير الكولونيل فاسوس ومعه عدّة توابير من الجند المنظّم، وجماعة من المتطوّعين، فساروا بالأسطول اليوناني ونزلوا بقرب خانية، وأنذرتهم الدول حتّى يرجعوا، وألقت عليهم النار من سفنها فابتعدوا إلى داخل الجزيرة، وأعلنوا إلحاق كريت بمملكة اليونان.

فعند ذلك أعلنت الدولة الحرب على اليونان، وزحف المشير أدهم باشا بمائة وخمسين ألف جندي على اليونان، فما انقضت مدّة شهرين حتّى تمزّق الجيش اليوناني كلّ ممزق، ولولا أن أبرق قيصر الروسيا إلى السلطان عبد الحميد يرجوه العفو عن اليونان والتوقّف عن متابعة الحرب، لكان الأتراك دخلوا أثينا واستولوا على اليونان كلّها. فلم يسع السلطان إلاّ إجابة رجاء القيصر، وانعقد مؤتمر الصلح؛ وبعد مذاكرات طويلة تقرّرت إعادة الجيوش العثمانية من بلاد اليونان كما دخلت بدون أن تجني الدولة العثمانية أدنى ثمرة من انتصارها عملاً بالقاعدة الأوربية؛ إنَّ ما يؤخذ من الهلال للصليب لا يعاد، وإنَّ ما يؤخذ من الصليب إلى الهلال لا بدَّ من إعادته... فكلّ نتيجة تلك الحرب كانت تصحيح بعض الحدود بين تركيا واليونان، بحيث أنَّ جميع ما استردّت الدولة من تساليا كلّ عبارة عن قريتين، ولكن أجبرت الدول اليونانية المغلوبة على دفع غرامة حربية أربعة ملايين جنيه كلفة الحملة العثمانية. على أنَّ الدولة استفادت فائدة أدبية لا تنكر بهذه الحرب، لأنها كادت في مدّة شهرين لا غير تستولي على بلاد اليونان كلّها؛ واجتاز الجيش العثماني جبالاً يحار العقل كيف اجتازها بهذه السرعة!! ومن ذلك الوقت خمدت الحركة الأرمنية، واستراحت الدولة مدّة سنوات من مشكلات الأرمن، ووقفت الدول عن مطالبتها بتنفيذ برنامج المطالب الأرمنية.

فأمّا في جزيرة كريت فكان النصارى قد طردوا المسلمين من جميع القرى واقتلعوا أشجارهم ودمّروا بيوتهم، فالتجأ المسلمون إلى المدن واشتدّت العداوة بين الفريقين، فهجم الكريتيون المسلمون ومعهم جماعة من عرب بنغازي على حارة النصارى في قندية فأحرقوها، وبطشوا بالمسيحيين، وحصل مثل ذلك في خانية حاضرة الجزيرة، فتعصّبت الدول وأنذرت الدولة بأن تُخرج عساكرها من كريت، أو أن تعلن هي استقلال الجزيرة، وهي وإن لم تفعل ذلك دفعة واحدة فقد كانت تريد أن تصل إلى هذه الغاية تدريجًا، فأتت بالبرنس جورج، ابن ملك اليونان، وجعلته واليًا للجزيرة، وبقيت هذه الحالة إلى أن انتهت الحرب البلقانية في زمن السلطان محمَّد رشاد. فتقرّر ضمّ كريت إلى اليونان، وعانى المسلمون في كريت شدائد كثيرة وهاجر منهم قسم كبير إلى بلاد الدولة العثمانية، ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق ولهم حارة في جبل الصالحية، ومنهم جماعات تفرّقوا في سائر الأقطار. وأناس ذهبوا إلى الإسكندرية، وكانت الدولة أسكنت منهم جماعة في الجبل الأخضر من برقة ولكن مهاجرتهم الكبرى وقعت بعد الحرب العامّة، وانعقاد مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ وفيه تقرّرت مبادلة السكّان، فأخرجوا جميع المسلمين الذين في الروملي، أي

في البلاد اليونانية في أوربا وفي الجزر وكريت من الجملة، وقرّروا إسكانهم في تركيا، وبمقابلة ذلك أخرجوا جميع الأروام الذين في بلاد الأناضول بدون استثناء، فلم يبقَ في تركيا رومي واحد إلاّ مَن كان غريبًا، ولم يبقَ في بلاد اليونان مسلم واحد إلاّ عابر سبيل. وقد حصلت مبادلة الأملاك والأراضي أيضًا، وإنَّما وقع استثناء للأروام الذين في الأستانة، فإنَّ مؤتمر الدول في لوزان لم يشأ إخلاء القسطنطينية عاصمة الروم القديمة من المسيحيين، فأبقوا فيها الأروام الذين لم يهاجروا من تلقاء أنفسهم، وهم مائة وخمسون ألف نسمة وأبقوا في مقابلة ذلك الأتراك الذين في ولاية تراقية الغربية، أي الولاية التي إلى الغرب من ولاية أدرنة، وذلك لأنَّ الأتراك المذكورين هم أكثريّة هذه الولاية، ولم تكن لهم رغبة في المهاجرة.

وأمّا في جزيرة كريت، فلم يبقَ مسلم واحد، ولا في سائر جزر الأرخبيل الرومي ما عدا رودوس وأخواتها التي احتلّتها إيطاليا في أثناء حرب طرابلس الغرب، ثمَّ استلحقتها نهائيًّا، فهذه الجزر لم تتبع قاعدة تبادل السكّان لكونها خرجت من ملك تركيا واليونان معًا، فلا يزال عشرة آلاف من المسلمين في جزيرة رودوس، وبضعة آلاف في سائر الجزر العشر "dédocanaire" وذلك تحت حكم إيطاليا. وانطوى بساط كريت كما انطوى بساط الأندلس بعد أن ملكها المسلمون ثلاث مرّات؛ الأولى في زمن بني أميّة في دمشق، والثانية عندما احتلّها ثوّار قرطبة إمارة عبد العزيز ابن شعيب، والثالثة في أيام الدولة العثمانية، والله يرث الأرض ومَن عليها.

وقد عرفت من أعيان كريت المسلمين رجلين؛ أحدهما أحمد نسيمي بك، ناظر الخارجية العثمانية في أيام الحرب، وهو من أعزّ إخواني، وأمثل مَن عرفت في حياتي وأحسنهم أخلاقًا، فضلاً عن ذكائه وسعة اطّلاعه، وكان يحدّثني عن كريت الأحاديث. والآخر فاضل بك، أحد أعيان المسلمين في قندية، وقد كنت أسأله مرّة عمّا يقال من حسن جزيرة كريت وزكاء تربتها، ولذّة فواكهها وطيب نجعتها، فقال لي: جميع ما تسمعه من هذا القبيل عن كريت هو الواقع، وربّما أقلّ من الواقع، ولكن لا يوجد في الدنيا أكثر شرًّا من أهلها. وفنزيلوس، الوزير اليوناني المشهور، كان من زعماء ثوّار كريت على الدولة العثمانية، ولمّا صار وزيرًا للدولة اليونانية كان هو العامل مع دول الحلفاء في خلع قسطنطين، ملك اليونان، كما لا يخفى، وفي أخريات هذه الأيام ترأس ثورة على الحكومة اليونانية وهو قد بلغ من الكبر عتيًا.

وفي زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال في مكدونية، لأنَّ السلطان كان أكثر همّه في المحافظة على شخصه، وكان شديد التخيّل إلى درجة الوسواس. فاستكثر من الجواسيس، وصار بأيديهم تقريبًا الحلّ والعقد، وليس من الصحيح أنَّ السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع، بل كان يرمي أكثرها ولا يصدّق ما فيها، ولكن اهتمامه بقضيّة أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعيّة، وصارت في قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة، وسخط الرأي العامّ على هذه الحالة، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح، ويجود ويمنح، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل. وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده، فصار الناس يعلّلون جميع خطوب المملكة بسوء الإدارة، ويعلّلون سوء الإدارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرّية. وهذا وإن كان صحيحًا إلى حدّ محدود، فليس بصحيح على إطلاقه؛ لأنَّ خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية، لا تذكر قضيّة الجواسيس في جوانبها شيئًا. فأمّا العوامل الداخلية فهي انحطاط درجة التعليم عمّا يجب أن تكون، واستيلاء الجهل، وانقسام سكّان المملكة إلى أقوام شتّى كلّ منها له هدف غير هدف الآخر، ومنها ما هو عدوٌّ عاملٌ لا يرضيه إلاّ زوال الدولة العثمانية. ثمَّ ما وقر في صدور الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذي انقطع الأمل من شفائه.

فأمّا العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوربية في أجزاء هذه السلطنة كلّ دولة منهن تحبّ أن ترث شقصًا من هذه التركة فهي تدسّ الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتّى تتوصّل منها إلى مأربها.

ولو كان سهم واحد لاتّقيته ولكنّه سهم وثانٍ وثالث

بل كانت الأسهم التي تتلقّاها الدولة العثمانية ممّا لا يُعدّ ولا يُحصى، ولكن المسلمين في السلطنة نظرًا لمعرفتهم أنَّ هذه الدولة هي ملجؤهم الوحيد؛ كانوا لا يريدون أن يعتقدوا زوالها، فكانوا يتأوّهون من جهة لحالتها هذه، ويجتهدون من أخرى في إصلاحها، ويظنّون أنَّ الإصلاح ليس بالمستحيل، وأنَّ في استطاعة الدولة أن تنهض وتسترجع مكانها السابق، وذلك إذا كان السلطان يقلع عن سياسته الخاصّة وعن حصر الأمور في يده، ويترك الاهتمام بالجواسيس، ويطبّق على المملكة القانون الأساسي الذي كان بدأ به في أول سلطنته ثمَّ عطّله تعطيلاً مؤقّتًا، فاستمرّ هذا التعطيل ثلاثين سنة. وكان الشبّان على الخصوص يعتقدون أنَّ لا

نجاة للمملكة من السقوط إلاّ بإعادة الدستور، وانتخاب مجلس الأمّة؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الأتراك المتشبّعين بمبادئ الحرّية قد هجروا بلادهم وأقاموا بباريز وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدي، ويبثّون روح الثورة بين الناشئة، فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوّه سمعته في العالم الأوربي، وكثيرًا ما كان يتمكّن من إرضاء أناس من هؤلاء الشبّان بتقليدهم مناصب عالية، أو بإغداق النعم والعطايا عليهم، ولكن بقي هناك من هذه الفئة مَن كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتهم، بل لبثوا يرفضون جميع ما يُعرَض عليهم من أموال أو مناصب. وكان في طليعة هؤلاء أحمد رضا بك المقيم بباريز، والذي كان يصدر جريدة حرّة بأَسم «مشورت» تدخل إلى البلاد العثمانية سرًّا، والدكتور ناظم الذي كان من أركان جمعيّة الاتّحاد والترقّي ـ وشنقة مصطفى كمال من عهد قريب ـ وغيرهما.

ولمّا كانت الجمعيّات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدّت أيديها إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوربا، وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم الشوري في تركيا. وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضًا في هذه الحركة، وكلّ فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى في الحقيقة، ولكنّها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي؛ مقاومة السلطان، والعمل لإسقاطه، وأخيرًا انتدب بعض شبّان الأتراك وألّفوا جمعيّة سرّية في سلانيك، وسمّوها «جمعيّة الاتّحاد والترقّي» وأخذوا يجتذبون إلى جمعيّتهم كلّ الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدّة المراقبة، حتّى أنَّ بعض المستخدمين في الحكومة انضمّوا إلى هذه الجمعيّة، وكانوا يجتمعون في المحافل الماسونية حتّى يتّقوا الشبهة فيهم. وكان معظم اجتهاد هذه الجمعيّة السرّية متوجّهًا إلى استجلاب الجيش حتّى تصير في أيديهم القوّة اللازمة لخلع السلطان، وتوفّقت هذه الجمعيّة إلى استجلاب عدد كبير من الضبّاط، ولمّا كان عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع في بلاد الرومللي، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الرومللي منهم، وكانوا يعملون في جوار سلانيك؛ تسنّى لرجال الاتّحاد والترقّي أن يتّصلوا بضبّاط الجيش، وأن يقنعوهم بأنَّ هذه العصائب البلغارية واليونانية إنَّما تشاغب وتعثوا في الأرض لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح في ظلّها السكّان وهذه الإدارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة فأمّا إذا أمكن خلعه، وجعل الحكم في السلطنة دستوريًّا شوريًّا كما هو في سائر الممالك المتمدّنة فإنَّ

جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها، وتخلد جميع الأقوام إلى السكينة وهكذا تنجو السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها. فشرب أكثر الضبّاط هذه المبادئ التي ليس بعجب أن تقبلها عقولهم، لأنَّ المسيحيين من أروام، وبلغار، وسربيين كانوا يدّعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلاّ من سوء الإدارة وأنه إذا اصطلحت الإدارة فهذه تكون غاية أمانيهم، ويدخلون في الطاعة.

ولم يكن هذا الادّعاء صحيحًا، بل حقيقة الحال أنه سواء اصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنَّما يجتهدون في ضمّ البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم، واليونان إنَّما يسعون في ضمّ البلاد التي أكثرها منهم إلى مملكتهم، ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولكن شبّان الأتراك منهم مَن آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية، ومنهم مَن لم يكن يؤمن بها لكنّه كان يجد أنَّ طريق النجاة لن تكون إلاّ بإعادة الدستور، وجعل الحكم في السلطنة للشورى كما هو في سائر البلاد.

وبلغ السلطان سَريان هذه الحركة إلى الجيش المرابط في الرومللي، فراعه الأمر وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد اسماعيل ماهر باشا لأجل الفحص عن هذه الحركة فرجعت هذه اللجنة وقرّرت للسلطان أنَّ أكثر الضبّاط دخلوا في جمعيّة الاتّحاد والترقّي، وأنَّ الخطب عظيم، وأنَّ الخرق اتّسع على الراقع، وكان حسين حلمي باشا مفتّشًا عامًّا لولايات الرومللي، فكتب هو أيضًا إلى السلطان يعظّم من شأن حركة الجيش، ويشير على السلطان بإعلان الدستور. وفي أثناء ذلك ذهب أنور بك وعصى بشرذمة من الجند في جوار سلانيك، كما أنَّ نيازي بك استولى على مدينة مَنَسْتر وكاد يعلن فيها الدستور، ولمّا بلغ جمعيّة الاتّحاد والترقّي ما قام به أنور ونيازي من العصيان اشتدّت عزيمتهم، واجتمعوا حول منزل حسين حلمي باشا وطلبوا إعلان الدستور، وأصبحت سلانيك في أيديهم. ولمّا وصل الخبر إلى السلطان استشار الصدر الأعظم وكان الصدر يومئذٍ فريد باشا الأرناؤوطي، فأشار إليه بإعلان الدستور، وذلك تسكينًا للفتنة، وكذلك جمال الدين أفندي، شيخ الإسلام، أبدى له ضرورة هذا الإعلان، وكان أحمد عزّت باشا الدمشقي مستشارًا للسلطان ـ كما لا يخفى ـ وهو المطّلع على مجريات هذا الخطب؛ قد عارض في إعلان الدستور بكلّ قوّته، ولكن الوزراء خالفوه، وهو نفسه الذي قال لكاتب هذه السطور عندما اجتمعت به بعد الحرب العامّة هنا في جنيف: بأنَّ الذي أثّر في السلطان بالدرجة الأولى حتّى أعلن الدستور هو جمال الدين أفندي، شيخ الإسلام. أمّا كوچك سعيد باشا، ففي أول الأمر نصح

للسلطان بالثبات، وبقمع هذه الحركة بالقوّة، إلاّ أنه بعد ذلك جاءت الأخبار بأنَّ الفيلق الثاني الذي مركزه أدرنة انضمّ إلى جمعيّة الاتّحاد والترقّي، فوقع الرعب في قلوب الوزراء جميعًا، وعادوا فأشاروا على السلطان بإعلان الدستور اتّقاءً لشرّ أعظم!! والحقيقة أنَّ القوّة التي في يد جمعيّة الاتّحاد والترقّي كانت ضئيلة، وكان الجيش أكثره طائعًا للسلطان، ولكن قوّة الجمعيّة كانت معنوية، والأمّة ـ حتّى في نفس قصر يلدز ـ أصبحت تعتقد أنَّ لا نجاة للدولة إلاّ بإعلان الدستور، وعقد مجلس الأمّة.

والخلاصة أنَّ السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسي، وأمر بانتخاب المبعوثين، وتعيّن كوچك سعيد باشا رئيسًا للوزراة الجديدة. فأراد سعيد باشا إعطاء السلطان بعض حقوق في تعيين الوزراء خلافًا للقانون الأساسي، فوقع بسبب ذلك خلف بين الوزراء أدّى إلى استعفاء الوزارة، فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا وتألّفت وزارة جديدة فيها رجال أمائل مثل رجب باشا الأرناؤوطي، ناظر الحربية، وحسن فهمي باشا، ناظر العدلية، وغيرهما. ولكن وزراة كامل باشا هذه شاهدت حوادث ذات بال، مثل إعلان بلغاريا استقلالها التامّ، ومثل أنَّ دولة النمسا أعلنت استلحاق ولايتَي البوسنة والهرسك، ومثل أنَّ الأروام أعلنوا إلحاق جزيرة كريت باليونان، وكان إعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من أميرهم فرديناند إلى السلطان عبد الحميد في ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨ فأرسلت الدولة جوابًا للحكومة البلغارية بأنها لا تستطيع الاعتراف بعمل مخالف لمعاهدة برلين، وكتبت إلى الدول تدعوهنَّ إلى عقد مؤتمر لأجل النظر في ما أقدمت عليه بلغاريا من خرق هذه المعاهدة وكذلك احتجّت الدولة على استلحاق النمسا والمجر لبوسنة والهرسك برغم كون النمسا والمجر اجتهدتا في استعطاف الدولة العثمانية، وعرضتا عليها تعويضات مالية وردّت لها (سنجق نوڤيبازار) من أصل بوسنة.

وفي أثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعيّة الاتّحاد والترقّي وبين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية لأنَّ الجمعيّة كانت هي سبب إعلان الحرّية، فكانت تريد بطبيعة الحال أن تسيطر على الحكومة، ولم يكن هذا الأمر ليحصل بدون اصطدام آراء مفضٍ إلى النزاع، وكانت الأمّة مشغولة بانتخاب المبعوثين، ولم تكن الآراء متّفقة في قضايا الانتخابات ممّا يحصل في كلّ مملكة، فانتهى الأمر بسقوط كامل باشا وكان مجلس الأمّة قد انعقد وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه، وأقسم يمين الأمانة للدستور، ولكن لم يكد المجلس ينعقد حتّى

وقع الشقاق بين المبعوثين، فمنهم مبعوثو جمعيّة الاتّحاد والترقّي ومبدؤهم كان المركزية التامّة، أي حصر كلّ الإدارة في مركز الدولة، وبناء الإصلاحات كلّها على هذا الأساس، ومن البديهي أنَّ مبدأ كهذا سيُعطي السيادة للعنصر التركي الذي له المقام الأول في السلطنة، فلهذا كان العرب والأرناؤوط والأروام والأرمن ضدّ هذا المبدأ، لأنه يُجحف بحقوقهم، فتألّف من هؤلاء حزب تسمّى بحزب «الأحرار» انضمّ إليهم أيضًا كثير من الأتراك المناوئين لجمعيّة الاتّحاد والترقّي، ففي مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين، وتغلّب الاتّحاديون على خصومهم، وهكذا سقط كامل باشا وجاء مكانه حسين حلمي باشا ففي مدّة هذا الصدر تسوّت بين تركيا والنمسا قضيّة بوسنة والهرسك، وذلك بدون عقد مؤتمر دولي. لأنَّ الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولي فتح أبواب جديدة عليهم فاسترجعت الدولة سنجق نوڤيبازار، واستأدت مليونين ونصف مليون جنيه بدلاً عن الأراضي العائدة في بوسنة للدولة خاصّة، وتقرّر بقاء التشكيلات الدينية الإسلامية في البوسنة والهرسك مربوطة بالدولة العثمانية، كما كانت في السابق وعقدت الدولة مع النمسا معاهدة تجارية، ثمَّ رجعت إلى مسألة البلغار فبعد أخذ وردّ طويلين وحلّ مشكلات مالية يطول شرحها، انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة في ١٩ أبريل سنة ١٩٠٩ وفي هذه المعاهدة كلّ ما يضمن حقوق المسلمين وأوقافهم ومؤسّساتهم الدينية في مملكة البلغار، فاستراح بال الدولة من جهة هاتين المشكلتين قضيّة استقلال البلغار التامّ، وقضيّة استلحاق بوسنة والهرسك بالنمسا.

ولكن ثار تنُّور الخصام في وسط السلطنة، وتعدّدت الأحزاب، وبسبب إعلان الحرّية أظهر كلٌّ ما في نفسه، وبدلاً من أن يكون هذا القانون الأساسي سببًا للانضمام وللسير على قاعدة (وإن هذه أمّتكم أمّة واحدة) وليس امتياز فيها لفريق على فريق؛ كانت عاقبة هذا النظام الجديد أنَّ كلّ أمّة من الأمم الكثيرة التي تتألّف منها السلطنة العثمانية أخذت تحاول الانفصال عن السلطنة نفسها بالطرق الممكنة وغير الممكنة، وجاءت هذه الحالة عذرًا للسلطان عبد الحميد الذي كان يدّعي أنه إنَّما أخّر إعلان الدستور وجمع مجلس الأمّة خوفًا من تفكّك أجزاء السلطنة، وفرارًا من صدع الوحدة العثمانية لأنه في ظلّ الحرّية لا يمكن منع النزعات القومية التي هي كامنة في صدور هذه الأمم المختلفة التي لا يجمع بينها سوى رهبة الدولة.

ولكن جمعيّة الاتّحاد والترقّي مع حسن نيّة رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة، وكان أكثر زعمائها شبّانًا لم يتمرّسوا بالأمور، ولم تنجّزهم الحادثات، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر ـ حتّى من أنفسهم ـ فسكروا بخمرة العزّ واستخفّوا بمَن سواهم، وظنّوا أنهم هم قادرون على كلّ شيء، والحال أنهم كانوا يواجهون صعابًا، ويقابلون عقابًا، لا قِبَلَ لهم بها، فكانت أمامهم ـ وهي الطامة الكبرى ـ دسائس الدول الأوربية التي كلّ واحدة منهن كانت تحرّك أهالي البلاد التي تطمح إليها من أجزاء السلطنة؛ وكان هذا مرضًا مزمنًا، فلا الأجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه، ولا الأهالي الذين تعوّدوا رؤية نفوذ هذه الدول في بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم، ولأجل وضع سدّ في وجه الأجانب كان ينبغي أن تكون الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالاً، وأغزر مالاً من جميع الدول العظام. ولم تكن هذه الشروط حاصلة في الدولة العثمانية كما لا يخفى. ثمَّ إنَّ جميع الأمم التي كانت تتألّف منها هذه السلطنة كانت أهدافها مختلفة؛ فالأروام وهم جانب كبير في المملكة لا ينسون ملكهم القديم، وفي كلّ حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف الاستيلاء على القسطنطينية وطُرد الترك منها إلى آسيا، والأرمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم في نفس الأناضول، والبلغار يريدون ضمّ مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة، وهذا من جهة المسيحيين.

أمّا من جهة المسلمين فإنَّ الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هي الجامعة الدينية، ولولاها لكانت هذه السلطنة تفكّكت منذ قرون، ولكن سوء الإدارة في الداخل من جهة؛ ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى؛ حملا الكثيرين من العرب والأرناؤوط بنوع خاصّ على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية، وقد بدأ ذلك عند الأرناؤوط قبل العرب، فحاولت الدولة تأديب الثائرين منهم فاستلزم ذلك تجريد جحافل ووقعت معارك دموية، فازداد الأرناؤوط من الدولة نفورًا. وأمّا العرب فكانت عندهم غيرة من الترك لأنهم كانوا أكثر من هؤلاء عددًا، ولم تكن لهم الامتيازات التي للترك، وكان الترك يزعمون أنَّ العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتّى يتمتّعوا بالمساواة التامّة مع الأتراك، فمن البلاد العربية جانب كبير لا يقوم بالخدمة العسكرية الإجبارية، بل يكلّف الدولة سوق عساكر لإدخال أهله في الطاعة، وهذا النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهي، بل كان يزداد بضعف الدولة وقد كان يظهر في مواقع كثيرة. ولكن كان المانع الوحيد من انفجار بركان الشرّ بين الفريقين هو

الخوف على بيضة الإسلام لا غير، إلاّ لأنَّ الإنكليز تمكّنوا قبل الحرب العامّة من استجلاب كثير من ناشئة العرب، منهم مَن استجلبوهم بالمنافع الخاصّة، ومنهم مَن استجلبوه بطريقة الإقناع، وأوهموا العرب أنهم إنَّما يريدون ليجدّدوا دولة عربية كدولة بني العباس، أو دولة بني أميّة مثلاً، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم، وعلى عمارة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها، ولا عمارتها. فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلبًا وقالبًا متوقّعين لذلك أول فرصه. ولا يمكن أن يقال إنَّ هذا كان رأي الجمهرة من الأمّة العربية، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفًا من حكم الأجانب، واختيارًا لأهون الشرّين.

نعم، لو كانوا على يقين بأنَّ الدولة الأوربية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط أيديها إليها بالغضب والتقسيم، لكانوا يرجّحون بدون شكّ الانفصال عن الترك، والاستقلال بدولة لأنفسهم. ولكن عقلاء العرب كانوا لا يجهلون مطامع الدول الأجنبية، في بلادهم ولم يكن يخفى عنهم تصميم أوربا على تقسيمها، وأنه لا عهد للدول المسيحية بإزاء المسلمين مهما عاهدت ولم يكن يشذّ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض مَن لا تجربة لهم، أو مَن لا تهمّه الجامعة الإسلامية في كثير ولا قليل. ومنهم مَن كان الإنكليز يستخدمونهم في بثّ دعايتهم كأجراء لا غير.

ثمَّ إنَّ الاتّحاديين ساعدوا بسوء تصرّفهم واستخفافهم بأعدائهم هذه الأمم غير التركية في السلطنة على أنفسهم، ودخل في الجمعيّة الاتّحادية عناصر كثيرة مفسدة كرّهت الرعيّة بها. وكان رجال الحكم الجديد قد أقصوا عن وظائف الحكومة أكثر الذين كانوا يشغلونها، واستبدلوا بهم شبّانًا من حزبهم، فآسفوا جمعًا عظيمًا لهم، تأثيرًا في السلطنة، لأنهم أصابوهم في أسباب معيشتهم، فانكسرت خواطر وتراكمت أحقاد، وتألّفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون، وانتشرت لهم جرائد واعصوصب حولهم كثير من العوام.

ولمّا كان الاتّحاديون يتظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بأمور الدين، ويتكلّمون أحيانًا بما يخالف الشرع؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعيّة الاتّحاد والترقّي، وألّفوا تحت رئاسة الشيخ "درويش وحدتي" عصبة

سمّوها «الوحدة المحمَّدية» وأخذ حزب الأحرار يمدّ يده إلى حزب الرجعيين ليكونا يدًا واحدة على حزب الاتّحاد والترقّي، فاشتدّت المعارضة في وجه الاتّحاديين بينما هم مهملون للاحتياط، واثقون بأنفسهم، مستخفّون بخصومهم. فاشتدّت المناقشات في الجرائد، وازدادت العداوة بين الأحزاب، وإذا بالناس في ٨ أبريل سنة ١٩٠٩ تسمع أنَّ حسن فهمي بك، محرّر جريدة «سربستي»، قد قُتل غيلة على الجسر وهو راجع من بيك أوغلي إلى استانبول، وكان هذا الكاتب من أكبر أعداء الاتّحاد والترقّي، فقيل إنَّ الاتّحاديين هم الذين أرسلوا مَن يغتاله، وقيل إنَّ الذين اغتالوه هم جزب الرجعيين، وذلك لأنهم استشاروه في القضاء على الدستور والرجوع إلى نظام الحكم القديم فأبى أن يسايرهم في هذه المكيدة، فخافوا أن يفشي سرّهم للحكومة فأرادوا التخلّص منه فقتلوه. فهاجت الخواطر لقتل هذا الكاتب، وقدّم ستّة من مبعوثي المجلس سؤالاً لناظر الداخلية عن هذه الحادثة، وتفاقم القلق في الأستانة وكان الرجعيون قد اتّصلوا ببعض توابير من الجيش، واتُّهم السلطان عبد الحميد بأنَّ له يدًا في الدسيسة رأسًا أو بواسطة أنصاره القدماء، فما شعر الأهالي إلاّ والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا، وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة، وعزل أحمد رضا بك، رئيس مجلس الأمّة، ويطلبون تسليم علي رضا باشا، ناظر الحربية، وأعضاء جمعيّة الاتّحاد والترقّي ليقتلوهم، وكان بعض المشايخ علّموا العسكر أن ينادوا بإعادة الشريعة وإلغاء القانون الأساسي حتّى يملكوا بذلك قلوب العامّة، وفي ذلك الوقت هجموا على نادي الاتّحاد والترقّي، وعلى إدارة جريدة «طنين» وعلى النادي العسكري وعلى نادي النساء ونهبوها وجعلوا عاليها سافلها، ثمَّ انقضّ الجنود على ضبّاطهم فقتلوا منهم ثلاثمائة، وفرّ من الضبّاط عدد كبير من الأستانة، وتخبّأ آخرون فيها. ثمَّ هجم الجند على مجلس المبعوثين ليقتلوا منهم الاتّحاديين المعروفين بمكانتهم في الجمعيّة، ولكن كان المبعوثون الاتّحاديون قد علموا بالثورة وما يضمره الرجعيون المتستّرون باسم الشريعة من نيّة قتلهم، فلم يحضروا إلى المجلس. وحضر الأمير محمَّد أرسلان، رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوث اللاذقية، وقيل له في ذلك اليوم إنَّ ذهابه إلى المجلس خطر على حياته لأنه كان من الاتّحاديين المعروفين، فأبى أن يذهب ليقوم بالواجب، وكان بلغه أنَّ في نيّة الثوّار إحداث مذبحة في الأستانة تحمل الأجانب على التدخّل لأجل حماية رعاياهم فتسقط بذلك حكومة الاتّحاد والترقّي، فذهب ابن عمّنا إلى المجلس ليحمل المبعوثين على مراجعة السلطان شخصيًّا ليبذل كلمته ونفوذه لأجل تسكين الثورة التي قد تجرّ وبالاً على السلطنة، فلمّا ذهب، رحمه الله،

إلى المجلس لم يجد من نيّف ومائتَي مبعوث إلاّ ثلاثين أو أربعين مبعوثًا فقط، فتكلّم معهم في الموضوع وتقرّر بينهم إرسال وفد إلى قصر يلدز ليعرض الخَطْب على السلطان، ويلتمس أمره الجازم للعسكر وللشعب بالسكون، فانتخب المجلس أحد عشر مبعوثًا منهم محمَّد أرسلان ليقوموا بهذه المهمّة. فلمّا خرجوا وركبوا العربات عرف محرّكو هذه الثورة مقصدهم فردّوهم من حيث أتوا، وبينما هم على باب المجلس أوعز بعض المحرّكين لهذه الثورة إلى الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمَّد أرسلان ـ وهم لا يعرفونه ـ فوقع شهيدًا. ثمَّ قتلوا أيضًا ناظم باشا، ناظر العدلية، وكان مرادهم أن يفتكوا أيضًا بسائر أعضاء المجلس الذين لبثوا ينتظرون الموت مدّة ساعتين، ومنهم مَن رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسّرت أرجلهم، ومنهم مَن تخبّأ في أيّ مكان يتوارى به عن الأعين، ولكن العسكر بعد أن فتك بناظر العدلية وبمبعوث اللاذقية، سمعوا أنه سيأتي عسكر آخر بأمر السلطان فيقتصّ منهم، فوقع الرعب في قلوبهم، وأمسكوا عن قتل سائر المبعوثين وصاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً.

وأمّا حسين حلمي باشا والوزراء رفاقه فقد تخبّأوا حيث لا يعلم بهم أحد، وانسلّ محمود مختار باشا على باخرة إنكليزية فذهب العسكر إلى بيته ليقتلوه فلم يجدوه. فأمر السلطان بتأليف وزارة جديدة تحت رئاسة توفيق باشا الذي كان سفيرًا للدولة في لندرة، وأدخل فيها أدهم باشا، قائد الجيش العثماني الذي قهر اليونان، وذهني باشا ورفعت باشا الذي كان ناظرًا للخارجية في الوزارة السابقة، فأبقوه في الوزارة الجديدة كما كان، وأبقوا أيضًا ضياء الدين أفندي، شيخ الإسلام. وأبقوا نورادونغيا أفندي الأرمني، ناظر الأشغال النافعة، وأبقوا خليل حماده باشا، ناظر الأوقاف، وتعيّن لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمي باشا، وتعيّن عادل بك ناظرًا للداخلية، والقائد ناظم باشا قائدًا للفيلق الخامس مكان محمود مختار باشا، وقد كان وقوع هذه الثورة في ١٣ أبريل سنة ١٩٠٩ وفي اليوم التالي لم ينعقد المجلس ولكن لمّا تمَّ تشكيل الوزارة انعقد بحضور ١٩١ مبعوثًا وأصدر المجلس منشورًا يحاول فيه تلطيف الحادثة، ويحثّ الرعيّة على السكون. ونُقلت جثّة الأمير محمَّد أرسلان باحتفال عظيم إلى بيروت حيث كان له مأتم لم يسبق نظيره، وبكى الجميع شبابه لأنه كان في الرابعة والثلاثين من العمر، وبكوا مزاياه العالية. وحزن عليه أبوه الأمير مصطفى أرسلان حزنًا أثّر في صحّته فلم يعش بعد ذلك طويلاً.

ولمّا وصل الخبر إلى سلانيك وهي مركز الاتّحاد والترقّي هاج العسكر ولا سيّما الضبّاط الذين علموا بقتل رفاقهم، فلم يبطئوا أن زحفوا إلى الأستانة. فاجتمع الفيلق الثالث ـ أي فيلق سلانيك ـ والفيلق الثاني ـ أي فيلق أدرنة ـ وساروا إلى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا، فوقع الرعب في الأستانة وخيف أنَّ العساكر الآتية من أدرنة وسلانيك تنتقم من العساكر والأهالي الذين قاموا بالثورة الرجعية، فأرسل الصدر الأعظم إلى محمود شوكت باشا يقول له: إنَّ السكون تامّ في الأستانة وأنه لا خوف من حرب، وكان توفيق باشا قد نصح للسلطان بعدم المقاومة خوفًا من حرب أهلية.

ولمّا اجتمعت الجيوش في «سان ستفانو» وذلك في ٢١ أبريل أقبل عليها النوّاب والشيوخ وانعقد مجلس الأمّة تحت رئاسة أحمد رضا بك، ونشروا منشورًا يجعل الأمر والنهي والاقتصاص من الثائرين في يد محمود شوكت باشا، قائد الجيش المسمّى بجيش الحركة، وكان العساكر البحرية قد اشتركوا في الثورة من قبل، ولكنَّهم لمّا رأوا القوّة أقبلت أسرعوا إلى الخضوع. وبالإجمال لم يكن في نيّة توفيق باشا ولا أدهم باشا، ولا أحد من الوزارة الجديدة مقاومة الفيلقين القادمين من الروملّلي، ولكن بعض العساكر الذين كانوا في ثكنة «طاشقشلة» والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء، أطلقوا النار على جيوش الروملّلي فوقعت معركة انتهت بفوز جيوش الروملّلي، وكذلك وقعت مناوشات خفيفة في ثُكن أخرى وانتهت بفوز قوّة محمود شوكت باشا، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان، إلاّ أنهم لم يروا السلطان ناويًا المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا. وفي ٢٦ أبريل تقرّر في مجلس الأمّة خلع السلطان. وصدرت الفتوى من مشيخة الإسلام بأنه إذا كان زيد ـ الذي هو أمير المؤمنين ـ يحذف مسائل مهمّة من كتب الشرع وقد يمنع تداول هذه الكتب أحيانًا، وكان يخالف الشرع في استعمال بيت مال المسلمين ويقتل وينفي ويحبس بمجرّد هواه، ويحنث بيمينه الذي أقسمه، ويُحدث الفوضى في المملكة أفلا يجوز تخليص الأمّة من ضرره؟ أفلا يكون من مصلحة الأمّة خلعه...إلخ؟ الجواب؛ نعم.

السلطان محمَّد الخامس

وهكذا تقرّر خلع عبد الحميد الثاني، ومبايعة أخيه السلطان محمَّد رشاد باسم محمَّد الخامس. وذهبت لجنة مؤلّفة من عارف حكمت باشا وآرام أفندي، من أعضاء مجلس الأعيان، ومن أسعد باشا، مبعوث دراج، وفراسو أفندي، مبعوث سلانيك؛ فبلّغوا السلطان

قرار خلعه، وفي يوم الأربعاء ٢٨ أبريل الساعة الثامنة والنصف مساءً جاء القائد حسين حسني باشا وعلي فتحي بك وأبلغا السلطان قرار نقله إلى سلانيك، وسفّروه في نصف الليل، وكان معه نساؤه واثنان من أولاده؛ والأمير عبد الرحيم أفندي وعمره ١٦ سنة والأمير محمَّد عابد عمره ٦سنوات، ولم يصحبه إلاّ أربعة من الخصيان، وتسعة من الخدم. وبعد نقل السلطان إلى سلانيك ومبايعة أخيه سكنت الأمور وأعلنت الإدارة العرفية في العاصمة، وتألّف مجلس حربي لمحاكمة الذين أحدثوا الثورة وسفكوا الدماء فصدر الحكم بشنق عدد من هؤلاء، ولا شكّ في أنه كان قد بقي أناس كثيرون متحفّزون لإعادة السلطان عبد الحميد إلى العرش في أول فرصة، ولكن هذا الحزب كان يرى لزوم السكينة إشفاقًا على الدولة. ولمّا انشغلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان عبد الحميد إلى الأستانة، أنزلته في قصر "بكلربك" حيث بقي إلى أن مات سنة ١٩١٧ وحضرت مأتمه وشهد الجمهور بحقّه شهادة حسنة لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه وإيمانه، وبعد أن بويع السلطان محمَّد الخامس، أعيد حسين حلمي باشا إلى الصدارة، وبقي النفوذ الحقيقي لجمعيّة الاتّحاد والترقّي، فحصل بين الجمعيّة وحسين حلمي باشا اختلاف أدّى إلى استقالته. فاستدعى الاتّحاديون ابراهيم حقّي باشا، سفير الدولة في رومة، وجاء إلى الأستانة في ١١ يناير سنة ١٩١١ فاختار حقّي باشا لنظارة الحربية محمود شوكت باشا، وصار طلعت بك ناظرًا للداخلية، وجاويد بك للمالية، ورفعت باشا للخارجية، ونجم الدين ملاّ بك للعدلية، وحلاجيان أفندي للنافعة؛ والأميرال خليل باشا للبحرية، والشريف علي حيدر باشا للأوقاف، وأمر الله أفندي للمعارف، وتولّى مشيخة الإسلام القاضي حسين حسني أفندي.

وعندما قُرئ برنامج الوزارة الجديدة في المجلس نالت ١٨٧ صوتًا ضدّ ٣٤ من المعارضين. واستنكف ٢١ مبعوثًا عن إعطاء أصواتهم، فكان مبدأ وزارة حقّي باشا مؤذنًا بالنجاح، إلاّ أنه كان الأمر لا يزال في يد الاتّحاديين، فاشتدّت من أجل ذلك المعارضة. وكان حقّي باشا ومحمود شوكت باشا ورفعت باشا، من أعضاء الوزارة معتدلين، على حين أنَّ طلعت بك وجاويد بك وحلاجيان أفندي كانوا يريدون إجراء برنامج الاتّحاد والترقّي "بزرّه وعروته" فوقع الخلاف في وسط الوزارة وصار الاتّحاديون الغُلاة يريدون إسقاط حقّي باشا من الصدارة، وفي ذلك الوقت جرت ثورة الأرناؤوط وأساسها أنه بعد مؤتمر برلين تألّفت جمعيّة في بلاد الأرناؤوط، مبدؤها المحافظة على الوطن الألباني، وهذه المحافظة كانت تقتضي مقاومة الأروام من جهة، والسربيين من جهة أخرى. فنظر السلطان عبد

الحميد إلى الموضوع فوجده موافقًا لسياسته ولسياسة الدولة العثمانية، فأخذ يقوّي الأرناؤوط عمدًا ويمدّهم بالمال، ويوليهم المناصب ويعتمد عليهم أكثر من سواهم. وما عاشت الجمعيّة الأرناؤوطية إلاّ بفضل إمداد السلطان عبد الحميد لها، فقد كان يتّخذ الأرناؤوط ردءًا له في مقاومة البلقانيين الذين ينوون الاستيلاء على بلاد الروماللي كالسرب والبلغار، واليونان، وكان أيضًا يتّخذ الأرناؤوط بطانة له ضدّ حزب «جون تورك» الذي كان يعلم أنه لن يرضى عنه. وكان بلغ عدم ثقته بالترك أنه جعل الحرس السلطاني الخاصّ كلّه من العرب والأرناؤوط، فكان حول قصر يلدز بضعة عشر تابورًا من العساكر نصفها من العرب بزيّ خاصّ بهم يلبسون العمائم وأكثرهم من عرب اليمن، والنصف الآخر كان من الأرناؤوط بزيّهم الخاص. وكان قد اعتنى جدّ الاعتناء بتعليم هذا العسكر الخاصّ وتدريبه وترفيه معيشته، والتأنّق في كسوته حتّى صار من الطبقة الأولى في عساكر العالم، لا يفضّله عسكر آخر. ولمّا زار إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني صديقه السلطان عبد الحميد الثاني واستعرض أمامه هذا الحرس الخاصّ؛ ابتهج الإمبراطور به ابتهاجًا أكيدًا، وقال: إنَّه يضاهي أحسن عسكره في ألمانيا. وكان إذا خرج السلطان يوم الجمعة للصلاة أقيمت له مراسم حافلة تتجلّى فيها الهيبة الملوكية إلى الدرجة القصوى، وتسير الوزراء والقوّاد أمام مركبة السلطان مشاة على الأقدام، وتصطفّ عساكر الحرس المذكور عن الجانبين؛ العرب من جهة، والأرناؤوط من جهة، فيكون لذلك أبّهة وروعة لا ينكرها أحد. وكان يسمّى هذا الاحتفال برسم السلملك، فتقصده كبار الأجانب والسيّاح من جميع الأقطار، وقلّما كان السلطان يخرج من قصره إلاّ لصلاة الجمعة، وكان سفراء الدول يذهبون غالبًا لشهود هذه الحفلة، وكان اقتصار السلطان في حرسه على العرب والأرناؤوط دليلاً واضحًا على عدم ثقته في الأتراك الذين يوجد منهم غالبًا مَن ينوي له السوء.

وقد كنّا نلاحظ أيضًا أنه عندما يخرج لصلاة الجمعة ـ سواء كان راكبًا جوادًا أو راكبًا عربة ـ يكون عن جانبيه فارسان؛ كلٌّ منهما سيفه مسلول في يده وهما أيضًا عربيان أحدهما محمَّد باشا العرقسوسي من دمشق، والثاني علي باشا قيراط من طرابلس الغرب. فلمّا تولّى السلطان محمَّد رشاد وصار الأمر إلى حزب «جون ترك»، نثروا هذا الحرس الخاصّ من أرناؤوط وعرب نثرًا، ولم يبقوا له أثرًا.

ونعود إلى ذكر إقبال السلطان عبد الحميد على الأرناؤوط فنقول: إنَّه أمتعهم بامتيازات كثيرة، وأعلقهم حبال الارتباط بشخصه حتّى صاروا لا يبغون منه بدلاً ولا عنه

حوَلاً. ولمّا قام الاتّحاديون بالانقلاب وإعلان القانون الأساسي ثقل ذلك على الأرناؤوط وتوجّسوا خيفةَ قصر حرّيتهم، لأنَّ القانون الأساسي كان معناه المساواة التامّة بين الرعيّة، وهم لم يكن السلطان يعاملهم بالحقيقة بالمساواة، بل كان يميّزهم على غيرهم، ويُسبغ عليهم من النعم ما لا يعرفه فريق آخر من الرعيّة، ولذلك اجتهدت جمعيّة الاتّحاد والترقّي في استرضاء الأرناؤوط بجميع الوسائل حتّى لا يناهضوا الدستور، ووعدتهم بإبقاء امتيازاتهم الأولى، وبفتح مدارس تعلّم فيها لغتهم، وباعتبار اللغة الأرناؤوطية لغة رسمية في بلادهم، وبمعاملتهم في كثير من الأحيان بحسب تقاليدهم وعاداتهم، وبتعزيز الشرع الإسلامي فيما بينهم، وأخذت توزّع الأسلحة على الأرناؤوط ليتمكّنوا من مقاومة السربيين، وأهالي الجبل الأسود وكلّ هذا قصدَتْ به جمعيّة الاتّحاد والترقّي اجتذاب الأرناؤوط إلى ناحيتها حتّى لا يعارضوا نشر الدستور، ولا يُحدثوا عليه ثورة وهم أسرع الناس إلى الثورات. إلاّ أنَّ الأرناؤوط كانوا لا ينسون منزلتهم الخاصّة عند السلطان عبد الحميد، وكانوا لا يثقون في حزب «جون تورك» ففي أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ أرسلوا وفدًا إلى سلانيك يطالب بإعادة الأحكام في ألبانيا إلى الشرع الشريف، وبالاعتراف بامتيازاتهم وبتأسيس مكاتب أرناؤوطية على نفقة الدولة ممّا لم يكن ليُرضي جمعيّة الاتّحاد والترقّي التي داهنتهم في أول الأمر من قبيل التسكين وتخدير الأعصاب، حتّى لا يثوروا في وجه النظام الجديد. فلمّا رأتهم ممعنين في الإدلال، متعنتين على الدولة بصنوف المطالب قرّرت بإزائهم إرهاف الحدّ، وإدخالهم في الطاعة كسائر أجناس الرعيّة. كان بين الأرناؤوط رجل اسمه «عيسى بولاطين» من زعمائهم، ولم يكن يراعي القوانين ولا يتحرّج عن القتل والنهب إذا ألجأه الأمر. وكان السلطان عبد الحميد يصيبه بنِعمه المتواترة حتّى تسلم البلاد من عيثه، فلمّا أعلن الدستور لزم عيسى بولاطين بيته ساكتًا ولكن الاتّحاديين لبثوا يحسبون له حسابًا، فأصدروا الأوامر إلى الحكومة المحلّية بنزع سلاح عيسى بولاطين والجماعة التي حوله، ومن المعلوم أنَّ الأرناؤوطي يؤْثِر الموت على تسليم سلاحه، فعصى عيسى بولاطين الأمر، فساقت الدولة عسكرًا بقيادة جاويد باشا فذهب هذا الجيش ودمّر القرى وأوقع بأهلها، ودكّ الحصن الذي يسكنه عيسى بولاطين، فثار الأرناؤوط في كلّ الجهات من أجل ذلك، واتّسعت الثورة فضاعف جاويد باشا القوّة وبطش بالثائرين بطشة جبّارين، ونزع الأسلحة من أيدي الأرناؤوط وتقاضاهم غرامات ثقيلة، وقيل إنّه قتل النساء والأولاد ـ وهذا ما لا نعتقده ولكنّه أشيع يومئذٍ عمدًا ـ فاجتمع ثلاثة آلاف أرناؤوطي في «فيرازوفيتش» لأجل الاحتجاج فرماهم جاويد باشا بالقنابر، وشرّد بهم من خلفهم، ثمَّ

أخذت الدولة بإحصاء النفوس فازداد قلق الأرناؤوط، وعلموا من هذا أنَّ الدولة تريد إجراء الخدمة العسكرية في ألبانيا. وكان مقصد الجون تورك في الواقع أن يلغوا امتيازات الأرناؤوط تدريجًا، وأن يجبروهم على دفع الضرائب التي تدفعها سائر الرعيّة، وأن ينسّوهم تلك الدالّة التي عوّدهم إيّاها السلطان عبد الحميد، وكلّ هذا كان بعيدًا عن أن يرضى به الأرناؤوط وفي ١٧ يوليو سنة ١٩٠٩ عقد الأرناؤوط في "فريزوفيتش" مجمعًا عامًّا للتحدّث فيما بينهم في ما يجب أن يعملوه لمعالجة هذه الحالة، فأرسلت جمعيّة الاتّحاد والترقّي نيازي بك، أحد أركانها، لأنه أرناؤوطي، أصحبته بجماعة من المخلصين لها على أمل أن يصرفوا الأرناؤوط عن المطالبة بما يخالف مصالح الدولة، فلم تقترن مساعيها بالنجاح، لأنَّ المؤتمر الأرناؤوطي قرّر أن يكون للأرناؤوط حقّ بتولّي المناصب الإدارية، وبتعليم اللغة الأرناؤوطية، واقترح توسيع سلطة مجالس الولايات وإنشاء الطرق وعقد اجتماع سنوي للأمّة الأرناؤوطية، وعدم تقاضي الأرناؤوط شيئًا من الضرائب عدا العشر، وأن يؤخذ معدّل خمس سنوات ويجعل منه متوسّط ويصير جباية ثابتة، وغير ذلك من الاقتراحات التي رأت فيها جمعيّة الاتّحاد والترقّي مقدّمة لاستقلال داخلي في ألبانيا، وكانت بلاد ألبانيا الجنوبية ساكنة، بخلاف ألبانيا الوسطى والشمالية، إلاّ أنَّ الحركة في آخر الأمر شملت الجميع، وقرّر الأرناؤوط فيما بينهم الحرب لأجل الاستقلال بإدارتهم الداخلية وتحفّزوا للقتال.

وفي سنة ١٩١٠ بدأت الثورة في نواحي "برشتنة" بسبب الضرائب فأسرع الأرناؤوط من سائر الجهات إلى نجدة أرناؤوط برشتنة، فأرسلت الدولة جيشًا نحو عشرين ألف مقاتل، ومعهم ثلاثون بطارية من المدافع تحت قيادة شوكت طورغوط باشا، فقاتلوا الأرناؤوط قتالاً شديدًا ولكنَّهم لم يقدروا عليهم ولا سيّما في مضيق "كاتشانيق" وهو موقع شديد المنعة في ولاية قوصوه احتلّه الأرناؤوط، وعجز العسكر عن أخذه، فما زالت ترد الإمدادات إلى شوكت كورغوط باشا حتّى تمكّن من الاستيلاء على المضيق وهزم الأرناؤوط بعد وقائع دموية، ودمّر لهم قرى كثيرة فانتقلت مقاتلة الأرناؤوط إلى مضيق "تشرنالوقة" ولبثوا يقاتلون. فأرسلت الدولة محمود شوكت باشا ينصح للأرناؤوط بالكفّ عن القتال وبالدخول في طاعة الدولة فتوفّق في مهمّته وأخلد الأرناؤوط إلى السكينة. إلاّ أنَّ عيسى بولاطين وإدريس صقر وعدّة آلاف من الثائرين معهما لاذوا بالفرار إلى جهة الجبل الأسود، وإلى قرى الأرناؤوط الكاثوليك، وكانت الثورة الأرناؤوطية، في

بداية الأمر قاصرة على الأرناؤوط المسلمين، ففي سنة ١٩١١ انضمّ إلى المسلمين قبائل الأرناؤوط الكاثوليك وصارت جمعيّات الأرناؤوط في إيطاليا ورومانيا تمدّ الثورة، وجاءت إلى الأرناؤوط نجدات من الجبل الأسود، وصار ثوّار الأرناؤوط يلجأون إذا ضاقت بهم الحال إلى أرض الجبل، وعادت الثورة فازدادت اشتعالاً، وعبّت الدولة ستّين تابورًا، وأخذ شوكت طورغوط يدمّر قرى الماليسور المارديت من الأرناؤوط الكاثوليكيين، فعند ذلك توسّطت دولة النمسا والمجر لدى الباب العالي لأجل الكفّ عن سفك الدماء، فاستمعت الدولة نصيحة النمسا وأخذت في تضميد جروح الأرناؤوط بما أمكن، وسكن الأرناؤوط ولكنّهم رجعوا إلى اقتراحاتهم الأولى وهي احترام الدولة لعاداتهم القومية واستقلال التعليم في مكاتبهم، واستعمال الحروف اللاتينية ومنح ألبانيا إدارة لامركزية، وإنفاق ما يفيض من واردات ألبانيا على منافع هذه البلاد، واجتمع مبعوثو الأرناؤوط تحت رئاسة حسن بك، مبعوث أسكوب، وقرّروا هذه المطالب فأجابت الدولة بالقبول وأصدرت العفو عن جميع الثائرين. وسامحت في كثير من بقايا الأموال الأميرية ورضيت بأن تكون الخدمة العسكرية سنة في الأستانة وسنتين في نفس ألبانية، وأوجبت أن يكون المأمورون في ألبانيا عارفين باللغة الأرناؤوطية، وأخذت الدولة ترمّم البيوت التي دمّرتها العساكر، ووزّعت مبالغ من النقود على المصابين، وهكذا سكنت الثائرة الأرناؤوطية، وذهب السلطان محمَّد الخامس بنفسه إلى بلاد الأرناؤوط وصلّى في صحراء قوصوه ووراءه جمع قيل إنّه مائة ألف مصلٍّ، ورجع إلى الأستانة مسرورًا.

وفي تلك الأيام بدأ الشقاق بين أعضاء الاتّحاد والترقّي أنفسهم، واختلفت الآراء في مجرى السياسة التي يجب على الجمعيّة اتّباعها، فخرج منها أناس مغاضبين، منهم أمير الألاي صادق بك الذي كان من مؤسّسي جمعيّة الاتّحاد والترقّي، فانفصل عن الجمعيّة وألّف حزبًا جديدًا معاكسًا لها ثمَّ استعفى طلعت بك، وأمر الله أفندي وحلاجيان أفندي من النظارات، التي كانوا يتولّونها وظهر للناس ضعف الحكومة ولم يكن مجلس المبعوثين بأحسن منها حالاً، بل كانت تتوالى فيه المشاحنات والمهاترات بين الأحزاب، ومرّة جرت حادثة بين نوّاب العرب ونوّاب الترك وكادوا يتضاربون والخلاصة أنَّ العثمانيين كانوا في ذلك الوقت يمزّق بعضهم بعضًا، وكانت كلّ العلاقات تؤذن بسوء المصير، وإذا بحادث طرأ بغتة وهو أنَّ إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا أو تتخلّى لها عن طرابلس الغرب وبرقة، وكانت مطالب إيطاليا عبارة عن خمسة وهي: خروج العساكر العثمانية من طرابلس،

وبنغازي، ودرنة، وتشكيل جندرمة فيها تحت قيادة ضابط من الطليان، وأن تكون إدارة الجمارك بأيدي مأمورين من الطليان أيضًا، وأن لا يتعيّن والٍ لطرابلس إلاّ برضى إيطاليا، وأُعطِيَ الباب العالي مدّة أربع وعشرين ساعة ليجيب بالقبول. فاجتمع مجلس فوق العادة في القصر السلطاني، وسمع حقّي باشا، الصدر الأعظم، كلامًا مهينًا بسبب إهماله وعدم احتياطه لأنَّ سعيد باشا، رئيس مجلس الأعيان، ذكر له أنَّ مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند تركيا، وأنه سبق لإيطاليا كونها قدّمت مذكّرة إلى الباب العالي سنة ١٩٠٤ بعد اتّفاق إيطاليا مع فرنسا وإنكلترة تقول فيها: إنَّها ما دامت الحالة غير متغيّرة في البحر المتوسّط، فإنَّ إيطاليا لا تدّعي بشيء في طرابلس الغرب، ولكن إذا حصل تغيير في البحر المتوسّط يخلّ بالتوازن الدولي فهي مضطرة أن تتّخذ تدابير لوقاية مصالحها. ثمَّ إنَّ حقّي باشا كان سفيرًا في رومة، فكان يجب عليه أن يطّلع على حقيقة نيّات إيطاليا وليس لحقّي باشا عذر في غفلته هذه. فثبت بحقّ حقّي باشا ما أوجب استقالته ملومًا، بل مغضوبًا عليه، ولم يقدر هو أن يدافع عن نفسه. ثمَّ أجاب الباب العالي برفض مطالب إيطاليا قائلاً لها: إذا كانت ستصمّم على احتلال طرابلس فإنَّ الدولة تقوم بالواجب عليها بإزاء اعتداء إيطاليا.

وحقيقة مسألة طرابلس الغرب من أوّلها إلى آخرها لا تخرج عن كون إنكلترة وفرنسا تقاسمتا أفريقية، وذلك على أثر حادثة فاشودة المشهورة التي كادت توقع الحرب بين هاتين الدولتين، فعندما اقتنعت فرنسا بإرجاع جنودها من فاشودة اتّفقت الدولتان على تقسيم أفريقية كلّها تقريبًا بينهما على قاعدة أنَّ فرنسا تسكت لإنكلترة على وادي النيل وجميع توابعه، وعن امتلاك الخطّ الممتدّ من البحر المتوسّط إلى الكاب، وبمقابلة ذلك توافق إنكلترة على احتلال فرنسا للمغرب بحذافيره وتوابعه، وقد كانت هذه السياسة التي اتّفقت فرنسا وإنكلترة عليها هي الأصل الأصيل في الحرب العامّة، ولولاها كان يبعد كثيرًا وقوع هذه المجزرة البشرية الكبرى، وذلك لأنَّ ألبانيا وجدت في عمل فرنسا وإنكلترة هذا استخفافًا بها، وجهالة لمكانها بين الدول العظام وأخذت من ذلك الوقت تترصّد الفرصة لإظهار ما في نفسها من عمل إنكلترة وفرنسا وأبت أن تعترف لفرنسا بحقّ احتلال مراكش. وسيكون لهذه المسألة أدوار أخرى تمرّ بها وتزيد العداوة بين ألمانيا وإنكلترة إلى أن تنشب الحرب العامّة، لأنه عندما اشتدّت الأزمة بين فرنسا وألمانيا من أجل استيلاء فرنسا على مراكش؛ كان الفرنسيس سألوا الإنكليز عمّا يكون من موقفهم في هذا الخلاف؟ فأجابوهم بأنَّ الأسطول الإنكليزي حاضر للعمل في جانب فرنسا. فكان هذا الجواب هو أعظم عامل في

زرع العداوة بين الألمان والإنكليز. فالحرب العامّة إذًا ـ وإن تعدّدت أسبابها ـ فقد كان السبب الأقوى في نشوبها اتّفاق إنكلترة وفرنسا على تقسيم أفريقية وانتهاء الأمر باحتلال فرنسا للمغرب بمساعدة إنكلترة، فإنكلترة من زمن قديم تريد أن تربط شرقي أفريقية بالهند، وتجعل من ذلك مستعمرة واحدة، ولأجل تحقيق هذا المشروع توسّلت بوسائل لا تُحصى، أولها القضاء على الدولة العثمانية حتّى يتسنّى لإنكلترة وضع يدها على جزيرة العرب التي هي حائلة في الوسط بين أفريقية والهند، الثاني القضاء على استقلال الدولة الإيرانية، وقد كانت إنكلترة اتّفقت سنة ١٩١١ مع الروسيا على اقتسام المملكة الفارسية فجعلوها ثلاث مناطق؛ الشمالية تحت تصرّف الروسيا، والجنوبية تحت تصرّف إنكلترة، والمتوسّطة مستقلّة إلى حدّ محدود تحت نفوذ الدولتين.

وهكذا أصبح ممكنًا أن تمدّ إنكلترة خطًّا حديديًّا في جنوبي فارس آتيًا من الهند إلى العراق، ثمَّ تمدّه في أراضي الدولة العثمانية من حدود فارس في أرض العراق وفلسطين إلى مصر، وهكذا إلى رأس الرجاء الصالح، وتكون جميع البلدان التي سيمرّ بها هذا الخطّ من أملاك إنكلترة خالصة لها. فما اكتفت إنكلترة بالاستيلاء على بلاد الهند التي فيها ٣٢٠ مليونًا من السكّان؛ بل حاولت أن تطفر من الهند إلى أفريقية، وتجعل هاتين القارتين؛ غربي آسيا، شرقي أفرقية قطعة واحدة، لا ينازعها فيها منازع. وكأنها تريد أن تأخذ موثقًا على الدهر، وتجعل الفلك الدوّار يدور على محور إرادتها، فجميع هذه الأمم من هنود وإيرانيين وعرب ومصريين وأحباش وصوماليين وزنوج، لم يوجَدوا في نظر إنكلترة ليكون لهم حرّية في أنفسهم! وإنَّما أوجدهم الله ليكونوا رعايا لإنكلترة حتّى تكون لها الكبرياء في الأرض، ولأجل إتمام تصوّرها هذا لزم لها أن تسترضي فرنسا فتبيحها احتلال المغرب، واسترضاء إيطاليا فتتّفق مع فرنسا ويسمحان لها باحتلال طرابلس الغرب، فهل تمكّنت إنكلترة من تطبيق برنامجها الواسع هذا؟ الجواب، إنَّها قد لقيت في تطبيقه ما لم تكن تتوقّعه، بل ما لم يخطر لها على بال! فأول خرق وقع في هذا البرنامج وقع من جهة فارس فإنَّ إنكلترة كانت تقاسمت فارس هي والروسيا قبل الحرب العامّة، ثمَّ الحرب العامّة فكانت نتيجتها الظفر الأكبر لإنكلترة، وكان من المعقول أنَّ إيران بعد هذا الظفر تصبح ـ لا سيّما المنطقة الجنوبية منها ـ مستعمرة إنكليزية، فكان الذي حصل هو عكس ذلك، ورجعت إيران فأخرجت الإنكليز والروس من بلادها، ورجع خطّ الاتّصال بين الهند ومصر منقطعًا.

وأمّا الخرق الثاني في برنامج السلطنة البريطانية هذا فقد وقع من جهة بلاد العرب، فقد

كانت إنكلترة تفكّر بأنها إذا قضت على الدولة العثمانية كانت هي الوارثة لها في بلاد العرب فتتصرّف بهذه البلاد كما تشاء، والملك حسين بن علي الذي زعمت أنها حالفته واعترفت باستقلاله بدل قيامه على الأتراك؛ إنّما تجعل له الحكم في الحرمين الشريفين فقط، وهو مع ذلك سيكون مضطرًا إلى قبول أيّة كلمة تصدر منها. وأمّا نجد والعراق وفلسطين فهذه كانت في نظر إنكلترة مرشّحة تكون من المستعمرات البريطانية، فظهر لها بعد الحرب العامّة وبعد ظفرها مع حلفائها أنّ العراق لا يرضى أن يكون من جملة مستعمرات إنكلترة، وما زال يثور حتّى اضطرت إنكلترة إلى الاعتراف باستقلاله، وهي وإن كانت اتّفقت مع العراقيين على تأمين المواصلات الأمبراطورية كما يقال، فهذا التأمين للمواصلات ليس بسرمد، كما أنَّ نجدًا مع توابعه الواصلة إلى الجوف، وإلى قريات الملح على مقربة من شرقي الأردن؛ بقي مستقلاً تمام الاستقلال، يليه ملك عظيم الشأن هو «عبد العزيز بن سعود» وقد أوسع ملكه بالاستيلاء على الحجاز وصارت هناك دولة عربية مؤلّفة من نجد والحجاز وعسير يسكنها زهاء خمسة ملايين من قبائل العرب المسلّحة، ولا يسهل على إنكلترة أن تلعب بها كما تشاء، ولا أن تجعل فيها خطوط مواصلات. فلذلك كان هو هذا الخرق الثاني في البرنامج البريطاني.

ثمَّ بينما هي تظنّ أنها قد تملّكت مصر ولم يبقَ لها معارض فيها ولا في السودان، وبينما هي تقيم القيامة اليوم لأجل منع إيطالية، من الاستيلاء على الحبشة حتّى تؤمّن السلطنة التي تحلم بها من البحر المتوسّط إلى رأس الرجاء الصالح؛ ظهر لها خرق ثالث في هذا البرنامج، وهو قيام المصريين عن بكرة أبيهم يبلّغون إنكلترة أنَّ جميع مماطلاتها لن تفيدها شيئًا في حلّ الخلاف الذي بينها وبين مصر، وهو الخلاف الذي يأبى المصريون أن يعرفوا له حلاً غير مؤسّس على استقلال مصر التامّ! فهذه إذًا ثلاثة خروق؛ أولها إيراني، والثاني عربي، والثالث مصري، في هذا البرنامج الواسع الذي حلمت به إنكلترة، وليس الإنكليز بأول كتلة بشرية اتّسع سلطانها حتّى أفقدها رشدها، وجعلها تحاول تخليد حكمها على آفاق لا تغرب الشمس عنها، بل من قبلها سكرت أمم كثيرة بخمرة العزّ! وبينما هي تظنّ أنَّ لم يبقَ لها منازع في الدنيا؛ جاءتها الحوادث بما لم يكن في حسبانها، وخسرت ما كانت قد تظنّته ممّا ملكت أيمانها، وظهر على الأمر مَن لم يكونوا لها على بال. ولا بدَّ أن يصدق فيها قوله تعالى ﴿فأورثناها قومًا آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾.

ونعود إلى غارة إيطاليا على طرابلس الغرب فتقول: إنَّها وإن كانت قد اعتذرت بكون الإنكليز والفرنسيس تقاسمتا أفريقية، ولم تبقيا لها شيئًا غير طرابلس الغرب فاضطرت إلى احتلالها؛ فإنَّه لم يكن من ضمير حي، ووجدان قوي، ليقبل هذا التعليل ويجعله حجّة!! وإن كان ممّا لا شكَّ فيه أنَّ إنكلترة وفرنسا كانتا على وفاق مع إيطاليا في قضيّة طرابلس. ولذلك عندما استغاثت تركيا بدول أوربا جمعاء ممّا فعلته إيطاليا أصمّت إنكلترة وفرنسا آذانهما عن سماع نداء تركيا!! وليتأمّل المتأمّل في تلوّي السياسة ودناءة مباديها، وذلك عندما يرى أنَّ اعتداء إيطاليا على طرابلس لم تقابله إنكلترة بأدنى كلمة استنكار، على حين أنها اليوم تحشد إنكلترة ١٨٠ بارجة حربية، وتجمع كلمة خمسين دولة من أعضاء جمعيّة الأمم على مقاطعة إيطاليا التجارية بحجّة أنَّ إيطاليا شنّت الغارة على الحبشة ظلمًا وعدوانًا، كأنَّ الغارة على طرابلس لم تكن ظلمًا وعدوانًا!! يحلّلونه عامًا ويحرّمونه عامًا، ويفضحون أنفسهم أمام التاريخ ولا يبالون بما يقال عنهم.

أرسلت إيطاليا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أسطولاً عظيمًا إلى مرسى طرابلس فأنذر البلدة بالضرب إن لم تستسلم له، فأبت البلدة الخضوع فبدأ يرميها بالقنابر وما زال يرميها حتّى تمكّن من احتلالها في ٧ أكتوبر ولم يكن فيها قوّة من الجيش التركي النظامي غير ألفين إلى ثلاثة آلاف عسكري، لم يكن لها قِبَل بتجريدة إيطاليا لا في العدد ولا في العتاد، وإنَّما كان الأهالي العرب هم الذين تولّوا كبر المقاومة. وبعد أن نزل الطليان بساحة طرابلس حاول العرب أن يردّوا العسكر الإيطالي إلى البحر، فاقتتل الفريقان من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٦ منه بشدّة نادرة المثال، وكاد العرب يقلعون الطليان من طرابلس، ولولا امتناع الطليان بقلاع طرابلس لأخرجوهم منها ولكنَّهم امتنعوا ريثما تكاملت جموعهم بوصول الإمدادات من البحر، وردّوا العرب إلى الوراء بعد أن لحقت بالطليان خسائر جسيمة. ومن شدّة ما لحق بهم من الخسائر ارتكبوا فظائع لا تزال وصمة عار عليهم في التاريخ، وذلك في حادثة المنشيّة التي ذبحوا فيها الأهالي ولم يستثنوا أحدًا ولا النساء ولا الأطفال!! ونشرت ذلك الصحف الأوربية ـ حتّى الصحف المعادية منها للإسلام ـ فانكفأ الطرابلسيون إلى "واحة عين زارة" فتقدّم الطليان بقوّة كبيرة وأخرجوهم منها، فانكفأوا إلى "غريان" وصاروا يناوشون الطليان القتال بينها وبين مدينة طرابلس. وقد طرح مبعوثو طرابلس قضيّة بلادهم في مجلس الأمّة العثمانية، فحصلت المناقشات فيها فتبيّن من إهمال الحكومة العثمانية في ظلّ الدستور والحرّية ما لم يكن معهودًا في زمن السلطان عبد الحميد الذي رموه بكلّ سوء.

فمن جملة ذلك أنَّ حامية طرابلس كان ينبغي أن تكون بحسب النظام ١٧ تابورًا من المشاة و١٠ كواكب من الفرسان، وستّ بطاريات من مدافع الصحراء، والحال أنه لم يوجد في كلّ طرابلس إلاّ أربعة آلاف جندي نظامي لا يزيدون، وأنه كان أهالي طرابلس قد اقترحوا التجنيد من تلقاء أنفسهم، وقرّر المجلس في السنة السابقة النفقات المالية لذلك، وعندما حضر الشبّان للتجنّد وكانوا ستّة عشر ألفًا لم تقبل القيادة منهم إلاّ ثلاثة آلاف وأربعمائة. وكان يوجد في طرابلس أربعون ألف بندقيّة من نوع مرتيني ونوع شنَيْدَر، فاسترجعتها الحكومة إلى الأستانة على وعد أن ترسل بدلاً عنها أربعين ألف بندقيّة موزر، فنسيت الحكومة هذا الوعد ولم ترسل شيئًا، وتبيّن أنَّ المشير ابراهيم باشا الذي كان واليًا لطرابلس قبل ذلك بسنوات اقترح تأسيس معمل سلاح وقراطيس للبنادق في نفس طرابلس وكتب إلى الباب العالي بأنَّ أهالي طرابلس أشدّاء ذوو بصائر في الحروب إذا أغارت عليهم دولة أجنبية يقدرون أن يدفعوها عن بلادهم، بشرط أن يكون عندهم الأعتدة والأسلحة الكافية، ولمّا كان لا يوجد عند الدولة قوّة بحرية تؤمّن إيصال الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت على هذا القطر دولة كدولة إيطاليا، فإنَّه يجب إرسال كمّية وافرة من الأسلحة إلى تُكن طرابلس، وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص بالأقلّ في نفس طرابلس، بحيث يكون في أيدي الأهالي عدّة كافية يدافعون بها عن أنفسهم عند الحاجة، فهذا الاقتراح أهمله الباب العالي ولم ينظر فيه برغم النُّذُر الكثيرة التي كان يتلو بعضها بعضًا بأنَّ إيطاليا تتأهّب من زمن طويل للإغارة على طرابلس وبرقة.

بل حدّثني مَن أثق به من زعماء الطرابلسيين، ومنهم كبيرهم السيِّد أحمد الشريف السنّوسي، رحمه الله، بأنَّ الدولة في زمن السلطان عبد الحميد كانت ترغب في تجريد أهالي طرابلس من السلاح، وتكبس الزوايا السنّوسية التي تظنّ فيها وجود أسلحة، وأنَّ انتقال السيِّد المهدي السنّوسي من واحة جغبوب إلى واحة الكفرة على مسافة ٢٥ مرحلة من بنغازي إلى الجنوب كان أصل السبب فيه اعتقاد المهدي السنّوسي أنَّ هذا القطر سيتعرّض في يوم من الأيام لاحتلال إيطاليا، وأنه سيحتاج الأهالي إلى السلاح حتمًا، والحال أنَّ الدولة العثمانية ـ بعماية قلب غير مفهومة ـ كانت تحاول تجريد الأهالي من أسلحتهم، ولا تريد أن تدرك أنَّ هذا القطر دون غيره هو تحت خطر غارة أجنبية لا تقدر الدولة أن تدفعها إلاّ إذا كان الأهالي متسلّحين. فالسيِّد المهدي السنّوسي، رضي الله عنه، كان يرى ضرورة التسلّح في وجه الأجانب، ولكنّه لم يكن يريد أن يخاصم الحكومة العثمانية التي كانت ضدّ

هذا الأمر، فأوغل في الصحراء وسكن في الكفرة بعيدًا عن الحكومة، وذلك حيث يمكنه أن يتسلّح هو ومَن معه، وأن يستقلّ بآرائه. ولمّا ذهبت أنا إلى برقة لأجل الجهاد بعد الغارة الإيطالية ببضعة أشهر؛ سمعت أنَّ متصرّف بنغازي كان قبل حرب طرابلس بشهرين يكبس زاوية من زوايا السنّوسيين اسمها زاوية القطفيّة بتهمة أنه مخبّأ فيها سلاح. (إنَّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) ولمّا اجتمعت بأنور، رحمه الله، بمعسكر عيد منصور فوق درنة، حيث أقمت ثمانية أشهر مجاهدًا. كنت أتحدّث إليه بما في نفسي من تقصيرات الدولة الفظيعة بحقّ طرابلس، وكان يوافق على ذلك كلّه ولا يجد عن إهمالها عذرًا.

ثمَّ إنَّه كان تقرَّر لدى الدولة تعليم أهالي طرابلس الحركات العسكرية، وأنَّ هذا القرار أيضًا قد أهملته الحكومة، ولهذا طلب مجلس الأمّة محاكمة حقّي باشا وزملائه الوزراء لأجل ما ارتكبوه من هذه الإهمالات كلّها، فلم ينفّذا القرار بسبب أنَّ بعض الوزراء كانوا من أركان الاتّحاد والترقّي، فكيف يمكن الجمعيّة أن توافق على إدانتهم ومحاكمتهم؟ فبقي هذا القرار من المجلس حبرًا على ورق.

وكان الصدر الأعظم سعيد باشا قد جنح إلى الصلح، لأنَّ إيطاليا كانت قد احتلّت رودوس والجزائر التي تجاورها، وكان البحر في يدها، ولم يكن الأسطول العثماني كفؤًا للأسطول الإيطالي. فكان الصدر يرى وجوب الصلح على شرط إبقاء السيادة العثمانية على طرابلس ولو بالاسم، وحفظ حقوق الخلافة الإسلامية، وكانت هذه سياسة دفع الضرر الأشدّ بالضرر الأخفّ. إلاّ أنَّ الرأي العامّ الإسلامي كان ضدّ التساهل في قضيّة طرابلس، لا سيّما عندما رأى المسلمون أنَّ عرب طرابلس لبّوا داعي الجهاد بشكل لم يكن منتظرًا، ووقفوا في وجه إيطاليا وقفة كان الأوربيون أنفسهم لا يصدّقونها لو لم يروها بأعينهم! فإيطاليا كانت تظنّ بحسب المعلومات التي عندها عن ضعف الحامية العثمانية في طرابلس؛ أنها تستولي على هذا القطر في مدّة لا تتجاوز ١٥ يومًا، وهي لا تشكّ في ذلك، ولمّا سمع اللورد كتشنر بظنّ إيطاليا هذا ـ وهو القائد المحنّك المشهور ـ وكان يومئذٍ المندوب السامي البريطاني في مصر، قال: إنِّي أرى الطليان مفرطين في التفاؤل، وإنَّ تجربتي الطويلة في حروب أفريقية تجعلني أُخَطِّئ هذا الرأي وأقول: إنَّ احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب وبرقة قد يستغرق ثلاثة أشهر... فهذه الثلاثة الأشهر التي ضربها أمدًا اللورد كتشنر، القائد الإنكليزي الكبير، المنجّذ في حروب العالم الإسلامي، والخمسة عشر يومًا التي ضربتها إيطاليا أمدًا لتمام الاستيلاء على طرابلس؛ كانت لدى الفعل عشرين سنة تامّة، وما

انتهت إلاّ بأسر الشهيد عمر المختار وشنق الطليان إيّاه وذلك سنة ١٩٣١، ولو كان أهالي طرابلس يملكون ما فيه بلغة من العتاد والذخيرة لكانوا إلى اليوم حامين لساحتهم. فإيطاليا بعد غارتها على طرابلس بشهرين أو ثلاثة أوصلت جيش الاحتلال هناك إلى مئة ألف عسكري، ولكنّها لم تقدر أن تتقدّم إلى الأمام شبرًا واحدًا، بل كان جيشها في نفس مدينة طرابلس، وفي بلدة خُمس، وفي مدينة بنغازي التي لم تقدر العساكر الإيطالية أن تنزل فيها إلاّ بعد معركة استمرّت ثلاثين ساعة، وجرى فيها من الوقائع ما تشيب له ذوائب الأطفال. واحتلّ الطليان أيضًا بلدة درنة على البحر في ذيل الجبل الأخضر، وموقع طبرق من البطنان، أي أنهم لم يكونوا داسوا من أرض طرابلس سوى هذه المدن الأربع، بينما لهم هناك مائة ألف عسكري تمدّها البوارج الحربية من البحر!!

وكان أنور ملحقًا عسكريًّا بسفارة الدولة في برلين، وكان علي فتحي ملحقًا عسكريًّا بسفارة الدولة في باريز، فخفّ أنور من برلين إلى الأستانة يقصد الجهاد في طرابلس، ولمّا أبدى اقتراحه وجوب تسفير جانب من الضبّاط إلى طرابلس، لم يعتقد أحد في الأستانة بأنَّ ذلك يؤدّي إلى فائدة عمليّة، ولمّا استأذن لنفسه في الذهاب إلى طرابلس قال له محمود شوكت باشا، ناظر الحربية: لا أرى فائدة من سفرك، وربّما يقتلك العرب في الطريق لأنَّ الطليان يقدرون أن يرشوهم بالمال فيغتالوك؟ فقال له أنور: لقد أهملنا طرابلس إهمالاً فظيعًا ضاقت فيه فسحة العذر، فيجب علينا أن نعوّض تفريطنا في حقّها، وأن نبذل كلّ ما نستطيعه في سبيل الدفاع عنها، وإذا كان العرب يقتلوننا في الطريق فيكون الذنب ذنبهم، ونعود نحن معذورين. قال لي هذا أنور من فمه في معسكر درنة، وقد وقعت بيني وبينه مودّة أكيدة، وخلطة ارتفع فيها التكليف بيننا، واستمرّت هذه المحبّة منذ تعارفنا في عين منصور سنة ١٩١٢ إلى أن استشهد، رحمه الله، في أرض بخاري في محاربته للروس البلاشفة سنة ١٩٢٢. ولمّا رأت الدولة إصرار أنور على الجهاد بنفسه في طرابلس؛ أدّت إليه خمسة آلاف جنيه لا غير لاعتقادها عقم حركته هذه، فذهب ومعه عدّة ضبّاط مرّوا من مصر متنكّرين، وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضبّاط.

ولم يصلوا إلى السلّوم حتّى وافتهم الأخبار بأنَّ قبيلة من العرب يقال لها الشلاويّة وهي من القبائل الصغرى أوقعوا بتابورَين من الطليان وردّوهم مدحورين إلى درنة وغنموا منها أسلابًا كثيرة. فاشتدّ بهذا الخبر عزم أنور، وأغذَّ السير، فأول ما لاقى زعماء العرب ومشايخ الزوايا السنّوسية في زاوية مرطوبة، وكان العرب ناقمين على الدولة إهمالها

أمر طرابلس، ذاكرين تلك الحماقة التي كانت تظهر من عمّالها في تجريديهم من سلاحهم، فقالوا لأنور: إنّنا لا نمشي ولا نقاتل حتّى تأتينا بالأسلحة والذخائر الكافية وبالمدافع. فأجابهم بأنه سيأتي بكلّ ذلك، وكان مقصده بهذا الوعد الفارغ إثارة حماستهم حتّى ينغمسوا في الحرب، وإلاّ فهو كان يعلم صعوبة تهريب السلاح إلى طرابلس وبرقة، فإنَّ الأسطول الإيطالي كان مراقبًا السواحل مراقبة شديدة فلم تتمكّن تركيا من تسريب الأسلحة إلى المجاهدين إلاّ في الأندر. والذي أعمله أنه من محمول البواخر العديدة التي أرسلتها الدولة لم يصل إلاّ محمول باخرتين لا غير، إحداهما تمكّنت من التفريغ في سواحل برقة، والأخرى تمكّنت من التفريغ في ساحل طرابلس لأول هذه الحرب.

وقد كان من الممكن تهريب السلاح بواسطة سواحل مصر لولا أنَّ الإنكليز شدّدوا المراقبة إلى الدرجة القصوى بواسطة مصلحة خفر السواحل المصرية، فلم تتمكّن الدولة من تهريب بندقيّة واحدة بواسطة سواحل مصر. ولمّا كنتُ قد أقمت في معسكر عين منصور عدّة أشهر؛ فقد علمت أنَّ السلاح الذي كان يقاتل به العرب هناك قليل منه كان من بقايا سلاح الدولة، ومنه قسم من السلاح اليوناني المهرّب الذي يقال له «غراه» والأكثر كان من البنادق الطليانية التي كان العرب يغنمونها في أثناء الوقائع.

وقد أعجب العرب بحمية أنور وبسالته فأحبّوه حبًّا جمًّا، ولمّا وصلت إلى هناك وجدت في مخيّم عين منصور من الجبل الأخضر على مسافة ساعتين من درنة إلى الجنوب سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل من العرب من قبيلة العبيدات، وقبيلة البراعصة وقبيلة الحاسة، وبينهم المشايخ السنّوسية لزوايا الجبل الأخضر، مثل سيِّدي محمَّد العالي الغماري، شيخ الزاوية البيضاء، وسيِّدي محمَّد الدردفي، شيخ زاوية شحّات، وسيِّدي محمَّد الغزالي، شيخ زاوية ترت، وغيرهم من أشياخ السنّوسية.

وكان مع أنور بضعة عشر ضابطًا من الأتراك، منهم مصطفى كمال، رئيس جمهورية تركيا اليوم، وبضعة عشر ضابطًا آخرون من أبناء العرب. ولمّا مررت بطبرق كان الطليان احتلّوها، ولكنّهم بنوا استحكامًا بقرب البحر امتنعوا من ورائه فلم يكونوا يقدرون أن يخرجوا منه، وكان هناك أمامهم معسكر للعرب قائده أدهم باشا الحلبي، ولا يزيد عدد المقاتلين فيه على ألفين، وبينه وبين معسكر الطليان في طبرق ساعة ونصف، وكان عمدة المقاتلين للطليان في معسكر طبرق قبيلة يقال لها عائلة مريم من العبيدات، وكان لها زعيم

يقال له الشيخ المبري قُتل في الجهاد، وكان القائمون على الجهاد في برقة هم السادة السنّوسية تحت رئاسة السيِّد أحمد الشريف الذي استنفر القبائل كلّها فانضوت تحت علم السنّوسي، وانقادت إلى الضبّاط العثمانيين تحت رئاسة أنور، القائد العامّ، فكان معسكر صغير في طبرق أمام الحامية الطليانية التي نزلت في ذلك المرسى، ومعسكر ثانٍ في عين منصور تحت قيادة أنور بنفسه وهو يقابل الطليان الذين في درنة، وكان عدد الطليان عشرين ألف مقاتل، ولكنّهم كانوا لا يقدرون على الخروج، وكلّما خرجوا ردّهم العرب إلى حيث كانوا، وقد بنوا استحكامات حول درنة يعتصمون بها إذا هاجمهم العرب إلى البلدة، ولكن مهاجمة كهذه كان ينبغي لها مدافع، ولم يكن في معسكر أنور إلاّ مدفعان صغيران لا غير.

وكانت مدافع الطليان من أضخم المدافع، وكانوا يقذفون علينا بالشرانبل بدون انقطاع، وأظنّ أنه لولا المدافع الكبيرة ما استطاع الطليان الثبات في درنة نفسها.

وأمّا المعسكر الثالث في برقة فكان في بنغازي تحت قيادة عزيز بك المصري وكانت فيه قبائل العواقير، والمغاربة، والدرسة، والعُرُفا، والعبيد، وفيه من زعماء السنّوسية سيِّدي عمران السكوري، وسيِّدي محمَّد بن عبد المولى، وجمّ غفير معهما وكان المعسكر العربي مخيّمًا في سهل يبعد ساعتين عن بنغازي إلى الجنوب، وكنّا نخمّن عدده بأربعين ألف مقاتل كلّها تحت المضارب. وقد وقعت سواء في درنة أو في بنغازي وقائع في غاية الشدّة، وخسر الطليان فيها ألوفًا مؤلّفة من الجنود، وما استطاع الطليان أن يخرجوا مسافة شبر واحد إلاّ ردّهم العرب إلى المدن فاعتصموا بها تمدّهم بوارجهم من البحر.

وقد ذكرت هذه الحوادث في حواشي «حاضر العالم الإسلامي» في مبحث خاصّ بطرابلس الغرب أوسع من هذا. وبقيت هذه الحالة كما نحن واصفوها إلى أن نشبت الحرب البلقانية، وهي التي هجمت فيها دول البلقان مجتمعة بسياسة قيصر الروسيا على تركيا مفاجأة، فتغلّبت عليها فبعثوا من الأستانة إلى أنور يستقدمونه إلى الأستانة بإلحاح شديد، فاضطر إلى ترك القيادة كارهًا، وعاد إلى استانبول وخاض في حرب البلقان، ولكن بعد أن كانت دارت الدائرة على الدولة. وكان لأنور بلاء حسن بمعيّة القائد أحمد عزّت باشا الأرناؤوطي عندما استرجع الأتراك ولاية أدرنة.

وبعد رجوع أنور إلى الأستانة صارت قيادة المجاهدين في يد عزيز بك المصري فبقي يقاوم الطليان مدّة من الزمن لكنّه اختلف مع السنّوسية اختلافًا شديدًا، وكانت إيطاليا قد

اتّفقت مع عباس حلمي خديوي مصر لذلك العهد، وذلك على أنه يبذل جهده في تسكين حركة المقاومة فاقتنع بذلك، وأرسل وفودًا إلى السنّوسية ينصح لهم بترك الجهاد فلم يقبلوا كلامه. وحدّثني السيِّد أحمد الشريف أنه عندما جاءه رسول الخديوي آخر مرّة قال له: كنّا نتلقّاك بالإكرام والاحترام مراعاة للذي أرسلك وإن كنّا لم نستطع إجابة طلبه، ولكن بعد أن تكرّر قدومك علينا بالطلب نفسه فإنّنا مضطرون أن ننذرك بأنك إذا جئت بعد هذه المرّة من قِبل سموّ الخديوي تنصح لنا بترك الجهاد فليس لك عندنا أمان على نفسك.

ولمّا قطع الخديوي أمله من السنّوسية استقدم عزيز بك المصري إلى مصر كانت الدولة قد عقدت معاهدة الصلح مع إيطاليا وأمرت عزيز بك علي بإخلاء برقة فجاء ومعه أربعمائة جندي هم بقيّة العسكر العثمانية الذي كان في برقة، والتمس السنّوسية من عزيز بك أن يترك لهم الأسلحة والأعتدة التي كانت في يد العسكر، فاحتجّ بعدم إمكانه ذلك لأنَّ الدولة كانت صالحت إيطاليا على طرابلس بعد أن هاجمتها الدول البلقانية، ومن أجل ذلك لا يقدر هو أن يسحب العسكر إلاّ بسلاحه، فحصل بينه وبين العرب من أجل قضيّة السلاح هذه معركة في سهل «دَفْنة» من البطمان غير بعيد عن السلّوم قُتل فيها من العسكر بضعة عشر رجلاً، ومن العرب زيادة على ستّين فتكاثرت العرب واستصرخ بعضهم بعضًا وأحاطوا بالعسكر ومنعوه من المسير وكان مرادهم إصلاء عزيز بك والجند الذي معه معركة لم تكن تنتهي إلاّ بفناء الأربعمائة جندي، وعدد كبير من العرب المهاجمين، فوصل الخبر إلى السيِّد أحمد الشريف بمكانه من الجبل الاخضر، فأرسل السيِّد عمر المختار الشهيد المشهور يأمر العرب بالانصراف، وترك عزيز بك المصري بعسكره يسير إلى جهة مصر، وكانت المسافة بين مكان السيِّد السنّوسي ومكان عزيز بك مسيرة أربعة أيام، فقطعها الشيخ عمر المختار في أربع وعشرين ساعة، ولمّا وصل وجد العرب كلّها تجمّعت وقد أحاطت بعزيز بك وعسكره تريد الأخذ بالثأر، فأبلغ عمر المختار قبائل العرب أمر السيِّد أحمد الشريف وقال لهم: مهما كان قد حصل فإنَّه لا يليق بنا أن تكون نهاية مساعدة الدولة لنا في هذه الحرب أن نفتك بعساكرها لأجل مسألة سلاح، وهم مجاهدون ومسلمون مثلنا. وهكذا ألقى عمر المختار السلام بين الفريقين، ومضى عزيز بك بعسكره إلى مصر وقد ترك السلاح للعرب.

ولا بدَّ من التنويه بالمقام المحمود الذي كان لأهل مصر في هذا الجهاد، فإنَّ هجوم الطليان على طرابلس وقع بغتة، فما مضت أيام حتّى بدأوا بالتفاوض مع العرب واستجلبوا

أناسًا منهم إلى جهتهم لأنَّ الطرابلسيين رأوا أنَّ الدولة لم ترسل قوّة تدافع بها عن بلادها، ووجدوا القوّة التي لها من قِبل طرابلس تكاد تكون عدمًا، فانقطعت آمالهم من إمكان الجهاد. وبينما هم في منتهى الانكسار إذ وصلت إليهم قوافل من مصر موقرة أرزاقًا يتلو بعضها بعضًا، فكانوا كالأرض الميّتة التي أصابها وابل فاهتزّت وربت وأنبتت من كلّ زوج بهيج، ومن ذلك الوقت بدأوا بالجهاد العظيم، وعلموا أنَّ المسلمين من ورائهم ظهير، ثمَّ لم يلبث أنور أن وصل فازدادت بذلك ثقتهم واشتدّت حماستهم، وكان منهم هذا الجهاد الذي استمرّ عشرين سنة. على أنه لولا دعوة السيِّد أحمد الشريف هذه القبائل إلى الجهاد ما كان مجئ أنور من الأستانة ولا كانت جمعيّة الإعانة المصرية التي ترأّسها الأمير عمر طوسون ليتمكّنوا من تأسيس هذا الجهاد المبين على هذا الأساس المتين، الذي أذن للعرب بأن يصدّوا دولة عظيمة كإيطاليا مدّة عشرين سنة!

وأمّا من جهة غربي طرابلس فقد كان الجهاد لا يختلف في شيء عمّا كان في جهة برقة، واجتمعت هناك الكلمة على الحرب دفاعًا عن الوطن، والتفّوا حول نشأت بك، قائد الجند العثماني، الذي جاءه فتحي بك، الملحق العسكري العثماني في سفارة الدولة في باريز، وصار هو رئيس أركان الحرب، وانضمّ إليهم رجالات طرابلس مثل الشيخ سليمان الباروني، زعيم الأباضية، وآل سيف النصر، والمحاميد، وأهالي مصراته، وترهونه، وزليطن، وأُرفلّة، وغيرهم. وكان للدولة معسكر أمام طرابلس، ومعسكر آخر أمام خُمس، وكان في المعسكر الأول نشأت بك، وفتحي بك، وفي المعسكر الثاني خليل بك، خال أنور باشا، ونوري بك، أخوه. وكانت الحالة هناك كما كانت في برقة تمامًا، أي أنَّ المجاهدين كانوا يصدّون الطليان عن الخروج من طرابلس وخُمس، وبقي هذا الأمر إلى أن نشبت الحرب البلقانية وصالحت الدولة إيطاليا على طرابلس، فانفضّت هذه الجموع، وركب نشأت بك وفتحي بك ببقيّة العساكر إلى الأستانة، وكما أنَّ المصريين قاموا بالواجب تحت رئاسة الأمير عمر طوسون من إمداد مجاهدي برقة؛ فإنَّ التونسيين قاموا أيضًا بمثل ذلك من إمداد مجاهدي طرابلس وكلٌّ من الفريقين أنفق بدون حساب، وتجلّى هناك تعاون المسلمين بما يسرّ الخواطر ويحقّق قوله تعالى ﴿إنَّما المؤمنون إخوة﴾.

وأحرزَ أنّ المصريين أمدّوا مجاهدي برقة بمبلغ لا يقلّ عن مائتَي ألف جنيه نقدًا عدا قيمة الأقوات والأرزاق التي كانت قوافلها متّصلة يلاقي بعضها بعضًا بين غادٍ ورائح، وقادم وقافل، فهذه لا أعلم حسابها، وعدا ثلاث بعثات أرسلها الهلال الأحمر المصري،

وقام فيها بمساعدات كبيرة. وكان للدولة العثمانية أيضًا بعثات هلال أحمر متعدّدة وجاءت بعثة هلال أحمر أيضًا من قِبل أهالي مَنْستر في الروملّلي، وعدا ما كان من معالجة الجرحى فقد وجدت هذه البعثات الصحّية أنَّ الأهالي كانوا مصابين بأمراض مزمنة، وأوبئة مستحكمة، لا سيّما مرض الزهري المنتشر. فأخذت هذه البعثات بمؤاساتهم بعد أن كانوا لا يعرفون شيئًا من أمر العلاج والوقاية، فاستفاد الأهلون كثيرًا في صحّتهم، لا سيّما عرب الجبل الأخضر. ولولا أن نشبت الحرب البلقانية والتزم المصريون تحويل إمداداتهم إلى جهة الأستانة؛ لكان الجهاد في القطر الطرابلسي بقي على حاله، وكان الطليان لا يقدرون أن يبرحوا مراكزهم وراء استحكاماتهم ولكن الحرب البلقانية شغلت المسلمين عن حرب طرابلس، وانصرفوا عن المهمّ إلى الأهمّ، وأخذت لجنة الإعانة تحت رئاسة الأمير عمر طوسون، «أمين الأمّة»، ترسل الإعانات إلى الدولة، وأراد الأمير عمر أن يبعث أيضًا ما بقي من الإعانة الطرابلسية إلى الأستانة فكتبت إليه حينئذٍ أرجوه أن يبقى إعانة طرابلس لطرابلس لأنها في الحرب البلقانية لا يكون لها غناء ذو بال، وأمّا في طرابلس فإنَّها تسدّ أرماق المجاهدين الذين كانوا يجاهدون مكتفين بالقوت الضروري، فقد كان الواحد منهم يعيش بقرش ونصف في اليوم.

ولمّا طال القتال في طرابلس على غير نتيجة لإيطاليا؛ أخذت هذه تفكّر في إشعال الحرب على تركيا في أمكنة أخرى، فأمّا الدردنيل فكانت الدولة قد بادرت بتحكيمه ووضعت فيه أربعين ألف عسكري فلم يجرأ الأسطول الطلياني أن يقتحمه حذرًا من الدمار، ولكنّه احتلّ موقعًا من جزيرة لمنى.

ثمَّ ذهب فدمّر نسّافتين من الأسطول العثماني كانتا في بيروت، ولمّا لم يجد الطليان فائدة من هذه التهويلات أجمعوا على احتلال جزيرة رودوس وبقي مع ذلك العثمانيين مصمّمين على القتال، وكان فريق من الترك يودّ في الباطن مصالحة إيطاليا على طرابلس تخلّصًا من الأخطار التي كان يخشى منها على الدولة باستمرار الحرب، وإلاّ أنهم خافوا هيجان العرب والعالم الإسلامي فيما إذا تخلّوا عن طرابلس، ولم يكن مساعدًا لإيطاليا يومئذٍ حسب زعم الطليان سوى الخديوي بالسبب الذي تقدّم ذكره وقد أشار إلى ذلك جيولتّي، رئيس نظّار إيطاليا السابق، وذلك في مذكّراته المطبوعة التي يذكر فيها تاريخ حياته، فصرّح بأنَّ عباس حلمي، خديوي مصر، كان من أول حرب طرابلس إلى آخرها مساعدًا لإيطاليا بما أمكنه من الوسائل، بحجّة أنَّ جدّه اسماعيل باشا عندما خُلع من إمارة مصر

وسكن في نابولي أحسنت الحكومة الإيطالية معاملته! ولمّا اطّلع الأتراك على هذا الكتاب بعد الحرب العامّة، وكان جيولتّي نشره قبل ذلك ببضع سنوات كان لذلك وقع سيّئ لديهم، وطعنت جرائدهم في الخديوي السابق طعنًا شديدًا.

فالدولة كانت إذًا لا تجرأ على التخلّي عن طرابلس حتّى بعد احتلال رودوس وكان الطليان أصبحوا في حيص بيص من تمادي هذه الحرب التي كلّفتهم مبالغ طائلة من المال "منذ عشر سنوات كانت إيطاليا أحصت خسائرها المالية على طرابلس بثلاثمائة مليون من الجنيهات" وعشرات ألوف من الرجال، فحدّثتها نفسها أخيرًا باحتلال بلاد الرومللي، وكان هذا ممّا يغيظ البلقانيين الطامحين إلى ميراثها من تركيا وكانت الروسيا قد بدأت بسياسة التأليف بين البلغار والسرب واليونان، حتّى يهاجموا الدولة العثمانية يدًا واحدة، فوجدت إيطاليا في احتلال الروමللي سببًا للتنازع بينها وبين البلقانيين، فتوقّفت عن ذلك وربّما تكون إيطاليا كلّفت الروسيا اتّخاذ سياسة ضغط على الباب العالي حتّى يرضى بالتخلّي عن طرابلس.

فأخذت الروسيا تفاوض الدول العظام في التوسّط لدى الباب العالي في هذا الأمر. وأخيرًا اتّفقوا جميعًا على تقديم مذكّرة إلى تركيا ينصحون لها فيها بوضع حدّ لهذا الخلاف، فأجابت تركيا أنَّ الصلح الوحيد الذي يمكنها أن ترضى به هو إلغاء قرار مجلس نوّاب إيطاليا استلحاق طرابلس الغرب، وسحب جميع العساكر الطليانية من ذلك القطر، وإلاّ فهي تقاتل إلى ما شاء الله قتال المظلوم المعتدى عليه! وبينما تركيا على أشدّ ما يمكن من العزم للدفاع عن طرابلس لِما شاهدته من بأس الطرابلسيين وشدّة بلائهم في هذه الحرب، ولكونها لم تكن تتكلّف عليهم في الشهر الواحد أكثر من مئة ألف جنيه؛ إذ راعها اتّحاد الدول البلقانية الأربع؛ اليونان، والبلغار، والسرب والجبل الأسود، وتحفّزهم للزحف عليها فعند ذلك أجمعت الصلح مع إيطاليا مكرهة.

وكان أنور لا يزال في الجبل الأخضر، ووصل إلينا الخبر ونحن هناك. فعلمت أنَّ الدولة لا تقدر أن تكافح البلقانيين جميعًا ومعهم إيطاليا. وفكّرت أنه يمكنها إذا أكرهت على الصلح مع إيطاليا أن تستمرّ على إمداد الطرابلسيين سرًّا بواسطة مصر، ويمكنها أيضًا أن تسحب عسكرها النظامي الباقي في طرابلس بدون أن يُحدث ذلك فتورًا في الدفاع. فبعد أن وقعت مذاكرات بيني وبين السنّوسيين من أعوان السيِّد أحمد الشريف لأنه كان وقتئذٍ

لم يزل في الكفرة، برحت الجبل الأخضر قادمًا إلى مصر ومنها قصدت إلى الأستانة، فوجدت الحرب البلقانية على وشك الانفجار، وكان الصدر الأعظم حينئذٍ مختار باشا الغازي، ولكن السياسة كان أكثرها في يد كامل باشا، وكان ناظر الحربية ناظم باشا، وكان شيخ الإسلام جمال الدين أفندي فقابلتهم جميعًا وأوضحت لهم محاذير التخلّي عن طرابلس، فقال لي كامل باشا بالحرف: إنّنا لا نقدر أن نحارب أربع دول البلقان، ونستمرّ على محاربة دولة عظيمة كإيطالية. فبيّنت له أنَّ استمرار الدفاع عن طرابلس ممكن بدون تكليف الدولة مؤونة شاقّة لأنَّ المجاهدين هناك إذا كفلت لهم الدولة والعالم الإسلامي قوتهم الضروري فإنَّهم يقدرون أن يصدّوا الطليان عن التقدّم، وليس المقصد من مسعانا سوى إقناع الدولة بأنها إن أكرهت على الصلح لا تتخلّى عن إمداد الطرابلسيين بواسطة مصر. فهذا الرأي لم يرفضه كامل باشا، وكذلك أكّد لي جمال الدين أفندي شيخ الإسلام بأنَّ الدولة لن تهمل أهل طرابلس، ولكنّها مضطرة الآن أن تكفّ عن حرب إيطاليا حتّى تكون انتهت من الحرب البلقانية.

وبالاختصار أرسلت الدولة نابي بك، وفخر الدين بك إلى سويسرة حيث اجتمعا مع برتوليني وفولبي، معتمدَي إيطاليا وباشرا مذكّرات الصلح، وانتهى الأمر بأنَّ الدولة تترك سيادتها على طرابلس لأهاليها، وتنصح لهم بالائتلاف مع إيطاليا، وأنَّ إيطاليا تعفو عن جميع الذين قاوموها في طرابلس من الأهالي، والعساكر التي للدولة في طرابلس يخرجون منها، كما أنَّ العساكر الإيطالية تجلو أيضًا عن رودوس، وجزر الأرخبيل التي احتلّتها.

وكان أيضًا من جملة الشروط أن تبقى طرابلس مرتبطة بالدولة من الجهة الدينية فالسلطان يبقى هو الخليفة الأعظم في نظر الطرابلسيين، ويدعى له على المنابر، ويكون للسلطان وكيل في طرابلس يقال له نائب السلطان، وقد تعيّن بعد الاتّفاق شمس الدين باشا لهذا المنصب، ومعه يوسف بك شتوان مستشارًا.

وكانت وزارة سعيد باشا قد شعرت بأنَّ المجلس لا يمشي معها في قضيّة الصلح مع إيطاليا، لا سيّما بعد أن جاء يوسف بك شتوان وخطب في مجلس المبعوثين خطابًا مآله أنَّ الحالة الحربية هي في طرابلس مرضية جدًّا لا تؤذن بأدنى خطر، وأنه لا خوف على الدولة إلاّ من الشقاق الداخلي، فتحمّس المبعوثون وآلوا بعدم الموافقة على الصلح، وكان الصدر الأعظم بدأ يشعر بقرب الحرب البلقانية ويرى أنه لا بدَّ من عقد الصلح مع إيطاليا، وكان

المجلس لا يزال في شقاق بعيد بين الأحزاب، فأقنع سعيد باشا السلطان بحلّ مجلس المبعوثين حتّى يتسنّى للحكومة أن تمضي في سياستها، وكان للسلطان حقّ في مجلس النوّاب بموافقة مجلس الأعيان على شرط مباشرة الانتخابات لانعقاد المجلس الجديد، فصدر الأمر بحلّ المجلس وانتُخب مجلس جديد، وما كاد ينعقد المجلس حتّى جاءت الأخبار بأنَّ الأرناؤوط استأنفوا الثورة، واتّفقوا هذه المرّة مسلمين وكاثوليكيين وأرثوذكسيين يدًا واحدة في وجه الدولة، وعلى رأسهم اسماعيل بك، مبعوث برات، ونجيب دراغه، مبعوث درشتنه، وبصري بك، مبعوث دبره، وحسن بك، ويحيى بك، وغيرهم. وانضمّ إليهم أيضًا ضبّاط أرناؤوط من ضبّاط الجيش العثماني، وعقد هؤلاء الأرناؤوط اجتماعًا حضره ٨٦ من رجالاتهم، وقرّروا طلب حلّ المجلس الجديد وعزل الاتّحاديين الذين في الحكومة مثل محمود شوكت باشا، ناظر الحربية، وطلعت بك، ناظر البوسطة والتلغراف، وجاويد بك، ناظر الأشغال النافعة، فاشتدّ الخطب على الدولة، واستعفى محمود شوكت باشا وظهر أنَّ الاتّحاديين أصبحوا بعد ثورة ألبانيا يخشون تحمُّل المسئولية، فصار الصدر الأعظم سعيد باشا يعرض نظارة الحربية على المقتدرين فلا يقبلها أحد منهم، فاختار الاستعفاء. فانتدب السلطان لتأليف الوزارة الغازي مختار باشا المشهور.

وكانت تألّفت في الأستانة جمعيّة عسكرية يقال لها جمعيّة «الخلاص كاران» فوزّعت منشورًا تطلب فيه تبديل الحكومة، ومنع الأشخاص غير المسئولين من التدخّل في أمور الدولة، وتقترح حلّ المجلس وانتخاب مجلس آخر بتمام الحرّية وكانت الحكومة تريد سنّ قانون يمنع رجال العسكرية من التدخّل في السياسة إلاّ بعد قبول هذه المطالب. فقرئ هذا المنشور في المجلس وأثار حركة شديدة، وأقسم المبعوثون بأنهم لا يتركون كراسيهم إلاّ موتى، وطلبوا من الحكومة التحقيق عن الجمعيّة التي وزّعت هذا المنشور، فجاء الصدر الأعظم مختار باشا ومعه ناظم باشا، ناظر الحربية الجديد، وطمأنا المبعوثين، وتعهّد ناظم باشا بإعادة النظام إلى الجيش كما كان وتلا الصدر الأعظم برنامج الوزارة الجديدة وفيه منع الضبّاط من الاشتغال بالسياسة ومنع المأمورين من التدخّل في أمور الانتخابات، والتقيّد بالقوانين الموضوعة في أمر تعيين المأمورين، وغير ذلك. وأمّا من جهة الصلح مع إيطاليا فلن تعلن الوزارة شيئًا، ثمَّ وقع الخلاف في المجلس على قضيّة حقّ السلطان في حلّ المجلس وعدمه وكان الاتّحاديون الذين لهم الأكثرية في المجلس يريدون إعطاء هذا الحقّ للسلطان على شروط كان يناقشهم فيها خصومهم حزب الحرّية والائتلاف، وكان هذا الحزب يرأسه

لطفي فكري، فاشتدّ الجدل بين الفريقين، وفي أثناء ذلك كانت ثورة الأرناؤوط تتفاقم يومًا فيومًا، ثمَّ بدأ الشقاق بين أعضاء الوزارة نفسها، وانتدب مختار باشا الصدر السابق فريد باشا الأرناؤوطي لأجل نظارة الداخلية، وحسين حلمي باشا، الصدر السابق، أيضًا لنظارة العدلية، فأبى فريد باشا الدخول في الوزارة، ودخل حسين حلمي باشا ولكنّه اضطرّ بعد قليل إلى الاستعفاء، وازداد تحرّج مركز الحكومة التي كانت ترى ازدياد مشكلاتها في الداخل والخارج، وبينما ثائرة الأرناؤوط تتوقّد إذا بعصائب البلغار في مقدونية ـ أي الروملّي ـ رجعت إلى العمل، وأخذت بنسف السكك الحديدية ثمَّ في نهار العيد انفجرت قنبرة في «جامع أشتب» وجُرح بها أناس كثيرون، فثار المسلمون وأوقعوا بكثير من البلغار، ثمَّ حصلت حوادث من هذا القبيل في ولاية «أسكوب» فانتقم المسلمون أيضًا بقتل عدد من البلغار، وأهمّ حادثة هي التي وقعت في «كوتشانة» في أول أغسطس سنة ١٩١٢؛ فإنَّه كان قد وضع البلغار قنابر في السوق فانفجرت وقتلت عددًا من المسلمين، فأوقع المسلمون بالبلغار، وقيل إنَّهم قتلوا منهم ١٥٠ شخصًا، وهكذا استمرّت الحوادث مدّة طويلة، فعصائب البلغار تلقي القنابر الديناميتية في الأسواق والمجامع عمدًا لأجل إثارة المسلمين حتّى ينتقموا من المسيحيين، وتضطر الدول المسيحية للتدخّل فتنسلخ مكدونية عن تركيا، وهذا على نمط حركات الأرمن.

وكان البلقانيون أكثر الأحيان مختلفين بعضهم مع بعض، نعني بذلك البلغار واليونان، والسرب، وذلك لأنَّ مكدونية التي يقول لها الترك الروملّي فيها من جميع هذه الأجناس، فالبلغار يدّعون أنها يجب أن تكون لهم، واليونان يحتجّون بأنَّ الأكثرية في سلانيك ونواحيها وتراقيا هي للجنس الرومي، والسربيون يحتجّون بأنَّ الأكثرية في شمالي مكدونية هي لهم، وكلّ فئة تعزّز دعواها بأدلّة. ولم يكونوا يفكّرون بشيء من حقوق المسلمين هناك، مع أنَّ المسلمين في ألبانيا ومكدونية كانوا أكثر من نصف السكّان! وكانت للدولة في أوربا ستّ ولايات؛ الأولى ولاية أدرنة الواقعة على البحر الأسود ممتدّة من ضواحي الأستانة إلى حدود البلغار، والثانية ولاية سلانيك التي يتبعها أكثر مكدونية، والثالثة ولاية قوصوه التي هي الآن من ضمن مملكة يوغسلافيا، والرابعة ولاية مَنَسْتر الواقعة بين يوغسلافيا وبلاد اليونان، والخامسة ولاية يانيا من جنوبي بلاد الأرناؤوط، والسادسة ولاية شقودرة في شمالي بلاد الأرناؤوط. وكان عدد المسلمين في هذه الولايات الستّ من أرناؤوط وترك وبوماق ـ وهم نوع من البلغار دينهم الإسلام ولغتهم

البلغارية ـ ومهاجرين يزيدون على عدد النصارى بقليل. فلم يكن للبلقانيين حقّ في ادّعاء تقسيم هذه البلاد فيما بينهم، لا سيّما وقد كانوا هم أنفسهم غير متّفقين في التقسيم، وكلّ فئة تريد أن تأخذ حصّة الأخرى، ولكن ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الأوربية عليها من كلّ جهة أوسعا مطامع البلقانيين حتّى أصبحوا لا يفكّرون في شيء سوى طرد الأتراك من أوربا تمامًا، بحجّة أنهم طارئون على أوربا من آسيا، وأنهم لم يكونوا ذوي ملك في شبه جزيرة البلقان قبل القرن الرابع عشر للمسيح. ثمَّ إنَّ البلقانيين كانوا يعلمون أنَّ الأتراك في حال تغلّبهم عليهم لا يقدرون أن ينالوا منهم شيئًا، ولا أن يفتحوا من بلدانهم بلدًا بخلاف ما لو تغلّبوا هم على الأتراك فإنَّهم حينئذٍ يقدرون أن ينالوا كلّ ما يريدون، وذلك عملاً بقاعدة إنَّ ما يؤخذ من الهلال للصليب لا يمكن إعادته للهلال، وأنَّ ما يؤخذ من الصليب للهلال فلا بدَّ من أن يرجع إلى مكانه. وهذه القاعدة متّفق عليها في أوربا تطبّقها أوربا بقدر إمكانها، والبلقانيون يعلمونها. وفي بداية الحرب البلقانية كان في ظنّ الدول الأوربية أنَّ تركيا تتغلّب على البلغار والسرب واليونان والجبل الأسود، فأرسل المسيو بوانكاره ـ وهو يومئذٍ رئيس نظار فرنسا ـ مذكّرة إلى تركيا وإلى الدول البلقانية المتحالفة عليها، يبلّغ الجميع بأنها إذا حصلت حرب بين الفريقين فالدول لا تسمح للفريق الغالب أن يأخذ شيئًا من الفريق المغلوب. وقد كتب بوانكاره هذا تزهيدًا للفريقين في الحرب، وكان مرجّحًا عنده أنَّ دول البلقان لا يقدرون على تركيا، فلمّا وقعت الواقعة وانهزمت تركيا في هذه الحرب بما كان فيها من الشقاق المستمرّ الذي صرف نظرها عن الاحتياط لحفظ ثغورها؛ نسي بوانكاره بلاغه هذا الرسمي الذي كتبه باسم الدول، وكان من جملة المساعدين للبلغار واليونان والسرب على اقتسام تركية أوربا. وكان مراد الدول ـ لا سيّما إنكلترة وفرنسا والروسيا ـ إلحاق ألبانيا أيضًا بمكدونية وإعطاء جنوبيها لليونان، وشماليها للسرب، لولا معارضة النمسا وإيطاليا في ذلك. فالنمسا كانت دائمًا تجتهد في منع اتّساع مملكة السرب، وقد كان هذا من أكبر عوامل الحرب العامّة، وإيطاليا نفسها كان من مصلحتها حفظ ألبانيا للأرناؤوط، فلذلك بعد الحرب البلقانية وافقت الدول على تأسيس استقلال خاصّ لألبانيا، ولكن بعد شدّة عظيمة كادت النمسا فيها تقتتل مع الروسيا، غير أنهم ظلموا الأرناؤوط أيضًا، إذ إنَّ هذه الأمّة تبلغ نحوًا من ثلاثة ملايين يسكنون على ساحل بحر الأدرياتيك بين الجبل الأسود من الشمال، واليونان من الجنوب، ومكدونية من الشرق، وهم كتلة واحدة كلّهم أرناؤوط، ولسانهم هو اللسان الأرناؤوطي، وإن كان الثلثان منهم مسلمين، والثلث الثالث كاثوليكيين وأرثوذكسيين.

وعلى كلّ حال فبعد أن تقرّر إخراج الدولة العثمانية من أوربا وجب أن يُعطى الأرناؤوط البلدان التي هم فيها أكثرية السكّان وهي؛ ولايات يانيا، واشقودرة وقوصوه، ومَنَسْتر، لا سيّما أنَّ الأتراك المسلمين كانوا بعد خروج الدولة العثمانية من الروملّلي يفضّلون الانضمام إلى الأرناؤوط حتّى يتخلّصوا من حكم البلغار واليونان والسرب فالذي حصل في مؤتمر لندرة بعد الحرب البلقانية بتأثير الروسيا، ومساعدة فرنسا لها لم يكن مطابقًا لحقوق الأمم من الجهة التي يقال لها "الأتنوغرافية"، بل بشدّة إلحاح النمسا، وموافقة إيطاليا جعلوا بلاد الأرناؤوط المستقلّة عبارة عن ولايتَي يانيا وشقودرة وألحقوا منهما شيئًا للجبل الأسود، وشيئًا لليونان، وكلّ الذي بقي للمملكة المستقلّة لا يزيد عدد سكّانه على مليون واحد. والحال أنَّ جنوبي يوغسلافيا لا سيّما ولاية قوصوه مأهول بالأرناؤوط، فلذلك يوجد الآن من الأرناؤوط ضمن مملكة يوغسلافيا وعلى حدود ألبانيا أكثر ممّا يوجد في ألبانيا نفسها!! وهذه من المسائل التي لم تصب فيها الدول، وإنَّما كان الاعوجاج فيها هو بسبب تعصُّب الروسيا للسربيين. وستكون هذه من أسباب تجدّد الحروب في شبه جزيرة البلقان.

ولـمّا كان الاختلاف شديدًا بين العناصر المسيحية في البلقان الرومي والسلافي والبلغاري؛ ففي زمن السلطان عبد الحميد سعت الروسيا كثيرًا في التأليف بينهم حتّى يتمكّنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك، ولكن السلطان عبد الحميد بدهائه ويقظته كان دائمًا يمنع الاتّفاق بينهم، ويستميل هذا العنصر تارة، وذاك العنصر أخرى. أمّا جمعيّة الاتّحاد والترقّي فاغترّت بقوّتها وظنّت أنَّ إعلان الدستور قد نفى كلّ خطر عن السلطنة، ونامت عن مراقبة السياسة الخارجية، بل بلغ غرور بعض أعضائها في أول الأمر أن اعتقدوا حركات البلغار واليونان والسربيين لخلع الحكم العثماني إنَّما السائق فيها مجرّد سوء الإدارة العثمانية، وأنه لو اصطلحت الإدارة العثمانية لأخلد هؤلاء إلى السكون! وحقيقة الحال أنَّ هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتّى يطردوا الأتراك من شبه جزيرة البلقان، وأنَّ المسألة عندهم تاريخية محضة لا تعلق لها بالإدارة في حسنها وعدمه. فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول، فيجب أن تخلو تمامًا من المسلمين مرّة ثانية. هذه هي فكرتهم الحقيقية وأوربا كلّها تميل إلى هذه الفكرة، ولـمّا افتتح البلقانيون سلانيك قال أحد وزراء الإنكليز: لا يمكننا إلاّ أن نفرح باسترجاع المسيحيين للبلدة التي بها ابتدأ انتشار النصرانية.

وإذا رجعنا إلى الحقائق نرى أنَّ الحرب الصليبية وإن كانت غير مستمرّة إلى اليوم تحت هذا الاسم كما كانت في القرون الوسطى؛ فهي مستمرّة بالفعل، وبالروح نفسها وإن كان قد تغيّر الاسم! وكلّ بلاد وُجدت تحت حكم المسيحيين في الغابر تجتهد الدول الأوربية في إخراجها من تحت حكم المسلمين ولو كان مضى على ذلك بضعة عشر قرنًا، أي أنَّ الأندلس تمثّل في كثير من البلدان وليست هي منحصرة في إسبانيا، فالمسلمون ليس لهم إلاّ القوّة ليحافظوا على أنفسهم، ولمّا كانت الدولة العثمانية قوية تغلّبت ليس على بلاد اليونان والبلغار والسرب فقط؛ بل على بلاد رومانيا، والمجر، وخرواطية، وقسم من بولونيا، وحاصرت ڤينّا مرّتين. فلمّا حلَّ بها الضعف صارت تتقلّص شيئًا فشيئًا إلى الجنوب حتّى لم يبقَ لها في أوائل هذا القرن غير الولايات الستّ التي تقدّم ذكرها، ولم يكن من المأمول أن تحفظها إلاّ بالقوّة القاهرة.

حدّثني حسين حلمي باشا، الصدر الأعظم السابق، وهو الذي كان مفتّشًا عامًّا للولايات المذكورة يوم أُعلن الدستور العثماني أنَّ السر أدوارد غراي، ناظر الحربية الإنكليزية المشهور، سأله: ألا يوجد طريقة تنحلّ بها مشكلات مكدونية؟ فأجابه: نعم، يوجد طريقة وهي أن يكون عندنا نحن الأتراك القوّة اللازمة لكسر البلغار واليونان، والسربيين، والجبل الأسود في وقت واحد، وليس من طريقة غير هذه.

هذا وقد كان السعي في جمع كلمة الدول البلقانية الأربع قديمًا. وسنة ١٨٨٨ قدّم أمير الجبل الأسود نيقولا لائحة إلى قيصر الروسيا تتضمّن وجوب تحالف هذه الدول ضدّ تركيا تحت حماية القيصر، وسنة ١٨٩٣ صارت مكالمة بين اليونان والبلغار في هذا الصدد ولكن لم تسفر عن نتيجة، ثمَّ إنَّ البلغار والسربيين اتّفقوا على ذلك وبقي الخلاف بين السرب والجبل الأسود، فتوسّط البلغار بين الفريقين ومهّدوا العقبات فبقي ناقصًا دخول اليونان في الاتّحاد، فالذين من اليونان قاموا بالسعي الحثيث للائتلاف مع البلغار برغم ما كان بين الفريقين من نقط الخلاف هم «باناس»، سفير اليونان في صوفيا، و«فنزيلوس»، رئيس نظّار اليونان. وكان إهمال الاتّحاديين للسهر على هذه المسألة من جملة أسباب اتّفاق البلقانيين، حتّى أنه لمّا علم السلطان عبد الحميد المخلوع بخبر الاتّحاد البلقاني هذا هزَّ برأسه، وقال: كم من مرّة أوشك هذا الاتّحاد أن ينعقد وسعيت كلّ سعي حتّى منعتُه! قال هذا عندما جاؤوا ينقلونه من سلانيك إلى الأستانة، فسأل عن السبب فقالوا له: إنَّ دول البلقان الأربع تحالفن على تركيا والحرب قريبة الوقوع. وفي ١٣ مارس سنة ١٩١٢ انعقدت أول محالفة

بين السرب والبلغار ضدّ تركيا. وفي ٢٩ مايو من السنة نفسها انعقدت المحالفة بين البلغار واليونان، ولكن الأولى كان أمدها ستّ سنوات، أمّا الثانية فكانت لثلاث سنوات. وفي ٥ أكتوبر من تلك السنة ذهب "دانف"، رئيس مجلس النوّاب البلغاري، إلى "ليفادية" في القريم فأخبر القيصر الروسي والمسيو سازونوف، ناظر خارجيّته بانعقاد جميع المحالفات اللازمة بين البلقانيين، وانحلال جميع العقد التي كانت تفرّق بينهم، لأنَّ القيصر كان هو الحَكَم في ما إذا اختلفوا. وفي ذلك الوقت كانت ثورة الأرناؤوط أجبرت الدولة العثمانية على منح الأرناؤوط بعض امتيازات رآها البلقانيون مضرّة بهم، فلمّا تحقّقت الدول أنّ الحرب بين البلقانيين وتركيا واقعة لا محالة؛ توسّطت النمسا في الخلاف تفاديًا للحرب وذلك على أساس إدخال الإصلاحات في بلاد الروملّلي، وأن تكون هذه الإصلاحات تحت إشراف لجنة دولية.

وبينما الدول في المذاكرة حتّى تمنع الحرب؛ إذا بأمير الجبل الأسود يعلن الحرب على تركيا في ٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ وفي ١٣ منه عالنت الدول الثلاث اليونان والسرب والبلغار الدولة العثمانية طلب الإصلاحات في الروملّلي بحسب المادّة ٢٣ من معاهدة برلين، وطلبت تفريق العساكر العثمانية المرابطة في الروملّلي. وكانت مذكّرة هذه الدول في شكلها غير مقبولة، فلم يبقَ أمام تركيا سوى إعلان الحرب. ولكن كامل باشا كان يرجو فصل اليونان عن الاتّحاد البلقاني بالنزول لهم عن جزيرة كريت. فذهب سعيه سدًى لأنَّ فنزيلوس أبى بتاتًا أن ينفصل عن حلفائه فنشبت إذًا الحرب.

وكان البلغار مستعدّين للقتال من زمن طويل، فزحفوا بمائتين وخمسين ألف مقاتل من أحسن الجيوش تدريبًا، وأكملهم عدّة، ولم يكن عند الدولة جيش متقن التدريب كهذا الجيش، بل كان من أغلاط السلطان عبد الحميد التي لا يمكن التماري فيها منع التمرينات العسكرية خوفًا من انتقاض الجيش عليه، واستمرّ هذا طول مدّة سلطنته. فالعسكر الممرّن الذي كان في زمن عمّه السلطان عبد العزيز، والذي بمثله انتصر عثمان باشا على الروس في بلڤنة، وأحمد مختار باشا في القوقاس؛ ذهب ولم يقُم مقامه عسكر آخر مثله. فجميع العسكر في زمن عبد الحميد لم يكن يعرف شيئًا من التمرينات التي كانت في زمن عمّه، فكان الفرق إذًا كبيرًا بينه وبين العساكر البلقانية. ولمّا جاء الاتّحاديون وخلعوا السلطان عبد الحميد أرادوا إصلاح الجيش بعمليّة سمّوها عمليّة التصفية، فأخرجوا إلى التقاعد جميع الضبّاط القدماء المجرَّبين ووضعوا مكانهم شبّانًا خالين من التجربة، وبعبارة أخرى

انحلَّ الجيش القديم ولم يمضِ الوقت الكافي حتّى يتكوّن جيش جديد. ومن جملة أسباب الضرر الذي وقع هو اشتغال ضبّاط الجيش بالسياسة، وانصرافهم عن واجباتهم إلى إحداث القلق في المملكة والانتصار لفئة على فئة ممّا يجب أن ينزّه الجيش عنه.

فصار الجيش العثماني بعد إعلان الدستور أشبه بجيش الانكشارية القديم في الفوضى، فهذه الفرقة تخرج عن الطاعة وتنحاز إلى العصاة مثلاً، وهذه الجمعيّة من ضبّاط الجيش تطلب إسقاط الحكومة وحلّ المجلس، وهذه الفرقة الأخرى تهجم على مجلس الأمّة وتسفك دماء بعض المبعوثين وبعض النظّار بتحريك خفي من رجال السياسة، وكم وقع من قتل جنود لضبّاطهم، وعصيان ضبّاط على قوّادهم.

نعم، أنَّ فون غولتس باشا الألماني كان هو والضبّاط الذين معه أصلحوا كثيرًا من حالة الجيش في تركيا، ولكن السلطان عبد الحميد كان يمنع التمرينات العسكرية خوفًا على نفسه، وكانت هناك مصالح ضرورية للجيش، وكانت هي بغاية الإهمال وهي مثل مصلحة الإعاشة، ومصلحة الصحّة، ومصلحة إركاب العساكر في السكك الحديدية، وغير ذلك ممّا لا غنى عنه في الجيوش العصرية. وأضف إلى كلّ هذه النواقص أنَّ الدولة في حرب البلقان احتقرت البلقانيين أشدّ الاحتقار، وظنّت أنها في شهر من الزمن تمزّق شملهم كلّ ممزّق، حتّى أنَّ ناظم باشا، ناظر الحربية، أعلن الضبّاط وجوب أخذهم ألبستهم الرسمية إلى ميدان القتال، حتّى إذا دخلوا صوفيا وبلغراد وأثينا ووقع عرض الجيش يكونون بألبستهم الرسمية، كأنَّ أمر الظفر عنده كان لا يتطرّق إليه الشكّ، وهذا أشبه بزبيدة أمّ الأمين عندما أعطت قائد جيش ولدها قيدًا من فضّة وقالت له: إنَّ المأمون هو من أولاد الخلفاء، ومتى وقع في يدك فلا يصحّ أن تقيِّده كما تقيِّد سائر الأسرى «أي بالحديد» فأنا أعطيك هذا القيد من الفضّة لتقيّده به، عندما يقع في الأسر. فكان من الأمر أنَّ المأمون هو الذي قهر الأمين وأخذ منه الخلافة، ثمَّ قتل الأمين في المعمعة. ثمَّ بناءً على هذا الاستخفاف لم تستنفر الدولة الجيوش التي لها في سورية، ولا في العراق، ولا في شرقي الأناضول حيث كانت تخشى ثورة من جهة الأرمن، فاقتصرت على جيش الروم‌للي وعساكر قسم من الأناضول. ولم يكن جيش الروم‌للي كلّه ليجتمع، لأنَّ الأرناؤوط كانوا في حال ثورة ولم يقاتلوا في هذه الحرب إلاّ قتال عصائب، وبهذا كان عدد الجيوش البلقانية أعظم من عدد الجيش العثماني، ففي كلّ من الساحات الثلاث أي ساحة تراقية الشرقية أمام البلغار، وساحة مكدونية العليا أمام السرب، وساحة سلانيك أمام اليونان؛ كان الجيش العثماني أقلّ عددًا وأقلّ معدّات من

أعدائه. وفي ٨ أكتوبر زحف البلغار لأخذ أدرنة فلم يتمكّنوا من ذلك، ولكنّهم ظهروا على الأتراك في ناحية طونجة. وكان عبد الله باشا في ٢٠ و٢١ أكتوبر أعطى الأمر بالهجوم بدون أن يؤمّن خطًّا للرجعة، فارتكب في ذلك خطأً حربيًّا ظهرت نتيجته حالاً. وفي ٢٢ أكتوبر تلاقت الفرقة السادسة من الجيش الرابع العثماني مع فرقة من الجيش الأول فلم تعرف إحداهما الأخرى وترامتا بالنيران، إذ كلّ فرقة منهما كانت تظنّ أنها بإزاء البلغار. فمن أول الحرب ظهر سوء القيادة في الجيش العثماني.

وكان محمود مختار باشا قائدًا لشطر الجيش الثالث وهو ثابت في مركزه، وإذا بالبلغار يهجمون على الجيش الذي على جناحه الأيسر هجومًا فجائيًّا ضعضع الأتراك فانهزموا. فحاول محمود مختار أن يصدّ البلغار ويوقّف الهزيمة، ولكن، كان الجنرال البلغاري ديمتريف جاء بدون أن يشعر به الأتراك أصلاً فهاجم الجيش الذي على يمين محمود مختار، فاضطرّ محمود مختار إلى التقهقر، فانهزم العسكر العثماني إلى قرق كليسَة وهو الجيش الرابع، ثمَّ الجيش الثالث، ثمَّ حاول الجيش الأول أن يهاجم البلغار ليوقّف الهزيمة فلم يقدر على شيء، بل تقهقر هو أيضًا. وكلّ هذا من عدم وحدة القيادة؛ وعدم وجود خطّة حربية مقرّرة. فكلّ فرقة وكلّ جيش من الأتراك كان يقاتل بدون أدنى صلة مع رفاقه، ولا علم له بما عليه سائر الجيوش العثمانية. لأنَّ الأتراك فكّروا أنه لا يلزم لهم إلاّ أن يقابلوا البلغار في أيّ مكان كان، وفي أيّ وقت كان، حتّى يولّى هؤلاء الإدبار، فمن شدّة استخفافهم بالعدوّ تغلّب عليهم العدوّ. ولمّا تقهقر عبد الله باشا بجيوشه قسم منها إلى جهة "ڤيزه" والقسم الآخر إلى لولى بورغاز؛ لم يكن بين القسمين أدنى صلة، ولا كان الواحد يعرف ما عند الآخر، ومحمود مختار باشا هو القائد الوحيد الذي كان مالكًا حركة جيشه، بحيث عندما التزم إلى التقهقر تقهقرَ بانتظام حقيقي. وكان ناظم باشا ذهب بنفسه ليتولّى القيادة العامّة، وناجز البلغار القتال في "لولى بورغاز" و"قره أغاتش". وزحف محمود مختار باشا مهاجمًا للعدوّ على ظنّ أنَّ عبد الله باشا يتمكّن من نجدته بالجيش الأول والجيش الثاني، فتمكّن محمود مختار من أن يشطر فرقة الجنرال خريستوف إلى شطرين، إلاّ أنه كانت وردت نجدات عظيمة للبلغار، وفي الوقت نفسه انهزم الجيش الثاني العثماني، فلم يقدر محمود مختار أن يتمّم خطّته بسبب الفشل الذي حلَّ بسائر القوّاد، لكنّه بقي ثابتًا في مركزه. فأمر ناظم باشا، القائد العامّ، بتراجع القوّات كلّها إلى "شركس كُوى" فتراجعت كلّها ومن الجملة جيش محمود مختار.

ومن أغرب الأمور أنه بقدر ما استخفّ الأتراك بالعدوّ في البداية؛ وقع فيهم الرعب بعد أن حلّت بهم الهزيمة الأولى فنكصوا جميعهم إلى «شطلجه». ولمّا علمت الجيوش العثمانية التي في تراقية الغربية وفي مكدونية بالهزيمة التي وقعت في تراقية الشرقية؛ تلاشت قوّتها المعنوية. وكان قائد الجيوش العثمانية في مكدونية هو علي رضا باشا، فانكسر أمام السربيين في «بورنيڤو» وفي «قوصوه» وفي «كومانوڤو» وهي هزيمة كان أكثر السبب فيها أنَّ عصائب الأرناؤوط في أثناء المعركة انسلّت من ميدان القتال مدبِرةً فوقع الفشل في الجيش كلّه. وصارت المعارك هناك عبارة عن سلسلة هزائم، تتلو إحداها الأخرى بدون أن يوفّق الترك في معركة واحدة إلاّ ما ندر. فسقطت المراكز التركية المهمّة مثل قوصوه، ومناستر، وأسكوب، وجميع البلاد التي تتبعها، وكلّ هذا بين ٢٣ أكتوبر و١٨ نوفمبر. ولو قيل إنَّه لم تقع مع تركيا حرب أشأم من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم تكن في هذا القول مبالغة. وكان القائد الوحيد الذي حفظ جيشه هو جاويد باشا، فإنَّه لولا انهزام عصائب الأرناؤوط في واقعة «كومانوڤو» مع السربيين لكانت الغلبة في تلك الوقعة للترك، وكان الخبر وصل إلى الأستانة بأنَّ السرب انهزموا فيها انهزامًا فيها، ولكن المعركة انتهت بعكس ما ابتدأت. وكان جاويد باشا هزم اليونان في إحدى الوقائع، وتمكّن من اللحاق ببلاد الأرناؤوط مع جيشه، إلاّ أنَّ الأرناؤوط كانوا عندما رأوا هزيمة العثمانيين قد فصلوا أنفسهم عن الدولة، وأسّسوا في «ڤالونة» حكومة موقّتة بمساعدة النمسا وإيطاليا.

وأمّا من جهة الجيش اليوناني فإنَّه لم يكن أمامه إلاّ قوّة تركية ضئيلة، فكان الجيش اليوناني يتقدّم إلى الأمام قاصدًا سلانيك، وكان تحت قيادة ولي عهد اليونان ستّون ألف جندي يقابلها ٢٥ ألفًا من الأتراك، ولكن الترك ثبتوا برغم قلّة عددهم ثباتًا عظيمًا ثمَّ تقهقروا إلى الوراء لأنَّ السربيين والبلغار كانوا اتّصلوا باليونان، واضطرّ تحسين باشا إلى تسليم «سلانيك» لهؤلاء. وكان جاويد باشا تغلّب على اليونان في وقعة «سيروڤيتش» التي استمرّت يومين وانتهت بهزيمة اليونان في ٥ نوفمبر، إلاّ أنه وردت إمدادات عظيمة لليونان فتمكّن بها ولي العهد اليوناني من الإقبال بعد الإدبار. فتراجع جاويد باشا إلى «مناستر» وهناك هاجمه السربيون وجرت وقائع بين بقايا الجيوش العثمانية والسربيين واليونانيين والبلغار لم يقدر الترك أن ينالوا فيها كلّها خيرًا بعد أن انخذلت قواهم المعنوية، وتقطع ما بينهم، لأنَّ البلغار كانوا استولوا على «ديموطقه» فقطعوا ما بين الأستانة وبين مكدونية، واستولى الذعر على الدولة نفسها في الأستانة فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يفعلون، وكان

عندهم جيوش كثيرة في المملكة لا تزال في أراضيها، وإنّما كانوا في جمود تامّ بسبب الفشل غير المنتظر، فلم يفكّروا في استجماع قواهم. وكانت الإدارة أشبه بالفوضى، وقد رأينا ذلك بأعيننا، وكان الهلال الأحمر المصري أرسل بعثة عظيمة إلى الأستانة فيها المرحوم محمَّد باشا الشريعي، والمرحوم كامل باشا جلال مفتّشان، وجاءني أيضًا كتاب من رئاسة الهلال الأحمر المذكور بأن انضمَّ إليهما ثالثًا، كما أنَّ لجنة الإعانة المصرية التي يرأسها الأمير «عمر طوسون» كلّفتنا بتوزيع الإعانات على مهاجري المسلمين الذين فرّوا من الرومللي إلى الأستانة بعد انهزام الجيوش العثمانية، فكنّا نحن الثلاثة المفتّشين مضطرين أن نتّصل برجال الدولة كلّ يوم لأجل تسهيل مَهمّة الهلال الأحمر، ومَهمّة توزيع الإعانات على المهاجرين، فشاهدنا من آثار الفوضى في الإدارة ما لا يصدّقه العقل، وذهبنا نهار جمعة إلى نظارة الحربية للمراجعة بمصالح مستعجلة فلم نجد في نظارة الحربية أحدًا وقيل لنا: أفلا تعلمون أنَّ دوائر الحكومة لا تشتغل نهار الجمعة! فقلت: كلاّ، إنَّ الدولة التي يحلّ بها من المصائب ما حلّ بها هذ المرّة لا يحقّ لدوائرها أن تتمتّع براحة يوم الجمعة! نعم، عندما كنّا نذهب إلى الباب العالي كنّا نجد كامل باشا، الصدر الأعظم، دائمًا حاضرًا، وكنّا دائمًا نراجعه في أيام الجمعة أيضًا، وكان يبيت في الباب العالي بقرب مكتبه برغم علوّ سنّه. وجاءنا مرّة الخبر بأنَّ أربعة آلاف عسكري في سان استفانو قد أصيب أكثرهم بالكوليرة، لأنَّ من جملة مصائب الدولة في هذه الحرب أنَّ الكوليرة تفشّت في عساكرها تفشّيًا فظيعًا، وفتكت بهم فتكًا ذريعًا، فقيل لنا إنَّ هؤلاء العساكر الذين في سان استفانو على مقربة من الأستانة مطروحون بالعراء بدون خيام ولا بيوت يأوون إليها! وكان ذلك في وسط زمهرير الشتاء، فذهبنا أنا ورفاقي إلى كامل باشا وأخبرناه بالخبر، وروينا له ما سمعناه من أنَّ نصف هؤلاء الجند قد ماتوا، وأنَّ رفاقهم جالسون إلى جانبهم في انتظار الموت، فأعطى الأوامر اللازمة إلى الحربية حتّى يرسلوا إلى سان استفانو الأطبّاء والممرّضين وجميع اللوازم لأجل معالجة هذ الحالة، ولكنّنا ثاني يوم لحظنا أنه لم يحصل شيء، فقلت لزملائي: إن كنتم تنتظرون في أثناء هذه الفوضى إغاثة الدولة لهؤلاء العسكر فاعلموا أنه لا يذهب إلى هناك أحد من الأطبّاء والممرّضين حتّى يكون العسكر قد قضوا نحبهم جميعًا، وعليه يجب أن نبادر نحن بالعمل، فأرسلنا في اليوم نفسه النجّارين وحملوا الأخشاب اللازمة وبنوا للعساكر بيوت الخشب، وأرسلنا إليها الأسرّة والأغطية اللازمة، والأطبّاء والمعلّلين والأدوية، وكلّ هذا تمَّ في ثلاثة أيام، وبعد ذلك جاء المأمورون العثمانيون فوجدوا كلّ شيء خالصًا، وعلى هذا يمكن أن يقاس غيره.

ونعود إلى تاريخ هذه الحرب المشئومة التي انتهت بها ولاية الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان فنقول: إنَّه بعد أن انهزمت الجيوش العثمانية في تراقية الشرقية وتراجعت إلى "شطلجة" وتشتّت العسكر العثماني في تراقية الغربية، ومكدونية، بقيت بلاد الأرناؤوط لم يحتلّها العدوّ، وبقيت القوّة هناك أيضًا ضعيفة، فتقدّم اليونان من جهة الجنوب وما زالوا يهزمون أمامهم تلك الشراذم المتفرّقة حتّى وصلوا إلى "يانيا" وأخيرًا استولوا على يانيا. ثمَّ إنَّ السربيين وعساكر الجبل الأسود استولوا أيضًا على عدّة مواقع من شمالي ألبانيا، غير أنَّ الأرناؤوط صدّوهم عن "شقودرة".

أمّا من جهة البحر فقد كان الأسطول العثماني انحطّ انحطاطًا عظيمًا، وكان السلطان عبد الحميد يخشى الأسطول كما يخشى الجيش البرّي، وكان يكره العساكر البحرية أكثر ممّا يكره العساكر البرّية، لأنه يتذكّر أنه لمّا خلعوا عمّه السلطان عبد العزيز في سراي طولمه باغجة التي على ساحل البحر نظر السلطان إلى البحر فوجد الأسطول واقفًا أمامه، مع أنَّ عبد العزيز هو الذي أنشأ الأسطول، وكان عبد العزيز شديد العناية به، وكانت الدولة في زمانه دولة بحرية من الدرجة الثالثة.

ولمّا جرت الحرب العثمانية الروسية كان البحر الأسود كلّه في يد الدولة، ولكنّ السلطان عبد الحميد أهمل الأسطول إهمالاً تامًّا، فما زالت قوّة تركيا البحرية في أيامه تنحطّ حتّى صارت دولة اليونان أقوى منها في البحر، وبعد خلْع عبد الحميد اشتغلت الدولة بالفتن الداخلية، وقامت الأحزاب تتناحر فيما بينها، فلم يكن عند الدولة وقت لإصلاح الأسطول. فلمّا نشبت الحرب البلقانية أدركت الدولة عظم الضرر الذي جرّه عليها إهمال الأسطول، وذلك بأنها بسبب ضعف أسطولها لم تقدر أن تستحضر جيش سورية من طريق البحر، خوفًا من أنَّ الأسطول اليوناني يتعرّض للبواخر التي تنقل الجيش من سواحل سورية وكيليكية إلى الأستانة أو الرومللي، ولم تكن يومئذٍ بين الأناضول وسورية سكك حديدية متّصلة حتّى يمكن نقل العساكر برًّا. فجيوش البلاد العربية بقيت جميعًا في أرضها. وعدا هذا فقد استولى اليونان على جزائر الأرخبيل. نعم، أنَّ الأسطول اليوناني لم يجرأ أن يناطح حصون الدردنيل التي عجزت عنها جيوش الحلفاء الجرّارة في الحرب العامّة، ولكنّه استولى على جزيرة لمنس وانبروس، ومدلّي، وساقس، وسائر الجزر. وخرج الأسطول العثماني من الدردنيل لمنازلة الأسطول اليوناني، وألحق الأول بالثاني خسائر مهمّة، لكنّه لم يتمكّن من غلبةٍ ظاهرة، فرجع إلى الدردنيل محتميًا بالحصون.

وكان حسين رؤوف بك يومئذٍ قائدًا لبارجة اسمها "حميديّة" فأشار بالكرّة على الأسطول اليوناني فلم يقبلوا كلامه، فخرج وحده ببارجته حميديّة واخترق نطاق الحصر اليوناني، وجاء إلى بلاد اليونان ودمّر مينا "سيرا" وأغرق عدّة بوارج لليونان، وعجز الأسطول اليوناني عن مطاردته ولكنّه كان يتجنّب الانتظار في مكان واحد خوفًا من أن تجتمع قوّة اليونان البحرية عليه. فكان ينتقل من مكان إلى آخر، وكلّما صادف لليونان سفينة أغرقها. وقد أخبرني هو أنه كان ذهب إلى مرسى مالطة ونزل إلى البرّ، ودعاه القائد الإنكليزي واحتفى به، وبينما هو على مائدته أخبروه بأنَّ عدّة سفن حربية لليونان وصلت على مقربة من مالطة تترصّد خروجه لأجل الإيقاع بحميديّة، وقال لي: إنَّه لم يعتقد تلك المرّة إمكان النجاة لأنه بسفينة واحدة لا يقدر أن يتغلّب على عدّة سفن، وإن كان يمكنه أن يدمّر بعضها فخرج من مالطة متوجّسًا الخوف وسار ببارجته أمام البوارج اليونانية ولم يجرأوا أن يتعرّضوا له!

ورؤوف بك هذا هو الذي صار فيما بعد ناظرًا للبحرية في أيام الحرب العامّة، ثمَّ بعد الحرب العامّة كان من أكبر رجال تركيا الذين نهضوا بها، وقاوموا معاهدة "سيڤر "ونظّموا المقاومة العسكرية في الأناضول، وبعد استقلال تركيا تولّى رئاسة الوزارة في أنقرة، ولكنّه لم يوافق مصطفى كمال على سياسته الداخلية وخروجه على قواعد الإسلام، فاختلفا وأدّى الأمر إلى مغادرته تركيا، فأقام في فرنسا عدّة سنوات ذهب في خلالها إلى الهند، ثمَّ في هذه السنة ١٩٣٥ دعته الحكومة التركية إلى العودة وألحّوا عليه فأجاب الدعوة، ولكن على شرط أن يبقى بعيدًا عن السياسة.

ثمَّ نعود إلى الحرب البلقانية فنقول: إنَّ سبب الفشل الفظيع الذي حلَّ بتركيا في تلك الحرب كان إقدام الأتراك على القتال بدون استعداد كافٍ، وعلى ظنّ أنهم بمجرّد اللقاء يهزمون البلقانيين كما هزموا اليونان سنة ١٨٩٤، فهاجموا البلغار في تراقية بدون منهاج حربي معيّن، معتقدين أنهم سائرون إلىتأديب رعيّة ثائرة، والحال أنَّ الجيش البلغاري كان على تمام الاستعداد من كلّ جهة. فلمّا انكسر الترك في هذه الجهة في الصدمة الأولى انكسرت جميع قواهم المعنوية دفعة واحدة، وصارت هذه الحرب عبارة عن سلسلة مصائب. على أنَّ البلغار كانت لحقت بهم خسائر عظيمة، ولمّا وصلوا أمام "شطلجة" كان القتال قد برّح بهم، فلمّا هاجموا الأتراك في شطلجة لم يقدروا عليهم. وكان هؤلاء قد تنبّهوا للخطر المحدق بهم وتأمّلوا في فظاعة دخول البلغار إلى الأستانة، وأفاقوا بعض الشيء

من عملياتهم الحزبية التي كانت إلى ذلك الوقت هي شغلهم الشاغل، وأرسل الحكومة عددًا من الوعّاظ إلى شطلجة يثيرون الحميّة الدينية في رؤس العساكر، وهذا خلاف ما كانوا عوّلوا عليه من قبل. فإنَّه لمّا بدأت الدول البلقانية الأربع بالقتال أعلنت في مناشيرها الرسمية أنها في حربها هذه إنَّما تباشر حربًا صليبية ضدّ الهلال، وصارت من أول الحرب على هذه الخطّة؛ ولكن الدولة العثمانية تجنّبت في مناشيرها مقابلة البلقانيين بالمثل، وتحاشت في هذه الحرب كلّ صبغة دينية. وبقيت كذلك إلى أن دارت عليها الدائرة فأرسلت إلى الجيش المرابط في شطلجة الوعّاظ وخطباء الجوامع يستفزّون حمية الجنود بأسم الإسلام الذي أصبح على شفا جرف هار، وكان الجنود من أنفسهم أدركوا أنه لم يبقَ أمام البلقانيين ليقضوا على الدولة سوى عقبة شطلجة؛ فاستجدّوا عزائمهم، ونظرًا لضيق خطّ الدفاع ـ لأنَّ شطلجة أشبه ببرزخ واقع ين البحر الأسود من الشرق، وبحر مرمرة من الغرب ـ تمكّن الجيش العثماني من الثبات فيه برغم هجوم البلغار الشديد، بل عندما هجم هؤلاء دحرهم الأتراك وألحقوا بهم خسائر فادحة. وحاول البلغار مهاجمات أخرى فانكسروا فيها.

وكان قد وصل من اليمن الجنرال أحمد عزّت باشا وهو من أمهر القوّاد العثمانيين وأوفرهم علمًا، وأوسعهم بصيرة، فذهب وشاهد حالة الجيش المعنوية والمادّية في شطلجة، وحادثْتُهُ بعد رجوعه منها هل هناك أمل في إمكان المقاومة بعد هذا الذعر الذي حلَّ بالجيش؟ ـ وكان عنده عبد الهادي باشا الفاروقي، وهو من القوّاد المعروفين ـ فقال لي: إنَّ الجيش يقدر على المقاومة. نعم، لا يعرف كلّ شيء يمكن أن يجد في أثناء القتال. ولكن الحالة الحاضرة التي رأيتها في شطلجة تؤذن بالتأكيد أنَّ البلغار لا يقدرون أن يخرقوا هذا الخطّ، وأن يدخلوا إلى الأستانة، وكان كامل باشا قد باشر المساعي في طلب الصلح، ولا شكّ أنه طلب الصلح راضيًا بشروط البلقانيين الثقيلة، فجاء الجنرال محمود مختار باشا إلى الأستانة ونهى الدولة عن هذا التهوّر في طلب الصلح، وأكّد لها بأنَّ الأعداء لم يقدروا أن يخرقوا خطوط شطلجة.

ولم أشاهد محمود مختار بنفسه؛ ولكن شاهدت والده الغازي مختار باشا، وشكا لي أعظم الشكوى من فسولة القوّاد الذين تولّوا تلك الحرب، واستيلاء الرعب عليهم وقال لي: لولا محمود لدخل البلغار الأستانة، ولكن محمود كان السبب في تثبيت قوّة الجيش، وفي منع هذا الهلع الذي استولى على الدولة. وكان كامل باشا قال للسلطان محمَّد رشاد: إنَّه يكون الأوفق انتقال جلالته إلى بروسة خوفًا من دخول البلغار إلى الأستانة؛ فأجابه

السلطان: إنَّني لا أتحرّك من مكاني، فإذا كان لم يبقَ أمّة عثمانية قادرة على منع سقوط سلطانها أسيرًا فلا مانع عندي من السقوط أسيرًا! وقد جرّب البلغار بكلّ قواهم أن يزحزحوا الأتراك عن مواقفهم فلم يقدروا على شيء.

فالرواية التي يذيعها بعض كتّاب الأوربيين بأنَّ الروسيا هي التي منعت البلغار من دخول الأستانة، ولولا ذلك لدخلوها هي غير صحيحة. وقول القائد العامّ للجيش البلغاري: إنَّنا لو أردنا أن نخرق خطوط شطلجة لأمكننا ذلك، لكن لا نريد أن نتجشّم خسائر الهجوم الفادحة بدون فائدة مادّية؛ هو كلام تبجُّح ليس عليه أدنى دليل، بل البلغار بعد أن دحرهم الأتراك صاروا يخشون أن يعود الأتراك فيكرّوا عليهم ويخسروا ثمرات انتصارهم، لا سيّما أنَّ الدولة كانت بدأت تستدعي قواها التي كانت متفرّقة وتجمعها في شطلجة، ومن جملة مَن زعم أنَّ البلغار إنَّما ثبطهم عن دخول الأستانة نهى الروسيا لهم عن ذلك هو المسيو "دولاجونكيار"، صاحب تاريخ السلطنة العثمانية.

Histoire de l'Empire Ottoman depuis les Origines Juaqu'à nos Jours por le Vte de la Jonquière وهو المطبوع في باريز سنة ١٩١٤ وهو تاريخ غريب الشكل جدًّا؛ كتابته من أولها إلى آخرها تحامل على الأتراك وعلى الإسلام جميعًا، ونقّص من مزاياهم وبَخْسٌ من أشيائهم، وتحريف للوقائع عن حقائقها، وليس يخلو سطر واحد من هذا الكتاب من عبارة بغضاء تخرج من فم مؤلّفه ممّا هو مخالف لشروط التاريخ. ومع هذا فالفرنسيس يعتمدون على هذا الكتاب ويظنّونه بالفعل تاريخًا للسلطنة العثمانية.

ثمَّ نعود إلى قضيّة طلب الصلح فنقول إنَّ البلغار لو كانوا علموا هم والسربيين أنهم يقدرون أن يناموا على ظفرهم هذا لَما كانوا رضوا بالصلح، بل كانوا مضوا في الحرب إلى آخرها ليزدادوا ربحًا مادّيًا، ومجدًا معنويًّا، ولكنّهم علموا أنَّ الدولة العثمانية قد تستجمع قواها وتهزمهم عن شطلجة؛ وتذهب جميع مجهوداتهم سدًى. فأمّا اليونان فأبوا الصلح لأنه كان عليهم أن يستصفوا فتح البلدان التي يريدون ضمّها إليهم، ولم يكونوا يخشون استجماع الدولة قواها، فأمّا في البحر فلم يكونوا خائفين على سواحلهم، لأنَّ الأسطول العثماني كان أضعف من أسطولهم. أمّا في البرّ فكان الجيش العثماني لا يقدر أن يلتحم مع الجيش اليوناني إلاّ بعد أن يدحر الجيش البلغاري كلّه في تراقية والجيش السربي كلّه في مكدونية، أمّا في الأستانة فكان كامل باشا وحزبه مصمّمين على الصلح، وكان الاتّحاديون

يريدون متابعة القتال حتّى يغسلوا هذا العار الذي التحق بالدولة، ولم يسبق له نظير لأنهم كانوا يقولون: إنَّ تغلُّب دولة كالروسيا سكّانها ١٦٠ مليونًا على تركيا ٢٦ مليونًا ليس بعجيب، ولكن تغلُّب هذه الدويلات الصغيرة التي سكّانها يومئذٍ لا يزيدون مجتمعين على اثنَي عشر مليونًا هو غير مفهوم، ولا يجوز للدولة أن ترضى به بوجه من الوجوه إلاّ إذا كانت ترضى بانحلالها التامّ. وكانوا يعدّون الفشل الذي وقع في الجيش العثماني أشبه بقضاء نزل، أو آفة سماوية لا ينبغي أن تكون قاعدة، وعلى كلّ حال ينبغي متابعة الحرب حتّى تستردّ الدولة شأنها، وإلاّ فلا حياة لها بعد ذلك. وذهب الأمير حليم سعيد باشا، وطلعت بك إلى كامل باشا عندما شاع عزمه على عقد الصلح وجادلاه طويلاً حتّى يصرفا نظره عن ذلك فقال لهما: إنَّ الاتّحاديين هم الذين أصرّوا على الحرب وهم الذين كانوا السبب في هذه المصائب، وأنه هو لا يريد أن ينقاد إلى آرائهم فرجعا بخفّي حنين.

وفي ٣ دسمبر انعقدت المتاركة بين تركيا من جهة، وبلغارية وسربيا والجبل الأسود من جهة أخرى، وأبرق ناظم باشا، ناظر الحربية، من موقع القتال إلى كامل باشا بذلك وكانوا قرّروا مباشرة المفاوضات الصلحيّة بعد عقد المتاركة بعشرة أيام، وكانت أدرنة لا تزال محصورة لا يقدر الأعداء عليها، فكانت شروط البلقانيين هي تسليم أدرنة، ومناستر، وشقودرة، لأنَّ المدن الثلاث لم يقدر البلقانيون عليها، وكذلك كان اليونان يحاصرون يانيا ولم يقدروا عليها، وطلب البلقانيون تخلية الجيش العثماني لشطلجة، وعدم إرسال قوّة من قِبل الدولة العثمانية إلى ساحات القتال في أوربا، وأجاب الترك برفض تخلية شطلجة، وباقتراح تموين المدن التركية المحصورة، وبعد أخذ وردّ طويلين خيف في أثنائهما من انقطاع المفاوضات اتّفق ناظم باشا والجنرال ساڤوف البلغاري على أن تبقى العساكر العثمانية في شلطجة، وتبقى العساكر البلغارية والسربية في مراكزها، ويكون بين الفريقين منطقة متحايدة. ورفض اليونان الدخول في المتاركة لأنهم كانوا يريدون فتح يانيا، وكانت لا تزال ممتنعة عليهم.

ثمَّ جاء ناظم باشا إلى الأستانة بعد عقد المتاركة وهو لا يشكّ أنَّ الصلح واقع فذهب محرّر هذه السطور لمقابلته وأبديت وأعدت معه في أنَّ شأن الدولة قد انكسر تمامًا في هذه الحرب، وأنَّ الدولة لا يمكن أن تحيي بعد أن انكسر شأنها إلى هذا الحدّ وأنَّ الدولة لا يزال في يدها قوى تقدر بها على تلافي ما فرط، وأنَّ في ولاياتها الأسيوية عساكر كثيرة تقدر أن تجرّها إلى ميدان القتال وتستأنف الكرّة، وقلت له: إنَّ البلقانيين بعصائبهم التي كانت تعيث

في تراقية ومكدونية قد شغلوا الدولة أكثر ممّا شغلتها جيوشهم المنظّمة، فكان يجب على الدولة أن تقابلهم بالمثل، وأن تأتي بجانب من القبائل الكردية والعربية وتبثّها بشبه جزيرة البلقان، فإنّه من الصعب جدًّا أن يستطيع البلقانيون تأمين البلاد التي احتلّوها إذا شنّت هذه القبائل الغارات في أطرافها. فقال لي ناظم باشا: إنَّ الصلح كان مقرَّرًا، والقتال لن يتجدّد، وعبارته هكذا بالحرف "غوغا تكرر إيتمية جكدر" أي أنَّ القتال لن يتكرّر. فأبديت له عدم اعتقادي كون الحرب انتهت، وذهابي إلى أنه لا بدَّ من أن تشتعل الحرب من جديد. فعلى الدولة أن تستحضر جميع عساكرها الباقية في آسيا. وخرجت من عند ناظم باشا وأنا غير متعجّب من فشل الدولة في هذه الحرب.

وأمّا أحمد عزّت باشا الأرناؤوطي الذي كان واليًا في اليمن وجاء في آخر الحرب وكان لا يصدّق بانكسار الجيش العثماني في ظروف الأحوال التي انكسر بهالكثرة ما رأى من أغلاط القيادة، فقد كاشفته بما في نفسي من قضيّة جميع العساكر التي في آسيا، واستنفار القبائل العربية والكردية، فأجابني بالموافقة على الشقّ الأول، وأمّا الشقّ الثاني فقال لي: كان هذا موافقًا جدًّا لو وقع في أول الحرب، أمّا الآن فلم يبقَ ميدان لشنّ هذه الغارات بعد أن احتلّ العدوّ جميع الرومللي، وانحصر الجيش العثماني في شطلجة. نعم، قال لي هذا ولكنّه رجع فيما بعد إلى رأيي. ولمّا استرجع الأتراك تراقية الشرقية وأدرنة كما سيأتي الكلام عليه، واستدعت الدولة وفدًا من سورية إلى الأستانة ثمانية أعضاء كنت أنا من جملتهم لبعض المذاكرات المتعلّقة بالإصلاحات الداخلية، دعتنا أن نذهب إلى أدرنة ونهنّئ أهلها على الخلاص، فشاهدت فريقًا من القبائل مخيّمين غير بعيد عن البلدة وهم من قبائل العراق، وكانوا بزيّهم العربي أي بالعُقُل والكوفيّات، وزرتهم في مضاربهم وشربتُ القهوة عندهم، وعلمت أنه في الكرّة التي كرّها الترك على البلغار وأخرجوهم فيها من أدرنة كان لهذه القبائل بلاء شديد، وكان مجرّد مشاهدتهم قبل فعلهم يوقع الرعب في البلغار. ولو كانت الدولة تنبّهت لهذا الأمر وسحبت من بوادي الشام والزور والعراق ثلاثين ألف فارس من العرب والأكراد وجعلتهم ردءًا للجيش المنظّم لَما حلَّ بها هذا الفشل العظيم الذي حلَّ بها في الحرب البلقانية، ولكن الدولة استخفّت بأعدائها يومئذٍ استخفافًا خُيِّل لها أنها ذاهبة إلى حرب لا يزيد على تأديب عُصاة!!

ولمّا جاؤوا إلى المذاكرات الصلحيّة استندت الدولة على بيان البلقانيين أنهم لا يريدون من هذا الحرب إلاّ إصلاح إدارة البلدان التي يسكنها أقوام منهم، وأظهرت استعدادها

لإعطاء مكدونية إدارة خاصّة تحت مراقبة الدول، فأجاب البلقانيون بأنهم إنّما كانوا رضوا بذلك الاقتراح أملاً بتفادي الحرب، والحال أنَّ الحرب قد وقعت برفض الدولة لهذا المشروع فالآن هم يريدون العمل بنتيجة الحرب، وهو إدخال إخوانهم في ممالكهم رأسًا، ويطلبون غرامة حربية لتعويضهم ممّا تكلّفوه، وطلب البلغار أن تكون حدودهم خطًّا يذهب من "ميديه" على البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل وتكون "قَوَلَه" تابعة لهم. وطلب السربيون ولايتَي "قوصوه" و"مناستر". وطلب الجبل الأسود "شقودرة" وتوابعها، وطلب اليونان جميع الجزائر وولاية يانيا ومكدونية السفلى داخلاً فيها سلانيك وتراقية الغربية، فرفض الأتراك هذه المطالب كلّها، وانعقد مؤتمر الصلح في لندرة وتواجهت الخصوم بعضها مع بعض.

وكانت الدولة حشدت ثلاثة جيوش أتت بها من آسيا، وصمّمت أنها لدى الحاجة تزحف وترفع الحصار عن أدرنة التي كان البلقانيون عجزوا عن فتحها، وبتوسّط الدول رضيت تركيا أن تتخلّى للبلغار عن بعض أماكن غربي أدرنة، وأمّا من جهة جزائر الأرخبيل فرفضت أيضًا تركيا التخلّي عنها لليونان، واقترحت أن تترك للدول حلّ مسألة كريت. وأمّا ألبانيا فقد رضيت تركيا بأن يكون لها استقلال داخلي وأن تتعيّن حدودها بالاتّفاق مع الدول، فلمّا رأت الدول أنَّ الدولة غير مستعدّة لإجابة البلقانيين إلى مطالبهم، وأنَّ الحرب قد يستأنف نشوبها، أرسلت إلى الدولة في ١٠ يناير سنة ١٩١٣ مذكّرة عمومية تنصح لها فيها بقبول مطالب البلقانيين، وبالتخلّي عن أدرنة للبلغار، وأنه يقع اتّفاق على حماية مسلمي أدرنة، وصيانة المساجد والمقابر الإسلامية التي فيها، وأنه إذا كانت تركيا تصرّ على الحرب فهذه المرّة يجوز أنَّ الحرب تمتدّ إلى آسيا، وأنه لا يمكن أن تقترض تركيا مالاً من أوربا عند الاحتياج لأجل إصلاح ممالكها في آسيا. وكان الاتّحاديون معارضين أشدّ المعارضة في الصلح على هذه الصورة، وكانوا يقذفون بكامل باشا لجنوحه إلى السلم، ويقولون لا يحقّ له أن يتخلّى عن شبر من أراضي المملكة بدون قرار مجلس الأمّة، والحال أنَّ المجلس كان منفضًا. فأجمع كامل باشا على عقد مجمع كبير من رجال الدولة وأعيانها لاستشارتهم في هذا الخطب الجلل، وهي عادة قديمة عند الدولة بأنها في الخطوب الكبرى تدعو الوزراء الذين في الخدمة، والوزراء السابقين، وقوّاد الجيش القائمين على الخدمة والمتقاعدين، والعلماء الكبار، ورؤساء الطرق، وكبار أصحاب الأملاك، وأعيان التجّار والزراع، ومثل هذا الديوان انعقد في ديسمبر سنة ١٨٧٦ عندما طلبت الدول وضع مكدونية وبلغاريا والبوسنة والهرسك تحت المراقبة الأوربية، فرفض الديوان الذي انعقد

يومئذٍ اقتراح الدول هذا، وأدّى ذلك إلى نشوب الحرب الروسية التركية. فالديوان الذي عقده كامل باشا هذه المرّة لم يحلّ المسألة حلاًّ نهائيًّا، وانقضى بالمذاكرات على كيفيّة المقاومة. وبعد ذلك جاءت جماعة من الاتّحاديين إلى الباب العالي وبيدهم طلب يتضمّن رفض تسليم أدرنة، ودخل أنور إلى مجلس الوزراء يقدّم هذا الطلب إلى الصدر الأعظم، وفي أثناء وجوده داخلاً حصلت جلبة أمام الباب العالي، فخرج ناظم باشا، ناظر الحربية، وانتهر الذين كانوا يرفعون أصواتهم ليحدثوا الضوضاء، فأطلق عليه أحدهم الرصاص فقتله. فخرج كامل باشا فوجد ناظم باشا صريعًا فاستقال من الصدارة بتلك الدقيقة، وركب عربته وسار إلى بيته. وتولّى الاتّحاديون الحكومة تحت رئاسة محمود شوكت باشا بعد أن جاء أنور إلى سراي "طولمه باغجة" وحصل على الأمر السلطاني بذلك.

أمّا زعم بعضهم بأنَّ أنور هو الذي قتل ناظم باشا فليس بصحيح، لأنَّ كامل باشا نفسه روى في مصر لمَن حادثه من أصحاب الجرائد أنَّ جماعة الاتّحاديين اجتمعوا أمام الباب العالي وكانوا نحوًا من مئة شخص، ودخل أنور عليه يقدّم له الاحتجاج على تخلية أدرنة، وبينما هو يقرأه سمع صوت رصاص أمام الباب، فخرج فوجد ناظم باشا صريعًا. إذًا أنور بريء من هذه التهمة بشهادة كامل باشا نفسه، وأمّا كيفيّة قتل ناظم باشا وياوره توفيق القبرصلي فقد اختلف فيها، والأقرب أنه انتهرَ الجمع فأهانوه بالكلام فتصدّى ياوره للقبض على مَن استطالوا عليه فحينئذٍ أطلقوا الرصاص على الناظر والياور معًا وقتلوهما. وبعد ذلك وقع استعفاء الوزارة، وذهب كامل باشا وجمال الدين أفندي، شيخ الإسلام إلى مصر، وذهب فريد باشا الأرناؤوطي، الصدر السابق، أيضًا إلى مصر، وشاهدتهم هناك، وجرى بيني وبين فريد باشا جدال طويل في سراي عابدين أمام جمال الدين أفندي، وكان صدره ملآن وغرًا على الاتّحاديين وكنت أقول له: إنَّني آسف من هذه المنازعات الحزبية في أثناء ما البلغار مخيّمون على أبواب الأستانة، وأتأسّف من تفكّره والحالة هي هذه بعداوة الاتّحاديين. فامتعض جدًّا ممّا واجهته به، وشرع جمال الدين أفندي، شيخ الإسلام، في تهدئة روع كلّ منّا.

ثمَّ في يناير سنة ١٩١٣ ردّت الدولة الجواب على الدول ومآل مذكّرتها الجوابية وهي من جهة أدرنة التخلّي عن أحد شطريها وهو ما يقع على الضفّة اليمنى من نهر المريج، فأمّا الضفّة اليسرى التي فيها المدينة الحقيقية فتبقى لتركيا، وكذلك لم توافق الدولة على ترك جزائر الأرخبيل. ثمَّ اقترحت على الدول إلغاء الامتيازات الأجنبية التي تعرقل سير الإصلاح الإداري في تركيا، وطلبت أن يكون لها الحقّ بضرب المكوس التي تستلزمها الحالة،

وطلبت إضافة أربعة في المائة على رسوم الجمارك وغير ذلك ممّا لم تجب إليه الدول. ولمّا رأى البلغار أنَّ تركيا لا تريد تسليم أدرنة جدّدوا الحرب وهاجموا أدرنة، وجدّدوا القتال أيضًا في شطلجة، وبولايير. بقرب الدردنيل، ومع كون واقعة بولايير لم يوفّق فيها الترك فإنَّه كان يتعذّر على البلغار أن يربحوا شيئًا من استمرارهم على الحرب. ثمَّ إنَّ الترك كسروهم في واقعة كالكترية، وكانت الدولة استجدت نشاطها، وقطع البلغار آمالهم من التغلّب عليها. نعم، أنَّ مدينة يانيا في جنوبي ألبانيا كانت استسلمت للجيش اليوناني بعد حصار طال عدّة أشهر، ولم يبقَ فيها قوّة ولا ذخيرة فاضطرّت حاميتها إلى الاستسلام في ٥ مارس ومثل ذلك مدينة أدرنة التي اضطرّ قائدها شكري باشا إلى تسليمها في ٢٦ مارس فتكون مدّة حصارها ستّة أشهر وثمانية أيام، كما أنَّ مدّة حصار يانيا كانت نحوًا من أربعة أشهر، وكلّ من البلدتين لم يتمكّن البلقانيون من الاستيلاء عليها إلاّ بالجوع ولو كان فيهما الميرة الكافية والعلف الكافي للبنادق والمدافع؛ ما كان في استطاعة البلقانيين دخولهما. والدفاع الذي دافعه شكري باشا عن أدرنة يبقى صفحة تاريخية باهرة في تاريخ تركيا، وطالما اقترح عليه البلقانيون تسليم أدرنة تحت شرائط شريفة فأبى، وأجاب بأنه لا يسلّمها إلاّ ميتًا، ولكن بعد أن نفذت الذخيرة، وانتهى القوت، لم يبقَ في استطاعته المقاومة. وأمّا في الحرب فقد حمل عليه البلغار والسرب مرارًا عديدة، وكانوا يرتدّون على أدبارهم، وقضى هو وأهالي أدرنة من الجوع وإعواز ضروريّات الحياة شيئًا كثيرًا علمت منه أنا بنفسي حقائق مُرّة يوم كنت مفتّشًا للهلال الأحمر المصري في الأستانة مع محمَّد باشا الشريعي، وكامل باشا جلال. وذلك أنه جاءنا رسول من قِبل شكري باشا في أثناء الحصار يقول إنَّه انسلَّ من أدرنة خفيّة ومعه كتابة إلى الباب العالي بطلب مبلغ من المال لشراء حنطة للعسكر، وأنَّ الجوع قد ضرس العسكر بنابه، ولم يجدوا مالاً في الخزينة ذلك الوقت. فهل من الممكن أنَّ الهلال الأحمر المصري أو لجنة الإعانة المصرية تقرض الدولة مبلغًا لأجل إغاثة حامية أدرنة، فتذاكرت مع رفاقي وأرسلنا بواسطة الدولة سرًّا عشرة آلاف جنيه من مبلغ الإعانة المصرية إلى شكري باشا تحت اسم إعانة لجياع أدرنة.

ثمَّ إنَّنا قرّرنا بعد ذلك إرسال بعثة من الهلال الأحمر المصري إلى أدرنة، فأبرقت إلى الأمير محمَّد علي توفيق، رئيس الهلال الأحمر المصري، وإلى الأمير عمر طوسون، رئيس لجنة الإعانة المصرية، بوجوب السعي لدى الدول حتّى تتوسّط مع البلغار لأجل إدخال بعثة إلى أدرنة لمعالجة الجرحى والمرضى، وتمَّ الأمير ودخلت البعثة المصرية وأعانت الجيش

العثماني ومسلمي أدرنة إعانة فوق الوصف، وعرفت مقدارها بنفسي وذلك أنه بعد استرداد الدولة لأدرنة كما سيأتي الكلام عليه، استدعت الدولة وفدًا من سورية كان مؤلّفًا من ثمانية أشخاص؛ محمَّد فوزي باشا العظم، وعبد الرحمن بك اليوسف، وأمين أفندي الترزي من دمشق، ومحمَّد باشا المخزومي، والدكتور حسن الأسير من بيروت، والشيخ أسعد الشقيري من عكّا، ونصري أفندي الشنتيري من بيروت، والأستاذ الشيخ عبد المحسن أفندي الأسطواني قاضي الشام الحالي، وهذا العاجز كاتب السطور، ولم يبقَ في الحياة من هذا الوفد غيري وغير الأستاذ الأسطواني والشيخ الشقيري ونصري الشنتيري. وكان ذهابنا من بيروت إلى الأستانة في شهر أغسطس ١٩١٣ لأجل مذاكرات مع الدولة تتعلّق بالإصلاحات الداخلية في سورية وبتسكين الأمور بين العرب والترك، وكانت الدولة استرجعت أدرنة، فدعتنا إلى زيارتها لأجل تهنئة أهلها بالرجوع إلى حضن السلطنة العثمانية فذهبنا إلى هناك واحتفل الجيش المرابط بوصولنا، وفي حضور الجيش تلوت قصيدة منشورة في ديواني الذي هو الآن تحت الطبع مطلعها:

فدى لحمانا كلّ مَن يمنع الحمى ... ومَن ليس يرضى حوضه متهدّما
فما العيش إلاّ أن نموت أعزّةً ... وما الموت إلاّ أن نعيش ونسلما

وخطب في الجمع الشيخ الشقيري وخطب في صلاة الجمعة الشيخ أحمد الفقيه المكّي الذي جاء معنا، خطبة بصوته الشجيّ وفصاحته الحجازية ممّا حقّق قولي في قصيدتي:

أدرنتنا لو كان للصخر ألسن ... بها يوم عاد الراجعون تكلّما
فما من فتى إلاّ وأجهش بالبكا ... ولا من جواد عاد إلاّ وحمحما
ولا غادة إلاّ وكفكف دمعها ... مكر حُماة العِرض كالسيل مفعما
ولا مِنبر إلاّ وأورق بهجة ... وقام عليه ساجع مترنّمًا
وقرّت عيون المصطفى في ضريحه ... وهنّاه في الفردوس عيسى ابن مريما

ومنها:

فمن مبلغ البلغار أنّا إلى الوغى ... وإخواننا الأتراك نزحف توأمًا
وأنَّ جميع العُرب والترك أمّةٌ ... حنيفيّة بيضاء لن تتقسّما
وقولوا لهم بانت سعاد فلا يزل ... فؤادكم صبًّا عليها متيّما

فـلا يُطمعنكـم في أدرنـة مطمـعٌ
ولا تفتحـوا في شـأنهـا أبـدًا فمـا

أدرنـة صـارت عندنـا تـلـوَ مكّـة
ومـاء المريـج اليـومَ أشبـه زمزمـا

ولمّا أقبل الليل كان الوالي الحاج عادل بك أعدَّ لنا مكانًا للمبيت فاستعفيت منه قائلاً: إنّني كنت مفتّشًا للهلال الأحمر المصري، ولا يزال له بعثة في أدرنة، وكنت أنا السبب في دخولها، فأرغب في المبيت بدائرة الهلال الأحمر المصري. فذهبت وبتّ هناك وعند الصباح رأيت مئات من مسلمي أدرنة أمام دائرة الهلال الأحمر وبأيديهم سطول، فسألت عن ذلك فقالوا: إنّه كلّ يوم يتوزّع عليهم حساء وخبز، ولكنّهم قالوا إنّه في أثناء حصار أدرنة بعد أن قلّت الأقوات واشتدّ الجوع كان الأربعون ألف نسمة من مسلمي أدرنة يعيشون كلّهم من الهلال الأحمر المصري، ولولاه لهلكوا بأجمعهم من الجوع؛ لأنه لم يبقَ بأيديهم شيء من طول الحصار، حتّى أنَّ الذين في أيديهم شيء من النقود لو أرادوا شراء القوت لم يجدوه، فالله تعالى أغاثهم بوجود هذه البعثة المصرية. ولمّا استرجعت الدولة أدرنة درّت الخيرات، وارتفع الضيق ووزّعت الدولة عليهم الأقوات، فلم يعودوا محتاجين إلى الهلال الأحمر، وقالوا لي إنَّ الذين تراهم الآن إنّما هم خمسمائة أو ستّمائة شخص من المساكين والعاجزين.

وبمناسبة هذه المعاونة التي لقيتها أدرنة من حمية أهل مصر ينبغي لي أن أذكر على وجه الإجمال ما قامت به مصر كنانة الله في أرضه من إمداد الدولة العثمانية في الحرب البلقانية المشئومة، وأن لا أدع هذه الواقعة غُفْلاً قيامًا بواجب الأمانة مع التاريخ، وتوفيرًا للحقّ لأهله، فأهل مصر يومئذٍ حقّقوا قوله تعالى ﴿ إنَّما المؤمنون إخوة ﴾ وقوله (ﷺ): ﴿المسلمون في توادّهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألّم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى﴾ فأول شيء أنهم جمعوا إعانة للدولة مبلغ نصف مليون جنيه، وذلك بهمّة لجنة الإعانة التي كان يرأسها الأمير "عمر طوسون" الذي هو يرأس كلّ عمل خيري تقريبًا في مصر، وأرسلوا بعثة من الهلال الأحمر المصري قامت بأعظم الأعمال في معسكر شطلجة، ثمَّ إنَّ مسلمي الروملّي بالنظر لِما وقع عليهم من اعتداء البلقانيين - لا سيّما البلغار واليونان - فرّوا من وجه العدوّ اتّقاء القتل للنفوس والهتك للأعراض؛ فالتجأوا جميعًا إلى الأستانة ليجوزوا إلى بلاد الأناضول، وجاء منهم فريق إلى غاليبولي ليجوزوا منها أيضًا إلى البلاد نفسها، وبديهي أنَّ هؤلاء الذين فرّوا من وجه العدوّ هاموا على وجوههم لا يلوون على شيء خوفًا على دمائهم وأعراضهم، ولم يكن ليتيسّر لهم التريّث

حتّى يستحضروا النفقات اللازمة لهم من أجل السفر، وأكثرهم خرجوا بعيالهم وهم لا يملكون القوت الضروري، وكان ذلك في قلب الشتاء، وكان عددهم لا يقلّ عن مائة وخمسين ألف نسمة.

فلمّا دخلوا الأستانة أنزلتهم البلدية في الجوامع والمدارس. فاستوعبتهم جميعًا، ومن هنا يعرف الإنسان فائدة هذه الجوامع العظيمة التي شيّدها سلاطين آل عثمان بالحجر الصلب، وتوسّعوا في عمارتها إلى الدرجة القصوى، حتّى أنَّ الجامع الواحد منها مع مضافاته والمدارس المتّصلة به يكاد يكون بلدة، فأبرقنا إلى مصر بحالة هؤلاء المهاجرين وكنت أنا المتولّي الكتابة إلى الأمير عمر طوسون، والأمير محمَّد علي توفيق ووصفت لهما حالة إخواننا المهاجرين وما هم عليه من البأساء، فلم نلبث إلاّ أيامًا قلائل حتّى فوّضوا إلينا هذا العاجز ومحمَّد باشا الشريعي وكامل باشا جلال وعدّة أشخاص آخرين من مستخدمي الهلال الأحمر توزيع الإعانات على هؤلاء المهاجرين على معدّل ثلاثة ريالات مجيدية للنسمة، فطلبنا من أمانة البلدة جداول أسمائهم جميعًا وأخذوا بتنظيمها لنا، فكنّا نذهب بأنفسنا إلى جامع جامع ومعنا البوليس يدعو كلّ رئيس عائلة بأسمه ليأتي أمام اللجنة مع جميع أفراد عائلته، فننظر في الجدول الذي في أيدينا ونسأله عن اسمه وأسماء أفراد عائلته فإذا طابق ما في الجدول أدّينا له ما يستحقّه، فكان صاحب العائلة يقبض عشرين ريالاً، أو ثلاثين ريالاً، أو أربعين ريالاً بحسب عدد عائلته. وهكذا حصل لهؤلاء المهاجرين من الفرج ما لا يوصف في زمن كانت الدولة في شغل شاغل عنهم بسبب الحرب وإعداد لوازم الجيوش.

وقد بقينا أكثر من شهر نوزّع هذه الإعانات عليهم حتّى أخذ كلٌّ من المائة والخمسين ألف نسمة نصيبه، وأرسلنا لجنة إلى غاليبولي فدفعت مثل ذلك من الإعانات إلى المهاجرين الذين اجتمعوا فيها، وجميع هؤلاء المهاجرين عبروا إلى الأناضول وسلموا من الإهانات والاعتداءات، لا بل من الفظائع التي حلّت بالذين تخلّفوا من المسلمين في بلاد البلقان، وهي وصمة عار على البلقانيين لا يمحوها الدهر فقد ارتكبوا من الفظائع والفجائع بحقّ مسلمي الروملّي المساكين بعد انهزام العساكر العثمانية ما لو ارتكب المسلمون بحقّ المسيحيين عُشر معشارِهِ لقامت أوربا وقعدت وملأ صراخها الآفاق، وملأت أساطيلها مرافئ الشرق، وتوالت احتجاجاتها في العشيّ والإشراق، ولكن هذه الدول التي تدّعي المحافظة على حقوق الإنسانية وتزعم أنها تعلّم الناس قواعد المدنية؛ عرفت بجميع فظائع البلقانيين بحقّ المسلمين وما أتت بأدنى حركة.

ولي في ذلك الوقت برقيّة شديدة إلى السر إدورد غراي، ناظر الخارجية الإنكليزية، أبيّن له فيها دهشة العالم من وقوفهم بدون أدنى اكتراث لِما هو واقع على مسلمي الروملّي الوادعين في بيوتهم من اعتداءات الدول البلقانية، على حين أنهم كانوا يقيمون القيامة لو كان الاعتداء واقعًا من المسلمين على البلقانيين. وبعد إرسال البرقيّة طلب كامل باشا، الصدر الأعظم، صورتها وأُعجب بها، وجرى حديث بيني وبين ڤيسموريس مستشار السفارة الإنكليزية في الأستانة في هذا الموضوع فلم يقدر أن يعترض بكلمة واحدة، وغاية ما قدر أن يقول لي إنَّ السربيين كانوا أقلّ أذى للأهالي المسلمين من غيرهم.

ولمّا سقطت سلانيك في أيدي البلقانيين كان قد اجتمع فيها جميع المسلمين الذين في جوارها، والذين فرّوا من وجه جيوش الأعداء فدخل اليونان والبلغار إلى سلانيك وفيها مائة وخمسون ألف نسمة من المسلمين اللاجئين إليها، فضلاً عن المسلمين الذين هم من أهلها، وقد ضبط الأعداء جميع الأقوات والأرزاق التي في البلدة لأجل جيوشهم، فصار المسلمون على شفا الهلاك جوعًا، وحرص اليونان والبلغار على قطع أخبار سلانيك عن العالم حتّى لا يعلم أحد ماذا يجري فيها، وهذا قد كان من أسوأ أعمالهم، وكأنهم أرادوا أن يمحوا هؤلاء المسلمين الذين اجتمعوا هناك بواسطة الإجاعة فلم يجدوا وسيلة أحسن من قطع أخبار سلانيك عن العالم حتّى لا يعرف المسلمون ماذا جرى، ولا يرد منهم أدنى مدد إلى مسلمي سلانيك، ولكن أبى الله إلاّ أن يُغاثوا فجاء رئيس أطبّاء الجيش العثماني في سلانيك إلى الأستانة واسمه سلامى باشا وكان خروجه من سلانيك بمجرّد دخول العدوّ، فلم يطأ أرض الأستانة حتّى اجتمعنا به ومنه أخذنا الخبر عن سقوط تلك البلدة، لأنَّ البلقانيين كانوا قطعوا الأسلاك التلغرافية، فكان لم يمضِ على سقوطها غير ثلاثة أيام. وهو الذي أخبرنا بأنَّ في سلانيك مائتَي ألف مسلم بالأقلّ إذا مضى عليهم عشرة أيام، ولم تأتهم أقوات يموتون كلّهم جوعًا. فسرعان ما حرّكت قلمي بالإبراق إلى مصر سواء إلى الأمير عمر طوسون أو إلى الهلال الأحمر، وحيّى الله لجنة الإعانة المصرية والهلال الأحمر المصري، فإنَّه ما مضى أسبوع حتّى كانت البواخر دخلت مرفأ سلانيك ملأى بالأقوات والأرزاق والأكسية وجميع اللوازم الضرورية، ومعها الرجال الموكَّلون بها، فأغاثوا المسلمين وأنتاشوهم من خطر الهلاك جوعًا، وكذلك سمعت أنَّ الخدوي السابق أرسل بواخر إلى مرسى «قَوَلَة» موقرة أرزاقًا لأنَّ قولة هي موطن محمَّد علي باشا، جدّ العائلة المالكة في مصر. وكان اجتمع إليها أيضًا عشرات ألوف من المسلمين الفارّين من وجه البلقانيين.

وخلاصة القول أنَّ المقام الذي قامه أهل مصر، أبقاهم الله ركنًا للإسلام، من إغاثة مسلمي البلقان في الحرب البلقانية يبقى لهم مأثرة خالدة لا تبليها الأيام في تاريخ الإسلام.

ونعود إلى وقائع الحرب فنقول: إنَّ الحكومة العثمانية بعد أن تولّى الوزارة محمود شوكت باشا كانت ترغب في الصلح، ولكنّها لم تكن ترضاه على أيّ الوجوه، وكان رجال الاتّحاد والترقّي يريدون استمرار الحرب على أمل الكرّة على البلغار وأخذ الثأر منهم، لأنهم كانوا جميعًا يعتقدون أنَّ الهزيمة التي انهزمها الجيش العثماني في الحرب البلقانية كانت حادثة على خلاف القياس. ولكن الدول بدأت تضغط على الدولة في أمر الصلح وفي ٣١ مارس سنة ١٩١٣ أرسلت الدول مذكّرة إلى الباب العالي تلحّ في عقد الصلح ولكنّها تصرّح بأنها لا تدعو الدولة إلى دفع غرامة حربية؛ أمّا الخطّ الفاصل بين الأملاك العثمانية والمملكة البلغارية فكان خطًّا ممتدًّا من البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل يقال له خطّ "ميديا- أنوس" وهو في الواقع خطّ لا يبعد كثيرًا عن شطلجة؛ وكان مؤتمر الدول في لندرة قرّر إرسال لجنة عسكرية لتحديد الخطّ المذكور بالفعل على قدر ما تسمح حالة الأراضي من تقويمه. وأمّا ألبانيا فقرّر المؤتمر سلخها عن تركيا، وجعلها مملكة مستقلّة، وكذلك جزائر بحر الأرخبيل كان المؤتمر يريد أن يجعل لها نظامًا خاصًّا، ما عدا كريت فكانوا قرّروا إلحاقها ببلاد اليونان.

وكلّ ما جرى على الدولة من المصائب لم يضع حدًّا للشقاق في الأستانة، فقتل ناظم باشا، ناظر الحربية، بأيدي الاتّحاديين أثار غضب أضدّادهم حزب الائتلاف والحرّية فصاروا يكيدون في الخفاء للانتقام وإسقاط الوزارة الاتّحادية، وبلغ الخبر الاتّحاديين فأهملوا الاحتياط اللازم، وقيل لمحمود شوكت باشا: إنَّ أناسًا يأتمرون بك ليقتلوك فهزّ أكتافه لا لكونه لم يصدّق الخبر، بل لأنه لم يبال بِالحياة، وكان متوكّلاً معتقدًا قوله تعالى ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ وهكذا تمَّ لحزب الائتلاف والحرّية ما أرادوا من الكيد، وكان المتآمرون محيي الدين بك، مدير الأمن العامّ في وزارة كامل باشا، ورشيد بك، ناظر الداخلية السابق، وصالح خير الدين باشا، ابن خير الدين باشا التونسي الذي كان صدرًا أعظم، وكان صالح باشا، من أصهار العائلة السلطانية، وكان في هذه المؤامرة أيضًا صباح الدين بك، ابن أخت السلطان، فانتدبوا بعض الأشقياء وبعض الجناة من أصحاب السوابق في القتل ورشوهم، وكانوا يعتقدون أنه بمجرّد قتل محمود شوكت باشا يستولون هم على الحكم حالاً ويقتلون رفاقه مثل أنور وطلعت وجمال وغيرهم، فذهبت هذه العصابة وترصّدت محمود شوكت باشا عند مروره بسيّارته من

ساحة بايزيد آتيًا من نظارة الحربية إلى الباب العالي وكان ذلك في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ نحو الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر، فقتلوه وهو في سيّارته، وقتلوا معه ياوره ابراهيم بك.

وأمّا الياور الآخر أشرف بك فأمكنه الخلاص وذهب مستنجدًا بالبوليس. فنُقل محمود شوكت باشا إلى نظارة الحربية حيث مات بعد عشرين دقيقة من الواقعة لأنه كان خرق جسمه خمس رصاصات. فكان بين قتل ناظم باشا وقتل محمود شوكت باشا أقلّ من ستّة أشهر بخمسة أيام، وأفظع شيء في قتل محمود شوكت باشا أنَّ اثنين من الذين تآمروا بقتله كانا سيُقتلان بعد واقعة الثورة على الدستور ومجيء جيش الحرّية من سلانيك إلى الأستانة، فعفا عنهما محمود شوكت باشا، القائد يومئذٍ، وأنقذهما من القتل، وعفا عن مجرمين سياسيين كثيرين برغم جمعيّة الاتّحاد والترقّي التي كانت تريد الاقتصاص منهم، فكان أنَّ الذين عفا عنهم محمود شوكت باشا هم أنفسهم المتآمرين على قتله. ولكنّهم لم يبلغوا هذه المرّة أمنيتهم، فما أغمض محمود شوكت باشا عينه حتّى تولّى الحكم الأمير سعيد حليم باشا مكانه، وهو ابن الأمير حليم باشا المصري، ابن محمَّد علي باشا، والي مصر، وكان الأمير حليم باشا يسكن الأستانة وأولاده نشأوا فيها، وانضمّ كبيرهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس إلى جمعيّة الاتّحاد والترقّي، وكانا من أماثل الرجال، وكان الأمير سعيد واسع العلم، ثابت الجنان عظيم الحميّة، وفي أيام صدارته استرجعت الدولة نشاطها، وزال ما كان طرأ عليها من الوهل، وتعيّن طلعت بك ناظرًا للداخلية، وكان هو روح الاتّحاد والترقّي، وهو أجرأ الاتّحاديين وأشدّهم إقدامًا، وأسرعهم فهمًا، وأمضاهم في الأمور، وقد جمع إلى الذكاء والحزم عفّة النفس، فإنّه كان مأمورًا في التلغراف من الدرجة الثانية، فلمّا صار الانقلاب كان هو من أشدّ الاتّحاديين مضاء، وأعظمهم أثرًا بالجمعيّة، فصار ناظرًا للتلغراف، ثمَّ صار ناضرًا للداخلية، وفي الحرب العامّة تولّى الصدارة وبقي فيها إلى نهاية الحرب. ودخل في الحكومة فقيرًا وخرج منها فقيرًا، وكان يقول: ألا يكفي أنَّ الأمّة تحمّلت جهلي، أفأجعلها تتحمّل انحطاط أخلاقي. كان يتكلّم عن جهله لأنه لم يكن من العلماء، أو ممَّن لهم تحصيل للعلم كافٍ، ولكن كان ذكاؤه الفطري أعجوبة، وكانت جرأته خارقة للعادة، فصار سيِّد الاتّحاد والترقّي بدون منازع. وكانت نهايته في برلين قتيلاً بيد أرمني أرسلته جمعيّات الأرمن لاغتياله وكنّا في ذلك الوقت في برلين، وكنت بالمذاكرة معه أسّست ناديًا يجمع جميع الشرقيين وانتُخبت رئيسًا له باتّفاق الكلمة، فاحتفلنا له باسم النادي الشرقي بمأتم عظيم، وأبقينا تجاليده في مكان خاصّ بالجبّانة الإسلامية في برلين.

وكانت الجبّانة قد ضاقت جدًّا ولم يبقَ فيها مكان للدفن، فراجعت الحكومة الألمانية فسمحت لنا بألف وخمسمائة متر مربّع أضفناها إليها، وأدرنا حولها جدارًا وبنينا فيها مسجدًا صغيرًا لإيواء المصلّين على الجنائز في أيام المطر والثلج، وأنشأنا بجانبه منزلاً لأجل حارس الجبّانة، فجعلنا جثّة المرحوم طلعت باشا في غرفة من ذلك المحلّ، وجرى تحنيطها حتّى يتيسّر نقلها إلى الأستانة ودفنها هناك. فلمّا استقلّت تركيا وجاءت الحكومة الكمالية الأنقرية لم تسمح بدفن طلعت في تركيا. فكان من الغرائب أنَّ أعظم الأتراك حمية على وطنه لم يمكن دفنه فيه، وما أبت الحكومة الكمالية دفن طلعت في الأستانة إلاّ خوفًا من أن يكون له مأتم تقوم له تركيا وتقعد وتتجدّد فيها قوّة الاتّحاد والترقّي. فسبحان الله الذي جعل طلعت ممَّن يخافه الناس في حياته وبعد مماته! وكان مع هذا من ألطف الناس خلقًا، وأحلاهم عشرة، وأودعهم نفسًا. وأيام كنّا في برلين سنة ١٩٢٠ كنّا نجتمع كلّ يوم تقريبًا، وقد ترجمته في حواشي "حاضر العالم الإسلامي" ترجمة وافية.

هذا ودخل في الوزارة أحمد عزّت باشا الأرناؤوطي ناظرًا للداخلية وقائدًا للجيش، وعثمان نظامي باشا للأشغال النافعة، وبقي أكثر النظّار الآخرين في مناصبهم وبدأت الوزارة بمحاكمة الذين قتلوا محمود شوكت باشا، والذين دخلوا في مؤامرة قتله فحكموا على ٢٤ شخصًا منهم بالقتل، منهم مَن كانوا فرّوا من الوجه مثل صباح الدين بك، ابن أخت السلطان، ورشيد بك، ناظر الداخلية السابق، واسماعيل بك، مبعوث كوملجنة، ومنهم مَن وقع في اليد مثل صالح باشا خير الدين، صهر العائلة السلطانية وجماعة يبلغون عشرة أشخاص فشنقوهم وصلبوهم في ساحة بايزيد.

وقد اجتمعت سنة ١٩٣٦ باسماعيل بك، مبعوث كوملجنة في جنيف، وروى لي كيفيّة فراره في تلك الحادثة وتخلّصه من أيدي الاتّحاديين.

ثمَّ إنَّ الدول البلقانية اختلفن بعضهنَّ مع بعض فالحكومة البلغارية تنازعت مع الحكومة السربية والحكومة اليونانية، على اقتسام الأسلاب التي أخذوها من تركيا في الروملّي، ووصل الأمر بينهنَّ إلى القتال. وكانت رومانيا أرادت أن تستفيد من قتال هؤلاء الحلفاء، فطلبت تعديل حدود "الدبروجة" بينها وبين بلغاريا فوقع الخلاف بين رومانيا وبلغاريا فرأت تركيا الفرصة سانحة لاسترداد ولاية أدرنة، وفي ٦ يوليو أرسلت تركيا بواسطة عثمان نظامي باشا إلى الحكومة البلغارية إنذارًا بوجوب تخليتها الأراضي التي كان

البلغار قد احتلّوها، وكانت الوقائع الحربية قد انتهت من شهر أبريل بموجب متاركة بين البلغار والعثمانيين، ولكن بقيت الجيوش البلغارية محتلّة جميع ولاية تراقية التي يفصلها عن تركيا خطّ أنوس ـ ميديه الذي قرّره المؤتمر الدولي بين الفريقين، فأرسلت الحكومة البلغارية المسيو «نتشيڤيتش»، معتمد بلغاريا سابقًا في الأستانة، لأجل الاتّفاق مع تركيا لا سيّما أنه كان من أنصار التقرّب بين تركيا وبلغاريا، فرضيَ نتشيڤيتش بتغيير خطّ أنوس ـ ميديه الذي كان الأتراك غير راضين به، وجعل الفاصل خطًّا مارًّا بقصبة شورلو، ولكن الأتراك طلبوا أن بلغاريا تقبل النصيب المفروض عليها من الدين العثماني على نسبة ما أخذته من أملاك تركيا، وتقبل أيضًا بإعطاء تأمينات متعلّقة بحقوق المسلمين الذين في المملكة البلغارية والبلاد التي استولت عليها هذه المرّة، وتتعهّد بعدم تقاضي تضمينات حربية فلم يقدر نتشيڤيتش أن يتعهّد صريحًا بقبول هذه المطالب، فزحف الجيش العثماني بقيادة أحمد عزّت باشا من جهتين؛ شطر منه سار من جهة رودوستو والآخر من جهة شورلو وفي ٢٢ تمّوز وصل المتطوّعون وخيّالة العرب والأكراد إلى أدرنة تحت قيادة أنور باشا.

وأمّا البلغار فلمّا وجدوا الجيش العثماني زحف عليهم نكصوا بدون قتال ولم يباشروا إلاّ مدافعات جزئية قُتل فيها صاحبنا رشيد بك، ابن المشير فؤاد باشا، كنّا معًا في حرب طرابلس ولم تكن من البلغار مقاومة إلاّ بعد أن وصلوا إلى حدود بلغاريا الأصلية ولكنّهم لم يقدروا على مقاومة تُذكر، ولو شاء العثمانيون يومئذٍ أن يتوغّلوا في نفس بلغاريا الأصلية لأمكنهم ذلك، لكنّهم كانوا يخشون اعتراض الدول، فأرسل الباب العالي إلى الدول مذكّرة يقول فيها إنَّ الدولة أبلغت بلغاربا بوجوب سحب عساكرها من الأراضي التي احتلّتها جنودها، وذلك لأجل وضع حدود تتمكّن بها تركيا من المحافظة على الأستانة وعلى الدردنيل. وهذه الحدود غير ممكنة إلاّ باتّباع مجرى نهر المريج، بحيث كلّ ما هو جنوبي هذا النهر يبقى لتركيا.

فلمّا لم يجب البلغار طلب تركيا اضطرّت الدولة إلى احتلال هذه الأراضي تاركة تعيين الحدود الموافقة للمذاكرات السياسية، فغضبت الدول من أجل إخلال تركيا بقرار مؤتمر لندرة الذي عيّن خطّ أنوس ـ ميديه فاصلاً بين تركيا وبلغاريا، وأرسلت إلى الدولة تنذرها بأنها إن لم تسحب عساكرها من أدرنة فإنَّها تتّخذ جميع التدابير اللازمة لأجل تثبيت قرار المؤتمر، فهذا الجواب لم يَرُعْ تركيا وقتئذٍ، وذلك لأنَّ الأتراك كانوا يرون الدول

متمسّكات بالقرار الذي يصدرنه في مصلحة أعداء تركيا، ويقلن لا يجوز تبديل هذا القرار بوجه من الوجوه، بخلاف ما لو كان القرار في مصلحة تركيا فإنَّه يتبدّل حالاً. وقبل الحرب البلقانية أبلغت الدول الفريقين بأنَّ هذه الحرب يكون الغالب والمغلوب فيها سواء، وتبقى الحدود مكانها. فلمّا تغلّب البلقانيون على الأتراك نسيت الدول بلاغها هذا كما تقدّم الكلام عليه، فلهذا لم يكن لإنذار الدول هذه المرّة موقع خوف في قلوب الأتراك، وأبرق عزّت باشا، قائد الجيش، من أدرنة يقول: إنَّ الجيش لا يمكن أن يتخلّى عن أدرنة.

وكان بالفعل لو ضغطت أوربا على تركيا، والحكومة ضغطت على الجيش والأهلين، لجرت ثورة دموية، فأجابت تركيا الدول بأنَّ مذكّرتها إلى الباب العالي تشير إلى أنَّ الدول حاضرة للمذاكرة مع تركيا في الشروط اللازمة لتأمين حدودها والحال أنَّ خطّ أنوس ـ ميديه لا يتأمّن به شيء، وأنَّ تركيا إنَّما احتلّت البلاد التي كان احتلّها البلغار محافظة على حياة الأهالي الذين كانوا صائرين لا محالة إلى الانقراض، فتركيا ترجو من الدول إعادة النظر في قضيّة الحدود. فلمّا وصلت هذه المذكّرة إلى الدول خطب السر إدورد غراي خطبة فيها شيء من التهديد لتركيا إذا أصرّت على استرداد أدرنة. وأمّا الروسيا فأشارت بمنع كلّ معاملة مالية بين أوربا وتركيا؛ ولكن كلّ هذا لم يرعب الترك، لأنَّ قضيّة أدرنة هي لهم قضيّة حيوية، فأدرنة مفتاح الأستانة كما لا يخفى، وفي ولاية أدرنة مئات ألوف من المسلمين كانوا سينقرضون أو سيرحلون بأجمعهم لو بقي البلغار هناك، لَما كان عند البلغار من الوجد لاستئصال الإسلام من تلك البقعة. فالأتراك كانوا مصمّمين على عدم الرجوع عن أدرنة وتهدّدوا البلغار بإعلان الحرب عليهم إذا لبثوا يطالبون بأدرنة، فخاف البلغار من أن ينهزموا ويفقدوا ثمرات طوائلهم في أول الحرب فجنحوا إلى السلم، والتمسوا من تركيا المذاكرة رأسًا. وكان مسلمو تراقية الغربية قد ثاروا وأسّسوا حكومة مستقلّة لأنفسهم مركزها كوملجنة ففي ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ تقرّرت شروط الصلح بين الفريقين واستعادت تركيا بموجب هذا الصلح أدرنة، وقرق كَلِسيه، وديموطقة، وأعيدت الحدود الأصلية التي كانت بين تركيا وبلغاريا قبل الحرب البلقانية، سوى بعض قرى إلى جهة البحر الأسود أكثر سكّانها من البلغار، فهذه سمحت بها تركيا لبلغاريا.

وكذلك خسرت بلغاريا الخطّ الحديدي من أدرنة إلى دده آغاج البلدة التي على ساحل بحر الأرخبيل، وكان البلغار سيجعلونها منفذًا لهم إلى البحر المتوسّط، وكذلك تقرّر بين الدولتين أن يضرب أمد لسكّان مكدونية وتراقية أربع سنوات ليختاروا التابعية العثمانية أو

التابعية البلغارية، فإذا مضت السنوات الأربع ولم يختاروا التابعية العثمانية يصيرون رعايا بلغاريا، وإلاّ فيبقون كأجانب مرجعهم الدولة العثمانية. وإذا كان في هذه البلدان يسكن عثمانيون من ولايات أخرى تابعة لتركيا فيبقون على تابعيّتهم العثمانية، ثمَّ حصلت مذاكرات في قضيّة الأوقاف الإسلامية، وتقرّر أن تكون إدارتها بأيدي الجماعات الإسلامية وفقًا للاتّفاق التركي البلغاري المنعقد سنة ١٩٠٩ بحقّ الأوقاف الإسلامية في بلغاريا القديمة فاشترطت تركيا أن تكون الأوقاف الإسلامية في الأراضي الملحقة جديدًا ببلغاريا تحت إشراف شيخ الإسلام في الأستانة، بخلاف الأوقاف في بلغاريا القديمة التي كان للحكومة البلغارية حقّ الإشراف عليها. ثمَّ تقرّر أن يكون مسلمو البلغار تابعين للشرع الشريف في أحوالهم الشخصية، فيحكم بينهم فيها قضاتهم كما في تركيا؛ ويكون للمسلمين في بلغاريا مفتون تنتخبهم الجماعات الإسلامية بتمام الحرّية؛ ويجري تصديق انتخابهم بمعرفة شيخ الإسلام في تركيا، وتقرّر أن تكون المدارس والمكاتب الإسلامية في بلغاريا معدودة من مؤسّسات الحكومة البلغارية التي يجب أن تنفق عليها.

واستغرب الناس تساهل بلغاريا هذا مع تركيا، وقد كانت هي الظافرة في الحرب البلقانية، والحقيقة أنَّ قوّاد الجيش البلغاري وجدوا أنفسهم لو أصرّوا على العناد لكرّ الترك عليهم، وكانوا من بعد غلبهم سيُغْلبون، لأنَّ الجيش التركي في المدّة الأخيرة كان غير الجيش التركي في أول الحرب، ثمَّ إنَّ البلغار كانوا اقتتلوا مع السرب من أجل «مَنَستر» التي كان البلغار والسرب يتنازعون عليها. وكذلك كانوا اقتتلوا مع اليونان من أجل مكدونية فصارت بلغاريا مضطرّة بحكم الضرورة أن تسالم تركيا. وانعقدت معاهدة الصلح النهائي بين تركيا وبلغاريا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٣ واتّفقت الدولتان على عدم اعتبار المعاهدة السابقة المنعقدة في لندرة في كلّ الموادّ المخالفة فيها للمعاهدة الأخيرة.

ثمَّ جرت المذاكرات بين تركيا واليونان لأجل الصلح، ولم تصل الدولتان إلى وفاق، أولاً لأنَّ اليونان طلبوا التمتّع بالامتيازات الأجنبية التي كانت الدولة حرمت اليونان إيّاها عندما كسرتهم سنة ١٨٩٧ فتركيا أبت إرجاع الامتيازات وقالت: إنَّ الدول العظام أنفسها أصبحت مستعدّة لإلغاء هذه الامتيازات، ثمَّ إنَّ تركيا طلبت الحرّية التامّة في اليونان لشعائر الدين الإسلامي، وأن تكون إدارة الأوقاف الإسلامية في بلاد اليونان تحت مراقبة شيخ الإسلام، وتكون قُضاة المسلمين هي الحاكمة في الأحوال الشخصية، فطلب اليونان بمقابلة

ذلك أن تعاد إلى بطريرك الروم في الأستانة الامتيازات الدينية القديمة التي كان منحها السلطان محمَّد الفاتح، فأجابت تركيا بأنَّ لا مدخل لدولة أجنبية في أمور داخلية في تركيا.

ثمَّ اختلفوا في قضيّة الأوقاف لأنَّ اليونان رضوا بالاعتراف بالأوقاف العائدة إلى المساجد رأسًا، فأمّا الأوقاف التي يقال لها وقف ذرّية فادّعت دولة اليونان أنها تحلّ فيها محلّ الدولة العثمانية، واختلفوا أيضًا في قضيّة الخدمة العسكرية، فاقترحت اليونان إعفاء الأروام الذين في تركيا من الخدمة العسكرية على أن تعفي اليونان المسلمين الذين في بلادها من الخدمة نفسها، فرفض الباب العالي ذلك، فاقترحت اليونان وجهًا آخر وهو أن يكون للأروام في تركيا توابير مخصوصة لا يدخلون فيها مع سائر العسكر وأنَّ اليونان بمقابلة ذلك تجعل لمسلمي بلادها توابير خاصّة ولا تجبرهم على نزع الطربوش، فرفض الباب العالي هذا أيضًا. وطلبت اليونان العفو العامّ عن الأروام العثمانيين الذين ساعدوا اليونان، فأجابت تركيا هذا الطلب. ثمَّ طلبت اليونان ثلاثة ملايين جنيه عثماني تعويضًا لها عن ضبط مائة سفينة يونانية قبضت عليها تركيا في أول الحرب فأبى الباب العالي دفع شيء، وانقطعت المفاوضات مدّة. ثمَّ استؤنفت بميل الفريقين إلى الصلح، وانعقدت المعاهدة في ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٣ وفازت تركيا بتأييد كلمتها في قضيّة الامتيازات، وفي قضيّة الأملاك السلطانية، وكذلك فازت في معاملة الجماعات الإسلامية في أحوالهم الشخصية بموجب الشرع الشريف، كما جرى الاتّفاق مع البلغار. ولكن لم يمكن تركيا أن تنال من اليونان حقّ إشراف شيخ الإسلام على الأوقاف الإسلامية في اليونان، بل طلبت اليونان أن تكون إدارة هذه الأوقاف بأيدي مسلمي بلاد اليونان وهكذا تمَّ. وبقيت مسألة الجزر معلّقة وكانت الدول تريد إلحاق جميع الجزر باليونان عدا "تَنَدُس" و"إمبروس" و"كستيلوريزو" وذلك لقربها الشديد من السواحل العثمانية.

وبينما الدول تفكّر في فضّ الخلاف بين تركيا واليونان إذ وقعت الواقعة الكبرى وهي الحرب الكبرى فتوقّف كلّ شيء منذ سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٣ أي مدّة تسع سنوات في خلالها جرت الحرب العامّة ثمَّ تبعتها حرب أخرى بين تركيا واليونان التي سلّمتها إنكلترة قسمًا من بلاد الأناضول، فاستمرّت الحرب بين الأتراك والأروام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٢ وانتهت بانهزام اليونان، فعند ذلك انعقد بين الدول وتركيا مؤتمر لوزان، وتقرّر الصلح، وبموجبه أُلحقت جميع الجزائر في الأرخبيل إلى اليونان، إلاّ الجزر التي أمام الدردنيل مثل لمنى وتندس، ولكن تقرّرت أيضًا مبادلة الأراضي والسكّان، فجميع المسليمن

الذين في بلاد اليونان جاءوا إلى تركيا كما أنَّ جميع الأروام الذين في تركيا أُخرجوا إلى بلاد اليونان وأخذت تركيا أملاك اليونان فيها، وبمقابلة ذلك أخذت اليونان أملاك المسلمين فيها. واستلحقت إيطاليا رودوس والجزر العشر التي حولها. ولم يبقَ في مملكة اليونان سوى مسلمي تراقية الغربية، فقد جرى استثناؤهم من المهاجرة، ولم يبقَ من الأروام في تركيا غير الأروام الذين في القسطنطينية، إذ إنَّ الدول في لوزان جعلن هؤلاء في مقابلة هؤلاء.

وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامّة وذيولها، ونحن أحببنا الوقوف في تاريخ الدولة العثمانية عند هذا الحدّ، لأننا لو دخلنا في موضوع الحرب العامّة لطال بنا الموضوع جدًّا. ولمّا كنّا نريد أن نفرد الحرب العامّة وذيولها إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ بتأليف خاصّ ـ إن شاء الله ـ لم نجد لزومًا للدخول في هذا التاريخ بموضوع أكبر حرب عرفها العالم ممّا يجب أن يفرد بتأليف على حدة.

وربّما يؤخذ علينا في هذا الكتاب كوننا تكلّمنا عن نفسنا في بعض وقائع شهدناها بأعيننا، وربّما عدَّ ذلك بعضهم من قبيل تزكية المرء نفسه، والله يعلم أننا من أبعد الناس عن هذا الأمر ﴿بل الله يزكّي مَن يشاء﴾ وإنَّما قصدنا بذلك زيادة توثيق الوقائع التي نرويها بذكر ما شهدناه منها عيانًا، إذ هناك فرق كبير بين السماع والعيان، وكثيرًا ما روى المؤرّخون أخبارًا لم يكن لها أصل، أو كان لها أصل ضعيف، وذلك بسبب تلقّفهم هذه الأخبار من أفواه الناس، أو نقلهم لروايات غير ممحّصة. فأنا إذا رويت ما شهدته بعيني، وما سمعته بأذني؛ فإنَّما يكون مقصدي في ذلك زيادة التحرّي والانتهاء إلى أقصى درجات التوثيق "وما راء كمَن سمعا" وهكذا تظهر الوقائع بشكل بارز، حتّى كأنَّ الإنسان يراها بالعيان (...)[1] لم يسبق إليه المؤرّخون، والله تعالى وحده من وراء السداد.

(١) سقطت بعض الكلمات من المصدر الأساس قسرًا. [المحقّق]

فهرس مواضيع
تعليقات الأمير شكيب أرسلان
على الجزء الأول من كتاب تاريخ ابن خلدون

ـ ص ص.(٩٧ـ١٨٠) الترك. أصل الأتراك القديم. غزوات بني أميّة لبلاد الترك. نشر الإسلام في بلاد الترك. الأتراك في الدولة العباسية. أصل الترك العثمانيين. دولة بني عثمان. نشأة عثمان مؤسّسها. السلطان أورخان بن عثمان. تأسيس جيش الانكشارية في أيامه. فتوحات أورخان. مَن نبغ في زمانه من العلماء السلطان مراد بن أورخان. حروبه مع البلقانيين. قتله. مَن نبغ في أيامه السلطان بايزيد. محاربته تيمور لنك. أسرهز موته. مَن نبغ في أيامه السلطان محمَّد الأول. مَن نبغ في أيامه السلطان مراد الثاني. حروبه. فتوحاته. السلطان محمَّد الثاني الفاتح. فتح القسطنطينية. قوانينه العادلة. مَن نبغ في أيامه. حصار العرب للقسطنطينية. شمايل محمَّد الفاتح. وفاته. السلطان بايزيد الثاني. حروبه. أول ظهور الروسيا. مَن نبغ في زمانه السلطان سليم الأول. حروبه. فتح مصر وقتل السلطان الغوري. فتوح الشام. نشاط سليم الأول. مَن نبغ في أيامه.

ـ ص ص.(١٨١ـ٢٠٧) السلطان سليمان القانوني. الفتن في أيامه. حروبه. فتوحاته. استيلاؤه على النمسا والمجر خير الدين بربروس. أمير الأساطيل الإسلامية. قوّة الدولة في زمنه. فتوحاته في أوربا وآسيا. مَن نبغ في أيامه.

ـ ص ص.(٢٠٧ـ٢٢٥) السلطان سليم الثاني. ثورة الانكشارية حروبه. الثورات في مدّته. وفاته. مَن نبغ في أيامه. السلطان مراد الثالث. مَن نبغ في أيامه. وفاته السلطان محمَّد الثالث. حروبه. حالة السلطنة في زمانه. مَن نبغ في أيامه السلطان أحمد الأول. ظهور التبغ في أيامه. مَن نبغ في أيامه. السلطان مصطفى، خلعه. السلطان عثمان الثاني، خلعه وقتله. السلطان مصطفى ثانيًا. خلعه. السلطان مراد الرابع. حروبه مع الإيرانيين. الثورات في زمنه. حزم السلطان مراد الرابع وشدّة بأسه. موته. السلطان ابراهيم. قتله. السلطان محمَّد الرابع. حروبه. الثورات في زمنه. حروبه مع فرانسا. حروبه مع النمسا والمجر. خلعه.

ـ ص ص.(٢٤٠ـ٢٥٨) السلطان سليمان الثاني. الحوادث في أيامه. موته. السلطان أحمد الثاني. السلطان مصطفى الثاني. حزمه. وعزمه. حروبه. خلعه. السلطان أحمد الثالث. الحوادث في أيامه. دخول المطبعة في زمنه إلى القسطنطينية. السلطان محمود الأول. حروبه. السلطان عثمان الثالث. موته. السلطان مصطفى الثالث. حروبه. السلطان عبد الحميد الأول. حروبه. السلطان سليم الثالث. حروبه. الفتن في أيامه.

ـ ص ص.(٢٥٩ـ٢٨٦) محمَّد علي باشا. رأس العائلة الخديوية. السلطان مصطفى

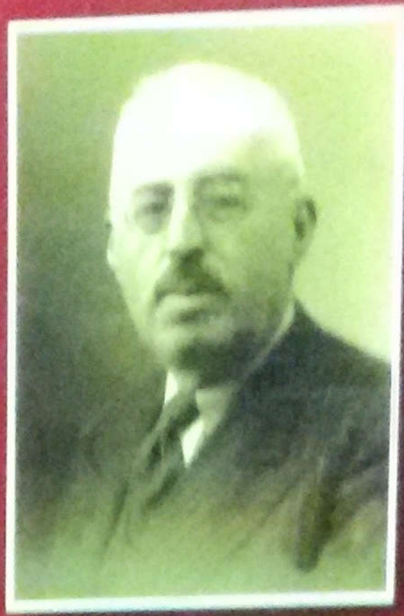
الرابع. الحوادث في أيامه. السلطان محمود الثاني. حروبه. الثورات في مدّته. حروب ابراهيم باشا بن محمَّد علي باشا مع الأروام وفتح الموره. السلطان عبد المجيد. الفتن في زمنه. السلطان عبد العزيز. إصلاحاته. خلعه. السلطان مراد الخامس. جنونه. خلعه.

ـ ص ص.(٢٨٦ـ٣٦٤) السلطان عبد الحميد الثاني. السلطنة في زمنه. ثورات الأرمن. جمعيّة الاتّحاد والترقّي. إرجاع الدستور العثماني. خلع السلطان عبد الحميد. السلطان محمَّد الخامس. ثورة الأرناؤوط. انسلاخ طرابلس وحروب إيطاليا. ضعف الدولة في أيامه. الحرب العامّة. حوادث مسلسلة.

* * *

فهرست المحتويات

***



١٨٦٩ ـ ١٩٤٦

"التاريخ في نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها. وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران، وكان ابن خلدون يرى العمران في زمانه قد أجحف به النقصان، وأكدى كما أرى فيذهب إلى أنَّ المدنيّات قد أشرقت شموسها على العالم من مشارق متعدّدة، ولكنّه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور المعالم.

فهو يقول: إنَّ العلوم التي وصلت إلينا هي أقل من العلوم التي لم تصل إلينا؛ فأين علوم الفرس، والكلدانيين، والبابليين، والأشوريين، والأقباط القدماء، فإنّها كلّها قد ذهبت. ولم يبقَ من العلوم التي وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التي انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون في ترجمتها وإنفاقه الأموال الطائلة عليها".

شكيب أرسلان